

الموسوعة الشامية في تاريخ الجزء الفلسطيني

الروايات الاوربية

(الاغريقية واللاتينية)

(الحملة الثانية)

١ - رحلة لويس السابع الى الشرق

٢ - من تاريخ اعمال انجرت فيما وراء البحار

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

الجزء السابع

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة :

ننتقل الان بعد تقديم اهم النصوص التي نونت اخبار ما عرف باسم الحملة الصليبية الاولى الى تقديم اهم المتوفر من النصوص حول الحملة الثانية وهذا المتوفر ليس بغزارة ما توفر لنا عن الحملة الاولى ، انه نتاج اثنين من المؤرخين اللاتين ، رافق اولهما رحلة الحملة الثانية من الغرب ، وعاش ثانيهما عصر الحملة الثانية في الاراضي المقدسة .

وكانا قد كتبنا اصلا باللاتينية مثل نصوصنا الثلاثة المتقدمة حول الحملة الاولى ، وكتب اولهما من قبل الراهب اودو اوف بويل الذي كان بمثابة الراهب الخاص بالملك الفرنسي لويس السابع ، ولدى قراءتنا لنص الكتاب يمكننا التعرف الى شخصية هذا الراهب والى دوره الذي شغله اثناء الاعداد للحملة الثانية ، وخلال مرافقته ، ومواده وثائقية المعلومات عظيمة التفاه بيل ، لكن فيهما بعض الثغرات ، ولغة الراهب اودو التي دون بها اخباره تعدل في كثير من الجوانب بصعوبة التعامل معها ، لغة الاميرة انا كومينا ، وقد بذلت جهدي في النقل الامين الى العربية والتعليق والضبط .

ويمكن تدارك نواقص اخبار اودو وسد ثغرات كتابه بالاعتماد على ما كتبه وليم رئيس اساقفة صور في كتابه العساق « تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار » وقد ولد وليم - كما هو مرجح - في القدس سنة ١١٣٠ م من ابوين اوربيين نزحوا الى

الأراضي المقدسة في ركاب الصليبيين ، وقد عاش سني حياته الأولى في القدس ، وتعلم في مدارسها : اللاتينية والعربية واليونانية والعبرية والفارسية ، ودخل في خدمة الكنيسة وتلقى التدريب الكهنوتي وتدرج مترقيا فيما بعد في المناصب الكنسية كما سافر إلى فرنسا لمتابعة تحصيله وزار القسطنطينية ، وفي سنة ١١٦٣ رسم وليم قسا في كنيسة صور ، وبعدها تسلم بعض الوظائف في هذه الكنيسة ، وكان ملك مملكة القدس الصليبية آنذاك عموري الأول (ولد سنة ١١٣٥ ، وحكم مسابيين سنتي ١١٦٣ - ١١٧٤ م) وقد عاش هذا الملك نور الدين الشهيد وخطط للاستيلاء على مصر ، وحين شرع في تنفيذ مخططه رأى أن أخذ مصر لا يقل شأنا عن أخذ الصليبيين للقدس ، لذلك أراد أن يؤرخ لهذا الحدث الخطير ، فقرر توظيف مؤرخ خاص به يرافقه في حملته ، ووقع اختياره على وليم فعينه رئيسا لاساقفة صور وعهد إليه بوظيفة التاريخ ، وأدى هذا التكليف إلى قيام علاقات وثيقة بين وليم والإمام القدس ومشاكله السياسية وسواها .

وانتهت محاولة عموري في احتلال مصر وتوفي وخلفه ابنه بلدوين الرابع ، وكان صبيا في التاسعة من عمره وعهد إلى وليم القيام بتربية الملك الطفل ، وبعد أربع سنوات من التربية اكتشف وليم أن تلميذه مصاب بمرض الجذام ، وظل وليم يرافق الملك المريض حتى سنة وفاته في ١١٨٥ م ، وهي السنة التي توفي فيها وليم أيضا ، أي قبل حطين بحوالي العامين . وفي أيام بلدوين الرابع قام صراع شديد بين القوى الصليبية حول الوصاية على عرش القدس ، وقد تورط وليم الصوري فيه وشغل أحوارا هامة جدا ، وكان في هذه الأثناء قد توفي نور الدين وظهر صلاح الدين ، وبدأت خطته الكبرى تتضح معالمها وأهدافها .

وكان وليم أول ما كلف بوظيفة المؤرخ للملك عموري قد شرع سنة ١١٦٧ م في كتابة كتاب دعاه باسم « أعمال عموري » وأثناء عمله عدل في خطته بحيث أضاف مقدمات أرخت لتاريخ الفرنجة

قبله ، وبعد هذا ايضا عدل الخطة ثانية بان مد المقدمات بحيث جعلها تؤرخ للمسيحية وعلاقاتها بالاسلام ، وبعد وفاة عموري اضاف وليم الى هذا الكتاب معلومات عن الحوادث التي وقعت ، وغير اسم الكتاب بحيث اصبح يعرف باسم « تاريخ اعمال انجرت فيما وراء البحار » .

ان مواد هذا الكتاب تقسم الى قسمين : قسم استقى وليم معلوماته فيه من مصادر مختلفة بعضها عربي وجلها لاتيني حيث انه عمد الى جميع كتابات المؤرخين اللاتين الذين تقدموه وادخلها في كتابه ، واما معلومات القسم الثاني فقد عاصر وليم احداثها ، وقام برواية اخبارها عن شهود عيان ان لم يكن هو قد شارك فيها ، وبذلك يرقى بهذا القسم الى درجة الوثائقية ، انما من وجهة نظر خاصة .

ان تاريخ وليم الصوري بالرغم من مصادر المبكرة ، هو افضل ، لابل اكمل ، مصدر لاتيني ارخ للحروب الصليبية يجد فيه الباحث سريدا مسلسلا ، لكاتب قدير ، لاحداث هذه الحروب حتى قبيل حطين لذلك لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة ، وجرت محاولات لنشره وترجمته الى اللغات الاوربية الحية .

لقد عد وليم عن جدارة المؤسس للادب الغربي للتأريخ للحروب الصليبية ، ولهذا السبب قام الذين ارخو للاحداث بعد وليم بالتنزيل على كتابه الى حد قيل فيه ان كتاب المؤرخ الفرنسي الكبير غروسيه عن الحروب الصليبية ما هو الا كتاب وليم ونيوله بلغة فرنسية معاصرة .

وكننت قد نقلت كتاب وليم الى العربية ونشرته منذ مايزيد على العامين في بيروت ، وانتقيت هنا بعض نصوصه عن الحملة الثانية وليس جميع ما كتبه .

- ٢٩٦٧ -

وكان وليم قد صنف كتابا ارجح به للاسلام والمسلمين ، اعتمد فيه بشكل اساسي على تاريخ سعيد بن البطريق وعلى عدد من الكتب العربية كان الصليبيون قد نهبوا من مكتبة الفارس الشاعر المؤرخ اسامة بن منقذ اثناء عودته من مصر الى الشام مع محتويات مكتبات عربية اخرى ، ويعد هذا الكتاب بحكم المفقود .

وطبعا انها المرة الاولى التي تنقل فيها هذه النصوص الى العربية ، واملئ كبير في ان اقدم في المجلد المقبل الذيل الاول لتاريخ وليم الصوري مع دراسة اكايمية حول اشكاليات نيول هذا التاريخ .

والله الموفق ، ومنه استمد العون والرشاد والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٨ / ٤ / ١٩٩٣

سهيل زكار

كتاب

« رحلة لويس السابح إلى الشرق »

تأليف

أودو أوف دويل

- ٢٩٧٠ -

رسالة أودو

إلى

صاحب الغبطة الأب سوكر

الى سوكر ^(١) راعي كنيسة القديس بيذس ، أوف
بيويل .

لاحقر رهبانه ، يبعث بتحياته

يطيب لي ان ابين لك بعض الحقائق عن الصليبيين ، مع تطلعي إليك
كي تضفي عليها صفة الديمومة بالكتابة ، حيث لا يمكنني القيام
بذلك ، بسبب اذغالي في صعوبات الرحلة ، ويعيقني عن أداء ذلك
التعب ، والانتقاص للمهارة ، ومع ذلك يتعين علينا أحيانا أن نحاول
المستحيل ، لكي نحث مساعي رجائنا الاكفاء على القيام بالمهمة
التي نود تأديتها ، لكننا لاندقر على ذلك ، ثم بما أنني نعمت بفضل
الملك لويس الواسع الشهرة ^(٢) وكنت معه وعلى صلة وثيقة به
ابان الحملة الصليبية ، فأنني اتوق لكي اعرب له عن تمنياتي ، بيد
ان قواي واهنة ، لذا سادع هذه المهمة تناط بالقديس بيذس ، الذي
لمحبته تكرم الملك باغداق الفضاله ، ولحبتكم ايضاً ، لانكم رغيتم
راهبكم وتقبلتموه كقبولكم لانفسكم بالذات ، والاكثر من ذلك فإنك
انت مدين له بالكثير من جانبك ، لانه فضلك بشكل خاص في
مملكته ، وعند مغادرته لها لمدة من الزمن عهد لك بأمر تلك المملكة
^(٣) مدفوعاً بالحماس والغيرة في بسط الايمان ونشره ، وبذلك
إنما يحمي مصالحه الذاتية عندما وضع ثقته برجل أثبت ولاءه ،
وتعليه بالحكمة الفريدة من نوعها .

- ٢٩٧١ -

لقد كنت قد سجلت مناقب والده (هـ) ، وإنه لمن الجريمة بمكان أن
تخدع الفروع بمعرفة الابن الذي تعتبر حياته برمتها نموذجاً
للفضيلة ، لأنه عندما تربع على العرش ، ولم يكن قد صلب عوده
بعد ، لم يجلب له ذلك الشعور بالفخار ، بل زاد رغبته واندفاعه إلى
الفضائل .

وإذا ما بدأ أي كان بالحديث عن سيرته منذ زمن الرحلة إلى
القدس فقط ، فإنه سيقطع الجزء الأكبر من المثل النموذج الذي
وضعه الله للملوك ليحذو كل منهم حذوه في المستقبل ، حيث « أننا
نعجب باليوم الرابع والسادس لطهارة نيقولا والسلمات الأخرى
عندما كان طفلاً ، أكثر مما نعجب بقدسيته ككاهن ، أي بقدسيته
الرائعة كأسقف » (هـ)

ترى هل ستبدأ إذا بالكتابة عن حادثة سن الابن الذي تشرف
بالكتابة عنه ، طالما سبق لك وأذعت شهرة الأب في الأدب ، وطالما
أنك مدين لهما بالاحترام ، ابدأ بسيرته مذ كان طفلاً يافعاً ، حيث
بدأت فضائله تزدهر ، كما تعلم أنت ذلك جيداً ، لأنك كنت معلمه
الخاص . والآن مع أنني أفقّر للأسلوب ، ولكن ليس لمعرفة
الأحداث التي وقعت أثناء الحملة الصليبية ، لأنني كنت في أغلب
الأحيان حاضراً عندما كان ينطلق للعمل ، وعندما كان يعود ، ذلك
أنني كنت قسيسه الخاص ، لذا فإنني والحال كما ترى سأزودك
بشكل مختصر بالحقائق التي يجب أن تزخرف ببلاغتك الأدبية ، فلا
تتردد بالقيام بواجبك ، حتى ولو سمعت بأن هذه قد تبين من قبل
الكثيرين .

ابتهج وكن شكوراً ، إذا ما نال الذي يستحق الثناء من الناس
جميعاً ، ثنائهم ومديحهم فعلاً (٦)

انتهت الرسالة

بداية الكتاب الأول

في العام ١١٤٦ لتجسيد الرب ، تعهد لويس بن الملك لويس ، ملك
الأفرنج ، ودوق أكوئين ، للمسيح ، بحمل صليبه (٧) ، وذلك يوم
الفصح في فيزلي ، وذلك في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد سبق
في أعياد الميلاد المتقدمة ، عندما عقد الملك الورع ذاته مجلسا في
بورجيه أن كشف للمرة الأولى لأساقفة المملكة وأقطابها ، الذين كان
قد دعاهم عن قصد بأعداد أكبر من المعتاد من أجل تقويجه ، عن سر
مكنون في قلبه ، (٨) ، وتحدث أسقف لانجرس الورع في هذه
المناسبة ، بصفته الكهنوتية ، عن دمار الرها ، التي كان اسمها
القديم إنديسا (٩) ، وعن اضطهاد المسيحيين ، وغلرسة
المسلمين ، وهكذا أثار الأحرار وسبب النحيب الكبير ، حول هذا
الموضوع المحزن ، وحدث الجميع أنئذ مع ملكهم على وجوب القتال في
سبيل ملك الملوك ، كيما ينقذوا المسيحيين ، وعندها اتقد الحماس في
نفس الملك لويس ، وجاش إيمانه في صدره ، فقرر هجر المتعة ،
وازدراء المجد الدنيوي ، وهذا مثل أفصح من أية خطبة كانت ، بيد
أن ما ورعه الأسقف في خطبته ، لم يحصده الملك على الفور ، ولم
يأخذ به حالا (١٠) ، لذلك توجب موعد آخر يكون يوم الفصح المقبل ،
في فيزلي ، حيث توجب على الجميع أن يحضروا يوم الأحد قبل أحد
القيامة ، وكان على أولئك الذين ألهمهم الرب للتطوع أن يحملوا
الصليب المجيد في يوم أحد الفصح .

وفي الوقت ذاته ، بعث الملك ، الذي كان جادا في تعهده رسله حول
ذلك إلى البابا يوجينيوس في روما (١١) ، وقوبل أولئك المرسل هناك
بالترحيب ، وأعيدوا إلى وطنهم مغتبطين يحملون معهم رسائل
أحلى من شهد العسل ، إذ كانت تأمر بأداء الطاعة للملك (١٢) ،
وعلى الاعتدال في السلاح والملبس ، كما وعدت أولئك الذين نذروا

انفسهم لعبادة المسيح بمصرو خطاياهم ، وحماسية أزواجهم وأطفالهم ، كما تضمنت فقرات أخرى معدة حوت إرشادات البابا القدسة ، وحكمه وعنايته ، فقد أراد شخصيا أن يمنح البركات الأولية ، من أجل هذا التعهد المقدس ، لكن بما أنه لم يكن قادرا ، ويمنعه في أداء ذلك استبداد أهل روما وطفليانهم (١٢) ، فقد أوكل تلك المهمة إلى برنارد راعي دير كليرفو المقدس .

وجاء في نهاية الأمر اليوم الذي طسال شوقي الى حلولة، وتناق اليه راعي الكنيسة المتمتع بالتفويض البابوي ، وبقدسيته شخصيا مع الحشد الكبير من أولئك الذين وجهت اليهم الدعوة ، وحضر الجميع في الزمان والمكان المحدد ، وعندئذ تسلم الملك والعديد من النبلاء معه إشارة الصليب ، التي كانت قد أرسلت من قبل البابا ، وبما أنه لم يكن في المدينة مكان يتسع لمثل هذا الحشد الكبير من الناس ، فقد أقيمت دكة خشبية كبيرة في حقل خارج المدينة ، حيث يمكن للكاهن التحدث إلى الناس المحتشدين من مكان مرتفع ، وهكذا صعد الى الدكة ، يرافقه الملك الذي كان يرتدي الصليب (١٤) وعندما فاهت الشفاه السماوية بقطرات من ندى الكلمات السماوية ، تعالت أصوات الناس من كل حذب وحروب ، تطالب بالصليب (١٥)

وعندما نثر عليهم ماحواه الوعاء المليء بالصليبان التي كانت قد أعدت مسبقا ، اختفت جميعا ، وطولب بالمزيد ، فاضطر إلى أن يمزق رداءه إلى صلبان أخذ ينثرها إلى الخارج ، وانهمك بذلك طوال بقائه في جوار المدينة ، هذا وأنتي أحجم هنا عن وصف جميع المعجزات التي حدثت هناك في ذلك الوقت ، والتي دللت على أن التعهد قد أرضى الرب ، وإنني إذا كتبت عن بضعة منها فقط ، أخشى الايظن بأنها كانت على هذا القدر فقط ، وإذا ما كتبت عنها جميعا ، فأنني سأعيد عن هدف موضوعي ، ومهما يكن الحال ، فقد إرفض الجمع أخيرا ، وتفرق الجميع وعادوا مفتبطين ، وبعدما أعلن لهم بانهم سينطلقون مع نهاية السنة (١٦) .

وسارع الاب برنارد ، الذي كان يحمل في جسده النجيل الهش روحا وقانة ، مع أن جسده كاد ألا يكون حيا ، هرع للتبشير في كل مكان ، وسرعان ما تزايد عدد أولئك الذين أقبلوا يحملون الصليب الى حد لا يحصى^(١٧) . وشعر الملك بأنه قد حقق أمنية في نشر الايمان ، لذلك بعث برسله إلى الملك روجر في أبوليا ، ليوصل خطته إلى الجيش الكبير الذي كان قيد الجمع ، واستجاب روجر لرغبته بحماسة فائقة على كافة الأصعدة ، زد على هذا أنه بعث بنبللاء تعهدوا بتموين المملكة بالأغنية ، وبتأمين النقل عن طريق البحر ، وكل الحاجيات الأخرى ، ووعد بأن يعفي هواؤه وله مع الرحلة

(١٨)

وبعث الملك لويس برسالة أيضا الى امبراطور القسطنطينية الذي أتجاهل عن عمد اسمه ولا أنكره لأنه لم يسجل في « كتاب الحياة »^(١٩) . ودون الامبراطور على وثيقة طويلة من « ورق البردي » اطراء يفوق كل حد ، واطلق على ملكنا صفة « الصديق المقدس ، والاخ » ، وقدم الكثير من الوعود التي لم يبر بها^(٢٠) ، وزيادة على هذه الامور ، فقد طلب لويس في وقت آخر من ملكي الالمان^(٢١) والهنغاريين^(٢٢) تأمين حقوق التسويق والمرور في اراضيهم أيضا ، وتسلم منهما مبعوثين ورسائل تضمنت تلبية طلباته ، وعليه فقد انخرط العديد من أمراء تلك البلدان ونبلائها في الحملة الصليبية ، مدفوعين لذلك بمثله وحانين حذوة فيما يتعلق بها .

وهكذا فقد سار كل شيء على ما يرام ، وفي الوقت ذاته طارت الاخبار ، وانتشرت فعبرت الى انكلترا^(٢٣) ، كما تسالت الى الاطراف البعيدة من جزر أخرى ، وأعد الناس الذين كانوا يقطعون على طول الساحل ، والذين كان عليهم أن يزحفوا مع الملك بحرا ، قواربهم .

والآن وقد نظم الملك لويس مملكته بشكل جيد ، وتفحص كل

شيء ، وحينما ضمن السلام في المستقبل لرعيته ، وتجمع الرسل من مختلف البلدان في باريس ، وكانوا هناك جميعا عندما عاد ، فقدموا رسائل الأمبراطور ، وأوامر الأمراء النبلاء ، ووعدوا جميعا شفويا وكتابيا أن يستجيبوا لمطالبه .

وملك الملك لويس حرية اختيار رجل يعهد إليه بالشؤون المالية ، لكن كما جرت عادته واعتاد أن يعمل أثر أن يشاور جميع الذين كانوا يتعاونون معه ، ولهذا دعا الجميع إلى عقد اجتماع في إتامب يوم أحد القيامة (٢٤) ، ليقرروا جميعا ما سيقومون به ، ويتحملون وزره معا ، ولقد كان المندوبون حكما وعقلاء في تقريراتهم بقدر سرعتهم في قدومهم إلى الاجتماع ، وعندما التقى حشد القساوسة والنبلاء ، الذي كان كبيرا بقدر ما كان مشهورا ، والتأم جمعهم في الوقت المعين والمكان المحدد ، قام فيهم ، القديس برنارد ، المذكور من قبل ، والمبينة فضائله وصفاته ، وأخبرهم بما تم إنجازهم مما جعل المجتمعين يسرون ، وخاصة بعدما علموا بأنه عاد لتوه من ألمانيا ، عقب إقناعه ملك ذلك البلاد والنبلاء فيها بالانضمام إلى الجند حملة صليب المسيح (٢٥) ، وبعد هذا تليت الرسائل القادمة من مختلف البلدان ، وأصغي إلى كلمات الرسل ، واستمرت هذه الأعمال حتى المساء ، وهكذا انقضى يوم ممتع مليء بالنشاط ، وتركت بقية المسائل ، وأجلت الأعمال إلى اليوم التالي ، وعندما جاء ذلك اليوم ، كان لطيفا ، لابل مبهجا ، فقد وجد بين المجتمعين رجال قالوا أن البيزنطيين رجال خداع ومكر وغش ، وهذا ما قرؤوه عنهم أو خبروه بالتجربة ، لكن الملك ورجاله الذين كانوا لا يخشون قوة أمة من الأمم ما كانوا ليتملكهم الرعب والخاوف من بعض الخداع والمكر ، ونظرا لحكمتهم وشجاعتهم العالية وإيمانهم بأن مامن قوة يمكنها أن تقف في وجه إرادة الرب ، ولأنهم اختاروا أن يموتوا ، فقد عزموا على ركوب الطريق الذي يمر بالأراضي الاغريقية (البيزنطية) (٢٦) ، وهكذا انقضى اليوم الثاني دون تأجيل شيء من الأعمال والقضايا ، وعند ذلك انصرف النبلاء رسل الملك روجر جزعين خائفين ، الأسى يكوي قلوبهم ، معربين بكل

وضوح عن حبهم لسيدهم ، وتنبأوا لنا بمكر وخديعة الاغريق ،
الامر الذي خبرناه وعانينا منه فعلا فيما بعد ، وليس في هذا ما يدعو
للغربة ، لأن روجر الملك الحكيم والقادر ، قد أثر أعمال ملكنا ،
وفضل كل واحد جاء من الجزء الذي ننتمي له من العالم ، وكان من
محبى الفرنجة .

وأخيرا بعد صلاة الشكر ، وترديد الثالوث المقدس ، مضى اليوم
الثالث ، وبعد تضرع وصلاة للروح القدس (لعلهم أدوا ذلك القداس
 بالطريقة نفسها في اليوم السابق) أقيم قداس من قبل الكاهن
المقدس ، وتواصل الاجتماع مع بحث مسألة رعاية المملكة ، والآن
بعد أن حد الملك من سلطاته خشية من الرب ، كما كانت عاداته ، منح
أساقفة الكنيسة ، ونبلاء المملكة امتياز الانتخاب ، فمضوا إلى عقد
الاستشارة ، وبعد أن كانوا قد اختاروا الطريق الأفضل للعمل بعد
تأخر طفيف ، وبينما كانوا في طريق عودتهم بقيادة الكاهن المقدس ،
قال لهم هذا الأخير : « يارب هو ذا هنا سيفان ، فقال لهم : يكفي
(٢٧) ، مشيرا إليكم أيها الأب سوكر مع كونت نيفر ، ولعل ذلك
كان قد أدخل السرور لقلب كل واحد ، لو كان قد أبهج الكونت فقط ،
لكنه كان قد نذر نفسه لشر تيروز ، وبر بوعده بعد ذلك بفترة
وجيزة ، ولم يكن رده عنه ممكنا لابدعوات الملك المطبوعة ، أو
بصلوات الآخرين جميعا (٢٨) ، وهكذا القى على كاهلكم وحدكم
(٢٩) العبء المعين لل اثنين ، وتحملتموه وحدكم بسلام لا يتخلله كدر ،
واعتبرت عبء المسيح (٣٠) السهل ، وفي الوقت ذاته حدد يوم
بينتيكوست للرحيل ، وواحد في أوكتيف (٣١) لمقابلة الأمير المتواضع
والمشهور في متز .

وبعد هذا ، وحيث لم تنتقص البركة أو الفضل أتى يوجينيوس
الحبر الروماني الأعظم ، واحتفل بعيد الفصح في كنيسة القديس
دينس احتفالا لاثقا ، واجتمع العديد من الناس سدوية بسبب
مضاعفة الروعة ، أي وجود الملك والأب الرسولي (البابا)

باعتبارهم حجاجا ، وأكثر من ذلك أكد البابا على الترتيبات التي كانت مرضية ، وأصلح العديد من الأمور غير النظامية ، بينما كان ينتظر وصول الملك ، وفي ذلك العام جاء موعد سوق القديس دينس الموسمي نهار الأربعاء بعد بينتيكوست (٣٢) ، لذلك فإن كافة الجماهير الكبيرة التي ذهبت إلى السوق الموسمي اقتربت من الملك ، وعلى مرأى من جميع الحضور ، طلب من القديس دينس راية الحرب ، واستأنن بالرحيل (وهذا ماكانت عليه دائما عادة ملوكنا المنتصرين) فأثار النحيب الكبير ، وحظي بمباركة كل واحد من أعماق قلبه (٣٣) .

وعند حلول ساعة الانطلاق (٣٤) ، قام بشيء يستحق الثناء ، ذلك أن قلة من الناس ، لابل ربما مامن أحد سواه يمكنه أن يقوم بما قام به ، ذلك أنه بعدما زار بعض الرهبان في باريس ، أثر مغادرة المدينة عن طريق حي المجذومين ، وهناك رأيته بنفسه (٣٥) يدخل مع اثنتين من مرافقيه فقط ، ويترك والدته (٣٦) وزوجته (٣٧) وعدد كبير لا يحصى من الآخرين إلى دير القديس دينس ، وعندما وصل الملك وجد البابا ورهبان الكنيسة ، وراعي دير القديس دينس هناك مجتمعين سوية ، وعند دخوله يسجد على الأرض بكل تواضع وخشوع أمام سيده وحاميه القديس ، وفي الحقيقة فتح البابا والراعي الباب الذهبي الصغير ، ثم سحب المدخر الفضي قليلا ، حتى يزداد الملك شوقا وإثارة بمشاهدة ذخيرة بقايا من كان يقدس روحه ، ويقبلها (٣٨) ، وعندئذ قام بعدما تناول الراية من على المذبح (٣٩) ، وحالما تلقى مزودة الحج وبركة البابا ، فانسحب من بين الجمهور إلى مكان إقامة الرهبان ، فلم تتمكن الحشود وزوجة الملك ووالدته النين انهمرت أعينهم جميعا بالدموع ، ثم بسبب شدة الحرارة ، تحمل التأخير ، بيد أن إيقاف الأسى والنحيب الذي حدث آنذاك كان من الجذون بمكان ، كما كان مستحيلا ، وفي ذلك اليوم تناول الملك ولغيف من حاشيته طعام العشاء في القاعة الخاصة مع

- ٢٩٧٨ -

الأخوة الرهبان ، وبعد تلقي قبلة السلام من الجميع ، وغادر ترافقه
الدموع والصلوات (٤٠) .

آخر الكتاب الأول

بداية الكتاب الثاني

ان الثثرة المتطرفة مرهقة دائما للانسان المشغول ، وهكذا فانني اخشى بأن تكون روايتي قد مضت ابعد من اللازم دون أن اترك لذ نفسي متسعا للتدفس ، انني التمس منك ايها الاب أن تغفر لي هذا العجز ، فلقد كنت منهمكا في قضايا مفرجة ، فعندما كتبت العبارات المتعلقة بأرض وطني ، وعندما شرعت اذكر شؤونه ، اخذت بلا شعور استعيد ذكريات ماكنت قد رأيته من السعادة في وقت مضى منذ زمن بعيد ، فالانسان عندما يستعيد الذكريات الحلوة لا يشعر بالتعب ، وعلى كل حال فإنني أوقف الان نفسي في هذه البداية الجديدة على تقلد مهام صعبة ، عازما في شروحي واصافي على الدخول الى بلدان غريبة ، وذلك تماما كما فعلنا هذا بالواقع ، وسأواصل تباعا الى خلاصات أسرع للصعوبات التي نجمت عن ذلك .

بعد مغادرة الملك المبجل لكنيسة القديس نيدس ، لم يفعل شيئا يستحق التذكر في مملكته ، اللهم الا اذا كنت ترغب في رواية خبر حقيقة تعيينه رئيس اسساقفة رايم شريكا لك في ادارة المملكة (٤١) ، ولست ادري فيما اذا كان يتعين علي أن أترك الكونت راؤول خارج روايتنا (لأنه كان في ذلك الحين محروما كنسيا) (٤٢) ذلك انه اضيف اليكما بمثابة مشرف ثالث ، لكونكما انتما الاثنين تنقضان لسيف مؤقت حيث ان « الخيط المثلوث لا يقطع ابدا » (٤٣) .

لذا دعنا نتوجه بحديثنا نحو متر حيث كان هناك تجمعنا ، وبالرغم من أن الملك لم يجد هناك شيئا يخصه بموجب حق السيطرة السلطوية ، فقد وجد الجميع رعية له بشكل طوعي كما كانت عليه الحال تماما في فيردون ، وهكذا بعد أن خيم خارج

المدينة ، انتظر الجيش بضعة أيام حتى يصل ، فأصدر القوانين والأوامر اللازمة لضمان السلام والمتطلبات الأخرى أثناء الرحلة ، وأكدها القادة بإقسامهم لليمين ، لكن بما أنهم لم يحافظوا على عهودهم ويرا عوها كما ينبغي ، فأنا بدوري لم أحافظ على ذكرهم وأخبارهم ، وأرسل أمامه من مitz إلى ووفر الرجلين الحصيفين المتدينين وهما : ألفيسوس أسقف أراس (٤٤) ، وليو رئيس كنيسة القديس سان بيرتن (٤٥) من أجل إعداد الوسائل للجيش لعبور نهر الراين ، وقد قاما بمهمتهما على الوجه الأكمل ، حيث جمعا أسطولا من جميع الجهات ، وكان حجم ذلك الأسطول من العظم بمكان حيث لم يعد الجيش بحاجة إلى جسر .

واستقبل الناس ورجال الدين في وورمز الملك بحفاوة بالغة في يوم عيد القديسين بطرس (٤٦) وبولس ، وهنا شاهدنا للمرة الأولى الفطرسية الجنوبية لشعبنا ، لأن الجيش عبر الراين ، وعندما وجد مرجا مترامي الأطراف ، قرر الملك انتظار صاحب القداسة أسقف ليزكس ورجاله النورمانديين والانكليز (٤٧) .

وأنتنا من المدينة مؤن فائضة عن طريق النهر ، وهناك قامت تجارة متواصلة بين السكان المحليين وشعبنا ، لكن ما لبث أن نشب نزاع في نهاية الأمر أدى إلى اللقاء | الحجاج | بالبحارة في عرض النهر ، وما أن شاهد أهالي وورمز هذا حتى اندفعوا بسرعة لحمل السلاح وجرحوا العديد من رجالنا وقتلوا واحدا منهم ، فوقع الحجاج في ارتباك عظيم ، وهب الفقراء إلى إشعال النيران التي ألحقت الموت بكل من بعض رجالنا (التجار الأغنياء وصرا في الأموال) وبأهالي البلد ، ومهما يكن الحال ، وبمشيئة الله ، تمكن العقلاء من كلا الجانبين من كبح جماح الحمقى من الطرفين المتصارعين ، ومع ذلك ظل الخوف يعتري قلوب الأهلين ، وبما أنهم كانوا قد نقلوا القوارب عن جانبي النهر فقد أوقفوا التجارة ، غير أن أسقف أراس ، الرجل المتين ، عبر النهر مع

بعض البارونات ، بعدما وجد قارباً بمشقة ، وهذا من روع الجمهور ، ثم وعد الأهلىن بالأمان ، ومن ثم أعيت القوارب ، ومن حينئذ انشغلوا بالتجارة كنى قبل ، وأصبوا يزودونا بالحاجات الضرورية ، وحتى حينئذ لزم الناس الانضباط ، وتحقق ذلك هنا للمرة الأولى ، وبما أن كل شيء كان باهظ الثمن بسبب احتشاد الناس وكثرتهم ، فقد تخلى العديد عنا هنا ، ومضوا داخل جبال الألب .

وقوض الملك الخيام ، واستألف الرحيل ، بعد أن كان قد أرسل أسقف أراس والهاجب (٤٨) وراعي بير سان بيرتن ، أرسلهم أمامه الى راتسبون لمقابلة مبعوثي امبراطور القسطنطينية ، الذين كانوا ينتظرون الملك هناك منذ عدة أيام ، وفي هذه المدينة عبر الجميع نهر الدانوب على جسر جيد جداً ، ووجدوا أسطولا كبيرا تولى نقل أمتعتنا والعديد من رجالنا حتى بلغاريا ، حتى أن بعضهم وضع عربات يجرها حصانان وأربعة على ظهر السفينة ، كيما يتم التعويض عن الخسائر التي كان هذا البعض قد تكبدها في إراضي بلغاريا البيضاء (٤٩) . وقد وضع بشكل قاطع - من قبل ومن بعد - أن العربات ذات منافع ظاهرية أكثر منها عملية ، وإننا إذ نتطرق الى ذكر هذه الأمور إنما نفعل ذلك لنحذر الحجاج فيما بعد ، لأنه طالما كان هناك عدد كبير من العربات التي تجرها أربعة خيول ، كان على الجميع أن يتأخروا بنفس الدرجة فيما لو تحطمت إحداها ، وإنما كانوا إذا وجدوا طرقاً عديدة سلكوها جميعاً في نفس الوقت ، وغالباً ما كانت الخيول تتعرض للإعاقة بسبب انسداد الطرق ، ولهذا السبب كان موت الخيول شائع التكرار ، كما كثرت الشكاوى حول قصر المسافة التي كانت تقطع كل يوم .

واستقبل أهالي راتسبون الملك لويس كما يستقبل الملوك حقاً ، لكن بما أنني لا أستطيع أن أعيد تكرار العبارات التي أعرب فيها الناس حوله عن ولائهم من القلوب ، لذا يجب أن أذكر ولمرة واحدة

أن جميع المدن والحصون والبلدان الواقعة على الطريق إلى
القسطنطينية قد أيدت للملك ولاء مشرفا بقدر ما وجدت لذلك سبيلا
(٥٠) والآن وعلى الرغم من أن الجميع كانوا على حد سواء
راغبين في استقباله استقبالا حسنا ، فإنني أقول . « بدرجات
متفاوتة لأنهم لم تتوفر لديهم جميعا نفس الموارد والامكانيات »

وبعد أن أقيم المعسكر ، وتم إعداد مقر خاص بالملك ، جرى
استدعاء مبعوثي الامبراطور ، وعندما جاءوا بادروا الملك بالتحية ،
وسلموا رسائلهم ، ثم وقفوا ينتظرون جوابه ، لأنهم اعتادوا أن
لا يجلسوا مالم يؤمروا بذلك ، وعندما صدرت لهم الأوامر
بالجلوس ، أعدوا الكراسي التي كانوا قد أحضروها معهم ،
وجلسوا عليها ، وهناك شهدنا ، ما علمنا بعد أنه عرف بيزنطي ،
أي أن رجال الحاشية يلتزمون بالعانة الوقوف بأكملهم عندما
يجلس سادتهم ، وبوسع المرء أن يرى شبابا واقفين بدون حركة
ورؤوسهم منحنية ونظراتهم موجهة قصدا ، وبصمت الى أسياهم
جاهزين لتلبية الأوامر بمجرد إشارة ، وهم ليس لديهم أربية ، لكن
الأثرياء يرتدون ملابس حريرية قصيرة ، ذات أكمام ضيقة ، مخاطة
من جميع جوانبها ، مما يتيح لهم حرية الحركة بشكل دائم دونما
إعاقة ، كما يفعل الرياضيون (٥١) ويرتدي الفقراء ملابس
مخاطة بنفس الطريقة ، ولكن أرخص نوعا .

وبالنسبة لي فإني أجد أن تفسير الوثائق تفسيراً تاماً أمراً غير
لائق من جهة واحدة ومستحيل من جهة أخرى ، لأن الجزء الأول
والأكبر منها صيغ بشكل فيه ذل وصغار وتواضع شديد بغية ضمان
إرادتنا ونوايانا الطيبة ، ثم لأنه يتوجب علي التلطف بكلمات هي في
غاية الرقة تملقا ، لأن كلماتهم لا تنبع من العاطفة ، وهي كلمات لم
تكن لتخزي الامبراطور فحسب ، بل حتى المهرج ، ولذا فمن المخجل
للمرء أن يشغل نفسه بمثل هذه القضايا عندما يسرع متوجها نحو
الآخرين ، وإن هذا لمن المستحيل بالنسبة لي ، ثم إن التملقين

الفرنسيين مهما جهدوا لا يمكنهم أن يعادلوا الاغريق حتى ولو
رغبوا بذلك .

والآن وبالرغم من أن وجه الملك احمر خجلا من ذلك التملق ، فقد
سمح في البداية أن يستمر كل شيء ، غير أنه لم يكن يعلم من أي
مصدر أتى هذا الاطراء والمديح ، بيد أنه في نهاية الامر عندما كرر
الرسل زياراتهم له في الاراضي الاغريقية ، وبدأوا دائما يتقدمون له
بعبارات على هذا النحو ، قلما كان يتحملها ، قال ذات مرة غودفري
ذلك الرجل الروحي المتقين ، بعد أن ضاق ذرعا بذلك ، وتراف بحال
الملك ، وأزعجته التأخيرات التي سببها المتحدث والمترجم : « أيها
الاخوة لا تكرر عبارات «صاحب المجد» أو «صاحب الطاعة»
مشيرين في غالب الاحيان للملك ، فهو يعرف نفسه ، ونحن نعرفه
جيда ، ونوهوا عن رغباتكم بصورة مقتضبة وبحرية أكثر ، ومع ذلك
فإن المثل القائل : « احذروا الاغريق حتى ولو حملوا معهم الباب »
كان دائما معروفا حتى بين صفوف بعض الناس العلمانيين .

وتضمن الجزء الاخير من الرسائل ، والذي كان واضحا تمام
الوضوح شرطين : اولهما أن الملك يجب الا يستولي على أية مدينة
أو حصن في دولة الامبراطور ، بل على العكس من ذلك ، فإذا ما طرد
التركماني من أي مكان كان بالأصل يعود لسيطرة الامبراطور ، عليه
أن يعيد ذلك المكان للامبراطور ، وكان من المتوجب أن يثبت هذا
الاتفاق بيمين يقسمه النبلاء (٥٢) وقد بدأ الشرط الأول لمجلاسنا
معقولا جدا ، أما فيما يتعلق بالشرط الثاني فقد بدأ السؤال حول
ممتلكات الامبراطور موضحا للنقاش ، فقد مضى بعضهم الى
القول : « بالنسبة الى التركمان ، يترتب عليه أن يحاول استرداد
ممتلكاته منهم ، وأن يفعل ذلك إما بالشراء أو بالتفاوض أو بالقوة ،
ثم لما لا يجوز له أن يحاول اخذها منا إذا مارأنا نستولي عليها
بشكل من الاشكال ، ؟ بينما مضى اخرون الى القول : يتوجب أولا
أن تحدد ممتلكاته ، وهكذا فإن الصراع في المستقبل لا يمكن أن

يثار حول اتفاق أو قول غير محدد ، وفي الوقت ذاته انقضت عنة أيام ، واحتج الاغريق على التأخير ، زاعمين أنهم يخدمون من قيام الامبراطور بإحراق الأطعمة وبقية أنواع المؤن وتدمير التحصينات على سبيل الحيلة قنائلين : « إنه أنذرنا أنه سنبفعل ذلك إذا ما تأخرنا » ثم قالوا : « على أساس الاستخلاص من تأخركم أنكم لم تأتوا لتمرروا بسلام ، إنه إذا فعل ذلك لن تجدوا مؤنا كافية على طول طريقكم ، حتى وإن أراد الامبراطور ذاته توفير ذلك لكم » .

وبعد لأي أقسم أخيرا بعض الرجال اليمين لصالح أمن الدولة الاغريقية نيابة عن الملك ، وبيمين ممثلة نيابة عن امبراطورهم تعهد الاغريق وأقسموا على تجهيز سوق كافية مناسبة ، وعلى تحويل النقود بأسعار لاغبين فيها ، وذلك بالإضافة الى جميع الامتيازات الأخرى التي بنت ضرورية لنا ، أما الشرط الثاني الذي لم يتوصلوا الى قرار بشأنه ، فقد احتفظوا به الى حين اجتماع صاحبي الجلالة (٥٣) ، وبارحنا بعد هذه المفاوضات واحد من المبعوثين الاغريق واسمه ديمتروس وسافر مسرعا ، بينما بقي الآخر واسمه موريوس معنا ، واثّر هذا تم اختيار الرجال الذين سيوفدون الى القسطنطينية مع موريوس المشار اليه ، والذي أتيت على ذكره آنفا (لأن الرسائل أشارت الى هذا المطلب) من بين المطالب الأخرى ، وهؤلاء الرجال هم : الفيوس كونت آراس وبارثولميو الحاجب ، وأرشيبالد كونت بوربون (٥٤) مع آخرين غيرهم (٥٥) ، وهكذا كلف هؤلاء بالسفارة ، وتحركوا إثر تسليفهم بكل سرعة ، في حين تبعهم الملك بخطى وثيدة حسبما سمح الجمهور المحتشد معه بذلك (٥٦) .

وفي هذا المقام أجد أنه من المفيد جدا القيام بوصف الأعمال الناجمة ، ذلك أنها تزود القارئ بنماذج وأمثلة مفيدة ، ثم إن تسمية المدن التي مررنا بها يوضح طريق الرحلة ، ويبين طبيعة الأماكن الموصوفة ، خاصة تلك التي تستدعي الحاجة اتخاذ الحيلة

فيها ، سيما بالنسبة للمؤمن ، فمن المفترض وجود حجاج مسافرين دائماً الى الديار المقدسة ، ولاشك أنهم سيكونون أكثر حذراً بالاعتماد على خبرتنا التي حصلناها .

حسننا :إن مدن متيز ، ورمز ، ورزبيرغ ، وراتيسبورن ، وباساو ، هي مدن ثرية جداً ، تبعد كل منها عن الأخرى مسافة ثلاثة أيام (٥٧) ، والمسافة بين آخر هذه المدن وكلوسترنبيرغ هي خمسة أيام ، ومن هناك يوم واحد حتى الحدود الهنغارية ، وتغطي الغابات المناطق الواقعة فيما بين تلك المدن ، وإذا لم تجلب المؤمن من المدن الكبيرة ، فهي لايمكنها أن تزود جيشاً لجبا بالمؤمن ، ومع ذلك فهي تحتوي على كمية من الجداول والينابيع والبرج ، وعندما كنت أعبّر تلك الأراضي كنت أظنها تعج بالجمال ، ولكنني الآن ، بالمقارنة مع رومانيا ، أعتبرها مستوية ، فمن جانب واحد تحاط هنغاريا بالماء الموحد ، بينما يفصل بينها وبين بلغاريا نهر صاف ، وفي وسطها يجري نهر دريف الذي تميل إحدى ضفتيه بعض الشيء بينما تنحدر الحافة الأخرى انحداراً شديداً ، ذلك أن النهر يفيض في حال هطول مطر خفيف ، وعندما يرفد بمياه المستنقعات والجداول المجاورة ، ويستمر مسير الفيضانات حتى مسافات بعيدة ، وقد سمعنا بأن ذلك النهر كان قد غمر بمياهه بشكل مفاجئ العديد من الألمان الذين سبقونا ، ونحن لم يكن بمقدورنا أن نصل إلى المخيم الذي كانوا يعسكرون به ، ومن أجل عبور النهر كانت لدينا بضعة سفن صغيرة ، وهكذا كان على الخيول أن تسبح ، وبما أنها دخلت النهر من مكان سهل ، فقد خرجت منه في مكان صعب ، وعبرته بالتالي بمنتهى الصعوبة ، ولكن بعون الرب دون خسائر ، ويتخذ ما تبقى من المياه في هذه الأراضي شكل بحيرات ومستنقعات ويناابيع (حتى وإن كانت تلك الينابيع من صنع المسافرين ، ذلك أنه من السهل اخراج الماء حتى في الصيف يحفر سطح الأرض حفراً خفيفاً) باستثناء الدانوب الذي يجري على شكل خط مستقيم ، وتعبه السفن العديدة حتى يصل الى بلدة غران ، وتنتج

هذه الأرض الوفير من الأغذية ، حتى ليقال بأن مبعوثي يوليوس قيصر كانوا قد توطنوا فيها ، وهنا في هذه البقعة أتيح لنا أن نتمتع ببعض امتيازات التسوق كما رغبتنا .

واستغرقنا خمسة عشر يوما كيما نعبر هنغاريا ، ثم تراءت لنا على حدود بلغاريا مدينة محصنة كانت تدعى بلغراد البلغار ، وذلك بغية تمييزها عن بلدة هنغارية تحمل الاسم ذاته ، ثم قضينا يوما آخر بعد ذلك وعبرنا أحد الأنهار ، ووصلنا الى بلدة برانديزي الصغيرة الفقيرة ، أما ماتبقى من البلاد فمرج تغطيه الغابات والسهوب التي تنمو فيها أعشاب المراعي ، وإذا جاز لنا القول : أنها تعج بالكثير من الأشياء التي تنمو بمحض ذاتها ، وتناسب أشياء أخرى ، اللهم إذا توفر المزارعون في المنطقة ، فهي ليست ممتدة على شكل سهل ولا على شكل جبال صخرية ، بل إنها تتوضع بين هضاب تناسب زراعة الكرمة والحبوب ، كما أنها تروى من أكثر الينابيع والجداول صفاء ، ذلك أنه لا يوجد فيها أنهار ، وبسبب ذلك لم تكن بحاجة للقوارب على طول الطريق من هناك حتى القسطنطينية (٥٨) ، وفي اليوم الخامس من المسير كشفت لنا الأرض عن المدينة الاغريقية الاولى - على صغرها - واسمها نيسا ، وتبعد مـدـن : نيسا ، وصوفيا ، وفيلوبولس ، وأريانوبل (أدنة) مسافة أربعة أيام كل منها عن الأخرى ، وتبعد أدنة عن القسطنطينية مسافة خمسة أيام ، وتعج السهول الممتدة بين تلك المدن بالعديد من القرى والحصون ، ومختلف أنواع الموارد ، كما توجد على جانبيها يمينا وشمالا جبال تبدو قريبة بحيث يتاح للمرء أن يراها ، وهي ممتدة طويلا ، حيث تحصر فيما بينها سهلا غنيا خلابة .

هذا عن تلك المسائل ، ذلك أنه من الضرورة بمكان أن أروح في قصتي جيئة وذهابا لأنه على الرغم من العديد من الأمور التي تبرز نفسها من أجل الوصف ، يجب ألا نخلط بين هذا الاعتبار وغنى

المواضيع ، فالكثير من الأحداث تقع في وقت واحد ، غير أنه ينبغي على المرء أن يراعي تتابعها أثناء معالجتها أوحين التحديث عنها (٥٩) ، فقد تبادر كل من الملك والامبراطور لذهني عندما كنت اكتب عن راتسبون ، ذلك انه على الرغم من ان الملك هو موضوع كتابي الرئيسي ، اجد نفسي مرغما بفعل خبرتيهما المتبادلة ، أن اضمن كتابي بضعة كلمات عن الامبراطور.

كان الملك الألماني قد سبقنا في الزمان والمكان : لقد انطلق ملكنا يوم أحـــــد العنصرة ، في حين انطلق الألماني في أيام عيد الفصح (٦٠) ، وسافر ملكنا من سانت دينس ، والملك الألماني من راتسبون (٦١) وإن حقيقة ذهاب الملك الألماني أولا قد هيأت الفرصة أمام ملكنا وسهلت مهمته ، لوجود العديد من الأنهار في ألمانيا ، فقد وجد ملكنا على طريقه جسورا جديدة قد شيدت فوق الأنهار ، ولهذا لم يتحمل أي عناء أو نفقات من جانبه ، وزيادة في الافضاح عن الحقيقة أقول بأن الامبراطور كان قد انطلق بأفضل ما يجب أن تكون عليه التقاليد الامبراطورية على صعيد كل من الاسطول البحري ، والقوات البرية ، وقد نصح بذلك لأن الهنغاريين كانوا آنذاك على عداء معه (٦٢) ، وهكذا فقد دخل هذا الامبراطور الشجاع ، الذي كان يتحلى بمعنويات عالية ، كونه كان بحارا وجندي مشاة (بعد أن رأى أن لديه جيشا كبيرا يرافقه على ظهر الاسطول والفرسان وبقية المراتب الى جانبه يسرون على محاذاة الشاطئ) الى أراضي هنغاريا كما ينبغي ، وصار سيدا وأميرا. وكان هناك رجلا يدعى بورس ، ادعى حرق ميراث عرش هنغاريا ، وبعث برسائل بهذا الخصوص الى ملكنا في ايتامبس معربا فيها عن شكواه بشكل تام ، ويطلب المقاضاة بتواضع من أجل الانصاف ، وفي طريقه نحو ملكنا إثر رسائله ، قابل الامبراطور الذي كان يثق به ، فعرض الحالة عليه ووعدته بأمور كثيرة (٦٣) (وقد أعطاه - كما سمعنا - الكثير من الأشياء) وتلقى بدوره أملا بكسب حقه ، غير أن ملك هنغاريا ، الذي كان يدرك أن

باستطاعته أن ينتصر بسهولة عن طريق المال (الذهب) أكثر من اعتماده على القوة ، أنفق أموالا طائلة بين صفوف الألمان ، ويسلك نجا من هجومهم عليه (٦٤) ، والآن وبعد أن خدع بورس نفسه بأمل يائس تخفى قدر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وانتظر مرور ملكنا ، وبخديعة أو أخرى في ذهنه تمكن من الانضمام إلى الفرنج ، وقد قيل بأن أميرين من الفرنجة كانا على علم بذلك ، ولما كان بورس متزوجا من ابنة أخ (أو أخت) امبراطور القسطنطينية ، فقد انضم الى الفرنج بصدق ، وحجة كافية قوية مقبولة من جانب الأميرين إياهما (٦٥) ، وهكذا تمكن من المضي عبر هنغاريا رفقة الجيش الصليبي ، تحت تغطيته وحمايته ، ودون أن يعلم أحد.

وفي الوقت ذاته ، وخشية من ملكنا وخوفا منه ، سعى ملك هنغاريا لنيل رضاه وذلك بإرسال المبعوثين والهدايا ، بيد أنه تحاشى عبور الدانوب لمقابلته ، وقد أمل بعقد مؤتمر مع الرجل الذي أثنى على سمعته ، ورغب في الاعتماد عليه (كما أظهرت الأحداث ذلك) ، ولكن بما أنه كان يخشى عبور النهر الى الجانب الذي كنا نشغله ، فقد التمس من الملك بكل تواضع أن يتشرف بالقبول الى جانبه هو ، واستجاب له الملك ، لسيطرة نزعة التنازل عليه ، وقام بكل يسر وسهولة وتحت وطأة حب الاحسان والتواضع باصطحاب عدد من رجال الاكليروس والنبلاء ولبى رغبته ، وتوجه اليه ، وهكذا أقاما السلام بعد ما قبل كل منهما الآخر ، وتبادلا المجاملات ، وعملا على تقوية أواصر المودة فيما بينهما ، واتفقا على أن يمر الحجاج اعتبارا منذ ذلك الحين عبر أراضي هنغاريا بكل أمان ، وبعد أن أنجز ملكنا ذلك غادر هنغاريا تغمره السعادة محملا بالهدايا الملكية والخيول والثياب ، وعزم ملك هنغاريا على أن يزيد من تقديره لملكنا وتشريفه قدر استطاعته ، سيما عندما وجد بورس مع الفرنجة ، لذلك أوفد أناسا من لديه ليعرضوا عقد معاهدة صداقة وسلام جديدة مع الملك ، ولأن يطلبوا منه بكل تواضع أن يسلم اليه عدوه الذي كان مختبئا بين صفوف الجيش وحدث هذا الأمر كله اثناء الليل ، ومهما يكن من أمر ، فإن الملك الذي لم يكن معتادا على

التعامل بمثل هذه الدرجة من الازدواجية ، لم يصدق القصة تصديقاً مطلقاً ، بيد أنه سمح في نهاية الأمر للمبعوثين الذين كانوا يواصلون تأكيدهم له على وجوده في معسكره ، ويطلبون تعاونه معهم ، سمح لهم بالتفتيش عنه ، وبناء على هذا ، تقدموا والفرح مسيطر عليهم ، بجراة ودون تعقل ، نحو مكان بورس ، مشيرين صخباً كبيراً ، فما كان من بورس الا أن نهض من فراشه بسبب الصخب الذي اقامه أولئك الذين كانوا يبحثون عنه ، فهرب عارياً ، وبذلك فوت عليهم الفرصة ، فعادوا وقد أحبطت جهودهم ، ولم يكن بورس الفار أحمقاً بأي وجه من الوجوه ، فعندما كان قد غاب ملجأ الخيام في طريقه الى النهر ، قابل فارساً يمتطي صهوة جواد رائع ، فقاتله بشجاعة من أجل الحصان ، فصرخ الفارس وقاوم بشدة ، واستطاع أن ينتصر عليه بضراخه ، أكثر مما فعل بقوته ، لأن الناس سرعان ما ظهرروا من كل حـدب وصوب ، وقبضوا على بورس ، وكأنما كان من قطاع الطرق ، واقتادوه الى أمام الملك ، بعد أن ضربوه ، ومرغوه بالوحل ، وعري من ثيابه ، فيما عدا ما ستر عورته ، وظن الجميع أنه كان من قطاع الطرق ، ولكن بعد أن ألقى بنفسه على قدمي الملك ، ورغم أنه لم يعد يكن يعرف لغتنا ، كما أنه لم يكن لدى الملك مترجم ، فقد استطعنا بعد أن خلط كلمات من لغته بعضها ببعض ، وبعد تكرار اسمه استطعنا أن نكشف عن هويته ، فكسي بالثياب بشكل لائق ، واحتفظ به حتى اليوم التالي.

وعندها ، ونتيجة لمعرفته السابقة ببورس ، وخشية منه ، تمكن الملك الهنغاري ، الذي كان قد نصب خيامه على مقربة منا ، تمكن على الفور من معرفة ما حدث ، لأنه كان على صلة وثيقة بنا ، ولأنه كان فضولياً بسبب قلقه ، لذلك سارع فطالب الملك بتسليمه بورس ، وذلك كما يطلب صديق من صديق حاجته ، ملوحاً بأن تسليمه اليه كان الزامياً بحكم معاهدة الصداقة فيما بينه وبين الملك ، وقدم بالمقابل وعوداً عديدة ، كان من الصعب تصديقها ، كما أثار في نفس الوقت قلق النبلاء وحرك أفكارهم ، وذلك بحضوره

- ٢٩٩٠ -

وبكثرة هداياه ، ولكن لا الالحاح في التوسل ، ولا هداياه مكناه من تحقيق مطلبه من قبل الملك ، قبل أن تتخذ محكمة البلاط قرارها ، وأعلن ملكنا أن ملك هنغاريا كان صديقه ، ومع ذلك كان عليه ألا يطلب من الملك القيام بأي عمل كان من شأنه الاساءة الى الحج ، والتأم بعد ذلك مجلس الاكليروس والنبلاء ، وتم فحص القضية ، وبعد التدقيق ، تقرر أنه يجب على الملك لويس المحافظة على السلام مع الملك الهنغاري ، وأن يحافظ في نفس الوقت على حياة النبيل (بورس) حتى وإن كان أسيره ، لأنه سيكون من الجريمة بمكان أن يؤدي بحياة انسان ، ويرسله للموت دونما سبب وجيه ، وعليه أيضا أن لا يخل بالمعاهدة مع صديقه ، وأدى هذا الى زعزعة ثقة ملك هنغاريا ، ولم يعد يثق بنا ، ويأمن على نفسه بجوارنا ، ولهذا غادر جوارنا وابتعد عنا ممتعضا ، وسعى نحو أمنه وأمانه بعيدا عنا ، والتجأ الى مكان قصي في مملكته ، وقام ملكنا بالاحتفاظ ببورس ، وأخرجه من هنغاريا كما يقتضي الشرف منه.

نهاية الكتاب الثاني

بداية الكتاب الثالث

وهكذا شغلنا بهذه المسألة ، وحتى هذا الحد لم نصب بأذى من جراء سوء نية الرجال ، كما أننا لم نخف من الأخطار الناجمة عن حنكة الرجال من ذوي البراعة ، وعلى أية حال ، فقد حدث أنه منذ دخولنا الى بلغاريا ، وهي أرض تعود للأغريق ، وضعت شجاعتنا على المحك ، كما أن عواطفنا قد أثرت ، وبينما كنا على وشك دخول الجزء غير المسكون منها ، زدنا أنفسنا في بلدة برانديزي الفقيرة بامدادات كانت هنغاريا قد قدمت معظمها عن طريق الدانوب ، وهناك كان الاسطول الذي أحضره الألمان وتخلوا عنه ، وكان كبيرا الى درجة أنه زود الأهلىن لمدة طويلة بمواد البناء والحب للوقود ، وقد أخذ رجالنا الأنواع الصغيرة من القوارب ، وبعد عبور النهر أحضروا الامدادات من احدى القلاع الهنغارية التي لم تكن تبعد كثيرا ، وهنا واجهنا لأول مرة النقود النحاسية (٦٦) (ستاميناى) لكننا لم نسر بذلك ، لأننا دفعنا خمسة « دينارى » لقاء القطعة الواحدة منها ، أو بالحري خسرنا درجة واحدة من اثنتي عشرة من كل سولدى (٦٧) ، وبعد الدخول الى اراضهم ، نكث الاغريق بوعودهم ، لأنه يجب أن نتذكر ما قيل من قبل ، أي أن المبعوثين كانوا قد تعهدوا بعدما أقسموا اليمين عن امبراطورهم ، بأن يهيئوا لنا سوقا مناسبة لتبديل النقود (٦٨) وعلى كل حال عبرنا الأرض المقفرة ، ودخلنا المنطقة المتناحية الجمال والغنى ، التي يتواصل امتدادها دون انقطاع حتى القسطنطينية ، وهنا بدأت الأخطار تواجهنا للمرة الاولى ، وللاحظ هنا أن البلدان التي مررنا بها ، وباعتنا الامدادات بشكل صحيح ، وجدتنا قوما مسالمين الى أبعد الحدود ، ومع هذا وعلى الرغم من كل شيء ، قام الاغريق باغلاق ابواب مدنهم وحصونهم في وجوهنا ، وعرضوا أوانيهم وسلعهم من

فوق الأسوار ، وكانوا يدلونها بحبال ، ولهذا فإن الأطعمة التي عرضت علينا بهذه الوسيلة لم تكن كافية لحشدنا الكبير لذلك عمد الحجاج الجائعون ، وقد وجدوا أنفسهم وسط بحر من الخيرات ، عمدوا الى السلب والنهب ، لأنهم لم يعد بإمكانهم تحمل هذا القدر من الشح والحرمان.

وقد مضى البعض الى الاعتقاد بأن هذه الحالة كانت نتيجة لسوء تصرف الألمان الذين كانوا قد سبقونا ، لأنهم كانوا يقومون بنهب كل شيء (٦٩) ، ولقد شاهدنا بأنهم كانوا قد حرقوا بعض المستوطنات خارج المدن ، ونذكر على سبيل المثال خبر الحدث التالي ونقف عنده ونحن نشعر بالأسى: كانت هناك مستوطنة جميلة واقعة خارج أسوار مدينة فيليبوبولس ، يسكنها الأثينيون ، الذين كانوا يبيعون الكثير من الامدادات للمسافرين ، وعندما استقر الألمان في حانة المستوطنة ، ساق سوء الحظ مهرجا ليدخلها ، وبالرغم من أنه كان يجهل لغتهم ، فقد جلس ، ودفع بعض المال ، واحتسى الشراب ، وبعدما سكر طويلا ، أخرج من جيبه أفعى كان قد سحرها ، ثم وضعها على رأس قدح كان قد ركزه على الأرض ، ثم انهمك في المزيد من أعمال التهريج والعريضة ، وسط أناس كان يجهل لغتهم وعاداتهم ، وسرعان ما نهض الألمان وكأنهم قد شاهدوا شيطانا ، فألقوا القبض على المهرج ومزقوه إربا إربا ، وعزوا جريمة قتل الرجل الى الجميع وأعلنوا بأن الاغريق أرادوا أن يفسدوا اليهم السم ، وعجت المدينة بالفوضى في ضواحيها وانطلق الحاكم مع لفيف من رجاله خارج الأسوار وهم عزل من السلاح ، ولكن باندفاع ، بغية تهدئة الجمهور الهائج ، وما أن رأى الألمان ذلك ، وأعينهم تشع بالغضب - بعد أن أخذت الخمرة من رؤوسهم كل مأخذ - ورأوا الناس يندفعون من كل حذب وصوب ، ولم تكن المشكلة هي هل يحمل الناس سلاحهم ، بل في اندفاعهم الشديد ، انقض الألمان على الذين اقتربوا منهم ، لأنهم خيل اليهم أنهم قدموا للانتقام لجريمة القتل ، وهنا عاد الاغريق زرافات ووجدانا الى المدينة ، فأخذوا أسلحتهم ، وحملوا قسيهم

(لأنها كانت سلاحهم الرئيسي) واندفعوا على الفور نحو
الألمان ، فقتلوا كل من صادفوه ، وجرحوا من حاول الفرار ، ولم
يتوقفوا حتى طردوا جميع الألمان من داخل المستوطنة ، ولقي العديد
من الألمان حتفهم هناك ، سيما أولئك الذين كانوا قد التجؤوا الى
الخانات ، لكي يحموا أموالهم في الكهوف ، وعندما استرد أولئك
الذين نجوا رباطة جأشهم ، حملوا السلاح ثانية ، وتجمعوا
لينتقموا للعار الذي نزل بهم وللمذبحة رفاقهم ، وقاموا بصرق كل
شيء تقريبا كان خارج الأسوار.

وفي الحقيقة لم يكن الألمان يمكن احتمالهم حتى من قبلنا ، ففي
أحدى المناسبات - على سبيل المثال - ذهب بعض رجالنا الذين
رغبوا في الابتعاد عن ضغط الجمهور حول الملك ، وقطنوا بالقرب
منهم ، وحدث أن مضت كلتا المجموعتين الى السوق ، غير أن
الألمان لم يسمحوا للفرنجة بشراء أي شيء الا بعدما حصلوا هم
أنفسهم على كل ما ابتغوه ، ونشأ عن هذا الوضع نزاع ، أو
بالأحرى شجار ، لأنه عندما يتهم شخص شخصا آخر بصوت
جمهوري دون أن يفهمه ، يحدث شجار ، وبناء على ذلك ، وبعد
تبادل الكلمات ، رجع الفرنجة من السوق بمؤنهم ، وقام الألمان
بالإساءة الى كرامة الفرنجة الذين كانوا بدورهم مسلحين ، قاوموا
بروح عالية ، لكن الرب وضع حدا لتلك المواجهة الشريرة ، لأن
الليل حل بسرعة ولم يكن بالإمكان لا تهدئة غضبهم ولا اخماد
ثورتهم خلال تلك الليلة ، لأنهم استيقظوا في الصباح ، وهم أكثر
مرارة ، بيد أن العقلاء من الرجال بينهم ركعوا أمام الطائشين
منهم ، وهدأوا من روع غضبهم بالتواضع والمنطق (٧٠) .

وهكذا أفسد الألمان كل شيء مع تقدمهم ، وعليه فر الاغريق من
وجه ملكنا المسالم الذي سار وراءهم ، ومع ذلك فقد استقبله جميع
رجال الاكليروس والمحافل الدينية بالتقدير والشرف خارجين من
مدينتهم يحملون الايقونات والنخائر الاغريقية المقدسة

الأخرى ، وأقام بوق صوفيا (٧١) ، وهو واحد من أقرباء
الأمبراطور - الذي كان دائما على صلة وثيقة بالملك طوال
الرحلة - أقام الأمن والسلام للسكان ، ورأى تخصيص جزء من
السوق للحجاج ، وقدم خدماته للملك بشرف فيما يتعلق بالمؤمن ، إلا
أن الملك لويس ، الذي لم يبق لنفسه سوى القليل ، في الحقيقة إن
كان ابقى شيئا البتة ، قسم المبالغ التي كانت بحوزته جميعها ،
فأعطى بعضا للفقراء ، وبعضها للأغنياء ، وهكذا تمت المحافظة
على السلام من قبله بشكل أكثر حزما ، لأنه كان أقل حاجة
ومطالباً ، ويحظى باحترام أكبر مما يحظى به الآخرون ، لكن
العديد ممن مضى بعده وممن تبعوه حققوا الكسب الوفير لأنفسهم ،
إما من السوق عندما أتيح لهم ذلك أو بواسطة السلب لأنهم كانوا
يتمتعون بالسلطة التي تخولهم القيام بذلك .

ووصلوا في النهاية الى فيليبوبولس حيث توفي الأسقف
الفيسوس ، أسقف أراس ، وذلك أثناء سفره مبعوثا الى
القسطنطينية ، وذلك في اليوم الثامن من ايلول ، أي بين عيد القديس
بيرتن (٧٢) الذي كان من رهبانه ، ومولد العذراء المبارك (٧٢) ، وبعد
أن هذه المرض الطويل ، قال والدموع في مقلتيه: (لأن البكاء كان
دائما يواسيه) مخاطبا الرهبان والكتاب من حوله : « احتفلوا يا
أحبائي بعيد القديس بيرتن بما يليق به من مكانة ، ولكن بما أنني
لن أكون معكم في الاحتفال بعيد العذراء ابارك ، أرجو أن تتكرموا
على بفضل بمقدوركم أن تفعلوه ، وهو تقديم موعد
الاحتفال ، فخذوا كتبكم ورتلوا القداس بكامله كما تفعلوا أثناء
العيد » ، ولبي الجميع رغبته وسط الدموع ، ورتلوا القداس بكامله
ليلا ونهارا ، وكان كلما سمع كلمة « السلام المريمي » أو اسم
العذراء ، حتى في لحظة لفظ أنفاسه ، ينهض بجهد ضعيف ، ولكن
بورع ، وبعد ذلك أسلم روحه للعذراء ، التي كان قد تذكرها بهذا
الخشوع ، ووري جسمه الثرى خارج المدينة بجناز مشرف أمام
مذبح كنيسة القديس جورج ، وفيما بعد عندما قام الملك بزيارة
القبر ، حزن على وفاة الفيسوس ، وطاف في موقع المراسم مرة

أخرى مع الرهبان والقساوسة ، ولا بد لي من أن أقول لكم بأنني أنا شخصيا أصبت بحمى ، فنمت أولا تحت النعش ، وبعد الدفن فوق القبر ، وفي النهاية شكرت الرب والأسقف المتوفى لأنهما منّا علي بالشفاء.

وبعد هذا الاستطراد القصير ، يطيب لي أن أصف كيف سار الألمان الى القسطنطينية ، حتى عبروا البحر ، لأن القصة يجب ان تسرد حسب التسلسل الذي وضعت بموجبه ، وكما كنت أقول فقد تقدموا بجراة ، لكن ليس بما يكفي من الحكمة ، لأنه على الرغم من انهم وجدوا الكثير من كل شيء في كل مكان من تلك الأرض ، لم يظهروا أي اعتدال ، وقد قتل بعض جنود مشاتهم عندما كان السكر (٧٤) قد أخذ منهم كل مأخذ ، وبما ان جدّتهم لم تدفن ، كانت جميع الأشياء قد تلونت ، وهكذا كان الأذى الذي لحق بالفرنجة الذين قدموا فيما بعد على يد الاغريق المسلحين ، أقل مما لحق بهم على يد الألمان الموتى ، وعندما أتى الألمان الى أدرنه وجدوا جماعة من الاغريق حاولوا منعهم من المضي الى القسطنطينية ، وذلك باغلاقهم للطريق ، مؤكّين لهم بأن البحر أكثر ضيقا ، والأرض أكثر خصبا في سان جور . سيسستوس (٧٥) ، بيد ان امبراطورهم استخف بكل من أولئك الذين أغلقوا الطريق ، والذين نصحوا بعدم المرور على حد سواء (٧٦) وهكذا تابع السير على الطريق الذي تعهد بالسفر عليه ، فوجد في حوالي منتصف طريق رحلته مرجا يرويه جدول صغير ، وهو محاط بالبحر وسمعنا بأنه عندما خيم تلك الليلة هناك والجدول خلفهم وأعلامهم ، انهمر عليهم مطر كان معتدلا فعلا ، غير أنه شكل فيضانا هائلا في الجبال ، فاندفعت مياه الجدول بشكل هائج ، أنزل بهم التلف بدلا من أن يكتفي بالبلل ، وحمل الفيضان الجارف السريع في جريانه الخيام بما كانت تحتويه ، وساقها الى البحر المجاور ، وأغرق الآلاف من الرجال (٧٧)

ونفض الامبراطور والمجموعة التي نجت معه ، وقد تحملوا جميعا هذه المصيبة الكبرى ، إنما والحق يقال ليس بسدون

أسى ، لكن مع هذا نهضوا وكان أي أنبي لم يلحق بهم ، وأصبحوا أكثر أقداما ، بفضل فداحة هذا الخطب ، وأتوا الى القسطنطينية (٧٨) ، وقبل المدينة طالعتهم سلسلة من الأسوار تؤثر في النفس ، وضمنها أنواع مختلفة من الموانع ، وفيها العديد من الاقنية والبرك ، كما كان في داخلها عدد كبير من الحفر والكهوف والانفاق وما يشبه شكل الغابات التي كانت مليئة بالحفر والكهوف ومخابئ الحيوانات ، وفي ذلك المكان بالذات كان هناك بعض المواقع التي كان الأباطرة قد بنوها كمنتجعات ريفية لهم ، وكانت تدل بوضوح على عظمتهم.

وفي مكان المسبرات هذا (٧٩) ، إذا جازت لنا تسميته كذلك ، ثار غضب الامبراطور الألماني ، فدمر عمليا كل شيء أمام أعين الاغريق ، ووضع يده على جميع وسائل ملذاتهم من أجل استخدامه الشخصي (٨٠) ، ولما كان القصر الامبراطوري هو المبنى الوحيد الذي يعلو فوق أسوار المدينة ، ويشرف مباشرة فوق ذلك المكان ، تمكن سكانه من خلاله مشاهدة ما كان يجري في ذلك المكان إنما وإن أدخل ذلك المشهد المقيت الاسى والحيرة الى نفس الامبراطور الاغريقي ، فإنه تغلب على عواطفه ، وأرسل مبعوثين يطلبون من الامبراطور الألماني الاجتماع به ، إلا أن الألمان كانوا يخافون ، أو أنهم لم يرغبوا في دخول المدينة ، وكذلك كان شعور الاغريق بالنسبة لمغادرتهم لها ، وما من واحد من الطرفين عدل عن عاداته أو تقاليده ، أو خفف من تعنته تجاه الآخر.

وفي الوقت ذاته قام ملك الفرنجة ، الذي كان دائما يحرص على ممارسة سلطته الملكية بتواضع ، باستعطاف الامبراطور الألماني ، وتوسل اليه بالحاح كي ينتظره عند هذا النزاع (٨١) ، وإن أولئك الذين كانت رغبتهم مشتركة ، وكانوا قد تعهدوا بمهمة مشتركة يجب أن يستخدموا خطة مشتركة ، وهما يكن من أمر ، فقد كان الامبراطور الألماني يسرع بعناد نحو المكان الذي كان

قد انطلق اليه ، وعندما تلقى دليلاً للرحلة (أو بالأحرى للتيه والموت) من الامبراطور الاغريقي مضى في طريقه (٨٢) ، وعلى الرغم مما سبق لي ذكره عن حقيقة أن عددا لا يحصى من رجاله كان قد هلك واختفى ، فقد سمعنا من الاغريق الذين واجهوه ورجاله عندما عبروا ، بأنه قد عبر ومعه ٥٦٥٠ رجل (٨٣) ، وقدم الى نيقوميديا (٨٤) حيث انقسم رجاله الى مجموعات بسبب عدم الاتفاق فيما بينهم (٨٥) ، فقد ذهب الامبراطور الى قونيه ، بينما سار اخوه اوتو أسقف فريزنغ (٨٦) وعدد من النبلاء على الطريق الساحلي ، وسوف نشير الى مصائبهم الكاسحة ، التي تثير الشفقة وذلك في الزمان والمكان المناسبين ، لكن دعونا نعود في الوقت ذاته الى رجالنا.

وبما أن أسقف متزن (٨٧) وأخوه رينالد ، كونت مودسون (٨٨) ، وأسقف تول (٨٩) ، لم يستطيعوا تحمل الألمان ، وكان لديهم جيشهم الكبير العدد ، فقد وقفوا ينتظرون الأمير المسالم ، غير أن الاغريق تصرفوا بكل ماأوتوا من قحة ، فسحبوا الأسواق ، ومنعوا عنهم المؤن ، فأجبروهم على العبور قائلين بأنهم قد عقدوا اتفاقا مع الامبراطور الألماني ، فيه أنهم لن يسمحوا لأي من رجاله بالتخلف بعده ، ولدى سماع المبعوثين الملكيين - الذين كانوا حتى حينه ينتظرون في المدينة - بذلك ، وكانوا على بينة من صحة الأمر ، وضعوا حدا للنزاع بالوصول الى عقد اتفاق يقضي بوجوب عبور تلك القوات ، وحصولها على أسواق مناسبة ، أثناء انتظارها للآخرين ، وعندما وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ ، بقي بضعة من الفرنج - الذين كانوا قد سبقوا الجيش - في المدينة ، وعندها حنرهم الاغريق ، وألحوا عليهم بمغادرة المدينة وأن يتبعوا البقية ، وعندما لم يصفوا لهذا ، أرسلوا اليهم بعصبة كبيرة من البشناق والكومانيين ، من أجل طردهم ، وهم من القوم الذين كانوا قد قتلوا العديد من رجالنا بنصب الكمائن ، في الأجزاء غير المسكونة من بلغاريا (٩٠)

فدسلق الفرنجة مرتفعاً من الأرض ، واتخذوا لأنفسهم متاريس من عربات كان يجرها احصانان أو أربعة ، وقاوموا وقاتلوا بكل بسالة ، وهناك قاسى رجالنا ، وعانوا الكثير لأنهم لم يكن لديهم سوق ، في حين لم يتوقف العدو عن شن الهجمات ضدهم .

ولدى سماع المبعوثين الفرنجة بذلك ، انما بصورة متأخرة ، وكانوا في المدينة ، مضوا بغضب وهياج شديدين ، الى الامبراطور ، ذلك فور سماعهم خبر هذه الجريمة البشعة ، وأعربوا عن استيائهم نيابة عن أولئك الذين كانوا قد عبروا البحر قبل يوم واحد ، وعلى الأخص عن أولئك الذين هـوجموا من قبل الكفار في مدينة مسيحية ، وعندها أصدر الامبراطور - الذي يبدو انه لم يتمكن من إيقاف البشناق بأية طريقة - أصدر أوامره الى قواتنا بالانسحاب والتمركز على حواف القصر ، كما أمر أن يقام لهم سوق ، وبناء على هذا عندما تبلغ الفرنجة نص رسالة الملك هذه ، استجابوا للأوامر فخرجوا من وراء متاريسهم بعدما تركوها على حالها ، و انطلقوا نحو الأمام لا يعتربرهم خوف ولا وجل ، وعندما شوهوا لحق بهم بعض البشناق ، وحاول بعض آخر الاستيلاء على مواقعهم المحصنة ، وهنا عادوا بسرعة وقاوموا كل من أولئك الذين كانوا يطاردونهم ، وأولئك الذين كانوا منهمكين في احتلال موقعهم ، وقاتلوا ببطولة وشجاعة ، وفقد العديد من الجند المشاة بعض معداتهم ، إذ رموا بها وهم يحاولون الفرار بسرعة ، وحينذاك ، حمل بعض الرسل الذين أخذهم الغضب الشديد - مثل افراد من بيريتولي (٩١) ، وماناسيس (٩٢) من بوليس ، وأنسيلم (٩٣) حاجب أمير فلاندرز ، وآخرون غيرهم - السلاح ، إذ اعتقدوا بأنه من الأفضل لهم أن يموتوا بشرف من أن يشهدوا رجالهم وهم يموتون هكذا ، لهذا حملوا أسلحتهم ، وخرجوا من المدينة ، وانضموا الى رجالهم ، وشاركوا في الصراع ، وعندئذ مضى مقدم الداوية ، اللورد افراد من باريس (٩٤) ، وبارتلميو المستشار ، أسقف بوربون ، وآخرون

معهم الى الامبراطور ، وتغلبوا عليه بالعقل ، بينما لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك بالقوة ، فأقسم يميناً بأنه لم يكن على علم بهذا الذي حدث ، والتمس العذر لرجاله ، وأمر العساكر بالتمركز قرب القصر ، وعندما استقر كل شيء ، وانتهى الصراع أمر بإقامة سوق مناسبة.

ولقد كان بالامكان أن ترضي هذه النتيجة المبعوثين ، لولا أنهم كانوا قد حكموا على كل جريمة في ضوء الأخرى ، لأنهم كانوا قد علموا بأن الامبراطور على اتفاق مسبق مع التركمان وأنه قد حقق مؤخرًا نصرًا مبيناً عليهم ، هو بالذات ، قد وقع بالفعل هدنة معهم لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٥) ، وتضاعفت خيانتة كذلك ، وتجلت بوضوح في ضوء حقيقة أن الأعداد الكبيرة هي التي يمكنها فقط دخول مملكته بأمان ، لأن أسقف لانجريس ، وكونت وارين (٩٦) ، وبعض الآخرين الذين كانوا قد أرسلوا بضعة رجال للتقدم الى القسطنطينية للتزود بالأسلح والاطعمة للرحلة قد منيوا بخسائر كبيرة في المقتنيات ، وبكوا طويلاً على العديد من رفاقهم الذين لا قوا حتفهم ، أو أصيبوا بجراح ، ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط ، لأننا منذ ساعة دخولنا الى أرضه تعرضنا للنهب وقطع الطريق من قبل شعبه ، لأن قواتنا لم تكن تعادل قوتهم ، ولعل تلك الحالة كانت تحتمل بأن نقول بأننا نستحق ما نزل بنا، وما عانىناه من مصائب ، وذلك اذا ما وضعنا في الحسبان الجرائم والذنوب التي اقترفناها ، لولا أن الأمر بلغ حد التكفير والعبث بالمقدسات ، فقد صدف أنه عندما قام بعض كهنتنا بتأدية بعض القداسات على المذابح الاغريقية قام بتنقية هذه المذابح وتطهيرها بالتقدمات والمطهرات كما لو أنها نذست ، ولقد كان لكل واحد من أغنياء الاغريق كنيسة الخاصة به ، مزينة بالألوان الرائعة والمرمر ، ومضاءة بالمصابيح حيث أن كل رجل من أولئك الأعيان كان بإمكانه أن يقول حقاً : « يا رب أحببت محل بيتك وموضع مسكن مجسك (٩٧) » لو أشرق نور الايمان الحقيقي فيه ، لكن يا

لرغبة ما سمعناه عن سوء استخدامهم لها ، وهو أمر يجب أن يكفر عنه بالموت ، ذلك أنهم كانوا في كل مرة يحتفلون بها بزواج واحد من رجالنا المعمدين حسب الطريقة الرومانية ، كانوا يعيدون تعميده قبل إجراء العقد ، واننا نعلم المزيد عن بدعهم (هرطقاتهم) الأخرى ، فيما يتعلق بكل من معالجة القربان المقدس ، وسير روح القدس (٩٨) ، لكن ما من مسألة من هذا القبيل ستشوه صفحتنا ، إذا لم تكن متعلقة بموضوعنا ، وفي الحقيقة كانت تلك الأسباب هي التي حملت رجالنا على كراهية الاغريق ، لأن أخطاءهم أصبحت معروفة ، حتى من قبل أقل الناس شأنًا ، وعلى هذا الأساس حكم عليهم بأنهم ليسوا مسيحيين ، واعتبر الفرنجة بأن قتلهم مسألة لا تنطوي على أهمية وهكذا فإن منعهم عن ارتكاب أعمال السلب والنهب كان يتطلب المزيد من الصعوبات.

ودعنا الآن نعود نحو الملك ، الذي رغم أنه كان يتلقى مبعوثين من قبل الامبراطور يوميا تقريبا ، فإنه كان يشكو من تأخر سفرائه بالذات ، لأنه لم يكن يعلم ماذا جرى لهم ، وكان الاغريق يأتون دائما بأخبار جديدة ، دون أن يقدموا أي دليل عليها ، وكانوا أقل الناس موضعا للثقة ، لأنهم كانوا جميعا يستخدمون المداينة والتملق في كل مناسبة ، وتظاهر الملك بالرضى ، معتبرا الأمر له قيمة ضئيلة ، لأنهم كانوا يستخدمون القابا وعبارات شرف وتمجيد مثل « طال عمرك » ليس للملوك فحسب ، بل للأشراف ، ويحنون رؤوسهم ويركعون وحتى يسجدون على الأرض تواضعا ، وكانت الامبراطورة (٩٩) تكتب للملكة (١٠٠) من حين لآخر ، وعندئذ استحال الاغريق جميعا الى نساء ، ووضعوا جانبا كل صفة من صفات شجاعة الرجولة قلبا وقالبا ، وكانوا يثقون بنا ، ولم يحافظوا على احترام انفسهم ، وكانوا بصورة عامة يرون فعلا ، أن أي شيء يتم من أجل الامبراطورية المقدسة ، لا يمكن أن يعتبر حثثا باليمين ، ولا يظنن امرؤا بأنني أود النيل من قوم من الناس أكرهم ، ولست أقوم باختراع جماعات من الاغريق من نسج خيالي ، كمن لم يره قط في عمره ، فكل من عرف الاغريق سيجيب

إذا ما سئل عنهم قائلًا بأنهم عندما يخافون ، يصبحون جديرين بالازدراء ، ويفرطون في خستهم ، بينما يتعنتون ويتغطرسون في عنفهم على من يقع تحت رحمتهم عندما يكونوا أصحاب اليد العليا (١٠١) ، وعلى أية حال ، لقد عمدوا بكل ما وُتدوا من قوة الى نصيح الملك بأن يغير طريقه من ادرنه الى سان جورج في سيتوز ، وان يعبر البحر هناك على جناح السرعة ، وبشكل يوفر له الميزات ، بيد ان الملك لم يكن يرغب ان يقوم بشيء لم يسمع به البتة ، ولم يعرف ان الفرنجة قد فعلوه (١٠٢) في عمرهم ، ولذلك مضى على الطريق ذاتها التي كان الالمان قد سبقونا بالسير عليها من قبل ، لكن ليس مع نفس نذر السوء ، وعندما أصبح على مسيرة يوم واحد من القسطنطينية ، قابل مبعوثيه وممثليه (١٠٣) ، فقصوا عليه قصصا طويلة عن الامبراطور مما سبق لنا واشرنا الى بعضه بصورة جزئية ، وكان هناك آخرون ممن كانوا قد نصحو الملك بالتراجع والاستيلاء على الارض الوفيرة الغنى بقلاعها ، ومدنها ، وأن يكتب في الوقت ذاته الى الملك روجر ، الذي كان برفقة الاسطول يهاجم بكل عذف اراضي الامبراطور ، ليأتي لمهاجمة القسطنطينية نفسها (١٠٤) ، ولكن يالسوء طالعنا ، بل سوء طالع جميع رعايا القديس بطرس (أي الكاثوليك) لم يؤخذ برأيهم ، لذلك تقدمنا ، وعندما اقتربنا من المدينة (١٠٥) تخيل معي كيف احتشد أشرفها وأثريائها جميعا ، وحتى عامة الناس فيها ، وخرجوا لمقابلة الملك ، فاستقبلوه بما يقتضيه الشرف والتواضع ، طالبين اليه أن يمثل أمام الامبراطور ، ويلبي رغبته في مشاهدته والتحدث اليه (١٠٦) وأشفق الملك في تلك الساعة على الامبراطور الذي كان قد اعتراه الخوف ، فاستجاب لمطلبه ، فدخل مع لفيف من رجاله ، حيث قوبل بالترحاب الامبراطوري في بهو القصر ، وكان كل من الملكين في عمر واحد وشكل جسماني متشابه ، وتميزا عن بعضهما البعض باللباس والعادات فقط ، وبعد أن تبادلوا العناق والقبل ، دخلا الى حيث وضع كرسيان (١٠٧) فجلس الاثنان وتبادلا الحديث بمساعدة مترجم ، في

- ٣٠٠٢ -

حين أحاط بهما رجالهما على شكل دائرة ، وسأل الامبراطور الملك عن أحواله الحاضرة ، واستفسر عن رغباته بشأن المستقبل ، متمنيا له الأمور التي ينعم بها الرب ، وواعدا إياه بتقديم المساعدات ضمن الامكانيات المتاحة له في نطاق سيطرته ، ولكن ترى هل من الممكن أن يكون ذلك قد تم بإخلاص بقدر ماشرح بسرور ؟ لو أن إيماءاته وحيوية تعابيره وكلماته كانت إشارة حقيقية تعبر بصدق عما كان يدور بخلده من أفكار ، علما بأن أولئك الذين كانوا يقفون على مقربة منه قد شهدوا بأنه أحاط الملك بعطف كبير ، لكن مثل هذا الدليل ظاهري فقط وليس قطعيا ، وفي النهاية افترق الملكان وكأنهما أخوان ، واصطحب أشرف البلاط الامبراطوري الملك الى القصر الذي جرى اعداده ليكون مكانا لاقامته .

نهاية الكتاب الثالث

بداية الكتاب الرابع

تقع القسطنطينية ، مجد الاغريق ، الغنية بشهرتها ، والاغنى بممتلكاتها ممتدة على شكل شراع سفينة (١٠٨) مثلث الشكل ، وفي زاويتها الداخلية تقع سانتا صوفيا (ايا صوفيا) (١٠٩) ، وقصر قسطنطين (١١٠) الذي يوجد فيه معبد (مشهد) صغير يحظى بتقدير كبير ، بسبب وفرة الآثار المقدسة (١١١) ، فضلا عن ذلك طالعنا نراع القديس جرجس عن يميننا (١١٢) ، ومصوب نهر عن يسارنا ، يتدفق هذا النهر بعد تفرعه من الذراع لمسافة تقارب الأربعة أميال (٦) ، وفي ذلك المكان كان يعلو قصر بلاشرين شامخا ، رغم أن أساساته كانت تقع في أرض منخفضة ، وحيث أنه محاط من جوانب ثلاثة فهو يوفر لسكانه ثلاثة مجالات للتمتع بالنظر الى البحر والحدائق والمدينة ، وإن منظره الخارجي من الجمال بقدر ، حيث لا يضاويه مكان آخر ، أما داخله فبوسعي أن أقول عنه كل شيء : لقد كان مزينا بالذهب بكل دقة ، إضافة إلى عدد كبير من مختلف الألوان ، وكانت الأرض من المرمر ، وقد رصفت بمهارة فائقة ، ولست أدري فيما إذا كان الفن أم المواد التي احتوتها قد زادت من جمالها أو من قيمتها (١١٤) ، ويشتمل الجانب الثالث من مثلث المدينة على حقول محصنة ببروج وأسوار مزبوجة تمتد على طول حوالي الميلىن ، من البحر الى القصر ، ولم يكن ذلك السور من القوة بمكان ، كما أنه لم تكن له أبراج منفردة ، غير أن المدينة تضع ثققتها ، حسب اعتقادي ، في حجم سكانها ، ويطول فترة السلام ، التي كانت تنعم بها (١١٥) وتمتد أمام الأسوار الأرضى الفسيحة المحروثة بالمحراث والمعول ، وتكتنفها حدائق تزود السكان بمختلف أنواع الخضراوات ، أما في خارجها فكانت الأقدية الجوفية ، تتدفق بمياه عذبة لتزود المدينة بها بشكل وفير (١١٦) .

وكانت المدينة ذاتها في أماكن متعددة منها تعاني من الظلمة

الدائمة ، وذلك لأن ميسوري الحال فيها كانوا يظللون شوارعها بالمباني ، ويتركون تلك الطرقات تعج بالغبار والأوساخ والامكنة المظلمة التي يعاني منها الفقراء والمسافرين ، وهناك في الحقيقة كانت ترتكب جرائم القتل والنهب ، لأن مثل تلك الأعمال تجد الظلمة وسطا خصبا كي ترتكب فيه ، وبالإضافة الى ذلك ، بما أن الناس كانوا يعيشون في تلك المدينة بلا قانون ، ذلك أنها مدينة تحوي من الأعيان والأغنياء بقدر ماتحوي من اللصوص والفقراء ، علما بأن المجرم لا يلاحق ، ولا يخرج لـ لان الجريمة لاتعاقب بالقانون ، ولا تربي الضوء برمتها ، فهي تتجاوز كل اعتدال بأي مجال كان ، وهي تتجاوز بقية المدن الأخرى بالرزيلة ، كما تتجاوزها بالثروة ، وعلى الرغم من أنها تحتوي على عدة كنائس ، فليس بينها واحدة تعادل كنيسة آيا صوفيا من حيث حجمها ، بيد أنه هناك ما يعادلها من حيث جمالها ، الذي يزيده فتنة كثرة الآثار المقدسة ، وقد تسنت الفرصة للبعض منا كي يدخل هذه الامكنة (١١٧) ، فمنهم من دخل لمشاهدة المناظر ، ومنهم من دخل لتأدية فريضة العبادة بإيمان .

وقام الملك يرشده الامبراطور بزيارة المشاهد والمعابد (١١٨) ، وتناول بعد عودته طعام العشاء معه ، وذلك نزولا عند رغبته ، وبناء على إلحاحه الشديد في الطلب ، وكانت تلك الوليمة مصدرا للمتعة للأنف والفم والعين ، حيث وجد فيها ما يطيب سماعه ، وما يلد أكله ، وما ينبر رؤيته (١١٩) وفيها كان التفاح والعنب وغيرهما ، وهناك خشي على الملك عدد من رجاله ، لكنه وهو الذي سلم نفسه للعناية الربانية لم يخش شيئا على الإطلاق ، لأنه كان يتحلى بالإيمان والشجاعة ، فالذي لا يميل الى الحاق الأذى بغيره لايعتقد بأن أحدا يريد له الضرر .

وعلى الرغم من أن الاغريق لم يقدموا لنا برهانا على أنهم كانوا ينوون الغدر بنا فما زال الاعتقاد يساورني بأنهم ما كانوا ليظهروا هذا الاحتفاء وهذه العناية لو أن نوابهم كانت طيبة ، لقد كانوا

فعلا يخفون النوايا والخطط الشريرة التي اقترفوها بعدما عبرنا
الزراع ، هذا ولا يؤخذ على الاغريق اغلاقهم أبواب المدينة في وجه
الحشد ، بما أنه قد تم احراق العديد من بيوتهم مع الأشجار
الزيتون ، وذلك إما طلبا للأخشاب ، أو بسبب غطرسة وسكر
الحمقى ، وغالبا ما كان الملك يعاقب المهاجمين بقطع أذانهم وأيديهم
وأقدامهم ، ومع ذلك لم يتمكن من وضع حماقات المجموعة بأكملها
تحت السيطرة أو المراقبة ، وكان الحل لهذه العضلة واحدا من
اثنين : إما قتل بضعة آلاف دفعة واحدة أو التغاضي عن أعمالهم
الشريرة (١٢٠) ، وكما كنت أقول من قبل ، كانت هناك سفينة توفر لنا
سوقا كبيرا وذلك أمام القصر ، وحتى بين الخيام كان يتوفر لدينا
سوق لتبديل العملة بصورة وافية ، لو أنه دام طويلا ، إذ كنا ندفع
أقل من اثنين « دينارى » للاستامينا الواحدة ، ومارك واحد لكل
ثلاثين ستامينا (ثلاثة سولدى = قطعة ذهبية) لكن بعد أن
سافرنا وبعدنا ثلاثة أيام عن المدينة ، صرنا ندفع خمسة أو ستة
ديناري لقاء ستامينا واحدة ، وخسبنا ماركا واحدا لقاء كل اثني
عشر سولدى (قطع ذهبية) .

وبينما كان الملك ينتظر القوات القادمة من أبوليا ، وعندما كانت
تعبّر بين برانديزي وودازو (١٢١) حل عيد القديس نينس (١٢٢) فجري
الاحتفال به بالمراسيم المعتادة ، وكما يقضى الواجب ، ولما كان
الاغريق يحتفلون بهذا العيد أيضا ، علم الامبراطور
باحتمالنا ، فبعث للملك بمجموعة من رجال الدين تم اختيارها بدقة
متناهية ، وزود كل فرد من أفرادها بشمعة زينت بالذهب وبألوان
متنوعة ، وبذلك زاد من أبهة الاحتفال ، ولا شك أن رجال الدين
لديهم كانوا يختلفون حقا عن رجال الدين عندنا ، من حيث حديثهم
ونظام خدماتهم ، وقد تركوا انطبعا جيدا بتراثيلهم
الجميلة ، وبأدائهم الجيد باختلاط أصواتهم بين العالي
والخافت ، وحيث أن أصوات الخصيان منهم (لأن العديد منهم
كانوا خصيانا) وإن كانت أصوات رجال ، تميزت بالدفع ، فقد
انخلت الطرب الى قلوب الفرنجة ورطبتهها ، وكما أنها بعثت السرور

في قلوب الجميع وكان لتصفيق هؤلاء الخصيان بأيديهم بشكل أخاذ أكبر الآثار ، إنما إننا إذ نذكر بهذه الافضال من جانب الامبراطور ، نريد اظهار الغدر الذي كان يضمرة لنا ، ذلك الرجل الذي كان يتظاهر بعواطف الصداقة التي اعتدنا على ابدائها نحو أقرب المقربين من اصدقائنا فقط ، في حين انه كان يخفي شعورا بالكراهية لنا ، لم نستطع ان نطفئه الا بموتنا ، ومن المؤكد أنه ليس باستطاعة اي مخلوق ان يفهم الاغريق ما لم يعاشرهم ، او ما لم يوهب الهاما نبويا .

ونظرا للشك في تعهداتهم ، وازدراء لاحسانهم ، وبسبب توقع الاضرار التي لحقت بنا فيما بعد ، ألح علينا أسقف لانجرس أن نأخذ المدينة بالقوة ، وقد برهن على أن الجدران التي اضمحل جزء منها أمام أعيننا ، كانت ضعيفة ، وأن أهلها كانوا كسالى خاملين ، وأن الماء العذب يمكن أن يقطع دونما إعاقة أو جهد يذكر ، وذلك بقطع المجاري ، وقد قال ، وهو الورع العاقل : إنه إذا ما أخذت المدينة ، فلن تقتضي الضرورة بحر المدن الأخرى ، بما انها ستدين بالطاعة طوعا لمن امتلك العاصمة (١٢٤) ، و اضاف الى ذلك قوله بأن القسطنطينية مسيحية بالاسم للمسيحيين في حين ان امبراطورها كان قد جازف قبل بضعة سنوات ، فحاول مهاجمة امير انطاكية (١٢٥) ، او كما قال: لقد استولى اولا على طرسوس والمصيصة وحصون عديدة ، وقطعة كبيرة من الأرض وبعدما طرد الاساقفة الكاثوليك في المدن واستبدلهم بالهراطقة (١٢٦) اقدم على حصار انطاكية».

لقد قام بكل هذا على الرغم من أن واجبه كان : طرد « الكفار » المجاورين عن طريق توحيد القوى المسيحية ، الا انه مضى بمساعدة الكفار للقضاء على المسيحيين ، لكن الرب الذي يعلم كل شيء ، يحكم وينتقم لهذه الأمور ، وهكذا قضى بأن يجرح نفسه بسهم مسموم (١٢٧) ، وينهي حياته المخزية نتيجة لذلك الجرح البسيط ، وعلى اية حال لم يقتصر الحاكم الحالي على الاحتفاظ

لنفسه ، وهو وريث الجريمة المخزية ، بالسلطات الكنسية والملكيات الأخرى التى حاز عليها ، بل أنه كان يتطلع تماما بتشويق وجشع الى ما تبقى من الأراضى التى كان يريد لها والده ، وهو الذى كان قد انتزع بيعة الأمير وطاعته له (١٢٨) ، وأقام مذبحا ضد مذهب آخر ، كما أسس بطركية خاصة به فى المدينة ، مزدريا بطركية القديس بطرس: « ليكن القرار قرارك يارب ، فيما اذا كان يتوجب عليك أن تحافظ على الرجل الذى لا ينعم الصليب ولا قبر المسيح بالأمان فى ظل حكمه ، والذى بتدميره سيزول من الوجود كل عدوان عليهما ».

وعندما انتهى الأسقف من حديثه لقيت ملاحظاته الترحاب لدى بعضهم ، أما العديد ممن لم يلق الترحاب من قبلهم فقد أجابوا بعبارات ، مثل العبارات التالية : « لا يسعنا بدون معرفة بالقانون أن نحكم على إخلاصهم وإيمانهم ، وإن حقيقة مهاجمته لانطاكية كانت ضربا من ضروب الشر ، لكن يمكن أن تكون لديه الأسباب المسوغة لذلك ، والتي نجهلها نحن ، وإنه لمن المؤكد بأن الملك قد تشاور مؤخرا مع البابا ، لكن البابا لم يعطه أية نصيحة ، ولم يصدر إليه أمرا بشأن هذه المسألة ، والملك يدرك كما ندرك بأنه يتوجب علينا زيارة القبر المقدس بتوجيه من الحبر الأعظم ، لكي نمسح خطايانا بالدم ، أو بتحويل الكفار (١٢٩) صحيح أننا فى هذا الوقت يمكننا أن نهجم أغنى المدن المسيحية ، ونغني أنفسنا ، لكننا بعملنا هذا لا بد لنا من أن نقدم على اقتراف القتل والتعرض للقتل ، وعلى هذا إذا كان نبح المسيحيين يحو خطايانا ، فدعونا نمضي للحرب ، ومرة أخرى إذا كان اخفاء المطامح لا يندس موتنا ، وإذا كان الموت فى هذه الرحلة من أجل الحصول على المال يعد وفاء بالوعد ، ويعتبر طاعة للحبر الأعظم ، فأهلا بالثروة ، ودعونا نعرض أنفسنا للخطر دون أن نخشى الموت » .

وعلى هذا النحو كان الخلاف فيما بينهم ، وأخذ مؤيدو كل جانب يدافعون عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قدرة ، ومع ذلك فإنني أعتقد أنه كان بوسع الأسقف أن ينتصر ، لولا أن الأغريق لم يكسبوا اليد

العليا عن طريق الخيانة ، أكثر مما فعلوا عن طريق القوة ، ذلك أنهم اعتبروا تأخرنا موضعا للشك (١٣٠) ، ومع هذا لم يتجسروا على الإلحاح علينا بالعبور ، لكنهم استولوا على جزء كبير من سوقنا ، وسحبوه من بيننا ، ثم أخذوا يحثوننا على الجواز عن طريق بث الإشاعات عن الألمان ، فقد قالوا بادية ذي بديء بأن التركمان قد حشدوا جيشا عرمرما ، وأن الألمان قد قتلوا / ١٤٠٠ / رجلا من ذلك الجيش دون أن يتكبدوا أية خسارة ، وهكذا أقنعونا بعد يومين لكي نقوم بالعبور التعتيس ، وذلك عن طريق إذاعة خبر سعيد ومفرح أكثر من السابق ، فقد قالوا بأن الألمان قد وصلوا إلى قونية ، وأن أهالي تلك المدينة الذين أخذ الرعب منهم كل مأخذ قد فروا هاربين قبل وصولهم إليها .

وبما أن الألمان كانوا يتقدمون بسرعة ، فقد كتب امبراطورهم إلى الامبراطور الآخر (١٣١) يدعوه للالتحاق به ، وأنه بانتظاره ليسلمه ما أقدم على احتلاله لحسابه بدون جهد يذكر (١٣٢) ، وثار الجيش بهذا المهماز وتهامس الرجال ضد تأخر الملك ، لأن البعض قد حسدوا الألمان على ثروتهم ، وحسداهم آخرون على شهرتهم ، وعلى هذا قرر الملك العبور قبيل وصول أولئك الذين كان ينتظرهم (١٣٣) ، محكوما عليه بكل من نصيحة الأغريق ، وشكاوى رجاله ، وأعد الامبراطور أسطولا للجواز ، بسرعة تعادل شوقه الكبير لهذا التحرك .

وقضى الملك خمسة أيام (١٣٤) على الجانب الأقرب من النراع ، منتظرا قسما من جيشه ، ثم أمضى خمسة أيام أخرى على الجانب الآخر ، يتحمل دهاء الأغريق ، فقد توفرت لهم الآن الفرصة التي كانوا يتوقعونها ، وتجسروا على كشف النقاب عن مشاريعهم ، غير أن حماقة رجالنا سمحت لهم بأن يخفوا شرهم وهكذا فقد وصف الكثيرون تصرفات الأغريق حيالنا على أنها انتقام ، وليس من قبيل المكر والخداع ، فمن لديه معرفة جزئية بقضية يقوم بإصدار حكم جزئي عليها ، أما من لا يعلم القضية برمتها لا يمكنه أن يطلق

حكما عادلا ، وفي حقيقة الامر يمكن الحاق الأذى بالأغريق ولكن لايمكن تهديتهم ، وعليه فقد قمنا بالجواز تتبعنا المؤن والسفن مع صرا في المال في الخارج ، وقد عرض الصرافون خزائهم على طول الساحل ، وكانت مناظدهم تشع بالذهب وتتلالا بالأواني الفضية التي كانوا قد اشتروها منا ، وكان قد خرج من بين صفوف الجيش أناس يقايضون لقضاء حاجياتهم الضرورية ، وانضم إليهم رجال وضعوا أعينهم على إمدادات الآخرين ، فاشتروا تملكها ، وذات يوم قام فلمنكي يستحق الازدراء والالقاء في الجحيم ، قام وقد رأى الثروات الهائلة أمامه ، فأعمته شهوته في تملكها فصاح : « هافو ... هافو (١٣٥) » واستولى على ما اشتهاه ، وقام بتحريض الرجال من أمثاله على ارتكاب الجريمة ، مدفوعا إلى ذلك بوقاحته وبقيمة الغنيمة ، وبما أنه كان هناك حمقى في كلا الجانبين (لأنه في تبديل العملة هناك العديد من الوسطاء والحمقى) فقد هرع أولئك الذين كانوا يحملون المال واندفعوا في جميع الاتجاهات .

وازدادت الضجة ، وعظم الارتباك ، وسقطت المقاعد ، كما سلب الذهب واحتجز ، وفر صرافوا المال المنكوبين خشية الموت ، ولدى فرارهم نقلتهم السفن ، ولما غابت السفن أخذت عددا من رجالنا الذين كانوا يبتاعون الطعام خارج المدينة ، إلى داخل المدينة ، وقد تعرض أولئك الرجال للضرب والسلب ، كما سلبت المدينة ضيوفها ، وعاملتهم وكأنهم أعداء .

ووضع الملك في صورة الحال ، فقام وهو يشتعل غضبا ، فطلب إلقاء القبض على المجرم ، الذي شنق فور تسليمه من قبل كونت فلاندرز (١٣٦) على مشهد كامل من أهل المدينة ، وعندها أسرع الملك للبحث عن البضائع المفقودة ، فأعلن العفو عن الذين أعادوها ، وتهدد أولئك الذين أخفوها بإنزال العقاب بهم ، مثل العقاب الذي أنزل بالفلمنكي ، وهكذا تعين عليهم ألا يخافوا أو يخجلوا من وجود المنهوبات لديهم ، وأمر الجميع بإعادة كل شيء إلى أسقف لانجريس ، وفي الصباح جرى استدعاء صرا في المال الذين كانوا قد

فروا في اليوم السابق ، فاستعادوا كل ما استطاعوا أن يقسموا يميناً أنهم قد فقدوه ، وطالب السواد الأعظم منهم وسألوا أكثر مما يتعين لهم ، وكان الملك يفضل تعويض المواد المفقودة من ممتلكاته الخاصة بدلاً من أن يزعزع لسلام جيشه (١٣٧) .

وفي أعقاب هذا الاسترداد اختار عدداً من المبعوثين أرسلهم إلى الإمبراطور يطلبون منه إعادة رجال (الملك لويس) المحتجزين وبضائعهم ، وإعادة نصب سوق للجيش ، وكان على رأس المبعوثين أرنولف صاحب ليزيو ، وهو أسقف صاحب مكانة سامية ، بسبب بلاغته وورعه ، وبارثلميو الحاجب ، وبما أن الملك كان دائماً يعرف بسرعه في تصحيح الخطأ ، فقد ألح على مبعوثيه بالأسراع ، فعبروا في الصباح الباكر ، وسمح لهم بالدخول إلى القصر من قبل حراس الأبواب ، لكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث مع « الوثن » (١٣٨) ، وترتب على المبعوثين في ذلك اليوم أن يعزي كل منهم الآخر ، وأن يشغلوا أنفسهم بالقاء النظر على الصور بدلاً من الانشغال بتناول الطعام ، وأما أثناء الليل ، فقد قام الرخام الذي يعبد الأرض مقام السرير والفراش ، وفي اليوم التالي ، وبعد أن نهض ذلك الرجل غير الودع ، في حوالي الساعة الثالثة ، جلبوا إلى حضرته ، دون أن يكونوا قد ذاقوا الطعام أو عرفوا طعم النوم ، ونفذوا هدف السفارة فيما يتعلق بكل من التعويض لرجالهم وشكاوى رجالنا ، وببلاغة حكيمة يسودها اللطف كان بإمكان الأسقف أن يجعل الوصول إلى الإمبراطور ممكناً ، لو أن ذلك الثعبان كان يمكن سحره من قبل الحواة الراقين ، لكنه كان قد تغير عما كانوا يعرفونه من قبل ، وأصبح « مثل الصل الأصم يسد أذنيه » (١٣٩) ، وأصبح الآن مكشوفاً لهم ، بعد أن كان يتستر وراء الخداع ، ومع ذلك كان الأسقف مصراً ، وسادت كلمته جزئياً ، وحصل الجيش على سوق ، وتوفرت هناك طريق لرحيل الحجج الذين كانوا قد فقدوا بضائعهم ، وقال الإمبراطور إنه مازال على استعداد للاجتماع بالملك ، وإرسال المبعوثين على الفور ، وعندئذ أملت الحاجة على

الاسقف أن ينسحب قبل أن يتوجب عليه أن يصوم لليوم الثالث في قصر الامبراطور .

وعلى أية حال ظل الامبراطور يتزين زيفا باللفظ ، لكي يكون أكثر قدرة على الحاق الضرر ، فأمن سوقا ، لكنه ظل سوقا هزيلا ، وأبقى على نيته الاجتماع بالملك — إنما بعد فوات الأوان — وهكذا فقد بعث برسله بعد انقضاء عدة أيام ، وأكل الفرنج أثناء الانتظار الطعام الذي كان معدا من أجل الرحلة ، وأراد الامبراطور أن يعود الملك إلى القصر ، بينما أراد الملك أن يجري الاجتماع على الجانب الذي يقيم عليه ، أو في البحر بحيث يكون الطرفان في موقع متساو من حيث مركزيهما ، وكشف الامبراطور أخيرا ، بواسطة رسوله ، عن الشروط التي كان قد أجلها بحصافة وحذر ، فقد طلب أمرين إثنين : امرأة من قريبات الملك كانت ترافق الملكة ، طلبها زوجة لواحد من أبناء أخيه ، وأراد أن يقدم النبلاء يمين الولاء له ، وقد وعد مقابل ذلك بتأمين الأبله والتبادل المالي العادل (أي الصرافة) والأسواق في كل مكان ، وحيث لن تتوفر هذه الامتيازات للفرنج ، فإن لهم الحق بالقيام بأعمال السلب ، وهم مفوضون بذلك ، وإذا رفضت قلعة ما أو مدينة تقديم المساعدة من هذا القبيل ، يمكنهم الاستيلاء عليها ، لكن بعد نهبها عليهم أن يخلوها وتترك له غير محتلة ، وفضلا عن ذلك فقد قدم للملك المزيد من الهدايا الملكية ، ولكل واحد من النبلاء هدايا تليق بمقامه .

وبعد أن سمعوا بتلك الشروط ، أصبح من الضروري مرة أخرى أن يتأخروا ، أولا لأن كونت موريين (١٤٠) ومركيز مونتفرات (١٤١) أخوال الملك ، وكونت أوفيرن (١٤٢) وعديدون آخرون ممن كنا ننتظره ، كانوا قد خيموا بظاهر المدينة ، حيث كان بوسعنا أن نراهم ، ثانيا لأن النبلاء رفضوا طلب الامبراطور ، وعليه أقدم الاغريق الذين كانوا في العادة يلحون على الناس أن يعبروا ، على تأخير العبور بخلق العراقيل (١٤٣) ، وبناء على ذلك كله فقد انتشر الفرسان البارزون في الجبال لتأمين التعموين لنا أثناء الرحلة ،

واستطاعوا بفضل الاغارات أن يزودوا الجيش بالامداد ، وكان في ذلك خسارة للأغريق ، وقساموا بشراء مركب لاتباعهم ، وبذلك استطاعوا أن يقدموا ما كان الأغريق قد أوقفوه ، وأبحروا به عبر الذراع ، وبذلك رحبوا بالرجال الذين كانوا بانتظارهم ، وفي الوقت ذاته عندما كانت مطالب الامبراطور تثير الغضب الشديد قام روبرت ، كونت بيرش^(١٤٤) أخو الملك باختطاف المرأة قرييته سرا من بين حاشية الملكة ، وبذلك حرر نفسه وبعض النبلاء من الرضوخ الى الامبراطور ، وحال دون زواج قرييته هذه من ابن أخي الامبراطور ، ومن ثم مضى إلى نيقوميديا .

وناقش الملك عرض الامبراطور مع الاساقفة وبقيّة البارونات ، فقد قال بعضهم ، ولاسيما أسقف لانجرس : « ألا ترون إنه رجل شرير ، يقوم الآن بكشف ما كان قد أخفاه من قبل ، إنه يطلب منكم امر الرضوخ له ، في حين كان من الممكن أن يكون هو الراضخ ، ويعد بما يجب أن يكون قد حققه نصرنا عليه ، ومهما يكن الحال ، دعونا يا أحبائي نضع الشرف فوق التوافق وقبله ، ودعونا نحقق بالقوة ما وعدنا به بالرضوخ ، كما لو كنا وضعاء من أهل الشره ! إنه عندما يكون لدينا مثل هذا السيد الشريف ، من المؤكد أنه من العار أن نقدم الطاعة والولاء لرجل كافر » .

وعلى الرغم من هذا العرض القوي ، فقد ساد رأي جماعة أخرى ، بسبب عددها الكبير وطرحها المنطقي ، فقد حاجج أفرادها وجاءت اجاباتهم على النحو التالي : « إنه طبقا لأعرافنا يمكن أن يكون لنا بعد الملك أسياد عدة (لوردات) نخضع لسلطانهم ، لكننا نحافظ على ولائنا له أولا ، وإلى أبعد حدود الولاء ، فإذا كنا نعتقد بأن ذلك مدعاة إلى الخجل ، دعونا نقضي على هذا العرف ، والآن وبعد أن أصبح الامبراطور يخشى على مصالحه نراه يطلب منا الرضوخ ، ولذلك إذا كان من العار علينا أن يخشانا ، وإذا كان من المعتقد غير مشرف لنا أن نعمل من أجل الامبراطور ما نفعله من أجل لوردات أقل شأننا ، فهيا بنا نتخلى عن هذه الفكرة ، وعلى أية

حال إذا كان خوف الامبراطور ، وتعلقنا بالعرف لا يضير الملك ، ولا يسيء لنا ، فدعونا نحافظ على عرفنا ، ودعونا ننتزع خشيته ، ونطرد خوفه كيما نحقق لانفسنا المنافع ، في الوقت الذي نتطلع فيه إلى الامام ، إلى مقتضيات الرحلة ، إننا نريد الامدادات ، وما من واحد منا يعرف هذه الأرض ، ولذلك نحن بحاجة إلى دليل ، إننا نسير ضد « الكفار » فدعونا نكون في سلام مع المسيحيين .

وتمكن اثناء هذه المناقشات معظم الرجال تقريبا ، الذين كان ينتظرهم الملك ، من عبور النزاع ، هذا وإن ذكر أسمائهم يثير الأسى في نفسي ، لأنني كنت أشهد وفياتهم التي كانت لا تتوقف (فضلا عن أن قوائهم يمكن أن تذهل القارئ) ولما كان الامبراطور وحده يسبب المزيد من التأخير ، أصدر الملك أوامره بإزالة المعسكر للتحرك ، وما أن سمع الامبراطور بذلك - بعد أن أرسل مبعوثيه - حتى أسرع بالسير وراء الملك ، معينا إحدى القلاع لاجتماعهما ، وهناك حشد أسطولا من أجل ضمان سلامته ، ومركزه في البحر على مقربة منه ، وعندها لم يرغب الملك - الذي أبدى إعجابه بسمعة الألمان ، وبتصرفاتهم - في التأخير ، وسعى سعيا حثيثا لكي يحظى لنفسه بسمعة مماثلة ، لكنه مع ذلك لم يرفض فكرة الاجتماع ، ففي الوقت الذي مضى فيه الجيش في تقدمه ، عاد هو مصطحبا معه عددا من نبلائه البارزين ، مع مجموعة من الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع تحمل مطالب الملك ، برضوخ رجاله له ، إلا أنه اعتقد بأن هذه الموافقة قد تكون خدمة للرب ، علما لو أن الامبراطور كان مسيحيا حقا لكان ملزما بخدمة الرب دون أية مطالب لنفسه ، لكنه قال بأنه كان يخشى شعبنا ، الذي صارت لديه خبرة ومعرفة به وبمملكته ، وإذا لم يؤكد له مرة أخرى حسن نواياه ويعطيه مثل هذه الضمانة ، فسيجرد من جميع الامتيازات الممنوحة ، ولما كان الملك مندفعاً ، يريد الاسراع في زحفه ضد « الكفار » فقد أثر أن يغير مواقفه الثابتة ويعدلها كيما يتماشى مع رغبات الامبراطور ، بدلا من أن يتأخر عن تأدية الخدمة للرب بأية وسيلة كانت .

ولذلك جرى اعداد الاتفاقات فور اجتماعهما ، وقد نصت على ألا يأخذ الملك من الامبراطور أي حصن أو بلدة خاضعة لادارته وقانونه ، وتبع هذا المطلب المعقول والمتواضع وعد لا يقل عنه كرما ، لكنه كان وعدا كاذبا ، بذله لأنه - أي الامبراطور - رأى لزاما عليه تقديم عرض من شأنه أن يشكل نظيرا لموافقة الملك على السلام ، لذلك أضاف إلى ما سبق أنه سيرسل إثنين أو ثلاثة من كبار بطارقته (نبلائه) للسفر مع الحملة لارشاد الملك إلى الطريق الصحيح ، وتأمين سوق مناسب في أي مكان ، وفي حال عدم توفر السوق ، سيسمح لجيش الملك ، عن رضى ، بسلب القلاع والاستيلاء على المدن ، وعندما يتم الحصول على الغنائم ، يجب ترك المواقع دونما احتلال .

وفي ذلك الحين كان الملك روجر صاحب أبوليا يشن بإلحاح واصرار هجوما ضد الامبراطور ، ويقوم باحتلال أماكن عدة من بلاده ، ولو أن الامبراطور استطاع أن يفوز بملكنا للتحالف معه ضد روجر ، لكان قد جاد عليه بكل ما في خزينته من كنوز ، ولكن بما أنه لم يستطع التأثير عليه ، سواء بمواصلة الطلبات ، أو بالوعود التي لا يوثق بها ، لذلك فقد دخلا في حلف فيما يتعلق فقط بالشروط المشار إليها آنفا ، وفي نهاية الأمر عندما قدم البارونات ولاءهم ورضخوا ، وعندما شرفوا بتقديم الهدايا إليهم وإلى الملك ، وهي هدايا كانت امبراطورية من حيث الكرم والحجم ، سارع لويس إلى اللحاق بجيشه ، وتلخخ الملك غير الورع بمخالفة الأيمان ، لكنه استراح من كابوس الخوف ، فبقي في الخلف ، ومنح السوق لبضعة أيام فقط ، ولم يرسل المرشدين الذين كان قد وعد بهم أبدا (١٤٥)

وفي ذلك اليوم شهدت الشمس جريمة لا تطاق ، لكن تلك الجريمة يجب ألا تعتبر على أنها تعادل خيانة الرب ، حيث أن نصف الشمس قد شع بالضوء على العالم ، وحجب النصف الباقي نفسه ، وهكذا بينما كان الجيش يتقدم بدون الملك ، ورأى الشمس على هذا الشكل ، أي شكل نصف رغيف من الخبز ، معظم النهار ، خشي بأن

يكون الملك ، الذي كان يشع أكثر من الجميع بالايمان ، وينضج بالاحسان ، ويتمتع بسمو إلهي ، بسبب الرجاء (١٤٦) اقد جرد من جزء من نوره ، وذلك بشر الاغريق وخداعهم ، وليس هذا فحسب ، بل هناك شيء آخر يثير الاسى على حد سواء ، فقد حدث أن الامبراطور الألماني الذي خانه دليله وتخلي عنه في الممرات الجبلية الضيقة ، أجبر على الانسحاب والتراجع بعد أن لاقى الآلاف من أتباعه حتفهم بسهام التركمان ، كما سنروي خبر ذلك فيما بعد ، ولأننا علمنا فيما بعد بمعناها ، فقد قمنا بتفسير الظاهرة السماوية على وجه أكثر دقة قائلين إن ملكنا والامبراطور الألماني كانا شمساً واحدة ، بما انهما كانا يشعان بإيمان واحد ، وإن نصف الشمس شع بالضوء ، في حين حجب اشعة النصف الآخر ، لأن الألمان قد تراجعوا في حين مضى الملك متابعاً مسيرته بحماسة نفسها ، وغيّرت المعتاة.

نهاية الكتاب الرابع

بداية الكتاب الخامس

القسطنطينية مدينة متغطرة بثروتها ، غدارة بممارستها وفاسدة بايمانها ، انها تخشى كل واحد على حساب ثروتها ، والجميع يخشونها بسبب خداعها وعدم اخلاصها ، ولو لم تكن تنقسم بهذه الشرور لكانت مفضلة على جميع الامكنة الأخرى ، سيما ومناخها معتدل ، وتربتها خصبة ، وموقعها مناسب تماما للتبشير بالعقيدة ، وفي حقيقة الأمر إنها تسيطر على نزار القديس جرجس ، الذي هو في الوقت ذاته حوض مائي يحتوي على الوفير من الأسماك والملح ، وهو أشبه بجندول صغير ، لدرجة أنه يمكن عبوره بسهولة وأمان بمعدل سبع أو ثمان مرات في اليوم الواحد .

وتعتبر رومانيا (بيزنطة) بلادا مترامية الأطراف ، تعج اراضيها بالعديد من الجبال الوعرة ، وهي تمتد حتى أنطاكية في الجنوب وتحدها تركيا من الشرق ، وعلى الرغم من أن الأخيرة كانت تخضع سابقا للقانون الاغريقي ، فإن التركمان يمتلكون الآن الجزء الأكبر منها ، فبعد طردهم الاغريق أخذوا قسما جديدا من الأراضي ، ولكن بما أن الاغريق مازالوا يتمسكون بالقلاع نجد كلا الشعبان يقدسان ريع المحاصيل ، وقد استرد الاغريق بعض الأراضي واحتفظوا بها ، وهي تلك التي احتلها الفرنجة ، ذلك أنهم لم يحتفظوا بها ، لانهم كانوا يسعون للوصول الى القدس (١٤٧) ، وكان يمكن ان يفقد هؤلاء الكسالى كل شيء لو لم يدافعوا عن انفسهم عن طريق استيراد الفرسان واستئجارهم من امم مختلفة ، وهكذا انهم يكسبون الذهب ، لكي يفتدوا انفسهم بالذهب ، ومع ذلك كانوا دائما يخسرون (لكن بما انهم يملكون الكثير لا يمكن ان يخسروا كل شيء دفعة واحدة) لأن المرتزقة لا يكفون لحماية

شعب (١٤٨) ، ليست لديه قواته الذاتية ، وقد أظهرت لنا نيقوميديا هذا بادئ ذي بدء ، فهي قائمة وسط الأشواك والأحراج ، وتشهد آثارها المقفرة على مجدها الغابر ، وعلى كسل ساداتها الحاليين ، وانعدام نشاطهم ، وهكذا انعدمت فائدة المصب البحري الذي ينتهي في المدينة بعد ثلاثة أيام من انبعائه من الذراع رغم توفيره لها مزية النقل الجيد .

ومن تلك المدينة كانت هناك ثلاثة طرق (١٤٩) تؤدي إلى أنطاكية ، لم تكن متساوية في الطول أو متشابهة في الطبيعة ، وكانت أقصر تلك الطرق ، الطريق التي تقع إلى اليسار ، فهي لو أنها لم تكن تحتوي على تعرجات كبيرة ، لكان بالامكان قطعها بثلاثة أسابيع ، فبعد اثني عشر يوما تصل إلى قونية عاصمة السلطان ، وهي مدينة بالغة الجمال ، ثم تسير بعد خمسة أيام من عبورك لتركيا في أرض الفرنج ، وهنا يستطيع الجيش القوي المؤمن بعقيده وأعداده أن يسقط من حسابه كل ذلك إذا لم يكن منذرا في أيام الشتاء بسقوط الثلوج التي تغطي الجبال .

أما الطريق التي تؤدي إلى الجهة اليمنى ، فأكثر غنى ، وأعظم سلامة ، ولكن باتباع هذا الخط الساحلي المتعرج يحتاج المسافرون إلى ثلاثة أضعاف المدة ، ذلك أنه يتوجب عليهم عبور أنهار وجداول متدفقة ، ويستلزم الحال خشيتها في الشتاء مثل خشية الثلوج والتركمان على الأولى .

أما الطريق الوسطى فتتحلى بميزات ومساوىء الطريقين الآخرين ، فهي أطول من القصيرة وأكثر سلامة ، وهي أيضا أقصر من الطريق الساحلية إنما أفقر منها ، لذلك تفرق الألمان الذين سبقونا وتشقتوا ، وكان السواد الأعظم من الألمان ، بقيادة الامبراطور ، قد اتبع الطريق اليسرى ، عبر قونية ، ولسوء الطالع

(١٥٠) اتبع البقية مع أخي الامبراطور الطريق اليمنى ، وتابعوا المسير ، فطالهم سوء الطالع في كل مجال وزاوية فيه ، وبقي الآن الطريق الأوسط ، الذي يخفف من مساوىء الطريقين الآخرين ، من نصيبنا ، وذلك بعد أن وقعت علينا اشاعات الاغريق محرصة كضرب المهماز بأن نسير على خطى الالمان ، زحفنا مخلفين نيقية الى اليسار ، وخيمنا في البداية قرب بحيرة نيقية ، وبينما نحن هناك وصل فجأة بعض النبلاء الالمان (١٥١) الذين كانوا قد أرسلوا خلف الملك من قبل امبراطورهم ، وأفادوا والأسى يعتصر قلوبهم ، بأن الالمان خلافا لرغبتنا كانوا قد فروا ، وعادوا الى نيقية .

وما أن سمع رجالنا ذلك ، حتى حل الأسى بهم ، ونال من قلوبهم فذهلوا ، لأن مثل هذا الجيش القوي قد أخفق بصورة مفاجئة ، وحقق أعداؤنا ، وأعداء الرب ، انتصارهم على حلفائنا بسهولة ، وقد سئل الالمان عن كيفية وطريقة وسبب سوء الطالع الكبير هذا ، ولعل جميع تلك التساؤلات قد أجريت على نحو غير موائم ، بما أنه ليس هناك في الحقيقة من ضابط للفوضى ، ولا انفراج ولا طريقة ناظمة للمنطقية ، ومع ذلك فإن لكل شر بداية ونهاية كما قال لنا أولئك الذين استطاعوا أن ينجوا من هذه الكارثة ، وقد اتهموا أنفسهم - وهم محقون في ذلك - لأنهم اغتروا بأنفسهم وبالعوا الثقة بقواهم الذاتية ، وكانوا غالباً ما يخالفون الرب ، أكثر من المعتاد بحسد كبير ، ثم إنهم لعنوا « وثن » القسطنطينية ، الذي بإعطائه إياهم دليلاً خائناً ، إنما فعل كل ما في وسعه للقضاء على الايمان المسيحي ، وتقوية « الوثنية » وتشجيع « الكفار » ، وإطفاء حماسنا المتقد ، لأنه عندما أرشد الالمان من قبل دليلهم الى نيقية ، أمرهم بعد ذلك بتزويد أنفسهم بما يكفي من الامدادات الى قونية ، وأثناء الزحف ، اعتقدوا عندما أوشكت الأيام والأطعمة على الانتهاء بأن الطريق لابد مشرف على الانتهاء ايضاً ، لكنهم في مواجهة قمم الجبال لم يعد بوسعهم سوى التساؤل : متى وأين

ياترى سينتهي الطريق ؟ ومع هذا قادهم مرشدهم (لابل الأصح أن نقول جانرهم) بعيدا عن السبيل ، وزاد عناؤهم وتضاعف من صباح الى آخر حتى اليوم الثالث واندفعوا في الجبال التي لا يمكن سلوكها ، حيث لا طرُق فيها ، وهنا بعدما ساور الخائن الاعتقاد بأن الجيش قد دفن حيا ، فر تحت جناح الظلام عبر طريق مختصرة كان يعرفها ، وأحضر حشدا كبيرا من التركمان الى الفريسة ، لذلك حدث في فجر اليوم التالي ، عندما كان حملة الرايات الذين يتقدمون الجموع ، غاضبين لتأخره ، يتطلعون كما جرت عادتهم الى دليلهم ، لم يجدوه ، بل فجأة وجدوا التركمان ، بدلا منه ، وقد احتلوا قمم الجبال ، وحزن هؤلاء الرجال كثيرا لأن الرجل الذي كانوا يبحثون عنه قد فر دون أن يتلقى الجزاء الذي استحقه لجريمته التي اقترفها (١٥٢).

وقد أحبط الامبراطور علما بهذه الحقائق ، ليس عن طريق عودة رجاله فحسب ، وإنما بنور الشمس أيضا ، ولذلك دعا مجلس بلاطه للاستشارة ، لكن بعد فوات الاوان ، فقد تعين عليهم الآن أن يختاروا ليس بين الخير والشر ، بل أهون الشرين (١) ، كان يتعين عليهم التقدم أو التراجع ، بيد أن الجوع والعدو ، والجبال الشاهقة المهولة المجهولة الشائكة بمتاهاتها حالت دون تقدمهم ، كما أن الجوع وخشية العار قد حالوا دون تراجعهم ، وعلى أية حال ، فقد كان لهم في التراجع أمل بالنجاة ، ولو أن ذلك كان أمرا يكتنفه الخزي والعار ، فقد كان في تقدمهم موت دونما جدوى أو شرف مؤكد ، ترى ماذا تفعل بسالتهم الجائعة اذا ، ترى هل يناؤا بأنفسهم عن خدمة الرب ، وهم لم يعتادوا على أن يناؤا بأنفسهم بمحض إرادتهم ، وترى هل سيمضي أولئك الذين يتمكنون من خدمة الرب ، اذا سلموا ، الى الموت هناك عبثا ؟ من المؤكد أنهم كانوا يفضلون موتا مجيدا على حياة الذل المزرية ، بيد أنه إذا كان الذل يلطخ كلا الخيارين ، فمن الأفضل أن يحافظوا على أنفسهم بذل ، بإتخاذ عمل فوري ، بدلا من أن يموتوا موت الأذلاء ، ولو كان ذلك دونما تأنيب ، وهكذا مستسلمين لهذه

الاعتبارات ، فعل الألمان ما لم يفعلوه عادة ، فأدانوا التراجع ، في الوقت الذي وافقوا عليه ، بما أن الوقت كان يستدعي الإصلاح (١٥٤) ، وإعادة التشكيل ، لذلك فقد فعلوا ما استطاعوا فعله ، وتمنوا ماتعين عليهم أن يتمنوه (١٥٥) وهكذا تسلح الجميع و استعدوا لأن يتحملوا الجوع (بما أنه لم يكن لديهم سوى الخيول الهزيلة و الميتة ليأكلوا) و حمل الكونت برنارد (١٥٦) سلاحه مع بعض من رجاله فقط بغية الاشتباك مع العدو القادم ، وبينما نظموا أنفسهم على هذا النحو ، أطل الناس الرحلة بالمحاولة للحصول على الطعام ، وأحط الجوع والجهد قواهم ، وأخذ التركمان يختبرون الصليبيين تدريجيا ، ولما بدا ضعفهم واضحا أخذوا يضيقون عليهم بشدة من يوم ليوم ، وفي نهاية الأمر ، بينما كان الكونت برنارد ، الذي يستحق أن يمدح وأن يبيكى ، يسهر على المرهقين ، ويقدم الدعم للضعفاء ، عبر الجيش أحد الجبال ، لكنه بقي هو على الجانب الآن لأن الليل كان قد شارف على الحلول ، وعندئذ أحاط به الأتراك هناك ، وأخذوا يطلقون عليه السهام ، فقتلوه دون أن يلحقوا بأنفسهم الأضرار ، قتلوه بأسهل مما كانوا يأملون ، لأنه لم تكن لدى ذلك الرجل لاقسي ولانشاب ، كما أن الجوع والتعب قد حرما فرسانه من الخيول السريعة ، ولم يكن التركمان يرغبون بالعراك وجهًا لوجه وبالأيدي ، ولم تكن تتوفر لديه الأسلحة التي تمكنه من أن يصد الهجوم الذي يشن من مدى بعيد ، كما أن الخيول المنهكة لم تكن قادرة على حمل فرسانه ضد العدو ، وأما الذي يستحق أن يبيكى ويندب كثيرا فهو قدر أولئك الشباب الذين كانوا كلهم حيوية ونشاط ، أولئك الذين واجهوا الموت في منتصف الطريق بدلا من أن يواجهوا رجال العدو الذين كانوا يسـيرون على جناح السرعة ، وبجراحة منقطعة النظير لملاقاتهم بسيوفهم وترستهم التي كانت من جلود الأغنام ، ذلك أنه عندما سبق للحبر الأعظم أن حظر استخدام الكلاب والصقور ، وحدد نوعية أسلحة الفرسان مع ثيابهم (١٥٧) ، قام الرجال الذين لم يوافقوا على هذه

الأوامر ، بالعمل في حالة انعدام للحكمة والتجربة ، تعادل الحكمة والتجربة في أوامره ، فحبذا لو أنه أمر الرجال وعاملهم بنفس الطريقة ، وأصر على بقاء الضعفاء في ديارهم ، وألزم بتجهيز الأقوياء بالسيوف جميعا بدلا من الحقائق ، وبالقسي بدلا من العصي ، لأن الضعفاء ومن لاحول لهم ولاطول يشكلون دائما عبئا على رفاقهم ، كما يشكلون مصدر صيد ثمين لأعدائهم .

واخذوا يبحثون في اليوم التالي عن الكونت ، الذي غالبا ماكان يدافع عن شعبه دون مساعدة الآخرين ، وقد علموا بأنه لم يتأخر في القدوم الى الجيش ، لكنه لقي ورجاله حتفهم على أيدي جند التركمان من حملة القسي ، وبما أنهم كانوا يعتمدون الى حد كبير على قوته وحكمته ، وبما أن موتا مماثلا كان يهددهم جميعا ، بكى كل واحد منهم منيته ، وحمل السلاح كل من كان قادرا على ذلك ، ومضوا مسرعين ينهكهم الجوع أكثر من أي وقت مضى ، ويهددهم العدو ، وحقيقة الأمر ان التركمان ادراكا منهم أنه ليس لدى الصليبيين قسي أو خيول سريعة ، لم يعتر قلوبهم أي خوف ، وعندئذ لم يقوموا باغاراتهم على المؤخرة فحسب ، بل وجهوا سهامهم نحو المقدمة ونحو قلب الجيش ، إنه ليس بوسعي أن أصف مدى الخسائر التي مني بها الألمان في تلك الرحلة ، فالامبراطور ذاته قد جرح بسهمين (١٥٨) وبينما كان بقية الأقوياء يمضون بسرعة ، تخلف الضعفاء في المؤخرة ، ووسط خضم من الفوضى والاضطراب سقط وابل من السهام ، فقتل العديد من الرجال العزل ، وبعد عناء وصل بقية الألمان أخيرا ، وهم يعانون سكرات الموت ، وصلوا الى نيقية (١٥٩)، وهناك اندفع الناس الجائعون نحو الحصول على الطعام ، واستغل الاغريق ظروف الحاجة الشديدة للطعام هذه ، فباعوه حسب الأسعار التي أرادوا ، أو رغبوا بها ، وطلبوا الثمن سيوفا ودروعا بدلا من الذهب ، واستهدفوا بذلك تجريد الجيش من أسلحته ، وذلك رغبة منهم في إعادة العساكر الألمان الى أوطانهم ، ومضى السواد الأعظم من الجيش الألماني بعدما نفدت قواهم وفقدوا ممتلكاتهم ، الى

القسطنطينية ، لكن قبل أن يستطيع هؤلاء القوم الحصول على كل من السوق ووسائل العبور ، كان الجوع قد أودى بحياة أكثر من ثلاثين ألفا من الرجال ، حسبما قيل لنا (١٦٠) ، غير أن الامبراطور المجرد من الراحة الجسدية والنفسية ، إنما الواصل بمساعدة المشيئة الربانية له ، سارع الخطى في المضي في أعقاب الملك ، بقلب مثابر ، باغيا الترافق معه في خدمة الرب ، وأرسل المبعوثين أمامه ، فقابلوا الملك - كما سلف وذكرنا - عند بحيرة نيقية ، وسردوا له أخبار جميع الوقائع التي كنا قد وصفناها ، وطلبوا منه التوجه الى مقابلة الامبراطور الذي كان قادما في إثرهم ، وأن يكون على استعداد لتقديم العون والمشورة له ، في وقت حاجته لذلك (١٦١) .

وحزن الملك شديد الحزن للضرر الذي لحق بحليفة ، كما لو لحق به شخصا ، وتوجه نحوه مسرعا ، يرافقه العديد من أعيان رجاله ، وتغمره العاطفة ، واستمع لمطالبه (١٦٢) ، وجامل كل منهما الآخر ، وتبادلا القبل التي صاحبتهما دموع التقى ، وأخيرا قررا بأنه يتعين على الملك أن ينتظر الامبراطور في قلعة لوبار (لوباريوم) كما تعين على الامبراطور ان يتبع الملك بسرعة ، بعد أن يحصل على الامدادات من نيقية .

ومنذ ذلك الحين بدأ الاغريق بسحب سوقنا ، غير أن الفرنجة لم يستطيعوا تحمل رؤية الكثير وهم في حاجة ، وهكذا قام بعضا منهم ، عند انتشارهم في المناطق الريفية بالاستيلاء على ماكان حري بهم أن يشتروه ، واشترى آخرون تلك الغنائم منهم ، وكأنهم كانوا أكثر صوابا ، لو أنهم عاشوا على نفقتهم الخاصة ، بأية طريقة كانت ، وهكذا وصلوا الى لوبار حيث انتظروا الألمان هناك - حسبما سبق الاتفاق - وحدث أن الألمان الذين كانوا يتبعون الفرنجة جردهم الاغريق من الحياة والمقتنيات بشكل يومي ، ونغصوا عيشهم تماما (١٦٣) « وأكلوهم تماما كما أكل الجراد الطيار ما خلفه الجراد الزحاف » (١٦٤) ، وفي النهاية عندما لم

- ٣٠٢٣ -

يعد بمقدور الامبراطور الخائر القوى هو ورجاله أن يهربوا ، رغم قلة أعدائهم ، مضوا يقاومون بشجاعة وتعااسة على طول الطريق ، وتابعوا زحفهم بصبر وثبات وشجاعة ، أما بالنسبة للفقراء ، فقد هربوا ولحقوا بركب الملك ، ذلك أنه لم تعقهم عوائق الأمتعة والمقتنيات ، ولم يكن لديهم ما يخذشون عليه السلب ، أو يطمع به ، لأنهم كانوا معدمين .

وطلب الامبراطور الألماني ، من الملك الفردي ، في رسالة وجهها اليه ، الاجتماع به على وجه السرعة ، وأن يخف نحوه مع قوة عسكرية. من شأنها القيام بدفن الألمان ، والحفاظ على طريق الحياة المتبقية لدى أولئك الذين ظلوا أحياء ، بصورة جزئية ، واستجابة لذلك ، وبناء على طلب الملك الملح ، أسرع مفوض الجيش ريفو صاحب نيسل ، كونت سواسون ، الى العمل ، فطرد جماعات الاغريق ، وحرر بسهولة الألمان الذين كانت قواهم قد استنفدت ، وفي حقيقة الأمر - كما قال الألمان فيما بعد - لو لم يأت الكونت على جناح السرعة ، لكانوا قد واجهوا جميعا موتا محتوما ، لكن ياللتعااسة ، وبالحظ العاثر الذي حل بالسكسون ، وبالباتافيين ، وبالجرمان الآخرين الشجعان ، هؤلاء الذين نقرأ عنهم التواريخ القديمة ، وعن شجاعتهم التي خشوها الرومان في الماضي ، قد تلاشت الآن شجاعتهم بسبب غدر الاغريق المشركين ، وسيأتي الوقت المناسب الذي سندسجل به أخبار سقوط الفرنج ايضا ، وسيصبح الأسى المزدوج أمرا غير محمول ، وسيكون لكلتا الأمتين دائما شيئا تندبه ، وأنه اذا لم ينتقم أبناء أولئك الرجال لموت آبائهم ، ولنا نحن الذين عانينا من أعمال الاغريق الشريرة ما عانينا ، ان العدالة الربانية ، مع حقيقة أن شعبنا غير معتاد على تحمل الأذى والخزي طويلا ، يعطينا الأمل بالانتقام ، وهكذا تمكنا من اراحة قلوبنا الحزينة ، وسنتابع طريقنا التعيسة حتى تدرك الأجيال المقبلة أفعال جماعات الاغريق وغدرها العظيم .

وعليه عندما وصل الامبراطور محاطا بحرسه الى معسكر الملك ، اقام على ضفة نهر صغير ، فعبر الملك ذلك النهر على ظهر قارب ، وهو تتملكه روح التقى ، وفي عينيه دموع القوة ، وسار مشيا على قدميه كي يهدىء من روعه ، وتلقى الامبراطور كلماته بارتياح ، كرجل وصل الى شاطئ الأمان بعد تحطم سفينته وطلب منه بمنتهى التواضع ، عددا كبيرا من الأمور التي كان يحتاجها ، وبدأ يخاطبه على هذا النحو ، كاشفا النقاب عما عاناه ، قائلا بكل هدوء: « سيدي الملك ، من اختارته الطبيعة

ليكون جارا لي وصديقا ، ومن حفظه الرب ليحميني وقت الحاجة ، إن لقاءنا هذا لا أقصد منه الحديث عن سوء حظي ، لأنه من غير الضروري ، أن أضع أمام ناظري أي كان ما قد رآه فعلا ، إنها أفعال شريرة حقا ، لذلك أريدك أن تدرك أنني غير مغتاظ من الرب ، ولكنني غاضب على نفسي ، لأن الرب عادل ، أما أنا وشعبي فحمقى ، فعندما قدت جيشا لجبا عظيم الثراء ، عندما قدت من مملكتي لو أنني تقدمت آنذاك بامتناني لواهب الأعمال الخيرة ، لربما كان قد حفظ لي ما وهبه ، ولو أنني أصلحت طريقة حياتي الحالية ، وغيّرت سلوكي لدى دخولي البلدان الأجنبية ، وتخلّيت دونما أسى عن ماضي ، لما كان الرب قد أنزل عقابه بي ، بشأن أخطائي التي أستحق التوبيخ عليها ، وعندما أفكر بالانتصارات التي كنت قد حققتها على التركمان ، أخرج بمحصلة مفادها إنه لو لم يركب الغرور رأسي بسبب جيشي الكبير ، ولكن وضعت أُملي في رب الحشود ، لما كان الرب أذل غطرسة غير موجودة أصلا ، علما بأنني والحمد له ، ما زلت حيا أمتلك الثروات ، وأرغب بشدة في خدمته ، لأنني أعتقد أنني ما كنت لأبقى ، وأنجو من العديد من المخاطر ، وأظل غنيا ، دون أن ينالني أي أذى ، ولما كنت قد حصلت على مساعدتكم أنتم في ساعة الموت ، لولا أن الرب قد قدر بأنني ما زلت أستحق أن أقوم بخدمته ، ولذا لا تساورني الرغبة بأن أنفصل عن مرافقتكم منذ الآن ، أو عندما ألقى القبول من جانبكم ، أن أوضع إما في الأمام أو في الخلف ، ذلك أنني لا أستطيع مناجزة

- ٣٠٢٥ -

العدو وصده في المقدمة ، أو مقاومة الأعداء الذين يلحقون بنا ، دون إلحاق الأذى بالجنود في القلب ، وبهذه الاستثناءات دع خيامي تنصب حيث ترغب ، وإنني أطلب أن تكمل أعداد جنودي برفاق من قبلكم » .

وعندما أنهى الامبراطور حديثه ، وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ ، وكان أسقف متز يترجم له تترقرقت الدموع في أعين الجميع ، واكتوت قلوبهم بالأسى ، وقام الملك بناء على نصيحة باروناته مع الأساقفة بإصدار أمر ببقاء كل من عمية : كونت موريين ، ومركيز مونتفرات ، وأقاربه ، وأسقف متز ، وأخوه كونت رينالد وآخرين ، مع الامبراطور ، وهكذا أصبح بوسعه إعداد الخطط المناسبة مع الامبراطور ، وقرر أيضا أن يعسكر هو والامبراطور معا .

نهاية الكتاب الخامس

بداية الكتاب السادس

وهكذا قام الملك مبدئيا غاية التقدير للامبراطور ، ومعاملا إياه
معاملة سامية ، بسبب سوء طالع ، فأمر بتغيير معسكره ، وتحول
الى قلعة اسيرون ، وذلك بعد عيد القديس مارتن (١٦٥) ، ولكن في
الوقت ذاته عندما كان حزن الامبراطور جديدا ، وعندما كان لا يزال
يتذكر مساعي الملك الحميدة ، مضيت الى الملك ، وكشفت له النقاب
عما كان الامبراطور يلحق به من اذى وبالقديس بيذس فيما يتعلق
بایسلنجين وقلعة ايسدوسين (١٦٦) ، وذكرته بالحرمان الذي نزل
به كعقاب على هذه الأعمال التي قد سمع البابا يبشر بها في عيد
الفصح ، والآن وبعد أن ابتهج الملك بالفرصة التي سنحت له ،
لخدمة القديس ، لم يتقاعس ، بل على العكس من ذلك أمر أن يبين
إليه أولئك الذين كانوا يشغلون تلك الأمكنة هنا وهناك ، فكان أن
أجبت به بأن الامبراطور نفسه كان يشغل برجاً في القلعة ، وأن اللوق
فردريك (١٦٧) ، الذي كان معنا ايضا ، احتل هو البرج الآخر ،
كما انه
بسط سلطانه المطلق على ايسلنجين ، وما أن سمع الملك بهذا
الأمر ، ثم سمع به رجاله ، حتى باهر بالتوسل لكل من كونراد
وفردريك ، أولا بصورة افراكية ، ثم علنا فيمّا بعد ، وملحا على
أصدقاء الامبراطور ، ومجددا اصراره حول القضية ، فقد طلبهما
كمعروف لنفسه ، وألح على ذلك كوسيلة لارضاء الرب والشهيد
المجيد ، وقد أجاب الامبراطور بادىء ذي بدء بغموض ، لأنه كان
يأمل بأن يتخلى الملك عن هذا المطلب إذا ما تعرض للضيق
والسأم ، بيد أن الملك لم يتنازل عن طلبه المشرف والورع ، إلى أن
يظهر الامبراطور إلى أي مدى كان غير معتن للمساعدة التي قدمها
له ، وكيف أنه لا يتراجع عن الخطأ ، وعلى الرغم من أن هذا ليس
جزءاً من موضوعنا ، يا نيافة الاب سوكر ، إلا أنه من المناسب لكم
ان تدركوا انه بوسعكم ان تصلوا بخشوع من أجل من كان يظهر

لكم الازعاج عندما يكون بحضرتك ، ويرعى مصالحكم اثناء غيابكم

ومضى الآن الملك يزحف حثيثا إلى فيلادلفيا ، كما كان قد خطط ، وكان يؤدي إلى ذلك المكان طريق عريض ، يمكن قطعه بثمانية أيام ، لكنه كان طريقا مزودا بشكل كاف من الامدادات وعلما منه بذلك ، قام الامبراطور - بشكل غير ذكي - بالقاء كلمة أمام الملك وباروناته ، ولعله ارادنا في خطابه - بمعرفة أو بلا معرفة - أن نشرب من كأس تعاسته (١٦٨) فقال: « انه كما ينبغي على الرجل القوي تقليد الأعمال الجريئة ، كذلك يجب على الرجل العاقل ان يتيقظ..... م..... ن

سوء طالع رجل آخر ، فعلى الرغم من أنه كان لدي في الأونة الأخيرة جيشا يصعب على أي قوم كفرة مقاومته ، فقد استسلم تلك الجيش عندما قهره الجوع ، استسلم إلى أولئك الذين كان بمقدوره أن يسيطر عليهم ، لو أن الامدادات كانت قد قدمت إليه ، وإننا الآن في الحالة ذاتها ، فعلى الرغم من أنكم لا تخشون قوة أي شعب كان ، إنكم مع ذلك لا تمتلكون السهام التي تقهر الجوع ، انظروا هناك طريقان مفتوحان أمامكم : أولهما أقصر من الأخرى ، لكنها هزيلة الموارد ، وأما الثانية فهي أطول ، غير أنها أكثر بالامدادات ومن المؤكد أنه أفضل لكم أن تعيشوا لمدة طويلة وسط الخير العميم ، من أن تنتهوا بسرعة وبخزي وسط الحاجة ، ومن الأفضل التأخر وسط الوفرة التي يبقى الجيش خلالها قويا ، بدلا من إعادة ترميم جيش منهار القوى يتضور جوعا أو بعثه للحياة ، لذلك فإنني أتوجه إليكم بنصيحتي كي تسلكوا الطريق الساحلي وأن تحافظوا على قوة فرسانكم من أجل خدمة الرب ، حتى وإن كانت تلك الخدمة متأخرة إلى حد ما .

ولقد أعار الملك انتباهه إلى هذا الخطاب (١٦٩) الذي كان أكثر قابلية للتصديق ببيانها مما كان عليه من حيث الواقع ، لأن مصيره كان على الفور أن يركب المضطرة ويتحمل الاضرار ، وأن يصل في اليوم

الثالث إلى مرفأ ايديميد ، الذي كان جزء من الجيش - سلك الطريق مباشرة - قد وصله في نصف يوم ، وسبب تأخر الجيش ، انه راغ عن الطريق إلى احد الوديان ، وهكذا كان بينما يتسلق الشعاب ويطوف حول منحدرات الجبال الصخرية التي كانت تعترض طريقه ، لم يتمكن من الوصول إلى حيث كان يرغب ، وكان يقترب من السماء حيناً ، ومن الجحيم (جوف الأرض) تارة أخرى ، ورأينا في صباح اليوم الثالث ، ووقع نظرنا على مجموعة من القرويين ، رفاق الوحوش المفترسة ، والقينا القبض على واحد منهم ، في حين تمكن الآخرون من الفرار ، واستطعنا بمساعدته أن نسير ذلك اليوم ذاته نحو ايديميد ، إلى رفاقنا الذين كانوا في غاية القلق حول مصيرنا ، ولقد تكبدنا حقا أولى خسائرنا وأفسدناها بين تلك الجبال ، ولما كانت حيوانات النقل لدينا قد لقيت حتفها ، فقد أغنيانا سكان الغابة من الاغريق بالذهب والفضة والسلاح والملابس ، ولقد تحملنا تلك الخسارة بصبر ، أننا كنا قد نَجونا بحياتنا ، لأنه كان في تلك المقاطعة سيل ملتو هائل السرعة ، كان يتوجب علينا أن نعبره ثمان مرات أو تسعا كل يوم ، ولو أنه كان قد اتسع قليلا فقط ، بفضل مطر معتدل ، لما كان بوسع أي كان أن يتقدم أو يتراجع ، بل كان على كل انسان أن ينتظر نهاية حياته ، ويندب خطاياهم حيث كان . ورجعنا بعد ذلك إلى الخط الساحلي المتعرج ، لنواجه كل يوم تقريبا منحدرًا وجبالا صخرية وعرة ، ومجاري للسيول الجبلية العميقة ، التي كان من الصعب عبورها ، حتى ولو كان الطقس جافا ، لأنها كانت مملوءة بمياه الثلج أو الأمطار ، وكانت تياراتها من السرعة بحيث لم يكن لا بوسع الخيول ولا المشاة السباحة فيها ، وهناك وجدنا العديد من المدن التي كانت تعج بالانقراض ، ومدن أخرى كان الاغريق قد أشادوها فوق سطح البحر القديم ، وحصنوها بالأبراج والأسوار ، وتمكننا من الحصول على الطعام من تلك المدن ، لكن بصعوبة في واقع الحال ، ومرد ذلك غالبا ما كان إلى غطسة حشودنا الغوغائية ، ونادرا جدا ما كان مرده إلى جشع السكان ، وعليه لعل من لم يكن حاضرا ، قد يقول

أنه كان ينبغي الاستيلاء على تلك المدن ومصادرة البضائع التي لم يكن بالإمكان الحصول عليها بسعر صحيح ، دون دفع ثمنها ، بيد أنه كانت الأسكان أسوار وأبراج تحميهم ، وسفن راسية في المرفأ ، لتمكنهم من الفرار ، فما الذي كان بالإمكان كسبه إذا ، لو أن رجالنا كانوا قد هاجموا مدينة وهرب سكانها ، - على حساب التأخير والحظر والقساوة - آخذين الحاجيات معهم ؟ ثم إن الأغريق كانوا يخفون حيواناتهم الزراعية في الجبال ، وبعد أن هجر الفلاحون منازلهم كانوا يبيعون الطعام من على ظهر السفن ، مما سبب ارتفاع الثمن ، أو رفعه من قبلهم كما رغبوا وطاب لهم ، وهكذا سلبوا الحجاج خلال تلك الرحلة المديدة ، ونهبوا منهم الفضة والذهب والسلاح ، والملابس ، وحيثما كان الحجاج يجنون المراكب كانوا يعتلونونها دونما اكتراث بالخطر ذي الحدين ، ويستعدون للاندفاع إلى حيث خداع جماعات الأغريق ، وإلى حيث كانت تسوقهم رياح الشتاء العاصفة ، أما الآخرون الذين أودت بهم الظروف إلى العبودية ، فقد وجدوا من الأسهل لهم أن يبقوا في المؤخرة ، في خدمة جماعات الأغريق ، وعلى ألا أخفي حقيقة أننا كنا قد عبرنا ثلاثة أنهر بسهولة ، مما أثار حيرة السكان المحليين ، وبعد أن عبرنا ، كان كل نهر يفيض على الفور بسبب الأمطار ، لذلك كان الأمر بمثابة أعجوبة ، حيث أنه خلافا للمعتاد من الوقائع ، كان الشتاء والمطر قد قاما بحفظنا (١٧٠)

ووصلنا أخيرا إلى أفسوس (عرب سارس) بعد بن قسطعنا سميرونا (أزمير) وبيرغامون ، وكانت أفسوس تشتمل على آثار من القرون الغابرة ، بين أطلال مجدها القديم ، مثل قبر القديس يوحنا الذي كان يقع على تلة ، وكان محاط بسور أقيم للحيلولة دون وصول الكفرة إليه (١٧١) ، وفي أفسوس قابل الملك المبعوثين الذين يحملون الرسائل إليه من الامبراطور الاغريقي ، والنين ذكروا أن اعدادا لاتحصى من التركمان ، كانت قد احتشدت لقتال الملك ، والحوأ عليه بأن يلتجأ إلى القلاع الامبراطورية ، لكن بما ان الملك كان

- ٣٠٣٠ -

يأنف - على حد سواء - من اظهار الخوف من التركمان والحاجة إلى افضال الامبراطور ، فقد أبرز المبعوثون رسائل أخرى تستحق الازدراء ، ذلك أنها أرادت أن تبين الاضرار التي تسببت هناك من قبل الملك ، مع حقيقة أن الامبراطور لن يتمكن من الآن فصاعدا من كبح جماح رجاله عن الانتقام (١٧٢) ، وتابع الملك زحفه ، دون ان يتنازل ويتفضل بالرد على الرسائل ، ومضى في طريقه لأنه كان يرغب في الاحتفال بعيد الميلاد في وادي نيس-سيفرون (١٧٣) ، ولما كان الامبراطور الالماني قد أسف لعدم مشاهدته امبراطور القسطنطينية ، عاد ليقتضي الشتاء معه (١٧٤)

وعلى هذا ، في عشية عيد الميلاد ، بعدما كانت خيامنا قد نصبت في ذلك الوادي الخصيب ، حاول التركمان بقيادة الاغريق - للمرة الاولى - أن يأخذونا على حين غرة ، بمهاجمة خيولنا بينما كانت ترعى ، لكن فرساننا البارزين قطفوا ثمار النصر الاولى ، لمقاومتهم الباسلة ولشجاعتهم ، وذلك بقتل بعض التركمان ، وهكذا حققوا السلام للأيام المقدسة ، وبعد ذلك بينما كنا نعتزم البقاء للراحة وشكران الرب ، أغدقت السماء الداكنة علينا أمطار غزيرة ، وكأنها أرادتنا أن ننظف بالمشيئة الربانية قبل أن نتقدم ، لأن الطقس - كما أراد الرب - لم يكن باردا بعد ذلك أو ماطرا حتى وصلنا انطاكية (١٧٥) وهكذا جعلت الأمطار الغزيرة ، الجدول في الوبيان تفيض بالسيول ، كما تكالت الجبال بالثلوج ، واكتست حلة بيضاء واخيرا بعد اليوم الرابع للمطر ، عندما توقف انهمار المطر وانقشعت السماء ، واصبحت صافية ، وتلاشت الغيوم ، خشي الملك من ان يحاصر مجددا بسبب نوبان الثلج ، او سقوط المزيد من الامطار ، لذا غادرنا الوادي الكائن بالقرب من افسوس ، وذلك بعد الحصول على المؤن ، وتابع مسيرة الى لوديسيا .

وبين تلك المنحدرات الجبلية ، على تلك الطريق كان ينساب نهر مياندر ، الذي كان في العادة عميقا وعريضا ، وكان يومذاك مكتنزا

بالمياه التي كانت تصب فيه من الجداول التي ترفده ، وكان مجراه قد شطر عرضانيا احد الوديان ، جاعلا الوصول الى ضفتيه امرا ممكنا لجمهور كبير من الناس ، وكان التركمان قد اعدوا قواتهم على الضفتين ، معتقدين ان البعض منهم يمكنه ان يعيق تقدم الجيش بالرمي بالسهم ، بينما يقوم اخرون بسد مخاضات النهر المكتنزة ، حيث يكون كلا الطرفين في امان اثناء التراجع ، بما ان الجبال توفر الملجأ ، وحالما وصلنا الى هناك اكتشفنا بأن العساكر التركمان كانوا قد استولوا على منحدرات الجبال الوعرة ، وأن بعض التركمان الآخرين قد تمركزوا في السهل لكي يغيروا على الجيش ، في حين أن البقية منهم كانوا قد احتشدوا على الضفة الأخرى من النهر ليمنعونا من العبور ، وجمع الملك الامتعة والضعفاء ووضعهم في الوسط ، ثم غطى المقدمة والمؤخرة والجوانب برجال مسحلين ومن ثم تابع مسيرة بامان لمدة يومين ، لكن ليس لصالحه كما يرام ، وفي الحقيقة قد اعاقه الاعداء باغاراتهم المتكررة على ميمنة الجيش وميسرته ، وذلك بالمر والخداع ، وليس بالقوة ، لانهم كانوا مهرة ومحنكين في الفروسية ، وغاية في الجراءة اثناء التقدم ، وحيث انه لم يكن بمقدوره تحقيق السلام معهم ، او ان يشتبك معهم في معركة ، لانهم كانوا يهاجمون بجرأة ، و يتراجعون بمهارة و انسياب ، فقد ركز جهوده على عبور النهر ، لكنه لم يكن يعرف مكان المخاضة ، وبما ان التركمان كانوا يسدون الطريق ، كان من الصعب عليه ان يحاول العبور بامان ، وفي حوالي ظهيرة اليوم الثاني تجمع جزء من جيش التركمان في خلف جيشنا كما كانوا قد خططوا ، وبقي الجزء الاخر على طول النهر حيث اصبح المدخل الينا يسيرا والمخرج عسيرا في وجه التركمان الآخرين ، وعندها ارسلا ثلاثة من رجالهم لاطلاق السهام علينا ، وبينما كانوا يقومون باطلاق سهامهم زمجرت كلتا المجموعتين بضجة متواصلة على الفور ، وفر رماة السهام على الطريق التي كانوا قد قدموا عليها ، واندفع على الفور الكونتات البارزين : هنري بن الكونت ثيوبالد (١٧٦) ، وثيودريك صاحب

- ٣٠٣٢ -

فلاندرز ، ووليم صاحب ماكون (١٧٧) ، خلفهم كالزوايع ، وتسلقوا الضفة المنحدرة واخترقوا وابل السهام ، واحتشد التركمان على نحو اكثر سرعة مما يمكن وصفه ، كذلك قام الملك يساعده حظ مماثل ، فركب باقصى سرعة ، للتصدي للتركمان الذين كانوا يرمون السهام من المؤخرة ، ففرق قواتهم ، ومزق جموعهم ، ودفع نحو كهوف الجبال اولئك الذين مكنتهم خيولهم السريعة من الفرار ، وهكذا ابت كل هجمة من هجماتنا الخاطفة ، التي تمت بسهولة ، إلى زرع الميادين ، على طول الطريق الى اوكار الجبال بالجثث من رجال فرق التركمان ، وتم هنالك اسر واحد من الأمراء حيث اقتيد الى امام الملك ، وجرى استجوابه ثم قتل .

وعلى مقربة من ذلك الموقع ، قامت بلدة صغيرة من بلدان الامبراطور تعرف باسم انطوختا ، شكلت ملاذا للكفرة الهاريين وبذلك فقد حول . الامبراطور (مانويل) نفسه من خائن مراوغ الى عدو لدود (١٧٨) وكان باستطاعة الملك ان يهاجم البلدة ، لكي يقبض على الفارين المختبئين هناك ، لكن لم يكن لديه ما يكفي من الامدادات ، ثم لم يكن بمقدوره الاستيلاء على أية غنائم او مخلفات كافية من البلدة الصغيرة .

ولا بد من الاشارة الى أنه كان هناك اناس قالوا بأنهم قد رأوا فارسا على المخاضة ، لم يسبق لهم أن رأوه من قبل ، وأنه كان هو الذي وجه الضربات الاولى الحاسمة في المعركة (١٧٩) وبالنسبة لي فيما يتعلق بذلك انني لا اود ان اخذع احدا ، أو أن اخذع من قبل احد الناس ، غير انني ادرك حقا انه في مثل هذه المضائق ما كان مثل هذا النصر الرائع والسهل ليتحقق الا بمقدرة الرب ، وما كان وابل الحديد قد سقط من جانب العدو دون ان يسبب الموت او الجراح ، ومع ذلك فقد انعم الرب علينا بالنصر ، دونما خسارة باستثناء ميلو صاحب نوجينت (١٨٠) الذي غرق في النهر.

وعلى طول طريقنا كان التركمان والاغريق قد استولوا على

- ٣٠٣٣ -

الأطراف ، وكنا ندرك أن كلا الشعبين عدو مشترك لنا ، وقام التركمان الذين كانوا يندبون قتلهم باستدعاء رفاقهم من الجوار استعدادا للعودة والانتقام في اليوم السابع ، وبأعداد أكبر من الأعداد السابقة وبجراحة وعزم أمضى ، ووصلنا لوديسيا في اليوم الثالث (١٨١) غير مباليين ، وذلك بسبب ثققتنا بأنفسنا ، وفي هذه النقطة بالذات لابد من أن أستعيد ذكرى الكونت برنارد ، الذي كان

ق
أسلم روحه لباريها أثناء عوبته مع الامبراطور من قونية ، أسلمها قربانا وفداء للأخوة ، لأنه في لوديسيا هنا بالذات ، ومع اسقف فريزنج ، شقيق الامبراطور ، وكان كونتا آخر يحمل الاسم ذاته قد نزل به القدر ذاته ، حيث لقي حتفه بخديعة مماثلة لأنه على الرغم من أن قائد هذه المدينة كان عليه أن يرشد الألمان ويقودهم خارج الجبال ، إلا أنه أتى بهم في طريق ضلالة وألقى بهم في كمين تركماني وبعد أن كان الكونت والعديد من رجاله قد لاقوا حتفهم ، تمكن بعضهم الآخر من النجاة بأنفسهم بالهروب والاختباء (١٨٢) ، وأكثر من ذلك ، هو أن القائد بالذات ، أما خشية من الملك بسبب جريمته التي اقترفها ، أو لأنه أراد إيقاع الأذى بطريقة أخرى ، قام باخلاء المدينة من كل سلعة ، وفي حين أنه تحاشى القيام بعمل مخادع ، لأن ذلك كان مكشوفاً تماماً ، خطط لجريمة أخرى لاتقل ضرراً ، فقد كان هذا الوغد الخسيس يدرك بأن كل شيء انتهى إلى أنطاليا - حيث كنا قد وصلنا بعد خمس عشرة يوماً - خالية من الامدادات في أية بقعة منها ، وأن الجميع سيبنوقون مرارة الجوع ، ما لم يتم الحصول على الطعام لقاء ثمن ، أو عنوة ، من المدينة المخلاة (١٨٣)

وعليه استشار الملك الاساقفة والبارونات الآخرين حول تلك المسألة ، فهو على الرغم من أنه مامن أحد كان يشك بحكمته لم يكن ينقطع عن تنفيذ الأعمال ذات المصلحة المشتركة وفق نصيحة العديد من الناس ، وأن تواضعه كان من الحكمة بمكان حيث أنه أرضخ الواحد لرأي الأكثرية ، والشاب لرأي الشيخ ، وأراءه الخاصة إلى

معرفة الناس من نوي الخبرة ، وكذلك جميع ما كان بوسعه ان يفعله كسيد ، وما كان يدركه كرجل حكيم ، فقد كانت عاقبته الكريمة الاعتماد على رعاياه ، ومهما يكن فان اولئك الذين اعتابوا على الحاجة في قضايا اخرى ، وعلى المخالفة بالآراء حول خطط مختلفة - واحيانا بدقة لاجنوى منها - قد اخنتهم الحيرة ، لعدم وجود خطة مناسبة في تلك اللحظة ، وكوى الاسى قلوبهم ، لانهم لم يروا مخرجاً للخطر المشترك ، فلقد جاؤوا العثور على الطعام في مدينة كانت قد اخلت منه عن قصد ، ومع ذلك فإن ما ابتغوه لم يكن متوفراً ، ورغم أنهم كانوا من القوة بما يمكنهم من الاستيلاء عليه ، ومن الغنى بحيث كانوا يستطيعون شراءه ، فان أي السبيلين لم يجد نفعا ، ومع ذلك كانت آراءهم تقضي بوجوب البحث عن المقيمين الهاربين في الممرات الجبلية ، وانه بعد اقامة السلام معهم يجب اعادتهم هم وامتعهم ، وقد تم بصورة جزئية ، لانه تم العثور على المقيمين ، لكن لم يمكن اعادتهم.

وبعد اضاءة يوم واحد في هذا البحث مضينا في طريقنا ، يسبقنا ويتبعنا على الطريق كل من التركمان وجماعات من الاغريق ، وهناك في ذلك المكان حيث كانت الجبال لا تزال ملطخة بدم الالمان (١٨٤)، هناك بالذات ظهر اولئك الذين تولوا قتلهم ، وعندما رأى الملك ، الذي كان قد أندر سلفا ، ولكن عبثا ، صفوف الأعداء ، وجثث الالمان صف جنوده لزعهم في المعركة ، وهنا حلت كراهيتنا الابدية على جيوفري صاحب رانكون (١٨٥)، وهو الرجل الذي كان قد أرسله امامنا مع عمه كونت مورين ، ففي حوالي ظهيرة اليوم الثاني ، وفر لنا جبل لعين - كان الملك قد خطط للسير فيه يوما كاملا ، من أجل عبوره ، وعليه ، امسنا بنصب خيامنا على سفوحه - مروراسهلا ، وعندما وصل رجال الطليعة الى هناك - على جناح السرعة ، لأنهم لم يواجهوا مـايـعيق سبيلهم - تسلقوا الجبل ، غير متنبهين للملك الذي كان في ذلك الحين يقوم بحماية المؤخرة ، وبينما كان البقية يتبعونهم ، قاموا بنصب خيامهم على الجانب الآخر من النهر حوالي الساعة

التاسعة (١٨٦) ، وكان الجبل و عرا ، وشديد الانحدار ، وقد توجب علينا تسلق حافة منعزلة ، عالية الى درجة بدت معها قممتها وكأنها تلامس السماء ، وأن النهر الذي يتدفق في قلب الوادي ينحدر الى الجحيم ، وهنا أصبح الحشد مكتظا ، بينما كان أفرادهم يتسلقون وتقدموا وتجمعوا سوية ، فوقفوا دون أن يفكروا بالفرسان ، وتشبثوا هناك دون أن يتقدموا ، وأدى هذا الى انزلاق الخيول التي كانت محملة بالتموين على المنحدرات الصخرية ، دافعة بأولئك الذين ضربوهم الى أعماق الهوة السحيقة ، كما أن الصخور المزاحة من أماكنها ، قد سببت الدمار ، وهكذا عندما تفرق الرجال في كل اتجاه سعيا في البحث عن معمرات ، خاف الجميع من أن يسيروا في الطريق الخطأ ، أو أن يصيبهم آخرون بشدة أثناء سقوطهم ، وأكثر من ذلك ، حال التركمان والاغريق برماياتهم دون نهوض الذين سقطوا ، وتجمع التركمان في مواجهة الجزء الآخر من جيشنا يهللون ابتهاجا بهذا المشهد ، على أمل أن يأتيهم المساء بمزيد من الفوائد ، واقترب النهار من نهايته ، وأخذت كميات بضائعنا الهائلة تتزايد في قاع الوادي ، ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك لم يكف أعداءنا ، بل على العكس من ذلك ، فقد أصبحوا أكثر جرأة ، فعبثوا باتجاهنا ، لأنهم لم يعودوا في خوف من الطليعة ، فضلا عن أنهم لم يروا جند المؤخرة قطعوا وضربوا بالبوابر ، وفر من استطاع من الحشد الأعزل ، بينما سقط بعضهم الآخر كقطيع الغنم ، ودوت الأصوات ، وارتفعت الصرخات تشق عنان السماء ، حتى وصلت الى مسامع ملكنا ، وعندها بذل الملك ماكان بوسعه بذله من جهود حيال تلك الكارثة ، ولم تأت مساعدة السماء ، اللهم الا بحلول الظلام ، وبذلك توقف الدمار .

وفي الوقت ذاته ، أرسلت الى المعسكر لأنه كان بوسع كراهب ، أن أتوسل للكونت وأحضر الآخرين الى ميدان المعركة ، وقدمت هناك تقريرا عن الوضع ، فما كان من الجميع الا أن اندفعوا بكل شدة الى حمل السلاح ، وكان بوسعهم أن يعودوا

على جناح السرعة ، بيد أن التضاريس الصعبة كانت تحول دون التقدم السريع ، ولم يكن يوسع الرجال أن يتحركوا ، وعلى أية حال ، فإن الملك الذي كان قد ترك في المؤخرة ، في خطر مع بعض نبلائه ، حيث انه لم يكن يرافقه جنود ولا سرنجنتيه (١٨٧) من حملة الأقواس (لأنه لم يعد نفسه لعبور الممر ، حيث كان تسوجب عليه عبوره في اليوم التالي ، وفق الاتفاق الموضوع) اندفع غير مبال بحياته ، رغبة منه في إعتاق الحشد الذي كان يتنوق طعم الموت ، اندفع الى وسط جند المؤخرة ، وتدخل بشجاعة في المذبحة التي كان يتعرض لها قلب قواته ، وحمل بكل جرأة ويسالة على « الكفرة » الذين كانوا يفوقونه عددا بمائة مرة ، والذين كان الموقع قد ساعدهم الى حد كبير ، لأنه مامن حصان كان قادرا على الوقوف والتحمل ، وهكذا فقد أضعف الهجوم البطيء اندفاع الفرسان ، فجاءت طعناتهم غير مجدية وغير قادرة على جرح الاعداء ولهذا وقف رجالنا على المنحدر المنزلق يهددون العدو ، ويلوحون ضده برماحهم بما أوتوا من قدرة ، لكن بدون الاستعانة بقوة خيولهم (١٨٨) ، واخذ التركمان من بين الاشجار والملجأ الصخري الآمن يقذفون بسهامهم ، ومع ذلك تمكن رجال الحشد من الفرار بمساعي الفرسان ، وهم يحملون امتعتهم معهم ، أو وهم يقودون الحيوانات ، معرضين الملك ورفاقه للموت بموقفهم هذا .

وإن يموت النبلاء ، كيما يعيش خدمهم ، هو حدث بحد ذاته يدعو للنحيب ، لو لم يكن سيد الكل قد ضرب مثلاً بذاته على ذلك ، وهكذا فقد ذبلت زهور فرنسا قبل أن تذمر في دمشق (١٨٩) ، وانني اذا قول ذلك لا أستطيع ان اكفكف الدموع ، بل اشعر بالآسى يكويني من اعماق القلب ، ففيما يتعلق بهذه المسألة يمكن لذي العقل الرصين أن يريح نفسه ويواسيها ، بأن هذا المثل الذي ضربوه وماسبقه من أمثلة عن حماسهم سيعيش في الدنيا ، وأن موتهم محاطا خطاياهم بالايمان المتقد ، وبذلك أكسبهم تلج الشهادة ، لقد حاربوا حقاً ، ولم يموت واحد منهم دون أن ينتقم لنفسه ، فلقد قام كل واحد

منهم بتكديس الجثث من حوله ، ومع ذلك لم يتناقص عدد المغيرين لانهم كانوا قد جندوا من قسطنطين كبير ، وقام التبركمان بقتل الخيول التي كانت ضرورية من أجل حمل الدروع الثقيلة ، مع أنها كانت أنثى غير قادرة على الجري ، وهكذا أصبح (فرسان) الفرنج الذين يرتدون الدروع يسسرون مشيا على الأقدام تحت سيطرة العدو وضغطه الكثيف ، كما لو أنهم غرقوا في البحر ، وقد تفرق كل واحد منهم عن الآخر ، وأخذوا يلفظون أنفاسهم من أجسادهم العزلاء ، وفقد الملك أثناء هذا الاشتباك حرسه الملكي الضئيل ، لكنه بعزيمته وشجاعته وعون الرب له ، تسلق صخرة ، معتمدا على جذور بعض الأشجار التي وفرها الرب لبقائه حيا ، وتسلق الأعداء خلفه بغية القاء القبض عليه ، وصبوا وابل سهامهم عليه بيد أن درعه حماه - بمعونة الرب - من تلك السهام ، ولكي يقي نفسه شر الوقوع في الأسر ، دافع بسييفه الملطخ بالدماء ، فضرب به الأعناق وقطع رؤوس أيدي العديد من خصومه ، وبمساهاهم لم يعرفوه ، وشعروا بأنه من العسير عليهم أن يأسروه ، فضلا عن خشيتهم من هجوم مباغت ، تراجع الأعداء لجمع الغنائم قبل حلول الظلام (١٩٠)

نهاية الكتاب السادس

بداية الكتاب السابع

كان قطار الامتعة لا يزال يعبر الممر على مقربة ، لأنه كلما كان أكثر تجمعا ، كلما تباطأ في العبور ، وما أن وصل الملك اليه ماشيا حتى ضمن لنفسه مطية ، ورافق الرجال في الظلام ، الذي كان قد حل فعلا ، وقابله في ذلك الحين أفراد كتيبة الفرسان من المعسكر ، فهمموا مستنكرين عندما رأوه وحيدا بلغ به الجهد مداه ، وكوى الأسى قلوبهم ، لفقدان الحرس الملكي ، الذي كان يبلغ تعدادة زهاء أربعين فارسا ، أنكر منهم : « كونت وارين وأخوه افرارد صاحب ثبريتويل (١٩١) ، وماذيسيس صاحب بولليس (١٩٢) ، وغوتير صاحب مونتجي (١٩٣) ، وآخرون (١٩٤) ، وهذا على سبيل ذكر البعض ، وليس الحصر للجميع ، اذ لاجابة بي الى سرد جميع الأسماء» ولقد كان الفرنجة كثيروا العدد يتسمون بالشجاعة ، لكن الوقت كان ليلا ، وكان العدو يتربص بـ الجانب الآخر من الوادي السحيق ، وهكذا لم يكن لا الزمان ولا المكان مناسبين للفرنجة كي يتابعوا تقدمهم ، وقد وصلوا الى المعسكر مع الملك في وقت متأخر من الليل ، وشعر الناس الذين كانوا هناك بالراحة ، لأن الملك كان في أمان ، بعد ان كان الهلع قد نال من قلوبهم التي اكتسوت حزنا ، ولم ينم في تلك الليلة أحد لأن كل واحد كان إما ينتظر أصدقاءه الذين لم يأتوا أبدا ، أو يرحب بسرور بمن نجا ، بصرف النظر عن الخسائر المادية التي تكبدوها ، وقرقرار الجميع على وجوب شنق جيوفري ، لأنه لم يتقيد بالأوامر حول خطة يوم الزحف ، ولعل عم الملك ، الذي شارك في الجريمة ، قد أعفى جيوفري من العقاب ، لأنه بما أن كل من الاثنين كانا متهمين ، وبما أن عم الملك كان سينجو من العقاب ، لذا كان لايجوز ادانة أحدهما دون ادانة الآخر (١٩٥)

وحل فجر اليوم التالي دون أن يزول الحزن ، الذي كان يخيم على الجميع ، كما أصبح جيش العدو على مرمى النظر ، وشوهد منتشرا في الجبال غنيا وسعيدا ، وعندها وبينما كان رجالنا ينوحون على رفاقهم ومقتنياتهم ، ويدركون أن الوقت قد فات دفعوا عنهم شبح اللا اكتراث ، وتقدموا بنظام لكي يذقدوا ماتبقى في حوزتهم ، وحيث أن ملكنا لم يستطع تحمل حقيقة أن اشرافه قد سلبوا قواهم ، ولأن قلبه الورع دفعه أن ينظر بعين الاعتبار الى أولئك الذين كانوا اقل شأننا منهم ، فقد بدد رغبات كلتا الطبقتين بمنتهى الكرم ، وكأنه قد نسي ما حل به ، فبدأ وكأنه ما شارك في خسارتهم ابدا ، واخذ الجوع ينهك قوى الخيول التي كانت حتى ذلك الحين قد عاشت اياما عديدة على ما اقاتته من رعيها للقليل من الاعشاب ، ولم تنق طعم الحبوب ، كما أنه لم يعد هناك طعام للرجال الذين كان ينبغي عليهم أن يزحفوا لأثني عشر يوما آخر ، واخذ العدو كالحيوان المفترس ، الذي يتوحش بعد أن ينوق طعم الدم ، ويشدد هجماته علينا ، خاصة عندما أصبح على علم بضعفنا ، وازداد شرهه بعد أن أخذ يكسب من انهاك قوانا .

ووقف في وجه التركمان فرسان (المعبد) الداوية مع مقدمهم اللورد ايفراد كونت برس الذي يستحق التبجيل لتدينه ، فهو قد ضرب للجيش مثلا مشرفا ، وانقذ الداوية ممتلكاتهم الخاصة بحكمة وبتأهب ، كما حموا ممتلكات الناس الآخرين بكل ما أوتوا من شجاعة ، وعندها أعجب الملك بالمثل الذي ضربوه ، وود أن يحذو حذوه ، كما أنه رغب في أن يتأثر الجيش بذلك الاتجاه ، لأنه أدرك أنه وإن أنهكهم الجوع الشديد ، فإن روح الوحدة ستقويهم حتى في أشد حالاتهم ضعفا ، وبناء على ذلك فقد تم اتخاذ القرار التالي ، وذلك بموافقة من الجميع : إنه يجب على الجميع في مثل هذه الفترة الخطيرة أن يتآخوا مع فرسان الداوية ، وأقسم الأغنياء والفقراء اليمين ألا يفروا من ساحة المعركة ، وأنهم سيؤدون الطاعة للقادة

في جميع الميادين التي تحدد لهم من قبل الداوية ، وبناء على ذلك عهد بقيادتهم إلى قائد يدعى جلبرت ، وعين عددا من المساعدين عهد لكل واحد منهم بقيادة خمسين فارسا ، وبما أن التركمان كانوا سريعي الفر طلب من رجالنا التحلي بالصبر والتحمل إلى أن يتلقوا الأمر بالهجوم على الأعداء ، وأن يقوموا بالانسحاب حينما يطلب إليهم ذلك ، حتى ولو كانوا في الموقف الذي طلب منهم أن يحققوه أصلا ، وما أن علموا بذلك ، ودربوا أيضا على نظام الزحف ، بحيث لا يندفع واحد منهم من المقدمة إلى المؤخرة (١٩٦) ، وألا تدب الفوضى بين صفوف الحرس على الميمنة والميسرة ، وأكثر من ذلك فإن أولئك الذين جعلت الطبيعة ، أو جعل الحظ منهم جند مشاة (لأنهم فقدوا عتادهم ، أو باعوه ، حيث أن العديد من الأشراف كانوا يسيرون مع الحشد بطريقة غير عادية بالنسبة لهم) أودعوا في المؤخرة لكي يتصدوا لسهام الأعداء بأقواسهم ، ومع أن الملك كان سيد القوانين (١٩٧) ، فإنه رغب هو الآخر في أن يخضع أيضا لتلك القوانين ، إنما ما من واحد تجرأ على أن يفرض أي أمر عليه ، باستثناء وجوب الإبقاء على خط المعركة الكامل ، وأن يقوم بتقوية الضعفاء بإرسال التعزيزات إليهم من مجموعته.

وتقدمنا وفق هذا الترتيب ، وبعد أن انحدرنا عبر الجبال سررنا لوصولنا إلى مستوى الأرض ، وبما أننا كنا محاطين بحماتنا فقد تحملنا هجمات الأعداء الجريئة دون أن نتكبد أية خسارة ، وكان على تلك الطريق نهران تفصل بينهما مسافة ميل واحد ، وجعل الوحل العميق على ضفافهما أمر العبور عسيرا ، وبعد أن عبر النهر الأول ، انتظرنا فرسان المؤخرة ، وسحبنا خيول التموين الضعيفة من الوحل بأيدينا ، وعبر كذلك فرسان المؤخرة مع جنود المشاة الذين كانوا تقريبا مختلطين بالأعداء ، ولم يتكبدوا هم الآخرون أية خسائر لأنهم كانوا محميين باتفاقية المساعدة المتبادلة ، واتجهنا نحو النهر الثاني على نية المرور بين شعبين جبليين يمكننا من قمتيهما رمي حشود التركمان أثناء اقترابها ، وتسارع التركمان من

- ٣٠٤١ -

كلا الجانبين نحو الشعبين ، غير أن فرساننا استولوا على واحد منهما قبلهم ، وهنا تمكن التركمان من تسلق الشعب الآخر ، ورموا بشعورهم على الأرض ، وقد فعلوا ذلك - كما أخبرنا - بمثابة إشارة منهم ، على أنه لا يمكن زحزحتهم من هذه النقطة مهما بلغت المخاوف ، على أن تلك الإشارة من جانبهم قد كانت إما كاذبة ، أو أنها لا تعني شيئاً البتة ، لأن مجموعة من جنودنا المشاة قد تبعتهم على الفور ، وبينما كانوا يتصارعون من أجل قمة ذلك الشعب الجبلي ، اعتقد الفرسان ، بأنه من الممكن قطع طريق العودة على التركمان فيما بين النهرين ، لذلك عندما أعطي الأمر من قبل القائد قام الجميع دفعة واحدة بمهاجمة التركمان على الفور ، وقتلوا من استطاعوا قتله ، وبذلك انتقموا لرفاقهم ولخسائرهم التي كانت قد وقعت بهم هم أنفسهم ، وعند وصولهم إلى الوحل لقي العديد من التركمان حتفهم ، ودفنوا في المكان الذي يليق بطبيعتهم النتنة ، وبينما كنا نتابع هجومنا العنيف ، وتقدمنا الطويل ، قضينا على أولئك الهاربين ، وخف جوع كل منا ، وأصبح يومه أكثر أشراقاً .

ومهما يكن من أمر فإن التركمان وجماعات الاغريق كانوا يخططون للقضاء علينا بمختلف الطرق ، لأنهم على الرغم من أنهم كانوا فيما مضى أعداء فيما بينهم ، عقدوا الآن اتفاقاً من أجل هذه الغاية ، وهكذا نجد أنه بتجميعهم لقطعان الماشية والأبقار من كل مكان ، وبالسماح لها بالرعي أمامنا قضوا على المنتجات التي لم يتمكنوا من حرقها ، ولهذا السبب خلفنا بعض خيولنا على الطريق إما منهكة أو ميتة ، وتركنا معها حمولتها من خيم وملابس وأسلحة ، بالإضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى التي قام رجالنا باحراقها باستثناء ما حملة الفقراء للحيلولة دون وقوع شيء في أيدي الأعداء ، وأقدمنا على ذبح بعض الخيول ، وأكل الجيش الكثير من لحمها ، واحتفظ ببعضها ، وهكذا فإن الخيول التي لم تكن مناسبة لقافلة النقل خففت من حدة جوعنا ، وبهذا اللحم مع الخبز الذي تم تحضيره على رماد نيران المعسكر ، شبع حتى الأثرياء ، وخمد

- ٣٠٤٢ -

جوعنا بهذا التموين ، واستطعنا نتيجة للتأخي الذي أشير إليه أنفا ، أن نهزم العدو أربع مرات ، وأن ننتصر عليه في المرات الأربع ، وحافظنا على سلامتنا بالمحاولة المتسمة بالخطر إلى أن وصلنا إلى أنطالية (١٩٨) دون أن نتكبد أية خسائر بين قواتنا ، باستثناء خسائر ذلك اليوم الذي جعلنا فيه جيوفري صاحب رانكون قائدا لنا نعاني من الموت والدمار .

وفي أنطالية (١٩٩) كان لاندولف رسول الامبراطور ، الذي كان قد قام بجزء من رحلته مع التركمان - حسب اعترافه - يتوقع وكله أمل سماع أخبار موتنا ، إنما في حال وصولنا وشكوانا من الامبراطور كان محضرا جوابه للاعتذار ، لكن عندما لم يطلب أحد انزال العدالة به ، لأن الجائعين كانوا يسعون للحصول على الطعام ، والمنهكين على الراحة ، توقفت الشكاوى ، وعلى هذا ، ولكونه كان شريكا في الجريمة ، أجبر النبلاء مجددا على إعادة تثبيت الاتفاقية المعقودة مع الامبراطور من أجل امتيازات التسوق ، وبعد ذلك انهمر المطر الذي كنا قد نجونا منه أثناء الرحلة ، وبينما كنا نشعر به فوقنا و تحتنا في الخيام الصغيرة (لأن الخيام الكبيرة كانت قد تركت في الخلف) احتفلنا بعيد « طهارة العذراء » (٢٠٠) ، لأن الملك والحق يقال ، لم يذس ابدا طوال الرحلة بكاملها واجباته الدينية ، ولم تشغله عنها الفيضانات او الامطار ، او عذف العدو.

وحصلنا على الوفير من الطعام ، إنما بسعر أعلى من المعتاد بكثير ، لكننا لم نتمكن من الحصول على طعام للخيول التي بقيت على قيد الحياة ، بأي ثمن كان ، لأن الاغريق كما روى العديد من رجالنا ، قد خانونا في هذا المجال ، وقالوا مشيرين إلى قفل الأرض ، بأنه لم تكن لديهم حبوب (٢٠١) ، وكان في خارج المدينة

هل
تكتنفه الصخور ، ويمتد حتى ضفة أحد الأنهار ، وبما أن العدو كان يحول دون خروج الخيول خلف أبواب المدينة إلى المراعي ، لم تتوفر لها الأعشاب لتأكلها ، ما لم يقيم الفرسان باقتيادها إلى تلك المراعي

- ٣٠٤٣ -

واعادتها منها ، ولما رأى الملك بأن الخيول المتبقية ، وهي قليلة ، كانت تموت جوعا ، ولم تحصل على الراحة التي تحتاجها ، وأنه ليست هناك خيول للابتياح في المدينة ، دعا رجاله الباززين من بارونات ، وتحدث إليهم عن الرحيل قائلا : « لا يتمتع الفرسان بفرصة الراحة في مكان تموت فيه خيولهم جوعا ، فالتائب يجب أن يقمع رغبته للراحة ، والرجل الورع يجب أن يسرع لتحقيق الغاية التي يتعهد بها ، رغم تعب ومرضه ، وإنه يليق بكل منهما أن يتوج شهيدا لأن الرب قرر أخذ أرواحهم إليه في مثل هذا العناء .

لكن على الرغم من احتفاظهم بالطاعة لسيدهم ، وتمسكهم بمراعاة رغبته على قدر الامكان ، قال البارونات : « تماما كما يأمر الملك ما ينطوي على الشجاعة ، لكن ينبغي على الفارس الحكيم ان يحاول ما هو ممكن فقط ، وبما انهم كاذوا قد القوا سلاحهم ، فإن جميع الفرسان في جيشكم قد خفض وضعهم الى جنود مشاة في هذه الايام ، كذلك حدث المصير ذاته للعديد من الاشراف ، ومن بين هؤلاء نجد فارسا لا يستطيع شراء الخيول ، لأنه خسر ممتلكاته أو باعها ، وآخر لا يجد خيولا للبيع ، وقد علموا من السكان المحليين بأن الرحلة إلى أنطاكية تستغرق ثلاثة أيام قصيرة بتموين جيد عبر البحر ، وهي رحلة أيام مأمونة من مرفأ لآخر ، في حين أنها تستغرق أربعين يوما برا ، وتعترضها العراقيل ، ومواجهة الأعداء ، والقحط الدائم ، لذلك فإنهم يرغبون في ركوب البحر كما يفعل جند المشاة الذين انعدمت شجاعتهم بسبب التعب ، وانعدام المال والطعام ، ويعد الاغريق بأنهم سيجمعون اسطولا ضخما من جميع القرى المجاورة والجزر القريبة ، ومهما يكن من أمر فإننا نرغب في أن نعيش ونموت معكم ، وإننا نوافق بكل سرور على الطريق الذي تفضلونه » .

وأجابهم الملك بطريقته الملكية الخاصة قائلا : « بما أنني سأكون غنيا ، فما من رجل مجرب الشجاعة ، ممن تحمل معي الفقر بصبر

- ٣٠٤٤ -

وقت الحاجة الشديدة ، سيكون بحاجة بعد الآن ، ولهذا قوموا بتمييز هؤلاء الرجال عمن سواهم ، لاقوم بتسليحهم وتزويدهم بالعتاد مما لدي ، ثم دعونا نعهد للأسطول أمر الحشد الأعزل ، الذي كان دائما قد سبب لنا الأذى ، والذي جعل الطعام دائما غالي الثمن ، والزحف أبطأ ، ودعونا نتبع الطريق الذي سار عليه أبائنا الذين جعلهم حماسهم الذي لا مثيل له ، يحققون السيادة على الأرض والمجد في السماء » (٢٠٢) .

وأجابوه على أقواله هذه قائلين : « نحن لا نريد ، كما لا نستطيع التقليل من مجد آبائنا ، غير أن الأحداث سارت على نحو أيسر بالنسبة لهم ، مما عليه الأمر بالنسبة لنا ، لأنهم عندما كانوا قد مروا في القسطنطينية ، وعبروا الذراع واجهوا التركمان على الفور ، ودخلوا إلى أراضيهم تماما كما كانوا قد رغبوا ، وبينما كانوا يحافظون على خفتهم ونشاطهم بممارسة الأعمال الحربية ، استطاعوا أن يبقوا أنفسهم أغنياء عن طريق الاستيلاء على المدن ، والحصون ، وأما نحن ففضلا عن مواجهتنا للتركمان قابلنا الأوغاد من الأغريق الذين لسوء طالعنا كنا قد صفحنا عنهم ، وأبقينا عليهم كما لو كانوا مسيحيين ، هذا ولقد هد الخمول حيلنا ، وأنهكنا التعب والمقت ، لذا صرفنا تقريبا كل ثروتنا ، وباحساس جنوني بالأمن ، أو من مرارة الفقر ، كان البعض منا قد باعوا أسلحتهم ، أو تخلوا عنها بعد موت خيولهم ، وللأسباب الآتفة الذكر ، فإن الطريق التي تأمرنا أن نسلوها ليست آمنة ، رغم أنها مشرفة ، والآن إننا بصرف النظر عن الخوف والمصاعب سنتابع طريقنا إذا ما وجدنا الخيول التي نعيد تجهيز الفرسان بها » .

وتم السعي من أجل توفير الخيول ، لكنها لم تكن تكفي ، لقلة عددها ولضعفها ، فقد أجبر البارونات الملك على المغامرة البحرية طوعا أو كرها (٢٠٣) ، نرجوا ان يمن علينا الرب بالصبر كما من على القديس بولس ، فقد كتب علينا ان نمتحن « بأخطاري

الامم . بأخطار في البرية . بأخطار من أخوة كنبية ، (٢٠٤) ، وعندئذ تمت استشارة قيادة المدينة ومبعوث الامبراطور حول هذه المهمة ، فأجابا بالاستجابة للتعهد ، ووعدا بوصول المراكب للجيش بكامله على الفور ، وفي الوقت ذاته حل الشتاء والطقس الرديء ، وأمطرت السماء ، وأثلجت وأبرقت وأرعدت ، وانحجبت الريح التي كنا قد أملنا في أن يمن الرب علينا بها ، ولم تهب حتى الأسبوع الخامس ، وحدث الشيء ذاته بالنسبة للمراكب التي كنا نتظرها بناء على وعد الاغريق ، والآن وبعد أن أدرك الاغريق بأن الوقت المتوفر تحت تصرفهم كان قصيرا ، لم يتركوا عملا شريرا الا وقاموا به ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فقد قاموا بسرقة بضائعنا في السوق ، وحاولوا حرماننا من الحياة ، وقد وجد الأصحاء والمرضى ما سمحت أحوالهم بطلبه وتمنيه ، غير أن السعر الباهظ أحل الأسى في قلوبهم ، فقد كانوا يحصلون على الدجاجة لقاء عشر سويلدات ، والبيضة الواحدة لقاء خمسة أو ستة ديناري ، كما كنا نفع ثمن البصلة الواحدة أو رأس الثوم خمسة أو ستة ديناري وجعل السعر يتواءم مع الحجم إذ بلغت حبتا البندق ديناريا واحدة ، كما قايض أولئك الذين كانوا لديهم حصان أو بغل على الخبز ، أو باعوه في سوق اللحوم كما ولو كانت خيولهم أبقارا ، لأنه كان علينا أن نبيع بين الاغريق بسون ربح ، وأن نشتري بسعر مرتفع للغاية .

وعلم التركمان من الاغريق بأنه لدى فرساننا خيول ، ولذلك استغلوا هذه الضمانة وهذا الأمان ، وأعدوا العدة لمهاجمة الجيش بكامل قوتهم ، وقد أحيط الملك علما بذلك ، فتحرك بسرعة ، وزحف ضد التركمان مصطحبا معه الكهنة والفرسان الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بمطاياهم رغم جوعهم ، وظاهر فجأة أمام التركمان ، وحمل عليهم ، قاتلا بعضهم ، ومجبرا البقية على الرجوع ، وعبور النهر ثانية دون جسر ، وهكذا أجبرهم على الاعتقاد منذ ذلك الحين فصاعدا ، بأن لدى جيشه العديد من الخيول

الممتازة ، وفي الوقت ذاته حمل الاغريق المراكب بأسعار تفوق كل تصور ، إنما والحق يقال مطابقة لأسعار حاجياتهم الأخرى ، فقد دفع كل واحد من الرجال أربعة ماركات للعبور الى انطاكية ، حيث كنا سنصل في اليوم الثالث كما قال الاغريق ، واحضرت هذه المراكب القليلة الفقيرة ، وقدمت الى الملك كما لو أنها هبة مجانية ، من قبل القائد ومبعوث الامبراطور ، فوزعت من قبله فيما بين الاساقفة والبارونات ، وعلى الرغم من رفضه للسعر الباهظ وشعوره بالغبن ، غير أنه كان يريد المراكب ، لذلك أخفى امتعاضه الذي لاجدوى منه - في خضم الصمت - وسعى للحصول على المراكب التي وعد بها ، من أجل بقية الجيش (٢٠٥) ، ولكن في حين كان الاغنياء ينتظرون الفقراء تأخر الاغريق وقتاً طويلاً ، وبمثل هذه النذالة سلبوا كلتا الطبقتين من ممتلكاتهما (٢٠٦) ، وانني اعتقد حقاً بأننا دفعنا ، بسبب تأخيرنا في هذه المدينة ، ثمننا أغلى مما دفعناه بسبب كافة الصعوبات التي واجهتنا في رحلتنا بأكملها.

إن الذين يجهلون هذه الأمور سيقولون كان ينبغي علينا احتلال هذه المدينة ، والانتقام من سكانها لما قاموا به من أعمال السلب ، لكن ليتذكر هؤلاء أنه لم يكن لدينا طعام ، وأتينا كنا محاصرين من اليمين واليسار من قبل الأعداء ، ومن الداخل والخارج ، وأنه كان من المستحيل تدمير الأبراج المنفردة ، أو تقويض الأسوار المزبوجة بسرعة بدون آلات الحصار والمنجنوقات ، ولقد كان بالامكان القاء القبض على شحنة المدينة وعلى مبعوث الامبراطور عندما كانا يأتیان لمقابلة الملك ، بيد أن سكان المدينة ماكانوا ليتخلون عن المدينة من أجل انقاذ هذين الاثنين من الشنق ، كما أن الملك رأى أنه من الغدر بمكان أن تحاصر المدينة بالخدعة ، وأن ذلك مثير للاشمئزاز ، كما ويتعارض مع مثله ، أن يقدم على تعريض الجميع للمخاطر دون التمكن من الاستيلاء عليها (٢٠٧) ، ليغفر الرب للإمبراطور الألماني ذلك ان رغبتنا في تجنب حظه العاثر ، ثم استمعنا لنصيحته التي تنقصها الخبرة ،

- ٣٠٤٧ -

واتباعها هو الذي اوقعنا في هذه المأزق الشيطانية (٢٠٨) ، لكن كيف لحكم عدل ريا كان ام انسانا ان يصفح عن امبراطور الاغريق الذي قتل العديد من المسيحيين بالكر والخداع ، وذلك في كل من الجيشين الالماني والفرنجي (٢٠٩) .

وهكذا عندما علم حشد الايتام الجدد ، المسلوبين من اموالهم ، والذين هدمهم المرض ، بأن الاغريق قد كذبوا بشأن المراكب ، تقدموا نحو الملك ، وابدوا رغبتهم ، واعلنوا له عن فقرهم بالكلمات التالية مع غيرها: «حضرنا امام جلالكم يامولانا مرتبكين ، لكننا تجرانا على القدوم لاننا وضعنا ثقتنا بطبيكم ، فنحن عندما لم نرغب في المسير معكم على الارض ، كنا قد وضعنا ثقتنا بالاغريق ، كما كنا كسالى ومضللين ، وحيث اننا نشعر الآن بمرارة الحرمان ، فاننا نرغب بالمسير بدون قائدنا ، اننا سندفع لثقابل الموت ، لكن اذا شاء الرب ان نبقى فسانا سنتحاشى الموت الذي يحيق بنا ، ولعله من الاسهل علينا ان نتحمل سيف التركمان ، من ان نستمر في تحمل غدر هؤلاء الناس من السكان المحليين ، بعد رحيلكم.

واشفق الملك ، بتعاطفه المعتاد ، واغدق عليهم كرمه الى درجة يظن المرء معها انه لم يسبق له ان أنفق شيئا من قبل ، او انه انفق الى حد انه لم يابه بحاجة بيته ، ولما كان يريد الامان لرعاياه في رحلتهم ، فقد عقد اتفاقا مع الشحنة ومبعوث الامبراطور فيه انهما سيتلقيان منه خمسمائة مارك مقابل قيادة رجاله الى ما وراء النهرين القريبين ضمن جيش قادر على حمايتهم ثم توصيلهم بأمان وحماية الى طرسوس ، وان يسمح للضعفاء والعجز بالدخول الى المدينة ، والمكوث بها حتى يتعافون ويتوفر طريق يمكنهم اللحاق به ، وعندئذ قام الضباط الاغريق ، الذين كانوا شرهين للمال ، وكانوا يخذلون التركمان ، قاموا بالاجتماع مع التركمان اولا - كما ظننا في ذلك الوقت - واقتسموا الاموال معهم ، وعند عودتهم اقساموا اليمين هم ومعهم بعض الاثرياء من اهل المدينة ، والذين احضروهم

معهم ، على الاتفاقية المذكورة آنفا ، وقد تم دفع الأموال ، وأمر
الاغريق العجز بدخول المدينة ، وأن يعد بقية الرجال أنفسهم للرحلة
في اليوم التالي ، وإضافة لذلك قام الملك بجمع الخيول التي استطاع
أن يجدها ، وأعطاهما للفرسان الذين ثبتت شجاعتهم ، وبما أنه كان
يخشى وجود الخديعة حيث كان قد خبرها ، خلف وراءه كونت
فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون ، إلى أن يكون الناس قد رحلوا ،
وصعد ظهر مركبه مصحوبا بدعوات وصلوات أولئك الذين ظلوا في
الخلف (٢١٠) .

وفي اليوم الثاني ، وبينما كان جيش المشاة ينتظر ادلاء
ومرشديه ، تحرك التركمان ، الذين كانوا قد أبلغوا برحيل الملك من
قبل الاغريق على الفور ، وانقضوا على جيشنا وكأنه فريسة ،
وصدف كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون العساكر وأعدوهم
للمعركة ، وأبدى الرجال في تلك المعركة شجاعة ، لكن حركتهم كانت
بطيئة لأنه لم يكن لديهم إلا بضعة خيول هزيلة ، فاندفعوا لمواجهة
اعدائهم ، واشتبكوا معهم ، ففر هؤلاء الذين كانوا قد اتوا بقصد
السلب فقط ، ولما لم يكن هناك أي رجل كان قادر على تتبعهم
بسرعة ، فقد قتل من العدو عدد قليل فقط ، وطالب الفرنجة بعد هذه
الحادثة بأن يقوم شحنة المدينة ومبعوث الامبراطور والسكان
المحليين بتطبيق الاتفاقية التي كانوا قد أقسموا اليمين للملك بأنهم
سيراعونها ، وعندئذ للمرة الأولى وجد الاغريق أنفسهم أمام
استحالة تطبيق الاتفاقية ، متذرعين بالتركمان والشتاء كأسباب
وراء ذلك ، واضاع الفرنج في هذه المناقشات بضعة أيام والكثير من
الكلام ، ولم يتمكنوا من التغلب على الاغريق حتى عن طريق
استرضاء حسهم بالعدالة والنطق والشرف ، وفي نهاية الأمر ، وبعد
أن انتهى النزاع حول الحماية على الطريق سمح الاغريق بصعوبة
بالغة لرجالنا بالتمركز داخل أسوار الحصن ، وبسوق يتسوقون منه
إلى أن يتمكنوا من الأبحار ، وعندما وصل الاسطول أسرع زوابع
الملك على متن المراكب يندبون عدم قدرتهم على الانتقام للإساءات
التي ارتكبت في حقهم (٢١١)

وبدم اولئك روى التركمان تعطشهم ، وتحول غدر الاغريق الى عذف ، لان التركمان عادوا ليروا من نجا منهم ، واغدقوا الكرم على المرضى والفقراء ، لكن الاغريق ارغموا الاقوياء من الفرنجة على القيام بخدمتهم ، كما قاموا بضربهم لتحصيل المال منهم ، واشترى بعض التركمان ذقودنا من حلفائهم ووزعوها على الفقراء بيد حرة ، بيد أن الاغريق قاموا بسلب ما تبقى ، ولذلك فقد مضى الفرنجة بأمان بين « غير مؤمنين » متجنبين البناء بينهم الذين كانوا في غاية القسوة معهم ، وقد قيل لنا بأن اكثر من ثلاثة آلاف شاب قد ذهبوا مع التركمان ، عندما رحل هؤلاء المذكورون اخيرا ، وبالإلشفقة لقد كان ذلك اكثر قسوة من اية خيانة ، لانهم كانوا يأخذون الايمان لقاء تقديم الخبز على الرغم من انه من المؤكد بأن قناعة التركمان بالخدمة التي كسبوها لم يجبر اي واحد على ذكران ايمانهم والآن انزل الرب اللعنة على مدينة انطاكية ، واذاق اهلها الموت المفاجيء ، فلقد كانت هناك بيوت عديدة قائمة مهجورة ، في حين من لم يمت من اهلها بقي مذهولا مرعوبا ، وخططوا لمغادرتها جميعا. (٢١٢) ، وجرى الامبراطور المدينة من الفضة والذهب معارضا حكم الرب ، لانها كانت قد اعدت اسطولا وسوقا للملك ، لذلك فان رايه كان يتعارض مع مشيئة الرب ، غير ان كلا الاثنين قد انزلا العقاب بالمدينة.

وبعدما كان الملك قد قضى خمسة اسابيع في هذه المدينة ، فانه قضى ثلاثة اسابيع اخرى يعاني فيها من تحطم المراكب في الطريق الى انطاكية ، وذلك بسبب تعطل وتضرب مراكبه ، ولكن بمشيئة الرب لم يغرق اي منها (٢١٣) مع ان الخسائر التي تكبدها كانت فاحشة للغاية ، كذلك كانت المخاطر التي احاقت به ، لكن يا ابانا سوكر عليك ان ترتاح الى حقيقة انه ظل آمنا ، ذلك انه كان من صالحه ان يعاني بهذا القدر ، لان من المعروف عنه انه حصيف ومتبصر بعواقب الامور في وقت الشدة ، كما انه يتحمل الخسارة بقلب مرتاح وحبور ، ثم إنه كان قد تحمل انواع السعادة بحكمة

وصمود ، وكان الشيء الوحيد الذي يحز في نفسه هو سوء حظ رعاياه الذين كان يوجه عنايته لهم على الدوام قدر المستطاع ، فمن الناحية النظرية لم يكن الملك قد ولد لذاته بل لصالح الآخرين ، وعلى الملك الا يكون ورعا فحسب ، بل الا يخشى الفقر ابدا ، ولكي يعيش مثل شرفه كان لا يابه بالحصافة التي يجب ان يتمتع بها الملك عادة ، وكان يتحمل برد الليالي وحر الايام ، بينما كان يتناوب على حماية المقدمة والمؤخرة ، وفي خضم الصعوبات العديدة التي كان يمر بها كان مرد الحفاظ على سلامته لا يعود الى سبب غير سبب تمسكه بديانته ، لانه كان دائما يأخذ القربان قبل ان يذهب لمهاجمة قوى العدو ، وعند عودته يطلب قرع اجراس الكنيسة في المساء دعوة للقداس ، وهكذا كان دائما بحكمته يجعل الرب « هو الالف والياء البداية والنهاية » ، (٢١٤) وكامير كريم ، وفارس مقدم ، وشاب حيوي ، وشيخ متعقل كان قد اعد نفسه للتأقلم مع مختلف الأوضاع ، والظروف والطاقت ، وبتكامله نال حب الناس ، وبورعه حظي بحب الرب له.



من

تاريخ وليم رئيس اساقفة صـور

(تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار)

١٨ - تحرك الناس في الغرب . كونراد امبراطور الرومان ولويس ملك فرنسا ينطلقان نحو الشرق ومعهما عدد كبير من الأمراء بغية مساعدة المسيحيين فيه .

عندما تم الاستيلاء على مدينة الرها ، كما سبق لي ورويت أخبار تلك الحادثة المشؤومة ، انتقل الخبر إلى الغرب ، وعم انتشاره فيها ، وسرت هناك اشاعات فيها أن أبناء الضلال من التركمان لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة الرها ، لكنهم شرعوا في تدمير بقية المدن والقصور والحصون العائدة إلى شعبنا ، وهم يسيطرون الآن سيطرة كاملة على الشرق ، وهكذا فإن رعايا المسيح يعانون الآن من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة وأعمال الغارة المتكررة عليهم .

وانتشر الرسل في كل مكان يحملون هذه الأخبار إلى جميع الأمم والشعوب ، وزار هؤلاء الرسل البلدان التي عمها التراخي واللامبالاة لفترات طويلة ، وشدوا مساعنتها وحرضوها على الانتقام لهذه الجرائم الكبرى ، وقد روي ، بأن البابا يوجينوس الثالث ، الذي كان رجلا يخشى الرب ، ويحمل - كأب - مشاعر صادقة تجاه أبنائه في الشرق ، وكان يفيض بمشاعر الالتزام والتعاطف معهم ، قد بعث بالعديد من رجال الدين للطواف على مناطق الغرب ، وحيث أن هؤلاء كانوا من أصحاب البراعة ، وذوي المقدرة ، في القول والعمل ، فقد طلب منهم : إخبار الأمراء والشعوب والقبائل والأمم في كل مكان ، بأحوال إخوانهم في الشرق ، وعن أوضاعهم التي لا تحتمل ، بغية إثارتهم وندبهم للتطوع ، حتى يتم الانتقام لهذه الجرائم ، وكان بين هؤلاء المبعوثين برنارد راعي دير كليرفو ، وكان برنارد هذا ممن استحق

الخلود : لتقاه ، ولحياته النبيلة ، التي ضرب بها مثلاً رائعاً للجميع في جميع المجالات ، ووقع الاختيار عليه ليتراأس مهام هذه البعثة إرضاء للرب ، وقام بتنفيذ المهام الملقاة على عاتقه بكل نشاط واصرار ، مع أنه كان ضعيف الجسم ، متقدماً بالسن ، ويعيش في حالة صوم دائم ويقتات القليل القليل من الطعام .

وتنقل برنارد في الممالك والبلدان ، باندفاع رباني ، وبحماسة وغيرة ، ويشر بمملكة الرب دون كلل أو ملل ، وقسداً أولى عظيم العناية لشرح ما نزل من الكوارث بشعب المشرق ، ولتبيان نوع العدو الذي يجهد في سبيل التحكم به والتفكيك ، وأوضح كيف آل المآل بمدن كانت في السابق مواطن للايمان ، مكرسة للعقيدة المسيحية ، فصارت الآن تعاني من آثام العبودية تحت سلطان الذين

نكلوا باسم المسيح ؛ ولقد شد إخواننا سكان هذه المدن بالأغلال والقيود ، واستهلكهم الجوع ، وعاشوا جميعاً في سجن رهيب ، في حالة كلها قذارة ومرارة ، فهؤلاء الذين أبدى المسيح استعدادهم للموت لانقاذهم ، يعيشون الآن بين التوسل والأغلال ، وحتى يتم تحرير هؤلاء الاخوان ، دعا برنارد الناس واصرصهم ، وحرك عواطفهم ، وأثار شجونهم ، وانتدبهم لحو هذه الجرائم ، وقد وعد بمعونة سرمدية ، وبثواب رباني لجميع الذين سيتطوعون للقيام بهذا العمل المقدس .

ونشر برنارد هذه الرسالة بكل حماسة وتقوى بين الأمم والامارات والممالك ، فربح التأييد المباشر من قبل الكبير والصغير ، وتجاوب الجميع مباشرة مع دعوته ، وأخذوا على أنفسهم العهد بالتوجه نحو القدس ، وعلقوا على عواتقهم شارة الصليب ، وأعدوا العدة للسفر ، ولم يقتصر اقناعه وتأثيره على سواد العامة ، بل شمل الكبار من الحكام مع عظماء رجالات الممالك ، ولقد تبنى كلماته أعظم ملوك الأرض وأوسعهم شهرة ، يتقدمهم كونراد امبراطور

الرومان ، ولويس ملك الفرنجة مع عدد كبير من أمراء الممالك ،
وذلك بكل حرارة واندفاع شديدين ، ووضعوا على عواتقهم علامة
الصليب ، بكل تقوى وخشوع دلالة على أنهم سيقومون بواجب الحج
(١) .

١٩ - الامبراطور ينطلق أولا على رأس جيشه
ويصل إلى القسطنطينية . سلطان قوته ينصب له
الكماثن :

قام الملك باتخاذ جميع الترتيبات الضرورية من أجل ادارة
مملكتهما اثناء غيابهما ، وضما إلى صفوفهما جميع الذين أخذوا
على أنفسهم - عن طواعية - عهد الانقاذ ، وعندما انتهت جميع
الترتيبات الضرورية للزحف ، بشكل يليق بالمكانة الملكية ، انطلقوا
بتيسير الرب لاداء حجهم في شهر أيار ، انطلقوا ضمن اشارات غير
سعيدة ، ونذر شريرة ، ذلك أنهم شرعوا في الزحف ، كما لو أنهم
ضد ارادة الرب الغاضب عليهم ، ولذنوب بني البشر لم ينجزوا في
حجهم هذا كله ما يرضي الرب ، وفوق ذلك حولوا أحوال الذين ذهبوا
لانقاذهم وقلبوها من سوء إلى أسوأ (٢) .

وقرر القادة الزحف كل على انفراد ، على أن يقود كل منهم جيشه
في اتجاه يختاره ، وبذلك كان يتم تجنب قيام الخلافات بين الناس ،
كما أنه بهذه الطريقة كان يمكن للفرق الصغيرة أن يؤمن كل منها
لنفسه الطعام وبقية ضرورات الحياة ، مع أعلاف الخيول
والحيوانات بسهولة وبكميات كبيرة .

واجتازوا بافاريا ، وعبروا نهر الدانوب العظيم عند راستبون ،
وانحدروا إلى أراضي النمسا ، والنهر على يسارهم ، ثم دخلوا
أراضي هنغاريا ، حيث عوملوا معاملة طيبة من قبل ملك تلك

البلاد ، وبعدها مروا مجتازين أراضي تلك المملكة ، وسلسلتي
أبانونيا ، مضوا من خلال مقاطعات بلغاريا وهي : موشيا وداشيا
المتوسطية ، مخلفين داشيا الثانية على اليسار ، وقد وصلوا إلى
ثراس (تراقية) بعدها مروا بكل من المدينتين الشهيرتين
فيليبوبولس وأدريانوبل (أدرنه) ووصلوا أخيرا إلى العاصمة
الملكية (٣) .

وقد استقبلوا استقبالا لائقا من مانويل امبراطور القسطنطينية ،
ونالوا قسطا من الراحة لبضعة أيام ، وحصلوا على جميع اللوازم
والأشياء الضرورية لراحة الجيش ومتعبه بعد رحلة كلها
متاعب (٤) ، ثم عبر الجميع مضيق البوسفور ، الذي تمتد مياهه
حتى القسطنطينية ، وهو أيضا يفصل ما بين كل من آسيا وأوربا ،
ودخلوا إلى بيثينيا ، وهي أول مناطق آسية التي يصلها الإنسان ،
وعسكرت جميع الجيوش في قرية خلقذون ، حيث بنت المدينة التي
كانوا قد غادروها لتوهم على مرأى منهم لقربها ، وفي هذه المدينة
القديمة سبق أن عقد المجمع المسكوني المقدس الرابع الذي شهد
ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة ، وذلك في أيام الامبراطور
مارتن والبابا ليون ، وذلك بغية التصدي لهرطقة يوتيش الراهب
الذي أعلن أنه ليس لمولانا المسيح إلا طبيعة واحدة (٥) .

ولقد عرف سلطان قونيه قبل مدة مديدة ، أخبار زحف هؤلاء الأمراء
الكبار ، وأدرك مدى المخاطر القادمة نحوه ، ولهذا طلب المساعدة
من أقصى جوانب المشرق ، ونظرا لخشيته الشديدة اتخذ كافة
الاحتياطات وتسليح ضد الخطر المشرف عليه ، والنابع من وجود
أعداء كثر حوله ، وحصن مدنه ورمم قلاعها وشحنها واستعان
بجميع جيوشه ، وانتظر بتوجس ويقظة شديدة دنو العدو الذي وصل
إلى مشارف دياره ، والذي كان خطره يقترب يوما تلو الآخر ، حيث
جاء يريد تدمير رعيته وبلاده ، وسرت الأشاعات برصول حشود لم
ير مثيلها ، لا في عددها ولا عددها ، حتى قيل بأن عدد الفرسان فقط

- ٣٠٥٩ -

غطى وجه الأرض إلى حد أن أكبر الأنهار لا يكاد تكفي مياهه لشرب هذه الحشود ، وأن أعظم الأراضي خصبا لا تكفي لامدادهم بالمؤن ، وعلى الرغم مما حملته هذه الأقاويل من المبالغات ، فإن حجم الحقيقة في حد ذاتها ، يلقي الرعب في قلوب أعظم الزعماء والقادة ممن لم يكونوا يدينون بالنصرانية ، ذلك أنه اعتمادا على الروايات الرسمية لعدد من الرجال الذين شاركوا في هذه الحملة ، كان في جيش الامبراطورية وحده قرابة السبعين ألفا من الفرسان الدارعين ، كل ذلك إلى جانب الرجالة والنساء والأطفال والخيالة الخفاف ، وبالنسبة لجيش ملك فرنسا ، فقد قدر وجود سبعين ألفا من الدارعين الشجعان فيه أيضا ، وذلك بالإضافة إلى الرجالة ، (٦) ولو أن الرب كان راضيا عنهم ، فمنحهم رحمته ومساعدته ، ولم يحرمهم من عونه ، لاشك أنهم كانوا سيتمكثون ليس من إخضاع السلطان فحسب ، بل إخضاع جميع بلدان المشرق ، إلى سلطان النصرانية ، لكن الرب بحكمته ، ومكثون علمه واحكامه ، رفض خدماته ولم يعتبرها خدمات مقبولة ، لربما لأنها قدمت بأيدي غير تقية.

٢٠ - بعد عبور البوسفور قيد جيش الامبراطور كونراد إلى الضياع بخداع من الاغريق الذين استجروه إلى مواضع خطيرة جدا .

وما أن عبرت جميع الفرق البوسفور ، حتى قام الامبراطور كونراد ، ومعه كبار نبلائه وحاشيته بتوبيع الامبراطور مانويل ، وعبروا البحر ، وأمرت الفرق ، وقد غدا كل منها تحت إمرة قائدها الخاص ، بالزحف ، فغادرت غالاشيا بافلوغوينا ، ومقاطعتي بونتوس على اليسار وفريجيا وليديا وآسية الصغرى على اليمين ،

وسار كونراد مباشرة عبر قلب بشينيا إلى نيقوميديا (إزميت) حاضرة تلك الديار ، واجتاز مدينة نيقية ، وهي المدينة التي عقد فيها أيام الامبراطور قسطنطين مجمع الثلاثمائة عشر من آباء الكنيسة المقدسين للتصدي للعقيدة الشريفة التي بشر بها أريوس السيء الذكر (٧) ، ومن هنا اتبع الجيش وهو على تعبئة كاملة ، اقصر الطرق إلى ليقانيا التي مركزها مدينة قونية .

وحشد السلطان في هذا المكان عددا كبيرا من الرجال واعداد كبيرة من التركمان ، من المناطق المجاورة ، وكان ينتظر الوقت المناسب ، والمكان المواتم ليهاجم النصارى وهم يحاولون المرور وبذلك يمنع تقدمهم ، وكان قد تمكن عن طريق الرشوة والتحالف من إثارة جميع الملوك والقادة والمقدمين من مختلف المراتب ، من اقاصي المشرق وادانيه ، ضد شعبنا ، وقد بين لهم برسائله المتواصلة ، أنه لو سمح لمثل هذا الحشد الهائل من الرجال المسلحين بالمرور خلال بلاده دونما اعتراض ، فانهم سيخضعون المشرق جميعه لحكمهم بقوة السلاح ، واستجاب لندائه عدد كبير من الامم بسرعة من : ارمنييا (العليا والدنيا) وكبادوقية ، وزوريا ، وميديا وبارثيا

(اعالي الجزيرة) وهكذا تجمعت الحشود الكبيرة ، وقدامنا السلطان بمساعدة هذه الامم له انه سيتمكن من المقاومة بقوات معادلة لتلك الحشود الجبارة ، التي قبل انها اشرفت على الذو منه .

وكان كونراد قد طلب من الامبراطور مانويل قبل ان يفساد القسطنطينية تزويده ببعض الادلاء الذين يعرفون المنطقة معرفة جيدة ، والذين هم في الوقت نفسه خبراء بالمناطق المجاورة ، ومهما يكن الحال فقد برهن هؤلاء انهم ليسوا اهلا للثقة ، فلقد افترض ان

- ٣٠٦١ -

يقوموا بقيادة الجيوش بكل امانة وثقة حتى لا تتعرض العساكر المهتدية بهم للمخاطر والمصاعب او قصور في الامدادات وهم سائقون ، لكن ما ان شرع هؤلاء الادلاء في قيادة الجيش داخل اراضى الاعداء حتى اخبروا قائده بان عليهم الاستفادة من الطريق القصير الذي يقودهم عبر بلاد غير محتلة من العدو ، وعلى هذا عليهم حمل كميات من المؤن تكفي لعدة ايام فقط ، ووعدهم انهم خلال ايام معدودة سيصلون الى مدينة قونية الواسعة الشهيرة ، فهناك سيجدون انفسهم وسط اخصب البلاد والمليئة بجميع انواع الامدادات ، وتبعاً لهذه التعليمات ، وتنفيذا لما قضت به ، حمل النصارى المؤن على ظهور الحيوانات والعربات ، وجميع وسائل النقل التي كانت بحوزتهم ، ذلك انهم وثقوا بادلائهم ، وتبعوهم بكل بساطة وثقة .

لكن الادلاء ، وقد جبلوا على طباع الخسة التي عرف بها العرق الاغريقي ، مع كراهيتهم المعتادة للنصارى تصرفوا بخيانة ، وذلك اما بناء على اوامر تلقوها مسبقاً من سيدهم ، اولان التركمان رشوهم ، وهكذا قادوا الفرق العسكرية عبر طرق غير مطروقة ، واستدراجها الى اماكن وفرت للعدو فرصاً مناسبة لقتال وهزيمة هؤلاء الناس الذين غدوا بلا حول ولا طول (٨)

٢١ - الادلاء الذين قدمهم الامبراطور الاغريقي لارشاد جيش كونراد الامبراطور الالماني يتخلون عنه بكل خبث ، تاركين عساكره معرضين لمخاطر عظيمة .

عندما مرت الايام المحددة ، ولم تصل الحملة الى هدفها الذي طال شوقها اليه ، امر الامبراطور باحضار الادلاء الاغريق امامه ،

- ٣٠٦٢ -

وشرع بالتحقيق معهم بحضور اعيان جيشه ، فسألهم : لماذا سار الجيش وما زال مستمرا في المسير مدة اطول مما حدد له في البداية ، ومع ذلك لم يصل الى اهدافه - وكما هي عادتهم - لجا الادلاء الى الخداع واكدوا له بشكل قاطع ، انه يمشيئة الرب ستكون جميع الفرق في قونية في مدة ايام ثلاثة ، وكان الامبراطور رجلا بسيطا لا يعرف المكر ، لذلك صدق بسرعة اقوالهم واجابهم بانه سيتحمل عناء الايام الثلاثة المقبلة ايضا ، ذلك انه وثق بصدق وعودهم ، وعندما حل المساء اقيم المعسكر حسبما جرت العادة ، لكن بينما كان الناس نياما ، بعد عناء يومهم ، هرب الادلاء الخونة في ظلام الليل ، وتركوا الناس الذين وضعوا ثقتهم بهم ، وامنوا بعنايتهم بهم ، تركوهم بلا ادلاء ، وفي صباح اليوم التالي ، حل وقت استئناف المسير ، دون ان يمكن العثور على الادلاء الذين كانوا في العادة يتقدمون الصفوف ، وبعد لأي حمل الى الامبراطور خبر هؤلاء الخونة وفرارهم وعلم بهذا قادة الجيش ، وطار خبر خيانتهم ، وانتشر بين الجميع .

وزيادة على هذا ، فان هؤلاء الابالسة ، اسرعوا نحو جيش ملك فرنسا الذي كان بالجوار ، وادعوا كذبا بان الامبراطور ، الذي كان قد سافر بقيادتهم من قبل قد نال نصرا مؤزرا على الاعداء ، وانه استولى على قونية بقوة السلاح ، وانه دمرها دمارا كاملا ، ولقد اضافوا بهذا الكذب الى جرائمهم جرائم اعظم .

ومن الواضح انهم اقدموا على هذا الادعاء : اما لاقناع الملك لاتباع الطريق نفسها حتى يواجه المخاطر نفسها ، او ربما لجعله يعتقد بان كونراد قد حالفه النجاح الكامل ، وبذلك يمتنع عن التفكير بالاسراع نحوه لتقديم العون لاخوانهم الذين تعرضوا للمخاطر ، ولربما اخترعوا هذه الحكاية ليجنبوا انفسهم نيل العقاب ، لانهم لو اخبروا ان الجيش قد هلك ، فسيلقي القبض عليهم ، ويعاملون بمثابة خونة ، حيث ان الناس اندفعوا نحو حتفهم بسبب شرورهم ،

- ٣٠٦٣ -

ومهما كانت حقيقة نواياهم ، فانه من المؤكد بان خيانتهم ادت الى التخلي عن الجيش ودفعه للوقوع في مخالف الموت .

وما ان ادرك الامبراطور بان الجيش قد بات بلا ادلاء حتى دعا الى اجتماع لجميع القادة لمناقشة القضية واتخاذ قرار حول السبل التي سياخذون بها ، وظهر على الفور اجماع على عدم الاتفاق والوفاق ، فقد رأى بعضهم انه ينبغي على الجميع العودة من حيث اتوا ، بينما رأى بعضهم الاخر انه ينبغي عليهم متابعة الطريق ،

وينطبق في هذه الازمة قوله : يسكب هواننا على رؤساء ويضلهم في تيه بلا طريق (٩) .

وبينما هم في حالة الشك هذه مضطربين بشأن المنطقة ، قلقين حول انعدام المؤن ، لان اعلاف الخيول وحيوانات الظهر مع جميع انواع المؤن والاطعمة للجيش كانت قد نفذت (سرت اقاوليل بان جيش العدو ، الذي يحوي حشودا كبيرة من القسركمان ، بات على مقربة منهم ، ولم يلبث ان ظهرت حقيقة ذلك ، وهكذا اصبح النصارى في ارض جرداء قاحلة ، بعيدين عن الاراضي المزروعة ، فلقد قيدوا عن عمد الى هناك كما قلنا من قبل ، وذلك من قبل ادلائهم الخونة ، فلقد كان من المتوجب عليهم السفر عبر ليكانيا ، التي ودعوها عن يمينهم ، فلوركبوا هذا الطريق ، لمروا با راض مزروعة فيها جميع انواع المؤن ، ولكانوا وصلوا نحو اهدافهم بوقت اقل طولا ، وعوضا عن ذلك قادهم الاغريق يسارا ، واجبروا الجيش كله على الانحراف نحو فيافي كبادوقيا بعيدا عن قونية .

وراجت اقاوليل يبدو انها كانت اقرب الى الحقيقة منها الى الخيال ، منها ان عملية التيه الخيانية هذه قد ابدعت بمعرفة من الامبراطور الاغريقي ، وبامر منه ، ذلك انه حسد النصارى ، وغار من نجاحاتهم ، حيث انه من المعروف ان الاغريق نظروا دائما بريية

- ٣٠٦٤ -

وتوجس (ومازالوا يفعلون) نحو ازدياد قوة امم الغرب عامة ، ونحو الامة الالمانية خاصة ، فقد اعتبروها امة منافسة لامبراطوريتهم ، بسبب ان ملك الالمان دعا نفسه : امبراطور الرومان ، مما كان يعني انتقاما كبيرا من سمعة امبراطورهم ، الذين هم انفسهم يدعونه وحده امبراطور ، ولا يوجد امبراطور غيره (١٠)

٢٢ - التركمان ينقضون بهجوم صاعق على الحشود الالمانية . الفرق الالمانية يحل بها الدمار لكن الامبراطور ينجو .

في تلك الاونة كان جيش الامبراطور يعاني من : الجوع ، ومن جهله بالمنطقة ، ومن عزلته المزدادة ، ومن مصاعب الطرق ، ومن قلة الخيول ، ومن حمل العتاد ، واثناء ذلك كان امراء التركمان وقادتهم على مختلف مراتبهم يعون هذه الحالة تمام الوعي ويعرفونها بيقين ، لهذا حشدوا قواتهم ، وانقضوا بها في هجوم مباغت على المعسكر المسيحي ، وقد اوقع هذا الهجوم غير المتوقع الفرق الالمانية في فوضى كاملة ذلك انه لم يسبق لهم ان راوا اي شيء من هذا القبيل ، فلقد كمننت قوة من الجند التركمان في خيولهم السريعة التي لم تكن تعاني من جوع او عطش ، وفي عتادهم الخفيف ، المؤلف من قوس ونشاب ، واحاطوا بالمعسكر واصواتهم تتعالى ، وكما جرت عادتهم انقضوا بعنف على عساكرنا الذين اعاققتهم بدروعهم الثقيلة ، فلقد كان النصارى يتفوقون على العدو قوة ومهارة في القتال ، انما كانوا مثقلين بدروعهم وسوابغهم وترستهم ، لهذا لم يستطيعوا منازلة التركمان ، كما انه لم يكن بمقدورهم مطاردتهم ابعد من حدود المعسكر ، ذلك ان خيولهم كانت قد انهكتها الجوع ، وهدها طول السفر ، لذلك كانت عاجزة تماما عن الركض كرا وفرا ،

- ٣٠٦٥ -

واما التركمان فقد كانوا على عكس ذلك ، حملوا حملات جماعية ، واطلقوا نحوهم من مسافات مناسبة ، وابلا من السهام ، سقطت كالطر المنهمر على الخيول والخيالة وسببت الموت والجراح بشكل شامل ، وعندما حاول النصارى احيانا مطاردتهم ، استتدار التركمان ، وفروا على خيولهم السريعة ، وبذلك نجوا من سيوف اعدائهم ، وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات ، وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال ، ولم تتوفر لديه الفرصة للانتقام او الاشتباك بالعدو في قتال قريب ، كما انه لم يستطع امساك العدو وحصره ، فكلما حاول القيام بهجوم مضاد ، تفرق التركمان وبددوا جهودهم ، وركضوا في مختلف الاتجاهات ، وعندما كان النصارى يعودون الى مخيمهم ، كان التركمان يعاودون رص صفوفهم ، ويقومون ثانية بتطويق عساكرنا وقتالهم بضراوة اشد ، وكانما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان .

وهكذا ، وبارادة الرب ومشيتته الخفية الحقة ، نجد ان شجاعة هؤلاء الامراء الكبار من النصارى ، الذين بدت قوتهم وشجاعتهم وكأنها لاتقهر ، واعدادهم لاتضاهى ، قد انهاروا جميعا تحت ضربات لايمكن وصفها بانها كانت اكثر من لينة حربيا ، ولم يبق مرثيا من شجاعتهم السابقة شيء وبقي من اعدادهم الكبيرة قوات يسيرة فقط ، فمن بين السبعين الفا من الفرسان الدارعين ومما لا يحصى من الرجالة الذين صحبوهم ، نجا عشرهم او اقل من ذلك ، وذلك اعتمادا على روايات الذين كانوا ضمن الحملة ومن رجالها (١١) : فلقد هلك بعضهم بفعل الجوع ، وقطع اخرون بالسيوف ، وسقط عدد كبير من الاسرى بيد العدو ، وعلى كل حال نجا الامبراطور مع عدد من نبلائه ، وتمكن بعد عدة ايام ، ومصاعب جمة ، من الوصول الى احواز مدينة نيقية مع الباقين من اتباعه .

وتراجع التركمان الى حصونهم بعد أن أثقلوا بغنائم لا تحصى وخيول وأسلحة لا يمكن حصرها وبما أنهم كانوا على معرفة تامة

- ٣٠٦٦ -

بالمنطقة ، فإنهم انتظروا بلهفة وصول الملك الفرنسي ، لأنه كما جاء في بعض الأقاويل كان موجودا في أطراف تلك المنطقة ، وبما أنهم دمروا قوات الامبراطور التي كانت أعظم من سواها ، فقد أملوا بأنه سيكون من السهل عليهم ايقاع الهزيمة بجيش ملك فرنسا ، وكان الذي حدث هو ما توقعوا حدوثه تماما .

ولم يشارك سلطان قونية في هذه الاحداث العظمى ، بل تمكن - بعون من الرب - واحد من أمراءه التركمان اسمه براموس (؟) وكان قائدا لقوات السلطان ، تمكن من إنجاز هذا النصر الرائع ، وقد وقعت هذه الواقعة في شهر تشرين الثاني لسنة ١١٤٦ لتجسيد الرب .

٢٣ - ملك فرنسا يعبر البوسفور ، ويصل على رأس حشوده إلى نيقية في منطقة بيثينيا . الملكان يتباحثان مع بعضهما . عودة الامبراطور كونراد إلى القسطنطينية .

ووصل في الوقت نفسه ملك فرنسا مع جيشه إلى القسطنطينية بعد أن اتبع الطريق نفسها تقريبا ، ومكث هناك لمدة وجيزة ، وقد عقد عدة لقاءات خاصة مع الامبراطور ، الذي أظهر نحوه تقديرا واحتراما كبيرا ، ولدى مغادرته أتشفه بعدد كبير من الهدايا ، كما تمت معاملة أعيان حاشيته معاملة طيبة ، وفي بقعة معينة ، قائمة بين العاصمة الملكية والبحر الأسود (المسافة بينهما ثلاثون ميلا) قام بعبور البوسفور ، ففي تلك البقعة كان البوسفور في أضيق أماكنه ، عرضه حوالي ميل واحد ، ثم سار حول خليج نيقوميديا ، الذي اكتسب اسمه لمجاورته لمدينة نيقوميديا حاضرة منطقة بيثينيا ، ويعد هذا الخليج - في الحقيقة - جزءا من البوسفور ، وفي قرية نيقية ، غير البعيدة عن المدينة نفسها اتخذ الملك

- ٣٠٦٧ -

الفرنسي معسكرا له ريثما يقرر الطريق الذي سيركبه ، وقام باستقصاء دقيق حول امبراطور الالمان الذي سار امامه ، وقد علم هناك بأن جيشا الامبراطور قد دمر ، لكن الامبراطور نفسه نجا ، وهو الآن شريد ضائع ، نجا بروحه مع عدد قليل من نبلائه ، وقد ظن الملك في البداية ان هذا الخبر مجرد اشاعة لا اساس لها من الصحة ، انما مع مرور الوقت توصل الى الخبر اليقين ، ذلك ان فريدريك دوق سوابيا (١٢) وصل الى معسكر الامبراطور ، حاملا معه اوسع التفاصيل حول هذه الكارثة ، التي كانت المعلومات حولها حتى هذه الساعة غير واضحة ، وأشبه بالاشاعة التي لا يمكن الوثوق بها ، وكان هذا الدوق شابا في مقتبل العمر ، يتمتع بصفات حميدة ، وهو الذي سيخلف في المستقبل عمه كونراد ، ويصبح حاكما للامبراطورية الرومانية التي يحكمها الآن بكل نشاط ونجاح ، وكان قد جاء لتوجيه الدعوة للملك ليجتمع بالامبراطور حتى يتباحثا معا - وإن جاء ذلك متأخرا - حول الطريق التي ينبغي السير عليها ، ولدى سماع الجيش بخبر هذه المصيبة التي نزلت بالامبراطور ، وبالدمار والشرور التي لحقت بإخوانهم عمت صفوفه موجة من الغضب والأسى ، وتأثر الملك كثيرا بما رواه له الدوق ، وبعدما تشاور مع أصحابه ، قام بصحبة الدوق ، وبرفقة عدد من نبلائه بالتوجه نحو معسكر الامبراطور الذي لم يكن بعيدا ، بغية التشاور معه .

وبعدما تبادل الملكان التحيات المعتادة ، وتعانقا ، وقبل بعضهما بعضا ، اجتمعا بشكل ودي ، وتباحثا حتى اتفقا على الاستمرار في تنفيذ خططهما ، وعلى دمج قواتهما للزحف معا ، وحدث أن كثيرا من رجال الطرفين ، خاصة من بين الالمان ، خرقوا مواثيقهم ، وتخلوا عن عهودهم ، وعادوا نحو القسطنطينية وذلك بعدما استنفدوا ما كان معهم من مال ، وبعدما واجهوا ما واجهوه من مصاعب جمة على الطريق ، مما بعث الهلع في قلوبهم .

- ٣٠٦٨ -

وقرر الملك بعدما استشارا قادة الجيشين ، التخلي عن الطريق الواقع على اليسار ، وهو الذي سبق للامبراطور أن ركبه ، ووجهوا صفوفهم باتجاه أسية الصغرى ، وكان الآن على يمينهم بلدتا فريجيا ، وخلفوا ورائهم بيثينيا ، وزحفوا الآن عبر الطريق الممتدة على طول الساحل تاركين فيلادلفيا على يسارهم ، ووصلوا أولا إلى سميرنا (أزمير) ، ومن هناك تابعوا السير إلى افسوس ، عاصمة أسية الصغرى ، وشهرت هذه المدينة لكونها قد سبق أن عاش فيها الرسول يوحنا ، وفيها بشر ودفن ، وفي افسوس أمر الامبراطور فرقه المتبقية بالعودة برا ، بينما ركب هو البحر وعاد إلى القسطنطينية ، هذا وإن الأسباب لعمله هذا غير معروفة ، ولربما كان ذلك لحزنه وأسفه على الأعداد الكبيرة التي أضاعها ، ولربما بسبب انه لم يكن في مقدوره تحمل رعب الفرنسيين (١٣) ، وقد استقبله الامبراطور استقبالا اعظم من الاستقبال السابق ، ومكث في القسطنطينية مع نبلائه حتى مطلع الربيع التالي ، وكانت القرابة بين الملكين وثيقة ، ذلك أن زوجتيهما كانتا أختين ، فقد كانتا ابنتي بيرنجر الكبير كونت سولزباش الذي كان يعد واحدا من كبار الأمراء واكثرهم قوة في المملكة الألمانية (١٤) ، ولهذا اظهر الامبراطور نحوه رعاية كبيرة ، وبناء على رغبة من الامبراطورة أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، وخص أشرافه بجزييل العطاء .

٢٤ - ملك فرنسا يتابع مسيره نحو افسوس بطريق مغايرة . هناك يتوفى غوي أمير بونثيو . على الرغم من جهود العدو تمكن الفرنجة من عبور نهر مياندر .

وانهمك في الوقت نفسه ملك الفرنجة مع نبلائه في الاعدادات لاستئناف الزحف ، وحاول أثناء وجوده في افسوس اعطاء جيشه الفرصة لنيل قسط من الراحة واسترداد عافيته ، وتوفي أثناء ذلك غوي كونت بونثيو ، وكان متميزا بين أقرانه من النبلاء لبراعته

العسكرية ولقوته ، وجاءت وفاته بعد مرض ألم به ، وقد دفن في صحن كنيسة افسوس ، وسار وبرفقتة جميع جيشه بكل ما أمكنه من سرعة متجها نحو الشرق ، ووصل بعد مسيرة عدة أيام مخاضة نهر مياندر - المحبوب من البجع - وهذا النهر هو الذي كتب عنه صاحبنا ناسو في الهيرودس :

عندما يأتي داعي المنية استلق على العشب المبلل
فالبجع الأبيض يغني على مخاضات نهر مياندر

وأقام الملك معسكره على ضفتي النهر بين المروج الخضراء ، وحدث هنا لأول مرة أن الفرنجة الذين اشتاقوا طويلا لرؤية أعدائهم ، قد استجيب لهم ، فما أن حاول النصاري الوصول إلى النهر حتى ظهر أمامهم على الضفة المقابلة عدد كبير من التركمان ومنعواهم من استخدام الماء ، وبعد لأي وجدوا المخاضة ، فتمكنوا ، برغم جميع جهود العدو ، من شق طريقهم ، وعبروا النهر ، وانقضوا على التركمان ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، وأسروا أعدادا كبيرة أيضا ، مما أجبر الباقين على الفرار ، واستولى المنتصرون الفرنجة في الحال على معسكر التركمان ، الذي كان ممتلئا بجميع أنواع الغنائم الثمينة والمؤن من كل لون ، واستطاعوا بفضل ما بذلوه من جهد أن يجعلوا أنفسهم سادة الضفة الثانية للنهر ، ولقد امتلأ النصاري سرورا بنصرهم هذا ، وبما كسبوه من غنائم ، وأمضوا ليلة هادئة ، وعند الفجر شرعوا في الاستعداد لاستئناف زحفهم .

ثم ساروا من هناك إلى لوبيقيا ، التي كانت مدينة قائمة في تلك المنطقة ، ومن هناك زودوا أنفسهم بما يكفيهم من مؤن لعدة أيام كما جرت عاداتهم ، ثم استأنفوا زحفهم بنية واحدة .

٢٥ - الجيش الفرنسي يعاني من هزيمة ساحقة . الطلائع التي سارت أمام الجيش تنجو .

واعترض طريق الجيش الزاحف جبل صعب المرقى ، شديد الوعورة ، وكانت خطة المسيرة قد قضت بأن يتم الوصول إلى القمة في ذلك اليوم ، وجرت العادة أثناء هذه الحملة أن يتم تعيين عدد من الرجال المعروفين ، كل منهم في أحد الأيام للعمل بمثابة قادة ، يتولى بعضهم قيادة الطلائع ، ويتولى بعضهم الآخر حماية المؤخرة ، ويصرف عنايته نحو جموع الناس من غير العسكريين ، خاصة المشاة منهم ، وكان على هؤلاء الرجال واجب مشاركة النبلاء في تحديد الطرق التي ستركب ، ومقدار مرحلة الزحف ، ومكان المخيم لليوم التالي ، ووقع الاختيار ، بحكم الدور ، في ذلك اليوم الموعود على واحد من نبلاء أكويتين واسمه جيوفري رانكون ، وتبعاً لذلك تقدم أمام الجيش ، ومعه لواء الملك ، وصعد الجبل ومعه الطلائع ، وكانت الأوامر المعطاة إليه هي أن يقوم رجال الطلائع بنصب المخيم في الأعالي ، ولدى وصوله إلى القمة ، وكان الجزء الأكبر من النهار على حاله بعد ، هنا قرر جيوفري الزحف قليلاً إلى الأمام متخلياً بذلك عن الأوامر ، وذلك لشعوره بأن المسافة المقررة لذلك اليوم قصيرة جداً ، وكان الأدلاء قد أكدوا له وجود بقعة أنسب لنصب المخيم ، ولهذا ابتعد كثيراً ، وحدث في الوقت نفسه أن الناس الذي يتبعون خطى الطلائع ، خيل إليهم بأن المعسكر قد ضرب على قمة الجبل ، ونظروا لاعتقادهم بأن مسيرة ذلك اليوم شارفت على الانتهاء بدأوا بالتماهل ، وهكذا توزع الجيش ، فبعض من أفراد اجتاز الشعاب ، بينما كان البقية يتبخترون عليها ، ولاحظ التركمان ، الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قيام فرصة للهجوم ، لاحظوا الأحوال المستجدة فهم في الحقيقة كانوا يماشون الجيش عن كثب غير مرئيين ، ويراقبون تحركات النصارى تمام المراقبة ، وكانت الطريق ضيقة والصفوف مبعثرة ، يضاف إلى ذلك أن قسماً من

خيرة القوات كان قد تقدم ، وأدرك التركمان يقينا بأن أحوال المؤخرة لم يتم التعرف على ما نزل بها بسهولة ، كما لا يمكن إرسال المساعدات إليها نظرا لبعدها الشقة ، وهنا اغتنم هؤلاء التركمان فرصتهم الممتازة ، واستولوا على قمة الجبل مما سبب مزيدا من الفوضى بين صفوف طلائعنا ومؤخرتنا ، ثم انقضوا وهم في تعبئة كاملة على رجال قواتنا ، وقبل أن يتمكن هؤلاء من تجريد سيوفهم ، كان التركمان قد مزقوا صفوفهم ، وتوقف القتال بالقبوس والنشاب ، والتحمت الحرب بالسيوف التي أنزلت الدمار والموت على النصارى ، وقد جرت مطاردة كل من حاول الفرار بكل ضراوة ، وأعاققت الممرات الضيقة والشعاب رجالنا ، كما أن خيولهم كانت منهكة بسبب طول السفر ، كما أربكتهم كميات العتاد والحاجيات ، ومع هذا فإنهم قاوموا كل على حدة بكل شجاعة ، وذلك دفاعا عن حياتهم وحيرياتهم وعن رفاق الطريق ، وتابعوا القتال بالسيوف والرماح وكانوا يثيرون حماسة بعضهم بكلمات التشجيع وبالصرخات لمتابعة الكفاح والمثابرة .

وازدادت حماسة التركمان وأملهم بالنصر وسعوا إلى إثارة النخوة بين صفوفهم ، وأعادوا إلى الذاكرة ، ما حدث قبل بضعة أيام مضت ، حين استطاعوا إيقاع الهزيمة بجيش كان أكبر من هذا بكثير ، وكيف أنه بجهد أقل ومخاطرة أدنى حققوا النصر على قوات كانت أكثر عددا ، وأعظم قوة .

واستمرت المعركة طويلا ، وحام الشك حول نتائجها ، ومهما يكن الأمر فقد حلت النهاية ونزل بنا العقاب لما اقترفناه من ذنوب وآثام ، فانتصر الكفار ، وقتل عدد كبير من النصارى ، ووقع عدد لا يحصى في الأسر ، وأنزل تعداد جيشنا إلى حد أنه أصبح لا يتعدى مجرد قوة صغيرة ، وهلك عدد كبير من الأعيان في ذلك اليوم ، وكانوا رجالا تميزوا بأعمالهم العسكرية ، وطاب ذكرهم وحمد لتقاومهم ، وكان بين أعدادهم الكبيرة كونت فيرنس دي برتويل ، واتيرس دي مينجانك ،

وأخرون كثير ، نحن لا نتذكر أسماءهم ، لكننا نؤمن أنها كتبت في عليين ، وأن ذكراهم ستظل مثالا يشار إليه دائما (١٥)

وزالت في ذلك اليوم مفاخر الفرنجة ، وتلطخت سمعتهم ، لسوء الحظ ، من خلال أعظم نازلة حلت بالنصارى ، فشجاعتهم التي كانت حتى تلك الساعة تخيف الأمم ، قد سحقته ومرغت بالرغام ، وغدت منذ ذلك اليوم أضحوكة ووسيلة هزء في أعين الشعوب المدنسة ، التي كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل .

لماذا هذا كله ؟ تباركت يا مولاي يا يسوع ، فهؤلاء الناس الذين وهبوا نفوسهم لك وأوقفوها عليك ، والذين اشتاقوا طويلا للسير على خطاك ، ولتقبيل جميع الأماكن التي باركتها بحضورك الجسدي ، لماذا حلت بهم الهزيمة القاسية على أيدي الذين يكرهوك؟ حقا إن احكامك لا يمكن سبر غورها ، وليس هناك من هو قادر على فهمها ، لأنك وحدك يا سيدي قادر على فعل كل شيء ، وما من أحد يستطيع أن يقاوم ارادتك .

٢٦ - الملك ينجو مصادفة ويلتحق بالطلائع . وصول بقية الجيش إلى أنطاكية وعبره من هناك إلى سورية .

وحدث في ذلك الحين أن نجا الملك - إنما بفضل حظه ، وليس بسبب جهوده - نجا من وسط المخاطر والفوضى ، ففي بهيم الليل تمكن من تسلق الشعاب الجبلية السابق ذكرها ، دون دليل يرشده ، وكان بمرافقته عدد صغير من حاشيته ، وتمكن من الوصول الى المعسكر الذي كان قد نصب بعيدا عن المكان الذي قرر له وكما سلف التبيان فإن رجال الطلائع زحفوا خلف الراية الملكية ، واجتازوا الممرات الجبلية الضيقة دونما صعوبات تذكر ، وأقاموا المعسكر

دونما معارضة ، وذلك في موقع مناسب ، وكانوا يجهلون بشكل مطبق كل ما حدث الجيش في المؤخرة ، ومع هذا فقد وجدوا أن وصول الجند قد أعاق عائق ما ، وأن التأخر الكبير لوصولهم ما هو إلا نذير شؤم يحمل خبر مصيبة ما ، وتوجسوا جميعا وقنوع شر لا يمكنهم دفعه ، لكن عندما وصل الذين نجوا بمرافقة الملك إلى المعسكر غدت أخبار الكارثة مؤكدة ومعروفة ، وعندما أخذ الحزن مأخذه من الجيش ، كما أسست هود الخسوف والقلق على قلوب الجميع ، وبأصوات مرتجفة ووسط الدموع والآهات فتش كل واحد عن هؤلاء الذين كانوا أعزاء عليه ، وعندما عرفوا خبر فقدانهم تضاعف الحزن ، وترددت أصوات البكاء والنحيب في جنبات المعسكر ، ومزق الذعر قلوب العساكر ، ولم يكن في المعسكر مكان لم يكن ممثلا ببكاء الأصحاب والأهل والرفاق ، فواحد فتش عن والده وآخر عن سيده ، وامرأة تبحت في كل مكان عن ولدها ، وأخرى عن زوجها ، وأمضى هؤلاء الذين لم تثمر أعمال بحثهم عن شيء ، أمضوا ليلتهم بلا نوم ، وكانوا مثقلين بالخوف والقلق من شر ما وقع على المتغيبين ، وحدث أثناء الليل أن وصلت جماعات من كل فئة ، كلهم نجا بعامل الحظ لاجتناب التدبير ، ذلك أنهم تخفوا بين الأحراج والصخور وفي داخل الحفر ، وتستروا تحت جناح الظلام الذي حماهم ، ورأف بهم ، ووقعت هذه الكارثة في كانون الثاني من سنة ١١٤٦ لتجسيد الرب

(١٦)

وبدا المعسكر منذ ذلك الحين يشهد نقصا في الخبز وبقية المؤن ، زد على هذا أنه لم يكن هناك سوق وبيع وشراء من أي نوع ، والأسوأ من هذا والأذكى أن أهل المعسكر لم يكن لديهم أدلاء يرشدونهم ، وكانوا تائهين يزحفون هنا وهناك دون أن يعرفوا أين هم ، وأخيرا دخلوا إلى بلدة بامفيل ، وبعد اجتيازهم لمنحدرات جبلية شديدة الوعورة ، ولأودية عميقة ، وبعدما واجهوا شديدا العناء ، إنما دون الصدام بالعدو نجحوا في الوصول إلى أنطالية التي كانت حاضرة منطقة حملت اسمها ، وقمع أنطالية على شاطئ

البحر ، وهي تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وتحتوي على حقول غنية جدا ، إنما كانت بلا منافع لأهل المدينة ، لأنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب ، مما أعاق زراعتها ، ولهذا تركت الأراضي الجرداء بورا ، لأنه لم يكن هناك من يعمل بها ، ومع ذلك فلقد كان لهذا المكان مزايا وفوائد أخرى كبيرة ، منها : سهولة الوصول إليه من قبل الزوار ، وبهاء الموقع وروعته وكثرة مياهه الصافية والصحية ، ولأنه كان مزروعا بأشجار الفواكه ، كما كانت الحبوب تحمل إليه من وراء البحار بكميات وافرة ، لذلك كان هذا الملجأ مملوءا بجميع المؤن الضرورية للحياة.

وكانت حدودها قريبة جدا من أراضي العدو ، ونظرا لعدم استطاعتها مواجهة غاراته المتواصلة عليها ، فإنها كانت تدفع الجزية له ، وبسبب هذه الصلات ، فقد احتفظت أنطالية بتجارة البضائع الأساسية مع العدو ، وقد صحف عساكرنا اسم هذه المدينة ، فلفظوها « ساضاليا » ذلك أنهم لم يكونوا معتادين على اللغة الاغريقية ، ومن اسم أنطالية نجد أن المنطقة البحرية الممتدة من ليسدونا الى جزيرة قبرص قد دُعيت باسم بحر أنطالية ، وهو يعرف بشكل عام في استخداماتنا باسم « خليج ساضاليا ».

وفي أنطالية عانى ملك الفرنجة وشعبه من نقص شديد بالأطعمة تسبب عن الزيادة العظيمة التي طرأت على عدد السكان هناك ، وفي الحقيقة كان ما حدث أن الناجين من الجيش ، وخاصة الفقراء منهم هلكوا جوعا ، وفي أنطالية ترك الملك شعبه ليتابع أفرادهم الزحف على أقدامهم ، وركب هو مع نبلائه ظهر احدى السفن ، وحين أبصر كانت كل من اسوريا وكليكية على يساره وجزيرة قبرص على اليمين ، وكانت الرحلة قصيرة ، وقد وافقته ريح طيبة ، ولقد ابحروا الى داخل فم (مصب) نهر العاصي الذي يمر

بأنطالية ، وألقوا مراسيهم قرب مكان اسمه ميناء القديس سمعان (السويديّة) على مقربة من مدينة سلوقيّة القديمة التي تقع على بعد عشرة أميال من أنطاكية (١٧) .

٢٧ - ريموند أمير أنطاكية يستقبل ملك الفرنجة في ميناء القديس سمعان بكل حفاوة ويصطحبه الى أنطاكية . فيما سيقع الخلاف بينهما ويفترقان .

انتظر ريموند أمير أنطاكية عدة أيام وصول ملك فرنسا بشوق كبير ، ولدى سماعه بأن الملك نزل في مملكته ، جمع جميع نبلائه وأعيان الناس ، وذهب لاستقباله يرافقه وفد خاص ، وقام بتلقيه أحسن لقاء ، وحياء أطيب التحيات ، ورافقه الى أنطاكية وسط مظاهر من الأبهة والحفاوة الكبيرتين ، وهناك في أنطاكية استقبل الملك من قبل الإكليروس والشعب ، وكان ريموند قد تصور منذ زمن - في الحقيقة منذ أن سمع أن لويس قادم - أنه بمساعدة لويس سيتمكن من توسيع رقعة إمارة أنطاكية ، ولما كانت هذه الفكرة في ذهنه نجده قد أرسل الى الملك لويس - وهو مازال في فرنسا - لم يبدأ بعد رحلته للحج - هدايا وتحف ذات اثمان مـرتفعة ، كل ذلك على أمل أن يكسب مودته ، وقد علق كبير الأمال على الملكة التي جاءت برفقة الملك ، وكانت رفيقته التي لم تفارقه على طريق حجة ، ذلك أنها الابنة الكبرى لأخيه الكونت وليم صاحب برواتو (١٨) .

وكما ذكرنا من قبل أظهر ريموند تجاه الملك كل رعاية وعناية ، كما أبدى المشاعر نفسها تجاه نبلائه وأعيان حاشيته الملكية ، وبرهن لهم مرارا عن مدى كرمه ، وباختصار بذل كل ما أمكنه من تبجيل وإكرام لكل واحد من النبلاء كل حسب مرتبته ، وتصرف بكل

البداية اختلفت كلياً عن النهاية ، فقد أحيط قدومه بالأبهة والاحتفاء ، وانعكست الأمور فكانت مغادرته محاطة بالاهمال التام وعدم الاكتراث.

ويعزو بعض الناس هذا كله الى سوء تصرف الملك ونكرانه للجميل ، وأنه بذلك تلقى جزاءه العادل ، حيث أنه لم يستجب لمطالب أمير عظيم ، قدم له ولأتباعه رعاية وحسن معاملة ، ولهذا الرأي مكانة خاصة ، سيما وأن أصحابه يؤكدون أنه لو استجاب لمطلب الأمير ، وأوقف نفسه على تنفيذ مشروعه ، لسقطت واحدة أو أكثر ، من المدن المذكورة آنفا وبكل سهولة.

٢٨ - انقضاء الشتاء - وصول الامبراطور كونراد الى سورية بحرا - وصول الكونت الفونسو الى مدينة عكا ووفاته في قيسارية.

أمضى امبراطور كونراد الشتاء في العاصمة الملكية ، وقد عومل هناك بكل احترام من قبل امبراطور القسطنطينية ، ولقي منه من الاكرام ما يليق بمكانته كأمر عظيم ، ولدى مغادرته للمدينة أتحفه بعهد كبير من الهدايا الفخمة ، وأبحر كونراد محاطا بحاشيته من النبلاء على متن اسطول أعد له خصيصا من قبل صاحب الجلالة الامبراطورية ، واتجه به هذا الاسطول نحو الشرق ، وأرسى قلوعه في ميناء عكا ، حيث توجه كونراد من هناك الى القدس ، وقام الملك بلدوين - ملك القدس - مع الطيب الذكر البطريرك فولتشر يصحبهما الاكليروس وجميع الشعب بتلقيه خارج المدينة ، ومشوا في ركابه الى داخلها وسط الأغاني والأناشيد (٢٠)

وفي الوقت نفسه وصل الى عكا رجل عظيم المكانة وواسع الشهرة هو الفونسو كونت طولوز ، وهو ابن الكونت ريموند الأكبر ، ذلك

القائد الكبير الذي قام بأعمال هامة في الحملة الأولى ، وكان الفونسو هذا رجلا سامي المكانة ، لما يتمتع به من صفات ، وأكثر من هذا بسبب مكانة أبيه وذكراه الطيبة ، وبينما كان في طريقه الى القدس لتقديم فروض الشكر والامتنان لتوفيقه في انجاز مهمة حجة ، توقف عند ساحل مدينة قيسارية ، وبعد وصوله الى هناك بأيام وقع مريضا ومات ، ولقد اشيع بأن السم قد دس له ، لكن مدبر ذلك لم يتم اكتشافه ، وكان الناس جميعا قد انتظروا وصول هذا الرجل الطيب الذكر بفارغ الصبر ، ذلك أنهم كانوا كلهم أمل ورجاء بأنه سيجلب معه السعادة والازدهار للملكة ، وذلك تيمنا بسيرة والده العظيم.

٢٩ - ملك فرنسا يغادر أنطاكية ويتابع سيره نحو القدس - ارسال بطريك القدس لاستقباله.

ووصلت الأخبار في ذلك الحين الى القدس ، تفيد بأن ملك الفرنج قد غادر أنطاكية ، وهو الآن على مشارف أراض طرابلس وهنا قرر النبلاء في المملكة بالاجماع ارسال فولتشر بطريك القدس - طابت ذكراه - ليقدم دعوة للملك تتناسب مع مقامه وليعبر له عن تحيات الجميع ، ودعوتهم له لزيارة المملكة ، واتخذ هذا الأجراء خشية أن يتصالح مع أمير أنطاكية فيعود اليها ، أو أن يحتفظ كونت طرابلس به بحكم قرابته منه ، مما كان سيؤدي في كلتا الحالتين الى اعاقبة رغبات شعب المملكة.

وتوزعت ممتلكات اللاتين في المشرق بين أربع امارات : كانت أولاها واقعة إلى الجنوب من مملكة القدس ، التي تبدأ بجدول ماء يجري بين جبيل وبيروت ، وتضم المدن الساحلية لمنطقة فينيقية ، وتنتهي بالصحراء الواقعة خلف الدارون ، وتقوم الثانية في الشمال ، وهي كونتية طرابلس وتبدأ من الجدول الأنف الذكر وتمتد

إلى جدول آخر قائم بين مرقية و بانياس ، وتحتوي أيضا على مدن ساحلية ، وكانت امارة انطاكية هي الامارة الثالثة ، وتمتد من الجدول الألف الذكر غربا حتى طرسوس في كيليكية ، والرها هي القسم الرابع ، وتبدأ من غابة تدعى مريم ، وتمتد شرقا إلى ما وراء نهر الفرات .

ومنذ البداية عاش جميع كبار أمراء هذه المناطق وأكثرهم قوة على رجاء وأمل أنه بالمساعدة الفعالة لهؤلاء الملوك القادمين سيكون بالامكان توسيع رقعة أراضيهم ، ومد حدودهم بشكل كبير جدا ، فلكل منهم توفر عدو قوي كانت مدنه البغيضة ، قريية جدا إلى أراضيهم إلى درجة أن كل واحد منهم رغب رغبة حقيقية جامحة في ضمها إلى ممتلكاته ، وعلى هذا فالجميع كانوا في قلق واضطراب حول قضاياهم الخاصة ، وكلهم راغب في توسيع أراضيهم ، ولهذا نوى كل واحد منهم أن يسبق الآخر بإرسال الرسائل والهدايا والدعوات لكل من الملكين ، ومع ذلك فقد بدا بين هؤلاء جميعا أن آمال ملك القدس وأمانى أهلها هي الأقرب إلى التحقيق من سواها ، ذلك أن حب الأماكن المقدسة واجلالها ، لا شك أنه يجذب الجميع إلى هناك ، زد على هذا أن الامبراطور كان مع أهل القدس ، لذلك كان هناك سبب بليغ للاعتقاد بأن ملك الفرنجة سيسرع الخطى نحو القدس ، لينجز كلاهما حجه ، وليؤدي صلواته ، ثم لينخرط في عمل ما يكون مفيدا للنصرانية ، كما كان قد تقرر في الاجتماع العام . وخشي أعيان مملكة القدس أن يقدم أمير انطاكية على منع الملك لويس من السفر ويبقيه في منطقة حلب لسبب روابط القرابة بينهما والصداقة ، وكان هذا أمرا واضحا ومعقولا ، كما أنهم خشوا من تدخل الملكة ، لهذا سارعوا بإرسال البطريرك لمقابلته .

ولدى معرفتهم بأن الملك والامير قد افترقا وهما أبعد الناس عن

مشاعر الصداقة شعروا بمزيد من الأمل بأن الملك سيقدم إلى القدس
دونما تأخير ، ومع هذا ، وخشية الحظ العاثر ، وحتى يتم مسبقا
تدارك أي شيء يمكن حدوثه ، أرسلوا البطريرك المبجل كيما يستخدم
نفوذه على الملك ، ولم يكن هذا الأمر المأمول عبثا ، فقد قنع الملك
بكلمات فولتشر وتابع سيره نحو القدس ، وخرج جميع رجال
الأكليروس وأهل المدينة لاستقباله لدى وصوله ، وقد استقبل
استقبالا حافلا يليق بمقامه ، ودخل المدينة مرحبا به ، ومضى وسط
الأناشيد والتهنئات يقوده النبلاء لزيارة الأماكن المقدسة .

ولدى اتمامه آخر صلواته تم الاعلان - تبعا للتقاليد
المرعية - عن عقد مجمع عام في مدينة عكا لاستعراض نتائج هذا
الحج العظيم ، وللعمل على اتمام هذا الجهد غير الاعتيادي ،
وللتباحث في مدرقة المملكة ، وفي التاريخ المحدد التقى الجميع في
عكا وعقدوا مجمعهم كما كان مخططا ، ثم شرعوا مع نبلاء المملكة
الذين يملكون معلومات دقيقة بالوقائع والأماكن ، وانخرطوا في
مناقشة دقيقة حول اعتبار أي الخطط أكثر فائدة (٢١)

نهاية الكتاب السادس عشر

بداية الكتاب السابع عشر

الاستيلاء على عسقلان محصلة ما باءت به الحملة
الصليبية الثانية .

١ - عقد اجتماع عام في مدينة عكا الساحلية - أسماء الحضور
من الأمراء

إنه لأمر مفيد ، ويتوافق مع روح هذا التاريخ أن نأتي على ذكر
أسماء النبلاء الذين كانوا حاضرين في المؤتمر ، لقد كانوا رجالا
جاؤوا من بلدان عالية المكانة ، لذا ينبغي علينا أن نأتي على ذكرهم
هنا لمنفعة الأجيال المقبلة : وتصدر كونراد - ملك الألمان وإمبراطور
الرومان - الجمع ، وكان بصحبته من نبلاء الأكليروس في
بلاطه : أوتو - أخوه - الذي كان أسقف فريزنغ ، وكان رجل فكر
وكتابة (٢٢) ، وستيفن أسقف متز ، وهنري أسقف تول ، وهو أخو
شيربي كونت فلاندرز ، وشيوتون أسقف بورتو ، وممثل البابا ، وكان
أصله المانيا ، وقد قام بمرافقة الركب الإمبراطوري بناء على أمر من
البابا يوجينوس.

وكان بين الأمراء العلمانيين الحاضرين : هنري دوق النمسا ،
وهو أخو الإمبراطور ، ودوق غيولف ، الذي كان من أبرز النبلاء
وأكثرهم قوة ، وفريدريك ، الواسع الشهرة ، دوق سوابيا
وفنداسيا (وربما بافاريا) وهو ابن أكبر أخوة الإمبراطور ، وكان
هذا الأمير المذكور أخيرا شابا متميز الصفات ، وقد خلف عمه
كونراد فيما بعد ، وهو يقوم اليوم بحكم الإمبراطورية الرومانية بكل
نشاط وشجاعة ، وكان بين الحاضرين أيضا هرمان مركيز
فيرونا ، وبرثولد سيد أندش ، ثم دوق بافاريا فيما بعد ، ووليم

الأكبر مركيز مونتفرات ، عدیل الامبراطور فی الزواج ، وغي كونت بلاندراس ، الذي كانت زوجته أخت المركيز السابق الذكر ، وكان الأميران المذكوران أخيرا من أعظم الأمراء وأكثرهم شهرة ، وقد جاء جميعا من لومباردي ، كما كان هناك عدد آخر من الرجال ذوي المناصب العالية ، لم أعد أذكر أسماءهم (٢٣) .

وكان لويس العظیم الذكر ، وملك الفرنجة التقى ، بين الحاضرين ، وبصحبه غودفري أسقف لانجرز ، وأرنولف أسقف ليز أوكس ، وغي سيد فلورنسا ، وكريستال كاهن لكنيسة روما واسمها كنيسة القديس كريستوفوروس ، والقاصد الرسولي ، وروبرت كونت برشي ، وهو أخو الملك ، وهنري كونت ترويس ابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، وفي الوقت نفسه ختن الملك ، وكان شابا له أخلاق ومزايا عالية ، وكان مع الملك ثيري الكونت الكبير لبلاد فلاندرز ، وكان عديلا بالزواج لملك القدس ، وإيفس من سواسون الذي كان رجلا عاقلا ومخلصا ، كما كان هناك عدد آخر من النبلاء الكبار أصحاب المراتب العالية وهم جديرون جميعا بالذكر ، لكن بما أن ذلك سيشتغل حيزا كبيرا ، تعمدت حذف أسمائهم (٢٤) .

وحضر من رجال بلادنا : بلدوين ملك القدس ، وهو شاب يديش بمستقبل عظیم ، وحضرت معه والدته ، التي كانت سيدة عاقلة فاقت مثيلاتها ، قوية القلب ، ولم تكن أقل حكمة وتديبرا من أي من الأمراء الحضور ، وكان يرافقها البطريرك فسولتشر ، وبلدوين أسقف قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة ، وروجر أسقف عكا ، وبرنارد أسقف صيدا ، ووليم أسقف بيروت ، وأدم أسقف بانياس (الداخل) وجيرالد أسقف بيت لحم ، وروبرت مقدم فرسان المعبد (الداوية) ، وريموند مقدم فرسان الاستبارية (٢٥) .

وكان بين أعيان النبلاء الحاضرين مائيسيس المراقب الملكي العام ، وفيليب أمير نابلس ، وإيلينا صاحب طبرية ، وجيرارد

صاحب صيدا ، ولتر صاحب قيسارية ، وبينز صاحب المناطق الواقعة فيما دون الأردن ، وباليين الأكبر ، وهمفري سيد تورون ، وغي صاحب بپروت ، وآخرون كثر ، لو اكتفيت بتسجيل أسمائهم ، لاحتاج ذلك مني حيزا كبيرا ، ولقد اجتمع هؤلاء الرجال ، كما أسلفنا الذكر في مدينة عكا بقصد التباحث قبل كل شيء حول احسن الاوقات والاماكن التي ينبغي بذل الجهد فيها ، انشاء الرب ، لتوسيع رقعة المملكة ، ولاضافة مفاخر جديدة الى اسم المسيحية .

٢ - قرروا جميعا القاء الحصار على مدينة دمشق ، والزحف نحوها حسبما تم الاتفاق بينهم :

وتبعنا لهذا فان القضية بحثت بحثا دقيقا ، وعرضت الآراء المتباينة ، وكان اخذ ورد كما هي العادة اثناء بحث مثل هذه القضايا الهامة وتم الاتفاق اخيرا ، انه في الظروف الحالية يبقى افضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا علينا ، وعندما تم الوصول الى هذا القرار ، صدر الامر الى صاحب النفير ، ان يعلن للملا بان عليهم جميعا ان يكونوا في اليوم المحدد جاهزين بلا تلكؤ ، لقيادة عساكرهم نحو تلك الاماكن ، وبناء على هذا حشدت جميع الطاقات العسكرية للمملكة من فرسان ومشاة من كلا الجانبين : البلديين والحجاج ووصل الملكان المحبوبان من الرب ، وبرفقتهما قواتهما ايضا ، وبعد هذا عندما حل اليوم الخامس والعشرون من شهر ايار لسنة ١١٤٧ لتجسيد ربنا ، زحفت الجيوش المتحدة يقودها صليب الصليبوت كما كان مقررا من قبل ، واخذت الطريق نحو طبرية (٣٦) ثم توجهت الحشود جميعها من هناك ، فسايرت اقصر الطرق حول بحيرة طبريا حتى بانياس (التي كانت تعرف باسم قيسارية فيليب) ، حيث تم التباحث مع عدد من الاشخاص الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالاحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها ، وبعد التداول بين القادة قرروا ان خير وسيلة لمضايقة دمشق وحصارها ، الاستيلاء اولا على

البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر من المدينة وتقدم لها حماية كبيرة ، حيث انه بعد الاستيلاء على هذه البساتين سيكون من السهل حتما الاستيلاء على المدينة .

وبغية تنفيذ هذه الخطة ، استأنفوا زحفهم ، فاجتازوا جبل لبنان الشهير القائم بين بانياس ودمشق ، ثم نزلوا قرية داريا التي تبعد عن المدينة مسافة اربعة اميال او خمسة ، وكان من السهل من هذا المكان رؤية مدينة دمشق والمنبسطات المحيطة بها .

٢ - وصف اوضاع مدينة دمشق :

مدينة دمشق هي أكبر مدن سورية الصغرى ، التي تدعى احيانا لبنان فينيقية ، وهي أيضا مركز تلك المنطقة ، وذلك أننا نقرأ: « رأس سورية دمشق (٢٧) » ، وقد اشتق اسم هذه المدينة من اسم مؤسسها وشهرته ، وكان واحدا من خدم ابراهيم ، ومعناه المدينة الدموية ، أو المدينة المليئة بالدم (٢٨) ، وهي تقع وسط سهل جاف جذب فيما عدا المسقي منها بواسطة أقنية ، تجلب المياه من علو لمنفعتها ، وينحدر من الشعاب الجبلية في الجزء الأكبر ، من تلك المنطقة نهر تنقل مياهه في أقنية تساق بها المياه وسط السهل ، لتوزع في مختلف المناطق المنخفضة جالبة الخصب للتربة الجافة ، وحيث ان المياه كثيرة جدا ، فإن النهر يسقي أيضا البساتين الممتدة على جانبيه ، والمزروعة بمختلف الأشجار المثمرة ، ويتابع النهر سيره مخترقا الجانب الشرقي من المدينة .

ونظرا لقرب المدينة من داريا ، فقد قام الملوك هناك بتعبئة قواتهم وصفوها استعدادا للمعركة ، وعينوا لكل فرقة مهامها واهدافها ، وذلك أنهم لو زحفوا بلا اعداد ، لكان من الممكن قيام النزاعات بين بعضهم ، مما كان يسبب اعاقا تنفيذ المهام الملقاة امامهم .

وقد عهد بالاجماع من قبل جميع الامراء الى الفرقة التي كانت تحت قيادة ملك القدس بمهام التقدم أمام الجميع وشق الطريق لبقية الفرق خلفها ، وذلك على اساس الافتراض انها كانت اكثر دراية بالمنطقة ، وعهد الى ملك الفرنجة وجيشة بالبقاء في قلب الجيش ، أو الصف الثاني على أساس أنه إذا دعت الحاجة يمكنهم تقديم العون للصفوف الامامية ، وعهد في الوقت نفسه إلى الامبراطور بالصف الثالث ، أو المؤخرة ليكون جاهزا لمقاومة العدو ، وفيما لو حدث وقام بهجوم من الخلف ، وهكذا يمكنه حماية العساكر المتقدمة من خطر اية مفاجأة تأتي من الخلف ، وعندما تم توزيع هذه الجيوش الثلاثة حسب النظام الاستراتيجي الموصوف ، قدموا المعسكر إلى الامام ، وحاولوا قدر استطاعتهم الاقتراب من المدينة .

وتمتد البساتين باتجاه الغرب من حيث جاءت قواتنا ، وباتجاه الشمال أيضا مسافة خمسة أميال أو أكثر باتجاه لبنان ، وقد أحاطت بالمدينة من جميع الجوانب بشكل واسع وعميق ، وكانت أشبه بالغابات المظلمة لكثافة اشجارها ، وقام كل واحد من اصحاب هذه البساتين بإحاطة بستانه بجدار ترابي (دك) بغية منع اللصوص من دخولها ولحمايتها ولتحديد مساحتها وفصلها عمن سواها ، واستخدمت الجدر الترابية لانعدام الاحجار في تلك المنطقة ، وقد ترك الناس بين هذه البساتين طرقا عامة يستخدمها الجميع ، لكنها كانت ممرات ضيقة ، إنما كافية بالسماح لأصحاب البساتين والعاملين بها اجتيازها على ظهور الحيوانات التي كانت تحمل الفواكه إلى المدينة .

وشكلت هذه البساتين وسيلة وقاية كبيرة للمدينة ، حيث ان الأشجار المزروعة إلى جانب بعضها والممرات الضيقة ، كل ذلك جعل من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — بالنسبة لأي انسان الوصول إلى دمشق من ذلك الاتجاه ، ومع هذا فقد قرر قادتنا — منذ البداية — أن يقودوا الجيش من البساتين ، وبذلك

يفتتحون ممرات توصلهم الى المدينة ، وكان مرد ذلك إلى سببين :
أولهما أنه بعد الاستيلاء على هذه الاماكن الشديدة التحصين والتي
وضع بها أهل دمشق عظيم ثقتهم ، سيكون مابقي أخف وأسهل
تنفيذاً ، وثانيهما أنهم (قادة الفرنجة) رغبوا في تمكين عساكرهم
من استغلال الفواكه والاستفادة من الماء •

وبناء على هذا كان ملك القدس أول من قاد رجاله بين ممرات
البساتين الضيقة هذه ، وتقدم الجيش بين مختلف العوائق
والمصاعب ، فقد أعيق تقدمه أحياناً بواسطة الممرات الضيقة ، كما
تعرض من جهة ثانية لمخاطر هجمات العدو الجريئة وكمائنه التي
نصبها مموهة بين جذوع الأشجار ، وقد اقتضى الحال أحياناً
الدخول في معارك مكشوفة ، ذلك أن العدو أغلق المنافذ ، واستولى
على منحرجات الممرات الضيقة ، وزحف أهل دمشق جميعاً وجأؤوا
الى البساتين في نظام واحد وإرادة متفقة ، في محاولة لايقاف تقدم
الجيش ومنعه من المرور ، بكل من وسائل القتال المباشر والقتال
من وراء المساطر .

يضاف الى هذا كله أنه قام بين البساتين أبنية (قصور - أبراج)
محصنة بشكل جيد ، ومدافع عنها من اناس كانت ممتلكاتهم على
مقربة منها ، لهذا عقدوا العزم على الدفاع عنها ، وقد قاموا من
هذه الموانع والحواجز في صب سيل من النبال مع بقية انواع
المقذوفات وبهذا منعوا حداثتهم ، وحالوا دون الوصول اليها ، ثم ان
الاسهم المرمية عن بعد جعلت الزحف الجماعي غير مأمون تماماً ،
ولم تات هذه الاجراءات الرهيبة ضد قواتنا الزاحفة من جهة
البساتين فقط ، بل توفرت المخاطر من المعيار نفسه لكل من كان
يحاول العبور من جميع الاتجاهات فالرعب الذي كان يقود الى
الموت كان يصدر من كل مكان واتجاه ، فعلى طول الجدران اختبأ
من خلفها رجال لم يكن بالامكان رؤيتهم وكانوا مسلحين بالرماح ،
وكانوا بإمكانهم النظر والمراقبة من فتحات صغيرة اعدت بدقة

خصيصا في الجدران ، ليطعن منها الذين كانوا يحاولون العبور في خواصرهم واطرافهم ، ولقد قيل ان عددا كبيرا من رجالنا قلد هلك بكل تعاسة ، بواسطة هذه الطريقة في ذلك اليوم و خلاصة القول : ان المخاطر التي اعترضت سبيل اولئك الذين حاولوا عبور تلك الممرات الضيقة لاتعد ولا تحصى .

٤ - النصارى يشقون طريقهم بالقوة بين البساتين ويستولون بشدة على النهر برغم وجود الاعداء ، وهو نجاح رائع للامبراطور يثير الدهشة ويستحق الوصف .

وادراكا من المسيحيين ادراكا كاملا للوضع ، زابوا من عنف ضغطهم ، فهدموا المباني - وازالوا الحواجز بكل مقدرة ، واستولوا بحماسة على البساتين ، ووضعوا كل من وجدوه داخل البيوت طعمة للسيف ، أو أخذوه أسيرا ، ولدى توافد اهالي البلد الذين خرجوا من المدينة للمساعدة على الدفاع عن البساتين ومعرفتهم بما حدث ، تراجعوا خائفين خشية أن يتعرضوا للمخاطر نفسها ثم هربوا إلى داخل المدينة جماعات جماعات ، وحدث الان انه بعدما قتل من قتل من العدو ، وهرب الباقون ان دخلت قواتنا الى داخل البساتين وبدونما معارضة .

ولدى ملاحظة اهالي دمشق بان النصارى سيقدمون حالا من البساتين الى حصار المدينة تقدمت الخيالة الموجودة لديهم مع قوات الحلفاء الذين هبوا لعونهم ، وسارعوا جميعا نحو النهر الذي يجري الى داخل المدينة ، واملوا انهم باستخدامهم للنبل والذشاب والحراب سيتمكنون من ابعاد عساكر العدو المنهكة عن النهر ، ومنعها من اطفاء عطشها الشديد بالماء الذي طال شوقهم اليه ، وحالما علم النصارى باقتربهم من النهر اندفعوا نحوه عاقدين العزم

على اطفاء عطشهم الذي لايرحم والذي نجم عما بذلوه في ذلك اليوم من جهود مضنية ، ونتيجة لسحب الغبار التي تشكلت بفعل حوافر الخيول واقدام الرجال ، ولدى رؤيتهم لحشود القوات المتجمعة حول النهر ، توقفوا قليلا ، وجمعوا شجاعتهم ، واعادوا رص صفوفهم وتنظيمهم بعدها منحتهم الحاجة مزيدا من الجراءة والاندفاع وتقدموا يكافحون ثانية في سبيل الاستيلاء على النهر ، لكن عبثا فعلوا فقد نالوا المزيد من الاخفاق .

وبينما كان الملك وقواته عبثا يحاولون الاستيلاء على النهر استفسر الامبراطور كونراد ، الذي كان يقود الصفوف الخلفية ، حول سبب عدم تقدم الجيش ، فأخبر بأن العدو متملك للنهر ولايسمح لقواتنا بالمرور ، فإغضبته هذه الاخبار ، وقام بقيادة فرسانه ، واسرع الخطا نحو مكان المعركة مخترقا صفوف قوات الملك التي كانت تحاول الاستيلاء على النهر ، وهنا قفز الجميع من على ظهور خيولهم وترجلوا كما جرت عادة الالمان ، فهم عندما كان يحزبهم امر ويشتد بهم القتال يترجلون ويحملون ترستهم بأيديهم امامهم ويشتبكون بقتال يد الى يد بوساطة السيوف ، وقاوم المشقيون في البداية بكل شجاعة لكنهم حالما شعروا انه ما عاد بإمكانهم الصمود في وجه الهجوم العاتي تخلوا عن النهر وهربوا نحو المدينة بكل سرعة ممكنة (٢٩) .

ولقد قيل بأن الامبراطور قام أثناء القتال بإنجاز يستحق التنويه به ، وبرهن على براعة جديرة بالذكر ، ذلك أنه تمكن من قتل واحد من كبار فرسان التركمان ، كان يبذل جهودا مضنية ويظهر شجاعة نادرة في المقاومة ، حيث نفحه الامبراطور بضربة واحدة بالسيف ، فأزال منه الرأس والرقبة والكتف الأيسر والذراع المعلق به ، وقد بعث هذا العمل الهلع ليس في قلوب الذين شهدوا هذه البراعة التي لانظير لها ، بل في قلوب الذين سمعوا بها ، الى حد أنهم فقدوا كل أمل بالمقاومة وكنطوا من الحياة نفسها .

٥- سكان دمشق شرعوا لقنوطهم بالتفكير بالفرار ، تقديمهم الرشوة لبعض قادة النصاري الذين قام الجيش بناء على تحريضاتهم بالتحول الى الجهة المقابلة من المدينة .

أما والنهر قد تملكه النصاري وصاروا يصلون الى ضفتيه بكل حرية فإنهم نصبوا الآن معسكرهم على امتداد ضفة النهر حول المدينة وتصرفوا بمياه النهر واستفادوا منها دونما معارضة ، كما تمتعوا بحرية العمل داخل البساتين ، واستولت الدهشة على أهل المدينة وبهتوا بسبب كثرة تعداد النصاري وشجاعتهم ، وبدأ يساورهم الشك فيما : اذا كانت قواهم كافية للتصدي لهم ، وخشية أن ينقض عليهم العدو بشكل مفاجئ ، عقدوا الاجتماعات لبحث الأمور وببراعة وحذاقة هؤلاء الذين يقعون في ظروف قاسية فيقدمون على اتخاذ القرارات الصعبة ، جاءوا بجنوع أشجار ضخمة وطويلة فسدوا بها جميع الطرقات على أطراف المدينة المقابلة لمعسكرنا ، ذلك أن أملهم الوحيد كان الآن في أن يتمكنوا من الفرار من الاتجاه المعاكس صحبة نسائهم وأطفالهم .. وذلك أثناء انشغال النصاري في إزالة هذه الحواجز وتحطيمها .

وبدا لجميع الحضور أنه بمشيئة القدرة الربانية سيتم الاستيلاء على المدينة من قبل النصاري ، لكن الذي « فعله المرهب نحو بني آدم » (٢٠) قضى أمرا آخر ، فقد كانت المدينة بحالة من الهلع حيث فقد أهلها كل أمل لهم بالمقاومة ، وكانوا يعدون أنفسهم ليغادروها بكل سرعة ، على أمل انقاذ حياتهم ، وفي تلك الساعة الحرجة ، وجزاء لذنوبنا ، بدأ الدمشقيون بالعمل على أساس معرفتهم بشره وشدة جشع بعض الناس ، فحاولوا عن طريق الرشاوى تملك قلوب هؤلاء الذين لم يكن لديهم الأمل في قهر أبدانهم ، واثّر هذا وبناء عليه قامت مناقسات بارعة ، قادها بعض

النبلاء الذين مارسوا نور يهوذا الخياني وأقنعوهم عن طريق الوعود بتسلم مبالغ طائلة من المال تم جمعها ، بالعمل على رفع الحصار ، وقام هؤلاء الرجال ، يقودهم الجشع - أصل الشرور جميعا - بالسماح لأنفسهم بالفساد عن طريق تسلم الرشاوى والوعود ، فغرقوا في مستنقع الجريمة ، وهكذا أقنعت مقترحاتهم الخبيثة الملك وأمراء الجيوش الذين وثقوا بهم تمام الثقة ، وركنوا الى اخلاصهم ، أقنعوهم بترك البساتين ، وتحويل الجيوش الى الجهة المعاكسة من المدينة ، وحتى يتمكنوا من تغطية جريمتهم احتجوا بقولهم بأن الجهة المعاكسة من المدينة ، التي تواجه الجنوب والشرق ، لا يوجد فيها بساتين حماية ولا نهر ولا خندق يعيق الوصول الى دفاعات العدو ، كما أعلنوا أن السور المنخفض والمبنى بطوب مجفف بالشمس ، من المستحيل أن يصمد في وجه أول هجوم ، وسيكون هناك حاجة قليلة لآلات الحصار ، وللجهود الكبيرة المبذولة في تلك الجهة ، فالسور سينهار مع أول ضربة ، ولن يكون من الصعب شق طريقهم بالقوة الى داخل المدينة ، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحجج العمل على تحويل الجيش من موقعه الحالي ، ذلك أن المدينة هناك كانت قد تعرضت للضغط الشديد ، وباتت منعدمة القدرة على الاستمرار في الصمود ، ومع ذلك لم تسقط ، بينما في الجهة الأخرى من المحتمل عدم القدرة على الاستمرار في مقاومة الحصار ، وانطلقت هذه الحيلة على الملوك وكبار قادة القوات المتحدة ، وأمنوا بصحة الأقوال المخادعة ، وهكذا تم التخلي عن الموقع الذي تمت حيازته بالجهد الكبير ، وبفقدان الرجال ، وتحولت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها ، وأقيم المخيم في الجهة المعاكسة من المدينة .

وفي الحال أدركوا أن هذا الموقع كان بعيدا عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسر الوصول اليه ، ولما بدأت الأطعمة في النقصان لاحظوا أن الخيانة قد عملت عملها ، وعندها - انم - بعد قوات الاوان - أخذ الجميع يتمتمون بأنهم خدعوا في تحويلهم من ذلك الموقع الممتاز (٣١)

٦- انعدام الطعام في المعسكر - وضوح معالم الخيانة الخبيثة - ورفع الحصار وعودة شعبنا الى دياره .

وبدا الطعام بالنقص في المعسكر ، فقبل إقامة المعسكر ، قيد
النصارى الى الاعتقاد بأن المدينة ستسقط دونما تأخير ، ولهذا
جلبوا معهم من المؤن مايكفي لعدة أيام فقط ، وكان هذا هو الحال
بالنسبة للحجاج بشكل خاص ، ولا يمكن توجيه اللوم اليهم
لذلك ، بسبب عدم معرفتهم بالبلاد ، فلقد تم اقناعهم بأن دمشق
ستسقط مع أول هجوم ، وتم التأكيد لهم في الوقت نفسه أنه اذا
انعدمت جميع المؤن ، فان جيشا كبيرا مهما كان حجمه يمكنه أن
يعتمد في غذائه على الفواكه التي سيحصل عليها بلا مقابل (٣٢) ،
وعم الشك وسيطر التوجس على النصارى في هذه الطوارئ ،
وعقدت المشاورات الخاصة والعامة ، وبدأ واضحا ان العودة الى
الموقع السابق صعبة لابل مستحيلة ، لانه ما ان انسحب النصارى
حتى تحققت غايات العدو ، الذي سارع بالدخول الى البساتين
لاقامة دفاعات اقوى مما سبق ، فالطريق التي سبق للنصارى ان
دخلوا منها سدت الآن يجذوع اشجار ضخمة ، وبكميات من
الصخور ، وتمركزت هناك وحدات كبيرة من النبالة حالت دون
امكانية الدخول من اي جانب ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى
كان القيام بالهجوم من الموقع الحالي للمعسكر يتطلب بعض
الانتظار ، وهذه مسألة لم تسمح بها حالة نقص المؤن .

واجتمع امراء الحج وتباحثوا بين بعضهم ، ووضحت لهم
جميع معالم خيانة هؤلاء الذين وثقوا بهم ، واعتمدوا
عليهم ، فأودعوا حياتهم ومصالحهم ومنافعهم ، وألهم كثيرا أن
يخدعوا بهذه الصورة ، واقتنعوا بأن عملهم لاحظ له
بالنجاح ، لهذا قرروا التخلي عنه والعودة الى الديار ، وهكذا
بسبب أثمنا ان الملك والأمراء الذين تجمعوا في أعداد لاتحصى

- ٣٠٩٢ -

اجبروا على التراجع دون التمكن من تنفيذ مآربهم ، عادوا وهم في لجة من الفوضى ومشاعر الخوف ، وسلكوا في طريق عودتهم نفسها الطريق التي أتوا عليها ، ونظروا منذ ذلك الحين - طيلة مدة بقائهم في المشرق - وحتى بعد ذلك - نظرة كلها ريبة الى جميع اعمال قانتهم ، ومالوا بحق الى الاعتقاد بأن جميع خططهم خطط خيانية ، وأظهروا لامبالاة تجاه قضايا الملكة ، وحتى بعدما اتيح لهم العودة الى بلادهم فان ذكرى الأخطاء التي عانوا منها ظلت مرافقة لهم ، وقدروا بغضب واشمئزاز اعمال أولئك النبلاء ، ولم يكن هذا حقيقة بالنسبة لهم فقط ، وانما امتد اثره الى آخرين ممن لم يكن حاضرا هناك ، فأدى الى التراخي في حب الملكة ورعاية مصالحها ، ونتيجة لكل ماسبق ، فان قلة من الناس هم الذين بقيت لديهم الحماسة للقيام بالحج ، زد على ذلك ، فانه حتى أيامنا هذه ، ان هؤلاء الذين يقدمون ، يخشون الوقوع في المحنة نفسها لذلك يجعلون اقامتهم قصيرة قدر الامكان .

٧- طرحت مختلف الآراء حول مسؤولية هذه الخيانة الكبيرة - الاقتراح بالقاء الحصار على عسقلان للمرة الثانية ، لكن المحاولة لم تنجح .

مازلت اذكر أنني غالبا ماتباحثت مع عدد من الرجال العقلاء ، ممن لاتزال ذاكرتهم حول هذه الأيام واضحة ، بغية استخدام المعلومات التي يمكن الحصول عليها في هذا التاريخ (٣٣) ، وقد جهدت في سبيل معرفة اسباب هذا الخطأ الجسيم ، وكشف الذين خططوا لهذه الخيانة الكبيرة ، وكيف أمكن تنفيذ جريمة من هذا النوع ، ولقد وجدت الروايات مختلفة حول هذا الموضوع ، وبعضهم يظن أن مرد ذلك الى أعمال قام بها كونت فلاندرز ، الذي شارك في هذه الحملة على رأس جيش خاص به (٣٤) ، فبعدها وصلت فرقنا الى دمشق ، وتمكنت من الاستيلاء على

- ٣٠٩٣ -

البساتين والنهر ، ووضعت المدينة تحت الحصار ، قيل أنه اجتمع بالملكين كل على حدة ، وواحد بعد الآخر ، وطلب منهما بالحاح بأن تسلم المدينة بعد سقوطها اليه ، ويروى بأنه حظي بالموافقة ، ومع أن بعضا من نبلاء مملكتنا قد أبدى موافقته ، فإن الآخرين غضبوا لدى سماعهم بذلك غضبا شديدا ولم يقبلوا بحجة أن هذا الأمير الكبير كان عليه ان يكتفي بما يملكه ، سيما وأنه كان يتظاهر بالقتال في سبيل امجاد الرب ، لاسبيل نيل تعويضات أخرى ، لذا بدا أمرا غريبا اصراره على اعطائه هذا الجزء الكبير من المملكة فهم انفسهم كانوا يأملون بأن الزيادات - مهما كان حجمها - التي ستحصل عليها المملكة عن طريق هؤلاء الأمراء الشجعان ، وبفضل جهودهم ، ينبغي استخدامها لتوسيع رقعة ممتلكاتهم ، وقاموا تحت وطأة غضبهم ورفضهم بالسير في درب الخيانة ، حيث انهم فضلوا احتفاظ الدمشقيين بمدينتهم ، من أن يروها تعطى الى ذلك الكونت ، ويبدو من غير العدل ، ان يذهب هؤلاء الذين تحملوا مالم يتحملة سواهم ، وأمضوا حياتهم في القتال من أجل المملكة ، أن يذهبوا بدون أمل بالربح ، بينما تعطى الثمار للذين جاءوا لتوهم ، ثمارا هم جنوها بأنفسهم ، بعد جهد طويل مستمر .

ويقول آخرون بأن أمير انطاكية استخدم نفوذه لجلب الاخفاق لمشروع الملك لويس

فقد كان شديد الغضب بسبب تخلي هذا الملك عنه ، وتركه مغضبا ، فهو رغم كل ما قدمه اليه من احسان رفض تقديم المساعدة له بأي شكل من الأشكال ، ولهذا مارس ضغطه على بعض نبلاء الجيش ، وطلب تدبير الأمور بشكل يجبر فيه الملك لويس على التخلي عن مشروعه ويسبب عودته خالي الوفاض .

وتذهب بعض الروايات الأخرى الى القول بأنه مامن شيء من هذا القبيل قد حدث ، فيما عدا أن العدو قام برشوة بعض الأفراد

- ٣٠٩٤ -

بمبلغ كبير من المال ، ليسببوا كارثة كبيرة من هذا القبيل ، وتمضي هذه الحكايات الى القول أنه لمن المدهش ان هذه الأموال التي حصلوا عليها بالاثم والخيانة وجدوها مزيفة ، ولاتساوي شيئاً (٣٥) .

وهكذا تختلف الآراء حول تحديد المسؤولية في هذا العمل الممجوج ، علماً بأنني لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة حول هذا الموضوع ، وعلى كل حال ، ومهما تكن أسماء المجرمين لابد انهم سينالون جزاءهم العادل الذي يستحقونه ، مالم يستغفروا الرب ، ويستجب الرب لهم فيمنحهم الغفران (٣٦) .

وهكذا حدث أن عاد شعبنا - كما حكينا - دونما فخار وعم السرور بين صفوف الدمشقيين لمغادرة النصارى ، لأن الخوف كان حملاً ثقيلاً ، عليهم لكن بالنسبة لشعبنا كان الحال على العكس ، كما قيل : « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٣٧) .

وبعد العودة الى المملكة دعا الملك (بلدوين) ثانية الى اجتماع لجميع النبلاء ، لكن عبثاً فعل حين حاول الاعداد لعمل جديد يجلب اليهم المنفعة والفخار في أعين الناس ، ولقد اقترح بعضهم القاء الحصار على عسقلان التي كانت ماتزال في أيدي الكفار ، حيث أن هذه المدينة واقعة على مقربة من قلب المملكة ، وكان من الممكن نقل المعدات والأشياء الضرورية الى هناك ، وستكون مهمة سهلة التنفيذ لاتحتاج وقتاً طويلاً ، وبها اعادة الثقة الى نفوس المسيحيين ، لكن هذا الاقتراح رفض ، ورفضت معه اقتراحات أخرى بديلة ، بمجرد عرضها - اي قبل تفهمها - ذلك ان الرب بغضبه ، بدا وهو يحول كل مشاريعهم الى احباط .

- ٣٠٩٥ -

٨- الامبراطور كونراد يعود الى بلاده ، لكن ملك الفرنجة تخلف في سورية .

اعتقد الامبراطور كونراد بأن الرب حرمه من نعمته ، وحظر التخصص للقيام بأي دور آخر في قضايا المملكة ، لذلك أمر بتجهيز سفنه ، وقال وداعا الى مملكته ، وبعد عدة سنوات من هذا الحادث توفي في بامبرغ ، وهناك دفن في كنيسة الكبرى ، وسط احتفال مهيب ، وكان كونراد مهيب الطلعة تقيا وشفوقا ، يتميز بسمو روحه ، وبطول خبرته في الاعمال العسكرية ، وكانت حياته وصفاته مثالا يحتذى به في كل مجال ، وستظل ذكراه خالدة أبدا (٣٨)

وقد خلفه على العرش فريديك دوق سوابيا المشهور ، الذي كان رفيق الامبراطور الدائم أثناء حملة الحج ، وكان شايبا له صفات محمودة ، وهو ابن الاخ الأكبر لكونراد ، وهو الآن يقوم بحكم الامبراطورية بكل نشاط ونجاح .

وأضى ملك الفرنجة سنة بيننا ، ثم مع عبور الربيع ، وبعدما امضى عيد الفصح في القدس ، عاد الى بلاده ومعه زوجته ونبلاءه وعقب عوبته تذكر المساويء التي سببتها له زوجته أثناء الرحلة أو بالحري أثناء عملية الحج كلها ، لهذا قرر ابعادها ، ومنح الان بطلاقها بشكل رسمي امام أسقف المملكة ، بحجة وجود قرابة بينهما تحظر الزواج (٣٩) ، وقامت مطلقة هذه على الفور ، وقبل مضي اي وقت ، وحتى قبيل عودتها الى اكويتين - ميراثها من ابويها - فتزوجت هنري ، دوق نورماندي ، وكونت انجوا ، وبعد الزواج بفترة وجيزة خلف هنري ستيفن في ملك انكلترا ، وذلك ان ستيفن توفي دون ان يعقب ولدا ذكرا .

ووفق ملك فرنسا في زواجه الثاني ، عندما اقترن بماريا ابنة

امبراطور اسبانيا التي كانت فتاة مرضيا عنها من قبل الرب ،
وذات مكانة عالية لحياتها الطاهرة التي كانت اشبه بحياة القديسات (٤٠)

٩ - نور الدين يجتاح منطقة انطاكية ، ويهاجمه الامير ريموند وتنشب معركة يقتل فيها .

اصبح وضع اللاتينيين منذ الآن فصاعدا في الشرق اكثر سوءا
بشكل واضح ، وراى اعداؤنا ان الاعمال التي نفذها قانتنا وملكنا
الاقوياء كانت اعمالا عقيمة وان جميع الجهود التي بذلها كانت بلا
جدوى ، وسخروا من القوة المتحطمة والمجد المتصدع للذين كانوا
يمثلون الاسس الجوهرية للمسيحيين ، وكانوا قد احتقروا بكل
وقاحة الوجود الحقيقي للذين كانت اسماؤهم ذاتها قد روعتهم من
قبل ، ولهذا السبب سميت جراتهم وشجاعتهم الى مستويات عالية
حيث لم يعوبوا يخافون من القوات المسيحية ، ولم يتردبوا عن
مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير ، فقد قام نور الدين بن زنكي بعد
رحيل الملكين مباشرة بجمع جيش ضخم من جميع انحاء الشرق
وبدا يجتاح المنطقة الواقعة حول انطاكية بشجاعة فريدة ، وعندما
انرك ان بلاد امراء اللاتينيين باتت خالية من المساعدة ، قرر ان
يحاصر القلعة المعروفة باسم انب (٤١) ، ووصلت الى ريموند امير
انطاكية انباء موثوقة عن هذا التحرك ، فاندفع بطيش مع بضعة
رجال نحو هذا الموقع فورا ، نون ان ينتظر مرافقة فرسانه الذين
كان قد استدعاهم ، لانه كان رجلا صاحب شجاعة واقدام لايعرف
الصبر ، ولم يسمح لنفسه ان تحكمها نصيحة اي انسان في قضايا
من هذا النوع ، وقد وجد نور الدين مايزال مصمما على محاصرة
القلعة المذكورة انفا .

عندما سمع نور الدين بان الامير كان قادمًا تردد في انتظاره
والتصدي له ، لانه خشي ان يحضر ريموند قوات كبيرة معه ، ولذلك

تخلّى عن الحصار وانسحب الى مكان آمن ، وبقي هاهنا حتى يتمكن من التحقق عن طريق تقارير متوالية عن نوع القوات التي كانت موجودة مع الامير ، وعمّا اذا كانت من المتسوق وجوّد احتياطات اكبر .

واصيب الامير بالتيه بسبب نجاحه الاول فتجراً اكثر مما ينبغي له ، وبدأ يتصرف بطيش الى حد ما (٤٢) ، فمع انه كان يمتلك القلاع في المنطقة المجاورة كان بإمكانه ان يبقى فيها بامان مع اتباعه ويعيدهم من هناك دون ان يتعرضوا للخطر ، فضل ان يعتمد على السهل المكشوف ، ورأى انه من غير اللائق ظهوره وهو منسحب - ولو لفترة مؤقتة - لخوفه من نور الدين ، وفضل ان يعرض نفسه لخدع العدو ، وعندما ادرك نور الدين ان الامير لم يتلق اية مساعدة اضافية ، اعتقد انه بإمكانه قهر القوات التي جلبها ريموند معه بسهولة ، ولهذا طوق جماعة الامير في تلك الليلة ، وانقض على المعسكر وكأنه يحاصر مدينة ما .

عندما اطل الفجر وبدأ الصباح رأى ريموند جيوش العدو تحيط به فبدأ يرتاب بقوته ، لكن للأسف بعد قوات الاوان ، ومع ذلك فقد عبأ صفوفه بترتيب المعركة ورتب فرسانه واستعد للقتال في مواقع متلاحمة ، وبدأت الحرب بهذه الطريقة ، وبما ان قوات ريموند كانت ابنى قوة ، فانها لم تتمكن من صد اعداد العدو الكبيرة ، فولت ادبارها ولانت بالفرار ، وترك الامير وحوله عدد قليل من رجاله فقط ، وقد قاتل بشجاعة كمحارب شجاع وعالي المعنويات ، وبعدما انهكه القتال واضنيت روحه في آخر الأمر قتل بضربة سيف وسط المذبحة التي كان قد اقتربها ، وقطع الاتراك رأسه ويده اليمنى وتركوا البقايا المشوهة وسط جثث القتلى في ميدان المعركة .

وكان بين الذين سقطوا في تلك المعركة الفارس القوي والعظيم رينو صاحب مرعش الذي اسفت بلاده عليه الى الابد ، والذي كان

- ٣٠٩٨ -

كونت الرها قد زوجه ابنته ، كما سقط نبلاء اخرون في الموقع نفسه لكن ضاعت اسمائهم .

وكان ريموند رجلا صاحب روح نبيلة ، وكانت خبرته كبيرة وواسعة جدا في الحرب ، فقد كان العدو يخشاه كثيرا ، ومع ذلك ، كان قليل الحظ ، ان الاعمال الشجاعة الكثيرة والنبيلة التي نفذها في الامارة جديرة باعتبارها خاص ، لكن ينبغي علينا ان نسرع في استئناف الحديث التاريخي العام ولا نستطيع التأجيل لتفاصيل من هذا النوع ، او ان نترك القلم يتباطأ حولها .

قتل ريموند في العام ١١٤٨ لتجسيد الرب وفي السابع والعشرين من حزيران وهو عيد الرسولين المقدسين بطرس وبولص ، وكان في العام الثالث عشر لحكمه (٤٣) ، ويدعى المكان الذي سقط فيه باسم العين المسورة ، وهو واقع بين مدينة افامية وقلعة الروج ، وعثر على جثة الامير بين القتلى وتم التعرف عليها بشارات وندبات خاصة ، فنقلت الى انطاكية وبخلت اليها بطقوس جليلة حيث دفن بين قبور اسلافه في ردهة كنيسة امير الحواريين .

١٠ - نور الدين يعامل المنطقة بأسرها حسب هواه . الملك يسرع الى هناك لتقديم المساعدة . سلطان قونية يغزو بلاد كونت الرها .

ارسل نور الدين ، للدلالة على انتصاره ولزيادة مقامه وسمعته رأس ريموند وذراعه الايمن (اللذين كان قد امر بقطعهما لهذا الغرض) الى خليفة بغداد ، اقوى ملوك المسلمين وامرائهم ، وللبرهنة على ان المضطهد الاشد اربابا للامم بات قتيلا ، ثم جرى ارساله بعد ذلك الى بقية الحكام الاتراك جميعا في كل مكان من الشرق .

- ٣٠٩٩ -

استسلم اهالي انطاكية للحزن المطلق بعدما حرموا من تأييد قائدهم العظيم ، وتذكروا بكلمات حزينة وبكاء وعويل وصراخ الانجازات العظيمة لذلك الرجل الشجاع ، ولم يقنف نبأ وفاته الكآبة والحزن في قلوب الموجودين في تلك الاحواز فحسب ، بل حمل الويل لجميع الناس في كل مكان طولا وعرضا وملا قلوب العظماء والوضعاء جميعا بحزن كله مرارة .

كان نور الدين ، كآبيه مضطهدا جبارا للعقيدة المسيحية وللإسم المسيحي ، وقد رأى بعد مقتل امير المنطقة مع الجزء الرئيسي من قواته في المعركة ان المنطقة بأسرها أصبحت تحت رحمته ، وبناء عليه بعث بجنوده على الفور وبدأ باجتياح المنطقة بأسرها بطريقة عدوانية ، ومر قريبا من أنطاكية وحرق كل شيء موجود في جوارها وانتقل بعدها الى دير القديس سمعان الواقع في اعالي الجبال بين انطاكية والبحر ، وتصرف هناك بحرية ايضا وحسب هواه ، وعامل الجميع كما يحلو له بدون قيد او ضابط ، ونزل من هناك الى البحر الذي رآه الان لأول مرة واستحم هناك بحضور جيشه اشارة الى انه قد قدم كفاتح حتى الى البحر ، واستولى اثناء مروره في مسيرة العودة على قلعة حارم التي لا تبعد اكثر من عشرة اميال عن انطاكية ، وعززها على الفور بالاطعمة والاسلحة والجنود بحيث تستطيع تحمل حصار يستمر لايام عديدة .

استولى الرعب الان على جميع الناس ، واذلت المنطقة امامه لان الرب اعطى طعمة لسيفه نخبة الجيش وامير المنطقة ، ولم يكن هنالك احد قادر على تقديم حماية ناجعة ضد المخاطر التي كانت تهددهم ، وكانت كوندستانس ارملة الامير ريموند قد تركت مع ولدين وابنتين (٤٤) مع مسؤولية جزئية عن رعاية الامارة ، غير انه لم يكن هنالك اي قائد يمكنه ان يتولى مهام الامير وبعث الناس واخراجهم من حالة الاكتئاب التي كانوا يقعون بها ، وتقدم في هذا الطاريء اميري بطريك انطاكية ، وكان رجلا مقتدرا وصاحب ثروة

- ٣١٠٠ -

كبيرة ، وظهر ككافل للمنطقة المتضررة جدا وحام لها وقدم ، خلافا لعاداته ، المال بسخاء لاستئجار الجند ، ووفر بذلك بعض المستلزمات الفورية للمنطقة لبعض الوقت (٤٥) ..

اصابت انباء مقتل ريموند والوضع اليائس في انطاكية ملك القدس بالذعر ، فجمع الجنود فورا لنجدة اخوانه في المحنة وسارع بالتوجه نحو منطقة انطاكية ، وشجع حضوره كثيرا السكان المثبطي الهمة والذين لم يشعروا بأية ثقة بأنفسهم ، ووحد القوات التي قادها معه مع عساكر من سائر تلك المنطقة ودعا الناس للمقاومة ، ولكي يساعدهم على استرداد شجاعتهم المألوفة ، حاصر قلعة حارم ، التي كان العدو قد استولى عليها مؤخرا ، وذلك حسبما ذكرت انفا ، الا ان الموقع كان محصنا بشكل جيد لذلك تخلى عن المحاولة بعد ان قضى عدة ايام هناك دون نجاح وعاد الى انطاكية .

ونزل سلطان قونية الى سورية ايضا مع جيش ضخم (٤٦) ، وذلك لدى سماعه نبأ مقتل الامير ، واستولى على قلاع ومدن كثيرة في تلك المنطقة ، واخيرا حاصر قل باشا على الرغم من ان جوسلين وزوجته وابناءه كانوا ضمنها ، وارسل الملك خلال هذا الوقت كافل المملكة همفري مع ستين فارسا ليتولوا حماية قلعة اعزاز للحيولة دون قيام الاتراك بالاستيلاء عليها .

واخيرا اطلق الكونت سراح جميع رعايا السلطان الذين كان يحتجزهم كاسرى ، واعطاهم اضافة لذلك اثني عشر لباسا مدرعا ، وهكذا تم التوصل الى السلام بينهما ورحل السلطان ، وتقدم الكونت الى اعزاز في اليوم نفسه بعد ان تحرر من الحصار حيث اسرع من اعزاز الى انطاكية ليشكر الملك على اللطف الذي كان قد أظهره نحوه ، ثم ودع الملك بعدما زاره وعاد الى بلده بصحبة المرافقة المتواضعة التي كان قد جلبها معه (٤٧) .

- ٣١٠١ -

أخذ الملك علي عاتقه مسؤولية المنطقة المنكوبة وبقي في انطاكية من أجل أن - رس حتى عانت الامور الى مجاريها بقدر ماسمح الوقت والزمن ، ثم عاد الى بلاده بعدما تحقق بعض الهدوء وذلك ليولي اموره الخاصة عنايته .

١١ - العدو يأسر بعد رحيل الملك من انطاكية كونت الرها وموته بشكل شائن .

كان جوسلين الأصغر كونت الرها ابنى كثيرا من ابيه في الصفات ، وكان رجلا كسولا ومهملا ومنغمسا في المسرات الخلية والوضيعة ، كان شخصا رفض السبل الحميدة واتبع المهن الوضيعة ، وكان قد طارد امير انطاكية بكراهية شديدة واعتبر مقتله ابتسامة عظيمة من الحظ له . ولم يبال كثيرا بصحة القول : « عندما يحترق منزل جارك تصبح ممتلكاتك في خطر » (٤٨) . ويقال انه انطلق الى انطاكية ليلا تلبية لدعوة البطريرك ، وكان برفقة غلام واحد كان يقود فرسه بعدما ترك حرسه وتنحى جانبا ليقضي حاجته الجسدية عندما هاجمه لصووص انطلقوا من كمين لم يدر بهم الذين تقدموه والذين لحقوا به ، فقبضوا عليه واقتادوه مكبلا بالسلاسل الى مدينة حلب ، وسجن هناك حيث انهكتة احوال السجن القذرة والسلاسل الحديدية الثقيلة واضعفته الالام الجسدية والعقلية نتيجة اساليبه الخلية ووصل الى نهاية رهيبة .

وبحثت عند الفجر عناصر الحراسة بقلق عن سيدها حيث كانت غير عارفة ابدا بما كان قد حدث ، ولم تتمكن من العثور عليه . وعندما ثبت ان بحثها كان عقيما ، عانت ونقلت نبأ الكارثة التي كانت قد اصابتها ، واصيبت المنطقة بأسرها بالذعر من جديد ، ولم يكن الناس قد شعروا حتى الان بأية عاطفة مع محن جيرانهم ، لكنهم عرفوا الان بعدما سحقتهم الكارثة كيف يتعاطفون مع متاعب

- ٣١٠٢ -

الآخرين بمحنة مشابهة ، وعلم فيما بعد من مصادر موثوقة ان الكونت كان اسيرا في حلب (٤٩) .

وتركت زوجته التي كانت امرأة محتشمة ورزينة تخشى الرب وتلقى التأييد منه ، مع ابن قاصر وابنتين ، وحاولت بمساعدة الرجال الرئيسيين الذين كانوا مايزالون في المملكة ، ان تحكم الناس بأفضل ما تستطيع ، وشغلت نفسها وبشكل يفوق كثيرا قوة المرأة في تعزيز القلاع في المنطقة وتزويدها بالسلاح والرجال والمواد الغذائية.

وهكذا ، حرم هذان البلدان - عقابا لاثامنا - من التوجيهات الحكيمة لامرائها ، وباتا يحاولان الصمود بصعوبة في ظل حكم الذسوة .

١٢ - الملك يعيد مع اعيان المملكة بناء غزة على مقربة من عسقلان .

بعد وقت قصير من وقوع هذه الاحداث في منطقة انطاكية زارت الرحمة السماوية المملكة ، وتشجع الملك ونبلأؤه مجددا بعدما خرجوا من اعماق الكأبة التي كانوا قد سقطوا فيها بسبب الكوارث المتكررة التي كانت قد اصابتهم وصمموا على اعادة بناء غزة ، واملوا بهذه الطريقة ان يضعوا حاجزا اكثر فعالية ضد اعدائهم المروعين من اهالي عسقلان ، ولنعمهم من القيام بغاراتهم المشؤومة .

كانت مدينة غزة القديمة جدا تقع على بعد عشرة اميال جنوب عسقلان ، وكانت مخربة الان ومهجورة تماما ، وصمموا على اعادة بناء هذه المدينة حتى يمكن تطويق عسقلان من ناحية الجنوب

- ٣١٠٣ -

مثلما كانت مطوقة من الشمال والشرق بالقلاع التي كانوا قد بنوها هناك ، ويمكن من هذا الاتجاه شن هجمات متوالية ضد المدينة ومواصلة حرب هجومية بلا انقطاع ، وهكذا ، اجتمع الناس جميعهم في اليوم المحدد كرجل واحد ، وبدأوا العمل بجهود صلبة ، وتنافس كل منهم مع جاره في المساعدة على اعادة اعمار المدينة . كانت مدينة غزة هذه نفسها ، المدينة القديمة جدا ، احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وقد اشتهرت بابنيتها وبكنائس انيقة كثيرة ، وبمنازل فسيحة مصنوعة من الرخام واحجار ضخمة ، فعلى الرغم من انها مخرّبة الان فانها لاتزال تقدم دليلا على مجدها القديم ؛ كما لاتزال هناك خزانات كثيرة وابار فيها ماء مناسب للحياة . فقد بنيت على ربوة غير عالية وضمت بين اسوارها منطقة واسعة جدا .

ادرك المسيحيون انه لن يكون موثما اعادة بناء المدينة بأسرها وان قوتهم ايضا قد لاتكون كافية لمهمة كهذه في ذلك الوقت ، ولذلك اخذوا جزءا من الهضبة ووضعوا اساسات ذات عمق مناسب وشيدوا قلعة مشهورة لسورها ولابراجها . وانتهى العمل بنجاح في غضون وقت قصير بمساعدة الرب ، وعندما انتهت القلعة بكل اجزائها تماما عهد بها بموافقة عامة لرعاية فرسان الهيكل ليحتفظوا بها الى الابد مع سائر المنطقة المتاخمة ، وصان الداوية الذين كانوا رجالا شجعانا ومحاربين اشداء ، هذه الامانة باخلاص وحكمة حتى الوقت الحالي ، فقد هاجموا مرارا وتكرارا مدينة عسقلان احيانا بشكل علني وحيانا اخرى بشن هجمات من الكمائن ، وبالنتيجة فان هؤلاء الاعداء الذين اجتاحوا المنطقة وخرّبوها بأسرها من قبل وجعلوا المسيحيين يخافونهم ، يعدون انفسهم الان محظوظين للغاية اذا ماتمكنوا بالتوسلات او المال من الحصول على سلام مؤقت ، واذن بالعيش بهدوء داخل اسوارهم .

برهنت غزة انها ليست فقط مفيدة في قمع عسقلان — التي شيدت

- ٣١٠٤ -

لازعاجها - بل حتى بعد الاستيلاء على المدينة ، فقد قامت ايضا بدور الخط الدفاعي في الجنوب ، وقدمت حماية كبيرة لتلك المنطقة ضد المصريين .

في مطلع الربيع عاد الملك والبطريرك الى القدس وذلك عندما انتهى بناء داخل القلعة بشكل جزئي (٥٠) ، وتركوا في غزة فرسان المطيد الذين وضعت القلعة تحت مسؤوليتهم ، وكان المصريون في هذه الاثناء معتادين على ارسال قوات اضافية ثلاث مرات او اربع في العام لتعزيز قوة اهالي مدينة عسقلان (٥١) ، وحدث بعد رحيل الملك ان ظهرت هذه القوات بأعداد ضخمة امام حصن غزة وشنت هجوما عنيفا على المدينة حيث كان سكان المدينة قد هربوا اليها بسبب خوفهم من العدو ، الا ان القادة المسؤولين ابركوا بعد اضاءة عدة ايام في الحصار ان الجهود التي كانوا يبذلونها كانت جهودا عقيمة فرحلوا الى عسقلان ، وضعفت قوة العدو بشكل واضح من ذلك اليوم وتناقصت قدرته على ايدائنا حتى توقف بالتدريج عن مضايقة المناطق الواقعة حوله .

بدأ الجيش المصري ، الذي اعتاد كما ذكرنا من قبل على جلب المساعدة مرارا ، بالقبوم عن طريق البحر فقط ، لانه خشي من الكمائن المنصوبة من قبل القلعة القائمة على الطريق واصابه زعر شديد من الفرسان .

١٣ - نشوب نزاع خطير بين الملك ووالدته وتتويجه بدون علمها .

في هذه الاونة كانت امور المملكة في الشرق تتقدم بشكل سار وسانت حالة لا بأس بها من الهدوء ، الا ان هذه الحالة فسدت الى حد ما بسبب انتقال الرها الى سلطة اعدائنا ، وبذلك خسرناها

ويسبب ان منطقة انطاكية كانت خاضعة لهجمات معادية باستمرار ، وبدأ الشيطان عدو الانسان والمستعد لنشر بذور الخلاف ، ينظر بحسد الى ازدهارنا ، وحاول تعطيل سلامنا باثارة الخلافات المدنية ، وكان اصل المشكلة وسببها كالتالي : كما ذكرت من قبل ، تركت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة والورعة في الرب ، عند وفاة زوجها ولها ولدان لم يبلغا سن الرشد ، ونظرا لعملها كوصية شرعية لهما ، فقد تولت بموجب حق الوراثة الاهتمام بالملكة وادارتها ، وتمكنت بمساعدة نبلاء المملكة ومشورتهم من الحكم بقوة واخلاص وبشكل يفوق قوة وشجاعة النسوة وظلت كذلك حتى تلك الوقت ، وعاش ابنها الاكبر بلبوين ، الذي نكتب الان عن اعماله ، بانسجام تام معها واطاع اوامرها بحكمة حتى بعد ارتقائه للعرش .

وكان من بين الذين اعتمدت الملكة على مساعدتهم ومشورتهم قريبا ماناسيس ، وكان رجلا من منزلة عالية وصديقا حميما لها ، وعينته حالما تولت الحكم حاكما للقلعة وعينته في القيادة العليا للجيش ، ويقال انه انتهز عطف الملكة وتصرف بشكل متعجرف جدا ، واتخذ موقف استعلاء وقبح تجاه زعماء المملكة ، ورفض ان يظهر لهم احتراما مناسبا ، واثار سلوكه هذا كراهية شديدة ضده من جانب النبلاء ، ولو لم تكن الملكة قد مارست سلطتها لكانوا قد حولوا حقدهم الى فعل ، وكان ماناسيس قد تزوج من ارملة بالين الاكبر ، وهي عقيلة نبيلة ووالدة الاخوة الثلاثة هيو وبلدوين وبالين صاحب الرملة ، وكان قد كسب بهذا الزواج ثروة كبيرة ووسع ممتلكاته كثيرا ، وكان الملك قبل الجميع على رأس الذين يكرهون ماناسيس بالمشاعر والاعمال ، وادعى ان الرجل كان يصرف ود والدته عنه ويعارض سخاءها .

كان هنالك كثيرون يكرهون سلطة هذا الرجل وسيطرته الشيطانية ، واثاروا باستمرار كراهية الملك نحوه ، وطالبوه

باستمرار باقصاء والدته عن السيطرة على المملكة ، وبما انه كان قد بلغ سن الرشد ، فقد قالوا انه ليس من اللائق ان تتحكم به ارادة امرأة ، وينبغي عليه ان يتولى القيام بنفسه ببعض مسؤولية حكم المملكة (٥٢) .

وتأثر الملك بأراء آخرين مثلهم ، وصمم على تتويج نفسه في القدس في عيد الفصح ، وتوسل اليه البطريرك والرجال الحكماء الآخرون الذين رغبوا ان يحل السلام بالمملكة ، بجسدية ان يسمح لوالدته بالمشاركة في مجده ، لكنه بدل استجابة لنصيحة المستشارين المذكورين قبل لحظات من الموعد ، الموعد الذي كان قد حدد للاحتفال حتى معه ، ثم ظهر فجأة في اليوم التالي وهو متوج باكليل الغار دون ان يستدعي والدته .

١٤ - تقسيم المملكة بين الام والابن . الملك يدخل القدس بالقوة . ارغام والدته على الاعتصام في برج داود . استعادة الهدوء والسلام اخيرا .

عقد الملك بعد ان انتهى الاحتفال المهيب اجتماعا لنبلائه حضره الكونت ايفزاوف سواسونز وولتر آمر قلعة القديس اومر ، وذهب بلديون الى والدته وطالبها باقتسام المملكة معه ، على الفور وان تخصص له جزءا من ميراث اسلافه ، وبعد جدال طويل من كلا الجانبين قسم اخيرا الميراث ومنح الملك حق الاختيار فأخذ حصته له المدن البحرية الواقعة في منطقتي صور وعكا مع توابعهما ، وترك القدس ونابلس مع المدن التابعة لهما للملكة ، وهكذا انفصلا عن بعضهما وامل الناس ان يستمر الاتفاق المتفق عليه من اجل السلام ، وان يرضى كل من الاثنين بالنصيب الذي ال اليه ، وعين الملك في هذا الوقت كافلا لمملكته وقائدا للجيش نبيلًا بارزا اسمه همفري صاحب تيرون ، الذي كان صاحب ممتلكات واسعة وكبيرة في فينيقية بين الجبال بالقرب من مدينة صور .

لكن الرغبة بمضايقة الملكة لم تهدأ حتى بهذه الطريقة ، بل على العكس ، فقد اثير ثانية الغضب الذي كان مايزال مضطربا بسبب نرائع تافهة ، وتأجج متحولا الى حريق هائل اكثر خطرا من ذي قبل . فقد بدأ الملك يسبب المتاعب لوالدته بسبب تحريض النبلاء انفسهم الذين استمع لارائهم من قبل ، وعزم على الاستيلاء على تلك الجزء من المملكة الذي كانت تستلمه برضا الاثنين وان يقصياها بعد ذلك تماما ، وعندما عرفت الملكة بخطته عهدت بالرعاية بنابلس الى احد نبلائها المخلصين واسرعت الى القدس .

جمع الملك في غضون ذلك قوة كبيرة جدا بقدر ما اسعفه الحظ وحاصر ماناسيس في احدى قلاع المسماة باسم مجدل يابا ؛ فاضطر ماناسيس الى الاستسلام واجبر على التخلي عن المملكة وسائر المنطقة الواقعة على هذا الجانب من بحر (فلسطين) ، ثم استولى الملك على نابلس وتقدم نحو القدس في مطاردة لوالدته .

وتنكر بعض النبلاء ، الذين كانت ممتلكاتهم تقع ضمن اقاليم الملكة والذين كانوا ملحقين بها بولاء اسمي فقط ، لايمان الولاء التي كانوا قد ابوها وارتدوا عنها ، وكان عدد الذين حافظوا على الوقوف الى جانبها والذين التزموا بقضيتها باخلاص تام قليلا ، وكان بين هؤلاء كل من ابنها عموري كونت يافا وهو شاب صغير جدا ، وفيليب صاحب نابلس وروهارد الاكبر مع عدد اخر قليل اسمائهم غير معروفة .

عندما سمعت الملكة ان ابنها كان يزحف نحوها مع جيش ، انسحبت الى القلعة مع اركان اسرتها واتباعها المخلصين ووثقت بدفاعات القلعة ، الا ان البطريرك فولتشر ذا الذكرى الطيبة ، ادرك ان اوقات الخطر وايام الفزع باتت تحمل نذير الخوف ، وبما انه كان راغبا بالتدخل كمصلح لذات البين وكملتس لتقديم اقتراحات سليمة فقد اخذ معه رجالا متدينين يخافون الرب من بين رجال

- ٣١٠٨ -

الدين ، وخرج لاستقبال الملك ، ونصحه بالعنول عن مشروعه الشرير ، وان يلتزم بشروط الاتفاق ، وان يترك والدته تستريح بسلام ، بيد ان هذه التحذيرات كانت بلا محصلة فقد عاد الى المدينة بمقت تام لهدف الملك .

كان الملك مصمما على الوصول الى غايته وضرب معسكره امام المدينة ، واخيرا فتح له السكان الابواب وادخلوه مع جنده تجنبنا لغضبه ، فحاصر على الفور القلعة التي كانت والدته قد لجأت اليها ، ووضع الاته الحربية في مواقع لشن الهجوم ، وهاجم القلعة بطريقة عدائية مستخدما الات المنجنيق والاقواس والات القذف الحربية ، وكانت الهجمات مستمرة بلا انقطاع بحيث لم يتيسر للمحاصرين اية فرصة للراحة ، وقاموا من جانبيهم بكل قوتهم وصمموا على صد القوة بالقوة ، ولم يتربدوا باستخدام الاساليب ذاتها التي استخدمتها القوات المحاصرة المتمركزة خارج القلعة ، وعن الحاق الاضرار بأعدائهم ، وانزال تدمير مماثل بهم . واستمر الصراع لعدة ايام وبخطر كبير لكلا الطرفين ، لان الملك كان مايزال معارضا للانسحاب على الرغم من انه احرز تقدما بسيطا في الاستيلاء على القلعة ، وبعد لاي تقدم في اخر الامر بعض الافراد كوسطاء من اجل السلام والتفاهم ، وتم اقناع الملكة بالرضى بمدينة نابلس ومنطقتها ، وان تتخلى عن القدس عاصمة المملكة الى الملك ، وقدم الملك من جانبه ضمانا وادى يمينا جليلا بانه لن يضايقها في امتلاكها لتلك المدينة بشكل دائم ، وهكذا تصالحا مع بعضهما وعاد الهدوء من جديد الى المملكة والكنيسة كنجم الصباح الذي يشع وسط الظلام .

١٥ - سلطان قونيه يجتاح مجددا منطقة الرها ،
الملك يخف الى هناك بكل سرعة .

نقل الى ملك القدس نبأ الكارثة المحزنة التي كانت قد انت الى اسر

- ٣١٩ -

كونت الرها ، كما علم من مصادر موثوقة ان الرها ، التي تركت بلا مدافع عنها كانت معرضة لمكائد العدو ، واستدعت سائر تلك المنطقة مع اراضي انطاكية التي كانت متروكة لحكم النساء اهتمام الملك واستجابة لهذا المطلب اخذ بلدين معه همفري كافل المملكة وغي صاحب بيروت وذهب الى منطقة طرابلس ولم يتمكن من الحصول على استجابة من الاقاليم التابعة للملكة على الرغم من انه استدعى نبلاءها كل منهم باسمه ، وانضم اليه في طرابلس كونت تلك المنطقة وفرسانه ، وتقدمت القوات بالسرعة الممكنة الى انطاكية .

وانيع في كل مكان ، وقد تأكد ذلك بالفعل ، ان اميرا تركيا قويا هو سلطان قونية كان قد اجتاح بقوات ضخمة من الفرسان تلك البلاد واستولى على معظم اجزاء المنطقة المتاخمة لاقليمه ، وحيث لم يتمكن الاهلون من صد قوة جيشه ومقاومتها ، فقد سلموه جميع مدنها وقلاعهم شرط ان يضمن لهم رحيلا امنا وطلقا مع زوجاتهم وابنائهم وتأمين طريق امن الى تل باشر ، وكان ذلك الموقع محصنا - بشكل افضل من باقي المواقع ، وكان فيه عدد كبير من السكان ، وكان للكونت مسكنه الدائم هناك وبدا - حتى الان - هائبا ، لكن عندما كان السلطان قد استولى على المنطقة بأسرها باستثناء عدد قليل من القلاع اضطر الى العودة الى بلاده للعناية بقضايا اكثر اهمية ، ومع ذلك لم تتناقص مشاق اهل المنطقة ولم يهدأ قلقهم ، لان نور الدين المضطهد الاكثر ازعاجا لشعبنا ، والذي كان اميرا تركيا قويا جدا ، كان يغزو المنطقة بأسرها ، وكانت هجماته مستمرة على الدوام بحيث لم يجرؤ احد على الظهور خارج القلاع ، وهكذا ، سحق ذلك الشعب البائس باستمرار ، وبات كأنه واقع بين حجري رحى ، فقد لاقى العذاب على ايدي اميرين عظيمين بشكل يفوق الاحتمال ، وذلك على الرغم من انه لم يكن قادرا على تحمل عنف واحد منهما .

١٦ - امبراطور القسطنطينية يرسل جيشا الى اراضي انطاكية. مطالبته بتسليم منطقة الرها اليه . حصوله على مطلبه . تسليم القلاع الى الاغريق . الملك يزحف باللاتين الى الامام (٥٣)

وعلم بالوقت نفسه امبراطور القسطنطينية بالوضع البائس في الرها فارسل واحدا من نبلائه الى هناك مع كميات كبيرة من المؤن وقوة عظيمة من فرسانه ، وعرض منح الكونتس دخلا سنويا ثابتا ، وكافيا ليوفر لها ولاولادها اسباب عيش شريفة بشكل دائم ، اذا ماتسلم مقابل ذلك القلعة التي كانت مازال تملكها ، وكان واثقا بسبب ثرواته الضخمة انه اذا ماسلمت اليه فسيحافظ عليها سليمة من غزوات الاتراك ، ويعيد الى امبراطوريته بدون صعوبة الاجزاء التي كان قد فقدها .

وعندما وصل الملك الى انطاكية ، وكشف النقاب عن سبب قدوم المبعوثين الامبراطوريين بتوليهم انفسهم شرح المهمة المناطة بهم ، نشب خلاف بين نبلائها ، وقال بعضهم ان الامور لم تصل بعد الى درجة من الشدة تتطلب هذا التصرف ؛ وخلافه لذلك ، اكد اخرون انه يجب اتخاذ اجراء ناجع قبل وقوع المنطقة في قبضة العدو ، ورأى الملك في غمرة هذه الشكوك ان المنطقة لن تتمكن من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن في وضعها الحالي ، وان مسؤوليات مملكته لن تسمح به بالبقاء هناك لفترة طويلة جدا من الزمن ، كما لم يكن معه قوات كافية لتمكنه بشكل موثم من حكم اقليمين يبعدان عن بعضهما مسيرة خمسة عشر يوما ، وتوصل - بعد اخذه بعين الاعتبار حقيقة ان انطاكية الواقعة في منتصف المسافة بين الاقليمين وكانت لعدة سنوات بلا حماية امير لها - الى محصلة انه من الافضل التنازل للاغريق عن القلاع التي كانت مازال باقية وذلك وفقا للشروط المقترحة ، ولم يشعر الا بثقة قليلة حول امكانية

القوات الاغريقية بالمحافظة على الاقليم في وضع جيد ، الا انه فضل ان تباغتها كارثة بينما هي تحت سلطتهم على ان يوضع عليه مسؤولية سقوط شعب احواله خطرة وبلاده مدمرة مفزعة ، وبناء عليه تم التوصل - بموافقة من الكونتس ومن ابنائها - الى معاهدة مرضية للطرفين ومبنية على الشروط المذكورة انفا ، وحدد يوم ايضا يتوجب فيه على الملك النزول الى ذلك الاقليم مع جميع قواته ليسلم جميع القلاع ويمكن رجال الامبراطور من تملكها جميعا ، وزحف الملك الى بلاد كونت الرها اي تل باشر وذلك في الوقت المحدد حسب الاتفاق ، وكان بصحبته كونت طرابلس ونبلاء كل من المملكة وانطاكية ورافقه المندوبون الاغريق ، ووضع هنالك تحت حمايته : الكونتس وابنائها والآخرين جميعا من كلا الجنسين سواء اكانوا لاتينيين أو أرمن ، من الذين كانوا راغبين بالرحيل وبتسليم المنطقة الى الاغريق . وكانت القلاع التي كانت مازال حتى هذا الوقت في حوزة المسيحيين هي تل باشر ، وعين تاب والراوندان والبيرة وسميساط وربما قلاع اخرى ، فقد تم التخلي عن جميع هذه القلاع ووضعها تحت سلطة الاغريق .

ثم استعد الملك للزحف ، وذهب معه جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل مع حيوانات التحميل التي كانت عندهم وكمية كبيرة من الامتعة ، لان كل رجل صمم على ان يأخذ معه اسرته وبطانته وجميع حاجياته المنزلية وكذلك جميع مفروشاتة ، وهكذا ، اسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين وكميات الامتعة الضخمة حتى يتمكن من نقلهم الى مكان امن .

١٧ - نور الدين يصطدم بالملك على الطريق وينجح في وقف الهجرة . الملك يعود الى انطاكية مع شيء من الصعوبات . نور الدين يهاجم الاغريق ويستولي على كامل المنطقة .

علم نور الدين ان اهالي الرها اقدموا بعدما سيطر اليأس عليهم في قدرتهم على الاحتفاظ ببلادهم على التنازل عن قلاعهم الى الاغريق المخنثين الضعفاء وان الملك كان قد سار الى هناك ليتولى ترحيل الناس . وقد زاد من شجاعة نور الدين ابراهه للخوف الذي كان يشعر به المسيحيون ، فجمع على الفور قوات مسلحة من سائر المناطق المتاخمة ونزل فجأة الى تلك الاجزاء ، حيث امل ان يواجهه الملك مع شعبه الذين كانوا قد ارتابوا كثيرا بقوتهم ولم يثقوا بها ، وقدر ان الامر سيكون لمصلحته كثيرا لو انه تمكن من مقابلتهم في ظروف كهذه حيث يعيقهم مقدار هائل من الامتعة ، وبناء عليه لم يكذب الملك يصل مدينة دلوک التي لا تبعد اكثر من خمسة او ستة اميال عن تل باشر عندما انقض نور الدين بقواته على المنطقة بأسرها ، هذا وكان هنالك قلعة قريبة تدعى قلعة عين تاب توجب على المسيحيين ان يواصلوا طريقهم الى مسافة ابعد منها ، وبإدراكهم للخطر المحيى بهم ورغبة منهم في الاسراع ، عباؤا صفوفهم بتشكيل المعركة ونظموا قواتهم بترتيب جيدا ، توقعا لصدام فوري ، كما انتظرت عساكر العدو اقترابنا بتلهف وهي بتشكيل المعركة وكأنها واثقة من النصر ، لكن الامور انتهت خلافا لتوقعهم حيث وصل جيشنا بسلام الى تلك القلعة بقيادة رحمة الرب ، وسمح هنالك للرجال المرهقين والبهائم بالاستراحة طوال تلك الليلة ، واجتمع في هذه الاثناء القادة في مؤتمر تدارسوا فيه الزحف لليوم التالي .

طالب بعض اعيان النبلاء بوضع القلعة تحت رعايتهم واعتقدوا ان قوتهم كانت كافية بعون الرب للاحتفاظ بالموقع ضد هجوم

الاتراك ، وكان من بين رجالات المملكة الذين ابدوا هذا الرأي همغري اوف تيرون كافل المملكة^(٥١) وكان رجلا صاحب شجاعة سامية ووافق على هذا الرأي روبرت دي سورد فال وهو نبيل قوي من نبلاء امارة انطاكية ، غير ان الملك كان مقتنعا انه لم يكن لدى اي من الاثنين قوة او قدرة كافية للمهمة ، ورفض بالتالي العرض الذي تقدما به وعده غير جدير بالدراسة ، واصر على المحافظة على المعاهدة ، وسلم الموقع الى الاغريق وامر الناس بالاستعداد لمواصلة الزحف .

وكان بين ذلك الحشد رجال من نوي اصل سام ، وسيدات نبيلات مع عذارى كريمات المحتد واطفال صغار ، وكانوا يغادرون ارضهم الاصلية ومنازل اجدادهم وارض اباؤهم بالتعهدات والدموع ويتوجهون الى ارض الغرباء بحزن عميق ، ولاشك ان قلوب القساة كانت ستتأثر بتأوهات وصيحات وعويل هؤلاء الناس عندما خرجوا الى المنفى .

وعندما عاد النهار ثانية رتبت الامتعة واستؤنف المسير ، وانتظم العدو في خط الزحف ايضا وتقدم معهم على كلا الجانبين وكان مستعدا للانقضاض على الرتل من جميع الجهات ، وعندما رأى المسيحيون ذلك العدد الكبير من الجند في صفوف الزحف ، اعدوا ترتيب كتائبهم مع الفرسان الخمسمائة الذين كانوا معهم وعينوا اماكن نظامية للجميع وتوجب على الملك ان يسير الى الامام مع طليعة الجيش ويوجه تقدم حشود المشاة ، وجرى تعيين كونت طرابلس و همغري كافل المملكة لحماية الفرق الخلفية ، وتوجب عليهما ان يصدما مع القوات الاخرى القوية والكبيرة هجمات العدو وان يحموا الناس من اذائها ، وتم وضع نبلاء انطاكية على يمين ويسار الرتل ، حتى تكون قوة قادرة من الرجال الشجعان والفرسان المسلحين مع الحشد الذي تم وضعه في المراكز .

تقدم المسيحيون طوال ذلك اليوم بهذا الترتيب حتى الغروب .

وانهكتهم باستمرار كوارث لا تحتمل وهجمات متكررة واشتباكات من مواقع قريبة ، وانهم سر وابلل من السهام على الجنود المتقدمين حتى غطيت الأمتعة بالسهام وأصبحت كالقنفذ ، كما أنهك الغبار والحرارة ، اللتان تسودان في شهر آب ، الناس بشكل يفوق الاحتمال ، وهاجمهم ، إضافة لذلك ، عطش شديد ، وأخيرا أعطى الأتراك عند غروب الشمس شارة الانسحاب حيث لم يكن لديهم أية مؤن غذائية ، إضافة لذلك كانوا قد فقدوا بعض نبلاتهم وتوقفوا الآن عن تتبع جيشنا بعدما استولى عليهم العجب تجاه صمود المسيحيين ومثابرتهم .

كان همفري كافل المملكة يطارد الكفرة المتقهقرين وهو مسلح بقوسه على مسافة بعيدة بعض الشيء من الجيش عندما اقترب منه أحد الجنود من صفوف العدو وألقى أسلحته ، ثم شبك يديه أولا على أحد الجوانب ثم على الجانب الثاني إشارة للتوقيف ، كان تابعا لنبييل تركي قوي جدا وكان موثوقا من قبله ، وكان هذا التركي مرتبطا مع الكافل في اتحاد أخوي حميم جدا ، وكان هذا الرجل قد أرسله ليقدم التحية لهمفري وليخبره بالأوضاع الموجودة في الجيش المعادي ، وذكر أن نور الدين كان يعتزم العودة مع جيشه إلى منطقته في تلك الليلة ذاتها حيث نفدت جميع المؤن في معسكره ، ولم يعد بإمكانه مطاردة المسيحيين إلى مسافة أبعد من ذلك ، ثم عاد الرسول إلى شعبه وعاد الحاكم إلى المعسكر ، ونقل النبأ الذي كان قد تلقاه إلى الملك ، وبما أن الليل كان قريبا فقد خيم الحشد بأسره في مكان يدعى جوها ولم يكن هنالك المزيد من المتاعب ، ووجه الملك الناس خلال الأيام القادمة عبر غابة اسمها مريم إلى مناطق كانت واقعة تحت سلطة المسيحيين ، ثم عاد إلى أنطاكية .

أبرك نور الدين الآن أن منطقة الكونت تركت بدون مساعدة اللاتينيين ، ولذلك بدأ يضايقها بعنف ، مستفيدا من السمات اللاحربية للأغريق الذين وضعت المنطقة تحت رعايتهم ، ووجد

الاغريق أنفسهم غير قادرين على تحمل هجماته المتكررة ، وأرسل أخيرا قواتا ضخمة وحاصر الحصون وطرد الاغريق بالقوة وهكذا استولى في غضون عام واحد على المنطقة بأسرها (٥٥) .

وهكذا سقط بسبب أثامنا ذلك الاقليم الغني للغاية المملوء بالجدول والغابات والمراعي ، ونو التربة المعطاء لجميع أنواع المنتجات ، وكان مكانا قادرا على تقديم دعم كاف لخمس مائة فارس ، وانتقل إلى أيدي العدو وهو بعيد حتى الوقت الحالي عن سلطتنا .

وعانت كنيسة أنطاكية من خسارة ثلاث رئاسة أسقفيات في ذلك الاقليم ، ومن موجودات في الرها ومنبج والرصافة ، وما تزال هذه الكنائس محتجزة على الرغم من إرابتها من قبل الكفرة وتعيش في ظل شؤم الأمم .

١٨ - الملك ينصح الأميرة بالزواج بواحد من الأمراء ليحكم مملكتها ، لكن نصيحته لم تلق الأذن الصاغية . الملك يمضي من هناك إلى طرابلس في طريقه إلى وطنه .

كان قلق بلدوين ملك القدس كبيرا في هذا الوقت حول أنطاكية والمناطق المتاخمة لها ، وكان يخشى أن تقع في يد العدو وتعاني من المصير المؤلم الذي عانت منه الرها كما ذكرنا ذلك أنفا ، لاسيما وأنها كانت محرومة من حماية أميرها ، وكان هذا سيسبب المزيد من المتاعب ويحدث خسارة لا تحتمل للشعب المسيحي ، ولم يكن الملك نفسه حرا للبقاء لفترة طويلة في أنطاكية حيث تطلبت مسؤوليات مملكته بعودته إليها ، ولذلك نصح الأميرة بشكل متكرر لاختيار

واحد من النبلاء كزوج لها فتمكن بمشورته وجهوده من حكم الامارة .

كان في المنطقة في ذلك الوقت عدد من الرجال النبلاء والمشهورين الملحقين بمعسكر الملك ، وكان بينهم إيفز دي نسل كونت سواسون ، وهو رجل لامع وحكيم وعاقِل وصاحب نفوذ كبير في مملكة فرنسا وولتر دي فولكنبيرغ (٥٦) أمر قلعة القديس أومر ، الذي أصبح فيما بعد حاكما لطبرية وكان رجلا عاقلا ولطيفا وحكيما في المشورة وشجاعا في الحرب ، وأيضا رالف دي ميرال وكان نبلا ينحدر من منزلة سامية متمرسا في استخدام الأسلحة ومشهورا بحسه السليم ، وبدا كل واحد من هؤلاء قادرا حقا على حماية المنطقة تماما ، إلا أن الأميرة خافت من عبء الزواج وفضلت الحياة باستقلال وحرية ، ولم تبال كثيرا باحتياجات شعبها وانصب اهتمامها على الاستمتاع بملذات الحياة (٥٧) .

وكان الملك مدركا تماما لميولها، لذلك عقد مؤتمرا عاما في طرابلس تألف من نبلاء المملكة والامارة ، ودعا بطريك أنطاكية وأساقفته المساعدين والأميرة مع نبلاتها أيضا لحضور هذا المجلس ، وحضرته والدته الملكة ميليساند أيضا بمرافقة أمراء المملكة ، ولاقت مسألة زواج الأميرة الاهتمام بعد أن كانت مواضيع المصلحة العامة قد لاقت عناية شديدة .

ولم يتمكن الملك أو الكونت ولا اقرباؤها ولا الملكة ولا كونت طرابلس ولا عماتها من إقناعها بالتراجع والاحتياط بذلك لنفسها ولنطقتها .

هذا وأشيع أنها موجهة بنصيحة البطريرك ، وبما أنه كان رجلا ماكرا وداهية ، يقال إنه أيدها في هذا الخطأ بغية التمكن من الحصول على سلطة أكبر وتصرف أعظم في حكم المنطقة ، وهو شيء

رغب به رغبة شديدة ، وبما أنه تعذر إنجاز أي شيء بخصوص هذه المسألة رفض الاجتماع وعاد الجميع إلى بلادهم (٥٨) .

١٩ - الملك يجتمع بوالدته في طرابلس في سبيل ايجاد وسيلة للمصالحة بين الكونت وزوجته لكن بدون جدوى وقتل الكونت عند باب المدينة على أيدي الحشيشة

نشبت في هذه الآونة عداوة نبعت من بين كونت طرابلس وزوجته اخت الملكة ميليساند ، وقد حضرت الملكة ميليساند إلى هناك على أمل إنهاء هذه الكراهية ، وفي الوقت نفسه لزيارة ابنة أختها أميرة انطاكية ، وبما أنها لم تلاق سوى نجاح ضئيل في حل هذه المسألة ، فقد صممت على أن تعيد أختها معها ، وغادرت الاثنتان مدينة طرابلس وهذا الهدف في مخيلتهما ، ورافق الكونت الأميرة في رحلتها لفترة من الزمن ، ثم استأذنها بالانصراف بعد وقت قصير وقفل عائدا . وبينما كان يدخل باب المدينة ودون تفكير بالحوادث الشريرة طعنه الحشيشية بالسيف عند المدخل المؤدي إلى الباب الواقع بين الحصن الأمامي والصور وهلك بشكل محزن ، وقتل معه أيضا رالف دي مارل ذلك النبيل المشهور والمذكور آنفا وأحد فرسانه ، فقد صادف أن كانا مع الكونت في تلك الرحلة .

كان الملك خاليا من المشاغل ، وكان يتمتع نفسه خلال هذا الوقت بلعبة النرد في المدينة ، ولم يكن عارفا بالذي قد حدث ، وثارَت المدينة بأسرها إزاء نبأ مقتل الكونت ، فأمسك الناس بأسلحتهم وقتلوا بدون تمييز جميع الذين وجدوا أنهم مختلفون سواء في اللغة أو اللباس عن اللاتينيين ، وكان يؤمل بهذه الطريقة أن يتم العثور على مرتكبي العمل الشنيع .

وأثار الغليان المفاجيء انتباه الملك ، وحين علم بنبأ مقتل

الكونت ، لم يتمكن من الاحجام عن البكاء والتنهيدات بعدما أحزنه
واله النبأ جدا ، وأمر باستدعاء والدته وخالته على الفور ، ودفنت
الجثة لدى عودتهم بإجلال لائق وسط صيحات عويل الجميع
ونموعهم، ووفقا لأمر الملك أدى جميع نبلاء تلك الأجزاء ، يمين الولاء
للكونتس وأبنائها .

خلف الكونت ابنا يحمل اسمه أي ريموند ، ولم يكن قد بلغ سن
الثانية عشرة من عمره ، وابنة صغرى تدعى ميليساند ، وعاد الملك
بعدما رتب الأمور بهذه الطريقة ، إلى المملكة بصحبة والدته والنبلاء
التابعين لبلاطه .

٢٠ - جيش ضخّم من الأتراك يزحف ضد القدس
للاستيلاء عليها ، لكن المسيحيين يزحفون نحوه
ويهزمونه بشجاعة كبيرة .

لم يكن قد مضى بعد هذا وقت طويل عندما قام بعض الحكام
الأتراك المعروفين باسم الأراتقة ، وهم رجال أشداء نوو نسب
متميز بين شعبيهم ، بجمع عدد كبير من الأتراك وعقدوا العزم على
الذهاب إلى القدس للاستيلاء عليها على أساس أنها تخصهم بحق
(٥٩) وراثي ، لأنه يقال كانت المدينة المقدسة تنتمي إليهم بحق وراثي
قبل أن يحررها المسيحيون ، وكانت والدتهم متحمسة لهذا ،
السلوك وأنبت أبناءها لأنهم سمحوا لأنفسهم بالابتعاد لفترة طويلة
جدا عن مملكتهم الموروثة .

وبدأوا الزحف بعدما أثارته النصائح المستمرة لوالدتهم
المسنة ، على رأس عدد ضخّم من الفرسان بهدف تحقيق غايتهم
المنشودة إذا سمح الرب بذلك ، وتريثوا لفترة من الزمن في دمشق
لينعشوا جنودهم ويعززوا قوتهم ، وحاول أهالي تلك المدينة عبثا

صرفهم عن مشروعهم السخيف إلا أنهم رفضوا الاصغاء ، فاستكملوا مؤنهم وأعادوا ترتيب أمتعتهم واستأنفوا زحفهم نحو القدس وكأنهم لا يشكون بالنصر ، وعبروا بموكبهم الكبير الأردن وصعدوا المنطقة الجبلية حيث تقع المدينة المقدسة ووصلوا إلى جبل الزيتون الذي يطل على القدس والمتاخم لها . وكان بإمكانهم أن يروا بدون عوائق جميع الأماكن المقدسة وخاصة هيكل الرب ، الذي كانوا يوقرونه بشكل خاص ، واشتمل المنظر بالفعل على المدينة بأسرها .

وكانت معظم القوات المسلحة للمنطقة قد ذهبت إلى نابلس لأنها خشيت من احتشاد العدو هناك لأن المدينة نفسها كانت بلا تحصينات ، وعندما رأى الناس ، الذين تركوا في القدس جيش الأتراك يتقدم خافوا من أن ينحط عليهم بالحال ، فأمسكوا بأسلحتهم على الفور وتقدموا بحماسة نحو الأعداء ملتجئين المساعدة من السماء ومتلهفين للاشتباك معهم .

إن الطريق التي تنزل من القدس إلى أريحا ومن ثم إلى الأردن طريق وعرة جدا وخطيرة ، حيث أن الأماكن الكثيرة المنحدرة والشاهقة تجعل كلا من الصعود والنزول صعبا جدا بالنسبة للمسافرين حتى عندما يكون الطريق آمنا ولا يوجد أي سبب للخوف ، وعندما دخل العدو هذا الطريق ، انقض المسیحيون بعنف عليه وجعلوه يلون بالفرار بذعر ، فقتل الكثيرون مباشرة وهلكوا بدون مساعدة السيف حيث لم تقدم الجرف والشعاب الضيقة أي ممر سهل للهاربين ، وحاول بعض الذين كانوا قد سلكوا الطرق الأكثر تمهيدا أن يواصلوا هروبهم لكنهم واجهوا هناك أيضا سيوف المسيحيين وأصيبوا بجراح مميتة ولاقوا موتا مفاجئا ، وبما أن مصاعب الزحف الطويل قد أنهكت خيولهم فإنها لم تتمكن من تحمل الطريق الوعرة وأصيبت بالاعياء التام ، ورفضت الأذعان للممتطليها ، واضطر الأتراك بالتالي أن يصبحوا جنودا مشاة ،

واثقلت أسلحتهم كاهلهم ، ولم يكونوا معتادين على المشقات أبدا ، فقتلوا كالغنم بسيوف مطارديهم ، وكانت المذبحة التي تعرض لها الجند والخيول فظيعة جدا إلى درجة أعاققت تقديم المسيحيين ، ومع ذلك فقد حاولوا بتلهف زائد تحقيق المزيد من المنافع ، ومروا بجانب المغانم محتقرين التفكير بأخذها وواصلوا المذبحة الرهيبة لأن الاغتسال بدم العدو كان يعتبر المكافأة الأسمى .

حالما علم الناس النين كانوا قد اجتمعوا في نابلس ، بزحف العدو لمهاجمة القدس غادروا بإرادة واحدة واندفعوا نحو مخاضات الأردن لمنع الاتراك من العبور ، وهاجموا على ضفته النين كانوا قد نجوا من مطارديهم وباغتوهم فجأة وقتلوهم ، لقد كانت يد الرب ثقيلة على أعدائنا بالفعل في ذلك اليوم ، لأنه كما هو مكتوب : « أكل الجراد ماتركته بيدان الأشجار المثمرة » (٦٠) . فقد قتل النين كانوا قد نجوا من مطارديهم بفضل سرعة خيولهم أو بطريقة أخرى ، بسيوف المسيحيين النين هاجموهم من اتجاه آخر . والتقت الأمواج الهائلة الآخرين النين كانوا قد دخلوا الأردن قبل القوات الرئيسية وذلك بسبب جهلهم بالمخاضات وغرقوا في النهر ، وهكذا عاد الجيش ، الذي كان قد دخل بآلاف كثيرة ، وهو قوي متفائرا بقدراته المعتمدة على قوة الفرسان عاد إلى بلاده بعدما تحول إلى جيش ضئيل اكتنفه الاضطراب والذعر ، ويروى أن نحو خمسة آلاف من العدو قتلوا في ذلك اليوم .

حدث هذا في اليوم التاسع قبل أول شهر كانون الأول أي في / ٢٣ / تشرين الثاني من العام ١١٥٢ لتجسيد الرب وفي العام التاسع لحكم بلدوين الملك الرابع للقدس (٦١) .

عاد المسيحيون إلى القدس ليقدموا القربان المقدس لصلاة الشكر للرب وهم محملون بأسلاب العدو ويسوقون أمامهم الكثير من الغنائم على شكل قطعان .

٢١ - عودة الملك ونبلاء المملكة إلى عسقلان بهدف اجتياح البساتين التي تحيط بالمدينة . تطويرهم لخططهم الأصلية ومحاصرة المدينة .

أثار هذا الانتصار الذي منحه التأييد السماوي آمال المسيحيين كثيرا ، ولذلك قرروا جميعا ، والرب يوجه أهدافهم ، حسب رغبة الوضيع والعظيم محاولة الحاق الأذى بطريقة ما بأعدائهم الموجودين في تلك المنطقة المجاورة الذين كانوا قد سببوا لهم متاعب خطيرة في أحوال كثيرة ، أي : أهالي مدينة عسقلان .

بدا أن الخطة الأكثر ارضاء للوقت الحالي هي محاولة تدمير البساتين الواقعة في المنطقة المجاورة لمدينة عسقلان بقوة قوية ، وكانت هذه البساتين ذات أهمية كبيرة للسكان ويمكن بهذه الطريقة الحاق بعض الخسارة بالعدو المتغطرس . وجرى - وهذا الهدف بالمخيلة - حشد كافة قوة المملكة بأعداد ضخمة أمام المدينة المذكورة منذ لحظات . وشعروا أن هذه الخطة ستكفي إذا أمكن انجازها بنجاح .

رافقت الرحمة السماوية بشكل مدهش المسيحيين المحتشدين امام تلك المدينة ، وبدأت تدفعهم فجأة إلى أشياء أعظم ولم يكن قد مضى وقت طويل على اتخاذ قواتنا لموقعها أمام المدينة عندما استولى الذعر على سكانها وانسحبوا بسرعة كبيرة إلى داخل المدينة ، ولم يجرؤ أي رجل على المغامرة بالظهور خارج الأسوار لمواجهة جنودنا ، ولذلك قرر المسيحيون وقد استفادوا من حالة الذعر التي سيطرت على العدو أن يحاصروا المدينة توجههم الرحمة السماوية في ذلك ، وجرى على الفور ارسال الرسل إلى كل مكان في المملكة للاعلان عن الخطة التي ألهم الرب بوضعها ولاستدعاء الذين كانوا قد بقوا في منازلهم وأن لا يتأخر أحد عن الحضور في اليوم المحدد .

اجتمع الناس ، الذين تم استدعاؤهم ، بابتهاج ودون تأخير ، وانضموا إلى رفاقهم الذين كانوا قد سبقوهم وخيموا مع الآخرين حول المدينة ، وتعهدوا واحدا تلو الآخر بيمين مهيبة أنهم لن يتخلوا عن الحصار حتى يتم الاستيلاء على المدينة ، وحتى يبقى الجميع مخلصين في مشروعاتهم وبدون تفكير بالتردد ، خيم الملك والبطريك مع بقية نبلاء المملكة العلمانيين والكنيسيين على حد سواء ، وبرفقة شارة صليب الصليب المقدس و المانح للحياة أمام مدينة عسقلان في ظل بشائر ميمونة . وذلك في اليوم الثامن قبل بداية شهر شباط ، (٦٢) وكان ذلك بعدما جرى حشد قوة المملكة كافة ، وبعد اجتماع الناس على هدف واحد.

حضر هذا الحصار رجال الكنيسة التالية أسماؤهم : اللورد فولتشر بطريك القدس ، وبيطرس رئيس أساقفة مدينة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة وفريديك أسقف عكا وجيرالد أسقف بيت لحم ، وحضره بعض رعاة الأديرة أيضا ، كما حضره كل من برنارد دي تريملي مقدم فرسان الداوية وريموند مقدم فرسان الاسبتارية .

وكان من بين الأمراء العلمانيين الحاضرين كل من هيودي ابلين وفيليب صاحب نابلس وهمفري صاحب تيرون ، وسيمون صاحب طبرية وجيرارد صاحب صيدا وغي صاحب بيروت وموريس صاحب مونتريال (الشوبك) ورينو دي شاتليون (أرناط) وولتر أوف سانت أومر ، وقد عمل الأخيران بالدفع لمصلحة الملك (٦٣)

نصبت الخيام ورتبت على شكل دائرة ، وخصصت مراكز محددة ومناسبة لكل شكل ثم انكبوا باخلاص على العمل قيد الاعداد بازالين بحكمة وتعقل الجهود التي كانت تتطلبها مهمة خطيرة من هذا القبيل.

٢٢ - وصف موقع المدينة وتبيان مزاياها

تعتبر عسقلان إحدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وهي واقعة على ساحل البحر على شكل نصف دائرة يمتد قطرها على طول الشاطئ ، بينما يقع قوسها على المنطقة المطلة نحو الشرق ، وتستقر المدينة بأسرها في حوض يميل إلى البحر وتحيط به دفاعات اصطناعية من جميع الجهات ترتفع فوقها الأسوار مع أبراج على مسافات متوالية ، وكلها مشيدة ببناء صلب ملصق مع بعضه بملاط أشد قساوة من الحجر ، كما أن الأسوار واسعة وذات سماكة جيدة وارتفاع مناسب ، وعلاوة على ذلك ، فإن المدينة مطوقة بتحصينات خارجية مبنية بالمتانة ذاتها ، ومحصنة بعناية بالغة ، ولا توجد أية أنهار ضمن حدود الأسوار ولا توجد أية ينابيع مجاورة ، إلا أن الأبار الموجودة خارج المدينة وداخلها تقدم زادا وفيرا من الماء العذب المناسب للشرب ، وكاحتياط اضافي أقام السكان صهاريج في داخل المدينة لتلقي مياه الأمطار .

يوجد أربعة أبواب في محيط السور ، محصنة بقوة بأبراج عالية وضخمة ، ويدعى الباب الأول من هذه الأبواب وهو المواجه للشرق باسم الباب الأكبر ، ويسمى أحيانا باسم باب القدس لأنه موجه نحو مدينة القدس ، ويعلوه برجان عاليان جدا يقدمان حماية قوية للمدينة في الأسفل ، ويوجد في خط الدفاع الأمامي الموجود أمام هذا الباب ثلاثة أو أربعة أبواب صغيرة ينتقل المرء خلالها إلى المدخل الرئيسي بواسطة طرق ملتوية مختلفة .

يواجه الباب الثاني جهة الغرب ، ويعرف باسم باب البحر لأن الناس يحصلون من خلاله على مخرج إلى البحر ، ويقع الباب الثالث إلى الجنوب ويطل على مدينة غزة التي تمت الإشارة إليها آنفا ويشترك اسمه منها . ويسمى الباب الرابع المطل نحو الشمال

بباب يافا اشتقاقا من اسم المدينة المجاورة التي تقع على هذا الساحل نفسه .

هذا ويلاحظ أن عسقلان قائمة في مكان غير موائم وذلك انطلاقا من حقيقة أن موقعها لا يوفر ميناء آمنا للسفن ، والشاطئ رملي جدا والرياح العنيفة تجعل البحر المجاور عاصفا إلى حد أن البحريين إليها لا يقتربون منها إلا في جو هادئ جدا .

كما أن تربة الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالرمل لذلك فهي ليست موائمة للزراعة ، ومع ذلك ، فهي مهيأة بشكل جيد لزراعة الكروم والأشجار المثمرة ، هذا وتوجد بضعة أودية في الشمال تزود سكان المدينة بكميات من الفواكه والخضار وذلك عندما يتم تسميدها بشكل جيد وارواؤها بالماء من الآبار .

يوجد عدد كبير من السكان في تلك المدينة يتلقى الوضع والرفيع منهم ، وحتى الأطفال الرضع ، رواتبا من بيت مال خليفة مصر وذلك حسبما نكرته الروايات المتداولة ، وشعر ذلك الملك وأمرأؤه بقلق بالغ حول عسقلان لأنهم كانوا مبركين أنه إذا سقطت المدينة ووقعت في سلطة المسيحيين فلن يكون هناك شيء يمنع قانتنا من غزو مصر دون عائق والاستيلاء على تلك المملكة بالقوة .

لذلك اتخذوا عسقلان بمثابة حصن وزودوها عن طريق البر والبحر بمساعدة سخية أربع مرات في العام (٦٤) ، فقد كان بإمكان المصريين أنفسهم الاستمتاع بالسلام المذشود طالما صمدت عسقلان وبدد شعبها جهودهم الحماسية عندها ، ولذلك زودوا المدينة بذفقة كبيرة بكل ما هو ضروري وأرسلوا الأسلحة والمواد الغذائية والجذود الجدد على قدرات انتظامية مذكفصلة وكان قلق المصريين إزاء قوتنا المروعة قد خف. لبعض الوقت عندما كن المسيحيون منشغلين في عسقلان

٢٣ - بدء عمليات الحصار . وتعيين قادة في إمرة الأسطول والجيش البري أيضا .

قاومت عسقلان كل المحاولات التي بذلناها وأظهرت نفسها منافسة هائلة لنا لمدة خمسين عاما ونيفا مضت ، بعدما كان الرب قد منح بقية أرض الميعاد إلى أيدي الشعب المسيحي ، وأخيرا قرر المسيحيون تطويق المدينة ، وكان هذا عملا شاقا وشبه مستحيل ، لأن عسقلان كانت محصنة بشكل جيد بالأسوار والحصون الأمامية والأبراج والسدود ومجهزة بكمية ضخمة من الأسلحة والمؤن ، أضف إلى هذا أنه كان فيها عدد كبير من السكان كانوا مدربين بشكل جيد ومتكئين تماما من استخدام الأسلحة ، وبالفعل فإن عدد المدافعين كان ضعف الجيش المحاصر منذ البداية ذاتها وحتى النهاية .

نصب الملك والبطريك وسلفنا رئيس أساقفة صور ، مع رجال عظماء آخرين من المملكة والأمراء وأساقفة الكنيسة وسكان جميع المدن خيمهم على حدة وحاصروا المدينة من ناحية اليسر . ووضع الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمجهز للابحار بقيادة جيرارد صاحب صيدا ، وكان واحدا من نبلاء المملكة العظماء (٢٥) ، وتوجب عليه أن يمنع أي تقدم من البحر وأن يحبط جميع المحاولات للخروج من المدينة أيضا ، وشن شعبنا هجمات على المدينة قام بها الفرسان أحيانا والجنود المشاة أحيانا أخرى بشكل عفوي تقريبا ، لكن سكان المدينة واجهوا هذه المحاولات بشجاعة وقاوموها بقوة ، حيث كانوا يقاتلون دفاعا عن زوجاتهم وأبنائهم ، والأهم من ذلك ، عن حريتهم نفسها ، وكان النصر في هذه الاشتباكات تارة من نصيب السكان ومن نصيب المسيحيين تارة أخرى كما يحدث عادة في ظروف كهذه ، لكن النصر غالبا ما كان من نصيب قواتنا بشكل عام .

وقيل إن أمناً كبيراً ساد في ذلك المعسكر ، كما توفرت فرص كبيرة لشراء جميع أنواع السلع حيث عاش الناس في خيمهم وسراقاتهم كما كانوا معتادين على عمل ذلك في الوطن ، في مدنهم المسورة .

قام سكان المدينة بحراسة مدينتهم بعناية ، خاصة ليلاً ، واستخدمت أبدال الحراس ، وشارك حتى الرجال القادة في المدينة في حراسة الأسوار ، وأمضوا الجزء الأكبر من الليل بلا نوم ، ووضعت مصابيح زجاجية تعمل على الزيت وكانت مزودة بأغلفة شفافة لحماية لهبها على طول الأسوار وعلى شرفات الأبراج ، وأضاعت هذه المصابيح المكان في الليل حتى بدا كالنهار وساعدت الحرس أثناء قيامهم بالجولات على الأسوار .

واحتاط حرس مختلف فرق المعسكر المسيحي لحماية جنودنا أيضاً ، ولم تتوقف الحراسة أبداً لأنه كان يخشى من أن السكان قد يهاجمون المعسكر تحت غطاء الظلام ، وكان هناك خطر من أن المصريين الذين كانوا يحثون الخطى لمساعدة عسقلان قد ينقضون فجأة وبشكل غير متوقع على الجيش وذلك على الرغم من أن عناصر الاستطلاع كانت قد وضعت في مواقع كثيرة حول غزة لتقدم الانذار في الوقت المناسب من تقدم العدو .

٢٤ - عبور حجاج خلال شهر الحصار الثاني ، كان هذا مفيداً جداً ومساعداً على استئناف الحصار .

استمر الحصار لمدة شهرين دون تغيير ، وحدث العبور المألوف في حوالي عيد الفصح حيث جلب أعداداً كبيرة من الحجاج إلى هناك ، وأرسل المسيحيون ، بعد تناولهم مع بعضهم بعضاً ، رسلاً من الجيش يحظرون بأمر من الملك على جميع البحارة والحجاج العودة إلى الوطن ، ووجهت الدعوة إلى الجميع - على أساس دفع

الاجور - للمشاركة في الحصار ، وهو عمل مقبول جدا من الرب (٦٦)، وصدرت الأوامر الى جميع السفن كبيرها وصغيرها بالابحار الى عسقلان. وهكذا وصلت جميع السفن ، التي كانت قد قدمت في ذلك العبور ، الى امام المدينة في غضون ايام قليلة جدا ، بعدما زالت من سرعتها ربح مواتية ، وانضمت الى صفوفنا قوات كبيرة من الحجاج الفرسان والمشاة ، وهكذا ازدادت قوة الجيش يوما بعد يوم ، واصبح السرور في معسكرنا عظيما والامل بنيل النصر كان املا بلا حدود.

وعلى عكس ذلك انتشر القلق والاسى بشكل متزايد دوما بين صفوف العدو ، وبدأت تقل ثقة افرادهم بقوتهم الخاصة وقل ظهورهم للقتال على الرغم من أنهم كانوا قد نحدونا ودعونا للقتال قبل ذلك مرارا. والتمسوا من الخليفة المصري مرارا وتكرارا ارسال المعونة لهم بالسرعة الممكنة ، والا لا بد لهم من الاستسلام حالا ، وبناء عليه اتخذ الخليفة اجراءات فعالة لنجدتهم ، وأمر الأعيان المسؤولين عن عمل كهذا ب تجهيز اسطول وجمع الجيش ، وحمل السفن الطويلة بالأسلحة والمؤن والآلات الحربية ، وعين القنابة واحتياط للمستلزمات الضرورية وحث في تلك الأثناء على السرعة وأنب على التأخير.

كان المسيحيون في هذه الأثناء قد اشتروا سفنا بمبالغ كبيرة وازالوا سواريتها ، ثم جرى استدعاء الصناع وصدرت اليهم الأوامر ببناء برج عال جدا من الخشب ، وتمت حماية هذا البرج بعناية من خطر الحريق وحوادث مشؤومة أخرى بواسطة الستائر المجدولة وجلود الحيوانات المدبوغة من الداخل والخارج على حد سواء بحيث يكون المقاتلون النين توجب عليهم مهاجمة المدينة سالمين تماما ، واستخدمت المواد الخشبية الزائدة عن السفن لانشاء آلات القذف التي وضعت بعدئذ في مواضع استراتيجية لقصف

الأسوار ، كما صنعت أيضا السقائف المغطاة من المادة نفسها بحيث يمكن ، تحت حمايتها ، الاقتراب من السدود وتدميرها بسلام ، وجرى إعداد جميع هذه الاستعدادات بشكل موثم ثم حدد بعناية تعيين قطاع السور الذي يمكن أن تطبق عليه آلات القذف الحربية بسهولة أكبر ، وبعدها تم تدمير الجزء الأكبر من السد كما ذكرت آنفا نقل البرج مصحوبا بصيحات عالية ، وألصق بالأسوار ، وأمكن الحصول من قمة البرج على منظر للمدينة بأسرها ، ونشب قتال متلاحم مع المدافعين الموجودين في الأبراج المجاورة ، هذا ، واستخدم سكان المدينة الآن قسيهم وسهامهم بشجاعة وإصرار من الأسوار تارة ومن المتاريس أحيانا لانهاك المحجوبين في داخل الأبراج المتحركة ، غير أن جميع جهودهم كانت عقيمة لأنهم لم يتمكنوا من الحاق الأذى بالذين كانوا يدفعون الآلة الحربية الى الأمام ، ثم احتشد عدد ضخم من المدافعين عند جزء السور المقابل للبرج ، وصدرت الأوامر الى الأشخاص الأكثر شجاعة بينهم باختبار قوتهم هنالك في قتال مستمر الى جانب المهاجمين الموجودين في البرج المتحرك .

وتواصل في الوقت نفسه القتال المستمر في مواقع مختلفة ومن مكان الى آخر على طول الأسوار ، ونادرا ما مر يوم دون أن تقع مجزرة ، وذلك بصرف النظر عن عدد الجرحى الكبير في الجانبين ، ولقد سمعنا قصصا عن أعمال بارزة قام بها بعض الأفراد في ذلك الحصار ، وعن الشجاعة الملحوظة التي أظهرها العدو والمسيحيون ، غير أنه لا يمكن إعطاء سوى اهتمام بسيط لحوادث من هذا النوع لأننا ندون تاريخا عاما .

٢٥- وصول الأسطول المصري الى عسقلان خلال الشهر الخامس من الحصار ، وهو حدث قدم مواساة كبيرة للمحاصرين .

صمد قانتنا لمدة خمسة أشهر متتالية في الحصار ، وكانت قوة العدو قد بدأت تضعف بعض الشيء بشكل واضح ، وبدأت إمكانية الاستيلاء على المدينة أكثر اشراقا مما هو مألوف عندما ظهر الأسطول المصري فجأة أمام المدينة بعدما حملته ربح مواتية ، ورفع أهالي عسقلان أيديهم الى السماء عندما رأوا الأسطول وصرخوا بصيحات عالية أن المسيحيين سيتراجعون الآن أو سيهلكون على الفور ، وعندما لاحظ جيراد صاحب صيدا قائد الأسطول المسيحي ان السفن تقترب من المدينة حاول إعاقه تقدمها بمهاجمتها بعدد صغير من الشواني التي كان يقودها ، الا انه انعطف في آخر الأمر راجعا بعدما أرعبته أعداد العدو الكبيرة ، ثم لاذ بالفرار حرصا على حياته وسلامته .

أبحرت قوات العدو بشجاعة الى المدينة وهي تحمل المساعدة للمحاصرين التي تأجلت لفترة طويلة من الزمن ، وكان الأسطول ، حسب مذكرته إحدى الروايات ، مؤلفا من سبعين شينى وبعض السفن الأخرى المحملة الى الحد الأقصى بالجند والأسلحة والمواد الغذائية ، وكانت السفن ذات حجم ضخم أرسلها الخليفة المصري ، المذكور آنفا ، لمساعدة المدينة ، وبدأ العدو ، الذي تعزز بهذا الشكل ، يقوم بأعمال القتال مجددا وتحدانا الآن بقوة متجددة وبشجاعة أكثر ويتكرر للقتال ، وكان السكان أنفسهم الذين عرفوا تماما شجاعة جنودنا حزين الى حد ما ، غير أن العناصر الأكثر قسوة والقادمين الجدد كانوا متعطشين لتحقيق المجد وتلفوا لظهار قوتهم وشجاعتهم فاندفعوا الى القتال دون حذر فقتلوا بأعداد كبيرة حتى تعلموا تسديد هجماتهم بحذر

أكثر ، وتحمل هجماتنا بهدوء أكبر بعدما امتحنوا الشجاعة الثابتة للمسيحيين .

٢٦- زواج كوندستازس أميرة انطاكية من رينودي شاتليون (أرناط) . استيلاء نور الدين على مملكة دمشق بالقوة . تعيين أمالرك في كنيسة صيدا .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في المعسكر أمام عسقلان أقدمت السيدة كوندستازس أرملة ريموند أمير انطاكية التي كانت على غرار عادة النسوة قد رفضت قبول العديد من النبلاء البارزين ، أقدمت سرا على الزواج من أرناط ، الذي كان فارسا مرتزقا في خدمة الملك ، هذا ويلاحظ أنها لم ترغب بإعلان هذا الزواج على الملاحظين تكون قد ضمنت قرار الملك ابن خالتها وموافقته حيث كانت إمارتها تقع تحت حمايته ، وبناء عليه أسرع أرناط الى الجيش لينقل نيتها الى الملك ، وعاد الى انطاكية بعد ان حصل على موافقته وتزوج الأميرة ، ومع ذلك ، فقد دهش كثيرون من رؤية امرأة بارزة جدا ومشهورة وقوية تتنازل بعدما كانت زوجة لرجل بارز جدا ، ففتزوج من فارس عادي (١) .

علم في هذه الآونة نور الدين ، الرجل العاقل والنافذ البصيرة ، بوفاة أنر (٦٨) والد زوجته . وكان هذا الرجل البارز الذي كان قائدا عاما للجيش الدمشقي ومديرا لأمور الملك ، قد قاوم بقوة جميع مشاريع زوج ابنته ، وكان نور الدين عارفا ان ملك القدس كان منشغلا مع جميع فرسان المنطقة في محاصرة عسقلان لفترة من الزمن ، وشعر بثقة أن بلنوين لن يتخلى عن ذلك المشروع تلقائيا للاستجابة لناشدة الدمشقيين لمساعدتهم ضده . وهكذا انتهز الفرصة وزحف الى دمشق بجيش كبير للاستيلاء على المملكة بقوة ، هذا وقد استقبله الناس بتأييد واستسلموا له طوعا لأنه

أطاح بحاكمهم ، حيث كان رجلا فاسقا وتافها ، وأجبره على الفرار الى الشرق فأصبح لاجئا ومنفيا على سطح الأرض ، وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لأنه كما قيل : « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » (٦٩) وتبعاً للكلمات مخلصنا تميل معالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك .

ورغب نور الدين بعدما استولى على دمشق وأخضع المنطقة المجاورة بأسرها ، أن يساعد عسقلان بالقدر الممكن له ، من مسافة كهذه ، فأقدم على حصار مدينة بانياس مستفيدا من انشغال المسيحيين ، حيث كانت تقع هذه المدينة عند الحد الأقصى للمملكة ، وأمل أن شعبنا سيتخلى عن حصاره لمدينة عسقلان عند استدعائه لنجدة مدينة بانياس المحاصرة ، غير أن آماله العظيمة لم تتحقق برحمة الرب التي كانت توجهها ، ولم تنجح أي من مشاريعه أيضا لأنه أخفق في حصاره لمدينة بانياس ، وأجبر المسيحيون مدينة عسقلان على الاستسلام بمعونة الرب (٧٠) .

توفي في هذه الآونة أيضا برنارد أسقف صيدا ذو الذكرى المباركة وعين أمالك ذو الذكرى الورعة في الرب عوضا عنه ، وكان أمالك راعي الكهنة النظاميين لرهبة بريموذستراتينياس في دير القديس جوزيف أوف أريماثيا ، وكان رجلا مخلصا يخاف الله وصاحب حياة ورعة ، وحيث أنه لم يكن ليسمح لأي امرئ بالذهاب الى مسافة بعيدة عن المدينة المحاصرة ، فإنه تلقى كما يقال منحة الترسيم في الكنيسة في اللد على يدي بطرس رئيس أساقفة صور ذي الذكرى الموقرة .

٢٧- المحاصرون يشنون هجوما عنيفا على المدينة . السكان يحاولون إحراق الآلة الحربية الموجودة خارج الأسوار . انهيار جزء من سور المدينة . مقتل بعض المسيحيين أثناء محاولتهم الاندفاع الى المدينة . جيشنا يتخلى عن الأمل .

وأخذ في هذه الأثناء الذين كانوا مذغولين في هذه الحملة مشروعهم بقوة كبيرة واستأنفوا شن هجمات شديدة على المدينة دون انقطاع ، وكان هذا هو الوضع السائد بشكل خاص حول الباب الكبير ، كما كان يسمى ، حيث تجددت الهجمات مرارا وتكرارا مع نتائج ذات شؤم شديد على السكان ، وهدد وابل الصخور الضخمة المقنوفة من آلات القذف الحربية بإضعاف الأسوار والأبراج وبذسف المنازل عن بكرة أبيها داخل المدينة ، وكانت المذبحة الناجمة مذبحة كبيرة ، كما أحدث الجنود الموجودون ضمن البرج المتحرك إبادة كبيرة بقسيتهم وسهامهم ليس على المدافعين الذين كانوا يقاومونهم من قمة الأبراج والأسوار فقط ، بل أيضا على الذين اضطروا بحكم الضرورة للتحرك حول المدينة ، وبدت المحن التي تحملها السكان في مواقع أخرى مهما كانت شاقة ، محنا خفيفة بالمقارنة مع المصائب التي انصبت عليهم من هذا البرج .

ولهذا تداولوا فيما بينهم وصمموا على تدمير تلك الآلة الحربية مهما كان الخطر وكانت المغامرة مستفيدين بذلك بشكل خاص من نصيحة الذين كانت لهم تجربة كبيرة في مسائل من هذا النوع ، واستلزم الأمر القاء الأخشاب الجافة ومادة أخرى موائمة لاضرام النيران وتأجيج السنة اللهب بين السور والبرج ، وتوجب احراق هذه المواد خلصة فيحترق البرج ، وكان قد بدا أنه لا يوجد أي أمل آخر كما لم تبق لديهم الشجاعة للمقاومة لفترة أكثر من ذلك ، حيث سقطوا الآن الى هاوية اليأس .

استجاب بعض الرجال الشجعان المشهورين بقوتهم وإقدامهم رجالا كانوا قد اعتبروا سلامة أبناء مدينتهم أهم من سلامتهم ، للمناشدة على الفور وعرضوا أنفسهم للقيام بالمهمة الخطرة ، ونقل الخشب الى قسم السور الذي كان في الموقع الأكثر قربا للبرج والقي في الفراغ الموجود في الخارج بين السور والآلة الحربية ، وبعدما كدسوا كومة كبيرة من الحطب كانت كافية بتقديرهم لاحتراق البرج ، صبوا القار عليها والزيت وسوائل أخرى تزيد الحريق وأي شيء سيزيد من عنف الحريق ، وما أن أشعلوا النيران حتى تحولت الرحمة السماوية نحونا لأنه بالرغم من أن السنة النيران ازدادت كلها نحو الأسوار ، ثم دفعت هذه الرياح بضراوتها الخاصة الناس الى السور ، وتولت عاصفة متواصلة استمرت طوال الليل تحويل السور الى رماد ، وفي حوالي الفجر انهار جزء كامل من السور واقع بين البرجين وأحدث ضجة أيقظت الجيش بأسره .

واصطدمت الكتلة عندما سقطت بالبرج بقوة كبيرة لدرجة أن بعض الأجزاء الضرورية من الآلة الحربية ، التي لم تتمكن النيران الحربية من إلحاق الأذى بها ، قد تحطمت ، وسقط الحرس ، الذين كانوا يقومون بواجبهم على سطح البرج وفي المناطق البارزة منه ، الى الأرض تقريبا ، فأمسك الجيش بأسره بأسلحته بعدما أيقظه صوت الانهيار ، وانذفع الى الموقع وهو متلهف للدخول حالا وكأنما السماء قد فتحت مدخلا له . وكان برنارد دي ترميلي مقدم الداوية قد وصل مع أخوانه الى هناك قبل البقية بسوقت كبيرة واستولى على الفتحة ، ولم يسمح لأحد غير جنوده بدخولها ، واتهم بأنه أقصى الباقيين حتى يتمكن شعبه من الحصول على الجزء الأكبر والأثمن من الأسلاب والغنائم (٧١) ، كونه أول من دخل الفجوة ، لأن العادة حولت الأمر قانونا بين المسيحيين حتى يومنا هذا أنه عندما يتم الاستيلاء بهجوم على المدينة ، فإن أي شيء يستولي المرء عليه لدى الدخول يستطيع أن يحتفظ به بحق دائم

لنفسه وورثته ، ولو كان الجميع قد دخلوا في فرصة واحدة ، لا يمكن الاستيلاء على المدينة ولكانت المغانم كافية للجميع ، لكن « من النادر أن تكون هنالك نهاية حميدة لمشروع سيء في بدايته وفاسد في غايته » لأن « المكسب المحقق بطريقة غير شريفة لا ينتج نتائج جيدة (٧٢) » لقد رفضوا بسبب الطمع أن يسمحوا لرفاقهم أن يشاركوهم في الغنيمة ، ولذلك تحملوا بعدل خطر الموت وحدهم ، حيث لم يدخل سوى حوالي الأربعين رجلا ولم يتمكن الباقون من اللحاق بهم .

كان السكان حتى هذا الحين قد خافوا على أرواحهم بالذات وكانوا مستعدين لتحمل اجراءات شديدة ببدون مقاومة ، لكنهم انقضوا على هؤلاء الجنود الأربعين بعدما أركوا أنهم انعزلوا عن رفاقهم وهاجموهم بقوة وشجاعة متجدتين وقتلوهم ، ثم حشدوا قواتهم وأمسكوا بالأسلحة وكأنما بعثت الشجاعة فيهم مجددا بعدما كانوا قد تخلوا عنها وكأنهم قد هزموا ، واندفعوا جميعهم الى الموقع الذي كان السور قد انهار فيه وسدوا الثغرة هناك بربط عوارض عملاقة مع كتل خشبية ضخمة مما وفرت السفن مقدارا كبيرا منه ، وجعلوا الموقع منيعا بحماسة بالغة .

ثم استعدوا للمعركة وجددوا القتال بعد أن عززوا الأبراج الواقعة بجانب المنطقة المحروقة على الجانبين ، والتي كانوا قد تخلوا عنها بسبب السنة النيران العنيفة ، وتحذونا للقتال طسوعا منهم وكأنهم نسوا الهزائم السابقة التي ألحقت بهم ، هذا ولما شعر المقاتلون الموجودون في البرج والعارفون أن أسسه قد وضعت وأن الجزء السفلي من الاطار الصلب قد اصيب بأضرار بالغة فقدوا الثقة وحاربوا بالتالي بقوة قليلة .

ولكي يحطم الأعداء معنوياتنا علقوا جثث قتلانا بالحبال من شرفات السور وأظهروا الابتهاج الذي كانوا يشعرون به باطلاق كلمات واشارات السخرية ، غير أن حزنا عميقا حل بسرعة محل

- ٣١٣٥ -

هذا الابتهاج ، وأظهرت الحوادث التي تلت بوضوح كم هو صحيح
المقول القائل : « قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ
الروح » (٧٣)

وعلى العكس ، كان المسيحيون مقهورين عقلا وقلبا ، وتغلب
الحزن عليهم ، وضعفت أرائهم بمرارة الروح ، وفقدوا كل أمل
بانتصار جوهرى .

٢٨- المسيحيون يطمئنون مجددا . ويتشجعون
لمواصلة الحصار ويثابرون بحماسة أكبر من قبل .

في هذه الاثناء جمع الملك الزعماء بعدما روعته الكارثة
الفظيعة ، وعندما اجتمعوا في خيمته (وكان من بينهم البسطريك
ورئيس اساقفة صور ومطارنة الكنيسة والآخرين) وضع أمامهم
صليب الصليبات المانح للحياة واستفسر بقلق عما يجب عمله في مثل
هذا التغير الكبير للحظ ، وعندما كانوا يتداولون بقلق بالغ ،
وبخوف من الرب نشأ انقسام بالرأي شطر المؤتمر الى فريقين حيث
أكد بعض المشككين بقوتهم للفوز بالمدينة وبينوا انهم كانوا
قد ضيعوا جهودهم عبثا لفترة طويلة من الزمن هناك ، وكانت
قواتهم قد قتلت بأعداد كبيرة وجرح القادة أو أسروا ونفدت حتى
مواردهم ، وأكثروا أن المدينة كانت منيعة وأنه كان لدى السكان
وفرة من كل السلع ، وأن قواتهم تتجدد باستمرار بينما كانت قواتنا
تضعف ، ونصحوا بالعودة .

وأثار آخرون ، كانوا ذوي تفكير أرشد بالمشاورة أمليين برحمة
الرب الذي لم يكن راغبا بالتخلي عن الذين كانوا يثقون به بصبر
ورع ، وقالوا أنه مامن فائدة بالنسبة لأي مشروع له بداية جيدة
مالم يصل الى نهاية مشابهة ، فقد تم بالفعل استخدام وقت كبير

ونفقة عالية ، الا ان ذلك كان مع الامل بتحقيق جزاء أكثر وفرة لم يحرمهم الرب منه على الرغم من أنه بدا مؤجلا ، لقد انهزمت قواتهم بالفعل ، ومع ذلك فقد بقي لديهم الامل في انهم سيجدون بعثا متألفا لأن الوعد للمؤمنين هو : « سيتحول حزنكم الى فرح (٧٤) » و « اسألوا تعطوا » (٧٥) ونصحوا ، وهم يفكرون بهذه الطريقة ، بعدم العودة وناضلوا لاقناع المسيحيين بالمواظبة كجنود اقوياء في هذه المهمة ، وايد غالبية الامراء المدنيين رأي الزمرة الاولى ، وبدا الملك أنه ميال نحو ذلك الرأي أيضا بعدما أرهقه القدر المعاكس .

واتفق مع الزمرة المعاكسة كل من البطريرك ورئيس اساقفة صور وجميع الكهنة وأيضا ريموند مقدم الاسبتارية مع اخوانه .

وهكذا ، انقسم الاجتماع وقسم الجميع حججا متنوعة تؤيد الآراء المعاكسة ، غير أن الرحمة السماوية الموجودة معهم دائما ، جعلت رأي البطريرك يفوز لأنه بدا له ميزة كبرى ووعد بتحقيق مجد اكبر (٧٦) ، ولذلك تقرر بالاجماع العودة الى الرب والمثابرة على المهمة التي كانوا قد باشرها حتى يزورهم ضوء النهار وينظر بتأييد الى اعمالهم بعد التماسهم المساعدة من السماء.

وبناء عليه ، أمسك الجميع وهم مجموعون على هدف واحد ، بأسلحتهم ، وأمرؤا الأبواق أن تعلن الاشارة وهم عائدون الى المهمة قيد الاعداد ، واستدعت دعوة البوق مع صوت المناادي فورا جميع الناس الى المعركة ، وحيث كان الناس متلهفين للانتقام لمظالم اخوانهم القتلى ، فقد اجتمعوا امام المدينة بانتقاد غريب وتحذوا العدو للمعركة بنهم ، ولدى معاينة صفوفنا ، بدت وكأنها لم تكابد أية خسارة ، أو كانت قد تلقت تعزيزات جديدة على الاقل ، فاستولى على المسيحيين غضب جنوني لآبادة العدو وانقضوا على أفرادهم وهاجموهم بعنف شديد لدرجة أن العدو أصيب

بالدهشة وصعق ازاء الليل على قوتنا التي لا تقهر ومواظبتنا التي لا تغلب ، وكانت جميع الجهود التي بذلها العدو عقيمة على الرغم من انه بذل جهودا يائسة للثأر بطريقة مماثلة ، لأنه لم يتمكن من الصمود أمام صدمة جنودنا ولأن يتجنب سيوفهم ، لقد نشبت معركة ذلك اليوم بين قوى غير متكافئة على الإطلاق ، غير أن الفرسان والجنود المشاة فازوا بأكاليل غار النصر وانتصروا على العدو في جميع المواقع .

وهكذا وقعت مجزرة كبيرة بين صفوف العدو ، وجرى تعويض الخسارة ، التي كابدها المسيحيون قبل ثلاثة ايام ، بمقادير مضاعفة كثيرا ، فنادرا ما كانت هناك اية أسيرة في المدينة لم يصب افرادها بكرب عميق ، وامتألت المدينة بالفوضى ، وبدأت المحن التي تمت معاناتها من قبل محنا خفيفة بالمقارنة مع الخطر الحالي ، ولم يكونوا قد أصيبوا بكوارث مماثلة في أي وقت منذ بداية الحصار وحتى ذلك اليوم ، كما لم يكونوا قد تحملوا خسائر مماثلة أبدا ، فقد أبيدت صفوف مملكتهم وقتل حكام المدينة وبناتوا في عوز الى الرأي ، وتناقصت شجاعتهم وتلاشى كل الأمل بالمقاومة .

وهكذا تم ارسال عدد من قانتهم الرئيسيين الى الملك بموافقة عامة كسفراء ، وتوجب عليهم ان يطلبوا التوصل الى هدنة مؤقتة من اجل تبادل جثث القتلى وليتمكن الجانبان من الحصول على الفرصة وكل حسب عاقبته - لاقامة المراسم النهائية لأعمال دفن موائمة .

وافق المسيحيون على الشروط المعروفة ، وجرى تبادل جثث القتلى وبلغت باحتفالات مهيبه .

٢٩ - استسلام أهالي عسقلان لليأس ، وتقديرهم بالاجماع الاستسلام :

عندما رأى أهالي عسقلان الدليل على المجزرة التي تعرض لها
حشدتهم وأبركوا وعرفوا مدى القوة التي أرسلها الرب ضدهم تجدد
حزنهم وازداد زعر قلوبهم وتلاشت شجاعتهم بمقدار حجم محنهم .
وعلاوة على ذلك ، ولكي تتوج المحن التي أصيبوا بها ، نزلت بهم
كارثة أخرى في ذلك اليوم ، فقد حدث أن أربعين جندياً من جنودهم
الشجعان كانوا يسحبون عارضة ضخمة إلى موقع كان بحاجة إليها
عندما سقطت صخرة ضخمة كانت مقنوفة من آلة القذف الحربية ،
التي كانت عندنا ، على العارضة وسحقها تماماً مع الجنود الذين
كانوا ينقلونها .

ثم جمع زعماء المدينة الباقون على قيد الحياة الناس مع بعضهم
بعضاً وهم يشعرون بالمرارة في أفئدتهم ويناضلون تحت عبء المحن
الثقيلة ، فاجتمعوا وهم يكون ويطلقون صيحات العويل ، وكان بين
الحشد نسوة ضمن أطفالهن إلى صدورهن ، ورجال ضعفاء
مسنون كانوا يلفظون أنفاسهم ، ثم تحدث بناء على موافقة الجميع
بعض الرجال الحكماء والأعيان إلى الناس المجتمعين على النحو
التالي : « تعرفون يا أهالي عسقلان ، أنتم الذين تقيمون وراء هذه
الأبواب ، وما من أحد يعرف أفضل منكم ، كيف كنا قد خضنا كفاحاً
خطيراً وصعباً لمدة خمسين عاماً ضد هؤلاء الناس المروعين
والمصرين على هدفهم ، وتعرفون تماماً وبتجربة فعلية كم مرة
أطاحوا بزعمائنا في المعركة ، وكم مرة جدد أبناؤنا الكفاح لرد أذاهم
بعدما أخذوا مواقع آبائهم ، ودفعنا في ذلك دائماً الأمل بالمحافظة
على هذا الموقع الذي ترعرعنا فيه ، وبالدفاع عن زوجاتنا وأبنائنا
وعن الفضيلة الأعظم بكثير ألا وهي الحرية ، لقد استمر هذا الكفاح
لمدة أربع وأربعين سنة ، منذ الوقت الذي باغتنا فيه ذلك الشعب

المزعج جدا بالنسبة لنا ، والذي قدم من أبعد مناطق الغرب واستولى بقبضة قوية ويعنف على المنطقة بأسرها شروعا من طرسوس في كليكية وحتى مصر ، وبقيت هذه المدينة وحدها وبسبب الجهود الشجاعة التي بذلها أجداننا سليمة في وسط أعداء أقوياء كهؤلاء حتى اليوم الحالي ، إلا أنه يمكن اعتبار المخاطر التي كابدناها حتى الوقت الحالي مخاطر صغيرة أو لا شيء عند مقارنتها مع المخاطر التي تهددنا الآن ، وجميعنا عاقبون العزم على المقاومة حتى الآن ، إلا أن الجيش قد هلك ونفدت المؤن وعبء المشقات الثقيل لا يحتمل ، كما أن حشود العدو القوي مستعدة دائما ومواظبة للغاية ، وقد أضعفت غاراتهم المستمرة قوتنا العقلية والجسدية على حد سواء ، وحرمتنا من القوة لمواصلة النضال .

« وبناء عليه يبدو من الموائم لزعماء عسقلان ، أن توافقوا أنتم أيضا ، في أن نحاول تخليص أنفسنا من معاناتنا الحالية في هذا الوقت ، ولنرسل مبعوثين باسم جميع الناس إلى ذلك الملك القوي الذي يحاصرنا ، ولنبدل الجهود في إسبيل الحصول على شروط محددة بالآن لنا بالرحيل بحرية مع زوجاتنا وأبنائنا وعبيدنا وامائنا وجميع ما نمتلك ، وسنوافق من جانبنا بالمقابل على تسليم المدينة له - إننا نقول هذه الكلمات بحزن - لننهي هذه المحن الرهيبة » (٧٧) .

٣٠ - إرسال مندوبين مختارين من الرجال القياديين إلى الملك . حصولهم منه على إذن بالرحيل بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم وجميع ممتلكاتهم . تسليم المدينة .

بدا هذا الخطاب جيدا في نظر الجميع ، وتمت الموافقة عليه بصيحات الموافقة العالية كما هو مألوف في ظروف كهذه ، واختير

رجال حكماء وعقلاء ونور مظهر موقر ومبجل من الشعب لينقلوا إلى الملك ونبلائه الاقتراح الذي كانوا قد توصلوا إليه ، وانطلق هؤلاء المندوبون من الباب عندما استلموا الاذن بالتقدم واقتربوا من حضرة الملك .

عندما اجتمع الامراء جميعا استجابة لطلب المبعوثين ، وضع الاقتراح امامهم وشرحت الشروط التي وضعت بالتفصيل ، ثم طلب من المندوبين الانسحاب لفترة من الزمن بينما يتشاور الملك مع مستشاريه القيايين ، ويستمع إلى آرائهم حول عرضهم ، وقد انفجروا بدموع الفرح وردوا بعيون وأيدي مرفوعة عاليا إلى السماء بالشكر العميق لخالقهم الذي تفضل بمنحهم معروفا وافرا كهذا ، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك .

ثم جرى استدعاء الرسل ، وقدمت لهم اجابة جماعية ، في أنه ستقبل الشروط التي عرضت إذا ما قاموا بإخلاء المدينة بأسرها في غضون الايام الثلاثة القادمة ، ووافق المبعوثون على هذه الشروط ، وطلبوا تأكيدها بأداء يمين لاعطاء القوة الكافية للاتفاقية ، وهكذا أدي قسم بإجلال لائق ، ووعد الملك وبعض خيرة نبلائه بأنهم سينفذون جميع شروط الاتفاق المذكور من قبل بإخلاص ودون نوايا شريرة ، ثم سلموا الرهائن التي كان الملك قد طالب بها بالذات ، وعادوا إلى ديارهم بابتهاج ، ورافقهم عدد من الفرسان المسيحيين ليضعوا راية الملك فوق البرج العلوي في المدينة كعلامة على النصر .

عندما رأى جيشنا - الذي كان ينتظر بتوقع وتلهف - الرايات الملكية ترفرف من الأبراج العلوية انفجروا بصراخ صدر عن الجماعة المسرورة ، وارتفعت صيحات الشكر إلى السماء ترافقها الدموع وكأنها صادرة عن صوت واحد يقول : « تبارك الرب الذي لم يتخل عن الذين وثقوا به ، وتبارك اسم جلالته المقدسة لأننا شاهدنا أشياء رائعة اليوم » .

وعلى الرغم من أن أهالي عسقلان حصلوا ، حسب الاتفاقية ، على هدنة لمدة ثلاثة أيام متتالية ، إلا أنهم خافوا كثيرا من وجود المسيحيين ، لذلك أتموا جميع استعداداتهم في غضون يومين ، ثم استعدوا للرحلة وانطلقوا مع زوجاتهم وابنائهم وعبيدهم وجواريهم وكافة أنواع ممتلكاتهم ، وزودهم الملك ، حسب الاتفاق ، بالمرشدين حتى مدينة العريش القديمة الواقعة في الصحراء وأرسلهم بأمان .

ثم إن الملك والبطريرك بمرافقة أمراء المملكة الآخرين ومطارنة الكنيسة مع جميع الكهنة وسائر الناس دخلوا المدينة بالتراتيل والانشيد الروحية وبقيادة صليب الصلبوت ، ونقل الصليب إلى المسجد الرئيسي للمسلمين وكان مبنى فائق الجمال تم تكريسه فيما بعد على اسم الرسول بولص تشريفا لذكراه ، وانسحب الجميع إلى الأحياء المخصصة لهم بعدما احتفلوا بالطقوس السماوية وقدموا صلوات الشكر هناك ، وأمضوا يوما بهيجا وجديرا بأن يذكر إلى الأبد (٧٨) .

ونظم البطريرك في غضون أيام قليلة بعد ذلك الكنيسة في عسقلان ، وعين هناك عددا محددا من الكهنة وخصهم بدخل ثابت حمل اسم أوقاف كنسية ، كما عين أسقفًا لمدينة عسقلان شخصا يدعى أبسالوم وكان كاهنا نظاميا في كنيسة قبر المسيح على الرغم من أن جيرالد أسقف بيت لحم احتج بقوة ضد هذا التعيين وحرم تنفيذه ، ثم أحييت القضية بدعوى استئناف إلى البابا في روما ، فعزل البابا الأسقف الذي عينه البطريرك ومنح لاسقف بيت لحم الكنيسة الموجوبة في عسقلان مع سائر ممتلكاتها ليحتفظ بها وبالكنيسة في بيت لحم بحق دائم (٧٩)

وتلبية لنصيحة والدته ، وزع الملك الممتلكات الواقعة داخل المدينة وخارجها مع المناطق التابعة لها مباشرة على أولئك الذين كانوا يستحقونها عن جدارة ، وباع قسما منها الى بعضهم (٨٠) ووهب

- ٣١٤٢ -

بسخاء مدينة عسقلان الى أخيه عموري كونت يافا. لقد تم الاستيلاء على عسقلان في الثاني عشر من شهر آب في العام ١١٥٤ لتجسيد الرب وفي العام العاشر لحكم الملك بلدوين الثالث (٨١).

حلت كارثة محزنة بسكان مدينة عسقلان التعسة أثناء رحلتهم الى مصر ، فعندما رحل الجنود الذين كان الملك قد عينهم ليرشدوهم في طريقهم وليمنعوا من التحرش بهم من أي كان ، فقد هاجم النازحين شخص يدعى «نوقونيوس » وهو تركي الأصل ، وكان قويا باستخدام السلاح إلا أنه كان صاحب حياة شريرة وغير مخلص على الاطلاق ، وكان هذا الرجل قد شاركهم مشقاتهم ، وكان قد حارب معهم لفترة طويلة من الزمن بشكل مأجور ، وتظاهر بأنه رغب بمرافقتهم في الرحلة الى مصر ، الا أنه عندما رأى أن المرشدين قد تركوهم ، رمى بازدراء جانبا جميع النوايا الطيبة والصفات الانسانية وهجم عليهم ، ثم رحل بعد أن سلبهم جميع ممتلكاتهم وتركهم يجوبون في الصحراء (٨٢) .

انتهى الكتاب السابع عشر

الكتاب الثامن عشر

القدس اللاتينية في أوجها في ظل بلدوين الثالث:
الانجذاب نحو مصر.

١ - أرناط يسيء معاملة بطريرك أنطاكية بشكل
معيب ، التجاء البطريرك الى المملكة. انتشار مجاعة
خطيرة في المنطقة.

كان أرناط قد تزوج من أرملة ريموند أمير أنطاكية ، كما ذكرت
ذلك من قبل ، وكان قد أدرك منذ البداية أن هذا الزواج لم يكن
مرضيا للبطريرك ، وبالنظر لاستمرار البطريرك بالاصرار على
الموقف ذاته ، فقد نظر أرناط بارتياح الى كل ما يفعله (٨٢) كما أن
البطريرك ، الذي كان قويا وثريا جدا والذي كان يتمتع بسلطة
متفوقة عبر بحرية مرارا عن آرائه علنا ، وخاصة حول أرناط
وأفعاله ، وكما هو الحال كالمعتاد فقد قام أشخاص - سعوا لزيادة
الكراهية بين الأمير والبطريرك - بنقل هذه التعليقات الى
الأمير ، وهكذا استشاط أرناط غيظا وغضب غضبا شديدا ، وأمر
باعتقال البطريرك ، ونقله بشكل مهين الى القلعة التي تطل على
أنطاكية ، ثم ارتكب عملا بغیضا للغاية بأن أجبر البطريرك ،
المسن ، خليفة بطرس رئيس الرسل ، وعلى الرغم من أنه كان
مريضا لدرجة أن الأمل في شفائه يكاد أن يكون معدوما ، أمره أن
يجلس تحت الشمس الملتهبة طوال يوم من أيام الصيف ورأسه
المكشوف مغطى بالعسل ، ولم يقدم له أحد ، من أجل التقوى ، أية
نجدة من أشعة الشمس القاسية أو حاول أن يبعد الذباب عنه.

عندما وصل نبأ هذه الإهانة الى ملك القدس ، تملكه الرعب

- ٣١٤٤ -

والغضب إزاء التصرف الجنوني للأمير الأحق ، وبما أنه لم يتمالك نفسه من الغضب ، فقد أرسل الى أرناط اثنين من المبعوثين المبجلين هما: فريديريك أسقف عكا والمستشار رالف ، حملا له رسالة أنب فيها الملك - استنادا لسلطته الملكية - الأمير لعمله الشائن وحذره وطالبه بالعدول عن أساليبه الشريرة ، وأطلق الأمير ، بعد استماعه للرسولين وقراءة رسالة الملك ، سراح البطريرك بعدما أمطره بوابل من الشتائم ، وأعيدت أيضا الممتلكات التي كانت قد أخذت من البطريرك وشعبه ، هذا وغادر في نهاية الأمر البطريرك منطقة انطاكية ، وذهب الى مملكة القدس فاستقبله الملك وزوجته والدته بصدر رحب ، واستقبله أيضا البطريرك وجميع أساقفة المملكة وبقي هناك لعدة سنوات.

انتشرت في العام اللاحق مجاعة خطيرة في سائر المنطقة (٨٤) ، فقد أزال الرب المتلىء بالحقد نحنسونا دعامتنا الأساسية ، أي الخبز ، الى درجة بيع مكيال القمح بأربع قطع ذهبية ، وفي الواقع ، لو لم يكن قد تم العثور على كميات كبيرة من الحبوب في عسقلان عندما تم الاستيلاء عليها ، لاجتاحت المجاعة المنطقة ولهلك جميع الناس تقريبا ، لقد بقيت الحقول الواقعة حول عسقلان بدون زراعة لمدة خمسين عاما بسبب الخوف من الحروب ، إلا أن المنطقة أصبحت تحت رعاية المزارعين خلال الأعوام اللاحقة للاستيلاء عليها ، وتمكن أهالي تلك المنطقة من زراعة الأرض بحرية بعدما تخلصوا من الخوف من العدو ، وهكذا نعمت المملكة بأسرها بوفرة كبيرة الى حد يمكن فيه تسمية جميع الأعوام السابقة مجدية وعقيمة بالمقارنة مع الحاضر ، ولقد احتفظت التربة بداخلها بكل طاقتها لأنها لم تزرع لفترة طويلة من الزمن وكانت محرومة من عناية الحراثة ، واستجابت بالنتيجة لعناية المزارعين بفائدة مضاعفة وأنتجت محاصيل تضاعفت ستين مرة.

٢ - اختيار هادريان بابا إثر وفاة أناستاسيوس .
تتويج الامبراطور فريديريك في روما . نشوب عداوة
خطيرة بين البابا ووليم ملك صقلية .

في الوقت الذي كانت هذه الحوادث تأخذ مجراها في الشرق توفي البابا أناستاسيوس الرابع في روما ، وعين بدلا عنه هادريان الثالث (هادريان الرابع) (٨٥) وكان هذا البابا انكليزي المولد من قلعة القديس البانز ، وكان راعيا للكهنة النظامين في كنيسة القديس روفوس الواقعة بالقرب من مدينة أفيغنانون في بروفانس في أبرشية الأزلز ، وقد استدعى من هنالك الى كنيسة روما من قبل البابا يوجينيوس صاحب الذكرى الورعة ، ورسم أسقفا للبانز باسم نيقولاس ، ثم أرسل أناستاسيوس خليفة البابا يوجينيوس كممثل باباوي الى النروج التي تعتبر من أبعد أقاليم الغرب ، وكان لدى عودته بعد وفاة هذا البابا ، موجودا في الانتخاب وقد اختير بالاجماع من قبل رجال الدين والناس كبابا ومنح اسم هادريان .

وحدث في هذا العام نفسه أن نزل فريديريك ملك التيوتون الى ايطاليا بقوات ضخمة ، على الرغم من أنه لم يكن قد أصبح امبراطورا بعد ، وحاصر تورطونا وهي إحدى مدن لومبارديا ، واستمر الحصار لفترة طويلة من الزمن ، الا أنه قرر الذهاب الى روما وأن يتوج امبراطورا هناك بعدما تم الاستيلاء على المدينة في آخر الأمر . (٨٦)

ونشب خلال الوقت نفسه عداة خطيرة أيضا بين البابا هادريان ، الذي نحن بصددده الآن ، وبين وليم ملك صقلية ، ابن روجرذي الذكرى الطيبة ، وقد صدر هذا العداء عن أسباب مختلفة ، وقد وصل الخلاف بين الرجلين الى درجة العداء العلني الى حد أن البابا أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك وشن حربا ضروسا ضده (٨٧) .

ومهما يكن من أمر فإن فريديريك المصمم على بلوغ هدفه حث الخلى على طريقه وزحف في غضون أيام قليلة من لومبارديا الى روما حيث أثار وصوله المفاجيء بعض الريبة في ذهن البابا والكنيسة الرومانية بأسرها ، إلا أنه تم في آخر الأمر ، وعن طريق بعض الوسطاء ترتيب الشروط المعتادة ، وتوج فريديريك في السادس والعشرين من شهر حزيران وباحتفال مهيب في كنيسة بطرس وأعلن امبراطورا (٨٨) .

وبعد مضي ثلاثة أيام على يوم عيد الرسولين بطرس وبولص ، المتزين بالشارة الامبراطورية والبابا المرتدي للطرز المميزة للمنصب البابوي الاسمى حشدا قواتها في موقع يسمى « جسر لوكان » بالقرب من مدينة تيفولي ، وتقدما في طريقهما مع بعضهما من هناك وسط الكهنة وعامة الناس المبتهجين والغار يتوجهما ، وانفصلا عند انتهاء العيد الديني وهما على وفاق طيب ، وأسرع الامبراطور الى أنكونا حيث تطلبت حضوره شؤون الامبراطورية ، وتقدم البابا الى المنطقة المجاورة لروما حيث أقام لبرهة من الزمن في مدن الهضبة.

كان ملك صقلية قد أمر نبلاءه في هذه الاثناء بحصار مدينة بينيفنتو التي كانت الملكية الخاصة للكنيسة الرومانية ، وأن يطوقوا المدينة باحكام بالقدر الممكن ، فغضب البابا بشكل يفوق الحدود إزاء هذا العمل ، وحاول تحريض نبلاء الملك ضده لأنه كان راغبا برد المعاملة السيئة باجراء مماثل ، ولم تخفق أمانيه في تلك الناحية فقد لاقت جهوده النجاح لأنه أقنع روبرت صاحب باسافيللا الذي كان الكونت الأقوى في صقلية ابن خالة الملك ونبلاء آخرين أيضا ليثوروا ضد سيدهم بتعهده أنهم لن يفتقروا أبدا الى مساعدة الكنيسة الرومانية ومشورتها (٨٩) . وعلاوة على ذلك أقنعت نصائح البابا الكثير من النبلاء البارزين والمشهورين ، الذين كان وليم والده قد حرموهم من ميراثهم وطردوهم ونفوهم من المملكة ، بالعودة الى

المملكة واستئناف حياة الممتلكات التي كانت تنتمي اليهم بحق وراثي ، وكان بينهم روبرت أوف سورنتو وأمير كابوا ، والكونت أندرياس أوف راباكانديا وآخرون كثر ، وقدم البابا تأكيداً المهيب الى جميع هؤلاء بأن كنيسة روما لن تخذلهم أبداً ، ولم يكتف بهذه الوعود ، بل زاد فحث كلا من امبراطور الرومان الذي كان ما يزال في ايطاليا علانية وبكلمات شفوية ، وامبراطور القسطنطينية برسائل سرية أرسلها اليه للاستيلاء على مملكة صقلية (٩٠٠) .

٣ - نشوب خلاف بين البطريرك واخوانية الاسبتارية حول مسألة العشور. وحول بعض الأضرار التي الحقها ذلك التنظيم بالكنائس.

بينما كانت الكنائس في ايطاليا في هذه الحالة غير المستقرة وكذلك الاحوال في صقلية كانت مضطربة لم تكن منطقتنا في الشرق خالية بدورها من الاضطراب ففي الوقت الذي تم فيه بتأييد السماء استرجاع مدينة عسقلان الى المسيحيين ، عندما كانت أمور المملكة تتقدم بشكل سار أيضاً حيث توفرت المحاصيل بدأ عدو الانسان الحاسد للهدوء المكلف من الرب باثارة الضغائن ، فقد شرع ريموند مقدم بيت الاسبتارية ، الذي كان ممثلاً مع اخوانه بالحيوية نفسها أيضاً (على الرغم من أنه بدأ في جوانب أخرى أنه كان رجلاً متديناً ويخاف الرب) ، بدأ يسبب متاعب جملة للبطريرك ومطارنة الكنيسة الآخرين حول قضايا ذات طبيعة ادارية كنسية ، ومسائل تتعلق بالعشور ، وكان الاسبتارية معتادين على أن يستقبلوا في الاحتفال بالقربان المقدس الناس بدون تمييز أو مناقشة واستقبلوا حتى الذين كان أساقفتهم قد فرضوا بحقهم عقوبة الحرمان الكنسي ، أو حرموا بالاسم ، والذين فصلوا عن الكنيسة عقاباً لأثامهم ، ولم يرفضوا تقديم قربان الموت والمسح المتطرف بالزيت لهؤلاء الاشخاص أنفسهم عند مرضهم ، ولم يحرموهم من الدفن ، وعندما

كان يفرض الصمت على جميع الكنائس أو على كنائس مدينة أو على قلعة ما بسبب جرائم ارتكبت ، فقد كان الاستبشارية معتادين على قرع نواقيسهم والمناداة بشكل أعلى من المعتاد لاستدعاء المفروضة بحقهم الحرمان الكنسي لحضور الطقس الديني ، وكانوا يفعلون هذا حتى يتمكنوا هم أنفسهم من الاستمتاع بالقرايين وعائدات أخرى كانت تخص الكنائس الأم بعدل بحيث يتمكنون من السرور وحدهم عندما يكون الآخرون يتألمون (٩١) وذسوا أقوال الواعظ الشهير الذي قال : « فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين » (٩٢)

وعلاوة على ذلك ، فلم يقدموا كهنتهم الى أسقف الموقع حسب الحكم القديم للقوانين الكنسية المقدسة ليتمكنوا من الحصول على موافقة أسياهم لاقامة الطقوس المقدسة في أبرشياتهم ، كما لم يخبروا أساقفتهم عندما لزم عزل أحد الكهنة من أبرشية ما سواء أكان ذلك بعدل أو بظلم ، ورفضوا بشكل قاطع تقديم العشور من اقطاعاتهم الخاصة ومن جميع العائدات المنقولة اليهم بأي حق كان ، وكان لدى جميع الاساقفة هذه الشكوى ضدهم. كما كابدت جميع الكنائس الكاتدرائية الموجودة في كل مكان من هذه الخسارة نفسها ، هذا وقد نفذوا الخطأ الأكثر إفراطا من جميع الأخطاء ضد البطريرك والكنيسة المقدسة في القدس ، وكان عملا بغيا بالنسبة لجميع المسيحيين ، فقد بدأوا يشيدون أمام الأبواب نفسها لكنيسة القيامة المقدسة صرحا أعلى بكثير وأكثر كلفة من تلك الكنيسة التي كان الدم النفيس لمنقذنا المعلق على الصليب قد كرسها - وذلك ليظهروا احتقارهم الوقح للكنيسة التي قدمت للمنقذ قبرا مرضيا ضمن جدرانها بعدما كابد من ألم الصليب (٩٣) .

وعلاوة على ذلك ، فقد حاولوا اعاقا القداس المناط بالبطريرك كلما خرج للتحديث الى الناس وحسب العادة ، ومن الموقع الذي علق فيه منقذ الجنس البشري من أجل خلاصنا ، وجلب بذلك قداء تاما للعالم بأسره ، حيث كانوا يقرعون نواقيسهم الضخمة بمكر مقصود

وبشكل عال جدا مستمر بحيث تعذر على صوت البطريك أن يرتفع على الضجة ، كما لم يتمكن الناس من سماعه على الرغم من الجهود التي كان يبذلها البطريك لاسماعهم ، واشتكى البطريك للسكان مرارا ضد السلوك المهين للاسبتارية الذي كان واضحا تماما ، ومع ذلك ، فقد ظلوا متشبثين بموقفهم على الرغم من أن الكثيرين رجوهم بالتوقف ، وهددوا أيضا بأنهم سيستخدمون في نهاية الأمر اجراءات أقوى أيضا ، ونفذوا هذا التهديد لأنهم واصلوا وقاحتهم الى حدود كبيرة ، الى درجة أنهم تسلحوا بروح العنف الوقح واقتحموا الكنيسة حبيبة الله كما يقتحمون منزل شخص عادي ، وأطلقوا وابلا من السهام وكأنهم يطلقونه على وكر اللصوص ، فجمعت هذه السهام فيما بعد بحزمة ، ورأيناها بأنفسنا مع آخرين كثيرين وهي متدليلة من حبل أمام موقع الجلجلة ، وهو الموضع الذي صلب فيه المسيح (٩٤) .

ويعتقد الذين أجروا دراسة دقيقة لهذا الموضوع أن الكنيسة الرومانية كانت مسؤولة بشكل رئيسي عن هذا الاثم الكبير ، مع أن ذلك كان كما هو محتمل دون تعمد ودون اعطاء أي اهتمام الى الامتياز الذي طوّل به ، لأن الكنيسة هي التي نقلت بجور بيت الاسبتارية من سلطة بطريك القدس الذي كان خاضعا له بعدد (٩٥) ، ولهذا السبب ، ليس لدى الاسبتارية توقير للرب أو تقدير لأي انسان باستثناء الذين يخافونهم ، ومع ذلك ، فإننا نتهمهم بأجمعهم - ودون تمييز - بالعجرفة ، وهو اثم بغيض جدا بالنسبة للرب وأصل لجميع الرذائل ، وبالفعل ، إننا نعتقد أنه سيكون من المستحيل تقريبا في جماعة كبيرة كهذه أن يتمكن الجميع من سلوك السبيل ذاته دون انحراف في المسلك.

ولكي نشرح في هذا الكتاب كيف تطور هذا المقرر من بداية بسيطة وأصبح قويا جدا ، وكيف تصرف بجور ولا يزال مستمرا بالعمل ضد كنائس الرب ، من الضروري أن نبدا القصة من وقت

- ٣١٥٠ -

سابق الى حد ما ، لاننا سنحاول بعون الرب أن ننفذ هذا دون انحراف عن الحقيقة بتاتا.

٤ - أصل بيت الاسبتارية وتطوره.

تبعاً لروايات المؤرخين القدامى أصبحت قوة أهالي الجزيرة العربية أيام هرقل امبراطور الروم كبيرة جداً ضده وبالمحصلة سقطت مملكة القدس مع سائر سورية ومصر والأقاليم المتاخمة في أيدي أعداء العقيدة والاسم المسيحي بسبب آثامنا ، ومع ذلك وعلى الرغم من أن الأماكن المقدسة أصبحت بالتالي تحت سلطة العدو من وقت لآخر ، فقد قام اناس كثيرون بزيارتها من الغرب من أجل العبادة أو العمل ، وربما من أجل الاثنين ، وكان بين الذين غامروا من الغرب في ذلك الوقت في الذهاب الى الأماكن المقدسة من أجل التجارة بعض الرجال الايطاليين والذين كانوا يعرفون باسم الامالفيين وهو اسم مستمد من اسم مدينتهم (٩٦) .

تقع مدينة أمالفي بين جبال شامخة وبين البحر ، وتقع مدينة سالرنو النبيلة الى الشرق وعلى بعد نحو سبعة أميال من البحر ، وتقع الى الشرق كل من سورنتو ونابولي مدينة فرجيل ، وإلى الجنوب وعلى بعد نحو مائتي ميل عبر بحر تيرا هينيان تقع صقلية (٩٧) ، وكما ذكرت من قبل ، كان أهالي مدينة أمالفي أول من حاول نقل السلع الأجنبية الى الشرق ، التي لم تكن معروفة بالنسبة له حتى الآن وذلك ليكسبوا المال ، وحصلوا بسبب المواد الضرورية التي جلبوها الى هنالك على شروط مواتية جداً من الرجال الرئيسيين في تلك المناطق ، وسمح لهم بالقُدوم الى هناك بحرية ، وكان الناس مبالغين اليهم بشكل ايجابي (٩٨) .

كان حاكم مصر يحتفظ في تلك الحقبة بسائر المنطقة الساحلية الممتدة من مدينة جبلة الواقعة على الشاطئ بالقرب من اللاذقية في

سورية ، وحتى مدينة الاسكندرية آخر المدن في مصر ، وكان يترأس كل مدينة حاكم جعل قوة الأمير يحسب لها الحسابان في كل مكان ، هذا وحظي الأمالفيون بالتأييد الكامل من الملك ونبلائه أيضا ، وتمكنوا من السفر بسلامة تامة في سائر أنحاء البلاد بمثابة تجار وباعة للمواد المفيدة التي كانوا ينقلونها ، وحيث كان هؤلاء التجار أوفياء لتقاليد آبائهم وللعقيدة المسيحية ، فقد اعتادوا على زيارة الأماكن المقدسة كلما سمحت لهم الفرصة بذلك ، إلا أنهم لم يكونوا يملكون أي منزل في القدس حتى يتمكنوا من البقاء فيها لفترة من الزمن كما كان لهم في المدن الساحلية ، وهكذا جمعوا حتى ينفذوا خطة مذكورة منذ زمن طويل ، عددا كبيرا من سكان مدينتهم بالقدر الممكن وقاموا بزيارة الخليفة المصري وكسبوا ود أفراد عائلته ، وقدموا مطلبا مكتوبا وتلقوا اجابة سارة تتوافق مع رغباتهم .

٥ - كيف امر الخليفة المصري تلبية لمطالب الأمالفيين بتخصيص موقع لهم حتى يتمكنوا من بناء كنيسة فيه.

وبناء عليه جرى إرسال أمر مكتوب إلى حاكم القدس يقضي بتخصيص منطقة واسعة جدا في القدس في جزء المدينة الذي يشغله المسيحيون ، لأهالي أمالفي والأصدقاء وحملة المواد المفيدة وذلك بناء على مطلبهم ، وتوجب عليهم أن يشيدوا بناء كبيرا هناك حسبما كانوا يرغبون ، وكانت المدينة مقسمة في ذلك الوقت ، كما هي مقسمة اليوم ، إلى أربعة أقسام متساوية تقريبا ، ومنح المؤمنون قسما واحدا من هذه الأقسام وهو الحي الذي يحوي قبر الرب ليكون مقرا لاقامتهم ، وشغل الكفرة باقي المدينة مع هيكل الرب .

وتلبية لأمر الخليفة المصري جرى تخصيص مكان كبير يكفي لاشادة الأبنية اللازمة لأهالي مدينة أمالفي وجمعت الاعانات المالية من التجار وشيدوا ديرا على اسم أم الرب المجيدة والمقدسة مريم

العذراء (٩٩) ، وذلك أمام باب كنيسة قيامة الرب وعلى بعد مرمى حجر تقريبا ، وإضافة لهذا كانت هنالك مرافق مناسبة لاستخدام الرهبان ولاستضافة الضيوف القادمين من مدينتهم .

وبعد إنجاز البناء جلبوا راعيا ورهبانا من مدينة أمالفي وأقاموا الدير تحت حكم نظامي كمركز للحياة المقدسة المقبولة للرب ، وبما أن الذين كانوا قد أسسوا الموقع وحافظوا عليه دينيا كانوا رجالا من العرق اللاتيني ، فقد عرف باسم دير اللاتين منذ تلك الأونة وحتى الوقت الحالي .

وحدث مرارا أن قدم حتى في تلك الأيام الأراميل الثقيات والمحتشمات إلى القدس ليقبلن الأماكن المقدسة ، وكن قد واجهن - دون اعتبار للخوف الطبيعي ، ودون خشية - مخاطر الطريق التي لا تحصى ، وحيث لم يكن هناك أي مكان في مداخل الدير يمكن فيه استقبال حاجات كهؤلاء بطريقة مشرفة ، فقد شيد الرجال الاتقياء أنفسهم ، الذين كانوا قد بنوا الدير ، مبنى احتياطيا موائما لهؤلاء الناس أيضا ، بحيث عندما تأتي نسوة ورعات يجدن كنيسة صغيرة ونزلا ومحال منفصلة لهن ، وشيد في آخر الأمر ، وبفضل الرحمة السماوية ، دير صغير هناك تشريفا لتلك المدينة الوريعة مريم المجدية وجرى وضع عدة راهبات هناك ليعملن النسوة الحاجات .

واندفعت خلال هذه الأزمات الخطيرة نفسها أفواج من الناس من بلاد أخرى إلى هناك من النبلاء والطبقة الوسطى على حد سواء (١٠٠) . وبما أنه لم يكن هنالك أي طريق إلى المدينة المقدسة إلا عن طريق المناطق المعادية ، فقد كان الحجاج ينفقون بالعادة نقود سفرهم مع وقت وصولهم إلى القدس ، وكان هؤلاء الحجاج يضطرون للانتظار أمام ابواب المدينة وهم بائسون وعاجزون ، وفريسة لجميع مشقات الجوع والعطش والعري ، ولم يكن يسمح لهم بدخول المدينة حتى يكونوا قد دفعوا قطعة ذهبية ، وحتى بعد حصولهم في آخر الأمر على حق الدخول وزيارة الأماكن المقدسة واحدا تلو الآخر ، لم يكن لديهم

أية وسيلة للراحة وحتى ولو ليوم واحد باستثناء ما كان يقدم إليهم وبروح أخوية من قبل رهبان هذا الدير ، وكان جميع القاطنين في القدس هم من المسلمين والكفرة باستثناء البطريرك ورجال الدين والسريان التعساء ، وكانت أعمال الابتزاز اليومية والسخرة المتعددة الأشكال والخدمات الإضافية وتنفيذ الأشياء ذات الطبيعة الحقيرة للغاية تثقل كاهل السريان إلى درجة أنهم لم يستطيعوا أن يتنفسوا إلا بشق النفس ، وعاشوا في فقر مدقع للغاية وفي خوف مستمر من الموت .

وبما أنه لم يكن هنالك أحد ليقدم المأوى إلى الحجاج البائسين الذين ينتمون إلى عقيدتنا ، والذين كانوا مبتلين بهذا الشكل ، ومعوذين إلى الحد الأقصى ، فإن الرجال الاتقياء الذين كانوا يقيمون في دير اللاتين أخذوا بشفقة شيئا من وسائلهم الخاصة وشيدوا ضمن المجال المخصص لهم رباطا لا عانة حجاج كهؤلاء ، استقبلوا فيه هؤلاء الناس سواء أكانوا مرضى أو معاقين وذلك خشية من أن يتم العثور عليهم بعدما يكونوا قد خنقوا على الطرقات ليلا ، وإضافة لتقديم المأوى في الرباط ، فقد رتبوا وجوب توفير الأقسام الباقية من مؤن الطعام في الديرين ، أي من دير الرهبان والراهبات ، للاعالة اليومية لأناس كهؤلاء .

وشيدوا بالإضافة إلى ذلك مذبحا في ذلك الموقع تشريفا للقديس يوحنا المعطاء ، وكان يوحنا هذا من أهالي قبرص ، وكان رجلا تقيا وجديرا بالثناء من جميع الجوانب ، وأصبح فيما بعد بطريركا لاسكندرية بسبب مؤهلاته ، واشتهر بأعماله الورعة بشكل خاص ، كما أن جميع كنائس القديسين ستمجد حماسة هذا المخلص ، وتقديمه السخي للصدقات ، ولهذا السبب فقد سماه الآباء الاتقياء باسم المعطاء ويمكن ترجمته بالرحيم (١٠١)

لم يكن لهذه المؤسسة المبجلة ، التي مدت يد الاحسان بهذا الشكل

لأعضائها الرجال ، عائدات أو ممتلكات غير أن أبناء أمالفي الموجودين في بلدهم والذين اتخذوا عمل التجارة في الخارج ، جمعوا المال من جماعتهم الخاصة كإعانة طوعية ، وأرسلوا هذا المال إلى راعي الرباط ، أيا كان في وقته ، مع المتوجهين إلى القدس ، وتم من هذا المال تأمين الطعام والمأوى للربان والراهبات واستخدم الباقي منه لتقديم بعض المساعدة للحجاج المسيحيين الذين قدموا إلى الرباط (١٠٢) .

بقي هذا الموقع يعيش في ظل هذه الشروط لعدة سنوات حتى شاء الخالق العظيم للكون أن يظهر تلك المدينة من دس الوثنيين ، المدينة التي كان قد طهرها بدمه ، وأتى في آخر الأمر شعب مسيحي بقيادة زعماء تحميمهم العناية الربانية ، أمر المنقذ بتسليم المدينة إليهم ، وعثر في ذلك الحين على امرأة ورعة ومخلصة للرب تدعى أغنيس في دير الذسوة تعمل كراعية له ، واستمرت هذه المرأة النبيلة والرومانية المولد وذات النسب السامي بالعيش لبضع سنوات في القدس بعد إعادة المدينة إلى العقيدة المسيحية (١٠٣) ..

وعثر في الرباط أيضا على شخص يدعى جيرالد ، وكان رجلا صاحب سيرة مستقيمة ، قد قدم تنفيذا لأوامر راعي الدير والربان ، خدمة مخلصة إلى الفقراء لفترة طويلة من الزمن ، في ذلك الموقع خلال سيادة العدو ، وخلف ريو سوند ، الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه جيرالد فيما بعد (١٠٤) .

٦ - البطريك يذهب مع معظم الأساقفة إلى روما لزيارة البابا هادريان

ازدادت أهمية هذا البيت ازديادا كبيرا من هذه البداية المتواضعة إلى درجة أنهم تملصوا أولا من سلطة رئيس الدير (١٠٥) ثم قامت الكنيسة الرومانية بتخليصهم من سلطة البطريك

وسيطرته وذلك عندما تضاعفت ثروتهم كثيرا ، ولم يظهروا بعد أن حققوا هذه الحرية الخطيرة أي توقيف لرجال الكنيسة ورفضوا رفضا باتا تقديم العشور عن أي من ممتلكاتهم بصرف النظر عن الظروف التي انتقلت فيها إلى ملكيتهم ، وتأثرت بهذه الأمثلة السابقة المواقع التي تسمى مواقع مبدلة سواء أكانت أديرة أو أربطة وتخلص أربابها أخيرا من ولائهم بسبب ثروتهم (١٠٦)، وكانت الكنيسة قد شيدت أصلا الكثير من هذه الأديرة بدافع السخاء الخالص وبروحها الورعة المألوفة ، وأوصلتها إلى حالة ازدهار تحسد عليها ، إلا أن أربابها تخلوا عن أهم الورعة التي كانت قد ربتهم على لبنها في البداية كالاطفال ، والتي زودتهم فيما بعد وبمرور الزمن بطعام أكثر صلابة بحيث يمكن للكنيسة أن تشتكي منهم بعدل وتقول : « ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا علي (١٠٧) . فليعف الله عن أشخاص كهؤلاء ، وليسمح لهم بالعودة إلى رشدهم بحيث يمكن أن يتعلموا وأن يخدموا بإجلال الأم التي هجروها ، وقد يكون الأمر أكثر تسامحا مما كان لذلك الشخص الذي طلب الحمل الوحيد للرجل الفقير على الرغم من أنه كان يمتلك مائة شاة ، حيث قال الرب لذلك الرجل : « هل قتلت وورثت أيضا ؟ » (١٠٨) فالويل لذلك الرجل أيا كان ! لأنه « رجل سفاح » حسب قول الرسول .

طالب البطريرك وبقية رجال الكنيسة بحقوقهم مرارا وتكرارا من هؤلاء الرهبان أنفسهم لكن دون جدوى حتى التجأ الطرفان إلى محكمة البابا في روما كما ذكرت ذلك من قبل ، وانطلق البطريرك إلى هناك على الرغم من أنه كان رجلا مسنا للغاية حيث كان قد بلغ بالفعل المائة من عمره تقريبا ، وأخذ معه بعض رجال الكنيسة مثل : بطرس رئيس أساقفة صور مع الأساقفة المساعدين وهم فريديك أسقف عكا وأمالرك أسقف صيدا ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية وقسطنطين أسقف اللد ورينير أسقف سبسطية وهيربرت أسقف طبرية ، وبدأوا رحلتهم حالما عاد فصل الربيع المبهج وبعد أن بدأت تخمد الأمواج الشتوية المضطربة بتأثير الريح الغربية ،

ووصلوا بعد رحلة ميمونة وبمشيئة الله إلى مدينة أوترانتو بسلام ،
وهي مدينة ساحلية في أبوليا (١٠٩)

٧ - امبراطور القسطنطينية يغزو أبوليا بموافقة من
البابا-البطريك يصل الى البلاط مع مرافقيه.

في الوقت الذي كان فيه السيد البطريرك وأساقفة الشرق قد نزلوا في
أبوليا كما ذكرت من قبل كان امبراطور القسطنطينية قد أرسل عددا
من نبلائه مع مبلغ كبير من المال لاجتياح هذه المنطقة بالقوة وذلك
بناء على اقتراح من البابا ، وتم تنفيذ هذا بموافقة زعماء تلك
المنطقة ، وهكذا كان أتباع الامبراطور قد استولوا على تلك المدينة
عندما وصل البطريرك وحاشيته إلى برنديزي قادمين من أوترانتو
فقد كان السكان قد سلموا الموقع بأسره باستثناء القلعة التي بقي
فيها عدد من المخلصين المرتبطين بالملك ، وعلاوة على ذلك ، كان
الكونت روبرت ، المذكور آنفا ، قد استولى بالقوة بوساطة الذين
كانوا قد انضموا إليه بسبب كراهية الملك أكثر منه بسبب موبتهم له
نفسه ، على المدينتين الشهيرتين : تورانتو وباري مع سائر المنطقة
الساحلية حتى حدود المملكة نفسها ، وكان كل من روبرت أمير
كابوا وكونت أندرياس ، وهما رجلان مشهوران وعظيمان ، قد
استوليا على سائر منطقة كامبانيا التي تدعى عموما باسم أرض
العمل ، وذلك حتى سالرنو ونابولي وسان جرمانو ، لقد كانت
المنطقة بأسرها بالفعل في حالة عدم استقرار من هذا القبيل إلى
درجة أن الذين رغبوا بالعبور خلالها لم يجدوا الأمن أو السلامة في
أي مكان (١١٠) كان فريديريك امبراطور الرومان ما يزال موجودا في
المنطقة المجاورة لانكونا مع فيالقه ، لكن القوات التي كان قد جلبها
إلى إيطاليا كانت قد كابدت من خسائر ضخمة ، فقد كان الكثير من
الأمراء الأكثر نبلا وعظمة في الامبراطورية قد هلكوا بحيث لم يبق
سوى العشر من جيشه تقريبا (١١١) ورغب من بقي منهم على قيد
الحياة بالعودة إلى بلادهم ، وحيث لم يتمكن الامبراطور من

السيطرة عليهم فقد كان يستعد أيضا للعودة على مضض كبير حيث كانت أمور عديدة ما تزال تتطلب وجوده ، وكان أهمها على الإطلاق الحملة ضد ملك صقلية .

وبناء عليه تدارس البطريرك وزملاؤه المسافرون بقلق مسألة الطريق الذي يمكنهم اجتيازه بأمان بالغ عبر منطقة مضطربة للغاية للوصول إلى البابا حيث بدت الحرب والفتنة في كل مكان يقطعان كل السبل إليه ، وكان الطريق الأقصر هو عبر بنفنتو ، غير أن تلك المدينة كانت واقعة تحت الحصار الذي ضربه ارسقينيوس مستشار ملك صقلية (١١٢) ، وأرسل البطريرك رسلا الى هناك لطلب حامية له ، الا ان المستشار رفض بشكل قاطع ان يسمح للأفريق بعبور تلك المنطقة ، وأخيرا قرر البطريرك فسلتشر بناء على نصيحة بعض الرجال الحكماء أن يسلك طريق الشاطئ ، ووصل مع أفراد حاشيته إلى أنكونا ، وأرسل من هناك بعض أساقفته لينقلوا تحياته إلى امبراطور الرومان (والذي كان الآن على وشك الرحيل إلى بلده ، كما ذكرنا من قبل) ليحصل منه على رسائل امبراطورية إلى البابا بخصوص مهمته ، ونجح المبعوثون في هذا المقصد على الرغم من أن الامبراطور ، كان متلهفا للعودة إلى البلاد ، وكان قد تجاوز مدينتي سينيغاليا وبيسارو (١١٣) .

ثم وجه البطريرك مع جميع حاشيته رحلته إلى روما في سعي حثيث وراء البابا الذي كان قد غادر مدينة نارني ، وبقي الوجد لعدة أيام في روما ، إلا أن البطريرك أسرع إلى فيرينتينو على أمل إنجاز المسألة التي كانت قد جلبته إلى ايطاليا ، وذلك بعدما علم أن البابا كان قد توقف هناك (١١٤) ولقد ذكر بعضهم أن البابا قد تجنب البطريرك لكي يضجره ويزيد من عبء نفقاته ، وأكدوا أن الاسبتارية كانوا قد زاروه منذ زمن طويل ، ورشوه باستخدامهم السخي للهبات ، ولذلك كان ميالا إليهم بشكل ايجابي ، وقال آخرون إن البابا كان قد أسرع رحلته في سبيل بنفنتو التي كانت واقعة تحت الحصار ، لكن الحقيقة كانت واضحة فقد كان البابا وبلاطه بأسره قد استقبلوا الاسبتارية

بمودة كبيرة ، وعلى العكس كان قد تولى طرد البطريرك وشعبه بحنق وازدراء وعاملهم كأبناء عاقين وغير شرعيين .

٨ - البابا هارديان يحدث الخطأ الى بذفتو ، البطريرك يسرع ايضا الى هناك ويطرح القضية امامه لكن المحكمة التي تمت رشوتها بهبات سخية تذكرت للعدالة . البطريرك يعود دون ان يحقق هدفه.

قدم البطريرك نفسه لدى وصوله إلى فيرينتينو إلى الحبر الأعظم حالا حسب العرف ، إلا أنه لم يلاق استقبالا سارا ، وكانت المعاملة التي تعرض لها معاملة سيئة ايضا (١١٥) ، فقد كان الكرادلة معارضين له في اغلب الأحوال ، وهكذا توصل الى فهم واضح لوقف البابا تجاهه ، ومع ذلك ، بما انه كان رجلا يتمتع بشخصية ثابتة ، فقد تصرف وفق نصيحة بعض مستشاريه الحكماء واخفى مشاعره ، ولازم البابا بدون انقطاع ، وظهر باستمرار في المجالس الكنسية في ايام الاعياد وهو محاط بموكبه المؤلف من الاساقفة الميجلين ، وكان يساعده دائما حشد من المستشارين الجاهزين بمهامهم كلما تطلب الامر ذلك (١١٦)

وجرى في آخر الأمر منح فرصة مقابلة لكلا الفريقين ودرست المسألة لعدة أيام دون نتيجة ، وأدرك البطريرك في النهاية - وهذا ما أبلغه إياه بالفعل عدد من أصدقائه الحميمين - أنه ليست لديه أية فرصة للنجاح ، ولذلك استأنن بالانصراف وبدأ رحلة عودته بارتباك وخوف فوضعه كان متضررا أكثر من كونه متحسنا . وعثر من بين كامل حشد الكرادلة على اثنين أو ثلاثة فقط يتبعون المسيح ، فقد رغبوا بصدق أن يسعدوا عبده في تلك القضية ، وكان هؤلاء كل من أوكتافيوس وجون أوف سان - مرتين وكان فيما مضى رئيسا لشمامسة البطريرك عندما كان البطريرك رئيسا لاساقفة مدينة صور (١١٧) إلا أن جميع الآخرين الذين ضللتهم

الهبات اتبعوا سبل بلعام بن بوسور . وقام البابا ، الذي حثته المسؤوليات في البلاد ، بعبور كامبانيا والذهاب إلى بينيفنتو .

وكان في الوقت نفسه قد أبلغ العديد من الرسل وليم ملك صقلية بالاضسرابات التي كانت سائدة في ايطاليا ، وقد علم أن الكونت روبرت أوف باسافيل كان قد استولى بمساعدة الاغريق على منطقة أبوليا بقوة السلاح ، وأن أمير كابوا وكونت أندرياس كانا يوسعان حكمهما في كل مكان من كامبانيا ، وأن البابا كان قد ذهب إلى بينيفنتو حيث كان يزود جميع الحكام المذكورين منذ لحظات بالقوات والتشجيع ، ولذلك جمع وليم على الفور جنودا من جميع أنحاء صقلية وكالبيرا وزحف إلى أبوليا على رأس قوة ضخمة جدا ، فهرب الكونت روبرت على الفور ، وهزم وليم القوات الاغريقية في المعركة الاولى التي جرت بالقرب من برنديزي ، وأسر قادة ذلك الجيش بعد أن أباده عن بكرة أبيه وأوثقهم بالسلاسل ، وهكذا رافقه حظ طيب وحاز بقوة السلاح على جميع الكنوز الطائلة التي كان الاغريق قد جلبوها معهم ، ثم قام بعدما استرجع المنطقة بأسرها التي كانت قد تمررت عليه وأعاد الناس لتأييده بحصار بينيفنتو وسبب هناك متاعب جمة للبابا وكرابلته وللمدينة نفسها أيضا حيث بدأ يقل مخزون المواد الغذائية ، وأصبح الجميع قلقين جدا حول سلامتهم ، وتم التوصل في آخر الامر إلى اتفاقية سلام بين البابا والملك وكان ذلك بواسطة المندوبين العاملين كوسطاء ، وحسب بعض الشروط السرية ، وأقصت هذه الاتفاقية جميع الذين كانوا قد أصبحوا متورطين ، تلبية لاغواء البابا ، في هذه المشاق والمخاطر الجمة (١١٨) وأبرك النبلاء أن الامور انتهت خلافا لتوقعاتهم وأن البابا كان قد عقد اتفاقية سلام لنفسه ولكنيسة روما دون تحقيق أي امتياز لهم من الملك ، وشعروا أنهم كانوا في مأزق خطير ، وحاولوا بقلق العثور على طريقة ما يتمكنون بواسطتها من الانسحاب من المملكة بسلام ، وأسرع روبرت وأندرياس مع بعض النبلاء الآخرين إلى لومبارديا ومثلوا أمام الامبراطور ، وحدث أن كان أمير كابوا أتعس حظا من الآخرين فقد اعتقله خدمه بينما كان

يستعد لعبور نهر غاريغلانو بوساطة أحد القوارب ، فقد كان قد أرسل أصحابه أمامه وجلس ينتظر مع عدد قليل من المسافرين للعبور الى الضفة المقابلة عندما تم اعتقاله ، وتم تسليمه لرعايا مخلصين للملك ، فنقل الى صقلية حيث سمل هناك وألقي في أحد السجون حتى انتهت حياته التعيسة. (١١٩)

٩ - وقوع ثورة اهلية في مصر فرار السلطان ومقتله من قبل المسيحيين ، ابنة ناصر الدين يقع بالأسر.

كانت مملكة القدس تنعم في هذا الوقت ، بفضل الله ، بدرجة مقبولة من الازدهار ، إلا أن البلاد المجاورة والواقعة على الجانبين كانت مضطربة اضطرابا عظيما بسبب وقوع حدث مفاجيء ، فقد قامت شخصية مصرية قوية ، كانت تشغل منصب وزير وكانت مسؤولة عن الأمور الخاصة لمولاها (١٢٠) بقتل الخليفة حاكم مصر الذي اعتاد المصريون على تبجيله وتوقيره كشخصية مقدسة جدا ، فقد حدث أن أتى هذا الوزير في أحد الايام وبطريقة غير رسمية الى الخليفة في احدى الغرف الأكثر انعزالا في القصر وقتله بغدر ، ويقال إنه ارتكب هذه الجريمة آملا في ترقية ولده ناصر الدين الى الخلافة ، بحيث يتمكن نفسه في ظل حكم ابنه من الاستمرار في ادارة المملكة بون قلق أو متاعب ، وكان واثقا من أن العمل الذي ارتكبه لن يكتشف لعدة أيام ، حتى يكون قد استولى على القصر الكبير ، ويكون قد تمكن من حيازة الخزينة بأسرها ، وتوقع بمساعدة عصابة من الأصدقاء والتابعين الذين كان قد جمعهم أن يكون قويا بشكل كاف ليقاوم الذين سوف يحاولون قتله جزاء على جريمة القتل التي ارتكبتها ، إلا أن المسألة انتهت بشكل مخالف تماما ، حيث اكتشفت الجريمة في غضون زمن قصير ، واجتمع حشد من الناس العظماء والوضعاء ، كرجل واحد وطوقوا تسويقا تاما المنزل الذي كان قد هرب إليه بعد أن ارتكب الجريمة ، وطلبوا

- ٣١٦١ -

بصوت واحد بتسليم السفاح الغادر الذي اغتال حاكم البلاد ليلقى عقابه ، واستمرت هذه التهديدات بشكل ملح ، حتى أنه رأى في آخر الأمر بأنه لا يوجد أي سبيل للنجاة ، فأمر بالقاء الذهب والجواهر وجميع الأشياء الثمينة التي كانت بحوزته من النافذة الى الحشد الصاخب من الناس ، وأمل أنه قد يجد طريقة ما للنجاة ، بينما يكون الحشد منشغلا بالتقاط المغنم ، فهل هنالك حاجة لقول المزيد ؟ ونجح بالنجاة من المدينة على الرغم من الحشد المحاصر من الناس ، وسلك برفقة موكب مهيب ، من الأبناء وأبناء الأخوة والأخوات الطريق المؤدي الى الصحراء والمؤدي الى دمشق ، كما يقال ، ولم يتباطأ المنتقمون في مطاربتة وبذلوا محاولات قوية للحيلولة دون نجاحه ، غير أن ابنه الأكبر وبعض أفراد حاشيته من الرجال الشجعان والحكماء أعاقوا الخصم وأبقوه بعيدا وتحملوا الهجمات بأنفسهم ، ومنعوا المطاردين من الفوز بالهارب ، وتركوا وراءهم وبشكل خادع من وقت لآخر جرارا ذهبية وفضية وأثوابا نفيسة وأنسجة حريرية ذات قيمة كبيرة لأغراء اللاحقين بهم ليتوقفوا ويجمعوا هذه الأشياء بحيث يمكن بوساطتها أن يذشب نزاع حول تقسيم الغنائم(١٢١)

أدرك المصريون أخيرا أن مطاربتهم كانت عقيمة وعادوا مرتبكين الى البلاد ، ومضى الوزير قدما الى الامام في طريقه معتقدا أنه بأمان ، واثقا أنه لن يتعرض لمتاعب أخرى ، إلا أنه وقع في المويلح أثناء هروبه من القاهرة لأن المسيحيين العالمين باقترابه كانوا قد نصبوا كمينا له ، وهو وسيلة شائعة للاحاق الأذى بالعدو ، وكانوا يكمنون خلسة هناك. ووقع الوزير في الشرك وهو غير متوقع أبدا ، وأصيب في المواجهة الأولى بجراح مميتة نتيجة تلقيه ضربة سيف وهلك بال الحال ، وكان هذا النبيل المصري يدعى عباس (١٢٢) ووقع ابنه ، ناصر الدين ، مع سائر أفراد أسرته والكنوز الكبيرة التي كانوا قد نقلوها معهم من مصر بأيدي المسيحيين ، فقسما الغنيمة فيما بينهم حسب العرف. وبالمحصلة

عاد شعبنا الى البلاد محملا بأثمن المغنم التي كانت بالفعل من اكبر الكنوز التي لم تعرفها بلادنا حتى الآن.

كان من بين الذين شاركوا في تلك المسألة العديد من فرسان الداوية وبفضل أعداد هؤلاء الفرسان ، جرى نقل القسم الاكبر من المغنم بما في ذلك العبيد . وكان من بين ما حصلوا عليه وانتقل اليهم بالقرعة أثناء توزيع المغنم ناصر الدين بن عباس ، وكان شجاعا جدا وصاحب قدرات عسكرية غير عادية بين المصريين ، فقد كان أهالي تلك الاقليم يخافون من اسمه ، وكانت ترتجف قلوبهم برعب لا يوصف لدى رؤيتهم له ، وأبقى فرسان الداوية هذا الرجل أسيرا لديهم لفترة طويلة من الزمن ، وعبر عن رغبة متوقدة لأن يؤمن بالمسيح ، وكان قد تعلم اللاتينية ومبادئ العقيدة المسيحية عندما باعه الداوية الى المصريين مقابل ستين ألف قطعة ذهبية ، حيث طالب به المصريون ليلقى عقوبة الموت ، فقيدت أيديه وأرجله بسلاسل ثقيلة ووضع في قفص حديدي على ظهر أحد الجمال ونقل الى مصر حيث مزقه الناس الى أشلاء بأسنانهم حتى يشبعوا عواطفهم المتوحشة (١٢٣)

١٠ - الأمير أرناط يستولي على جزيرة قبرص بقوة السلاح ، ويسلب السكان.

اقترب أرناط أمير أنطاكية ، عملا مخزيا خلال العام اللاحق وذلك تنفيذا لنصيحة رجال اشرار كانوا قد أثاروا عليه كثيرا ، وأرسل فيالقه كما يرسلها ضد الأعداء ، واستولى بعنف على جزيرة قبرص المجاورة التي كانت مفيدة دائما وصديقة لمملكتنا ، والتي كان فيها عدد كبير من السكان المسيحيين ، ويبدو أن الأسباب التي قادت الى هذا الغزو الشائن كانت على النحو التالي : كان يعيش في منطقة كليكية على مقربة من طرسوس نبيل

أرمني قوي يدعى طوروس ، وكان هذا الرجل بنزواته قد تعرض مرارا لغضب الامبراطور وجلب تقريعه على نفسه نتيجة نزواته وغدره ، وبما أن مناطقه كانت بعيدة جدا عن الامبراطورية وقد تعذر بلوغ مقره الموجود في الجبال الشاهقة ، فقد نزل مرارا الى سهل كليكية ونقل المغنم والأسلاب ، ونهب بدون تردد بلاد مولاه بكل وسيلة وألحق مضارا بالغة وباهظة بالمؤمنين من رعايا الامبراطورية بدون مراعاة للمنزلة أو الوضع ، وعندما أبلغ الامبراطور بهذه الحالة كتب الى أرناط أن يبعث فرسانه ويبعد طوروس عن أراضي الامبراطورية حتى تأمن ممتلكات رعاياه من غزوات كهذه ، وإذا كانت هناك حاجة للعمال لذلك الهدف ، فليسوف يرسل اليه بنفسه بالوقت المناسب مبلغا كافيا من خزائنه.

واستجابة منه للأمر الامبراطوري استدعى أرناط على الفور ، قوة كبيرة من الفرسان وتقدم الى كليكية حيث طوروس وأباد جيشه اباداة تامة ، وبدت المكافأة المشرفة ، التي كان يأمل باستلامها على عمله الشجاع ، بطيئة في الوصول ، ولذلك اقتترف الجريمة المشار اليها آنفا بعدما نفذ صبره من الانتظار (١٢٤)

كان بعض المؤمنين قد حذروا أهالي قبرص من الخطر ، وكانت جميع قوات الجزيرة قد اجتمعت إلا أن الامير أرناط ، الذي تولى الهجوم عليهم ، هزم جيشهم على الفور وببد قواتهم بأسرها بحيث لم يجرؤ بعد ذلك أحد على رفع يده ضده ، ثم اجتاح الجزيرة بدون أن يواجه أية مقاومة ، ودمر المدن وضرب القلاع واقتحم أديرة الرهبان والراهبات على حد سواء ، وأساء معاملته الراهبات والعذارى الضعيفات بشكل معيب وعلى الرغم من أن الأثواب الثمينة وكمية الذهب والفضة التي نقلها كانت كبيرة ، يعد فقدان هذه الاشياء لا يساوي شيئا بالنسبة الى خرق الحرمات (١٢٥)

وتابعت قوات أرناط سلب المنطقة بأسرها لعدة أيام بدون توقف ، وحيث لم يكن هنالك من يبدي مقاومة ، فإنها لم تظهر أية

- ٣١٦٤ -

رافة نحو السن أو الجنس كما لم تفرق بين الأحوال ، وعادت في النهاية الى شاطئ البحر وهي محملة بمقدار كبير من الثروات والمغانم من كل نوع ، وركبت متن السفن عندما كانت جاهزة وأبحرت الى أنطاكية ، وجرى هنالك خلال زمن قصير تبديد جميع الثروات التي تم الحصول عليها بطريقة شريرة ، وكما يقول المثل : « لا تعطي المغانم المكتسبة بطريقة شريرة نتائج طيبة » (١٢٦)

١١ - الملك يأسر بعض الأتراك والعرب في غابة بانياس دون اعتبار للمعاهدة التي كان قد عقدها من قبل معهم.

في هذه الآونة كانت مجموعة ضخمة من العرب والتركمان قد اجتمعت في غابة قريبة من مدينة بانياس بأعداد كبيرة لم يسبق لها مثيل ، ويعيش هؤلاء الناس عادة في خيام كالبداة ويعتمدون في غذائهم على اللبن (١٢٧) وتعرف الغابة حاليا باسم غابة بانياس ، وهو اسم المدينة الواقعة بالقرب منها ، إلا أن المنطقة بأسرها ، بما في ذلك تلك الأجزاء التي تمتد الى الشمال والجنوب إضافة الى ذلك الجزء الذي يغطي لبنان نفسه ، كانت تسمى في الأزمان القديمة باسم غابة لبنان ، وورد في الكتب المقدسة أن سليمان شيد في هذه الغابة قصرا جميلا رائع البنيان وكان يسمى بيت الغابة اللبنانية (١٢٨) بيد أن المنطقة بأسرها تحمل في هذه الأثناء كما قلنا من قبل اسم المدينة المجاورة لها ، وكان الناس المذكورين منذ لحظات قد دفعوا الى داخل هذه الغابة عددا كبيرا من الحيوانات ، وبشكل رئيسي الخيول ، بسبب المرعى الممتاز الذي كان موجودا فيها.

إلا أن بعض الرجال الأشرار أبناء الشيطان الذين لم ينصبوا أية خشية من الرب أمام أعينهم اقتربوا من الملك وأقنعوه بسهولة بالموافقة على خططهم الشريرة ، وعلى الرغم من وعده المخلص

والمعاهدة التي عقدها مع هؤلاء البدو (١٢٩) ، فقد اقترحوا عليه ان يشـ
هجومًا مفاجئًا عليهم بعد أن يكونوا قد أولجوا قطعانهم ودوابهم الى
الغابة لترعى ، ويجعلهم هم وحيواناتهم فريسة لشعبه ، ومال الملك
بسرعة الى هذه الخطة لأن الديون أرهقته وكبلته واجبات كثيرة لم
تكن لديه أية وسيلة للأيفاء بمطالبها ، اقتنع بها بسهولة كاقتناعه
بأية خطة يمكن بواسطتها تخفيف الضغط الذي يتعرض
له ، وأصغى باستعداد للناصحين الأشرار ووافق على
اقتراحهم ، واستدعى ، بعدما ضلّته نصيحة الرجال
الأشرار ، فرسانه وشن غارة مفاجئة على أولئك
الناس ، وهاجمهم كأعداء ، بعدما وجدهم غير مستعدين وليس
لديهم أدنى تفكير بأي هجوم ، وسلمهم الى قسوة أتباعه وعنفهم
وتمكن بعضهم بفضل خيولهم السريعة أن ينقذوا أرواحهم
بالهروب ، ونجا آخرون تدفعهم الضرورة في ذلك ، بالاختباء في
الغابات ، لكن جميع الباقين قتلوا بالسيف أو اقتيدوا الى عبودية
وحشية.

ولقد قيل إن عدد الأسرى ومقدار المغنم التي تم الاستيلاء عليها
في هذه الغارة لم يسبق له مثيل في بلادنا ، فقد وزع عدد كبير من
الخيول بالقرعة ، ونال جميع الأفراد نصيبا من هذا التوزيع حتى
الذين ينتمون منهم الى الطبقة الأدنى مقاما ، ومع ذلك ، فإن هذا
العمل لم يجلب شهرة متألفة أو جديرة بالثناء لشعبنا لأنهم كانوا قد
انتهكوا معاهدة سلام وأسأؤوا بالفعل معاملة اناس غير
مرتايين ، اناس كانوا يثقون بحسن نية الملك ولم تكن
لديهم - علاوة على ذلك - أية وسيلة للمقاومة.

إلا أن الله ، رب الانتقام ، الذي ينزل عقوبة عادلة على
المذنبين ، لم يتركنا نستمتع بمكافآت إثمنا لفترة طويلة من
الزمن ، وبالفعل ، أوضح على الفور أنه ينبغي المحافظة على الوفاء
بالعهد حتى مع الكفرة ، وانتقم منا عقابا على تلك الجريمة وسبب

هلاكننا ، وضاعف عقوبته لنا بسبب اثامنا الكثيرة واحاقنا بالارباك
كما سيتم توضيح ذلك في الصفحات القادمة.

١٢ - همفري كافل المملكة يمنح نصف مدينة بانياس
الى الاسبتارية. نور الدين يستولي على المؤن المجلوبة
الى هناك ، المدينة نفسها تتعرض للحصار.

ضاق في هذه الآونة همفري أوف تيرون ، كافل المملكة من
استمرار مسؤوليته عن مدينة بانياس وانفاقه عليها بعدما
ورثها ، ونظرا لعدم تمكنه من حكمها وحمايتها بشكل مناسب بدون
مساعدة ، قرر وبموافقة الملك أن يتقاسمها بشكل متساو مع فرسان
الاسبتارية ، وكانت الشروط المتفق عليها بموجب هذه التسوية على
الشكل التالي: يملك الاسبتارية نصف المدينة وجميع ممتلكاتها
المحيطة بها ، ويتوجب عليهم تحمل نصف النفقات لجميع الأشياء
اللازمة والمفيدة ، وتحمل المسؤولية القانونية تجاه المدينة.

كانت بانياس تقع على حدود بلاد العدو ، وكانت قريبة منه جدا
بحيث لم يتمكن أحد من الاقتراب من المدينة أو مغادرتها دون
التعرض للمخاطر الا إذا كان ضمن جماعة قوية أو إذا سلك طرقا
سرية ، وبعدم تولى الاسبتارية القيام بمسؤولية نصيبهم من
المدينة ، رغبوا بوضع الموقع في حالة دفاعية جيدة ، وجمعوا لتحقيق
ذلك الهدف كميات كبيرة من المؤن والاسلحة ومجموعة من الجنود
ايضا ، وبينما كانوا يتقدمون في أحد الأيام معهم قطار كبير من
الجمال وحيوانات النقل الأخرى المحملة بالمؤن تحت حراسة
مجموعة من الفرسان ، الذين توجب عليهم قيادة الحملة بأسرها إلى
المدينة بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد لفترة طويلة ومقبلة ، ومع
اقترابهم من المدينة مع قطارهم بمجمله انقض عليهم الكفرة الذين
كانوا قد أخطروا باقترابهم واستخدم الأتراك سيوفهم بقوة ومزقوا

- ٣١٦٧ -

خط السير المسيحي وقتلوا كثيرا من أفرادهم ، ثم استولوا على
الأمثلة ، بينما هرب الباقون على قيد الحياة لينقذوا
أرواحهم ، وأما الذين منعهم الهجوم العنيف ، الذي شنه
العدو ، من الهروب فقد قتلوا بالسيف أو أسروا ، وهكذا سقطت في
أيدي الكفرة جميع المؤن ، التي كانت قد جمعت لتجهيز
المدينة ، ليتم استخدامها ضد المدينة ، وانسحب الاسبتارية من
الاتفاقية التي كانوا قد عقدوها ، لأنهم خافوا من تعرضهم بعد هذه
الكارثة لخسائر ومحن مشابهة ، وأعادوا مدينة بانياس مع أعبائها
وأجورها الى كافل الملكة (١٣٠)

قرر نور الدين على الفور ، بعدما شجعه هذا النجاح ، انتهاز
الفرصة ليحاصر بانياس حيث كانت الكارثة قد أنهكتها ، فاستدعى
فرسانه ونقل آلاته الحربية الى المدينة وظهر فجأة أمامها ، فوضعت
القوات في دائرة حولها ، وبدأت عمليات الحصار ، وكان هناك قلعة
في أحد أجزاء بانياس ، وكانت مجهزة بشكل جيد بالأسلحة
والرجال ، وبكمية من المواد الغذائية تكفي لفترة قصيرة من
الزمن ، وكانت هذه ستؤمن ملاذا للسكان حتى وإن تم الاستيلاء
على المدينة ، إلا أن الناس كانوا يثقون ثقة كبيرة في تحصينات
مدينتهم لاسيما وأنهم كانوا قد تحملوا مرارا هجمات
مشابهة ، ولذلك قرروا بذل محاولة قوية للدفاع عنها ، ولولم
يشعروا بثقة مفرطة في أنفسهم لكانوا قد نجحوا بالفعل كما كانوا
يأملون ، ولذلك فقد استمروا بالعمل دون حذر مناسب.

هاجم نور الدين بالآلات الحربية والقاذفة ، وواصل في الوقت
نفسه قذف وابل مستمر من السهام بحيث لم يترك للمحاصرين أية
راحة ، واضطروا الى أن يقاتلوا ليل نهار بجراح مميتة ولم تبق الا
قلة قليلة لتواصل الدفاع ، ولولم يكن كافل الملكة وابنه - الذي
ضاهى بسالة والده - قد أظهر استعدادهما للقتال بحماسة دفاعا
عن ممتلكاتهم الوراثية وشجعا الآخرين بالمثل الذي ضرباه في

- ٣١٦٨ -

المقاومة ، لكان السكان - الذين أنهكتهم الجهود البطولية التي بذلوها ، قد استسلموا بلا ريب أمام القوة المتفوقة لأعدائهم ، وكما قيل: إن وجود أسيادهم ثبتهم ونجحت الشجاعة المتوقدة لقائتهم والمشرفين عليهم في بعث الحماسة في أنفسهم ، وجددت قوتهم المتناقصة وقدمت لهم شجاعة جديدة للمقاومة.

وفي أحد الأيام ، بينما كان العدو يشدد الخناق بعنف أكثر من المعتاد فتح المحاصرون باب المدينة وقاموا بالانقضاض على العدو في الخارج ، وبما أنهم أنشبوا القتال دون اتخاذ احتياطات مناسبة فقد أثاروا ضدهم حشدا كبيرا من الأعداء ، واندفع الاتراك نحوهم ، وحاول السكان الانسحاب الى المدينة بعدما عجزوا عن المحافظة على موقعهم ، وتعدز اغلاق الباب بسبب الضغط الكبير الذي بذله الحشد للدخول ، وهكذا ، اختلط العدو مع سكان المدينة وبخل المدينة بأعداد كبيرة بحيث تم الاستيلاء عليها بالقوة ، وأرغم المسيحيون على الانسحاب الى القلعة في ظل مخاطر شديدة ومع التعرض لخسائر بشرية كبيرة (١٣١)

و في هذه الأثناء كان الملك قد علم أن بانياس كانت تكابد شداً رهيباً على يدي نور الدين ، و انها كانت على وشك السقوط بالفعل ، فجمع بالسرعة الممكنة جميع القوات المتوفرة في ذلك الوقت من الفرسان و الرجال على حد سواء ، و زحف نحو بانياس بسرعة و معه فيالقه ، و كان مصمماً على رفع الحصار أو أن يجرب حظه و يغامر بالقتال مع نور الدين.

١٣ - الملك يسرع الى بانياس ويرفع الحصار. جيشنا يسير في طريق العودة دون حذر مناسب ويقع في كمائن خطيرة.

ما أن سمع نور الدين خبر قدوم الملك لتحقيق هدف محدد حتى رفع الحصار ، لأنه لم يكن راغباً بالاعتماد على فرص القتال غير

- ٣١٦٩ -

المؤكدّة العواقب ، هذا وقام قبل رحيله بذسف واحراق المدينة التي كان قد استولى عليها بالقوة ، ولم يأن للقات التي كان قد جمعها بالتفرق بل أبقاها معه ببصيرة وبعد نظر قوي ، لابل زاد ذلك بأن استدعى قوات كبيرة و كمن في الغابة المجاورة منتظرا نتيجة الأحداث.

جلب وصول الملك إلى بانياس المساعدة التي انتظرها المحاصرون بتلّف ، ووعد بأنه سيبقى حتى يتم تشييد المواقع المتهدمة و ترميم الصدوع و الثغرات و تعاد المدينة بأسوارها المرممة إلى حالتها السابقة ، و استدعى البنائين من المدن و المنطقة المجاورة بأسرها ، كما استدعى جميع الذين كانت لديهم بعض الخبرة في فن البناء ، و رمت الأسوار و الأبراج بشكل كامل ، و جدت الشرفات و المتاريس . و أعيد بناء منازل السكان الموجودة داخل محيط الأسوار ، و أعيت الأبنية العامة إلى وضعها الأصلي لأن نور الدين كان قد اهتم اهتماما كبيرا خلال احتلاله للمدينة بتدمير هذه الأبنية تدميرا تاما.

شعر الملك و نبلاؤه عندما انتهى كل شيء أنه لم يعد هناك ضرورة لاقامتهم لفترة أطول هناك لمصلحة السكان ، و كان كل شيء قد تجدد الآن تماما ، و جهزت القلعة بالأسلحة و المواد الغذائية و الجنود بشكل يكفي للوقت الحالي ، و بناء عليه صرف الملك قوات المشاة و صمم أن يعود إلى طبرية برفقة سرايا الفرسان فقط ، و انطلق من بانياس ووجه سيره نحو الجنوب و خيم بالقرب من بحيرة الحولة ، و استراح الجيش هناك تلك الليلة دون أن يتخذ تدابير أمنية مناسبة ، و دون التقيد بأنظمة المعسكرات و بشكل يخالف كثيرا في الواقع ما كانت تتطلبه مقتضيات النظام العسكري.

يحدث مرارا أن الناس يصبحون مهملين إلى حد ما عندما تسير الأمور بنجاح و سعادة ، و يبدي الرجال عادة اهتماما زائدا بأمورهم في المحن (١٣٢) ، و يحتمل أن الفكرة ذاتها متضمنة في هذا القول.

بشـــــــــــــــــ كل جيد:» يســـــــــــــــــ قط عن جـــــــــــــــــ بانبك الف»
(وربما على اليسار) ، وعشرة الاف عن يمينك «(١٣٣) ، لأن
الغالبية تندفع عادة تحت شروط التقدم والازد هار إلى الهلاك
مباشرة وهي مزهوة بالنجاح ؛ وعلى العكس فإن الاخطار تعلم
الذين أنهكتهم الخسائر والمحن أن يتصرفوا بتعقل في ظروف
مستقبلية مبهمة وأن لا يثقوا بالحظ أبدا حيث يكون قاسيا كما تظهر
تجربتهم .

وحيث كان الملك يفكر بحقيقة أنه كان قد أجبر هذا الأمير
العظيم على الانسحاب من حصار بانياس ، فقد كان يثق أن نور
الدين قد ابتعد الآن كثيرا مع قواته ومن المحال أن يكون تمكن من
جمع مثل هذه الأمم الكثيرة ضده وضد شعبه ولذلك بدأ يبدي حذرا
قليلًا جدا ، كما قلنا ، وكان ميالا لغض النظر بإفراط ازاء نزوات
الأفراد ، ووصل على الفور نبأ إلى العدو الذي كان مترصدا في كمين
أنه تم صرف قوات الملك من المشاة وأن بقية الجيش كانت مخيمة
بطريقة فوضوية وغير حذرة بالقرب من بحيرة الحولة ، وذكر أيضا
أن بعض القادة كفيليب صاحب نابلس وآخرين كثر كانوا قد غادروا
مع فرقهم ، وهكذا ، لاحظ الكفرة ان الامور انتهت حسب رغباتهم
ونقلوا معسكرهم بسرعة ، وعجل قائدهم البارع الامور لمعرفته
بموائمتها وساق الجيش بزحف سريع في ذلك الاتجاه ، ووصلت
قواته على الفور إلى الاردن الواقع بين الجيشين وعبرت النهر
وكمنت في موقع يدعى عموما باسم مخاضه يعقوب الواقعة على هذا
الجانب حيث سيعبرها جيش الملك في اليوم التالي .

استأنف الجيش المسيحي سيره عند الفجر وكل من فيه غير
عالم بالكمين الذي نصب اثناء الليل ، وجاهل أيضا بخطط اعدائه
وتوجه إلى الموقع الذي كان الاتراك قد سيطروا عليه خلسة ، وكانت
عناصر الجيش المسيحي تتقدم بسلام وهمي غير خائفة من وقوع
اي حادث مشؤوم عندما انطلق فجأة الذين كانوا تقدموا وهم

- ٣١٧١ -

مبتهجون دون خوف من الخطر سيوفا مسلولة لعدو مصمم على قتلهم واصابتهم بجراح ، فثار غضب المسيحيين ولكن بعد فوات الاوان وادركوا ان معركة خطيرة كانت على وشك الحدوث فواقفوا ثرثرتهم التافهة وهرعوا الى خيولهم واخذوا اسلحتهم ، الا ان صفوفهم ابيدت قبل ان يتمكنوا من وضع انفسهم بتشكيل المعركة والاحتشاد للدفاع حيث هاجمهم العدو بعنف ومن مواقع متلاحمة بالبارزة وهكذا كان من المحال بالنسبة لجنودنا الصمود مع بعضهم في اي موقع ما خلا مجوعات صغيرة جدا .

١٤ - فرار الملك من ميدان المعركة وانسحابه الى قلعة صفد انهزام الجيش ووقوع معظم القيادة في الأسر .

بقي الملك محاطا بعدد قليل من الفرسان الذين بقوا مصممين على الوقوف الى جانبه ، لكنه أدرك أن الصفوف تمزقت وان الجيش المضطرب كان معرضا لحلق العدو في كل مكان ، وعلاوة على ذلك كانت قوة العدو تزداد من كل الجهات بينما كانت صفوفنا تنهار كما كانت الحالة في الواقع منذ البداية ، ولذلك ، تراجع الملك بحكمة الى هضبة مجاورة ليحتاط لسلامته ، ونجح من هنالك بصعوبة كبيرة في بلوغ قلعة صفد الواقعة على الجبل نفسه متجنباً العدو الرابض على يمينه احيانا وعلى شماله احيانا اخرى ، وبفضل الحصان الذي نقله ، وقد اسر عدد كبير جدا من قادتنا في ذلك اليوم ، ولم يقتل سوى عدد قليل جدا منهم ، وبما ان جميعهم كانوا بدون تمييز محاربين مشهورين بالحكمة والخبرة في الحروب ، ومحاربين متمثلين فقد استسلموا دون مقاومة لينقذوا ارواحهم التعيسة كأحط انواع العبيد وبصرف النظر تماما عن نير العبودية وخزيه وعن وصمة العار التي ستلتصق بأسمائهم الى الأبد .

وكان بين الاسرى النبيل اللامع هيودي ابلين ويودس دي سينت

- ٣١٧٢ -

اماند وكان قائدا للقوات الملكية وجون غوتمانوس وروهارد صاحب يافا ، واخوه بالين وبرتراندي بلانكفورت وهو مقدم فرسان الداوية وكان رجلا متدينا ويخشى الرب واخرون كثر واسماؤهم غير معروفة من قبلنا .

لقد اعاد الرب الينا ثمار اعمالنا الشريرة ، تماما حسبما تستحق اساليينا وسلوكيتنا ذلك اننا نحن الذين كنا في ازدياء للقوانين الانسانية قد ظلمنا الابرياء بشكل جائر وعسفنا ايضا انفسنا بالذين اعتمدوا على اخلاصنا ورميناهم في فوضى من معيار واحد ولذلك غدا — عقوبة لاثامنا — اللامعون موضع لوم واحتقار الامم الدنية وتعرضوا لسخرية العدو : « تجعلنا مثالا بين الشعوب لانغاض الراس بين الامم » (١٣٤)

ومع ذلك لم يعاملنا الرب بشفقته الكبيرة دون رحمة تماما كما لم يمنع رافته على الرغم من غضبه علينا لانه انقذ الملك فلو كان ملكنا قد سقط في ذلك اليوم لكانت المملكة قد وقعت في خطر جسيم بلاريب اسال الرب ان يمنع حدوثه لانه في حالة سقوط فارس واحد مهما كان عظيما تبقى المسألة متعلقة بمصير رجل ، واحد لكن الخطر الذي يتعرض له الملك يشتمل على خطر للامة بأسرها ، وهكذا فان داود المخلص الذي كان مليئا بالقلق حول ملكه توسل قائلا : « يارب احفظ الملك » .

ونشأ قلق كبير في كل مكان من المملكة بسبب شائعات انتشرت في هذا الوقت تضاربت بمحتواها بخصوص سلامة الملك ، حيث قال بعض الناس انه قتل بالسيف ، وقال آخرون انه اخذ أسيرا بين بقية الأسرى على الرغم من أن العدو لم يتعرف على هويته ، وأشيع أيضا أنه كان ، بفضل الرحمة السماوية ، قد نجا سليما من وسط المعركة ، وأحس جميع الناس بقلق عميق حول مصير ملكهم مثل قلق أم مخلصة حول مصير ابن وحيد لها ، وبما أنهم كانوا جاهلين

- ٣١٧٣ -

بمصيره فقد تخيلوا أن الشيء الأسوأ قد يحدث بتعاطفهم الشفوق من أن يكون مصيره الموت .

ولكن الحقيقة أن الملك أسرع الى عكا عندما وجد نفسه على مسافة مناسبة من العدو برفقة العدد القليل من الفرسان الذين كانوا قد تبعوه الى صفد ، ومع بعض الآخرين الذين كانوا قد نجوا من أخطار اليوم السابق ، فرحب به الناس بصيحات ابتهاج متحمسة وكأنه عائد من الموت .

حدث هذا من شهر حزيران في اليوم الثالث عشر قبل بداية شهر تموز في العام الرابع عشر من حكم بلدوين (١٣٥)

١٥- نور الدين يحاصر مدينة بانياس للمرة الثانية دون نجاح لزحف الملك نحوه .

اجتاح نور الدين المنطقة بأسرها وأغنى نفسه بالمغانم المأخوذة الآن من هذا المكان وفيما بعد من مكان آخر ، سيما وأنه كان محاربا لا يعرف التعب تواقا لمواصلة تحقيق نجاحاته ، فقد استدعى كتائبه مجددا وأمر بجمع قوات كبيرة أيضا من دمشق ومن جميع المناطق الخاضعة لسيطرته ، لأنه كان مصمما على محاصرة بانياس للمرة الثانية ، ولم يكن أي شيء أكثر بعدا عن تصوراته من أن يحضر من جديد الملك والنبلاء الذين كان قد أباد قسواتهم تماما ، لانقاذ المحاصرين ، ولذلك قام بتنفيذا لخسطه بضرب الحصار مجددا حول مدينة بانياس ووضع آلاته الحربية العديدة في مواقع استراتيجية ، فهزت الضربات القوية للقذائف الحجرية الأبراج وأضعف الأسوار ، وتساقط في الوقت نفسه وابل من السهام والذشاب كالبرد ومنع المقاومة كلها من جانب الذين كانوا في الداخل ، الا أن أهالي بانياس ، المتذكرين كم كانت عقيمة الجهود التي بذلوها لانقاذ المدينة من الحصار الذي انقضى منذ لحظات ،

انسحبوا مع بعضهم طواعية الى القلعة للحيلولة دون محنة مماثلة .

عندما غادر كافل المملكة المدينة ليتدبر بعض المسائل الأخرى ، كان قد عين قريبا له في القيادة العليا يدعى غي دي سكاند ليوم ، وكان رجلا صاحب خبرة واسعة في الحرب ، الا أن ولاءه كان مربيا ، وكان رجلا لا يخشى الرب وقد حاول هذا الرجل بالقول والقدوة أن يلهب حماسة الآخرين لبذل المقاومة من أجل الرجل الذي كان قد حمله المسؤولية وبسبب سمعته الشخصية أيضا وخشية من أن تتناقص الشهرة التي كانت بسالته الحربية قد حققتها له ، وأكد لهم أن النجدة ستصل فورا ، وأن شهرة رائعة وأبدية تنتظر الذين يستحقونها ، ونتيجة لذلك ، قاتل الجميع وكأنهم يحاربون لصالحتهم الشخصية ، وأثارت مقدرتهم في تحمل السهر الطويل والمشقات المستمرة دهشة العدو وأعجابه ومع ذلك ، فقد أصر الأتراك ، على القتال بكل قوتهم ضد عدو قوي مثلهم قاوم أيضا إلى الحد الأقصى ، وألحقوا كوارث بلا حدود بالمدافعين ، وكانت أعدادهم كبيرة ، وتمكنوا من نجدة بعضهم بعضا بالتناوب ، وعلى عكس ذلك لم يكن لدى المسيحيين أية احتياطات ليعززوا بها قوتهم ، وكان الضغط اليومي يدفعهم إلى حافة الاستسلام تقريبا .

علم الملك في هذه الأثناء أن مدينة بانياس كانت تعاني من شذائد رهيبية ، كما لم تحتجب هذه الحقيقة عن أعين نبلاء المملكة الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة ، فجرى إرسال الرسل على الفور إلى أمير أنطاكية وكونت طرابلس لحثهما على الإسراع لنجدة المدينة بدون تأخير ، وأرسل الملك المنادين لاستدعاء القلة الباقية من الفرسان في المملكة ، وهكذا حدث بفضل الرحمة السماوية أن وصل هذان الأميران الشهيران مع مواكبهما المهيبة إلى المعسكر الملكي في غضون زمن قصير ، وبشكل أسرع مما كان يتوقع بالفعل ، وكان

يمكن مشاهدة المدينة على مقربة من هذا الموقع الذي كان قريبا من حصن هونين في مكان يدعى « النقطة السوداء » (١٣٦)

أبلغ نور الدين على الفور أن القائنين كانا قد انضموا إلى الملك ، وكانوا جميعهم يستعدون للزحف إلى مدينة بانياس ، وكان هذا الأمير يتمتع بحكمة وبصيرة كبيرة في إدارة أموره ، فاعتقد أنه من الحكمة تجنب تقلبات المعركة بمخاطرها وأحداثها المجهولة وذلك على الرغم من أنه كان قد نجح في تسبب الكثير من الصدوع في الحصن ، وكان المحاصرون قد فقدوا كل أمل بالمقاومة ، ولهذا تخلى عن الحصار وانسحب إلى مكان بعيد في مملكته .

١٦- وصول ثيري كونت فلاندرز بحرا . إرسال الرسل إلى القسطنطينية للبحث عن زوجة للملك .

وهكذا كانت أحداث كثيرة متباعدة وواسعة الاختلاف تقع في المملكة ، وكانت البلاد مهجورة لأن معظم قبايل كانوا في الأسر ، وصنف أن حدث في هذا الوقت بفضل الرحمة الربانية أن نزل ثيري كونت فلاندرز في ميناء بيروت مع زوجته سيبيلا وهي أخت الملك من أبيه ، وكانت زيارات هذا الرجل البارز والمشهور التي حدثت أكثر من مرة ذات عون كبير وعزاء لنا .

ورحب به جميع الناس بابتهاج كبير ، حيث بدأ وصوله مع حاشيته يبشر أن محنة المملكة التي لا تحتمل ستخف الآن على نطاق واسع ، واتقنت آمال الذين تلهفوا بإخلاص لإحلال السلام في المملكة لأنه تولى فور وصوله وكأنه ملاك الرأي المصيب ، تسوية أمورهم وقايلتهم قدما إلى الأمام من أجل مصلحة المملكة ومجد العقيدة المسيحية كما يتم ذكر ذلك فيما بعد (١٣٧)

وفي هذه الأونة بدت مشكلة الملك الذين لم يكن قد تزوج حتى

- ٣١٧٦ -

الآن على الرغم من بلوغ سن الرجولة ، ستكون ذات اهتمام كبير للامراء المدنيين والكهنة في المملكة ، وكان الشيء المهم للغاية أن يكون له أطفال حتى يخلفه ابن له ويكون بمثابة الوريث الشرعي للمملكة ، وبناء عليه اجتمعوا للتداول حول ترتيب زواج مهيب لحاكمهم الذي لم يكن لديه أولاد حتى الآن ، وبعد تقليد الأمر وتبادل معق للأفكار تم التوفيق بين الآراء المختلفة ، واتفق بالاجتماع أن يتم التشاور مع امبراطور القسطنطينية حول هذه المسألة ، وكان يوجد في قصره الكثير من العذارى النيبالات اللواتي كن قريبات له بروابط الدم ، زد على هذا أنه كان بإمكانه - لكونه الملك الأقوى والأغنى في العالم - أن يخفف من فيضه وغناه المحنة التي كانت مملكتنا تكابد من وطأتها ، وأن يغير فقرنا الى غنى ، ولذلك ، جرى ارسال المبعوثين بموافقة عامة لينفذوا هذه الخطة بعون الرب ، واختير لهذه المهمة كل من اتارد رئيس أساقفة الناصرة وهمفري أوف تيرون كافل المملكة . وتقدما الى الساحل بعدما أعدا عدتهما في تلك الأثناء وركبا متن إحدى السفن هناك (١٢٨)

١٧- الملك يحث الخطا نحو أنطاكية بمرافقة
كونت فلاندرز وسائر قوات المملكة ، نور الدين يصاب
بمرض خطير .

كان الرأي المجمع عليه أن وصول أمير عظيم كهذا مع جنود شجعان ونبلأ كثيرين في موكبه يجب ألا يكون بلا ثمار وبدون نتيجة . ولذلك تقرر بموافقة جماعية وبوحي من الرحمة السماوية أن يتقدموا الى منطقة أنطاكية مع القوات المحاربة المتحدة ، ونقل هذا العزم الى أمير تلك المنطقة ، والى كونت طرابلس ، ودعي الاثنان بمودة ليجهزا قسواتهما في يوم محدد لغزو منطقة العدو ، وبناء عليه اجتمع بتأييد من السماء ، جميع المسيحيين من المناطق المختلفة في مكان يعرف باسم بـوكة في بلاد طرابلس ، وزحفوا بتشكيل المعركة من هناك الى المنطقة

المعادية ، الا أن النجاح لم يلزمهم في أول الأمر ، فقد شن هجوم ضروس على واحد من حصون العدو المعروفة باسم قلعة الروح الا أنه لم يثمر شيئا ، « لكن الحظ الأفضل يأتي بعند البداية التعيسة » (١٣٩) وهكذا ، تقدم الأمراء المجتمعون ، تلبية لاقتراح أرناط أمير أنطاكية وتوسلاته نحو منطقة أنطاكية في ظل بشائر خير أكثر إيجابية .

وبينما كان الملك والنبلاء متريثين هناك لرسم الخطة الأكثر إحكاما في ظل تلك المعطيات ، وصل رسول يحمل أكثر الأخبار استساغة ، وأكثر صحة وهو أن نور الدين ، أقوى أعدائنا ، الذي كان قد خيم مع جيش ضخم بالقرب من قلعة إنب ، قد توفي أو كان متمددا وهو مصاب بمرض عضال وبشكل ميؤوس منه ، وكبرهان على صحة ما ذكره روى الرسول أنه كان قد شهد في اليوم السابق اضطرابا كبيرا في معسكر نور الدين ، ويبدو أنه تم إهمال عبيده له وتخلي عنه أكثر العناصر ثقة في حاشيته ، وإهملت جميع ممتلكاته الخاصة بدون تمييز ، وباتت عرضة للنهب من قبل أي شخص شاء ، وعلاوة على ذلك ، ذكر أن الجنود الباكين والناحبين بحزن عميق قد تفرقوا هنا وهناك بـ اضطراب كبير وفوضى شديدة (١٤٠) وتأكدت صحة الرواية التي نقلها الرسول ، فقد كان نور الدين قد أصيب بداء خطير جدا ، وأصبحت صفوفه غير منتظمة وكما هي العادة بينهم عندما يموت حاكمهم كان العنف اللامحدود وأعمال النهب منتشرة في جيشه وكان رجال نور الدين المخلصون قد نقلوه على حمالة الى مدينة حلب بعدما أصبح عاجزا عن التحرك جسديا وضعيفا تماما .

أدرك المسيحيون لدى تلقيهم هذه الأخبار عن أحوال العدو أن جميع الأشياء كانت تتفاعل مع بعضها بعضا لتحقيق نجاح مشروعهم ، ولذلك جرى إرسال الرسل بموافقة جماعية الى طوروس ، وهو أمير أرمني قوي جدا ، وبعثوا اليه دعوة ودية للغاية في أن يتلطف بالانضمام اليهم في مشروع وعدوه أنه سيكون

مثمرا جدا ، وصدرت التعليمات الى الرسل في أن يستخدموا كل وسيلة ممكنة لاقتناعه في أن يتخلى عن جميع المعانير وأن ينضم الى القوات المتحالفة في انطاكية بنجدة قوية ، وتلقى طوروس الرسالة بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب شخصية نشطة متاهية للعمل ، فقد جمع على الفور جيشا ضخما ، وزحف بسرعة قصوى نحو انطاكية ، ورحب به المسيحيون بابتهاج وقيدت القوات على الفور من المدينة وتوجه الزحف نحو شيزر .

١٨ - حصار شيزر والاستيلاء عليها خلال وقت

قصير .

تقع مدينة شيزر على نهر العاصي نفسه الذي يجري بمحاذاة انطاكية ، ويدعوها بعضهم باسم قيسارية ويعتقد من خلالهم أنها حاضرة كيبادوكية المشهورة التي رأسها في إحدى المرات المعلم البارز القديس باسيل ، الا أن الذين يؤمنون بهذا الرأي يقتضون خطأ كبيرا ، لأن قيسارية تلك تبعد مسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو أكثر عن انطاكية ، وتقع هذه المدينة في سورية المجوفة وهو أقليم يقع بينه وبين كيبادوكية أقاليم كثيرة ، كما أن الاسم ليس قيسارية ؛ بل هو قيصرية وشيزر هي إحدى المدن الاسقفية التابعة لبطريركية انطاكية ، وهي واقعة بشكل موثم جدا ، ويمتد الجزء السفلي منها على طول السهل ، بينما تقع القلعة على الجزء العلوي ، وهي قلعة طويلة بعض الشيء في امتدادها الا انها ضيقة نوعا ما ، وهي محصنة بشكل جيد ، فبالإضافة الى دفاعاتها الطبيعية ، فإن النهر يحميها من جانب واحد وتحميها المدينة من جانب آخر بحيث يتعذر بلوغها على الاطلاق .

تقدم المسيحيون بصفوف حسب قواعد النظام العسكري ، وقام القادة فور وصولهم الى المدينة بتوزيع جنودهم بالنظام الأمثل

وحاصروا المدينة ، ودفع الخوف من العدو سكان المدينة الى التراجع الى داخل الاسوار حالما بدأ الحصار ، ونصب الملك والمخيمون في الخارج الاتهم الحربية وآلات قذف القذائف على الفور ، ولم يتراخوا في جهودهم ولولداقيقة واحدة ، بل حاولوا أن يلحقوا بعدوهم كل ضرر ممكن حتى يمكن إنهاك قوة المدافعين بشدة ومشقة متواصلة ، وأجهد كل قائد نفسه بشجاعة في القطاع الخاص الذي كان قد عين فيه منذ البداية ، ورفع معنويات جنوده بالأقوال التشجيعية والوعود بالمكافآت لبذل المزيد من الجهود القوية ، ورغب كل واحد منهم أن يكون أول من يقتحم المدينة ، وسعى ليحقق لنفسه الفخار بكونه أول من يدخل المدينة ، وأحدثوا بها لهذا السبب دمارا نريعا الى حد أن الموت بدأ يهدد سكان المدينة من جميع الاتجاهات .

لم يكن لدى سكان شيزر سوى معرفة بسيطة باستخدام الأسلحة ، وكان اهتمامهم موقفا على التجارة الى أبعد الحدود ، وعلاوة على ذلك ، وبما أنهم كانوا جاهلين تماما بالحنة التي كانت قد حدثت مؤخرا ، فانهم لم يخشوا أدنى خشية من الحصار ، وكانوا يثقون بدفاعات مدينتهم وبقوة حاكمهم الذي كان بصحة جيدة حسبما كانوا يعتقدون ، حيث أنهم لم يتمكنوا من تحمل أعباء من هذا النوع ، ولم يستطيعوا مواصلة الصمود تحت وطأة الهجمات والمناوشات المتواصلة ، فقد استسلموا بعد بضعة ايام تحت الضغط المستمر لمهاجميهم واقتحم المسيحيون التحصينات واندفعوا الى وسط المدينة واستولوا عليها بالقوة ، فتراجع الناس الى القلعة وتخلوا عن كل ماكان قد بقي في المدينة السفلية ، وجرى التخلي عن كل شيء بدون استثناء للعدو ليقوم بسلبه ، وهكذا ، استخدم المسيحيون حسب هواهم منازل الناس بكل ما كانت تشتمل عليه انما لعدة ايام فقط .

وتفجر سبب تافه للخلاف بين قسائنا لكنه كان مزرعجا للغاية ، وحدث هذا في الوقت الذي بدأ فيه من المؤكد تماما أنه يمكن

الاستيلاء على القلعة بسهولة وذلك تحت الضغط المستمر وبالتالي القاء القبض على جميع الذين كانوا قد هربوا الى هناك طلباً للملجأ ، وكان الملك مهتماً بمستقبل تقدم البلاد ، وبما أنه كان عارفاً أن كونت فلاندرز سيتمكن مع قوته الكبيرة من الفرسان والوسائل الكثيرة التي بحوزته من حماية المدينة تماماً ضد قوى الأتراك ومكائدهم فقد خصص شيزر له منذ البداية ، وبما أنه كان يفكر بهذا الأمر ، فقد شن هجوماً عنيفاً على القلعة حتى يتمكن من وضع المدينة والقلعة تحت حماية الكونت ويحتفظ بهما كملكية وراثية الى الأبد ، وبدا هذا الترتيب لجميع القادة أنه ترتيب مناسب تماماً ووافقوا بالاجماع عليه .

بيد أن الأمير أرناط وحده أثار المصاعب ، وأعلن أن شيزر كانت قد شكلت منذ ع توابعها جزءاً من ميراث أمير انطاكية، ولهذا السبب على من يمتلكها أن يقسم يمين الولاء له ويعتبره سيدياً له ، ومع أن الكونت ثيري كان على استعداد لتقديم الولاء للملك في سبيل تملك شيزر فقد رفض بشكل قاطع أن يؤدي يمين الولاء لأمير انطاكية سواء أكان أرناط الذي كان يدير الإمارة حالياً ، أو بوهموند الشاب ، الذي كان يؤمل أنه سيتسلم السلطة حالاً ، وقال إنه لن يقدم الولاء الا للملوك (١٤١)

وهكذا ، وعقاباً على ذنوبنا ، نشب خلاف بين القادة حول هذه المسألة ، وتم التخلي عن المشروع الذي كان هاماً جداً والذي كان في قبضتهم تقريباً ، وعاد المسيحيون الى انطاكية مع فيالقهم وهم محملون بالمغانم والأسلاب الى درجة الاشباع التام .

١٩- أخو نور الدين يتحرك ضدنا . موت فولتشر بطريك القدس . عودة حصن كهف (وادي الراحوب) الواقع وراء الأردن إلنا . الملك يحاصر قلعة حارم الواقعة في منطقة انطاكية ويستولي عليها .

في هذه الآونة قدم ميرميران أخو نور الدين الى حلب ، بعدما علم بالكارثة التي حلت بأخيه ، واعتقد أنه كان قد توفي ، وسلم له السكان المدينة على الفور بدون إثارة أية متاعب ، وبينما كان يهاجم القلعة بقوة ليجبرها على الاستسلام أيضا ، سمع أن أخاه مايزال على قيد الحياة ، ولذلك فرق عساكره على الفور ورحل (١٤٢)

وتوفي في هذا الوقت نفسه أيضا فولتشر البطريك اللاتيني الثامن للقدس ، وكان رجلا متدينا ويخشى الرب ، وحدث هذا في العام الثاني عشر من توليه لمنصب بطريكته ، وفي اليوم الثاني عشر قبل بداية شهر كانون الأول (١٤٣)

وفي هذه الآونة استرد المسيحيون أيضا معقلا على الناحية الأخرى من الأردن في منطقة جلعاد ، وكان هذا في الواقع ، على شكل كهف ، جيد التحصين ، (قد تم الاستيلاء عليه خداعا من قبل الأعداء قبل بضعة أعوام بسبب إهمال قواتنا ، وكانت استعادته قد تمت وإلى حد كبير بفضل الجهود الحماسية للملكة ميليساند وبمساعدة العمل الفعال للذين تركوا في المملكة ولاسيما رعاية بلدوين دي ليلي الذي كان الملك قد عهد إليه بالمسؤولية عن المملكة أثناء غيابه) وأرسلت أخبار هذا النجاح إلى الملك فجلبت سرورا كبيرا للجيش بأكمله ، وكانت مصدر سعادة كبيرة للجميع .

وفي تلك الأثناء كان القادة مايزالون مقيمين في انطاكية وبما أنهم رفضوا الاستمرار في حالة الخلاف التي كانوا عليها أمام شيزر

فقد توصلوا الآن بنعمة الرب الى وحدة في الروح والهدف ، ولهذا صمموا بالروابط السلمية التي قامت بينهم أن يتولوا القيام من جديد بعمل بارز . ويكون جديرا بالتذكر الى الأبد ، وتقرر بموافقة الجميع ومساعدتهم ضرب الحصار على (حارم) وهي إحدى القلاع الواقعة على بعد / اثني عشرة ميلا / من أنطاكية ، حيث باشر هذا الموقع نفوذا كبيرا وسلطانا على القرى التي تدعى قرى الجزر وكان مصدر ازعاج كبير للمدينة نفسها ، وبناء عليه ذهب الجيش بأسره بتصميم واحد وخيم أمام المدينة وذلك في يوم ميلاد الرب .

وفي الوقت نفسه كان المرض ، الذي هاجم نور الدين ، ما يزال مسيطرا عليه ، وكان قد تم استدعاء امهر الاطباء من سائر انحاء الشرق ، الا ان مرضه رفض الاستجابة الى العلاجات التي استخدموها واصبحت حياته ميؤوسا منها الآن ، وبدا هذا الأمر بالنسبة للمسيحيين بأنه مؤشر ايجابي على أن العناية السماوية تساعدهم في مشروعهم ، فلو كان نور الدين مستمتعا بصحته وقوته المألوفتين لصعب على جيشنا أن يتصرف بحرية زائدة في الأقاليم التي كانت خاضعة له .

وحول الملك وأولئك الذي رافقوه في هذه الحملة الفرصة لمصلحتهم ، ودفعتهم المعرفة الأكيدة ان هذا المحارب العظيم لم يكن قادرا على المشاركة في أموره الخاصة ، وهذا ما شجعهم للسعي وراء هدفهم بحماسة كبيرة ، وإلى تشديد الحصار باتقاد زائد ، وهكذا ، فقد حاصروا القلعة من جميع الجهات ونصبوا آلاتهم الحربية وأعدوا جميع الأدوات التي تستخدم عادة في حصار القلاع .

كانت القلعة ، التي نحن بصدها ، تقع على هضبة منخفضة مثلت مظهر متراس مبني هناك بشكل اصطناعي كأساس للبناء . ولهذا أوقف الرجال الأكثر بركة في الجيش أنفسهم على

انشاء معمرات سرية من مواد مناسبة بحيث يتمكن الجنود ، الذين
توجب عليهم أن ينسفوا السد ، من الاختباء بشكل آمن . وبدأ
لهم - وكانوا مصيبين في ذلك - أنه اذا تم لغم القلعة بممرات سرية
لا بد من أن ينهار جزء من الابنية المقامة فوقها ، فأعدت بسرعة
ستائر الصفصاف المجدولة والسلالم ذات الطول المعتدل وجميع
المعدات الأخرى التي قد تكون ذات فائدة في عمل كهذا ، وعندما كان
كل شيء قد جهز بالعناية المثلى صدرت الأوامر بصوت المنادي الى
زعماء كتائب المشاة والفرسان وأوامر سرية لينكبوا على الفور
وباجتهاد على عمل الهجوم ، وخصص مكان محدد لكل زعيم
وواصل العمل مع أصدقائه وأتباعه بضراوة وكان نجاح المسألة
بأسرها كان يعتمد عليه نفسه فقط ، وكان كل قائد تواقا ليثبت أن
أتباعه كانوا الأفضل ، وهكذا واصلوا بهجمات مستمرة وبمناوشات
يومية العمل بإصرار بالغ بحيث أن المشروع ، الذي كان يستغرق
بالشكل العادي أياما كثيرة ، أنجز في غضون شهرين بفضل
الاهتمام واليقظة .

وحدث ذات يوم أن سقط حجر كبير مقنوف من إحدى آلات
القذف الحربية ، التي كانت تقصف ليل نهار ، على القائد العام
للقلعة الذي ارتكز عليه الدفاع بأكمله ، فسحق على الفور وتحول
الى أشلاء وتفرق الناس عند موته كالغنم عندما يصرع
الراعي ، وكالرمل بلا كلس فهو لا يستطيع أن يتماسك مع
بعضه ، وهكذا ، توقفت المقاومة العنيدة التي كانوا قد أظهروها
حتى الآن .

وحالما أدرك المسيحيون هذا ضاعفوا جهودهم وبالمقابل
تناقصت مقاومة الحاصرين بالقدر نفسه ، وأرسلوا في
الحال - لابل في الحقيقة بعد بضعة أيام - وفدا الى
الملك ، وعرضوا عليه تسليم الموقع له شرط أن يسمح لهم بالذهاب
الى موطنهم بحرية وأمان مع جميع ممتلكاتهم ، وطلبوا تزويدهم

بالمُرشدِين ليحموهم من التعرض للهجوم وليقودوهم الى هدفهم
المنشود بأمان .

وهكذا تم الاستيلاء على القلعة ، وسلمت الى أمير
انطاكية ، حيث كانت تقع تحت سلطته من قبل ، وعاد القادة الى
انطاكية بعدما أنجزوا حملة ناجحة ، وهناك فارقهم الملك بعدما
تبولت كلمات الوداع ، وعاد الى المملكة بمرافقة كونت فلاندرز
الرائع ، ورافقهم كونت طرابلس بلطف على الطريق حتى
طرابلس (١٤٤)

٢- اختيار أمالك رئيس الشمامسة السالف في
كنيسة القبر المقدس في القدس ، بطريكاً . انتخابه
بسبب نشوب نزاع بين الأساقفة .

كانت كنيسة القدس في هذه الآونة بلا بطريك بسبب وفاة
فولتشر ذي الذكرى العزيزة ، ولذلك اجتمع رجالات الكنيسة في
المدينة المقدسة لمعالجة مسألة اختيار رجل لشغل هذا الكرسي الهام
حسب القواعد الكنسية ، وقد ادعى ان الاختيار أجري بشكل غير
نظامي بسبب تدخل أخت للملكة ميليساند وسيبيلياكونتس فلاندرز
أخت الملك ، وانتخبت أمالك مقدم رهبان كنيسة قبر المسيح (١٤٥) .

كان أمالك فرنجي المولد من مدينة نسله الواقعة في أسقفية
نيون ، وكان رجلاً عالي الثقافة لكنه كان سانجاً للغاية وقليل
الفائدة للكنيسة ، وقد جرى اختباره لهذا المنصب خلافاً لرغبات
هيروذسيوس رئيس أساقفة قيسارية ورغبات رالف أسقف بيت لحم
الذي طالب بالعدول عن قرار تعيينه ، وبعدما اعتلى أمالك عرش
البطريركية وضع المسألة في أيدي فريدرك أسقف عكا الذي ذهب الى
الكنيسة الرومانية التي كان يحكمها آنذاك هادريان ، ويقال ان
فريدرك ضمن لأمالك باستخدامه السخي للهبات ، وبغيا

خصومة ، تأييد بابا الرومان ، وجلب معه طيلسان الحبرية مع اعتراف تام بدعوى أمالك بمنصب البطريرك .

٢١- نور الدين يحاصر كهفا في منطقة السواد تعود ملكيته للمسيحيين . الملك يزحف ضده وينجح في رفع الحصار . نور الدين يتحارب مع المسيحيين ويصاب بالهزيمة .

كان في هذه الأثناء نور الدين قد شفي من المرض الذي أصابه وذلك بفضل المعالجة الدقيقة التي تلقاها من أطبائه ، وكان الملك قد عاد الآن الى مملكته ، وذهب الأمير التركي الى دمشق بنشاط صحي تام ، ولكي لايمضي الوقت بلا عمل وحتى لايتهم بالتراخي في يقظته المألوفة ، استدعى جيشه خلال الصيف التالي ، وجمع قوة ضخمة من الاحتياطات وشن هجوما مفاجئا على إحدى قلاعنا ، وكانت هذه القلعة تتألف من كهف في المنطقة التي تدعى السواد وهي واقعة على جانب هضبة مرتفعة ومنحدرة جدا ، ولم يكن هنالك أي طريق لبلوغ هذه القلعة من الأعلى او الأسفل ، الا من الجانب بواسطة ممر ضيق وخطر على طول جرف ، وكانت في داخله غرف ومعدات نوم قدمت التجهيزات اللازمة للقائمين هناك ، وكان هنالك أيضا ينبوع مياهه موائمة للحياة لم تتلوث ، ويقدر ماسمحت الرقعة المحدودة الضيقة للموقع فانه كان مجهزا بشكل جيد واعتبر مفيدا جدا للمنطقة .

وعلم الملك بنياً هذا الحصار بواسطة رواية موثوقة ، فجمع قوات المملكة على الفور ، واسرع الى هناك بممرافقة كونت فلاندرز ، وكان الناس الموجودون في داخل الكهف غير القادرين على تحمل قساوة الصراع قد أعدوا شروطاً مؤقتة للاستسلام حسبما تفرض ذلك الضرورة عادة ، اي انهم سيسلمون التحصينات اذا لم

- ٣١٨٦ -

تصلهم المساعدة خلال عشرة ايام ، وعلم الملك بهذه الحقيقة ايضا ، ولذلك بذل اقصى مايمكنه للاسراع لنجدهم ، وخيم مع جيشه بالقرب من طبرية بجانب الجسر حيث تنفصل امواج نهر الاردن عن امواج بحيرة طبرية .

لكن حالما علم نور الدين ان الملك كان قريبا تولى عن الحصار وزحف مع جيشه الى الامام نحو المسيحيين وذلك بناء على نصيحة شريكوه القائد العام لجيشه الذي كان رجلا شجاعا جدا واثقا تمام الثقة من نفسه .

وبعدما علم الملك ان نور الدين قد عقد العزم على مهاجمته استدعى نبلاءه الى قصره في وقت مبكر من الفجر وقدم في اول الامر التمسح وقير المتسح واضع لصلب الصليب الصليبوت المانح للحياة الذي كان يحمله سلفنا بطرس نوا الذكرى العزيزة كرئيس لاساقفة مدينة صور ، ثم أعلن عن خوض القتال بموافقة جماعية ، وحركت الصفوف وتقدمت بابتهاج روي وكأنها متيقنة من النصر ، وسارت الى الامام الى الموقع الذي قيل ان جيوش نور الدين كانت موجودة فيه ، وعندما اقتربت كتائب المسيحيين حسب أمنيتها من العدو ، بترتيب المعركة وهي مدججة بالسلاح انقضت على الأتراك واستخدمت سيوفها استخداما عنيفا وكأنها مصممة أن تقاتل حتى الموت ، إلا أن الأتراك الجسورين تحملوا الهجوم دون اضطراب ، وشنوا هجوما معاكسا بالسيوف ، وحاولوا بمقاومة شجاعة أن يصدوا هجوم أعدائهم .

وفي النهاية منحت السماء النصر إلى المسيحيين بعد تيارات متقلبة للقدر ، فهزم العدو هزيمة ساحقة بعدما أصيب بخسائر جسيمة واحتل الملك مع جيشه الميدان كمنتصر ، حدثت المعركة في فيق في الأسبوع الثاني من شهر تموز من العام الخامس عشر لحكم الملك بلدوين (١١٦٦) .

ودأى بلدوين من ثم أنه من الموائم أن يزحف بجيشه إلى القلعة التي كانت واقعة تحت الحصار ، وأصلح هناك الضرر الذي كان قد أصابها وزودها بعناية بالأسلحة والطعام والجنود الشجعان ، ثم أذن لعناصر جيشه وصرفهم إلى منازلهم وعاد إلى المملكة بعد حملة ناجحة .

٢٢ - عودة الرسل الذين أرسلوا إلى القسطنطينية بخصوص مسألة زواج الملك . جلبهم معهم ابنة الامبراطور كزوجة للملك .

كان كما ذكرنا من قبل مبعوثون قد ذهبوا إلى القسطنطينية لترتيب زواج الملك ، وقد مات هناك واحد منهم يدعى أثاردي وكان رئيسا لأساقفة الناصرة ، وجلبت جثته إلى الكنيسة التي كان يعمل بها بفضل عناية وغيره رفاقه المخلصين ، وقد خلفه ليتارد رئيس شماسة الكنيسة ذاتها ، وكان رجلا لطيفا جدا ودمثا وأنيسا ولا يزال باقيا في المسؤولية ذاتها للعام الثالث والعشرين من منصبه (١٤٧) ، وكان المبعوثون الباقون على قيد الحياة هم همفري كافل المملكة وجوسلين بيسلوس ووليم دي بريس وكانوا رجالا نبلاء وبارزين ومتكئين تماما من الأمور المدنية ، وقد تابعوا باجتهاد موائم المهمة الموكولة إليهم في مقر الامبراطور ، ونفذ مطلبهم بعد تسويات لا تحصى ، وإجابات ملتبسة قدمت بإسهاب مريبك وفق الأسلوب الذي يتصف به الأغريق المكررة ، ويستخدّمونه بالعادة ، وبعد أن أنهت الترتيبات بخصوص المهر وهبة الزفاف جرى تعيين فتاة لامعة لتكون زوجة للملك ، وكانت أميرة تربت في أكثر الأمكنة انعزالا في القصر الامبراطوري ، وكانت في الواقع ابنة أخبي الامبراطور ابنة أخيه الأكبر اسحاق ، وكانت تدعى ثيوبورا وكانت عنراء في الثالثة عشر من عمرها ذات جمال فريد من نوعه بالشكل والملامح على حد سواء ، كان مظهرها الكامل يؤثر على كل من

راها ، وتكون مهرها من مائة ألف قطعة نقدية ذات قيمة ثابتة وذلك بالاضافة إلى عشرة آلاف من العملة ذاتها التي قدمها الامبراطور بسخاء لنفقات الزفاف ، ويمكن تقدير تكاليف جهاز الزفاف للفتاة المؤلف من الذهب والمجوهرات والأثاث واللآلئ والزراحي والبسط والأنسجة الحريرية وكذلك الأواني الثمينة ، بما تعادل قيمته أربعة عشر ألف قطعة نقدية إضافية (١٤٨)

كان الملك قد أرسل ضمانا إلى الامبراطور مكتوبة بخط يده وهي انه سيصادق بنفسه على أي شيء يوافق عليه مبعوثوه بالنيابة عنه ، ووعدا بصدق أن الملكة ستحتفظ في حال وفاة الملك بمدينة عكا مع جميع توابعها بمثابة حصّة زواج ملكية مدى الحياة بكل الهدوء وبدون نزاع ، وهكذا سويت المسألة بحلول سارة لكلا الطرفين ، وانتخب مرافقو العروس من أرفع نبلاء الامبراطورية لمرافقة السيدة في رحلتها إلى الملك ، وانطلقت في رحلتها إلى سورية في ظل رعاية المبعوثين لتذهب إلى زوجها .

ونزلت خلال شهر أيلول التالي مع جميع حاشيتها بأمان في مدينة صور ، ورسمت خلال بضعة أيام تلت ذلك في القدس حسبما اقتضت عادة الملكة ، وتوجت بالتاج الملكي ، ثم قدمت لزوجها بعد انتهاء الطقوس المهيبة للزواج ، ولم يتلق بطريرك القدس المنتخب هبة التكريس في ذلك اليوم لأن المبعوثين ، الذين أرسلوا إلى البابا من أجل قضيته ، لم يكونوا قد عادوا الآن ، ولذلك جرى استدعاء إيمني بطريرك أنطاكية بأمر ملكي ليمنح نعمة المسيح الملكية للملكة ولإقامة طقوس الزواج المألوفة (١٤٩) ، وتخلّى الملك منذ أن تزوج عن كل الطيش الذي كان - حسب الشائعة - قد أظهره بإفراط حتى الآن ، ويمكن من ذلك الحين فصاعدا ان يردد مع الحوار: « لما كنت طفلا كطفل كنت اتكلم وكطفل كنت افطن وكطفل كنت افكر لكن لما صرت رجلا ابطلت ما للطفل (١٥٠) . ويقال انه تعلق دائما بزوجته بحب جدير بالثناء ، ويعتقد انه كان مخلصا حتى النهاية ، وبدأ يت-----ولى القيام

بأعمال هامة ويشغل نفسه تماما بأمور جادة بعدما تخلى عن السلوك الطائش وكأنه قد تبدل ولم يعد ذلك الرجل السابق (١٥١)

٢٣ - قدوم امبراطور القسطنطينية الى انطاكية - الامير أرنات يعتذر عن الآثام التي اقترفها في قبرص فيحظى بالقبول

في غضون ذلك العام نفسه عزم امبراطور القسطنطينية على النزول إلى سورية ، وجند جنودا من جميع أقاليم مملكته ، بشكل يتمشى مع عظمتة الامبراطورية ، وعبر بجيشه الضخم ، المجموع من جميع القبائل والشعوب والأمم ، البوسفور ومر بسرعة خلال جميع المناطق الفاصلة وظهر في حوالي بداية شهر كانون الأول في كليكية على رأس جيوشه وبشكل مفاجيء للغاية لدرجة بدا فيها أن الأمر لم يكن معقولا ، وكان السبب المباشر لمسيرته المسرعة على النحو التالي : كان هنالك أمير أرمني يدعى طوروس - كنا قد ذكرناه من قبل - قد استولى بالقوة على سائر منطقة كليكية المتاخمة للجبال التي كان يملك فيها عدة قلاع حصينة جدا ، ولم تنج منه أية قلعة مسورة أو قرية بعيدة ، وكانت كل من عين زربة وطرسوس عاصمتي كليكية الأولى والثانية قد وقعتا كل على حده تحت سلطته بالاضافة إلى مدن أخرى أيضا بينها المصيصة وأذنه وسيس حيث كان قد طرد الولاة المعينين هناك لإدارة المصالح الامبراطورية ، ولذلك ، كان الامبراطور قد أسرع في سيره وأخفى غايته لكي يباغت الامير الأرمني .

وكان لرحلته هدف آخر أيضا ، فقد كانت عاطفته قد اثارتها القضية المحزنة للقبارصة الذين يستحقون تأييده تماما والذين كانوا - كما ذكرنا من قبل - قد خضعوا للطغيان الوحشي لأمير انطاكية الذي عاملهم وكأنهم اعداء للعقيدة وقتلة مجرمون .

لقد كان قدوم الجيوش الامبراطورية مفاجئاً للغاية بحيث لم يتسن لطوروس ، الذي كان مقيماً في طرسوس ، الوقت الكافي للهروب إلى الجبال المجاورة أمام الفيالق وقادة الجيش الذين كانوا ينتشرون فوق السهل المكشوف .

عندما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذه الأخبار أنه ضميره تأنى عظيمًا وندم على ما اقترفه من آثام ، وكان قد قام قبل وصول الامبراطور بصب جام غضبه على القبارصة الأبرياء وارتكب بحقهم وحق زوجاتهم وأطفالهم إساءات بغيضة بنظر الله والانسان ، ولذلك فقد خاف من وصول الامبراطور (١٥٢) خشية من أن يتولى القيام بالثأر لمظالم شعب مهان بعدما حركته قضيتهم العادلة ، وبدأ الأمير يفكر مباشرة تارة بعقله وتارة أخرى بالتداول مع أصدقاء حميمين استدعاهم بخصوص منحى العمل الذي يمكن أن يتخذه وكيف يمكنه التكفير عن ذنبه وإرضاء العظمة الامبراطورية عن إساءة عميقة جدا كهذه ، ويقال إن وصول الامبراطور أربه غاية الرعب حتى أنه لم ينتظر وصول ملك القدس ، الذي كان على وشك الوصول مع أنه يعرف أنه سيتمكن من خلال وساطة ملك القدس ونفوذه ، الذي ازداد بالزواج الذي تم من ابنة أخى الامبراطور مؤخرا ان يضمن علاقات لنفسه أفضل بكثير .

ولذلك قام بناء على نصيحة بعض أعوانه باختيار بعض النبلاء منهم لمرافقته ، وتوجه إلى كليكية ، حيث كان الامبراطور موجودا مع قواته في تلك الوقت ، ورافقه في هذه الرحلة أيضا جيرارد ، الأسقف المبجل للأنقية ، وتقدم ، بعدما حقق في أول الأمر تأييد بعض عناصر بلاط الامبراطور للتوسط لالتماسه ، إلى مدينة المصيصة حيث استرد رضا وحظوة صاحب الجلالة الامبراطور بعدما قدم تعليقات محكمة كثيرة كانت مشحونة بالخزي والعار للمسيحيين ، ويروى أنه مثل على مشهد من جميع القوات المحتشدة أمام الامبراطور وهو حالي القدمين يرتدي سترة قصيرة حتى المرفق .

- ٣١٩١ -

مع حبل حول عنقه وبيده سيف مسلول أمسكه من رأسه وقدم قبضته إلى الامبراطور ، وبعدما سلم سيفه القى بنفسه على الأرض عند قدمي الامبراطور حيث بقي ممددا على الأرض حتى اشمأز الجميع ، وتحول مجد اللاتينيين إلى خزي ، كان رجلا مقدما بشكل غير طبيعي على اقتراف الآثام والتوبة على حد سواء (١٥٣)

٢٤ - الملك يسرع إلى منطقة أنطاكية ، ويستقبل من قبل الامبراطور بالترحاب ويخلع عليه الخلع والعطايا .

عندما علم الملك بوصول الامبراطور توجه نحو أنطاكية بمرافقة اخيه وتحيط به حاشية منتخبة من أعظم نبلاء المملكة ، وكان كونت فلاندرز قد صمم على العودة إلى الوطن بالرحلة البحرية القادمة ولذلك تخلف ولم يحضر معه .

أرسل الملك لدى وصوله سفارة إلى الامبراطور كانت مؤلفة من غودفري مقدم الداوية ، وكان رجلا متمكنا تماما من اللغة الاغريقية والنبيل جوسلين بزللوس . وتوجب عليهما أن ينقلا بطريقة لبقة التحيات اللائقة بجلالته الامبراطورية ، وأن يستفسرا عما إذا كان يسره أن يمثل الملك أمام حضرته ، وصدرت الأوامر للرسول ردا على رسالتهم بدعوة الملك بإلحاح بالغ للقبول على الفور ، أضيف إلى هذا أنه أرسل أن لا يؤجل القبول إليه لأنه يعتبر ابن الامبراطورية المحبوب .

وبناء عليه ذهب الملك إلى هناك في اليوم المحدد مع حاشية منتخبة من النبلاء البارزين جدا ، واستقبل بطريقة مشرفة للغاية ، وتنفيذا لأمر الامبراطور ، استقبله نبيلان من المرتبة العليا بين الرجال البارزين في القصر المقدس وهما يوحنا المسؤول عن المراسم

والكسيوس الحاجب ، وهما شقيقان لأم واحدة وابنا أخوة
للإمبراطور نفسه ، ورافقتهما حاشية رائعة من النبلاء ، وتوجه
الملك بقيادة هذه الحاشية إلى مدخل السرادق الذي كان يقيم فيه
الإمبراطور مؤقتا مع معظم نبلائه البارزين .

قدم الملك باحتفاء كبير ، وحياء الإمبراطور بلطف وقبله قبلة
السلام. وأجلسه إلى جانبه على مقعد الشرف مع أنه كان في موقع
أخفض من مقعده ، ثم جرى الترحاب برفاق الملك بتحيات لائقة ،
ومنحهم قبلة السلام أيضا ، ثم استفسر باهتمام عن صحة الملك
وعن صحة أعضاء أركان حاشيته ، ودل التعبير المدهش لسيمائه
وأقواله وموقفه العام أيضا أنه كان مسرورا للغاية بقدمهم ومبتهج
لحضور ملك لامع من هذا القبيل مع حاشيته ، ولأزم بلدوين
الإمبراطور وبقي معه لمدة عشرة أيام بدون انقطاع ، واستمتع منه
بمحادثة سارة ، وأجريا أحاديث متكررة كل على حدة وبحضور
النبلاء أحيانا ، كان الملك ودودا ودمثا جدا ، وحقق أثناء إقامته
حظوة كبيرة لدى الإمبراطور ولدى نبلائه الذين ارتبطت قلوبهم به
بروابط الحب العميق ، وتعلقوا به بالفعل بعد ذلك طالما بقي حيا
معتبرين إياه ابنهم المفضل ، ولم يتوقفوا حتى يومنا هذا - مع أنه
متوفى - عن تذكره بشكل عزيز ورائع .

كان بلدوين رجلا نشيطا صاحب بصيرة ثاقبة بخصوص الأمور
الدنيوية ، فقد رغب في أن تثمر إقامته مع الإمبراطور فوائد جمّة ،
وقد لاحظ أن الإمبراطور كان قد أمر بحشد القوات في معسكر خارج
المدينة لارسالها في حملة ضد طوروس الذي كان يطارده بكراهية
شديدة ، وبدأ بلدوين ، بعد أن طلب الاذن ، يحاول القيام بإحداث
تفاهم طيب بين الإمبراطور وذلك النبيل ، واستدعى إليه طوروس
ورتب اتفاقا سلم بموجبه هذا الأمير القلعة التي كان الإمبراطور
يطلب بها ، وأعيد بعد ذلك إلى رعاية تامة ، وهكذا ، أدى طوروس
يمين الولاء إلى الإمبراطور عن طريق وساطة الملك ، ثم عاد إلى
ممتلكاته (١٥٤)

- ٣١٩٣ -

وعلمنا من بعض الأشخاص الذين تعد شهادتهم موثوقة تماما أنه بالإضافة إلى الهبات التي أهدقت على أتباع الملك يسسخاء كبير - قيل إن هذه الهبات كانت لا تحصى - كانت الثروات التي منحت للملك وحده قد بلغت اثنين وعشرين ألف قطعة ذهبية وثلاثة آلاف قطعة فضية ذات وزن قياسي ، وشكلت الأثواب والأنسجة الحريرية والأباريق النفيسة جزءا من الثروة الممنوحة أيضا (١٥٥)

وجد الملك في أنطاكية أخاه عموري كونت يافا وعسقلان ، وكان معه هيوذي ابلين الذي كان قد تحرر من أسر العدو مؤخرا ، وكان قد عاد ليعيد تنصيب نفسه في منصبه السابق ، وبما أنهما رغبا بزيارة الامبراطور ، فقد انطلقا حالا إلى هناك ، وقدم لهما هبات سخية في نهاية زيارتهما وأعادهما مسرورين إلى المملكة .

٢٥ - دخول الامبراطور إلى أنطاكية . إظهاره سخاء كبير نحو السكان . عودته من هناك على الفور إلى بلده .

احتفل الامبراطور بعيد الفصح المقدس في كليكية وأمضى عدة أيام في تلك المنطقة ، ثم قاد جيوشه إلى أنطاكية ووقف أمام المدينة بشكل مربع بسبب عدد جنوده الكبير ، وخرج البطريرك حاملا كتب الأناجيل ومعه رجال الدين وهم محاطون بكل الروعة النطقوسية للكنيسة لمقابلة الامبراطور ومعه جميع الناس ، وأطلق الملك أيضا بكياسة كبيرة للترحيب به ومعه أمير أنطاكية وكونت عسقلان وتبعه جميع زعماء المملكة وإمارة أنطاكية ، واقتيد الامبراطور وسط أصوات الموسيقى العسكرية للأبواق والطبول ، يقدر يليق بجلالة المرتبة الامبراطورية ، وهو متوج بالتاج الامبراطوري، اقتيد إلى المدينة حيث ذهب في أول الأمر إلى الكاتدرائية، أي كنيسة رئيس الحواريين ثم إلى القصر بصحبة المرافقة ذاتها من رهبان وأهالي المدينة (١٥٦)

وبعد أن أمضى الامبراطور عدة أيام بالاستمتاع بالحمامات والمسرات الأخرى أغدق خلالها الهبات على سكان المدينة بسخاء شديد حسب عائلته المألوفة ، عزم - الامبراطور - على القيام برحلة صيد لتمضية الوقت ، وهكذا زار بمرافقة الملك مكانا توفر فيه صيد جيد ، فبينما كانا يطوفان خلال الغابة ، كما يفعل الصيادون في متابعة تلك الرياضة ، وقع لهما حادث في اليوم الجليل لصعود سيدنا المسيح إلى السماء ، فقد كان الملك يتجول ممتطيا حصانه الرشيق على أرض وعرة مغطاة بشجيرات قصيرة وأشواك عندما طرح أرضا من على حصانه فكسرت ذراعه .

عندما علم الامبراطور خبر الحادث تولى بنفسه مهام الجراح بعطف شديد للغاية وركع إلى جانب الملك وأسعفه بلطف وكأنه نفسه كان مجرد شخص عادي ، وأصيب بالوقت نفسه نبلاؤه وأقرباؤه بالدهشة والانزعاج حيث بدا للجميع أنه من غير اللائق بالنسبة للامبراطور أن يتخلى عن وقاره المهيب ، وأن يصرف النظر عن عظمته الامبراطورية فيظهر نفسه مخلصا وودودا للملك إلى هذا الحد وبعد عودتهما بسبب هذا الحادث إلى انطاكية كان الامبراطور يقوم بزيارة يومية للملك ، وجدد بنفسه الكمادات ومراهم المعالجة وغير الضمادات بكل عناية ولم يكن بالفعل ليظهر عناية أكبر لو كان بلدوين ابنه حقا (١٥٧) .

عندما تماثل الملك للشفاء تماما ، أعلن الامبراطور بصوت المنادي أنه ينبغي على قادة الفيالق إرسال الآلات الحربية إلى الامام وأن يزحف الجيش في يوم محدد نحو مدينة حلب ، وغادر انطاكية على الفور بمرافقة الملك وحكام المملكتين ووسط أصوات الأبواق والطبول التي تدعو إلى الحرب ، وتوقف الجيش بأسره عند مخاضة البلانة وهذا هو اسمها الدارج على ألسنة الناس .

أرسل الامبراطور رسلا من ذلك الموقع إلى نور الدين ، الذي صادف وكان موجودا في مدينة حلب في ذلك الوقت ، ورتب عن طريق

هؤلاء المندوبين وجوب إطلاق سراح شخص يدعى برترام ، وهو ابن غير شرعي للكونت صنجيل مع بعض الأسرى الآخرين (١٥٨) ، وعاد الامبراطور إلى مملكته بعد وقت قصير من هذا حيث استدعته أموره الخاصة ، وعاد الملك بعد رحيل الامبراطور أيضا إلى بلاده مع الذين كانوا قد رافقوه .

٢٦ - نشوب شقاق خطير في كنيسة روما إثر وفاة البابا هادريان :

توفي في هذه الآونة هادريان نتيجة إصابته بالتهاب في اللوزتين في اناغني في كامبانيا فنقلت جثته إلى روما ، ودفن هناك بإجلال كبير في كنيسة القديس بطرس رئيس الرسل . واجتمع الكراولة بعد ذلك للبحث في مسألة إيجاد خلف له ، وحدث أن اختلفت آراؤهم ، كما يحدث مرارا في ظروف كهذه ، فقد اختارت إحدى الزمر رونالد ، الكاردينال الراهب لكنيسة القديس بطرس نفسها ، والملقب بالقديس مارك ، والذي كان مستشارا للكرسي المقدس ، فاختارته وعينته بابا باسم الكسندر ، غير أن الفريق الثاني اختار أوكتافيوس وكان رجلا نبيل النسب وكاردينالا راهبا للكنيسة نفسها ويلقب القديس كليكية لما وراء التبير ، فرسم بالطريقة ذاتها وعين بابا باسم فيكتور (١٥٩) .

سبب الشقاق ، الذي نشب بسبب آثامنا انقسامنا بشكل عملي وانفصالا يتعذر تغييره في الكنيسة اللاتينية بأسرها ، حيث انتظم أعظم نبلاء المنطقة في زمر وتحالفوا مع هذا الفريق أو مع الآخر . استمر هذا الوضع تسعة عشر عاما تقريبا ، وتمكن أخيرا فريديك ، إمبراطور الرومان الذي كان يؤيد ويوجه فريق فيكتور ، من إقامة وحدة في الكنيسة بعدما تصالح تماما مع البابا الكسندر (١٦٠) ، أعيد الوئام إلى كنيسة الرب ، وشع السلام بعد مازالت ظلال الاثم « كنجم الصباح في وسط الغيوم » (١٦١) .

٢٧ - نور الدين يجتاح بلاد سلطان قونية ويستولي على جزء منها بالقوة . الملك يعيث فسادا في بلاد دمشق .

ابتهج نور الدين في هذه الاثناء كثيرا بسبب رحيل الامبراطور ، فقد كان وصول تلك الحاكم الجبار قد سبب له فزعا كبيرا ، وكانت إقامته في المنطقة قد أقلقته بشكل كبير أيضا ، وشعر الآن بأمان من القوة المرعبة للملك العظيم ، واعتقد بعدما عرف أن الملك كان قد عاد إلى بلاده ، أن الفرصة التي كان قد تمنّاها لفترة طويلة من الزمن قد أتت ، ولذلك ، استدعى الجنود من جميع أقاليمه ووجه حملة إلى بلاد سلطان قونية التي كانت تتأخم أراضيه ، وسقطت في قبضته مدينة مرعش بالإضافة إلى حصني كيسوم وبهسنى لأن السلطان كان بعيدا جدا عن هذه المناطق ، ولم يتمكن من تقديم المساعدة لهما بسهولة ، ولقد كان نور الدين عارفا تماما بهذا الوضع وإلا لما أقدم على مهاجمة سلطنة قونية وهي سلطنة أقوى منه نفسه .

نقل نبا هذه الحملة إلى الملك ، الذي كان ما يزال محتجزا في تلك المناطق مع جميع قواته ، وبما أنه كان عالما تماما أن منطقة دمشق ، المجردة من قواتها العسكرية ، ستكون مكشوفة ويمكن أن تقع فريسة سهلة للنال لمكائد أي عدو ، صمم على استثمار هذا الواقع لمصلحته الخاصة ، فجمع جيشا واجتاح أراضي دمشق حيث حرق وبمر كل شيء حسب هواه وبدون مقاومة ، وكانت جميع الأراضي الممتدة حتى بصرى ، تلك المدينة المشهورة في العربية لابل حتى دمشق تحت تصرف الجنود لكي يحرقوها وينهبوها كما يشاؤون .

كان في دمشق رجل نبيل يدعى نجم الدين ، وكان نور الدين قد عهد إليه بأمر الاهتمام بشؤونه الشخصية والمسؤولية عن المدينة مع توابعها ليحكمها حسب مشيئته الخاصة ، وذلك بسبب شهرته وخبرته الواسعة في المسائل الدنيوية ، وأدرك نجم الدين أن مولاه

كان مشغولا بأمور هامة على مسافة بعيدة عنه ، في حين لم تكن لديه سوى قوة صغيرة ليقاوم الملك بها ، ولذلك بحث بحكمة عن سبل أخرى ليتجنب المخاطر التي كانت تحدق به ، فعرض على الملك دفع أربعة آلاف قطعة ذهبية وإطلاق سراح ستة فرسان من المرتبة العادية كانوا في أسره ، وطالب مقابل ذلك بعقد هدنة لمدة ثلاثة أشهر ، وكان بالاستخدام الحكيم للمال قد رشا العديد من الناس ليتوسطوا له ، ولهذا تمت بالتالي الموافقة على طلبه ، ونجح بهذه الاجراءات الحكيمة في إنقاذ المنطقة من جيش العدو (١٦٢) .

وأصبحت في هذه الآونة ميليساند ، التي كانت امرأة ذات حكمة وبصيرة نادرتين ، بمرض عضال لم يكن له علاج سوى الموت ، وقامت اختاها كونتس طرابلس وراعية راهبات دير القديس لازاروس أوف ببياني بالاشراف عليها بعناية متواصلة ، واستدعي امهر الاطباء ، واستعملت افضل العلاجات (١٦٣) ، وكانت ميليساند قد حكمت الممالك بقوة تفوق قوة معظم النساء وذلك لمدة ثلاثين عاما ونيف خلال حياة زوجها وبعد وفاته أثناء فترة حكم ابنها ، وكان حكمها حكيما ومتعقلا ، وتمددت الآن على فراشها لفترة طويلة من الزمن وكأنها ميتة بعدما أصبحت نحيلة الجسم وضعيفة الذاكرة إلى حد ما ، ولم يسمح إلا للقليلين بزيارتها .

وفي هذه الاثناء كانت فترة الهدنة ، التي تم الاتفاق عليها مع نجم الدين ، حاكم دمشق ، قد انتهت وكان نور الدين ، الذي لم يكن قد أنجز مشروعه حتى الآن ، محتجزا في المناطق المذكورة آنفا ، وهكذا دخل الملك بلاد العدو بقوة السلاح وعاث فسادا بالمنطقة حسب هواه ، ودفع القطعان والعييد وأحرق ونهب دون عائق ، وبعدما نهب المنطقة بأسرها ودمر الحقول المجاورة وأسر السكان عاد مجددا إلى مملكته بسلام .

٢٨ - الأتراك يأسرون الأمير أرناط صاحب أنطاكية ، ويلقونه في أحد السجون في حلب .

أبلغ بعد وقت قصير من هذا كشافه أرناط ، أمير أنطاكية ، أنه كانت هنالك منطقة مليئة بالقطعان والمواشي في المنطقة التي كانت عائدة من قبل إلى كونت الرها فيما بين مرعش وبلوك ، وبما أن هذه المنطقة كانت خالية من القوات العسكرية ، ولم يكن سكانها معتادين على استخدام الأسلحة ، فقد كانت عرضة للنهب بكل سهولة ، وأصغى أرناط السانج بكل انتباه إلى هذه الرواية ، فجمع على الفور قوة ضخمة وانطلق في زحفه في ساعة شؤم ، ووجد لدى وصوله إلى الموقع أن القصة كانت صحيحة ، فقد كان هنالك بالفعل عدد ضخم من القطعان والحيوانات ، إلا أن الناس الذين كانوا يملكون هذه القطعان والحيوانات كانوا من المسيحيين ، لأنه لم يكن هنالك أي من الأتراك في سائر تلك المنطقة إلا في القلاع ، وحتى هؤلاء كانوا أعدادا صغيرة ، وقد عينوا في تلك المواقع لحماية الحصون فقط وجمع الجزية من الناس ، وحراستها عند دفعها إلى السادة الكبار الذين كانوا وكلاء عنهم ، وكان المسيحيون الأرمن والسريان يشغلون الحقول المجاورة حيث كانوا يتولون حراثة الأرض والعمل بالزراعة التي أوقفوا أنفسهم عليها .

استولى أرناط وقواته على المغانم والأسلاب من جميع الجهات بدون أننى مقاومة ، وبينما هم عائدون بسلام وهدوء إلى ديارهم وهم محملون بالمغانم وبجميع أنواع السلع المسروقة قابلهم فجأة مجد الدين حاكم حلب ، وهو صديق مخلص وحليف لنور الدين . وكان قد خف مع جميع فرسانه من تلك المنطقة المسلحين تسليحا خفيفا نحو أرناط بعدما علم أنه كان عائدا من حملة نهبه ، وكان يهدف إلى مباغته المسيحيين في بعض الشعاب الضيقة وإنزال هزيمة منكرة بهم وهم يحملون الأمتعة والمغانم التي كانت تثقل كاهلهم ، أو أن يجبرهم بالقوة على التخلي عن الغنيمة على الأقل .

وتنفيذا للخطة الذكية التي وضعها الحاكم واتباعا لها قام الاتراك بالزحف ضد ارناط بتوجيه من الكشافة الذين كانوا قد نقلوا الخبر ، ووصلوا الآن إلى الموقع المذكور حيث كان الأمير مخيما بالقرب منه ومعه جميع المغانم .

عندما علم الأمير أن العدو بات قريبا منه تشاور مع قومه حول أفضل ما ينبغي عمله في هذه الظروف ، وكانت الخطة المثلى أن يتم التخلي عن المغانم والاسراع إلى البلاد بون عائق ، وكان هذا أمرا يمكن تنفيذه بسهولة ، لكنهم فضلوا بدلا عن ذلك الاحتفاظ بالغنيمة وخوض قتال عنيف إذا لزم الأمر ، والتقت القوات المتعادية في المعركة في الصباح اللاحق عندما كان النهار قد تقدم إلى حد ما . وهجم العدو بالقسي والسيوف وحارب بشكل جريء للغاية ، وحاول المسيحيون بذل مقاومة عنيفة في البداية ، إلا أنهم استسلموا للذعر في آخر الأمر وتخلوا عن الغنيمة ولانوا بالفرار ، وأرغم الأمير ، عقابا لأثامه ، أن يكفر بنفسه عن جميع الجرائم التي كان قد اقترفها ، حيث أسره العدو ، وقيده بالسلاسل واقتاده إلى حلب بطريقة مخزية للغاية ليصبح هنالك مع زملائه الأسرى سخرية للكفرة .

حدثت هذه الكارثة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني في العام الثامن عشر من فترة حكم بلنوين وفي موقع يسمى الجومة (١٦٤) واقع بين كيسوم ومرعش .

٢٩ - قدوم رجل اسمه يوحنا إلى سورية ممثلاً للبابا حيث كان كاردينالاً راهباً في كنيسة روما ونشوب مشاحنة بين الأساقفة بخصوص استقباله . ولادة طفل اسمه بلدوين لعموري أخي الملك وكونت يافا

نزل خلال هذه الفترة ذاتها شخص يدعى يوحنا ، وكان رجلاً واسع الثقافة وكاردينالاً راهباً في كنيسة روما بلقب القديسين يوحنا وبولص ، نزل في جبيل مع بعض الجنوبيين . وكان البابا الكسندر قد أرسله إلى بلدان الشرق كممثل للبابا ، ونظراً لرغبته بالحصول على إذن لدخول المنطقة كممثل للبابا ، فقد جهد في سبيل تحقيق رضى الملك وأمراء المملكة المدنيين والدينيين بخصوص قدومه إليهم ، فقد كان هناك - كما ذكرنا من قبل - شقاق شمل الناس بأسرهم فقد كان بعضهم يؤيد البابا الكسندر ، وآخرون ضده ويشكلون الطرف الآخر ، وبعدما درست المسألة دراسة مطولة صدرت الأوامر إلى الممثل الباباوي بالبقاء لبرهة من الزمن في جبيل ، وكان عليه ألا يغامر بدخول المملكة حتى يكون رجالاً الكنيسة وأمراء المملكة قد درسوا المسألة بشكل أكثر عمقا ومن ثم كان سيبلغ عما سيرضيه حول هذه المسألة .

وبناء عليه جرى استدعاء البطريرك وجميع رجال الكنيسة الآخرين في الكنيسة إلى الناصرة حيث بدأوا يتباحثون مع الملك وبعض النبلاء وأيضاً بدراسة المنحى الذي سيتبعونه في وضع صعب كهذا ، لأنه بينما حافظ جميع مطارنة الشرق في البطريركتين على الحياد علانية ، كأفراد منعزلين ، أيد بعضهم أحد الأطراف بصورة سرية ، وأيد بعضهم الآخر الطرف الثاني .

وكما هو مألوف في ظروف كهذه لم يستطيعوا الاتفاق وسيطرت عليهم رغباتهم وقادتهم في اتجاهات عديدة فقد أعلن بعضهم أنه ينبغي الاعتراف بالكسندر واستقبال ممثله لكونه يمثل القضية

- ٣٢٠١ -

الأفضل ، وكان المؤيد الرئيسي لهذا الرأي بطرس ، ذو الذكرى الطيبة في الرب ، وكان من قبلنا رئيسا لأساقفة صور ، وعلى العكس فضل آخرون فيكتور على أساس أنه كان على الدوام صديقا للمملكة وحاميا لها ، وأكد هذا الفريق الثاني أنه يجب عدم استقبال الممثل الباباوي مهما تكن الظروف .

وأشار الملك بتبني طريق وسط وعدم استقبال أي مسن الطرفين ، وقد أيدته في ذلك بعض النبلاء وأصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة ، فقد خشي من نشوب نزاع بين الأساقفة قد يسبب انقساماً في الكنيسة ، وقرر الملك أنه يجب إعطاء الأذن للممثل الباباوي بالقدوم كحاج إلى الأماكن المقدسة لإقامة الصلاة ، إذا ما رغب بذلك ، وتخلي عن حقوقه الرسمية ومناصبه الرفيعة ، ومنحه الحرية للإقامة في المملكة حتى موعد الرحلة البحرية الأولى ، حيث يجب أن يعود إلى بلاده عند حلول موعد هذه الرحلة ، وقدم الملك سبباً لقراره هذا على النحو التالي : « إن تاريخ الشقاق حديث ، ولا يعرف الناس حتى الآن من من الطرفين عنده القضية الأقوى ، ومن الخطر في مسألة مريبة كهذه تبني موقف مستقل والتجروء على الاعلان مقدما عن قرار محدد ، بينما ما تزال النتيجة مبهمة ، وعلاوة على ذلك لا توجد أية حاجة لممثل باباوي في المملكة لارهاق الكنائس والأديرة بنفقات ولاضعافها بالابتزازات .

كان هذا هو رأي الملك ، وبدا أنه معقول للغاية ، ومع ذلك ، فقد ساد رأي الطرف الذي أصر على أنه يجب استقبال الممثل الباباوي ، وهكذا ، وجهت له الدعوة إلى دخول المملكة ، وثبت فيما بعد أنه عبء ثقيل بالنسبة للعديد من الذين كانوا قد وافقوا على استقباله (١٦٥) .

في هذه الاونة رزق عموري كونت يافا وزوجته اغنيس ابنة كونت الرها بغلام . واستقبل الملك ، تلبية لمطلب الاب ، الطفل في جرن التعميد ومنحه اسمه ، وعندما سئل بدعابة عن الشيء الذي سوف

يمنحه لابن اخيه ، الابن الذي استقبله في جرن التعميد المقدس ، اجاب بلدوين بمرحه المؤلف وبطريقته الدمثية : « سأمنحه مملكة القدس » . فاثرت هذه الملاحظة تاثيرا عميقا في قلوب الرجال الحكماء الذين سمعوها لأنها بدت لهم بأنها نبوءة مشؤومة وان الملك سيموت دون ان ينجب اطفالا على الرغم من شبابه وشباب زوجته ، الامر الذي ثبت بمرور الزمن انه كان كذلك (١٦٦)

٣٠ - اهالي انطاكية يستدعون الملك ، فيسرع الى هناك . وصول رسل امبراطوريين لطلب احدي قريبات الملك كزوجة لحاكمهم .

حرم اسر الامير ارناط اقليم انطاكية من تأييد القائد له ، واستولى الخوف والقلق على اهالي تلك المنطقة من جديد ، فقد انتظروا بترقب مضني من يوم لآخر خراب المنطقة ما لم يصبح الرب بالمصادفة مدافعا عنهم ، وصمموا في اخر الامر ان يلجأوا الى مصدرهم المؤلف للمساعدة والتماس العون ضد الشرور التي كانت تهددهم وذلك بمناشدة الشخص الذي طالما توسلوا اليه وكان يلبي التماسهم على الدوام ، وبناء عليه جرى ارسال وفد ليتوسل الى ملك القدس بالدموع والدعوات ليقدم بدون تاخير لمساعدة شعب بائس ، شعب كان على وشك الهلاك ، حيث يمكنه بذلك ان يحقق لنفسه المجد والشهرة في نظر الجنود ، ويفوز بثواب ابدى من الرب .

تحركت الشفقة العميقة لدى الملك ازاء المتاعب التي كان يعاني ذلك الشعب منها بعدما علم بالوضع اليائس في انطاكية ، وتولى - متبعا قدوة اسلافه - القيام باخلاص بالمهمة ، واسرع الى انطاكية بصحبة مرافقة مهيبة من الفرسان ، حيث استقبل ببهجة بالغة وسرور عظيم من قبل القادة والناس ، وبقي في انطاكية بقدر ما تطلبت مقتضيات الزمان والمكان ، وابدى عناية مثلى بامور الامارة وكأنها امور تتعلق به ، ثم عهد بحكم المنطقة الى البطريرك

بشكل مؤقت حتى يتمكن بنفسه من العودة ، وبعدما رتب الامور لتأييد الاميرة كما كان يليق بمنزلتها ، عاد الى المملكة حيث تطلبت عدة امور وجوده .

وبعد عودته وصل مبعوثون ونبلاء من منزلة عالية وشهرة كبيرة في القصر المقدس ، قادمين من عند امبراطور القسطنطينية ، وكانوا حملة رسالة ذات ختم ذهبي ورسائل خاصة للملك ايضا ، وكان قائد السفارة هو كونتو ستيفانوس اللامع ، احد اقرباء الامبراطور ، وكان الاخر هو المترجم الاول في القصر واسمه ثيوفلاكث (١٦٧) وكان رجلا داهية ومتحمسا جدا لاجل المصالح الامبراطورية . وكما قلنا كان هذان المبعوثان يحملان رسائل مقدسة فحواها بشكل اساسي على الشكل التالي : « تعرف يا أعز الاصدقاء ، والحبيب العزيز لامبراطوريتنا ان زوجتنا ايريني الشهيرة ذات الذكرى العزيزة في الرب قد توفيت وانتقلت روحها لتقيم مع ارواح النخبة من الناس ، وخلفت لنا ابنة وحيدة كوريثة للامبراطورية ، وبما اننا لم ننجب اي مولود ذكر ، فاننا ممثلثون بالقلق حول الخلافة ، وعقدنا مرارا تداولا جادا مع أشهر نبلاء القصر بخصوص اجراء زواج ثان ، وتقرر في آخر الامر ، بموافقة جميع امرائنا ومصادقهم انه يستحسن ان نأخذ زوجة امبراطورة لنا سيدة من نسبكم حيث تخصصكم من بين جميع امبراطوريتنا باعمق الحب ، كما اننا سنقبل ايا من قريباتكم تختارونها لنا ، سواء اكانت اختا لكونت طرابلس اللامع ، او كانت الاخت الصغرى لامير انطاكية الرائع ، وكلنا ثقة تامة باخلاصكم واختياركم زوجة لنا ورفيقة امبراطورية بمشيئة الرب » .

عندما ابلى المبعوثان الملك بغرض الامبراطور بوساطة الرسالة وشفويا وعد بالمساعدة والطاعة وشكر بجدية بالغة جلالاته الامبراطورية : أولا لانه اقترح ان يتحالف معه في مركز رفيع كهذا بوساطة احدي قريباته ، وثانيا بسبب اعترافه باخلاص بلديين

- ٣٢٠٤ -

حيث ترك له وحده مسألة اختيار العروس المستقبلية والزوجة الامبراطورية .

٣١ - الملك يختار الفتاة الالامعة ميليساند اخت كونت طرابلس لتكون عروسا للامبراطور ، لكن بعد عام من التأجيل تخلى الامبراطور عما اختاره الملك ، وتزوج ماريا ابنة الأمير ريموند.

وبعدما تداول الملك مع مستشاريه بخصوص التحالف الذي سيكون مرغوبا جدا بالنسبة لمصالحه الخاصة ولمصالح جلالة الامبراطور استدعى رسل الامبراطور ووجههم بأقوال مقنعة ان يأخذوا ميليساند اخت كونت طرابلس وكانت فتاة ذات اخلاق رفيعة ومقدرة كبيرة ، كزوجة لحاكمهم الامبراطور ، فتقبل الرسل رسالة الملك باجلال لائق وقدموا موافقتهم ، بيد انهم طلبوا ترك اعلان القرار للامبراطور بوساطة الرسل والرسائل .

في هذه الاثناء جهزت والددة الفتاة وخالها واختها وعدد كبير من اصدقاء الفتاة التي اختيرت لهذا المنصب المجد مجموعة ضخمة من الزينات تفوق زينة الاسرة الملكية نفسها ، وبنفقة غير محدودة وقد اشتملت على اساور واقراط وقلائد وتيجان من الذهب الخالص ، واعدت اوان فضية ذات وزن وحجم كبيرين لتستخدم في المطبخ ، والمائدة والمرحاض ، اضافة الى اللجومات والاسرجة - وبالاختصار ، فقد جهزت جميع انواع الاثاث . واعدت جميع هذه الاشياء بنفقة ضخمة وبحماسة كبيرة ، وكانت الطريقة التي صنعت بها هذه الاشياء وحدها دليلا على قيمتها الكبيرة جدا ، وفاقت بسهولة بذخ الملك وتقصى الاغريق خلال هذا الوقت بدقة جميع تفاصيل حياة الفتاة ، واستفسروا عن سلوكها واحوالها حتى انهم استوضحوا عن الصفات الجسدية السرية

للغاية ، وكانوا اثناء انتظار عوبتهم على اتصال مستمر مع الامبراطور ، وهكذا انقضى عام كامل .

سخط الملك والبلاط مع بقية الاقارب والاصدقاء بشكل كثير ازاء هذا التاخير ، واستدعوا الرسلين الامبراطوريين علنا واعلنوا انذارا كان مفاده انه يجب عليهم اما ان يرفضوا الزواج الذي رتبته اموره منذ زمن طويل ويعوضوا الاموال المنفقة ، او ان يتوقفوا عن تطبيق اسباب تاخير يتعذر تفسيرها وانهاء المسالة باكمال الزواج حسب الشروط المتفق عليها اصلا ، فقد كان الكونت قد انفق نفقات كبيرة ، حيث كان قد امر ببناء عشرة من الشواني وجهزها تجهيزا تاما ، لانه عقد العزم على مرافقة اخته الى زوجها . وازضافة لذلك كان جميع النبلاء الاكثر اهمية في الامارة قد اتوا الى طرابلس بانتظار رحيل السيدة المقرب ، وكان الكونت يتحمل بسبب هؤلاء الضيوف النفقات الضرورية بشكل تام او جزئي .

هذا وقدم الاغريق كما هي العادة اجابات مراوغة ، وحاولوا اطالة المسالة لفترة اطول ايضا ، ولكي يحبط الملك خططهم المراوغة ، ارسل اوتو اوف ريسبيرغ كمبعوث خاص الى القسطنطينية ، وقد خوله في ان يقدم مطالبا لائفا في ان يحصل لكونه مندوبا على معرفة كاملة بالنوايا الحقيقية للامبراطور بدون موارد . وعاد المندوب بشكل اسرع مما كان يتوقع ان يصل فيه ، وجلب كتابا من الامبراطور ورسائل افادت ان كل ما كان قد تم تنفيذه بخصوص هذا الزواج لم يكن مرضيا لسموه الامبراطوري على الاطلاق .

عندما تلقى الملك هذه الانباء انسحب من المفاوضات ، لان زواجا ، كان قد رتب عن طريق وساطته ، وانجز بمشاركة كبيرة منه ، ثم لم يحقق شيئا ، بدا بالنسبة له امرا مهينا للغاية ، وسينعكس بدون ريب بشكل سلبي عليه نفسه .

رحل المندوبان الامبراطوريان بقارب صغير صاف ان وجداه

جاهزا ، وتوجها الى قبرص لانهما خافا من ان يصب كونت طرابلس جام غضبه عليهما .

ذهب الملك الى انطاكية فور رحيل مجموعة النبلاء المجتمعين في طرابلس ، حيث كان قد اخذ على عاتقه القيام بمسؤولية الامارة تلبية للتوسل الجاد لشعب تلك المدينة ، كما ذكرنا سابقا ، ووجد لدى وصوله الى هناك مندوبي الامبراطور نفسيهما اللذين كان يعتقد بانهما غادرا طرابلس متوجهين الى وطنهما (١٦٨) . وكانا يعقدان بشكل مداولات ودية مع الاميرة حول ابنتها الاخرى ماريا ، وعلاوة على ذلك ، كان بحوزتهما رسائل مختومة بالذهب بحضور الامبراطور كان قد ضمن فيها المصادقة على اي اتفاق يتوصلان اليه مع الاميرة واصدقائها حول موضوع هذا الزواج ، وابلغ الملك لدى وصوله على الفور بهذه المفاوضات . وكان قد اھين كثيرا بخصوص المسالة السابقة لدرجة كان من المسوغ له ان يرفض حشر نفسه بالتدخل لمصلحة الامبراطور في المسالة الحالية ، ومع ذلك وبدافع الاحترام لقريبته اليتيمة ، التي كانت تفتقر الى اب يحميها ، فقد تولى القيام بذلك الدور ونجح في ترتيب الزواج بعد تاخيرات كثيرة (١٦٩)

وجهزت الشواني بعد انتهاء المسالة ، في موقع يسمى ميناء القدس سيمون (السويدية) الواقع عند مصب نهر العاصي ، وسلمت الفتاة الى المبعوثين ، وبدأت رحلتها بمرافقة موكب مهيب من اعظم نبلاء المنطقة الذين توجب عليهم اصطحابها الى زوجها .

٣٢ - الملك يعيد بناء حصن واقع على مقربة من انطاكية يدعى جسر الحديد . موت والدته الملكة ميليساند .

بينما كان الملك مقيما في انطاكية ، ولكي يجعل وجوده هناك مفيدا للمنطقة ، اعاد بناء قلعة كانت مشيدة فيما مضى عند احد الجسور فوق نهر العاصي ، وكانت تعرف عموما باسم جسر الحديد ، وكانت هذه القلعة الواقعة على بعد ستة او سبعة اميال عن مدينة انطاكية . ذات نفع كبير لمنع وقوع الغارات المعادية ، وخدمت أيضا كمعائق ضد المدخل السري لقطاع الطرق .

بينما كان الملك منشغلا بهذا الشكل بأمور الامارة ، توفيت والدته الورعة بعدما أنهكتها المعاناة المستمرة من مرض مزمن ، وحدثت وفاتها في الحادي عشر من شهر ايلول ، واستسلم الملك للحزن عندما تلقى نبأ وفاة والدته ، وأظهر عمق عاطفته وتأثره عليها بشكل واضح الدرجة التي كان يحبها فيها باخلاص ، ولقد بقي في الواقع حزينا بعد ذلك لأيام عديدة .

دفنت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة ، والتي ستقيم من الآن فصاعدا مع الحشد السماوي ، في وادي يهو شفاط على يمين النازل الى قبر مريم العذراء الطاهرة والمباركة والددة ربنا ، وترقد جثتها في سرداب حجري له بوابات حديدية ، ويقع بالقرب منه أحد المذابح حيث يحتفل يوميا بالقداس لراحة روحها وأرواح جميع المسيحيين الذين ماتوا في الرب (١٧٠)

٣٣- كونت طرابلس الساخط إزاء رفض شقيقته يسعى للاحاق الأذى بالامبراطور بكل وسيلة ممكنة .

امتلا في هذه الاثناء قلب كونت طرابلس بحزن وغضب بسبب السخرية التي تعرض لها من الامبراطور الذي رفض في النهاية قبول اخته بونما أي سبب ، وكأنها ابنة شخص عادي ، وبعد أن تحمل الكونت نفقة ضخمة جدا ، وتنهد الكونت وتأوه بشكل عميق عندما فكر بقلق وعمق حول وسائل للانتقام من الامبراطور بطريقة مشابهة ورد الصاع بالصاع ، وعلى الرغم من أنه أدرك في غمرة تأملاته أن الامبراطور كان أقوى ملك على الأرض ، وأن قوته لم تكن كافية أبدا ليلحق به أي ضرر ، فقد دفعه الاستياء الى اتخاذ عمل ما ، وخشية أن يبدو غير مكترث أو متناس الاساءة التي لحقت به ، أمر بتسليح الشواني التي كان قد أعدها لغرض آخر . ثم استدعى القراصنة والمجرمين المتهورين ، والذين كانوا رجالا ارتكبوا أكثر الجرائم بشاعة ، وعهد اليهم بالمسؤولية عن السفن وأمرهم بتخريب مناطق الامبراطور بدون رحمة . وأمرهم بأن لا يستثنوا العمر أو الجنس أو الوضع ، وتوجب عليهم أن يحرقوا كل شيء بونما تمييز بما في ذلك الكنائس والأديرة ، وتنفيذ أعمال السلب والنهب في كل مكان ، وليتذكروا يوما أنهم كانوا يستخدمون السلاح والقوة في سبيل قضية عادلة .

وأبحر القراصنة والمجرمون على ظهر البحر إطاعة لأمره ، وطافوا في ممالك الامبراطور ، ونفذوا أوامر الكونت بحذافيرها في الجزر وفي المناطق المجاورة الواقعة على البحر ، فقد نهبوا في جميع الجهات وأحرقوا وقتلوا ، وانتهكوا حرمة الكنائس واقتحموا الأديرة دون احترام للأماكن المقدسة ، وسلبوا أموال الحجاج المسافرين أثناء رحلاتهم من وإلى الأماكن المقدسة ، وبفعوهم الى الموت بهذا الشكل ، أو جعلوهم يطلبون حياتهم وهم معوزون وعراة يعيشون على التسول ، واستولوا على

- ٣٢٩ -

سُلع التجار المسافرين الذين كانوا يكسبون أسباب الرزق لزوجاتهم وأطفالهم بتلك الطريقة وأجبروهم على العودة الى وطنهم فارغي الوفاض بعدما فقدوا رأس المال والأرباح (١٧١)

٣٤- دس السم للملك في أنطاكية . وقوعه بسبب ذلك بمرضه الأخير وتوسله أن ينقل الى الوطن . تفاقم المرض أثناء الرحلة وموته في بيروت .

في الوقت الذي كان فيه كونت طرابلس منشغلا بهذا الشكل في رغبته بالانتقام كان الملك موجودا في أنطاكية راغبا بالمعالجة والاستراحة قبل اقتراب فصل الشتاء ، كما كان معتادا على ذلك ، وقد حصل على بعض الاقراص من برق ، طبيب الكونت، وتوجب عليه أن يتناول قسما منها على الفور ، وتناول البقية بعد مضي فترة قصيرة . لأن أمراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون ، بسبب نفوذ نسائهم ، أدوية ومعالجات أطبائنا اللاتينيين ، ولايصنفون سوى الاطباء اليهود والسامريين والسرمان والمسلمين (١٧٢) ، فلقد وضعوا أنفسهم بطريقة طائشة للغاية تحت عناية أطباء كهؤلاء ، وعهدوا بأرواحهم لأناس جاهلين بعلم الطب ، وأشيع أن هذه الاقراص كانت مسمومة ، وربما كانت هذه هي الحقيقة ، وعلى أية حال ، عندما وضع باقي الدواء في خبز في طرابلس فيما بعد ، وأعطى كتجربة الى أحد الكلاب ، توفي الكلب نتيجة ذلك في غضون أيام قليلة ، ولقد أصيب الملك فور تناوله الاقراص بحمى واسهال تطورا الى مرض سل لم يتمكن أبدا من الحصول على النجدة أو المساعدة للشفاء منه ، وعندما أترك الملك أن شدة معاناته من المرض كانت تزداد غادر أنطاكية وذهب الى طرابلس ، وتمدد هنالك لبضعة شهور آملا بالتحسن من يوم لآخر وبعدمه تيقن في آخر الأمر أن مرضه كان يتفاقم وأن الشفاء كان مستحيلا ، أمر بنقله الى بيروت وأمر باستدعاء مطارنة الكنيسة

- ٣٢١١ -

وحيث نأتي الى ختام هذا الباب المكون لأعمال هذا الملك ، فاننا
فتوجه ايضا بالدعاء أن تنعم روحه براحة مقدسة مع أرواح صفوة
القديسين آمين.

انتهى هنا الكتاب الثامن عشر

الكتاب التاسع عشر

عموري الأول :الصراع على مصر . المرحلة الأولى

١ - عموري يخلف اخاه بلدوين على العرش

توفي الملك بلدوين الثالث ، الملك اللاتيني الرابع للقدس دون أن يخلف اطفالا ، كما نكرنا ذلك من قبل فخلفه في المدينة المقدسة أخوه الوحيد عموري كونت يافا وعسقلان . وأصبح عموري الملك اللاتيني الخامس في العام ١١٦٣ لتجسيد ربنا وفي العام الثاني والسنتين من تحرير تلك المدينة ذاتها ، حبيبة الرب (١٧٤) ، وكان الكسندر رئيسا للكنيسة الرومانية المقدسة في هذا الوقت ، أي في العام الرابع لتوليه منصب الحبرية ، وكان أما لرخ البطريرك التاسع لللاتين يحكم كنيسة القيامة المقدسة في العام الرابع من توليه منصب البطريركية ، وكان ايمري يرأس كنيسة أنطاكية والبطريرك الثالث لللاتينيين في تلك المدينة ذاتها وفي العام العشرين من توليه لمنصبه ، وكانت الكنيسة في مدينة صور خاضعة لبطرس رئيس الاساقفة الثالث لللاتينيين بعد الاستيلاء على المدينة ، وكان في العام الثالث عشر لتوليه منصبه .

وكانت عملية اعتلاء العرش بعد وفاة بلدوين متزامنة مع حدوث كثير من النزاعات بين نبلاء المملكة الذين كانوا يتأثرون بشكل متفاوت بتغيير الملوك ، وبالفعل ، فقد اقترب هذا النزاع من إحداث شجار خطير حمل في طياته خطر حدوث شقاق ، ومن حسن الحظ ، كانت معنا العناية السماوية التي تعرف كيف تطبق العلاجات المناسبة في أخطر الأزمات ، فقد كان رجال الدين والناس وعدد قليل من رجال المملكة العظماء يؤيدون عموري بقوة ، وهكذا

- ٣٢١٣ -

أخفقت بسرعة الجهود التي بذلها النبلاء الساخطون ، واعتلى عموري عرش المملكة الذي آل اليه بموجب الحق الوراثي وذلك في الثامن عشر من شهر شباط الذي كان اليوم الثامن بعد وفاة أخيه الملك بلدوين ، وتلقى في كنيسة قبر الرب هبة المسح بالزيت الملكي على يد البطريرك بمساعدة رؤساء الأساقفة والأساقفة وجميع رجالات الكنيسة المجتمعين ، ومنح شارة التاج ، وكان قد عين كونتا ليافا عندما كان قد أصبح فارسا وحمل السلاح ، ثم منحه فيما بعد أخوه بلدوين ، ذو الذكرى اللامعة ، مدينة عسقلان بسخاء ملكي فقد كان قد تم الاستيلاء على حاضرة الفلسطينيين هذه في عهد بلدوين وهكذا أعيدت الى العقيدة المسيحية بعد مضي فترة طويلة ، حسبما تم تبين ذلك بتفصيل كثير عندما أتينا على ذكر أحداث فترة حكم بلدوين ، وكان عموري في السابعة والعشرين من عمره عندما ارتقى العرش ، وقد حكم أحد عشر عاما وخمسة أشهر (١٧٥)

٢- سمات الملك عموري مع بعض الملاحظات حول حياته وعاداته .

كان عموري رجلا صاحب حكمة وتعقل ، وكان متمكنا بشكل جيد من الأمور المدنية . وكان لديه عائق بسيط في حديثه الا أنه لم يكن خطيرا جدا ليعد عيبا ، لكنه كان كافيا لجعله غير مؤهل للفصاحة السريعة . وكان في الرأي أفضل بكثير مما هو في الكلام الفصيح أو المزخرف ، وكان بارعا تماما في القانون المؤلف الذي كانت المملكة تحكم بواسطته وفي الحقيقة لم يكن هنالك مثيل له في هذا الصدد ، فقد فاق جميع نبلاء المملكة في حدة الذكاء والفطنة المنطقية ، وعالج بقوة وحكمة الازمات المتكررة التي نشأت خلال أعماله النشيطة والمستمرة في سبيل توسيع رقعة المملكة . وحافظ باستمرار على موقف شجاع ممزوج بحزم ملكي ، وكان متعلما بشكل جيد بعض الشيء ، الا أنه كان أقل بكثير من أخيه ، لكنه كان

بفضل ذكائه الحاد وذاكرته القوية قادرا على استيعاب القضايا التي تكون عادة مهمة للملوك بشكل جيد وكاف ، وساعدته في هذا المجال عاداته في طرح الأسئلة بشكل مستمر ، وبالقراءة كلما سمحت له أمور المملكة بالحصول على فراغ ، وأبدى مهارة كبيرة في طرح أسئلة كان يجد في البحث عن حلول لها ، واستمع الى التاريخ بتلهف ، وكان يفضل على جميع انواع القراءة الأخرى (١٧٦) ، ولم يذس اذا كان سماعه ، وكان يتذكره بعد ذلك بسهولة ودقة ، واستحوذت المسائل العامة على انتباهه بالكامل ، ولم يهتم أبدا بالمثلين أو ألعاب الحظ ، وكان يستمتع كثيرا في مراقبة طيران الصقور وطيور مالك الحزين في مطاراتها للفرائس ، وكان يتحمل المشقات بصبر ، وكان يعاني من إزعاج قليل من الحرارة والبرد لأنه كان يعيل الى البدانة لابل كان في الحقيقة بدينا جدا .

كان ورعا بحيث أمر بإعطاء العشر بأكمله وبون نزاع الى الكنيسة ، وكان يستمع بورع الى القداس كل يوم ما لم يمنعه عن ذلك المرض أو أي طارئ آخر ، وتحمل برباطة جأش الشتم والسباب التي قذف بها مرارا وبشكل علني وسري على حد سواء حتى من قبل الأشخاص الوضعاء والمحترمين ، وكان يخفي مشاعره تماما بحيث كان يبدو وكأنه لم يسمع العبارات التي قيلت (١٧٧) ، وكان معتدلا في تناول الطعام والشراب على حد سواء لأنه كان يحتقر الإفراط في كلا الأمرين ، ويقال انه وضع ثقة كبيرة في وكلائه الى درجة انه لم يطلب منهم أي عرض أو تصفية حساب بعد ما عهد اليهم بالمسؤولية عن أموره ، ورفض الاصفاء الى الدس ضد اخلاصهم ، وقد عد بعض الناس هذه الصفة نقيصة ، بينما عدها آخرون فضيلة وقالوا انها كانت برهانا على الثقة الاصلية.

ونجمت عن هذه المواهب العقلية والشخصية البارزة بعض المصائب الواضحة فألقت بظلالها بعض الشيء على السمات الجيدة الموصوفة منذ لحظات ، فقد كان يفتقر الى مزاج أنيس ، وكان

صموتا جدا ، ولم تكن لديه تلك الدماثة واللباقة التي يحتاجها
الامراء أكثر من الأشخاص الآخرين لكسب عواطف
رعاياهم ، ونادرا ما كان يتكلم مع أحد ، مالم تجبره الظروف على
ذلك ، أو مالم يجبر ازعاجه بالمصادفة بتوجيه الكلام اليه
أولا ، وكان هذا العيب أكثر لفتا للانتباه لأن أخاه بلدوين كان دوما
على استعداد للتفوه بأقوال سارة ، وكان نمثا للغاية بالنسبة
للجميع (١٧٨)

ويقال إن عموري قد انغمس في اقتراف الفواحش الجسدية بدون
تحفظ ، وأنه أغوى النسوة المتزوجات ، الأمر الذي نرجو أن يغفره
له الرب برحمته ! وعلاوة على ذلك ، كان خصما شديدا لحرية
الكنائس ، فقد حولها خلال فترة حكمه الى مرحلة الاربك وذلك
بإثقال أوقافها بمطالب متكررة ، وهكذا وضع على كاهل الأماكن
المقدسة نينا فاق بكثير نطاق عائداتها (١٧٩)

كان جشعه للمال أكثر مما كان لائقا أو جديرا بملك ، وكان
يحصل عليه باستخدام حر للهبات ، واستبقاه مرارا لنفسه بشكل
يخالف تماما متطلبات العدالة الصارمة والحق . وحاول في حديثه
العادي معي أن يسوغ سلوكه الجشع بتقديم الأسباب
التالية : « ينبغي على كل أمير ، وقبل كل شيء على كل ملك أن يدرك
أنه لن يكون قط واقعا في أزمة شديدة ، وذلك لسببين : أولهما أن
ثروة الرعايا تبقى دوما سالمة عندما لا يكون الحاكم
محتاجا ، وثانيهما أن تتوفر تحت تصرفه موارد كافية يتزود منها
باحتياجات مملكته كلما برزت حاجة ملحة مفاجئة ، ويجب على
الملك الحكيم في حالة كهذه أن يكون سخيا جدا وأن لا يوفر أية
نفقة ، وبهذا يتضح أنه مهما كان عنده من أموال فهو لا يمتلكها
لنفعته ، بل لمصلحة المملكة ».

ولم يستطع حتى الذين كانوا يكرهون الملك ، أن ينكروا أن هذه

الاسباب تنطبق على حالته . لأنه لم يوفر أية نفقة عندما تعرضت المملكة لضائقات خطيرة ، ولم يعقه الاجهاد الجسدي . غير أن ثروة رعاياه كانت بعيدة عن الصون ، لأنه استفاد مرارا وتكرارا من أكثر النرائع تفاهة للقيام بانتهاكات خطيرة على مواريتهم .

٣ - الحديث عن صفاته الجسدية وعن مسألة محددة عرضها على أحد أصدقائه ليحلها .

كان عموري طويلا بشكل مناسب ووسيعا . فقد كان أطول من كثيرين مع أنه كان أقصر من نوي القوام المشقوق للغاية ، كانت ملامحه وسيمة ، وأظهرت مشيته - حتى إلى الغرباء - سمو الأمير الذي توجب تسقيره وكانت عيناه متلاثلتين وذات حجم متوسط ، وكان أنفه معقوفا بشكل غير مناسب كأنف أخيه ، وكان شعره أشقر اللون ، وكان ناميا ومتدلليا إلى الخلف بعض الشيء انطلاقا من جبينه ، وكانت تغطي وجنتيه وذقنه لحية كثيفة وجميلة ، وكان يضحك بطريقة مفرطة حتى كان جسده يهتز بأسره عندما كان يضحك ، وكان يحب التحادث مع رجال حكماء وعقلاء ومع الذين كانوا مطلقين على البلدان البعيدة والعادات الغريبة (١٨٠)

واتذكر أنه استدعاني ذات مرة بطريقة ودية إلى قلعة صور بينما كان هناك يعاني من حمى خفيفة لم تكن مرفوقة بالخطر ، وتحدثت معه بشكل حميم حول موضوعات كثيرة خلال ساعات الراجعة وخلال النوبات التي تحدث في أمراض الحمى المتقطعة ، وأجبت عن بعض أسئلته بقدر ما سمح بذلك ، ولقد تحسن بفضل الحادثة التي أجراها معي .

كان من بين الأسئلة التي طرحها علي في ذلك الوقت سؤال أثارني غاية الاثارة لأن السؤال كان غريبا ، وكان موضوعه لايسمح

بمناقشته الا بصعوبة لأن عقيدتنا الشاملة كانت تلقنه ، ونقلته كما يليق بالاعتقاد الصادق ، وثانيا لأن فؤادي قد تأثر بعمق من أن ملكا أرثوذكسيا ، سليل أسلاف أرثوذكس يمكن أن يضمر شكاً بخصوص عقيدة ثابتة وأن يفسر عنها في أعماق فؤاده .

وبالاختصار ، لقد سألتني عما اذا كانت هنالك أية طريقة لاثبات، وبديل موثوق وجدير بالاعتماد عليه بأن هنالك قيامة مستقبلية خارج تعاليم المنقذ والرجال المقدسين الذين آمنوا بالمسيح ، وهي عقائد لم يرتب بصحتها ؟ وحيث أثارتني غرابة هذا السؤال فقد أجبت : إن تعاليم ربنا ومنقذنا كافية لأن يبشر بوضوح في مقاطع كثيرة من الانجيل بالقيامة المستقبلية للجسد ، ووعد أنه سيأتي كقاض ليحكم الفناء والموت والعالم بالنار ، وقد قال للنخبة إنه سيقدم لهم مملكة معدة من أساس العالم ، الا أن الأشرار سيودعون النار الأبدية المعدة للشيطان وجنوده ويكفي الايمان بالحواريين المقدسين ويرسل العهد القديم .

أجاب على هذا قائلا : « إنني أومن بكل هذا بيقين ، لكنني أبحث عن سبب حيث يمكن إثبات هذا لأمرىء يرتاب بصحة هذه الأشياء ، ولايقبل عقيدة المسيح ويؤمن بقيامة مستقبلية وأن هنالك حياة أخرى بعد هذه الوفاة » .

فأجبت قائلا : « إذا ضع نفسك في موضع رجل متألم جدا ولنحاول أن نتحقق من شيء ما حول هذه المسألة : فقال لي : « حسنا » ثم سألته : « هل تعرف بأن الله عادل » وأجاب : « أعترف أنه لا يوجد شيء أصدق من هذا » . فقلت له : « من العدل أيضا أن يكافأ الطيب بالطيب . والشر بالشر ؟ » فأجاب « ذلك صحيح » فقلت : « إن ذلك لا يحدث كثيرا في هذه الحياة ، حيث لا يعاني بعض الناس الطيبين الا من المتاعب والحظ العاثر في هذه الحياة ، بينما ينعم الكثير من الأشخاص

الأشرار بسعادة متواصلة كما يعلمنا ذلك الدليل من الحياة اليومية ، فأجاب من جديد : « إن الأمر كذلك » فأكملت حديثي قائلا : « إذن فإن ذلك سيحدث في حياة أخرى لأن من المستحيل أن لا يتصرف الله بعدل . فلذلك ستكون هناك حياة أخرى وقيامة لهذا الجسد حيث يجب على جميع الذين كانوا يستحقون الخير أو الشر في هذه الحياة أن يلقوا جزاءهم » . فأجاب على هذا قائلا : « يبدو هذا جيدا بشكل يفوق الحدود بالنسبة لي ، لقد أزلت كل الشك من فؤادي (١٨١) » . فلقد انتعشت روحه كثيرا بهذه المحادثات وبأحاديث مشابهة لكن دعونا نعد الى موضوعنا .

كان عموري بدينا بشكل مفرط وكان له ثديان كثيفي المرأة حيث كانا متدليين على صدره . الا ان الطبيعة كانت قد شكلت أعضائه الأخرى بيد أكثر لطفا ، حيث لم تظهر هذه وسامة عادية فقط ، بل أظهرت جمالا فريدا من نوعه بالفعل ، ولم يتمكن حتى أعداؤه من أن ينكروا أنه كان معتدلا في تغذيته الجسدية وكان معتدلا في تناول الخمر جدا .

٤ - رواية كيف أجبر عموري قبل تدويجه على طلاق زوجته التي كان قد اقترن بها خلافا للقوانين المقدسة.

بينما كان بلدوين ما يزال منشغلا بنشاط في القضايا البشرية ويحكم المملكة بنجاح ، تزوج أخوه عموري من أغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها (١٨٢) . وكان قد انجب خلال حياة أخيه طفليين منها هما صبي يدعى بلدوين وهو الذي كان عمه قد استقبله في جرن التعميد المقدس ، وابنة كبرى تدعى سيبيليا سميت على اسم كونتس فلاندرز أخت بلدوين وعموري .

وأجبر عموري على طلاق زوجته بعد وفاة أخيه عندما طالب أن تؤول المملكة اليه بموجب الحق الوراثي ، وكان هذا الزواج قد تم

على الرغم من المعارضة الواضحة للبطيريك فولتشر ، ذي الذكرى المبجلة ، حيث ادعى انهما كانا اقرباء من الدرجة الرابعة من حيث النسب ، وهي حقيقة اعلن عن صحتها فيما بعد وبإجلال أمام الكنيسة اقارب مشتركون لكليهما (١٨٣) . ولذلك فقد اعلن عن الفاء الزواج بموجب ما قضت به القوانين اللاهوتية ، وانفسخ الزواج بحضور البطيريك أمالرخ صاحب الذكرى الطيبة ويوحنا الكارينال - الراهب للقديسين يوحنا بولص والممثل البابوي . وشهد اقارب الطرفين على درجة القرابة بينهما بأداء أيمان جلية ، وأقسموا أن الحقائق كانت كما ذكرت ، هذا واتخذ شرط قضى باعتبار نسل الاثنين نرية شرعية ، وأن يكون لهما حق كامل في وراثة ميراث والدهما .

وبما أنني كنت قلقا جدا حول مسائل كهذه ، فقد أجريت فيما بعد تحقيقات دقيقة بخصوص درجة القرابة بين الاثنين ، لأنني لم أكن قد عدت من المدارس في الوقت الذي وقع فيه هذا الحادث في القدس ، بل كنت ما أزال مقيما فيما وراء البحار ومنشغلا بدراسة العلوم العقلية ، وعلمت بالحقائق في النهاية عن طريق السيدة ستيفنا راعية دير مريم الكبرى المقدسة (الذي كان يقع قبالة قبر الرب في القدس) وكانت هذه المرأة الورعة والنبيلة النسب وبسبب حياتها الورعة ابنة جوسلين الأكبر كونت الرها وأخت روجر أمير انطاكية وابن رتشارد (١٨٤) ، ومع انها كانت قد طعنت في السن الآن ، فقد تذكرت تفاصيل المسألة تماما وقدمت سلسلة نسب الاثنين على النحو التالي :

كان بلدوين دي بورغ ، الملك الثاني للقدس ، رجلا رائعا في جميع الجوانب (والذي كتبنا مؤخرا عن حياته وعاداته وأعماله السيئة والجيدة على حد سواء عندما كنا نعالج فترة حكمه) وجوسلين الأكبر ابنين لأختين ، وولدت الملكة ميليساند من بلدوين وولد من الملكة ميليساند الملكان بلدوين الثالث

- ٣٢٢٠ -

وعموري ، وكما ولد من جوسلين الأكبر جوسلين الأصغر والد الكونتس أغنس التي كانت بالفعل زوجة لعموري ، انما بصورة غير شرعية ، وأخوها هو جوسلين الثالث الذي يعمل الآن قهرمانا للملك وخالا للملك بلدوين الرابع الذي يحكم حاليا (١٨٥) ، بقي عموري اعزب لفترة من الزمن ، لكن أغنس تزوجت على الفور من الرجل اللامع والتبيل هيو أوف ابلين بن بالين الأكبر ، وكان هيو أخا لبلدوين صاحب الرملة ، الذي يحكم الآن تلك المدينة ، وقد توفي أخوه دون أن ينجب أطفالا ، وأخا أيضا لبالين الأصغر الذي تزوج من أرملة الملك عموري. وبعد وفاة هيو ، وبينما كان عموري ما يزال على قيد الحياة ارتبطت أغنس بروابط الحب بريزو صاحب صيدا ابن جيرارد ، ويقال أن هذا الرباط لم يكن زواجا شرعيا مثل زواجهما من الملك عموري . لأن جيرارد ، والد رينو كان قريب قرابة نسب للثنتين ، وهذا أمر مؤكد برواية حلف على صحتها بالنسبة للثنتين ، حسبما سمعها من أسلافه ، وهكذا تلا هذا الزواج الغناء آخر بالطريقة التي وصفتها من قبل .

٥ - الملك يهبط نحو مصر . نشوب معركة بينه وبين السلطان ضرغام شاور يستدعي شيركوه الى مصر . ضرغام يرسل المبعوثين الى الملك لطلب السلام .

بعد أن نصب الملك عموري على العرش ، رفض المصريون خلال العام الأول من حكمه ، أن يدفعوا الجزية السنوية حسب الاتفاق الذي كانوا قد عقدوه مع أخيه (١٨٦) ، ولذلك جمع الملك قوة قوية من الفرسان وجيشا ضخما وهبط نحو مصر على رأس حشد ضخم في حوالي الأول من شهر ايلول فخرج اليه ضرغام حاكما تلك المملكة والذي يدعي باسم سلطان بتلك اللغة ، على رأس حشود لاتحصى ، ولم يتردد بمواجهته في الصحراء على هذا الجانب من

- ٣٢٢١ -

مصر ، الا انه لم يستطع تحمل هجوم المسيحيين ، و أجبر ، بعد أن فقد الجزء الأكبر من جنوده بالأسر أو بالقتل ، على التراجع الى المدينة القريبة والتي تعرف باللغة المصرية باسم بلبيس ، وخشي المصريون الآن من أن يقرر الملك - بعدما حقق هذه المآثر - قيادة جيوشه الى الاجزاء الأكثر بعدا من المملكة ، ولذلك أقدموا بعدما يؤسوا من ايجاد أي علاج لغزواتنا ، على تخريب السدود التي كانت تحتجز الفائض من نهر النيل حتى الفصل المناسب ، وأطلقوا أيضا مياه النهر الفائض آنذاك حسب زيادتها المألوفة ، وأملوا في أن يمنعوا بهذا السدود على الأقل حصول تقدم إضافي لأعدائهم ، وأن يضمنوا سلامتهم بمساعدة المياه المنتشرة في كل مكان.

وهكذا ، عاد الملك منتصرا ومكللا الى مملكته ، بعدما كان قد انتصر على أعدائه ، وأنجز حملة ناجحة (١٨٧)

وكان درغام - حاكم مصر وسلطانها بأكملها الآن - قد طرد قبل وقت قصير من هذه المنصب من قبل حاكم قوي آخر يدعى شاور ونجح شاور (١٨٨) بالنجاة وذهب مع أصدقائه وحاشيته وجميع الكنوز التي استطاع أن ينقلها الى أبناء قبيلته العسرب ليلتمس مساعدتهم ، واختبأ هناك بين أهله ، منتظرا كما قيل ما تنجم عنه القضية مع نتائج الحرب ، وكان يرجو أن فرصة مناسبة ستقدم نفسها على الفور حيث سيتمكن من رد الضربة الى خصمه ، ووصلته معلومات حول عودة الملك الى موطنه إضافة الى أخبار أفادت أن خصمه ما زال قويا ومتمكنا كحاكم ، وكان درغام قد أصبح بالفعل أكثر غطرسة من ذي قبل ، وتفاخر باختيال بحقيقة أنه قد هزم في الحرب زعيما قويا ، وأجبره على الانسحاب دون أن يسبب أضرار كبيرة لمنطقته ، وبناء عليه سادر شاور بالذهاب الى الأمير القوي نور الدين ملك دمشق والتمس مساعدته ورغب في أن يعود الى مصر وأن يطرد خصمه درغام وأن يحصل من جديد على السيطرة على المملكة ، ووافق نور الدين ، فورا على هذا

- ٣٢٢٢ -

الاقتراح بعدما أغراه بالهبات والوعود ، لأنه كان يرجو أن يستولي على المملكة لنفسه ساعة دخول جيشه الى مصر ، وخصص لشاور قائد فرسانه شيركوه وكان محاربا متمكنا وذكيًا ومتلها لبلوغ المجد ، وصاحب خبرة واسعة في الأمور العسكرية ، وبما أن شيركوه كان سخيا بشكل يفوق موارد مواريثه ، فقد أحبه أتباعه بسبب هذا السخاء ، وكان شيركوه صغير القامة وبدينا لا بل سمينًا جدا وطاعنا في السن ، ومع أنه كان منحدرًا من أصل ضيع ، فقد أصبح ثريا وارتقى بفضل جدارته من مرتبته المتواضعة الى مرتبة أمير ، وكان مصابا بالعمى في إحدى عينيه ورجلا شديد التحمل للمشقات ، فقد كان يتحمل الجوع والعطش برياسة جاش غريب تماما بالنسبة لتلك المرحلة من الحياة ، لقد كان هذا هو الرجل الذي أرسله نور الدين الى مصر مع جيش كبير (١١٨٩) .

كانت الرسل تروح وتجيء باستمرار ، وعلم السلطان درغام منهم ومما انتشر من أخبار أن العدو ، الذي كان قد طرده من قبل عائداً بمرافقة جيش تركي مؤلف من الاف كثيرة ، وحيث لم يكن لدى السلطان ثقة كبيرة في قوته ، فقد اضطر الى طلب المساعدة ، وأرسل رسله الى الملك وحملهم رسائل سلمية والتمس بجدية مساعدته ضد العدو الذي كان الآن يتوعد بمهاجمته . ووعده في أن لا يدفع الجزية التي تم الاتفاق عليها أصلا مع الملك بلدين بل أن يضيف اليها مقدارًا كبيرًا من المال يحدد حسب قرار الملك ، وأعلن أيضا أنه على استعداد لتقديم الرهائن كبرهان على الخضوع الدائم والتحالف على طول الوقت .

٦ - موت بطرس رئيس أساقفة صور . خلافته من قبل فريديريك أسقف عكا .

في هذه الآونة توفي بطرس الرئيس المبجل لأساقفة مدينة صور نو الذكرى الوردية في الرب (١٩٠) ، وذلك في الأول من شهر آذار في العام

- ٣٢٢٣ -

الثاني لحكم الملك عموري ، وجرى خلال بضعة أيام وقبل انقضاء شهر آذار تعيين فريديك أسقف عكا والأسقف المساعد التابع للكنيسة ذاتها بدلا عنه وذلك تلبية لرغبة الملك المعلنة.

كان فريديك اللوثريني المولد ، رجلا نبيل المحتد ، وكان طويلا جدا ، ولم تكن لديه سوى ثقافة بسيطة ، لكن كان منصرفا بشكل جامع نحو فن الحرب.

٧ - مقتل ضرغام سلطان مصر بسبب دسائس رجاله . شاور يصبح سلطانا . شاور يوجه الدعوة الى الملك ليحضر لمساعدته . الملك يهبط نحو مصر ويطرد شيركوه.

كان المنوبيون المصريون في تلك الاثناء يتفاوضون مع الملك ، وقد توصلوا عمليا الى اتفاق مرض الا أنهم قبل أن يتمكنوا من العودة الى موطنهم ، كان شاور وشيركوه المذكوران أنفا قد دخلا مصر مع جميع قواتهما وكانا قد واجها السلطان ضرغام في المعركة ، وقد هزما في الاشتباك الاول وعانيا من هزيمة منكرة ، بيد أنه قبل أن يتمكنوا من تجريب حظهما في معركة ثانية في ظل الشروط ذاتها ، أصيب ضرغام بسهم أطلق من يد أحد جنوده أودى بحياته الأمر الذي أثار حزن أتباعه عليه (١٩١١) . ويسبب موته دخل شاور القاهرة كمنتصر كما كان قد رغب بذلك ، وقتل جميع أقارب ضرغام وأصدقائه وأتباعه الذين عثر عليهم ، واحتل منصبه الرسمي السابق من جديد ، ولم يكن مهما للحاكم الأعلى (الخليفة الفاطمي) فوز مطالب هذا المنافس الآخر طالما هنالك شخص سيوقف نفسه بعبودية على الاهتمام بالأمور الشخصية لمولده مع أمور سكان المملكة.

بالنتيجة من كارثة يصعب لا بل يتعذر رابها ، وفي الوقت تماما كان بعض النبلاء قد أتوا حاجين من بلاد أكوئين في سبيل الصلاة وكان بينهم غودفري المكنى بالطرقة وهو أخ لكونت أنغوليم ولهيودي لوزنان الأكبر المكنى « بالبنى » وتقدم هؤلاء الحجاج نحو بلاد أنطاكية بعدما أتموا عباداتهم حسب العادة ، وهنا علموا أن نور الدين كان ما يزال مع جيشه في المنطقة المجاورة لطرابلس في الموقع المذكور آنفا ، وكان ينعم بالراحة ويمضي فترة من الاستجمام وهو مطمئن غير مهتم بأمنه وسلامته مطلقا ، وبناء عليه جمع المسيحيون قواتهم وشنوا هجوما مفاجئا على جيشة ، فبوغت نور الدين ، وأسر العديد من جنده ، وهلك أعداد كبيرة منهم أيضا لقد أبيد جيشه بالفعل فهرب هذا الأمير وهو في غاية الارتباك ويأسا من الحياة نفسها ، وتخلّى عن جميع الأمتعة وحتى عن سيفه ، ونجا بصعوبة من الوقوع بالأسر في يد قواتنا بعد أن امتطى أحد حيوانات التحميل ، وهو عاري القدمين ، وعاد المسيحيون منتصرين الى موطنهم محملين بالغنائم والثروات التى لا تحصى.

قاد هذه الحملة غلبرت دي لاسي وهو نبيل من مرتبة عالية ومحارب متمرس وقائد لفرسان الداوية في تلك المناطق ، وساعده الرجلان العظيمان المذكوران أعلاه مع روبرت مانسل الذي قاد الغالندسيين في تلك الحملة وبعض الفرسان الآخرين(١٩٢)

٩ - نور الدين يحاصر قلعة حارم في بلاد أنطاكية.
وقوع كل من أمير أنطاكية وكونت طرابلس وكولمان حاكم كليكية في الأسر.

امتلا نور الدين ازاء هذه الكارثة المشؤومة بالغضب الشديد وشعر بارتباك عظيم مع الاحباط والاشمئزاز ، وبما أنه كان تواقا لمحو العار والتأثر لما نزل به وبشعبه من أضرار التمس المساعدة من

الأصدقاء والأقارب . ولم ييسق أمير في الشرق إلا وطلب إليه المساعدة ، وكان يلتمس المساعدات بالتوسلات أحيانا وبالوعود بالمكافآت أحيانا وجند في هذه الأثناء قواته الخاصة ، وجمع تعزيزات عسكرية من سائر الأنحاء ، وقام معه حشد ضخيم والاف من الفرسان كان قد جمعهم بهذه الطريقة بالقاء الحصار على قلعة حارم التي تعد إحدى قلاع المسيحيين في بلاد أنطاكية ، ووضع الآلة الحربية حولها بالطريقة المألوفة ، وبدأ بمهاجمة القلعة بضرارة لم تسمح للسكان بأية راحة.

وجرى ابلاغ قادة المسيحيين على الفور بهذه الأعمال ، فبادرت نحو حارم بدون تأخير جميع القوات من المشاة والفرسان التي أمكن جمعها من كل مكان ، واشتملت هذه القوات على بوهيموند الثالث أمير أنطاكية ابن ريموند ، وريموند الأصغر كونت طرابلس ابن الكونت ريموند وكولمان حاكم كليكية وهو من أقرباء الامبراطور كان مسؤولا عن الشؤون الامبراطورية في ذلك الاقليم ، وطوروس وهو أمير أرمني قوي جدا ، وقد زحفوا على رأس قوات معبأة بتشكيل المعركة ، وهم مصممون على رفع الحصار على الرغم من جهود نور الدين.

وقرر ذلك الأمير والقادة المشاركة (الفرثيين) ، الذين انضموا اليه ، بعد التشاور أنه سيكون من الأسلم رفع الحصار والرحيل طوعا بدلا من المجازفة في مواجهة العدو الذي بات وصوله اليهم وشيكا ، وهكذا ، فقد رتبوا الامتعة وحاولوا تنفيذ انسحابهم ، غير أن المسيحيين ، الذين شجعهم النجاح الذي كان قد رافق جهودهم ، بدأوا المطاردة. ولم يستطيعوا أن يرتاحوا وهم قانعون بتخليص السكان من الحصار على أيدي هؤلاء الأمراء العظام. وهكذا قاموا وهم مهملون لقواعد النظام العسكري ، بالتفرق بطيش وتجولوا هناءهناك في مطاردة العدو ، وتجمع الأتراك فجأة واستردوا شجاعتهم وقوتهم وانقضوا

- ٣٢٢٧ -

عليهم ، فتبدت صفوف المسيحيين في الهجوم الأول بعد أن حوصروا في مكان ضيق ملء بالمستنقعات ، وأصبح الذين كانوا من قبل قد وزعوا الرعب الكبير قبل قليل في قلوب الأتراك ، صيدا محتقرا من قبل ذلك العدو نفسه ، ولقد قهرتهم سيوف العدو وبددت جموعهم فقتلوا بشكل مخز مثل الأضاحي أمام المذبح ، ولم يتذكر أحد منهم شجاعته السابقة ، ولم يناضل واحد منهم ليتذكر منزلة أبائه أو ليتجنب الكارثة أو ليقا تل دفاعا عن الحرية ومجد أسلافه ، والقى الجميع ، وبإهمال للشرف ، أسلحتهم بتهور ، وتوسلوا بشكل مخز حتى يمنحوا الحياة التي كان من الأفضل استهلاكها في القتال برجولة دفاعا عن أرض الآباء وقدة للأجيال المقبلة.

في تلك الساعة العصبية أدرك طوروس الأرمني أن الأتراك باتوا متفوقين وأن المسيحيين على العكس من ذلك ، قد استسلموا ، ولذلك قرر إنقاذ نفسه بالهروب فانسحب من جحيم المعركة ، وكان قد عارض في البداية مطاردة الأتراك ، وبذل جهوده في سبيل اقناع المسحيين بالعدول عن محاولة ذلك ، إلا أن المشورة الحماة للآخرين هي التي سادت.

واستسلم إلى العدو كل من بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس وذلك لينقذا روحيهما ، حتى وان كلفهما ذلك الخزي والعار ، وسلك المنحنى ذاته كل من كولمان حاكم كليكية وهيو لوزنان الذي ذكرته أنفا ، وجوسلين الثالث بن جوسلين الثاني كونت الرها وعدد كبير من بقية النبلاء ، فأوثقوا بالسلاسل كأخط أنواع العبيد ، واقتيدوا بشكل مخز إلى مدينة حلب حيث القوا في السجون وأصبحوا محط سخرية الكفرة.

وتشجع نور الدين وأحلافه بهذا النجاح وهذا الحظ الكبير والجيد ، وهاجموا بثقة أكبر في هذه المرة المعقل الذي كانوا

- ٣٢٢٨ -

يحاصرونه من أذي قبل ، واستؤنفت عمليات الحصار من جديد وتم الاستيلاء على الحصن بالقوة في غضون بضعة أيام .

وقع هذ الحدث في اليوم الرابع قبل نهاية الاسبوع الثاني من شهر آب في العام ١١٦٥ لتجسيد الرب وفي العام الثاني من فترة حكم الملك عموري . وكان الملك نفسه ما يزال في هذا الوقت في مصر حيث احتجزته هناك شؤونہ الخاصة (١٩٤) .

١٠ - وصول الكونت ثيري أوف فلاندرز الى سورية . نور الدين يحاصر بانياس ويستولي على المدينة .

أثرت هذه التغييرات الكبيرة والكوارث الرهيبة بشكل خطير جدا على وضع المسيحيين حتى أنهم وصلوا الى حافة الهاوية ، ولم يبق الآن أي شعاع من الأمل ، وكان الجميع بقلوب يائسة يخافون يوميا من وقوع كوارث أسوأ ، عندما وصل ثيري كونت فلاندرز وكان بمرافقة زوجته أخت الملك ، وكانت امرأة متسدينة وتخشى الرب ، ويتبعه مجموعه ضخمة من الفرسان (١٩٥) ورحب الناس به بابتهاج لأنه بدا بأنه مساعدة فورية جدا ، مثل الانتقال الى نسمة منعشة بعد حرارة الشمس الشديدة ، ورجوا أن يتمكنوا بدعمه من الصمود حتى عودة الملك والجيش المسيحي ، ولكن للأسف ، مالبثت حالة الصفاء هذه التي كانت مشرقة ، أن حجبها على الفور غمامة كثيفة ظهرت فجأة وحسوت كل شيء الى ظلام (١٩٦) ، فقد كان نور الدين ، الذي أصبح متعجرفا للغاية بسبب نجاحه ، قد قرر ان ينتهز الفرصة لحاصرة مدينة بانياس ، وكان يعرف تماما ان المملكة كانت مجربة من مدافعيها المألوفين ، لان الملك كان متغيبا مع سائر القوة العسكرية للمملكة ، وكان القادة الرئيسيون اسرى لديه .

ومدينة بانياس هي قديمة جدا تقع عند قاعدة جبال لبنان المشهورة ، وكانت تعرف باسم دان خلال العصور القديمة في أيام بني اسرائيل ، وكان تشكل الحدود الشمالية للممتلكات الاسرائيلية مثلما كانت « بئر السبع » تشكل الحد الجنوبي وبالتالي ، فعندما ، يوصف طول ارض الميعاد ، يقال عنها تمتد من « دان الى بئر السبع » وحسبما جاء عند لوقا (١٩٧) فان فيليب بن هيرد الاكبر حاكم امبراطورية وكورة تراخونيتس ، كان قد وسعها خلال عهده تشريفا للقيصر تايبيروس وسماها باسم قيصرية فيليب حتى يحافظ على اسمه الى الابد . وهي معروفة ايضا باسم بانياس ، لكن شعوبنا اللاتينية حرفت الاسم - كما هي عادتهم مع الاسماء عادة - وسموها باسم بيليناس ، وتمتد حدودها في الشرق حتى بلاد دمشق على مقربة من الموقع الذي يوجد فيه اصل النهرين اللذين يشكلان الأردن ، وهذه هي المدينة المذكورة في الانجيل حيث كتب « ولما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيليب سأل تلاميذه » (١٩٨) الى آخره . وحدث هنا ايضا أن تسلم بطرس أمير الحواريين مفاتيح مملكة السموات من المسيح كمكافأة على ايمانه الرائع .

وحاصر نور الدين هذا الموقع لانه وجده بلا مدافعين ، حيث كان همفري كافل المملكة والذي كانت المدينة تخصه بموجب الحق الوراثي ، متغيبا مع الملك في مصر ، وكان أسقف المدينة متغيبا وتناقص عدد السكان الى حد كبير جدا خلال المذبحة ، ونصب نور الدين على الفور المجانيق والآلات الحربية في مواقع حول المدينة ، وألغمت الأسوار وأضعفت الأبراج بسبب سقوط وابل مستمر من الحجارة ، ولهذا تم الاستيلاء عليها خلال بضعة ايام ، وأجبر الناس الموجودون بداخلها على الاستسلام بشرط ان يسمح لهم بمغادرة المدينة دون مضايقة مع جميع ما كان بحوزتهم ، وهكذا ، استولى نور الدين على المدينة في العام ١١٦٧ لتجسيد ربنا . ووقع هذا الحدث في العام الثاني من فترة حكم عموري وفي اليوم الخامس عشر قبل انقضاء الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني (١٩٩)

وكان كافل المملكة قد عهد بالمسؤولية عن بانياس عند رحيله الى مصر الى واحد من فرسانه المخلصين ، وهو وولتردي فوسنوي ، وقد أكد بعضهم أن هذا الرجل كان مهملاً في الدفاع عن المدينة ، وعلاوة على ذلك فقد أشيع أنه قبل بالتواطؤ مع كاهن يدعى روجر ، وهو شماس لتلك الكنيسة ، رشوة بشكل غادر مقابل تنفيذ الاستسلام . ولذلك ، خاف الخائن أن خافاً شديداً لدى عودة الملك من مصر خشية أن يقتلها ، هذا ولا توجد لدينا معلومات وثيقة حول هذه النقاط باستثناء أن المدينة أسلمت الى العدو .

١١ - ذهب الملك الى أنطاكية اثر عودته من مصر .
إطلاق سراح الأمير مقابل فدية من المال . استسلام
الكهف في صيدا الى الأتراك . الأتراك يستولون أيضاً
على كهف آخر فيما وراء نهر الأردن .

كان هذا هو الوضع الذي كان سائداً آنذاك في سورية ، وكان الملك قد طرد هذه الأتثناء شيركوه من بلاد مصر وعين شاوور في الحكم كسلطان ، وعاد الآن الى بلاده كفاتح رائع ، وعلم هناك بالأحداث الكثيرة التي كانت قد حدثت في المملكة ، وعلى الرغم من أنه كان قد أبلغ ببعض المعلومات عن كل هذا من قبل ، فقد استمع الآن لتقرير مفصل عن الكوارث ، وسمع أن أهالي أنطاكية قد التمسوا المساعدة منه في حالة يائسة تقريباً (٢٠٠) ، ولذلك ، أخذ معه كونت فلاندرز
بشقة

وحنو أخويين وأسرع الى أنطاكية بحث الخطا ليقدم المساعدة التي كانت المنطقة المتأثرة تحتاجها بشكل شديد ، وتولى لدى وصوله مسؤولية القيام بأمور الأمير حيث أدارها بإخلاص وبشكل جيد وبغاية أكثر من تلك التي كان يقدمها عادة لاهتماماته الشخصية ، وحكم النبلاء والناس على حد سواء بلطف بالغ وببصيرة حكيمة ، وعين في كل مدينة رجلاً كفوءاً ليعنى بإخلاص وإدراك بجميع القضايا المتعلقة بمقاطعة الأمير وعاد بعدها الى

- ٣٢٣١ -

مملكته ، هذا وقد استمر يساعده الأتباع المخلصون للأمير والأصدقاء يشغل نفسه في مسألة إطلاق سراح الأمير ، وأعيد الأمير نتيجة لجهوده الذشيطة الى حالته السابقة من الحرية والشرف في ذلك الصيف نفسه بدفع مبلغ كبير من المال ، وكان اسره بين العدو قد استمر مدة عام تقريبا (٢٠١) ، ولم يرتح بوهيموند ولم يسترخ بعد عوبته الى انطاكية ، بل أظهر نشاطا كبيرا في جمع الفدية للرهائن ثم دفعها ، ليتمكن من تعجيل اعادتهم ، وكان امبراطور القسطنطينية قد تزوج قبل وقت قصير من ماريا ، الأخت الصغرى للأمير ، فأسرع بوهيموند الى هناك واستقبله الامبراطور بترحاب وعامله معاملة لطيفة ، وعاد بعد زيارة قصيرة الى انطاكية محملا بهبات سخية من جلالته الامبراطورية .

يبدو غريبا اقدام نور الدين ، الذي كان أميرا حكيما ومتقلا ، على الموافقة على إطلاق سراح أمير انطاكية بسرعة كبيرة ، فقد كان معارضا دائما لتحرير الأسرى المسيحيين ، وكان يتفاخر في المقام الأول بحقيقة أنه كان يأسر الكثيرين من شعبنا ، وخاصة ذوي المراتب السامية ، ويخطر على ذهني جوابان ممكنان لهذه المسألة : أولهما أنه ربما خشي من إمكانية تدخل الامبراطور وهو الحاكم القوي ، الذي لن يجرؤ على رفض مطلبه ، فقد يطالب بإعادة الأمير دون فدية ، وربما أخذ ايضا بعين الاعتبار احتمال أن يحتاط أهالي انطاكية ، دفاعا عن مصالحهم باختيار حاكم أقوى بدلا من بوهيموند في حال احتجاز أميرهم لفترة طويلة من الزمن ، لأن الأمير كان شابا ولم يقدم سوى دلائل بسيطة بمستقبل خير واعد ، وهكذا قد ينبع ضده خصم أكثر رعبا ، ولهذا السبب ، رأى نور الدين ، الذي كان داهية وحكيما أنه من الأفضل بالنسبة لمصالحه الخاصة ان يستمر بوهيموند في حكم انطاكية لأنه ايضا لم ينتظر خيرا كثيرا منه ابدا ، ومن المحتمل ان وضع أمير أعقل وأقوى في ذلك المنصب ان يكون أكثر صعوبة في التعامل معه ، ومن وجهة نظري ، ان هذه النظرية الأخيرة تفسر الدوافع الحقيقية التي سيطرت على هذا الأمير الأكثر ذكاء (٢٠٢) .

وفي هذه الآونة نفسها استولى شيركوه - الذي تكرر ذكره ، والذي كان مصمما على إبادة المسيحيين - فجأة ودون إنذار على قلعة تعود ملكيتها للمسيحيين وتقع بالقرب من صيدا ، وكان الموقع يعرف باسم كهف صور وكان يعد موقعا لايرام ، ويقال إن الاستيلاء على الموقع تم بدفع رشوة للحراس ، وأن القلعة كانت قد سقطت في أيدي العدو بسبب التواطؤ مع حراسها كان واضحا تماما ، حيث هرب فور تسليمها جميع الذين كانوا موجودين بداخلها الى بلد العدو باستثناء قائلهم الذي قبض عليه لحسن الحظ وقد واجه نهاية تعيسة في صيدا حيث شنق فيها .

باغتت المنية خلال العام نفسه وليم ملك صقلية ذي الذكرى الرائعة وابن الملك روجر (٢٠٣) وسلم رهبان فرسان الداوية الى شيركوه في هذه الآونة نفسها تقريبا قلعة ذات طبيعة مشابهة ، اي كهف _____ لا يرام واقعا فيما وراء الأردن على حدود العربية ، بعدما كان قد عهد بالعناية بها الى الداوية ، وهب الملك الى نجدتها مع مجموعة كبيرة من الفرسان ، لكن بلغه عندما كان مخيما على ضفاف الأردن نبأ افاد أن القلعة قد سقطت في أيدي العدو ، فأمر الملك بعدما أربكه هذا النبأ وأغضبه بشنق نحو / ١٢ / من الداوية المسؤولين عن تسليم الموقع (٢٠٤)

وهكذا كابد المسيحيون خلال العام ، الذي كان العام الثالث من فترة حكم الملك عموري ، من نكسات كثيرة ، وكانت المملكة بأسرها ، وبسبب اثامنا ، محفوفة جدا بالمخاطر.

- ٣٢٣٣ -

١٢ - الحديث عن عودة كاتب هذا الكتاب الى موطنه ، ووصف بعض التقدم الذي أحرزه .

(لم يتم العثور على نص هذا الفصل في أي من المخطوطات المتبقية) (٢٠٥)

١٣ - انحدار شيركوه نحو مصر على رأس كتلة كبيرة من الجند .

كان هذا هو الوضع الذي ساد بين شعبنا في تلك الآونة ، ودواترت الأخبار في هذه الاثناء بشكل واسع وتأكلت من مصادر مختلفة ان شيركوه كان يستعد للانحدار نحو مصر من جديد في ابهة عسكرية وعلى رأس قوة ضخمة من الفرسان جمعت مناطق الشرق والشمال ، ولم تكن هذه الحكاية بدون أساس لأن شيركوه كان قد زار خليفة بغداد ، ذلك الحاكم الأعظم الذي يفوق جميع حكام المسلمين ، والذي يفوق جميع الحكام الآخرين ، ويعترف بأنه الحاكم الأهم من جميع الحكام ، وقدم شيركوه لدى وصوله الى هناك التحية المألوفة ، ثم بدأ يصف ويتفاصيل كبيرة الثروة الضخمة الموجودة في مصر ، وأبلغ عن الوفرة الرائعة لجميع الأشياء الجيدة هناك وعن كل سلعة منفردة ، وعن الكنوز الثمينة التي تخص الأمير نفسه ، وتحدث عن الضرائب والرسوم التي يمكن جمعها من المدن الواقعة على الساحل والارض الداخلية البعيدة ، والكمية الضخمة من العائدات السنوية . وأضاف أن السكان ، الذين أوقفوا أنفسهم على حياة الرفاهية والجاهلين لعلوم الحرب قد أصبحوا ضعفاء بسبب فترة سلام استمرت لمدة طويلة من الزمن ، وحاول مرارا وتكرارا أن يطبع في ذهن الخليفة حقيقة أن الأمير ، الذي يحكم مصر الآن ، قد نصب مع أسلافه خليفة منافسا له نفسه (خليفة بغداد) ولأسلافه واجترأوا على

- ٣٢٣٤ -

القول أن الخليفة لامثيل له ولا يعادله في منزلته الفريدة أيضا . وعلاوة على ذلك ، فقد تولوا الأخذ بشريعة مخالفة وتبني عقيدة معارضة لعقيدة الخليفة بشكل مباشر ، وأثر شيركوه بتكرير اقتراحات كهذه على ذهن الخليفة حتى أقنعه في تنفيذ وصية السلطان ، وكتب الى جميع الأمراء الذين كانوا يؤمنون بعقيدته المزيفة ، وأمرهم بشكل صارم أن يجندوا قواتهم ويتبعوا شيركوه لتقديم المساعدة له (٢٠٦).

وعقد الملك عموري لدى سماعه بهذا النبأ اجتماعا عاما في نابلس لابتداع وسائل لاحباط خطط الخليفة وتعطيلها ، وتحدث هنالك عن الخطر الذي كان يهدد المملكة ووصفه بعناية كبيرة وذلك بحضور البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة وعدد آخر من أصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة اضافة الى النبلاء والناس كافة والتمس مساعدتهم بشكل جاد ، وبالنظر الى الظروف ، تقرر عند ذلك بالاجماع أنه ينبغي على كل فرد بدون استثناء تقديم العشر عن جميع ما يمتلكه من أشياء متنقلة من أجل نجدة المملكة ، وقد تم تنفيذ القرار بحذافيره .

واستمرت الأقاويل بالانتشار ومفادها أن شيركوه ، المجهز بشكل جيد بالطعام الضروري لأيام كثيرة وبكميات وفيرة من الماء المنقول بالقرب ، قد بدأ مسيرته عبر الصحراء على الطريق الذي كان بنو اسرائيل قد دخلوا منه الى أرض الميعاد ، ولذلك ، جهز الملك جميع قواته المتوفرة من الفرسان وانطلق بسرعة لمقاتلة شيركوه واعاقبة تقدمه ، وتقــدم حتــى قــادس - بــرنيه - Barnea - Kades . في الصحراء ، الا أنه عاد على الفور من حيث أتى لأنه لم يجد شيركوه .

١٤- الملك يلاحق شيركوه وينحدر مثله الى مصر لمساعدة المصريين .

صدرت الاوامر آنذاك الى المنادين لاستدعاء جميع القوات العسكرية من مدن المملكة كافة من المشاة والفرسان على حد سواء ، وصدرت الاوامر الى القوات بالتجمع في عسقلان (٢٠٧) ، وفي الثلاثين من شهر كانون الثاني انطلق الجيش يحمل معه المؤن الضرورية من الاطعمة للرحلة ، وسار سيرا حثيثا حتى عبسّر الصحراء الشاسعة الواقعة بين غزة آخر مدن مملكتنا ، وبين أرض مصر وتم التوقف قليلا في العريش القلعة القديمة في الصحراء لاجراء احصاء للقوات ، ولانتظار وصول الجيش ، وأخيرا وصل الجيش بأكمله الى المدينة المعروفة حاليا باسم بلبيس مع أنها كانت تعرف في العصور القديمة باسم بيليوسيوم فهكذا تكرر ذكرها في أعمال الرسل .

واستولى الذعر على السلطان شاور عندما علم بقُدوم الملك ، وارتاع بسبب الظهور المفاجيء للمسيحيين وارتاب بحسن نوايا الحشد المقرب ، وخشي من امكانية توجيه الجيش العسكري ضده ، وعلى العموم كان شاور حاكما عاقلا وكفوًا ، واعتبر بعيد النظر بشكل خاص ، الا أنه أظهر في هذه المناسبة جبنًا وجهلاً تامًا ، فنادرًا ما استطاع أن يصدق سبب قدومنا على الرغم من أنه أبلغ به . وأرسل أخيرا وعلى مضض وبعد فوات الأوان الكشافة الى الصحراء لكي يحصلوا على معلومات محددة حول تحركات العدو ، وذكر الرسل لدى عودتهم أن الجيش التركي كان قد بلغ أطفح . فدهش عندها السلطان بالفعل ازاء الولاء المخلص للمسيحيين وأثنى عليهم كثيرا ، ووضع تحت تصرف الملك جميع الكنوز التابعة للمملكة والخليفة على حد سواء وذلك ، امتنانا للعناية التي كان الجيش المسيحي قد أظهرها نحو حلفائه المصريين وعلاوة على ذلك أظهر بدئا من ذلك اليوم حماسة كبيرة في تنفيذ جميع رغبات

- ٣٢٣٦ -

الملك ، ولذلك ، نهل الملك عموري بحرية من هذه المساعدة كلما كانت لديه حاجة لها .

١٥ - وصف القاهرة مع بعض الاشارات الى مؤسسها.

تقدم المسيحيون في طريقهم الى ما وراء مدينتي بلبيس (٢٠٨) والقاهرة ، وكانت الأخيرة المشهورة بمبانيها الضخمة مقرا للسلطة الملكية والمجد السامي لمصر . وأقام المسيحيون المعسكر على ضفة نهر النيل اليسرى في المدينة المهيبة والمشهورة التي تسمى عموما باسم بابلليون (٢٠٩) وهي مشهورة بالالسان العربي بـاسم مصر (٢١٠) ، ولم نتمكن من العثور على الاسم القديم الذي كانت تحمله هذه المدينة في العصور القديمة. وكانت بابلليون مدينة قديمة جدا في الشرق ، غير أن التواريخ المتعلقة بالازمنة القديمة جدا لا تشير الى اية مدينة بهذا الاسم على انها وجدت على الاطلاق في مصر ، ولذلك ، من المحتمل ان هذه المدينة لم تكن قد تأسست ايام الفراعنة فقط ، الذين كانوا اول من حكم مصر ، ولا في ايام البطالة الذين حكموها فيما بعد ، بل حتى بعد زمن الرومان الذين حولوا مصر الى اقليم ، واما بخصوص القاهرة ، فمن المعروف ان هذه المدينة قد اسسها جوهر القائد العام لقوات المعز لدين الله ، وكان هذا الحاكم يحكم في ذلك الوقت في افريقية بعدما استولى جوهر له على مصر بالكامل ، هذا وسنذكر في وقت لاحق كيف حدث هذا.

ومع ذلك ، فان بعض الكتاب يؤكدون بيقين أن بابلليون هذه هي ممفيس القديمة تلك المدينة المهيبة والواسعة الشهرة التي تكرر ذكرها في التواريخ القديمة وفي أعمال الرسل ، والتي يقال أنها كانت عاصمة وملكة تلك المملكة بأسرها وأقاليم مجاورة كثيرة ، ولا تزال هناك مدينة مهيبة ذات نطاق واسع على بعد عشرة أميال فيما وراء النيل الذي يجري بمحاذاة مدينة بابلليون هذه ، التي نحن

بصدها ، حيث ماتزال هنالك ادلة ذات فخامة ماضية ، ويؤكد بعض السكان في تلك الأجزاء بأن هذه هي ممفيس القديمة (٢١١)

وهكذا ، من المحتمل تماما بأن أهالي ممفيس قد نقلوا منازلهم الى الجانب الآخر من النهر في ذلك الوقت ، أو ربما غيروا الاسم الأصلي في وقت لاحق إما بسبب الضرورة أو لأن هذا الموقع كان يقدم فوائد كبيرة .

ونعتبر أنه من الثابت بشكل محدد أيضا أن جوهر الذي بنى القاهرة ، وكما ذكرنا من قبل ، كان قد جرى إرساله من إفريقية بصحبة جيوش الأمير العظيم المعز بغية فتح مصر ، وأسس جوهر هذه المدينة بالقرب من بابليون في عام ٣٥٨ من التاريخ الاسلامي وذلك بعدما كان قد فتح المنطقة بأسرها وجعل الناس خاضعين له ، وأصبحت هذه المدينة المقر الرئيسي والمفضل لحاكمه ، وغادر المعز بعد ثلاثة أعوام مدينة القيروان التي كانت مقرا لمملكته لسنوات عدة ، وأصبحت هذه المدينة ، حسب رغبات هذا الأمير مدينة رائعة وغدت عاصمة لمملكته ومقرا له (٢١٢) ، وحدث هذا في سنة ٣٦١ حسب التاريخ الاسلامي ، وفي العام العشرين من فترة حكم المعز كما تم سرد ذلك بشكل كامل في مكان آخر من كتابنا عن امراء الشرق.

١٦- الملك يزحف للقاء شيركوه وشيركوه يعبر النهر متوقعا حدوث عمل من هذا القبيل .

بعدما أقام المسيحيون معسكرهم على ضفاف النهر على بعد أقل من مرحلتين من المدينة المذكورة منذ لحظات عقدوا اجتماعا وارتأوا ، بعد مشاورات طويلة ودراسة دقيقة للآراء المختلفة ، أنه من الأفضل أن يخرجوا لمواجهة شيركوه وقواته قبل أن يعبروا النهر ، لأن منعه من دخول المملكة سيكون أفضل بكثير من خوض

معركة بعد أن تكون جيوشه قد مرت ، حيث ستدفعهم صعوبة إعادة العبور الى القتال بشكل أكثر إفراطا .

وهكذا ، حلوا المعسكر ، وساروا بسرعة نحو الموقع الذي اعتقد أن العدو كان موجودا فيه ولقد قيل أن هذا الموقع كان على بعد نحو عشرة اميال من المكان الذي كانت قواتنا قد خيمت فيه من قبل . الا أنهم وجدوا ، ولدى وصولهم الى الموقع ، أن شيركوه القائد الحكيم جدا ، كان قد عبر النهر مع جميع جنوده تقريبا . ولم يبق سوى عدد قليل فقبض عليهم رجالنا على الفور وأوثقوهم ، وقدموا للمسيحيين عند استجوابهم مقدارا كبيرا من المعلومات المفيدة وخاصة فيما يتعلق بعبور شيركوه للنهر وعدد جنوده .

وكشفت روايتهم النقاب عن قصة لم يكن شعبنا يعرفها ، وهي أن زوبعة رهيبة انطلقت فجأة بعدما كانت قواتهم قد اجتازت وادي عربية في الصحراء ، فقد ارتفعت حبيبات الرمل الى الأعلى والتفت خلال الجو كغيوم وضباب كثيف ، ولم يجرؤ الجنود على فتح أفواههم للتحدث مع بعضهم بعضا ، كما لم يستطيعوا إبقاء أعينهم مفتوحة ، بل ترجلوا عن خيولهم وانبطحوا ملتصقين بالأرض وأدخلوا أيديهم في الرمل بقدر ما أمكنهم حتى لاتحملهم العاصفة الهوجاء الى الأعلى ثم ترميهم الى الأرض لأن أمواج الرمل في تلك الصحراء كأموج البحر ، معتادة على الارتفاع والسقوط كما يحدث عادة أثناء العاصفة ، وهي حقيقة تجعل عبور هذه المناطق خطر كالأبحار في البحر . وأخيرا عاد الجو لطيفا عدة أيام بالتجول التائه هنا وهناك ، وهم غير متأكدين من الطريق وغير آملين الا بالحياة فقط ، ووصلوا مصر ، كما تم سرد ذلك ، وقد فقدوا جمالهم والقسم الأكبر من مؤنهم ومات الكثير من رجالهم وتفرق الكثيرون منهم أيضا في الرقع الواسعة والمترامية الأطراف من الرمال .

- ٣٢٣٩ -

عاد جيشنا من حيث اتي بعدما اتضح أن شيركوه وجيشه كانوا قد عبروا النهر ، وخيم مجددا على ضفة النهر بالقرب من المدينة التي كان قد تركها من قبل .

١٧- السلطان شاور يجدد المعاهدة في سبيل ابقاء الملك معه .

أدرك شاور الآن أنه يستحيل بالنسبة له أن يقاوم الأعداء الذين كانوا قد توغلوا الى قلب المملكة بالذات ، أو أن يطردهم من المنطقة الا بمساعدة الملك ، ولذلك بحث بتلief عن أكثر السبل فعالية مما يمكن بوساطته إبقاء الملك في مصر لأنه خشي من أن يعقد عموري - الذي أرهقته المشاق الجمّة - العزم على العودة الى بلاده ، وبالفعل بدا أن الوسائل الوحيدة لبقاء الملك في المنطقة تكمن في تقديم مقدار كبير من الجزية له ، ووعده بمبلغ كاف لتلبية نفقاته ونفقات نبلائه .

وهكذا صمم شاور على تجديد الاتفاقات القديمة ، وأن يعقد معاهدة سلام دائم بين الملك والخليفة على أساس صلب وثابت وهو اقتراح بدا جيدا بالنسبة للمسيحيين ايضا فقد توجب زيادة الجزية السنوية ، وضمان تأمين دفعة ثابتة للملك من بيت مال الخليفة ، لأن المسألة كانت بوضوح مسألة لا يمكن انجازها بسهولة دون انفاق الكثير من العمل والوقت ، وبعد دراسة مطالب ورغبات الفريقين ، قرر المسؤولون عن إعداد المعاهدة والشروط المتعلقة بذلك ، أنه يجب تخصيص مبلغ أربعمائة ألف قطعة ذهبية للملك . ووجب دفع مائتي ألف قطعة من هذا المبلغ على الفور ، وإرسال المائتي ألف قطعة المتبقية في وقت محدد متفق عليه بدون إشارة أية متاعب ، وكانت الشروط على النحو التالي : « أن يضمن الملك بسلطته وببنية حسنة ودون خداع أو نية شريرة أنه لن يرحل عن أرض مصر حتى تتم إبادة شيركوه وسائر جيشه عن بكرة أبيه ، أو

- ٣٢٤٠ -

يطرد وأتباعه بالكامل من الأراضي التابعة لمصر » . ولاقت هذه الشروط موافقة الطرفين ، ومد الملك يده اليمنى الى ممثلي الخليفة كبرهان على موافقته على المعاهدة ، هذا وأرسل في الوقت ذاته هيو صاحب قيسارية - وكان شابا يتمتع بحكمة رائعة وتعقل يفوقان عمره - مع آخرين كثر للحصول على مصادقة الخليفة على الميثاق الى يد هيو حسب الشروط المتفق عليها ، حيث بدت ضمانات السلطان وحدها غير كافية في هذه المسألة .

١٨- ارسال الرسل للحصول على تحديد المعاهدة من الخليفة . وصف فخامة القصر الملكي .

بما أن قصر ذلك الملك (دار الخلافة) فريد من نوعه ، ومبني حسب طراز غريب تماما عن «المنار» ، ارتأت أنه من المستحسن أن أدون بالتفصيل ما علمته من الروايات الموثوقة للذين زاروا ذلك الأمير العظيم ، وأن أصف حالته وجلالته وكنوزه الضخمة وأبهته الفائقة ، لأن الحصول على تفهم دقيق لكل هذا لاشك سيكون له فائدة كبيرة بالنسبة لقرائي .

دخل هيو صاحب قيسارية القاهرة في ظل حماية السلطان ورفقته كرئيس للسفارة التي أرسلت الى هناك وكان برفقة غودفري فولتشر وهو من فرسان الداوية ، واقتيدوا لدى وصولهم الى البلاط الذي يسمى باللغة المصرية باسم كسكره ^{Cascare} (٢١٣)

وساروا خلال دهاليز ضيقة كانت بلا إنارة على الاطلاق ، وسار أمامهم حشد ضخم وصاخب من المرافقين المسلحين بالسيوف ، ووجدوا عند كل مدخل جماعة من الزنوج المسلحين الذين أظهروا تبجيلهم للسلطان بتحيات متكررة رددوها بحماسة .

وتوجهوا بعد تجاوزهم الحرس الأول والثاني الى باحة ضخمة

وواسعة مفتوحة نحو السماء وبذلك سمحت بدخول أشعة الشمس بحرية ، وكانت هنالك ردهات مدعومة بأعمدة رخامية مغطاة بتصاميم بارزة وذات سقوف مزخرفة ومطلية بالذهب ، وأرضيات مرصوفة بأحجار ملونة متنوعة ، وسادت الأبهة الملكية في كل بقعة من ذلك بأسره ، وكانت المادة والصناعة أنيقتين الى درجة أن عيون جميع الذين رأوها فتنت بشكل لا ارادي بالجمال النادر ، ولم تسأم من رؤيتها أبدا ، وكان هنالك أحواض للسماك مبنية من الرخام ومملوءة بمياه صافية ، كما كان هنالك طيور من أنواع كثيرة غير معروفة بالنسبة لمنطقتنا من العالم ، وكانت هذه الطيور أكبر من الطيور التي نعرفها ، فقد كانت أشكالها غريبة وألوانها فريدة وتغريدها مختلفا ، وكان يختلف طعام كل طير تبعا لصفته وكان موثما لنوعه .

وقادهم مقدم الخصيان (الطواشي) من هذا الفناء الى موقع أبعد حيث رأوا أبنية فاقت في أناقتها تلك التي تمت مشاهدتها للتو ، تماما مثلما بدت الأبنية الأخيرة أكثر روعة من الأبنية المألوفة والعادية ، وجدت هنا كمية من الحيوانات بقدر ماتحب اليد اللعوب للرسام أو مخيلة الشاعر أن تصور ، أو كما يرى الذهن في أحلام الليل مخلوقات كهذه غالبا ماتوجد في بلدان الشرق والجنوب ، الا أنها لم تشاهد في الغرب ، ونادرا ماسمع عنها هناك ، وبقينا ، استمد من هذه الأماكن صاحبنا سولنوس الوصف في كتابه « البولوي هسبوتور » Poly histor (٢١٤)

١٩- ابرام المعاهدة والتصديق عليها بإعطاء الخليفة يده اليمنى الى هيو صاحب قيسارية .

وبعد المرور خلال العديد من الدهاليز الملتوية والطرق المعوجة

- ٣٢٤٢ -

التي يمكن لعجائبها أن تؤخر حتى ، ثر الرجال انشغالا في تأملها وصلوا الى القصر نفسه ووجد هنا أيضا مجموعات كبيرة من الجند المسلحين وحشود من التابعين والمرافقين أوجت أعدادها وأسهمت في التعبير عن العظمة الفريدة لسيدها ، وقدم المظهر نفسه للموقع برهانا قاطعا على كثرة كنوز الملك وغناه المنقطع النظير .

ولدى الوصول أذن لهم بالدخول الى القسم الداخلي من القصر ، حيث أظهر السلطان التوقير العادي هنا لسيده حسب العادة ، بالسجود له مرتين على الأرض ، والوقوف بتواضع أمامه وأظهر نحوه تقديسا لائقا بالاله ونوعا من التوقير المنزل ، ثم انحنى للمرة الثالثة نحو الأرض ووضع سيفه الذي كان يتدلى من رقبته ، وسحبت بعد ذلك الستائر المطرزة باللآلئ والذهب بسرعة رائعة فقد كانت متدلية تخفي العرش ، وبدا الخليفة بوجه مكشوف - وقدم مظهرا فخما وهو جالس على عرش من الذهب ومحاط ببعض مستشاريه وخصيائه (٢١٥)

تقدم السلطان منه بكل التوقير ، وطبع بتواضع قبله على قدم الملك الجالس ، ثم قدم سبب زيارة المبعوث وشروط المعاهدة والحاجات الملحة للمملكة ، وشرح أن قوة معادية ضخمة كانت تجثم في المركز نفسه للامبراطورية ، وأوجز بكلمات قليلة ماطلبه باسم الخليفة ، وماسيقدمه الملك بالمقابل ، فأجاب الخليفة على هذا بسماء طليقة وصافية وبدمائة بالغة بأنه مستعد لتنفيذ جميع شروط الاتفاقية التي أعدت والتي قبلها الطرفان ، وأن ينفذها تنفيذا سخيا للغاية بسبب احترامه الخاص للملك .

ثم طلب المسيحيون أن يؤكد هذا التصريح بيده كما كان الملك قد فعل ذلك ، فصدم أعضاء الحاشية الملكية الذين كانوا يحيطون بالخليفة إزاء الاقتراح في بادئ الأمر ، كما صدم مستشاروه ونبلاء حجرة الاستقبال في القصر الذين ارتكزت عليهم مسؤولية الخطط

- ٣٢٤٣ -

الملكية، واعتبروا هذا الاقتراح لا يمكن تصوره وفهمه مطلقا ، ومهما يكن من أمر لقد مد يده في آخر الأمر على مضض وهي مغطاة وذلك بعد دراسة طويلة ، مدها تلبية لالحاح السلطان المستمر . ومما أثار ذعر المصريين ، وأدهشهم رؤيتهم شخصا يتكلم بحرية كبيرة مع حاكمهم المطلق ، حيث خاطبه هيو صاحب قيسارية بقوله : « سيدي الصديق ليس لديه ما يخفيه ، وعندما يقيد الأمراء أنفسهم مع بعضهم بعضا بإخلاص حقيقي يجب أن يكون كل شيء صريحا ، وكل شيء أدرج بنية حسنة في أي اتفاق ينبغي تأييده أو رفضه بإخلاص واضح ، وبناء عليه إذا لم تمد يدك عارية ، فسنضطر الى الاعتقاد بأن هنالك بعض التحفظ من جانبك أو بعض النقص في الاخلاص » .

ووضع الخليفة يده العارية في آخر الأمر في يد هيو ، لكن في ظل معارضة شديدة ، وكأنما سلبت من جلالته ، الا أنها اتسمت بسابتهامة بسيطة أحسنت المصريين كثيرا ، وكرر - تقريبا - مقطعا إثر مقطع ، الكلمات التي قالها هيو عندما أملى عليه صيغة المعاهدة ، وأقسم أنه سيحافظ على الشروط من ذلك الحين فصاعدا بإخلاص ودون خداع أو نية شريرة .

وكان الخليفة ، كما ذكر هيو ، رجلا شابا ذا طبيعة سمحة للغاية ، وكانت لحيته الأولى قد بدأت بالظهور ، وكان طويلا ذا بشرة داكنة اللون ، وله مزاج جيد ، وكان لديه عدد كبير من الزوجات .

أرسل الخليفة بعد انصراف الرسل الهدايا اليهم ، كبرهان على سخائه الملكي ، وتركت هذه الهدايا بكمها ونوعها انطبعا جيدا لدى السفراء الذين غادروا الحضرة الملكية بسرور كبير ، وعادوا الى منطقتهم بابتهاج .

٢- تبیان الأسباب التي دفعت الى دعوة أمير مصر باسم مولانا .

بعد أن وصفنا عظمة الخليفة حسب روايات الذين شهدوها بأمر أعينهم ، سنتابع الآن الحديث حول لقب منزلته السامية وأصله وتقدمه بقدر ما هو معروف إلينا . وهذه المعلومات مستمدة من دراسة كتب الأزمان القديمة ، ومن الروايات الموثوقة أيضا لأشخاص كثيرين ، لأنه يستحيل أن أبلغ القارئ بخصوص هذه التفاصيل دون مساعدة التاريخ .

يعرف أمير مصر بالنسبة لشعبه باسمين ، فهو يسمى باسم خليفة ، الذي يفسر بأنه الخليفة أو الوارث لأنه يشغل موقع نبيهم الأسمى ، ويحتفظ بالخلافة بحق وراثي ، ويدعى أيضا باسم مولانا (٢١٦) ، أي «سينا» ويبدو أن أصل هذا الاسم الثاني يرجع بتاريخه إلى أيام الفراعنة عندما اشترى يوسف الشهير سائر بلاد مصر ، وتم اجبار الناس على بيع ممتلكاتهم بسبب مجاعة رهيبة . وجعل يوسف هذه المناطق وجميع سكانها رعايا لفرعون من الحد الأقصى لمصر وحتى حدها الأدنى ، وقال للذين كانوا يحرثون الحقول : « ستعطون خمسا للملك ، وأسمح لكم أن تحتفظوا بالأجزاء الأربعة الباقية للزراعة بحيث تؤمنون متطلبات أسركم ومنازلكم وأطفالكم » . واشترى ممتلكاتهم في أول الأمر ، ثم اشترى أفرادهم ولهذا السبب ، فإن المصريين ملزمون بسيدهم برابطة أكثر صرامة من التزام سكان المناطق الأخرى حيث اشتراهم مع ممتلكاتهم بثمن ، ويفسر هذا أيضا سبب ارتباطهم به على شكل عبودية من أخط الأنواع وأكثرها ذلا .

وهكذا ، أصبح المصريون أقنانا بسبب العناية الشديدة لأفضل الحكام هذا ، ودعوا أميرهم دائما بعد ذلك بذلك الاسم المبجل « مولانا » ، ونشأت هذه الحالة في أيام الفراعنة ، وسادت

- ٣٢٤٥ -

خلال أيام البطالة واستمرت حتى حكم الرومان ، الذين حولوا المنطقة ، كما كانت عاداتهم في عمليات استيلاء أخرى ، الى منزلة إقليم ، ولا يزال هنالك أثر لتلك المنزلة القديمة باق في حقيقة أن أمير مصر متحرر من المسؤولية تماما ولا يعرف شيئا عن أعمال الشغب والفتن ، فهو يوقف نفسه تماما على التمتع بالراحة والرفاهية ، بينما يدير الحاكم - كيوسف القديم - كافة شؤون المملكة ، ويستخدم قوة السيف ، وينفذ العدالة بدلا من سيده ، ويسمى هذا الحاكم باسم سلطان وكان هذا هو المنصب الذي شغله شاور الذي تحدثنا عنه مرارا .

٢١- حكاية السبب في تسميته خليفة ، ولماذا هو خصم لخليفة بغداد .

إن سبب لقب خليفة هو على النحو التالي : كان محمد ، رسولهم أو بالحري مدمرهم الذي كان أول من جر شعوب الشرق الى هذا النوع من الضلال ، قد عين أبا بكر ، أحد أتباعه ، كخليفة مباشر له ، وخلف أبا بكر في المملكة عمر بن الخطاب الذي خلفه عثمان أيضا والذي خلفه علي بن أبي طالب . وسمي جميع هؤلاء « الأنبياء » باسم خلفاء ، كما سمي جميع من تبعهم بهذا الاسم لأنهم خلفوا معلمهم المشهور ، وكانوا ورثة له . الا أن الخليفة الرابع ، وهو علي كان أكثر ولعا بالحرب من أسلافه ، وكانت لديه خبرة أكبر بكثير من معاصريه في الأمور العسكرية ، وعلاوة على ذلك فقد كان نفسه ابن عم محمد (٣١٧) ، واعتبر من غير اللائق بأن يدعى الخليفة لابن عمه ، وأن لا يكون هو « نبيا » عظيما ، وأعظم كثيرا بالفعل من محمد ، ولم تسره حقيقة أنه كان أعظم من محمد بتقديره الخاص وبتقدير آخرين كثير ، بل رغب بأن يتم الاعتراف بهذه الحقيقة عموما ، وهكذا ، فقد شتم محمدا ونشر بين الناس قصة كان مفادها أن الملاك جبريل ، منزل الوحي ، كان قد أرسل بالفعل اليه من السماء ، الا أنه أخطأ

فأضفى الشرف العظيم على محمد . وقال ان الرب كان قد عاتب الملاك بشكل قاس بسبب هذا الخطأ ، ومع أن هذه الادعاءات بدت مزيفة بالنسبة لكثير من الناس الذين تختلف تقاليدهم كثيرا فقد صدقها آخرون ، ونشأ بالتالي انقسام بين أولئك الناس استمر حتى الوقت الحالي ، ويؤكد بعضهم أن محمدا هو الأعظم والأعظم بالفعل من جميع الأنبياء ، ويسمى هؤلاء بلغتهم باسم « أهل السنة » ويصرح آخرون أن عليا وحده هو « نبي » الله ويسمون باسم « الشيعة » (٢١٨)

هذا وقد قتل علي المذكور أنفا ، وفازت الفئة المنافسة بالسيادة ، وعلى هذا خضعت مسلكة الشرق لحكم خلفاء محمد ، واحتفظوا بالسلطة وقمعوا كل من آمن بالرأي المخالف ، وبرز في العام ٢٨٦ وبعد حكم المضلل الأنف الذكر (٢١٩) ، رجل نبيل يدعى عبد الله بن محمد بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي الأكبر الذي كنا نتحدث عنه وقد خرج من مدينة السامية في الشرق وانتقل الى افريقيا ، وبعد ان استولى على جميع أراضي تلك المنطقة ، سمى نفسه باسم المهدي (٢٢٠) الذي يعني « المساوي بين الناس » اي الانسان الذي حول جميع الأشياء الى سلام ، ومهد الطريق وجعلها خالية من العوائق للناس . وبنى مدينة المهديّة العظيمة حيث سميت بهذا الشكل اشتقاقا من اسمه ، وعقد العزم على أن تصبح هذه المدينة عاصمة للأقاليم الخاضعة له ، عاصمة تفوق جميع المدن ، وبنى اسطولا واستولى على صقلية ودمر أجزاء من ايطاليا . وكان أول شخص من أسرته بعد سلفه علي يجتريء على تسمية نفسه باسم خليفة ، ولم يعتبر نفسه خليفة لمحمد الذي كان يمقته ، بل خليفة لعلي ذلك « النبي » الأكثر شهرة وعظمة ، والذي كان ينحدر من سلالة كما قلنا ذلك. وبالفعل فقد اجتراً على ايجاد مجموعة شعائر اخرى ، وشكلا آخر للصلاة.

وقام واحد من أحفاده يدعى أبو تميم ولقبه بالمعز ، بالاستيلاء على مصر بوساطة جوهر القائد العام لجيشه حيث شيد الأخير القاهرة أيضا ، التي يعني اسمها « الظاهرة » (٢٢١) لأنها بنيت لتكون مقرا لسيده العظيم والأسمى ، قاهر كل شيء .

ترك هذا الخليفة القيروان الواقعة في بلاد إفريقية ، حيث كان قد عاش أربعة من أسلافه وذهب إلى مصر ، وجعل المدينة المذكورة منذ لحظات المقر لمملكته ، ولم يتوقف منذ ذلك الحين وحتى الآن وجود منافس يحكم في مصر ، لخليفة الشرق ، الذي كان الخليفة الأسمى لسنوات كثيرة جدا ، وهو منافس يكافح دائما ليكون على قدم المساواة معه ، ويدعي أنه أسمى منه (٢٢٢) .

إذا مارغب المرء بمعرفة المزيد عن هذه المسائل ، فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي كتبناه بعناية مثلى من المصادر العربية تلبية لمطلب الملك عموري وأمره ، حيث يعالج تاريخ أمراء الشرق وأعمالهم من عهد المضلل محمد ، أي أنه يغطي فترة خمسمائة وسبعة وسبعين عاما حتى الوقت الحالي الذي هو عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا (٢٢٣) .

٢٢ - الملك يبني جسرا فوق النيل . شيركوه ينزل على الجزيرة و يهاجمه الملك .

عندما تجددت المعاهدة وتحولت إلى شروط مرضية للطرفين ، كما تم سرد ذلك ، استعد الجميع وبالأجماع للعمل المخطط ، واستعدوا لمهاجمة العدو ولطرده من سائر أنحاء المملكة ، وقدم اقتراب الليل في هذه الأثناء مسوغا للراحة . ووجدوا الوضع في الصباح متغيرا إلى حد ما ، فقد كان شيركوه قد وصل أثناء الليل وخيم على الضفة الأخرى من النهر نفسه مقابل جيشنا ، وعندها أمر الملك بإحضار الزوارق وجنوع أشجار النخيل الموجودة هناك وبني جسرا ، وربطت الزوارق إلى بعضها ، اثنين فإثنين ، وثبتت

بالمراسي ، وحصن الجسر في آخر الأمر بأبراج خشبية وجهز بالآلات الحربية . واستمر العمل به عدة أيام حتى تم التوصل إلى منتصف النهر عندما حال الخوف من العدو دون مد العمل إلى الضفة المقابلة ، وعلقت هنا جميع المواجهات الحقيقية لمدة شهر أو أطول بعد ذلك ، حيث لم يتمكن المسيحيون من عبور النهر ، ولم يجرؤ العدو من جانبه على المغامرة لمسافة بعيدة خشية من أن نهجم على مؤخرته . هذا هو الوضع الذي كان سائدا في أحواز القاهرة ، وكان شيركوه قد أرسل في هذه الفترة فريقا من الرجال للاستيلاء ، إذا أمكن ، على جزيرة مجاورة كانت مليئة بكل أنواع المؤن ، لأنه كان يرغب بمنع المسيحيين من أن يغزوها في المستقبل . وأنجز هذا المشروع بنجاح .

وحالما علم الملك أن العدو قد استولى على الجزيرة ، أرسل إلى هناك ميلون دي بلانسي والكامل وهو واحد من أبناء السلطان مع قوة من الفرسان ، فوجدوا الأتراك قد استولوا على الجزيرة ، ويعاملون السكان بطريقة مخزية للغاية ، فهاجموهم على الفور وتلا ذلك معركة اشتبك فيها الطرفان بشكل عنيف جدا ، وأخيرا انتصر المسيحيون بعون الرب ، ودفعوا العدو مباشرة إلى النهر المجاور ، فغرق فيه الذين نجوا من القتل في الأمواج الشائرة ، لقد هلك خمسمائة جندي من جنود العدو في ذلك اليوم من جراء تعرضهم لحوادث متنوعة وأربك الرعب شيركوه عندما بلغته قصة هذه المعركة وبدأ يفكر بريبة خطيرة بشأن النجاح النهائي لمشروعه .

كانت هذه هي حال الأمور عندما وصل بعض القيايين في المملكة إلى المعسكر وهم همفري أوف تيرون كافل المملكة ، وفيليب صاحب نابلس ، فهما لم يكونا قد خرجا مع الملك ، بل كانا قد تخلفا لأسباب خاصة ، إلا أنهما تبعا الجيش بالسرعة الممكنة وانضما إلى معسكرنا ، فحيتهما الكتاب بابتهاج كبير لأنهما كانا رجلين شجاعين وجبارين في استخدام الأسلحة ، وكانا مدربين من حداثة سنهما على فن الحرب .

عقد اجتماع على الفور لتحديد خطة بشأن الاجراء المتوجب تبنيه وتقرر في النهاية وبموافقة إجماعية أنه يجب تسيير الاسطول بأكمله في صمت الليل ودون معرفة العدو إلى جزيرة تقع على بعد نحو ثمانية أميال دون المعسكر ، وتوجب نقل الجيش بأكمله في حوالي الهزيع الأول من الليل عبر النهر ، ومن ثم الانقضاض خلسة خلال الليل على العدو بينما يكون بعيدا عن الحراسة ، وإحراق كل الأضرار الممكنة به ، وصدرت الأوامر لتنفيذ هذه الخطة ، ونزل الاسطول على الفور إلى الموقع المتفق عليه ودون أن يكشفه العدو وتبعه الجيش بصمت تام ، وعبر بسرعة واستولى على الجزيرة .

وبينما هم يحاولون عبور القناة البعيدة من النهر وبالطريقة نفسها حسب الأوامر الصادرة إليهم هبت فجأة زوبعة شديدة ومنعتهم من تحقيق هدفهم ، وأجبروا على إقامة معسكرهم على جزء من الجزيرة كان يواجه الشاطئ الآخر ، وخلفت جزءا من القوة لتنتهي بناء الجسر ولتحميه بعد إنجازه ، وكان يقودها هيودي ابلين وهو فارس قوي وشجاع ، وكان قد تزوج من مطلقة الملك عموري كما ذكرت من قبل .

٢٣ - وصف الجزيرة واسماء واعداد المصبات التي يدخل بواسطتها النيل الى البحر.

المسيحيون يطربون العدو ويستولون على الجزيرة . شيركوه يهرب إلى الصحراء .

يطلق السكان على الجزيرة موضوع حديثنا الآن اسم المحلة ، وهي تتمتع بتربة معطاءة جدا ، وتعج بجميع الأشياء الجيدة ، وتنفصل مياه النيل عند هذا الموقع ، ولاتنضم الفروع التي تتفرع هنا إلى النهر الرئيسي ثانية حتى تصل إلى البحر ، وحتى عندئذ ، فإن الأنهار لاتتحد ، بل تمتزج مع البحر عن طريق أربعة مصبات

منفصلة . ويجري الفرع الأول الذي يواجه سورية التابعة لنا إلى البحر بين مدينتين بحريتين قديمتين جدا هما تنيس والفرما . ويجري في طريقه على مسافة قريبة جدا من إحدى هاتين المدينتين حتى أنه يغسل مبانيها ، غير أنه يقع على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أميال من المدينة الأخرى ، وينضم الفرع الثاني إلى البحر عند مدينة بمياط ، وهي مدينة مهيبة وقديمة ، بينما يقع الفرع الثالث عند اللتا ، ويجري الفرع الرابع إلى البحر عند رشيد التي تقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من الاسكندرية ، ولم نكتشف أية مصبات أخرى لهذا النهر ، وذلك على الرغم من إجراء بحث وتقص دقيقين ، ونعتبر هذا غريبا لأن القدماء يسمون نهر النيل باسم النهر الجاري بسبعة ، لأنه كان يدخل البحر بسبعة مصبات (٢٢٤) ، إن التفسير الوحيد الذي يخطر لنا هو أن سطح المنطقة قد تغير خلال عصور متتالية ، وأن النهر قد غير مجراه كما حدث في حال أنهار أخرى كثيرة جدا ، هذا ومن المحتمل أن الناس الذين عاشوا في تلك الفترة المبكرة لم يفهموا حقيقة المسألة ، أو ربما ازداد النهر زيادة أكبر من المعتاد ، ففاض وشكل في زمن فيضانه السنوي مجاري أخرى بالإضافة إلى هذه المجاري الأربعة التي تخلق عنها البحر عندما انخفض الماء من جديد ضمن قاعه ، وإذا كانت مازال موجودة ، فإننا لم نعدنا كفروع لأنها غير معلومة دائما ، بل هي كالسيول تمتلئ في فصول محددة فقط (٢٢٥) .

وعلى الرغم من أنه تم الاستيلاء على الجزيرة ، فقد بقي المجرى الأدنى خارج حدود سيطرتنا ، ونهض العدو من النوم عندما سطع نور النهار ، ووجد أن العدو كان قد رحل وأن الأسطول قد رحل أيضا ، فأمسك جنود العدو بأسلحتهم تحسبا لتعرضهم لهجوم مفاجئ على أيدي المسيحيين ، وعندما تقدموا بسرعة ، ونشروا صفوفهم على طول النهر رأوا أن قواتنا كانت قد استولت على الجزيرة ، وكانت تدافع عن حقها بإبخال الأسطول في المجرى الذي يجب عبوره ، وهكذا ضربوا مخيمهم في الموقع المقابل ، وعلى بعد

من الشاطئ إلى حد ما على الرغم من أنهم لم يحصلوا في هذا الموقع على طريق حر إلى النهر ، بل أجبروا على الذهاب إلى مسافة أبعد باتجاه مجرى النهر حتى لسقاية خيولهم .

كان المسيحيون قد صمموا على تجريب قدرهم في اليوم التالي إلى الحد الأقصى ، وعلى شق طريقهم بالسيف إذا لزم الأمر ، غير أن الكفرة رحلوا أثناء الليل ودون علمهم ، وعبر جيشنا النهر بسرعة عندما انبلج الصبح ورأى أن العدو كان قد غادر ، وأسرع بمطاردة العدو . وتخلفت قوات المشاة لتتمكن قوات الفرسان من التقدم بسرعة أكبر ، وانطلق الملك برفقة عدد قليل من الفرسان فقط ، وأرسل هيودي ابلين وكامل ، ابن السلطان ، مع قوة كبيرة من الفرسان المسيحيين والمصريين ليقوموا بحماية القاهرة والجسر الذي كان الجنود قد شيده حتى لا يتعرض لهجوم معاد مفاجئ ، وأوكلت مسؤولية العناية بالأبراج وجميع تحصينات تلك المدينة المهمة إلى شعبنا ، وأصبح قصر الخليفة معروفا بالنسبة للمسيحيين الذين لم يكونوا قد عرفوه حتى ذلك الحين ، لأن الحاكم ذاته ، وجميع أفراد أسرته اعتمدوا على قوات الملك من أجل سلامتهم ثم كشف النقاب للمسيحيين عن أقدم المقدسات ذلك الذي كان محجوبا عن العالم ، وعن الأماكن الأكثر عمقا والتي لم يكشف النقاب عن عجائبها إلا لقلّة قليلة فيما مضى .

وأرسل الملك أيضا جيرارد دي بوغي وابنا آخر للسلطان يدعى طي إلى الضفة الأخرى من النهر مع قوة مؤلفة من الشعبين ، وأمر أن يقمعا العدو إذا صدف وحاول عبور النهر . ثم انطلق الملك تاركا معظم العوائق ، كما قلنا - مطاردا للعدو بعكس تيار النهر لأن بنية المنطقة كانت تمكن تتبع آثار العدو ولحاقه على الطرق التي سلكها دون صعوبة .

٢٤ - مصر و معالمها المميزة .

تقع بلاد مصر كلها بين صحراوين رمليتين قدر لهما ان تكونا قاحلتين إلى الابد ، وذلك بدءا من حدودها النائية التي قيل إنها تتصل بأطراف السودان ولا تعرف المنطقة نفسها المحاصيل المثمرة من أي نوع ولا تنتجها ، إلا عندما تصبح خصبة في مواسم محددة عندما يفيض نهر النيل ويغمر الأراضي بمياهه ، وذلك فقط عندما تسمح طبيعة المنطقة المتاخمة بأن يجعل النهر التربة مواتمة لانتاج المحاصيل . فالنهر ينتشر بحرية فوق منطقتي واسعة حيثما يجد سطحها مستويا ويجعل التربة خصبة . وكلما ازداد توزيع المياه ازداد نطاق المنطقة التي تصبح بالتالي صالحة للزراعة .

وللأنهار نطاق واسع فيما وراء القاهرة نحو البحر حيث المنطقة مستوية جدا . ولهذا السبب فإن هذه المنطقة معطاة للغاية في كل مكان في المجال الواسع الذي يسقيه النيل ، وهكذا ، فإن النهر يضمن إنتاج محاصيل وفيرة جدا ويوسع حدود المملكة أيضا ، لأن النيل ينقل نعم الخصب والحرارة لمسافة مئة ميل ونيف من القلعة التي تدعى الفاقوس التي تواجه سورية وحتى الاسكندرية التي تجاور الصحراء الليبية ، وهي آخر مدينة مصرية ، هذا وإن المنطقة الواقعة وراء القاهرة وحتى قوص - وهي مدينة مصرية واقعة في أقصى الجنوب ، موقع يقال إنه يتأخم مملكة الأثيوبيين - محصورة بهضاب رملية متوالية ، وفقط هنا وهناك يمتد النهر إلى عمق سبعة أو ثمانية أميال ، وعموما إلى أربعة أو خمسة أميال أحيانا على كلا الجانبين ، وأحيانا على جانب واحد فقط حسب مدى الفيضان ، ويقلص أو يزيد بهذه الطريقة المدى الجانبي للملكة لأن المناطق التي يرويها النهر مقدر عليها كما قلنا عقم دائم بسبب الحرارة الشديدة لأشعة الشمس ، واسم هذه المنطقة العليا الصعيد بلسان المصريين ، ولم نتمكن حتى الآن من ان نعثر على اصل هذا الاسم ، إلا أن الأسطورة تقول إنه كانت في الأزمان الأولى مدينة قديمة في

هذا الجزء العلوي من مصر تدعى السويس ويذكر صاحبنا أفلاطون المدينة في كتابه Timaeus من خلال الحديث عن تلميذه كريتياس الذي تحدث عن صولون وهو رجل كان صاحب نفوذ كبير ، ويبدو من المستحسن ، كدليل أفضل من هذا ، أن نقدم أقواله ذاتها حتى لا نفتقر إلى أي توثيق . فهو يقول : « هناك جزء من مصر يدعى الدلتا تتفرع مياه النيل عند طرفه . وقامت فيما مضى مدينة عظيمة تسمى السويس بالقرب من هذا الموقع كانت تحكم حسب عادة قديمة تسمى قانون ساتيران (٢٢٦) وكان الأمبراطور أماسيس من هذه المدينة بالأصل » الخ

لا يزال جزء آخر من هذه المنطقة ينتمي إلى مصر ، فهو يقع على بعد مسافة مسيرة يوم واحد من القاهرة عبر منطقة غير مسكونة ، وتتمتع هذه المنطقة بتربة خصبة بفضل الفوائد التي كانت تتلقاها من النهر بوساطة بعض فروعها ، وتتمتع بحقول وكروم خصبة . ويدعو المصريون هذا الجزء من البلاد باسم الفيوم (الفيلة) .

تقول روايات الأزمان الأولى إن هذه المنطقة كانت قاحلة من قبل ، ولم تتم حراستها من قبل أبدا بل تركت دون حراسة وعناية من بداية الحياة تماما مثل الأجزاء الأخرى من هذه الصحراء نفسها ، إلا أن يوسف ، ذلك الحاكم العاقل لمصر ، الذي كان على أهبة الاستعداد دائما ليدرك أي شيء يمكن تحويله إلى فائدة ، استقصى عن موقع المنطقة ، ولاحظ أن هذه الأراضي كانت أكثر انخفاضاً من المنطقة المحيطة بها ، وأدرك أنه لو أزيلت بعض الروابي المنخفضة التي كانت واقعة بين المنطقة المأهولة بالسكان وبين هذا الجزء من الصحراء فبإمكان هذا الموقع أن يتلقى فائدة المياه بسهولة ، فبنى سدودا ، وسوى الأرض بينهما وأدخل فائض النيل ، وسير الماء خلال قنوات كانت قد جهزت وأنتجت خصبا لم يكن معروفا هناك حتى وقته .

ومع أننا لانعرف الاسم القديم لهذه المنطقة ، فإننا نعتقد أنها كانت تدعى باسم طيبة العصور الأولى ، ويقال إنه نشأت من هنا أسطورة الطيبين المقدسين ، الذين توجوا بالاستشهاد في أوغانوم في ظل حكم بقلشيان والأمبراطور مكسيموس والذين نقرأ أن شهيدهم الأول كان مارتوس وهناك برهان آخر أيضا ، فإن أفضل أنواع الأفيون ينمو هناك ويدعوه الأطباء باسم « الطيبى » (٢٢٧) .

والآن إن بلاد غوشن التي يقال إن يوسف أعطها لاختوته تقع في الجزء المصري الذي يواجه سورية حسب الوصف المقدم في سفر التكوين ، وهذا ما يمكن للقارئ المجتهد أن يكتشف بسهولة لنفسه ، وعلى العكس ، إن هذه المنطقة التي تواجه ليبيا الدنيا ، واقعة على الطرف الآخر من مصر وهي على الضفة الثانية من النهر ، وتتمتع بمساحة كبيرة ، ويقال إنها تضم بالفعل داخل حدودها ثلاثمائة وستة وستين مدينة وقرية .

وهكذا كانت المملكة ضيقة جدا بسبب طبيعة المنطقة ، كما قلنا ، حيث كان يستحيل الالتفات إلى اليمين أو اليسار ، وجلب الكشافة إلى الملك والسلطان معلومات متواصلة عن تقدم العدو . واستمرت المطاردة لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع الذي كان يوم السبت قبل يوم الرب عندما ينشد في الكنيسة أنشودة « ابتهجي يا قدس » (٢٢٨) . وصلت الاخبار أن العدو كان في الجوار .

٢٥ - نشوب معركة حملت مخاطر شديدة على الجانبين بين الملك وشيركوه في الصحراء.

عقد على الفور اجتماع قصير بالضرورة لانه اتضح انه كان هناك حاجة لرأي حكيم وروح شجاعة ولم يسمح الطارئ الملح . بالتأخر طويلا . وتقرر بموافقة اجماعية خوض المعركة ولاقى قرار

وجوب حل المسألة بالسيف ترجيحاً بالتصفيق ، الا ان عدد المحاربين المدرعين في الجيشين لم يكن متكافئاً على الاطلاق ، فقد كان مع شيركوه اثنا عشر الف تركي ، كان تسعة الاف منهم يرتدون الدروع والخوذ ، ولم يستعمل ثلاثة الاف الاخرين سوى القسي والسهام ، وكان معه اضافة الى ذلك عشرة او احد عشر الف عربي حاربوا بالرمح فقط حسب عانتهم ، وبالمقابل لم يكن لدى المسيحيين سوى / ٣٧٤ / فارساً تقريباً بالاضافة الى المصريين المخنثين والعديمي الجنوى . والذين كانوا عائقاً وعبئاً اكثر من كونهم مصدر مساعدة لنا ، وكان لديهم (الفرنجة) ايضاً بعض الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً من الذين يدعون التوركيلي (٢٢٩) ، لكنني لاعرف عددهم ، الا ان الكثيرين ابلغوني ان هذه القوات كانت عديمة الفائدة على الاغلب في الصراع الضخم الذي وقع في ذلك اليوم .

حالما علم الحشدان المتعاديان باقترابهما من بعضهما بعضاً ، نظما صفوفهما بتشكيل المعركة ، حسبما تطلب الحال ، ورتبوا كتائبهما ، وعرضوا اسلحتهما ، وخص المحاربون القدماء بحكمتهم التي حصلوا عليها من الخبرة في صراعات سابقة ، الباقين وارشدوا العساكر واثاروا شجاعتهم بوعدهم بالنصر والمجد الابدي الذي هو ثمرة النجاح .

كان الميدان الذي قدر ان تجري فيه المعركة على منطقة الحدود بين المنطقة الخصبة والصحراء . وكانت الارض وعرة هنا تتخللها هضاب من الرمل ومنخفضات لذلك استحالت رؤية القادمين او الذاهبين من مسافة بعيدة ، كان الموقع يدعى البابين - يعني الابواب - لان المر بين الهضاب على كلا الجانبين ضيق جداً في هذا الموقع ، ويقع على عشرة اميال من المنية ، ولهذا السبب ، تعرف هذه المعركة احياناً بأنها معركة المنية .

كان العدو قد استولى بحكمة فعالة على الهضاب الواقعة على

اليمين واليسار ، وكان قد شكل قواته بشرتيب المعركة ، كما ان الارض الصاعدة ، والطبيعة اللينة للرمل جعل من الصعب بالنسبة لرجالنا ان يقتربوا باندفاع الى هذا الموقع ، وكانت الكتيبة التي يقودها شيركوه قد احتلت القلب ، وانتظم الياقون على كلا الجانبين ، ووصل الصراع بسرعة الى مرحلة اصبح القتال فيها ضروريا من مواقع متلاحمة ، وتقدمت فرقة الملك بشجاعة وبتصميم واحد ، واربكت كتائب شيركوه وشتتها ، فهرب شيركوه نفسه والعدو يلاحقه بمطاردة محكمة .

وهاجم هيو صاحب قيسارية الفرقة التي كان يقودها صلاح الدين ابن اخي شيركوه ، الا ان رجاله تخلوا عنه ، ولذلك مني بالهزيمة وتم اسره مع عدد كبير من جنده ، وجرى قتل اعداد اكبر ايضا وقتل في هذه المعركة يوستاس وهو حاكم نبيل وشجاع من منطقة بونتيو .

اتحدت الفرقة التركية الاخرى بعدما ابتهجت بهذا النجاح ، وطلقت بالكامل القوات المسيحية التي كانت قد عينت لحماية الامتعة والمعدات ، فهزموها وشتتوا شملها على الفور بهجوم ضروس ، ويقال ان هيو اوف كريونا سقط في هذه المعركة ، وكان نبيل صقلي المولد ، وكان رجلا شابا صاحب حياة مستقيمة وشريفة .

وتمزقت صفوف المسيحيين الان ، وقتل العديد من شعبنا ، ولاذ بالفرار الذين كانوا قد نجوا من الموت ، فاستولى العدو على الامتعة والمعدات دون نزاع وقام بنقلها بعيدا .

وحاربت القوات المتفرقة هنا وهناك بين الاودية الصغيرة بحظ متنوع ، وكان المحاربون انفسهم هم الشهود فقط ، حيث لم يتمكن شخص اخر من مشاهدتها ، ولم تكن المعركة حاسمة ، فقد تغلب الاتراك احيانا وتغلب المسيحيون على الاتراك تارة اخرى ، وكلهم

جاهلون على حد سواء بما كان يجري في الموقع الاخر ، واصيب اخونا المبجل رالف اسقف بيت لحم ، الحاجب الملكي الذي خلفناه فيما بعد في ذلك المنصب ، بجراح خطيرة في غمرة القوضى وفقد جميع امتعته (٢٣٠) ، ولم تحسم نتيجة المعركة لفترة طويلة من الزمن ، كما ان القرار الحقيقي للنصر قد ارجىء حتى انذر مغيب الشمس الجنود المتفرقين بالعودة الى الويتهم ، ثم بدأ في اخر الامر الذين كانوا مايزالون طليقيين بالاسراع بالعودة الى صفوفهم بسبب الخوف من الليل القادم وهم يبحثون عن الملك بتلف ، واحتشدوا من جميع الجهات ووجدوا الصفوف من جديد .

كان الملك قد خرج منتصرا في الموقع الذي كان قد حارب فيه ، وكان اخرون موجودين في هذا المكان او الاخر قد جربوا حظ الحرب بنتائج مختلفة حيث كانوا ينعمون بالنجاح هنا ، وبمصير معاكس هناك بحيث لم يتمكن اي من الطرفين الادعاء بانتصار حاسم ، وانسحب الملك في النهاية مع عدد قليل من اتباعه الى احدى الهضاب المرتفعة بعض الشيء فوق السهل ، وقرر التمرکز هناك ، وانتظر رفاهه رافعا لواءه لاستدعاء قواته المتفرقة، وراى المسيحيون ، عندما كانت هذه القوات قد احتشدت بشكل جزئي ، ان الفرقة التركية التي كانت قد ابانت قطار امتعتهم ، بقتلهم ليعضهم واسرها لآخرين ، كانت في حالة فوضى على الهضبتين المقابلتين لهم ، ولم يكن هناك اي طريق ممكن ليزسحب فيه جيشنا باستثناء ذلك الطريق الذي كان يمر بين الهضبتين اللتين كان العدو يحتلهما ، هذا وصمم المسيحيون على الانسحاب فعبأوا صفوفهم بشكل متراص ، وبدأوا يتقدمون ببطء بين العدو الذي شاهده على اليمين واليسار ، وتقدموا على هذه الصورة بثبات حيث لم يجرؤ الكفرة على محاولة القيام باي عمل عدائي ضدهم ، وشق رجالنا طريقهم متراصين الى مكان محدد من النهر حيث عبروه بسلام بواسطة احدى المخاضات بعدما وضعوا الرجال الاقوى والافضل تسليحا حول الصفوف ، واستمروا بالتراجع بهذا الشكل نفسه طوال الليل باسره وعلى طول الطريق ذاته الذي كانوا قد تقدموا عبره من قبل .

والتقى جيشنا في المنية مع جيرارد دي بوغي الذي كان يسيطر مع خمسين فارسا ومئة من التوركيلي وبمساعدة طلي احد ابناء السلطان على الضفة الاخرى من النهر لقمع العدو اذا محاول عبوره ، وكان وصول جيرارد موائما للغاية لان الملك كان قلقا جدا خشية ان يهاجمه العدو وحده على احد جوانب النهر ، هذا وكان مايزال قلقا حول كتائب المشاة التي كانت ستلحق به بقيادة فارس شجاع وحكيم يدعى جوسلين صاحب سميساط ، وكان هنالك خطر كبير بالفعل من انهم قد يصطدموا بالعدو فجأة وهم غافلون عن الحراسة .

انتظر الملك وصولهم مدة ثلاثة ايام في المنية ، ومع اليوم الرابع اخذت قوات الرجالة بالتجمع بالتدريج وانضمت الى قواته من جديد.

واثر هذا تابعت القوات زحفها دون توقف نحو القاهرة وعسكرت الى جانب الجسر امام بابليون ، واحصى الملك فرسانه هناك ، ووجد انه فقد مائة فارس ، ويقال ان العدو فقد خمس عشرة مائة جندي في تلك المعركة .

٢٦ - شيركوه يذسحب الى الاسكندرية ، والملك يمضي مسرعا الى هناك ويحاصر المدينة.

جمع شيركوه الان جميع قواته المتبقية واعاد تنظيمها في قوة واحدة ، ثم زحف خلاصة ودون معرفة المسيحيين عبر الصحراء الى الاسكندرية حيث سلم السكان المدينة اليه فورا .

نقلت معلومات هذه الواقعة الى الملك حالا ، فاستدعى على الفور مستشاريه الرئيسين بالاضافة الى السلطان وابنائهم والنبلاء المصريين وتداول معهم بخصوص الاجراءات التي ينبغي اتخاذها ،

وتقرر بعد مناقشة طويلة - كما هي الحال في مسائل محط خلاف - وضع الاسطول في النهر كعائق لانه لم يكن لدى الاسكندرية ضمن حدودها اية مصادر للحبوب او اثون الغذائية الاخرى ، وكانت تعتمد كلياً على ماتجلبه السفن من مصر العليا ، وفي هذا الوضع كان الاسطول يستطيع ان يقطع جميع التجارات مع الناس في الخارج .

وبعدما جرى تنفيذ هذا قاد الملك سائر جيشه الى المنطقة المجاورة ، واقام معسكره بين تروجه ودمنهور في موقع يقع على بعد نحو ثمانية اميال من الاسكندرية ، وارسل الكشافة من هناك لزيارة جميع القرى الواقعة في المنطقة المجاورة وتدميرها حتى مع القرى البعيدة جداً في الصحراء ، ورغب في ان يمنع وصول اية مساعدة مرسلة الى الحاصرين ، وان يعترض ايضاً جميع المراسلين المغادرين المدينة لطلب المساعدة من الخارج ، وكعائق اضافي ، منع الاسطول كل مرور في النهر ، ولم يسمح لاي واحد مهما كان معروفها بالنزول دون الخضوع لاستجواب دقيق .

وانقضت فترة شهر واحد في ظل هذه الظروف ، ولم تتلق المنطقة خلال تلك الوقت اية مؤن من الخارج ، وبدأ الناس يتضورون لان الخبز بدأ ينفد من مخزائهم ، ولم تكن لديهم اية مواد غذائية ، وعندما علم شيركوه بهذا الامر بدأ يخشى ان يدفع وجيشه لمكابدة المجاعة مع الباقين ، وهكذا ، ترك ابن اخيه صلاح الدين مع نحو الف فارس مسئولين عن المدينة ، وانسحب هو ليلاً عبر الصحراء ومع انه مر على مسافة قريبة جداً من قواتنا ، فقد نجح في النجاة الى القسم العلوي من مصر ، الى حيث كان قد اتى منذ زمن قصير

بدأ الملك بالمطاردة حالما علم برحيل شيركوه وتقدم حتى بابلبيون ، وكان جميع جيشه مستعداً للتقدم ، وكان قد امر بترتيب الامتعة للقيام بمطاردة اضافية عندما اقترب منه فجأة ابن القرصلي ، وهو

- ٣٢٦٠ -

نبيل مصري قوي ، وابلفه ان الاسكندرية كانت تعاني من مجاعة شديدة جدا ، زد على هذا ، لقد قال انه له اقارب ذوي نفوذ كبير في المدينة نفسها لابل وكانوا حكاما للمدينة بالفعل ، وان بإمكانهم بكل سهولة توجيه الناس الذين يعيشون الان تحت وطأة الجوع ، الى اي اتجاه يرغبون ، وحتى الى درجة تسليم المدينة ووضعها بين يدي الملك مع جميع الاتراك الذين تركوا هناك .

تأثر الملك بهذا النبا ، وسأل مستشاريه مباشرة عن السياسة التي يرونها هي الامثل واخيرا عانوا الى الاسكندرية فتلك كانت رغبات الجميع وهذا ماوافق عليه السلطان نفسه ، ووضعوا الجيشين حول المدينة كقوة محاصرة .

٢٧ - وصف موقع الاسكندرية

تعتبر مدينة الاسكندرية احدى المدن المصرية الواقعة في تلك الجزء من البلاد الذي يمتد غربا نحو ليبيا ، فهي تقع على الحد الواقع بين الارض المزروعة والصحراء القاحلة ، وتقع فيما وراء أسوار المدينة منحراء واسعة تتأخمها من ناحية الغرب وهي لم تنعم أبدا ببركات الحراسة والعناية ، وحسب التواريخ القديمة ، أسس هذه المدينة الاسكندر المقدوني بن فيليب حيث استمدت اسمها منه ، ويصرح جوليوس سولدنوس انها بنيت في ايام الاولبياد الثاني عشر بعد المائة في عهد القنصل لوكيوس بابيروس نجل فورديوس وفي عهد القنصل غايوس بيتليوس بن غايوس وخططها المهندس المعماري دينو كراتيس الذي يحتل المكان الثاني بعد مؤسسها في زكريات الناس المقررة بالجميل . (٢٣١)

تقع مدينة الاسكندرية بالقرب من مصب نهر النيل الذي يدعوه بعضهم باسم هيراكليوتيكون ويسميه آخرون باسم مصب كانوبك ، هذا وإن الموقع الذي يشتق منه اللسان البحري الاقرب

لتلك المدينة اسمه ، قد فقد تسميته القديمة ويدعى الآن رشيد . وتقع المدينة على بعد خمسة أو ستة أميال من مجرى النهر ، إلا أن بعض الماء ينقل الى المدينة بواسطة قنوات عديدة خلال موسم الزيادة السنوية لماء النهر ، ويحفظ تدفق الماء هذا بعناية مثلى في أحواض ضخمة مصممة خصيصا لهذا الغرض ، من أجل استخدام الناس خلال العام بأكمله ، ويحول مقدار من الماء بقدر ما هو ضروري خلال قنوات تحت الأرض من أجل سقاية البساتين الواقعة خارج المدينة.

تقع الاسكندرية في موقع موانئ للغاية لمواصلات تجارة واسعة ، وفيها مرسيان منفصلان عن بعضهما بمساحة ضيقة جدا من الأرض ويرتفع عند ذلك اللسان برج ذو ارتفاع رائع يسمى الفاروس . ويقال إن يوليوس قيصر قد بنى هذا من أجل الاستخدام والافادة منه وأنه كان قد قاد جماعة من المعمرين الى هناك (٢٣٢).

تتلقى الاسكندرية وفرة من المؤن الغذائية من كل نوع بواسطة نهر النيل ، وتتلقى بالفعل ثروة كبيرة من كل نوع تقريبا ، وإذا وجد هنالك أي شيء تفتقر اليه المنطقة نفسها ، فإنه يجلب بواسطة السفن من البلدان عبر البحر بوفرة وغزارة. ونتيجة لذلك تشتهر الاسكندرية بتلقي كميات كبيرة من السلع من كل نوع أكثر من أية مدينة بحرية أخرى ، ومهما ينقص منطقتنا من العالم بخصوص التوابل واللؤلؤ والكنوز الشرقية والسلع الأجنبية ، فإنه يجلب الى هنا من الهندين وسبأ وشبه جزيرة العرب والسودان والحبشة وكذلك من بلاد فارس ومن مناطق أخرى مجاورة ، وتنقل جميع هذه السلع الى مصر العليا عن طريق البحر الأحمر الذي شكل الطريق من تلك الشعوب اليها ، ويتم تفريغها عند مدينة عيذاب (٢٣٣) الواقعة على شاطئ ذلك البحر نفسه ، وتنقل عبر النيل من هناك الى الاسكندرية . وهكذا ، يندفع الناس من الشرق ومن الغرب الى هنالك بأعداد ضخمة ، وهكذا تعتبر الاسكندرية سوقا عامة لهذين

العالمين ، وهي مشهورة بألقابها القديمة والحديثة ، إلا أنها تستمد منزلة خاصة بسبب وعظ وحديث القديس مرقس الابن الروحي لأمير الحواريين الذي أرسلته الإرادة السماوية الى تلك الكنيسة ، وعلاوة على ذلك ، لقد باتت مشهورة أكثر بحقيقة أن الأبوين المقدسين سيرك واثناسيوس اختاراهما كمكان لسكناهما وبغنا فيها ، وتحل الاسكندرية المرتبة الثانية بين البطريركات الأربع وتتوجه اليها كمطرانية مصر وليبيا وبنتابولس وأقاليم أخرى كثيرة.

أرسل الاسطول بأكمله الى هناك ، وحوصرت جميع الأبواب وجميع وسائل الاقتراب ، ولم يسمح لأحد بالدخول.

٢٨ - المالك يواصل الحصار ، وينكل بالسكان بهـكل مريع

وفي هذه الأثناء علم المسيحيون الذين كانوا قد بقوا في سورية أن الملك ألقى الحصار على مدينة الاسكندرية ، وعرفوا أنه يمكنهم الوصول الى تلك المدينة خلال بضعة أيام بالابحار دون توقف ، وهكذا ، حملوا أسلحتهم وباشروا الرحلة بتلهف ، وأبحروا بابتهاج وبمبادرتهم الخاصة بعدما حملوا السفن بجميع المؤن اللازمة ، وذهب معهم فريديك رئيس أساقفة صور وسلفنا الذي تأثر بحماسة الآخرين وبعاطفة جياشة نحو الملك أيضا ، إلا أنه بدا يعاني على الفور من نوبة خطيرة من مرض الزحار نشأت بسبب شربه من ماء النيل ، وازداد مرضه فاضطر للعودة الى موطنه قبل أن تستسلم الاسكندرية للملك.

جمع الجيش المحاصر والمجتمع أمام المدينة الآن عددا ضخما من السواري ، واستدعى الحرفيين والنجارين وأمرهم بتشديد برج

الربح حتى أنهم تخلوا الآن عن الرغبة الكلية بالحرية ، وفضلوا أن يتخلوا عن المدينة وأن يستعبدهم أي فرد على أن يموتوا من جوع قاس في بيوتهم مع زوجاتهم وأطفالهم ، وبدأت الشكوى تنتشر بين الناس ، وقيل علانية وعلى الفور إن الغرباء المزعجين الذين كانوا قد جلبوا هذا الأسى عليهم يجب طردهم من المدينة ، ونادوا بضرورة البحث عن اتفاق من نوع ما يمكن بوساطته تبديد هذه المحن غير الموائمة ، ورفع الحصار وإعادة المدينة الى حالتها السابقة من السمو والحرية.

وأحس صلاح الدين بحالة الشعور العامة هذه ، فأرسل رسلا سريعيين بسرعة قصوى الى عمه مع بيان عن الأحوال : الوضع البائس للمدينة ، والفقدان التام للمؤن الغذائية ، ورغبة الناس بالتخلي عنها ، وتوسل اليه بجدية بالغة ويكل حجة ممكنة ليتدبر إرسال نجدة فورية لاسعاف الناس البائسين من الوقوع في خطر وشيك جدا.

وناشد في غضون ذلك أعيان المدينة والناس أنفسهم ، وحذروهم من أنه ينبغي عليهم أن يقاتلوا حتى الموت دفاعا عن زوجاتهم وأبنائهم ، وحثهم على مجاراة عادات أسلافهم وتقاليدهم وأن المعونة أمام الأبواب ، لا بل إن عمه شيركوه قائم عبر مصر ليترد العدو ويحرر الاسكندرية ، وسيصل بسرعة بالغة مع عدد كبير من الجنود .

وطالب الملك ، المدرك تماما للنزاع القائم بين السكان ، بتشديد الحصار بكون توقف وكانت تزداد هجماته ضراوة كلما ازدادت معرفته بوضعهم البائس ، وكان السلطان أيضا على أهبة الاستعداد باستمرار ، وكان نشيطا وفعالا ومجتهدا وملتيا بالقلق ، وقام بالتجول بين جميع القادة . ووزع المال بيد سخية لبناء الآلات الحربية ، كما وزع مبالغ طائلة لجميع مستلزمات

شديد الارتفاع يمكن من ضمنه معاينة المدينة بأسرها ووضعت أيضا وفي أماكن استراتيجية حول الأسوار الآلات الحربية المسماة المجانيق التي تقذف أيضا حجارة ضخمة ذات وزن كبير ، وقذفت من هذه الآلات وبشكل مستمر تقريبا إلى أبعد الحدود.

وكانت المدينة محاطة بحدائق مثمرة ذات مظهر بهيج للغاية ، وكانت مليئة بأشجار الفاكهة والنباتات الطيبة كغابة مورقة ، وكان منظر هذا المنتجع الرائع يجذب المارين به إلى دخوله والاستراحة فيه ، واجتاح جنودنا هذه البساتين بأعداد ضخمة ، وبقصد أساسي هو إيجاد مادة لبناء الآلات الحربية ، لكن ما لبثوا أن تملكتهم رغبة وحيدة في الحاق الأذى والتخريب فقطعوا الأشجار العطرية بأنلین جهودا تفوق بحماسة الجهد التي بذلت أثناء الزراعة أصلا ، وكانت هذه الأشجار مفيدة لأغراض كثيرة ، كما لم يمض وقت طويل حتى أبيدت الحدائق عن بكرة أبيها ولم يبق أي أثر من الآثار على حالته السابقة ، وكان هذا العمل قد دفع الناس إلى الشكوى بمرارة بالغة بعدما جرى إقرار معاهدة السلام ، فقد شعروا أنهم تلقوا في هذا المجال أذى وأضرار بالغة. واستمر جيشنا في تضيق الحصار ، واستخدمت كل وسيلة للاحاق الأذى ، وكانت تستنبط باستمرار وسائل جديدة لانهاك المحاصرين ، ولم تسمح الهجمات المستمرة بأية استراحة للمدافعين المرهقين ، كما أن السكان المعتادين على المتاجرة فقط ، والذين لم يكونوا متدربين على فن القتال ، ولم تكن لديهم خبرة في الصراع ، وجدوا أنه من الصعب تحمل هذا النوع الغريب من العمل ، وكان الأتراك الذين بقوا في المدينة قليلي العدد ، وترددوا بالوثوق بالشجاعة المقبلة وغير المؤثوقة للأسـكان ولـهـذا نادرا ماخرجوا إلى القتال – وإن خرجوا خرجوا على مضض – الموقف الذي لم يشجع الباقين كثيرا على خوض القتال ، فهل هنالك سبب لقول المزيد؟ أضني الناس بالقتال اليومي والقتل المستمر للأصدقاء وأعمال الحراسة المستمرة ، والخوف من الليل ، وفقدان الطعام في المقام الأول ، الأمر الذي دفع الناس إلى اليأس. ولذلك ، تملكهم

الحرب ، و دفع أجورا للعمال وقدم هدايا للفقراء والمعوزين ، وإلى الجرحى في المقام الأول بغية حصولهم على عناية مناسبة ، وكان سخيا بالنسبة للمقاتلين أيضا وخاصة بالنسبة للذين كان يعرف أنهم كانوا شجعانا في المعركة.

٢٩ - شيركوه يتباحث مع هيو صاحب قيسارية حول السلام بعد اطلاعه على التقرير المرسل اليه.

في الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الأحداث أمام مدينة الاسكندرية . كان شيركوه يزحف في بلاد مصر العليا ولدى وصوله الى قوص بذل محاولة للاستيلاء على المدينة بهجوم صاعق ، لكنه سرعان ما اكتشف أن جهوده كانت عقيمة ، وأن هناك حاجة لوقت طويل لمشروع كهذا ، وأن الوضع المتقلقل لابن اخيه كان يتطلب منه أن يتولى عملا آخر ، وهكذا ، قبل مبلغا من المال من هذه المدن وأسرع مع قواته الى مصر السفلى.

ولدى وصول شيركوه الى بابليون وجد أن الملك قد أرسل هيو دي ابلين لحراسة القاهرة ، ولإقامة جسر هناك ، وبالاختصار ، كانت الظروف القائمة مختلفة تماما عما كان قد افترضه ، ولذلك ، استدعى هيو صاحب قيسارية ، الذي كان يحتجزه كأسير ، الى مؤتمر ودي ، وحيث كان مستعدا للتكلم فقد بدأ يخاطبه بشكل لبق ولطيف وبكلمات جيدة الاختيار على النحو التالي : « أنت أمير عظيم وصاحب منزلة سامية ونفوذ كبير بين شعبك ، ولا يوجد أي من نبلائك أفضل منك لأنقل اليه - لوصح لي الاختيار - هذا السر الخاص بي ، وأجعله مؤتمنا على أسرارى ، لقد قدم القدر لنا عن طواعية ومنحتنا فرصة الحرب ميزة كان ينبغي البحث عنها بجهد كبير ، وأعني بذلك حصولي على ميزة الافادة من خبرتك لهذه الحاجة الحالية ، وأعترف بصراحة أن ثروة هذه المملكة جذبتني كوني متلهفا لبلوغ المجد كجميع المخلوقات

البشرية ، وفكرت ذات مرة بالاعتماد على الشخصية الضعيفة للسكان الأصليين بأمل أن هذه المملكة قد تسقط في يدي يوما ما .

وبناء عليه انحدرت نحو مصر عبر مخاطر كثيرة وعلى حساب نفقة كبيرة ومشاق لا تحصى أراها الآن عقيمة ، وانحدرت معي مجموعة كبيرة من الفرسان جذبتهم كلهم الى هنا الرغبة ذاتها ، إلا أن رغباتي لم تتحقق لأن القدر ، كما أرى الآن ، كان معارضا لدخولي الى المنطقة ، وأمل أن يسمح لي بالعودة في ظل بشائر خير موأية على الأقل ، وكما قلت ، إنك رجل من منزلة سامية ، وأنت عزيز على الملك ومؤثر بالقول والفعل ، فتوسط لاحلال السلام بيننا ، فقد تنجح المسألة على يديك : أخبر الملك أننا نضيق وقتنا هنا ، وأن الايام تمضي دون نتيجة ، وتنتظرنا واجبات كثيرة في الوطن ، وعلاوة على ذلك ، إن وجود الملك نفسه ضروري للغاية بالنسبة لمملكته ، فهو ينفق جهوده الآن لمصلحة الآخرين لأنه عندما يتولى صدنا ، فلنستوف يتخلى عن ثروات هذا الاقليم للسكان التبعساء الذين لا يستحقون حتى أن يعيشوا فليأخذ شعبه الذين هم أسرى عندي الآن ، وليرفع الحصار ، وليعيد الأسرى الذين يحتجزهم مع النين يحاصروهم في مدينة الاسكندرية ، هذا وانني مستعد من جانبي للمغادرة فور استلامي منه ضمانا بأننا لن نواجه أية متاعب من جنده على الطريق.

٣٠ - هيو يرتب شروط المعاهدة مع الملك والنبلاء

فكر هيو بذهنه في هذا الاقتراح بعناية لفترة طويلة بعد ما استمع لهذا الحديث سيما وأنه كان رجلا صاحب إدراك سليم وحكمة ، ولم يشك أن بذود السلام وفق شروط المعاهدة ستكون مفيدة للمسيحيين ، إلا أنه تردد في تولي القيام بهذه المهمة بنفسه ، حتى لا يبدو أنه مهتم بالحصول على حريته أكثر من اهتمامه بالمصلحة العامة ولذلك شعر أن شخصا آخر يمكنه أن يقوم بالخطوات الأولى

بشكل أكثر احتراما . وفسر لنا إحساسه حول المسألة بصورة سرية في وقت لاحق .

وهكذا ، أرسل حاملا للرسالة أسيرا آخر هو أرذولف صاحب قل باشر وهو صديق حميم للملك كان قد أسر في المعركة ذاتها مثل هيو موضوع حديثنا الآن ، فأسرع إلى الملك بعدما كلف بهذه المهمة وشرح له هدف قدومه بالتفصيل ، فعقد الملك اجتماعا على الفور ، وكان بين الحضور في اجتماع النبلاء ذلك كل من السلطان وولده أيضا ، . وقدم أرذولف الاقتراح وشرح طبيعة المعاهدة ، ولاقي اقتراح السلام موافقة الجميع ، وبدأت الشروط المقترحة أنها تكفي لتحقيق المجد ولانجاز المعاهدة بنية حسنة ، تلك المعاهدة التي تم التوصل إليها بين الملك والخليفة . فقد توجب أن تنقل المدينة بالاستسلام إلى سلطة الملك ، وأن يجري تبادل لجميع الأسرى في كلا الجانبين ، وأن يغادر جميع الأتراك الذين كانوا قد احتجزوا بسبب الحصار ، بالإضافة إلى جنود شيركوه المتفرقين حاليا فوق أرض مصر حدودها بالكامل .

وافق السلطان شاور مع جميع قادة مصر على المعاهدة ، وقبلوا شروطها طوعا . وأعلن السلطان بنفسه أنه راض تماما لأن المعاهدة أقصت عدوه الأكثر ترويعا ، وخصمه المنافس له من أجل التفوق في المملكة .

ثم قدم هيو نفسه ، ووضع اللمسات الأخيرة للمعاهدة ، وأوصل المسألة إلى خاتمة مرضية بعد أن قام الجانبان بدراسة وافية للمعاهدة في جميع جوانبها .

٣١ - المدينة تستسلم للملك ، وإعلان السلام لأهالي الاسكندرية .

ثم أعلن المناادي لكل فرقة وللناس عموماً بأن القتال قد انتهى ،
كما صدر أمر رسمي يحظر القيام بأي تحرشات أخرى بأهالي
الاسكندرية ، وحالما تم التوصل إلى السلام ، انطلق الناس
المرهقون بوطأة الحصار الطويل وهم مبتهجون . واستخذفوا
بالشدائد التي كانوا قد كابدوها ، واستمتعوا بالتجول دون عائق
للتخلص من إرهاقهم ، وتوفرت الآن مواد غذائية كثيرة وسمح
باستئناف التجارة . وهكذا ، فقد أوقف الناس ، الذين تخلصوا من
مجاعة مزمنة ، أنفسهم على استرداد صحتهم ونشاطهم ،
واستمتعوا الآن بمراقبة الجنود أنفسهم وهم الذين كانوا يخافونهم
منذ عهد قريب كممثلين للخطر والموت .

وكان المسيحيون من جانبهم متلهفين بقدر مماثل لدخول المدينة
التي كانت محط رغباتهم منذ زمن طويل ، فتجولوا بحرية في
الشوارع وحدقوا بالمراسي والشرفات وجمعوا بملاحظة مجتهدة مادة
يتمكثون منها لدى عودتهم إلى بلادهم أن يؤلفوا في أحوال كثيرة
قصصاً لأصدقائهم ، وينعشوا عقول المستمعين إليهم بحديث
مستساغ .

يعلو فوق هذه المدينة الرائعة برج له ارتفاع رائع يسمى
الفاروس (٢٣٤) ، حيث توجه السفن مجراها ليلاً نحو هذا البرج
وكانما تتوجه نحو أحد النجوم ، يرشدها في ذلك الضوء اللامع
لشاعله المضيئة الكثيرة ، لأن الطريق إلى الاسكندرية خطرة جداً ،
كما أن البحر المظلم مليء بالمخاطر الغادرة المحجوبة . إلا أن الناس
الذين تحذروهم الأضواء التي تبقى متوهجة دائماً فوق البرج ينجون
من مخاطر التهديد والتعرض للتحطم ويتقدمون بسلام في طريقهم .

- ٣٢٦٩ -

نشرت راية الملك فوق هذا البرج دليلا على النصر ، وإزاء رؤية
الراية ، فإن حقيقة الاستسلام التي لم يكن قد عرفها حتى الآن إلا
العدد القليل من الناس ، أصبحت ظاهرة للجميع وفي آخر الأمر ،
فإن العديد من الناس ، الذين كانوا قد تنحوا بحذر أثناء المحادثات
الأولى للمعاهدة ، وكانوا يخافون من الوثوق بالمسيحيين ، لم
يترددوا الآن من الانضمام إلينا بعدما تحقق السلام ، وأن يعتمدوا
على إخلاص نيتنا الحسنة ، وظهر شيء واحد مدهش بشكل يفوق
جميع الأشياء الأخرى وهو أن جيشا صغيرا جدا استطاع أن
يحتجز داخل الاسكندرية حشدا كبيرا جدا من السكان بالإضافة إلى
العديد من الأجانب الذين تعاونوا جميعهم باخلاص من أجل الدفاع
عن المدينة ، وأجبرهم على استسلام شائن ، حيث لم يكن لدى
المسيحيين سوى خمسمائة فارس تقريبا وأربعة أو خمسة آلاف من
الجنود المشاة ، بينما كان لدى المحاصرين أكثر من خمسين ألف
جندي قادرين على حمل السلاح .

٣٢ - الملك يعود إلى أراضيه منتصرا ومعه جميع
قواته .

خرج صلاح الدين الآن من المدينة وذهب إلى الملك . وبقي هناك
في المعسكر المسيحي حتى يستعد للانطلاق في عودته ، وعمد بكل
إحترام ، وزود بحارس ليحميه من إساءات قد يقوم بها أشخاص
وقحون . ودخل السلطان أبواب الاسكندرية مبتهجا بالنصر على
رأس جنده محاطا بصفوف مكتظة ، ولاقى ترحيبا بدوي الأبواق
وبصوت الطبول وبكل أنواع الآلات الموسيقية الأخرى ، وتقدم برفقه
مجموعات من الرجال المنشدون ، وتقدمه خدم كثيرون وحشود من
الرجال الهاتفين وبأيديهم الأسلحة فارتجف السكان رعبا ، وقد
أدان بعضهم ، وأطلق سراح آخرين ، ووزع مكافآت على كل من كان
يستحقها مع أنه عاقب المنذنين بقسوة وحزم .

- ٣٢٧٠ -

حكم السلطان في آخر الأمر على سكان الاسكندرية أن يدفعوا مبلغا كبيرا من المال غير ثابت بشكل محدد ، وخصص مكلفين لجمع الفدية ، وعين موظفين ليتولوا القيام بمسؤولية جمع الضرائب والعائدات من المدينة ، وبعد أن انتزع السلطان مبلغا كبيرا من المال ، عهد بشؤون المدينة إلى عبيد مخلصين من مواليه ، وتراجع مليئا بالمجد إلى معسكره .

كان الجيش المسيحي يتلهف الآن للعودة إلى الوطن ، وهكذا ، أعد الذين قدموا بالبحر الاستعدادات الضرورية للرحلة ، وركبوا متن السفينة ، وساموا أنفسهم للنسمات وعادوا بابتهاج إلى موطنهم ، وأمر الملك بإحراق الآلات الحربية وإعداد الامتعة ، ثم سلك الطريق إلى بابلين فانضم إلى قواته من جنود الرجال الذين قد أرسلهم من قبل ، وهكذا ، دخل الملك عسقلان في اليوم الثاني عشر قبل نهاية الأسبوع الثاني من شهر أيلول (٢١ - آب) من العام الرابع من حكمه وسنة ١١٦٧ لتجسيد ربنا . وذلك بعد أن عزز السلطان في حكم المملكة وطرد العدو ، واسترجع رجاله الذين كانوا قد وقعوا في الأسر (٢٣٥)

انتهى هنا الكتاب التاسع عشر

الكتاب العشرون

الصراع على مصر . حلف مع الامبراطور مانويل

١ - عودة كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ويودس دي سانت اماند الساقى الملكى من القسطنطينية جالبين معهما الزوجة المقبلة للملك . تتويج عموري في كنيسة صور وزواجه .

عاد في هذه الاثناء كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ذي الذكرى العزيزة ويودس دي سانت اماند ، الذي كان يعمل انذاك ساقيا ملكيا ، من القسطنطينية عن طريق البحر ونزلا في مدينة صور ، وكانا قد نفذوا بحكمة واخلاص المهمة التي كانا قد ارسلنا في سبيلها الى الامبراطور مانويل ، وتمكنا بالحكمة والاخلاص مع نهاية عامين من تحقيق النجاح لمهتهما حيث جلبا ابنة يوحنا بروتو سياستوس كزوجة مستقبلية للملك (٢٣٦)

اسرع الملك الى مدينة صور فور معرفته بمقدمهما ، وتزوج هناك ، بعد استدعاء قادة الكنيسة ونبلاء المملكة ، من الاميرة ماريا التي كانت قد تلقت من قبل هبة المسح بالزيت والترسيم الملكى ، واحتفل بالزواج بابهة وبعراسيم لاثقة في التاسع والعشرين من شهر اب في كنيسة صور بواسطة البطريرك امالرخ صاحب الذكرى الطيبة ، وكان الملك مرتديا الثياب الملكية بشكل رائع ، ووضع على راسه تلج اسلافه .

كان يوحنا بروت سياستوس هذا ، الذي ذكرت ان الملك تزوج

- ٣٢٧٢ -

من ابنته ، ابن الاخ الاكبر للامبراطور ، وارسل الامبراطور كمرافقة لابنة اخيه عددا من النبلاء اللامعين والبارزين المقربين اليه بشكل حميم كان بينهم اللورد باليولوغز ومانويل سيبياتوس وهو واحد من اقربائه ، وآخرين كثر(٢٣٧) فقد توجب عليهم واجب مرافقة الملكة المستقبلية بابهة كبيرة الى السيد الملك ، والتأكد من انه لم يحذف ايا من الاحتفالات المهيبة المفروضة .

كان رئيس كنيسة صور ، التي اقيمت فيها هذه الاحتفالات اذذاك هو اللورد فريديريك ، وكان قد نقل من كنيسة عكا . ومنحني فريديريك هذا بسخاء بعد ثلاثة ايام من الاحتفال بتتويج الملك وزواجه في تلك المدينة ، منصب رئيس شمامسة الكنيسة في مدينة صور وهو المنصب الذي تولى عنه وليم عندما استدعي الى الكنيسة في صور ، وفعل هذا تلبية لطلب الملك وبحضره مع عدد آخر كبير من الرجال المبجلين(٢٣٨)

٢ - اندرونيكوس أحد أقرباء الامبراطور ، ينقل أرملة الملك بلدوين الى ارض العدو .

وصل في هذه الاونة بينما كان الملك مايزال موجودا في مصر شخص يدعى اندرونيكوس وهو نبيل اغريقي صاحب نفوذ كبير واحد اقرباء امبراطور القسطنطينية قادما من كليكية بمرافقة موكب كبير من الفرسان(٢٣٩) ، وبقي معنا حتى عودة الملك ، وكان مصدر عون كبير بالنسبة لنا ، لكنه كان مثل الاعمى في الصدر او كالفار في خزانة الثياب ، فقد كافا مضيقية بشكل دنيء ، وبرهن على صحة نلك القول الذي قاله مارو : « انني اخشى من الاغريق حتى عندما يحملون الهبات » (٢٤٠) .

ومنحه الملك مدينة بيروت فور عودته ، ثم دعا الاغريقي ثيودورا

- ٣٢٧٣ -

ارملة الملك بلدوين التي كانت ابنة اخيه ايضا ، لتذهب معه لزيارة بيروت ، وكانت ثيودورا تمتلك مدينة عكا التي سبق ان قدمت لها كمهر في زمن زواجها ، وكانت قد استضافت اندرونيكوس لزمن طويل في منزلها . وذلك في الوقت الذي كان يتعاون فيه مع نور الدين اثناء هذه الرحلة ويتآمر فقد خطف الملكة واحتال عليها ونقلها الى بلاد العدو أولا الى دمشق ثم الى بلاد فارس (٢٤١)

٣ - بناء كنيستين في البتراء و الخليل و تعيين أسقفين فيهما . قدوم ستيفن مستشار ملك صقلية و الأسقف المنتخب للكنيسة في بالرمو الى سورية . موت الكونت وريم أوف نفرز اثناء وجوده معنا .

لم يحدث شيء يستحق الذكر في المملكة خلال هذا العام باستثناء تأسيس كنيستين في أيام عيد الفصح ، وتعيين أسقفين فيهما وقد أقيمت أولاهما في البتراء الواقعة فيما وراء الأردن في منطقة مواب وهي عاصمة العربية الثانية ، ولم يكن لهذه الكنيسة أي أسقف لاتيني منذ دخول المسيحية الى أرض الميعاد . ويقال إن الكنيسة الثانية وأقصد بها كنيسة الخليل لم تتلق ذلك الشرف من قبل حيث كانت في أيام البيزنطيين مجرد أبرشية ، وهذه كانت أيضا مرتبة الكنيسة في بيت لحم كما هو معروف تماما . إلا أن كنيسة بيت لحم رقيت باستحقاق الى ذلك المقام الرفيع أولا بسبب التوقير الذي احتفظت به كمسقط لرأس ربنا . كما منحت حقوق وامتيازات كاتدرائية في أيام حكم الملك بلدوين الأول مباشرة بعد استرداد المدينة المقدسة حبيبة الرب (٢٤٢)

واكتسبت الخليل ايضا ، لأول مرة في هذا العام الذين نحن بصدد ، ذلك المقام الذي كان لائقا بها بسبب صلواتها بعبيد الله ، نوي الذكرى المباركة الى الابد ، وهم إبراهيم وإسحاق

- ٣٢٧٤ -

ويعقوب . واختير غوريكوس أسقفا للكنيسة في البتراء ، وهو شماس نظامي في هيكل الرب ، وعين مطرانا للعربية ايضا ، بينما تلقت الخليل كرئيس لها ، رينالد ابن أخي البطريرك فولتشر ذي الذكرى المجلدة .

وصل في الصيف اللاحق سستيفن ، وهو نبيل من منزلة سامية ، ومستشار الملك صقلية وأسقف منتخب للكنيسة في بالرمو ، الى المملكة بمرافقة حاشية صغيرة . كان سستيفن أخا للكونت روتودي بيرشي وكان رجلا شابا له مظهر وسيم وصاحب مقدرة طبيعية ممتازة ، وكان قد وقع ضحية لمؤامرة من جانب عصابة النبلاء في صقلية ، نجحوا في مؤامرتهم بطرده من البلاد ، وتم تنفيذ هذا خلافا لرغبات الملك الشاب الذي كان قاصرا ، وخلافا لرغبات والدته ، إلا أنهما كانا عاجزين عن الحيلولة دون حدوثه ، ونجح سستيفن بصعوبة بالغة في تفادي مؤامرات النبلاء ، وأتى اليها بطريق البحر ، لكنه أصيب بمرض خطير بعد زمن قصير من وصوله أدى الى وفاته ، فدفن في القدس بإجلال رائع في إحدى كنائس هيكل الرب (٢٤٣)

وأتى الى القدس في حوالي الوقت نفسه وليم كونت نفرز حيث كان سيدا قويا من أسرة نبيلة تتمتع بنفوذ كبير ، وقد قدم من مملكة فرنسا بمرافقة مجموعة مهيبية من الفرسان ، وقد قدم على نية القتال في سبيل الديانة المسيحية ، وعلى نفقته الخاصة ، ضد أعداء عقيدتنا ، إلا أن موتا مبكرا وحقوقا على شجاعته الناجحة ، قد حال بشكل مؤسف للغاية دون تنفيذ هذا الهدف النبيل والورع ، فقد أصيب وليم بداء مزمن ، وتوفي بعد معاناة طويلة وذلك في البداية نفسها لحياة كانت ذات مستقبل واعد جدا ، وحزن الجميع على موته وتأسفوا عليه (٢٤٤)

٤ - وصول مبعوثين من عند الامبراطورية يطالبون ببعض الموافقات من الملك لإرسال رئيس شماسة صور كمبعوث الى القسطنطينية . عقده الاتفاقية المقترحة مع الامبراطور .

وصل في غضون ذلك الصيف نفسه الكونت الاسكندر أوف غرافينا ورجل اسمه ميخائيل هايدرو نتنوس (أوف أو ترانتو) ، وكلاهما عضوان في بلاط امبراطور القسطنطينية ، الى صدور في مهمة امبراطورية (٢٤٥) ، ومنحا مقابلة خاصة كان الملك قد استدعى اليها الذين كان يرغب بوجودهم في المداولة ، وشرح المبعوثان أسباب قدومهما وقدمتا الى الملك رسالة من جلالته الامبراطورية تعالج الموضوع ذاته .

كان فحوى الرسالة على النحو التالي : « أدرك الامبراطور أن المملكة المصرية ، التي كانت حتى الوقت الحالي قوية وغنية بافراط ، قد سقطت في أيدي جنس مخنث وضعيف ، كما أصبحت الشعوب المجاورة مدركة أيضا لعجز وضعف الحاكم والأمراء ، وحيث يبدو أنه من المستحيل أن تتمكن المملكة من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن بحالتها الراهنة ، وأنه يجب أن تنتقل حكومتها والسيطرة عليها بحكم الضرورة الى شعوب أخرى : فإن الامبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك أن يخضعها لسلطاته بسهولة » . ولقد كان بسبب هذه المسألة أرسل المبعوثين الى الملك .

يقول بعض الناس - وبشكل معقول جدا - ان الملك هو أول من اقترح هذه المسألة على الامبراطور بوساطة رسل ورسائل متكررة بحيث حث الأخير على مساعدته بالجنود وبأسطول وبأموال اللازم ، وكان الامبراطور سيتلقى مقابل ذلك حصة محددة من تلك المملكة ومن جميع المغنم التي يمكن الاستيلاء عليها .

- ٣٢٧٦ -

إذا هذه طبيعة العمل التي كان المبعوثان قد قدما الى الملك بشأنها ، ولقد انضمت الى الوفد كواحد منه بأمر الملك وذلك عندما كان الطرفان قد وافقا في آخر الامر على شروط الاتفاقية ، وتوجب على زيارة الامبراطور كصامل للرسائل ، وأن أنقل قرار الملك والمملكة بأسرها اليه ، وعلاوة على ذلك ، فقد خولت بالمصادقة على الاتفاق بينهما كما هو متوقع ان يطلب مني ، لكن وفق الشكل المتفق عليه من قبل .

وهكذا ، انضمت الى المبعوثين الامبراطوريين اللذين كانا ينتظران قدومي في طرابلس ، وذلك حسبما وجهني الملك بالرسائل ، وأنطلقنا سويا الى القسطنطينية ، وكان الامبراطور نفسه محتجزا في تلك الآونة في الصرب حيث كان الناس قد تمردوا على سلطته .

والصرب هي بلاد جبلية واقعة بين الماشيا وهنغاريا إيليريا ، وهي مكتظة بالغابات ويتعذر بلوغها . وكان الصربيون قد تمردوا معتمدين على تعذر الاجتياح الشامل لبلادهم وعلى المعرات الضيقة المؤدية الى داخلها .

تقول التقاليد القديمة إن جميع الناس يستمدون أصلهم من المغتربين الذين نفوا الى هذه البلاد والذين حكم عليهم بالعمل في مقالع الرخام وفي المناجم ، ويقال إنهم أخذوا اسمهم من حالة العبودية هذه . وكانوا شعبا فظا وفوضويا يعيش في الغابات والجبال ، وليس لديه أية معرفة بالزراعة ، لكنه يمتلك قطعانا وماشية كبيرة تزوده بكميات كبيرة من الحليب والجبن والزبدة واللحم ، ولديه إضافة لذلك وفرة من العسل والشمع ، وعندهم حكام يحملون اسم سوياني Suppani .

وكانوا يطيعون الامبراطور أحيانا ، وبما أنهم شعب مولع بالحرب وشجاع ، فإنهم كانوا يهجمون من معاقلهم الجبلية

ويخربون جميع المنطقة المجاورة ، وكان الامبراطور قد زحف بشجاعة اليهم على رأس جيش كبير بسبب اعتداءاتهم التي لا تحتمل ضد جيرانهم ، ونجح أخيرا في قمعهم وأسر زعيمهم الأكبر ، وحدث أن صادفنا الامبراطور عائدا من هذه الحملة في مدينة بوتلا في اقليم بيلاغونيا ، بعدما تغلبنا على الكثير من مصاعب الطريق ، وتقع مدينة بوتلا هذه بالقرب من المدينة القديمة والمعروفة سابقا باسم جستنيا الرئيسة ، التي كانت مسقط رأس الامبراطور جوستنيان الذي كان لايقهر وكان الأكثر حكمة وسعادة ، وتدعى الآن عموما باسم اكريدا أو (خريدا) .

منحنا هنا استقبالا مشرفا من قبل الامبراطور ، الذي عاملنا بلطف امبراطوري ، وأعلننا اليه بوافع رحلتنا وأسباب مهمتنا ، وشرحنا فحوى المعاهدة بعناية مثلى . واستمع الى القصة بأكملها بسرور كبير وقبلها بلطف ، ووافق على كل ما كان قد اتفق عليه ، وبعدما أدى الطرفان يمينا مقدسا ، صادق الامبراطور بسلطته على جميع التفاصيل التي أعدها المبعوثون من قبل ، وأبرم المعاهدة .

وتلقينا رسائل امبراطورية تتضمن نص المعاهدة بأكملها ، ثم أنن لنا بالمغادرة بعد أن حملنا أعطيات رائعة حسب العادة المألوفة ، وانجزت مهمتنا الآن بنجاح ، وهكذا ، بدأنا رحلة العودة في الاول من شهر تشرين الاول .

٥ - الملك يقود جيشا الى مصر و يشتبك بالقتال مع المصريين و ذلك خلافا لشروط المعاهدة التي كان قد عقدها معهم من قبل .

في هذه الاثناء بعد رحيلنا مباشرة ، وقبل أن تتمكن سفارتنا من العودة لابلاغ الملك عن المساعدة الموعودة للامبراطور ، بدأ يشاع في

كل من البلاد أن شاور سلطان مصر كان يرسل باستمرار رسلا الى نور الدين ، ويلتمس مساعدته بشكل سري ، وقد ادعى انه كان معارضا تماما ولا يرغب بالانضمام الى أية معاهدة سلام مع العدو ، وأنه راغب بالانسحاب من الاتفاق الذي كان قد عقده مع الملك ، وأنه سيلغي المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما اذا ماتأكد من مساعدة نور الدين له .

يقال ان الملك جمع قوات من المشاة والفرسان من جميع انحاء المملكة ، بعدما سخط - وهو محق - إزاء النبأ ورحل بسرعة متوجها الى مصر ، هذا ويوجد من يدعي أن جميع هذه الاتهامات كانت كاذبة ، وأن السلطان شاور كان بريئا تماما ، وكان قد حافظ بنية طيبة على المعاهدة وعلى جميع شروطها بون أن يستحق هذه المعاملة ، ويؤكدون أن الحرب التي أثرت ضده كانت حربا جائرة ومخالفة للقانون السماوي ، وأنها لم تكن سوى ذريعة مفتعلة للدفاع عن مشروع فظيع ، ويؤكدون أنه لهذا السبب ، سحب الرب ، الذي يحكم بشكل دقيق وفقا لاطلاعه على أسرار القلب والضمير ، تأييده منا تماما ، ورفض ان يمنح النجاح لمشروعنا الغابر .

ويروى ان غيربرت المكنى أساليت (غلبرت دي أسالي) مقدم بيت الاسبتارية في القدس ، كان المحرض الرئيسي ، ان لم يكن المبدع لهذه الحملة المشؤومة ، فقد كان رجلا عالي الروح ، وسخيا جدا ، غير أنه لم يكن مستقرا بل كان متقلب السلوك والسمات ، فقد استلف مبلغا كبيرا من المال بعد نفاذ جميع ثروات الاسبتارية ، وأنفقة بأكمله ايضا على الفرسان الذين استدرجهم اليه من كل مصدر ، وأثقل بهذه الطريقة منظمته بدين باهظ لم تكن هنالك أية امكانية لدفعه ، وقد تخلى أخيرا عن منصبه بعدما أصابه اليأس وتخلى عن مسؤوليات ادارة الاسبتارية وتركها مثقلة بديون تصل الى مائة ألف قطعة ذهبية ، ويقال انه انفق هذه المبالغ

- ٣٢٧٩ -

الضخمة على أساس اتفاق عقده مع الملك وعلى أنه اذا تم الاستيلاء على مصر وجرى اخضاعها فان بلبيس ، التي كانت تعرف من قبل باسم بليوسيوم ، ستصبح ملكا لهذا البيت مع جميع أرضها الى الأبد .

وخلافا لهذا رفض فرسان الداوية المشاركة في هذه الحملة ، اما لانها بدت بالنسبة لهم مخالفة لأوامر الضمير ، أو لأن مقدم بيت منافس لهم كان من الواضح مؤسسا للمشروع وزعيما له ، وقد رفضوا اتباع الملك أو تزويده بالجند ، وبدأ لهم ان اعلان الحرب ضد قوة صديقة كانت تعتمد على نيتنا الحسنة ، كان خطأ ومخالفا لفحوى المعاهدة ، وتحديا للحق والعدالة لأن مصر كانت قد حافظت على نية حسنة ولم تكن تستحق معاملة كهذه (٢٤٦)

٦ - حصار مدينة بلبيس والاستيلاء عليها. السلطان يضلل بوعدده بمبلغ كبير من المال.

وهكذا فقد اتخذ الملك جميع استعداداته ، وجمع سائر المعدات الحربية ، ثم استدعى في شهر تشرين الأول من العام الخامس لحكمه قوات المملكة ، ونزل الى مصر (٢٤٧) ، ووصل الى بلبيس بعد مسيرة نحو عشرة أيام في الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ، وبدأ على الفور عمليات الحصار ، وتمكن خلال ثلاثة أيام من شق طريقه الى داخلها بالقوة واستولى على المدينة بحد السيف ، وبونما تأخير قام في الثالث من شهر تشرين الثاني بتدمير قواته جميع ارجاء المدينة .

وما ان جرى الاستيلاء على المدينة حتى جعل الغالبية العظمى من السكان طعمة للسيف دون مراعاة للعمر أو الجنس ، واذا صدق أن نجا بعضهم من الموت فقد كابوا من فقدان الحرية ، وسقطوا تحت نير العبودية التعيس وهو مصير بالنسبة للرجال الشرفاء أسوأ

بكثير من أي شكل من أشكال الموت ، وكان بين الأسرى ذوي المنزلة العالية الذين أسروا في بلبيس معزى ابن السلطان اضافة الى واحد من ابناء اخوته (السلطان) فقد كانا مسؤولين عن المدينة ويقودان العساكر المحشودة هناك .

اندفع الجند الى داخل المدينة بفوضى وبدون ضوابط فور فتح أحد مداخلها ، وتغلغلوا - دون مراعاة لأي تمييز من أي نوع - الى أكثر الملاجئ انعزالا ، وفتحوا الدور الخاصة وجسروا بالسلاسل الى موت شائن كل من فكر بئاس بالنجاة بواسطة الاختباء ، كما قتلوا على الفور جميع الرجال الذين كانوا في ريعان الشباب والذين كانوا قادرين على حمل السلاح ، ونادرا ما جرى استثناء المسنين والأطفال ، ولم يبق لعامة الناس أدنى اعتبار ، وأصبح كل شيء له قيمة او مرغوب به غنيمة للعدو ، وقسمت السلع الأكثر قيمة بالقرعة كفنائم.

واستولى الرعب على شاور تماما لدى سماعه نبأ هذه الاعتداءات وقد احتار حول المنحى المتوجب اتباعه ، وبدأ يفكر بقدر ماسمحت له الظروف والوقت بمحاولة تخفيف سخط الملك بعرض المال عليه وبالتوسل الى الزعماء المجاورين الذين كانوا ينتمون الى عقيدته نفسها كي يساعدوه بشكل مجاني أو مأجور ، وصمم في النهاية أن يستخدم كلتا الوسيلتين كتدبير وقائي وعاجل للمسألة وهكذا ، فقد أرسل وفدا الى نور الدين لطلب المساعدة ، وجرى تلبية هذا المطلب بسرعة واستدعى نور الدين شيركوه ، الذي ذكرناه من قبل ، وعهد اليه بقيادة قسم من الجيش ، وأعطاه عددا كبيرا من نبلائه للمشاركة في المسؤولية ، وعهد بتأمين المؤن الضرورية للزحف ، وأمن عددا مناسبا من الجمال لحمل الأمتعة وأرسل الحملة الى مصر .

وعوده ، بل ليمنع الملك من التقدم نحو القاهرة فجأة ، حيث لم تكن المدينة مستعدة على الإطلاق ، وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة في هجوم مفاجيء بحالتها اللادفاعية ، ويعتقد الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت أن هذا كان سيحدث دون ريب لو تقدم جيشنا بسرعة ودون توقف نحو القاهرة مباشرة بعد الاستيلاء على بلبس ، لأن المصريين كانوا في ذلك الوقت ضعفاء جدا ، ولقد صعدوا بالفعل بسبب الجزرة التي وقعت مؤخرا ، والكارثة المفاجئة التي حلت بتلك المدينة العظيمة ، ويبدو هذا محتملا جدا بالفعل ، لأن سكان القاهرة كانوا ضعفاء ومخنثين وبدون تدريب عسكري على الإطلاق ، وكانوا قد أوقفوا انفسهم على المذات لفترة طويلة من الزمن . وكانت المدينة المجاورة مازال تحترق ، وكانوا انفسهم منهكين تماما بسبب فقدان أصدقاء كثيرين ، ولم تكن لديهم شجاعة ولا قوة للمقاومة في وقت كهذا بينما كانوا يخافون على انفسهم من المصير الذي كان قد باغت الآخرين .

٨ - اسطولنا يبحر في نهر النيل و ينضم الى القوات البرية . السلطان يتخلى عن اتفاقه . السلطان يحاول المقاومة و يلتمس المساعدة من الاتراك .

كان هذا هو الوضع الذي ساد آنذاك في المنطقة المجاورة للقاهرة ، ووصل في هذه الأثناء الأسطول الذي كان الملك قد أمر - عند رحيله من المملكة - أن يبحر بالسرعة الكلية ، ويقال إنه دخل نهر النيل ، بعدما نقلته رياح مواتية ، عن طريق ذلك الفرع المعروف عموما باسم الدلتا واستولت القوات البحرية فورا على مدينة تنيس ، وهي مدينة قديمة جدا تقع على تلك الضفة من النهر ، وسلمتها الى الجند للسلب والنهب . ثم حاول الأسطول أن يبحر الى الامام لينضم الى الملك ، الا أن المصريين سدوا نهر النيل بمراكبهم ومنعوا مروره ، فأرسل الملك على الفور همفري أوف تورون ، كاهن المملكة مع مجموعة منتخبة من الفرسان للاستيلاء

على الضفة المقابلة إذا أمكن ذلك ، وأن يحتفظ بممر على ذلك الجانب على الأقل بدون إعاقة ، وكان من الممكن تنفيذ هذا دون صعوبة لو لم تكن إشاعة قد ظهرت في تلك الأثناء أفادت أن شيركوه بات على مقربة من المنطقة ، وقرض هذا تغييرا للخطط ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول بأن يبحر ليخرج من النيل إلى البحر على الفور وأن يعود إلى الوطن ، وتم تنفيذ ذلك ، هذا وفقدت إحدى الشواني بسبب قلة الحيلة الموائمة .

ولم يوقف السلطان وشعبه جهودهم في هذه الأثناء لطرد الملك من بلدهم ، وحققوا ببراعة في التخطيط ماكانوا قد افتقدوا إلى تحقيقه بالقوة ، وعوضوا عن ضعف قواتهم باستخدام وسائل بارعة فقد طالبوا عندما وعدوا بتقديم المال ، بمنحهم المزيد من الوقت والفرصة ليقوموا بدفع المال ، وكان المسوغ الذي قدموه هو تعذر تأمين مبلغ ضخم من المال بهذا المقدار من مصدر واحد ، لذلك يجب منح وقت إضافي قبل أن يمكن تنفيذ الاتفاق ، إلا أنهم دفعوا مبلغا قدره مائة ألف قطعة ذهبية على الفور ، فأطلق المسيحيون مقابل ذلك سراح ابن السلطان وابن أخيه ، وقدم السلطان اثنين من أبناء أخواته كرهائن لدفع المال المتبقي ، وكانا غلامين صغيري السن .

وبناء عليه رفع الملك الحصار وانسحب مع قواته إلى موقع يقع على بعد نحو ميل ، وأقام معسكره بالقرب من حدائق البلسم ، ومكثت القوات هنا لمدة ثمانية أيام ، وتلقى الملك خلال هذا الوقت رسائل كثيرة غير مرضية من السلطان ، وأخيرا نقل المعسكر ثانية إلى موقع يسمى سرياقوس .

كان السلطان يرسل رسله في هذه الأثناء إلى كل مكان من المملكة لالتماس المساعدة ، وجمع جميع الأسلحة المتوفرة ، واستدعى المدد من الريف المجاور . وأمر بجلب المؤن الغذائية إلى القاهرة ، وتأكد أنه تم دعم جميع الأماكن الضعيفة في المقاومة ، ودرست جميع وسائل المقاومة ، ودعا شعبه بأقوال مقنعة ، إلى خوض القتال

دفاعا عن ارواحهم وحريتهم وعن زوجاتهم وابنائهم ، ورسم امام
اعينهم صورة حية للكارثة الرهيبة التي كانت قد حلت بمدينة
مجاورة ، ووصف مرارة العبودية ونير المحتل الذي لا يمكن
حملة ، والقدر البائس للخاضعين للعبودية .

٩ - مليون دي بلانسي يفسد عقل الملك برأي شرير .
وصول شيركوه استجابة لدعوة المصريين . الملك يزحف
في الصحراء لمواجهة ، لكنه لا يجده . الملك يعود لهذا
السبب الى موطنه دون تحصيل نتيجة .

كان من جيش الملك رجل من أسرة نبيلة غير أنه منحط الأخلاق
وكان رجلا لا يخشى الرب ولا يحترم الانسان ، لقد كان مليون دي
بلانسي رجلا بلا حياة ، وكان مثيرا للشحناء وقادرا نشيطا على
اثارة المتاعب دوما وبما أنه كان على بيئة تامة بجشع الملك وبهمه
لتحقيق الثراء ، فقد اختار ان يرعى هذه النزعات البشعة بدلا من
أن يقدم نصائح مفيدة ، وكان قد نصح الملك بشكل مستمر منذ
البداية في أن يوقف جهوده على هدف محدد و هو أن يبتز من المملكة
المصرية المبلغ المذكور آنفا ومن ثم التوصل الى تسوية مع السلطان
والخليفة عوضا عن محاولة الاستيلاء على القاهرة وبابلليون
بالقوة ، ويقال أنه فعل هذا لانه كان يعتد باستحالة الاستيلاء على
المدينة ، بل ليتمكن من التفوق على الفرسان والآخرين الذين كانوا
يتطلعون بتلief الى المغانم ، ويحول بالتالي جميع مكافآت هذه
الحملة العظيمة الى الخزينة الملكية ، لأن الجيش يحصد عادة
الحصاد الأعظم من المغانم ، عندما يتم الاستيلاء على مدينة ما
بالقوة وبشكل أغنى بكثير مما هي الحال عندما يتم الاستسلام للملك
أو لأمير بشكل مباشر ووفق شروط محددة لمعاهدة يستفيد الحاكم
منها فقط .

يسمح حق الحرب لكل جندي في الحالة السابقة أن يستولي وسط

جلبة النهب وفوضى السلب على كل شيء يلقيه الحظ في طريقه ، وتزداد بالتالي الوسائل الخاصة للمنتصرين ، هذا وإن الفائدة تكون كلها للملك في الاحتمال الثاني ، ويصبح كل ما يكسبه بهذه الوسيلة حقا لخزائنه ، زد على هذا انه وإن كان يبدو أن كل شيء يزيد ثروة الجميع ، غير أن الفرد يسعى دوما بتلهف للحصول على المكاسب التي تساعد على توسيع ممتلكاته الخاصة وتزيد ممتلكاته الذاتية أو المنزلية.

ولذلك ، فإن اختلاف المشاعر أدى الى حدوث متبادات خطيرة ، فقد طالبت الأغلبية أن يترك القرار الى السيف وأن يعهد بكل شيء للنهب ، بينما طالب الملك وفريقه بعكس ذلك ، وانتصرت رغبات الملك وفريقه في آخر الأمر ونفذت ارادتهم.

عندما كان الجيش مخيما في القرية المذكورة منذ لحظات والتي تبعد خمسة أو ستة أميال عن القاهرة استمر تيار ثابت من الرسل بالذهاب والاياب بين الجانبين وكان السلطان يرسل وعودا بشكل مستمر بأنه كان يبذل كل جهد لجمع المبلغ الموعود ، وتوسل الملك في هذه الأثناء بعدم التفكير في التأجيل بل الانتظار بصبر ، كما نصحه بعدم الاقتراب الى مسافة قريبة من المدينة خشية من أن يغضب الخليفة والشعب اللذين كانا يعتمدان بأمن تام على معاهدة السلام التي أعدت من قبل ، وسيتم دفع المال بسرعة وسيتمكن الملك من العودة الى موطنه في ظروف مواتية ، واستغل السلطان شاور سذاجة المسيحيين بنجاح وعود كاذبة من هذا القبيل ، وأبطل بذلك النصيحة الجيدة والتحذيرات الحكيمة التي صدرت عن أشخاص آخرين اقترحوا خططا أكثر حكمة ، ثم ظهرت فجأة شائعة أفادت أن النبأ صحيح وأمر بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس ، وزود نفسه هناك بالمؤن اللازمة للزحف وترك قوة من المشاة والفرسان لحماية المدينة وخرج في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول الى الصحراء لمقابلة شيركوه ، لكنه بعدما توغل في داخل الصحراء ، ذكر له كشافة ثقاة ، كانوا يعرفون المنطقة تماما ، أن

شيركوه كان قد عبر نهر النيل بقواته ، فدفع هذا النبأ إلى إجراء تغيير في الخطط ، وبما أن قوة العدو ستتضاعف بهذه التعزيزيات ، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن ، لأن التأجيل كان مشحونا بخطر شديد ، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه تنطوي على مجازفة مماثلة ، ولم يظهر السلطان بعد ذلك أية نية للالتزام بالمعاهدة ، وكنا عاجزين عن إجباره لعمل ذلك ، وكان قد مدد المسألة بسياسة تأجيل بارعة ومدروسة بحذر حتى أصبح الأتراك قريبين وتوجب علينا أن نرحل ، وهكذا ، عادت القوات الى بلبيس حيث انضمت اليها الفرقة التي كانت قد خلفت هنالك لحراسة المدينة ، وعاد الجيش المسيحي وهو على تعبئة الى سورية في الثاني من شهر كانون الثاني (٢٥٠) .

١٠ - استيلاء شيركوه على مصر . شيركوه يقتل السلطان ثم يقتل هو نفسه بعد ذلك بوقت قصير .

شعر شيركوه الآن أن الوقت كان مواتما لينجز هدفه ، حيث لم يكن هنالك أي شيء يعيق رغباته . بعدما رحل الملك ، ولذلك أمر بتنفيذ الخطة التي كان قد وضعها ، وأقام معسكره أمام القاهرة وكان قدومه كان بدون نية عدوانية ، وانتظر بصبر هنالك كرجل واع لعدة أيام ، ولم يبد أية دلالة على مشاعر معادية أو لخطة مأكرة ، وأخفى بذكاء نيته الحقيقية وببراعة كان مشهورا بها ، وكان السلطان شاور يخرج كل يوم بمراقبة حاشية ضخمة لزيارته في معسكره ، وكان يعود الى المدينة بعد تقديمه التحية المخلصة المألوفة ومنح الأعطيات .

بنت الطمأنينة المرافقة لهذه الزيارات المتتالية واعدة بشكل جيد للمستقبل ، وزاد من ثقة السلطان الاستقبال المبجل الذي أضفى عليه لعدة أيام ، إلا أنه اعتمد للأسف - في هذه الطمأنينة

الوهمية - اعتمادا مفرطا على إخلاص الأتراك ، ولذلك باغته على حين غرة شيركوه كمخطط للقتل ، فقد كان قد أصدر أوامرا سرية الى اتباعه أنه يجب عليهم مهاجمة الحاكم المصري وقتله في فجر اليوم التالي عندما يخرج بنفسه وكأنه ذاهب الى الشاطئ في الوقت الذي كان يقوم به السلطان بزيارته اليومية وهكذا انقضت قوى الموت على شاور عندما ذهب الى المعسكر في الموعد العادي ليقوم بزيارته المألوفة ، وليقدم التحية اللائقة ، ونفذت أوامرها وألقته أرضا وطعنته طعنات قاتلة ثم قطعت رأسه.

وشهد أبناؤه الجريمة ، فامتطوا جيادهم على الفور ، وجروا بسرعة عائدين الى القاهرة حيث سجدوا أمام الخليفة وركعوا أمامه متوسلين اليه أن ينقذ حياتهم ، ويقال أنه أجاب أنه بإمكانهم أن يأملوا بالنجاة شرط أن لا يقوموا بإجراء أي اتصال سري مع الأتراك ، غير أنهم خالفوا هذه الشروط مباشرة وذلك بأن أرسلوا بصورة سرية رسلا للتفاوض مع شيركوه حول السلام. فأمر الخليفة بقطع رؤوسهم عندما أبلغ بهذا .

كان الملك قد رحل الآن ، وكان شاور قد أزيل من هذا العالم . فاستولى شيركوه على المملكة فورا بعدما سر تماما بتحقيق رغباته ، وقام بزيارة للخليفة ليقدم له التبجيل اللائق ، فاستقبل بإجلال كبير ومنح لقب سلطان. وهكذا أصبح شيركوه سيدا لمصر بأسرها لأنه كان مقتدرا يعتمد على قوة عسكرية كبيرة.

يا للطمع الأعمى لدى الرجال ، الجريمة الأسوأ من جميع الجرائم ، يا للجنون الشرير للقلب الجشع والنهم ، فقد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات قد دفعتنا من حالة سلمية آمنة الى وضع قلق ومضطرب ، لقد لبست جميع موارد مصر وثرواتها الضخمة حاجاتنا ، وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجانب ولم يكن هنالك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب . وكان البحر ممرا آمنا وسليما

- ٣٢٨٨ -

الى الذين كانوا يرغبون بالقدوم الينا ، وكان بإمكان شعبنا دخول الاراضي المصرية دون خوف والقيام بأعمال الشراء والبيع وفق ظروف مواتية ، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسلعا غريبة الى المملكة لم تكن معروفة حتى الآن بالنسبة لنا ، وكانوا يقدمون لنا منافع كبيرة وشرفا كلما قاموا بزيارتنا ، وعلاوة على ذلك ، فإن المبالغ الطائلة التي أنفقوها كل عام بيننا قد أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشخصية للأفراد ، بيد أنه حدث العكس الآن وتغيرت جميع الأمور الى الأسوأ . « كيف أكره الذهب تغير لا أجد الابريز الجيد » و « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٢٥١) وحيثما التفت لا أجد سوى أسباب الخوف والقلق ، فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقا آمنا ، والعدو يسيطر على جميع المناطق المجاورة ، والممالك الأخرى تستعد لابلانتنا . إن جشع أحد الرجال قد جلب علينا جميع هذه الكوارث ، كما أن فهمه - وهو أصل الشر - قد شوه الصفاء التي كانت السماء قد منحتنا إياه (٢٥٢) ولنكمل الآن قصتنا.

أمسك شيركوه ، بعد المقتل الجائر للسلطان وأبنائه والذي كنا السبب الشرير له بسبب سلوكنا الآثم ، بالسلطة الملكية والتحكم بمصر حسب رغبته ، لكن لم يسمح له بالتمتع لفترة طويلة من الزمن في سلطانه ، لأنه أنزاع من بين مشاكل هذا العالم قبل مضي عام واحد على تسلمه السلطة. (٢٥٣)

١١ - صلاح الدين ابن أخي شيركوه يخلفه وهو الذي يحكم مصر الآن.

خلف شيركوه في الحكم صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين (٢٥٤) وكان الحاكم الجديد رجلا حاد الذكاء نشيطا وشجاعا في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم ، ويروي أنه طرح مولاه أرضا بهراوة كان يحملها بيده وقتله وذلك في بداية حكمه عندما زار الخليفة

ليقدم له الولاء الذي كان مدينا له به ، ثم قتل جميع أبناء الخليفة حتى لا يخضع لاية سلطة عليا ، بل ليتمكن من الحكم كخليفة وسلطان على حد سواء ، فقد كان المصريون ينظرون بكرهية الى الأتراك ، وخاف صلاح الدين من أن مولاه الخليفة قد يأمر بقتله في يوم ما عندما تسنح له الفرصة للمثول امامه ، وهكذا ، اتخذ وسائل لاحباط أية نية كهذه ، وألحق بالخليفة المطمئن المصير الذي ، إن صحت الرواية ، كان يحضره لينزله به كسلطان (٢٥٥) .

استولى صلاح الدين لدى مقتل الخليفة على ثروته وعلى جميع كنوزه الملكية وحازها لنفسه ، وذلك بالاضافة الى كل شيء له قيمته كان موجودا في القصر ، وتصرف بجميع الاشياء حسب هواه ، وأغدق الأموال على جنوده خاصة بسخاء كبير لا بل بسرف لدرجة أن الخزائن فرغت في غضون بضعة أيام ، واضطر لأن يستقرض المال من الآخرين ، وهكذا ، جلب على نفسه عبئا كبيرا من الدين.

ويروي أن بعض الموالين للخليفة المقتول أنقذوا سرا بعض أبنائه بهدف أنه إذا ما استعاد المصريون في وقت قادم السيطرة على الحكومة ، لن يعدموا وريثا لاسمه ومنصبه وسلالته.

١٢ - تعيين برنارد ، راعي دير جبل الطور رئيسا لكنيسة اللد . رحيل فريدريك ، رئيس أساقفة صور الى الغرب ، لطلب المساعدة من الأمراء هناك.

لم يحدث بعد عودة الملك الى المملكة أي شيء جدير بالملاحظة خلال القسم الأول من ذلك العام ، باستثناء وفاة رينوروس أسقف اللد ، الطبيب الذكري ، وتنصيب برنارد رئيس دير جبل الطور في مكانه.

بدأ الرجال الحكماء في المملكة يلاحظون في الربيع اللاحق ، الذي كان بداية العام السادس لفترة حكم الملك عموري (٢٥٦) أن اخضاع الأتراك لمصر شكل خطرا كبيرا وحمل أذى شديدا بالنسبة لنا ، وأن وضعنا قد ازداد سوءا من الناحية المادية . وكان بإمكان نور الدين ، أكثر أعدائنا قوة ، أن يحاصر المملكة بالابحار خروجا من مصر بأسطوله الضخم ، وأن يحاصر جميع المدن الساحلية بجيشه برا وبحرا ، وكان الشيء الذي يخشى منه أيضا هو حقيقة أنه كان بإمكانه إعاقة طريق الحجاج القادمين إلينا ، أو حتى أن يرفض السماح لهم بالمرور على الإطلاق ، ولذلك ارتؤي أن من الملح إرسال سفارة مختارة من أصحاب المقامات السامية في الكنيسة إلى أمراء الغرب لتعرض بالعناية المثلى المحنة المفرطة التي كانت المملكة تترجح تحتها ، مع مآسي الشعب المسيحي والكوارث الرهيبة التي كانت تهدد الرهبان ، واختير لتولي القيام بهذه المهمة وبالإجماع كل من البطريرك وهيرودسيوس رئيس أساقفة قيسارية ووليم أسقف عكا وكانا رجالا مبجلين وموهوبين بحكمة وفصاحة مقنعة ، وهكذا أبحروا وحملوا معهم رسائل من الملك وجميع الأساقفة إلى فريديريك امبراطور الرومان ، ولويس ملك الفرنجة ، وهنري ملك الانكليز ووليم ملك صقلية ، وأيضا إلى النبلاء المشهورين الكونتات : فيليب أوف فلاندرز وهنري أوف ترويز وثيوبولد الثاني أوف تشارترز ، لا بل بالفعل إلى جميع النبلاء العظماء الآخرين في الغرب إلا أن عاصفة عنيفة هبت فجأة في الليل بعد رحيلهم فقنفت السفينه هنا وهناك وكسرت المجازيف وحطمت السواري ، وعاد المبعوثون بعد ثلاثة ايام مذعوزين جدا ، وكانوا قد نجوا بصعوبة من الفرق . ولذلك ، اختير وفد آخر وأرسل بدلا عن الوفد الاول ، وكان يتألف من فريديريك رئيس اساقفة صور الذي تم اقناعه أخيرا بقبول المهمة بوساطة التوسلات الملحة للملك والنبلاء ، ويوحنا اسقف بانياس ، وهو اسقف مساعد لتلك الكنيسة ذاتها ، وبدأ الاثنان رحلتهم في ظل بشائر أكثر يمينا ، ووصلا إلى مقصدهما بعد رحلة ميمونة بيد انهما لم يحققا سوى القليل في المسألة التي اوكلت اليهم ، فقد توفي

الاسقف في باريس بعد وصوله الى فرنسا مباشرة وعاد رئيس الاساقفة بعد إقامة مدة عامين في الخارج دون أن ينجح في مهمته.

١٣ - الامبراطور المتلف لتنفيد المعاهدة يرسل أسطولا الى سورية بقيادة بعض نبلائه.

انقضى ذلك الصيف دون وقوع أي حدث يستحق التدوين ، وفي بداية الخريف اللاحق أرسل الامبراطور - المهتم كثيرا باتفاقيته - الاسطول الذي وعد به ، وذلك لتنفيذ للمعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك تنفيذًا لاقتراحنا ورغبتنا ، ويجب الثناء كثيرا على الامبراطور و كان في هذه القوة البحرية مئة وخمسون سفينة حربية مجهزة بالمناكير ويصفوف مزدوجة من المجازيف . وتعرف هذه السفن باسم شواني ، وكانت مصممة للاستخدام خصيصا في الحرب ، وكان يوجد إضافة الى ذلك ستون مركبا ضخما جيدة التسليح كانت قد صنعت لنقل الخيول بفتحات كبيرة في مؤخراتها لتصبح أكثر مواءمة في تحميل الحيوانات وتفريغها ، وكان فيها جسور يستطيع بوساطتها الرجال والخيول الصعود والنزول من السفينة بسهولة ، وكان الاسطول يشتمل أيضا على عشرة أو عشرين سفينة ذات حجم ضخم تسمى درومونس تم تحميلها حتى التخمّة بمؤن المواد الغذائية من كل نوع ، كما تم تحميلها أيضا بالأسلحة من كل صنف بالإضافة الى آلات الحرب ومعداته.

وعين الامبراطور واحدا من نبلائه وأقربائه يدعى ميغال دوكاس (٢٥٧) قائدا للأسطول بأكمله وكان بمرافقته نبيل آخر يدعى موريس وكان يحتل مكانا ساميا ومحط ثقة مولاه الامبراطور ، وكان الامبراطور يعتمد كثيرا على خبرة هذا الرجل ، ووضح هذا بشكل جلي عندما عين موريس مسؤولا عن جميع شؤون الامبراطورية ، وانضم الكونت الكسندر أوف كونفير سانا الى هاتين الشخصيتين في القيادة ، وكان نبيلًا من أبوليا ، وكان

- ٣٢٩٢ -

الامبراطور يخصصه بعاطفة صافية بسبب الاخلاص العميق والصداق الذي أظهره الكونت نحوه.

سلمت قيادة الجيش الامبراطوري الى هؤلاء النبلاء الثلاثة عندما بعث الجيش الى منطقتنا في الشرق ، وفي حوالي نهاية شهر ايلول دخل الاسطول ميناء صور بعد رحلة ميمونة ، وتقدم من هناك الى عكا وألقى مراسيه في مكان هادئ واقع بين النهر والميناء.

١٤ - الملك يتوجه مع جيشه الى مصر . الاغريق يرافقونه بقوات برية وبحرية.

أمر الملك الجيش بأكمله من اللاتين والاغريق بالتجمع في الخامس عشر من شهر تشرين الأول في مدينة عسقلان وذلك بعدما رتب أمور المملكة وترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال غيابه من خطط نور الدين ومطامعه لأنه كان ما يزال يحوم في المنطقة المجاورة لدمشق ، وذلك في العام ١١٦٩ لتجسيد الرب الذي كان العام الثامن والستين لتحرير المدينة والعام السادس من فترة حكم الملك عموري (٢٥٨) وكان الاسطول قد أبحر قبل عدة أيام من ميناء عكا متوجها يريد الأراضي المصرية.

انطلق الجيش في السادس عشر من شهر آب ، (٢٥٩) وتقدمت القوات بزحف بطيء في سبيل عدم انهك قوات المشاة أكثر من اللازم ، واستخدمت أماكن كثيرة للتوقف حيث كان الماء متوفرا فيها ، وفي اليوم التاسع وصلت القوات الى مدينة الفرما القديمة وكانت ترغب بسلوك الطريق الساحلي ، إلا أن حدثا وقع مؤخرا جعل من الضروري اتباع الطريق الداخلي الأطول ، لأن بعض السدود الواقعة بين السهل والبحر المجاور كانت قد تخربت بسبب ضرب الأمواج المستمرة وشقت المياه ممرا لها بالقوة عبر السدود

المقابلة ، وبما أن الماء قد تدفق الآن بحرية فقد غمر الطريق المؤدي الى السهل الواقع وراءه ، فشكلت المياه المتجمعه بركة ضيقة في أول الأمر ولكنها ما لبثت أن توسعت كثيرا فغمرت السهل بأكمله ، وجلب تدفق البحر هذا معه كمية كبيرة من السمك ، بحيث تم منذ ذلك الحين فصاعدا توفير زاد من ذلك النوع من الطعام بوفرة لم يكن يحلم بها من قبل ابدا ، ليس فقط للمدن الواقعة في تلك المنطقة المجاورة ، بل أيضا للمدن الأكثر بعدا ، وبما أن البحر غمر المنطقة الواقعة على طول الساحل ، فإن المسافرين الذين عزموا على الذهاب الى مصر بواسطة الطريق الساحلي أجبروا على السير عبر تحويلة طولها عشرة أميال أو أكثر حول هذه البركة وذلك قبل أن يتمكنوا من العودة الى الطريق.

لقد قدمت هذ التفاصيل بسبب جدة هذا الحدث المدهش ، وأيضا لأن هذه المنطقة الصحراوية التي كانت معرضة لحرارة الشمس الشديدة فيما مضى ، قد غمرت الآن بالماء نتيجة التدفق المستمر للبحر ، وتردد الآن اليها اصحاب الزوارق ، فامتلات هذه المنطقة ، التي أصبحت خصبة جدا بشباك صيادي الأسماك وأعطت غلالا لم تكن معروفة حتى الآن.

إن مدينة الفرما ، المشار اليها آنفا ، خالية من السكان الآن ، لكنها كانت فيما مضى مقرا لعدد كبير من السكان ، وتقع على الحد الصحراوي بالقرب من الدلتا وهي اللسان البحري الأول للنيل في موقع يصب فيه ذلك الفرع من النهر في البحر . ولذلك فهي تقع بين النهر والبحر والصحراء . ومع ذلك ، فهي تبعد ثلاثة أميال عن مصب النيل.

وجد جيشنا عندما وصل الى الفرما أن الأسطول كان قد سبقه اليها ، وتم على الفور تأمين المجذفين اللازمين ، وهكذا جاز الجيش بأكمله الى الضفة المقابلة ، ثم تقدم الجيش بعد أن ترك

قنيس على يساره - وهي التي كانت سابقا مدينة مهيبة ، وليست الآن سوى بلدة صغيرة - مسافة عشرين ميلا تقريبا على طول طريق واقع بين أحد المستنقعات والشاطئ وأخيرا وصل الى دمياط بعد مسيرة يومين .

١٥ - الملك يحاصر دمياط . جيشا اللاتينيين والأغريق يجهدان أنفسهما في حصار تلك المدينة دون نتيجة .

تعتبر دمياط من أقدم المدن المصرية وأشهرها ، وتقع على ضفة النيل على مسافة قريبة منا ، وفي الموقع الذي يندفع فيه النهر إلى البحر بواسطة مصبه الثاني ، وهي واقعة على نحو موائم بين النهر والبحر الذي تبعد عنه نحو ميل واحد ، ووصل جيشنا إلى دمياط في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول ، وعسكر بين المدينة والبحر منتظرا وصول الأسطول الذي عاقت تقدمه الأمواج العاتية والرياح العاكسة ، وبدأت الأمواج المضطربة بعد ثلاثة أيام ، واستغل الأسطول رياحا مواتية ودخل النهر وألقى مراسيه في ميناء هادئ على طول الساحل في منتصف المسافة بين المدينة والبحر .

ووقف برج مرتفع على الضفة المقابلة ، وكان محميا بشكل جيد بمجموعة من الرجال المسلحين الذين كان عددهم كافيا لتقديم الحماية التامة له ، وامت سلسلة حديدية من هذا البرج إلى المدينة منعت تماما العبور إلى القسم العلوي من النهر ، وبرهنت بأنها عائق كبير لقواتنا ، إلا أنه كان بإمكان جميع السفن القادمة من الأعلى من القاهرة وبابلليون العبور إليهم بحرية وبنون عائق .

انتقلت القوات ، بعدما كان الأسطول قد وضع في موقع موائم ، عبر البساتين التي انتشرت بين موقع مخيمها والمدينة نفسها ، ونصبت خيمها بالقرب من دمياط تماما . حيث كان الطريق إلى

الأسوار طليقا ، لكنها أرجأت شن الهجوم حتى تكون قد انقضت ثلاثة أيام ، ولهذا تعلمت بالتجربة صحة القول : « من الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزا » (٢٦٠) لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لا يحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين ، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك بإحباط ودون أن يستطيع فعل شيء ، وذلك بينما امتلات المدينة حتى التخمة بعدما كانت عمليا فارغة في وقت سابق ، واتضح للمسيحيين على الفور أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على دمياط دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق ، مع أنها بدت لدى وصولهم إليها أنها لن تتمكن أبدا من الصمود أمام الهجوم الأول .

وبناء عليه جرى اختيار الحرفيين وتأمين المواد المناسبة ، ثم شيد برج شامخ مؤلف من سبعة أنوار - على حساب الكثير من الانفاق والعمل - يمكن من قمته مراقبة المدينة بأسرها ، وشيدت آلات أخرى من مختلف الأنواع ، وقد صمم بعضها لقذف الصخور الضخمة لتدمير الأسوار ، وأخرى لحماية المغمين الذين كان بإمكانهم الاقتراب من التحصينات بالجلوس بداخلها وكأنهم داخل كهوف مخفية ، ومن ثم حفر أنفاق سرية تحت الأسوار مما سبب انهيارها بعد حرمانها من أساسات الاستناد .

وكانت الطرق المؤدية إلى المدينة قد مهدت في هذه الأثناء بطريقة جيدة ، بحيث يمكن لصق الآلات الحربية ، التي شيدت الآن بالأسوار ، وواصل المقاتلون الموجودون في البرج المتحرك الضغط باستمرار على المحاصرين ، وقذفوا بلا انقطاع وابلا من السهام والقذائف الحجرية بالإضافة إلى أسلحة أخرى بقدر ما سمحت لهم ضراوتهم والرقعة المحددة ، وفي الوقت نفسه أطلق الرجال الموضوعون في آلات القذف وابلا من الصخور الضخمة ، وبذلوا جهودا حماسية لتدمير الأسوار والمنازل الملصقة بها .

وحاول سكان المدينة أن يواجهوا الخدعة بالخدعة لدى رؤيتهم

لهذه المحاولات ، ولكي يقاوموا جهودنا ببراعة مماثلة ، شيّدوا برجاً عالياً مقابل برجنا وزودوه بجنود مسلّحين توجب عليهم أن يقاوموا جهودنا من داخل آلة حربية مشابهاة ، وأن يردوا على هجماتنا بهجمات أخرى ذات ضراوة مماثلة ، وهكذا وضعوا الاتهام الحربية مقابل آلاتنا وبذلوا جميع الجهود لتدميرها ، كما أن الحاجة للدفاع عن أنفسهم طورت الخبرة لديهم ، وأمدتهم الضرورة بالقوة ، واخترع الذين كانوا قد شعروا حتى هذا الوقت بأنهم غير أكفاء للمقاومة ، والذين حثّتهم الحاجة ، اخترعوا خططا لم يفكر بها أحد حتى الآن ، وأصبحت أذهان حتى الأشخاص الأكثر غباءً نشيطة في استنباط وسائل لضمان سلامتهم ، وتعلموا بتجربة أليمة صحة القول : « المحنة تطور الدهاء » (٣٦١) .

وبدأ المسيحيون يظهرون علامات الجبن واللامبالاة في الوقت الذي كان يتوجب عليهم أن يشددوا الحصار بضراوة أكثر من ذي قبل ، ونسب تغير المعنويات هذا إلى الخيانة ، ونسبه آخرون إلى مجرد إهمال واستخفاف ، واتضح على الفور أن جنودنا كانوا يبدوون براعة وحصافة أقل من المعتاد ، أو مهما يكن من أمر فقد كان الذين يستلمون زمام القيادة يتصرفون بنية خائنة فقد أمروا بالصاق أحد الأبراج ، التي شيّدت مؤخراً ، بالأسوار في موقع منحصر ولايرام تقريبا ، فقد كان هنالك في ذلك القسم نفسه من المدينة مواقع كثيرة كان السور فيها أكثر انخفاضا وأقل قوة حيث كان من الأسهل كثيرا الاستيلاء عليه ، ومع ذلك وضع البرج المتحرك في الموقع الأقوى والأفضل تحصينا في مكان لم يقدم سوى الكثير من الصعوبات أكثر مما قدمه أي موقع آخر لوضع الآلات الحربية فيه ، وعلاوة على ذلك ، كان الضرر من ذلك الموقع لن يوجه إلى سكان المدينة أو إلى مبانيهم ، بل إلى كنيسة أم الرب المقدسة فقط ، التي كانت تقع بالقرب من الأسوار .

لا يمكن أن يكون هنالك أي شك أن التأجيل في مهاجمة مدينة دمياط فور وصولنا قد نشأ عن نية شريرة ، فقد كانت المدينة في ذلك

الوقت مهجورة تقريبا ، ولم يكن يشغلها سوى سكانها الذين كانوا أناسا ضعفاء ومسلمين وجاهلين تماما بفن الحرب . ولو هاجم المسيحيون المدينة بشجاعة على الفور ، كما كان ينبغي عليهم أن يفعلوا لثم الاستيلاء عليها في الهجوم الاول ، لكن المحاصرين منحوا فترة راحة ، فازداد عددهم كثيرا خلال ذلك الوقت بتعزيزات من المقاتلين الشجعان والأشاوس . وكانت النتيجة أنهم استطاعوا أن يقاوموا هجماتنا ليس فقط ضمن المدينة نفسها ، بل حتى في ميدان القتال خارجها .

١٦ - انتشار مجاعة في المعسكر . أسطولنا ينجو بصعوبة من الدمار والنار . رفع الحصار بعد التأكد من أن جميع جهودنا كانت عقيمة .

في هذه المرحلة الحاسمة أضيفت محنة أخرى إلى متاعب المسيحيين ، فقد بدأ الاغريق الآن ، الذين كانوا قد أتوا بأعداد كبيرة في ذلك الأسطول ، يعانون من نقص في المؤن ، فقد كان زادهم من الخبز قد نفذ تماما ولم يبق لديهم بالفعل أي نوع من الطعام ، وحدث أن أكلة من أشجار النخيل ، كانت موجودة بالقرب من المعسكر ، كانت قد قطعت لتستخدم في طرق مختلفة ، وعندما سقطت الأشجار بحث الاغريق الجائعون عن لقمة طرية نامية في القمة حيث تنبع الأغصان فتزودهم بالنسغ ، وبما أنها كانت مادة تؤكل ، فقد زودتهم بنوع من الطعام خفف - وإن كان ضئيلا بقيمته الغذائية - من لسعات الجوع ، وجعلت حالة الجوع هذه هؤلاء الناس ماهرين في البحث عن الطعام ، وطلورت متطلبات المعدة الشديدة الجوع براعتهم لتزويدها باحتياجاتها ، ولقد تدبروا أمورهم لبضعة أيام بائسة وعاشوا على هذا الطعام وسد آخرون من بينهم وأشخاص لم يكونوا معوزين تماما ، متطلبات الجوع بالشوفان والزبيب والكستناء ، كان لدى المسيحيين زاد كاف من الخبز والمؤن الأخرى المتعددة الأنواع ، وكانوا يوفرون مخزونهم

القليل لأنهم كانوا منتبهين للمستقبل ، لأنهم لو كانوا مسرفين بما يكفي لمشاركة المؤن مع الذين لم يكن لديهم شيء منها ، لكان هناك خطر من أنهم أنفسهم قد يقعون في فاقة يوما ما ، وعلاوة على ذلك فإنهم لم يكونوا واثقين من طول فترة الإقامة التي سوف يمضونها أمام دمياط ، وتوقعوا أنها طويلة الأمد .

هطلت كمية كبيرة من الأمطار في هذا الوقت ، وكانت الأعاصير عنيفة جدا لدرجة أن الناس الأكثر فقرا لم يتمكنوا من منع الماء من التساقط خلال خيامهم بأية وسيلة ، ولم تكن حال الأغنياء أفضل من حال الفقراء ، فقد تبللت سرايقهم بالمطر الغزير ، أو بالحري الأمطار المنهمرة من السماء . ولم يتمكنوا من الحصول حتى على وقاء بسيط إلا بحفر خنادق حول الخيام لابعاد فيضانات الماء .

حلت بهم الآن كارثة خطيرة أخرى ، فقد كانت الشواني والسفن الأخرى التي تم جلبها من البحر إلى النهر ، ووضعت بالقرب من المدينة في موقع كان آمنا تماما بشكل واضح ، بيد أن سكان المدينة ، اندفعوا بعدما أدركوا أن الريح كانت تهب من الجنوب ، وأن أمواج النيل تندفع بعنف كبير ، فانتهزوا الفرصة لتنفيذ خطة كانوا قد فكروا بها من قبل ، فقد أخذوا قاربا من الحجم العادي وملأوه حتى التخمة بخشب جاف وقطران وجميع المواد القابلة للاشتعال والتي تؤجج النيران ، وأشعلوا النار فيه ، ثم قذفوه في النهر فتناقلته الأمواج بإرادتها نحو أسطولنا ، وانتقل اللهب بسرعة إلى الوقود الذي كان محملا في القارب بعدما دفعته ريح جنوبية ، فأبحر المركب المحترق نحو الأسطول ، وتوقف بين سفننا المجمععة بإحكام وبقي هناك بشكل ثابت ، فنقلت الحمولة الملتهبة بهذه الطريقة إلى سفننا واحترقت ست سفن متقاربة من نوع الشواني احتراقا تاما ، ولو لم يكن الملك يقظا لكان الأسطول بأكمله قد حوصر بلهب السنة النيران التي ازداد عنفها ، فقد اكتشف الملك الحريق ، فامتطى جواده بسرعة دون أن ينتظر حتى لانتعال حذائه ، وأيقظ البحارة وطلب

- ٣٢٩٩ -

منهم بصيحات مذعورة وإشارات أن يخدموا السنة النيران ، فنجحوا في تنفيذ هذا بفصل السفن عن بعضها بعضا ، وهكذا تمت السيطرة على السنة النيران المنتشرة في كل مكان ، وأنقذت على الفور كل سفينة حدث أن اشتعلت فيها النيران بسبب الشر المتطاير من المواد المشتعلة الأخرى التي نقلتها الرياح ، وذلك باستخدام ماء النهر الذي كان لحسن الحظ قريبا جدا .

شنت الهجمات على المدينة على فترات لعدة أيام ، وكان النصر تارة حليفا للمسيحيين وتارة أخرى حليفا للكفرة كما يحدث عادة عندما تكون نتيجة المعركة مبهمة ، وعلى العموم كان المسيحيون هم الذين يتحدثون أعداءهم للنزال ونادرا ماقاتل المسلمون ما لم يثاروا ، هذا وحدث أن انطلق المحاصرون عندما كانوا يشعرون بالثقة أحيانا من باب خلفي مقابل معسكر الاغريق وشنوا هجمات مفاجئة على ذلك القسم من الجيش ، ومن المحتمل أنهم سمعوا أن القوات الاغريقية كانت أقل قوة من قواتنا ، وربما وصلتهم أنباء الشائعات التي تحدثت أنهم كانوا واقعين في محنة مريعة بسبب الجوع ، ولذلك كانوا أقل قدرة على صد الهجوم ، ومع ذلك حارب ميغال بوكاس وبقية الاغريق - على الرغم من هذا العائق - بشجاعة وبسالة وبنظام قتالي . كما أن ذوي المراتب الأدنى تشجعوا بالمثل الذي ضربه أسيادهم فهاجموا الأعداء مرارا وتكرارا بقوة فريدة وصمدوا بجرأة .

هذا وازدادت قوة المحاصرين باستمرار بواسطة فرق كبيرة كانت تصل إليهم دائما عن طريق البر والبحر . ونتيجة لهذا أصبح سكان المدينة يشكلون مصدرا لذعر كبير لأعدائهم أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم وذلك على الرغم من أنهم كانوا مقيدين ضمن مدينة كانت واقعة تحت الحصار بدأ التدمير ينتشر بين الناس ، وبنات جميع الناس يشعرون أن جهونا قد تبددت وصار الراي العام مجمعا على أن الحملة قسدا

نفذت ضد ارادة الرب ، ولذلك فقد أشاح بوجهه عنا بغضب ، وأنه من الأفضل بكثير أن نعود الى الوطن بدلا من أن نتعرض للانهاك في مصر بسبب المجاعة ، أو أن نهلك بسيوف الكفرة ، وهكذا عقدت اتفاقية بشروط سرية بفضل الجهود المشتركة لبعض قاداتنا وبعض الحكام الأتراك ، وبشكل ملحوظ بفضل الدور الفعال لزعيم اسمه جيفيليو . ووافق الاغريق على التسوية نفسها وأعلن السلام على الفور بصوت المنادي (٢٦٢)

١٧- الغاء الحملة وعودة الملك الى أراضيه . دمار جميع الأسطول الاغريقي تقريبا في رحلة العودة الى الوطن بسبب رياح معاكسة .

ثم خرج سكان المدينة وحلفاؤهم الذين قدموا لمساعدتهم لزيارة معسكرنا بحرية ، كما سمح لعدد من جنودنا ، كانوا يرغبون بشيء مشابه ، بالمرور ذهابا وإيابا بين المدينة والمعسكر دون عائق ، واستطاع الطرفان في آخر الأمر أن يتاجرا بحرية مع بعضهم بعضا ، حيث سمح للجميع بالشراء والبيع والمقايضة كما يشاؤون ، وهكذا ، استخدم المسيحيون السوق بالاشتراك مع الكفرة لمدة ثلاثة أيام ، وأعدوا جميع تحضيراتهم للزحف ، ثم خربوا الآلات الحربية وأحرقوها ، وقام الجيش البري بعد ذلك بالسير وراء الملك عائدا الى سورية ، وقد ساروا مسرعين وبنون توقف على الطريق الذي كانوا قد أتوا منها ووصلوا في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول الى عسقلان ، وخف الملك الى عكا بسبب اقتراب يوم العيد ووصلها عشية يوم ميلاد الرب .

هذا وأبحر الذين كانوا قد أتوا بالسفن وسط نذر مشؤومة وحظ تعيس ، فما أن شرعوا ، بالرحلة حتى هبت فجأة عاصفة

شديدة ، وعانوا من مخاطر البحر التي لا يمكن تجنبها لأن الأمواج حطمت السفن وألقته إلى الشاطئ ، وغرق الجميع تقريبا ، ولم يبق سليما من الأسطول الضخم الذي كان قد أتى إلينا سوى بضع سفن كان بعضها كبير الحجم وبعضها الآخر كان صغيرا وتمكنت من العودة بدافع من قوتها .

ومع أن مبعوثي الامبراطور كانوا قد أبدوا الاجتهاد الكلي الممكن في الجهود التي بذلوها لانجاز المهمة الموكولة اليهم ، فإنهم اضطروا للعودة مخفقين ويشعرون بالأسى في قلوبهم ، بعدما روعتهم شدة القدر . لأنهم خافوا من أن يحملهم جلالته الامبراطورية - بشكل يفوق استحقاقهم - مسؤولية النتيجة المشؤومة للحملة ، فقد كان من المحتمل أن يعزو هذه النتيجة بشكل جائر إلى إهمالهم ، أو سوء إدارتهم على الرغم من أن هذه النتيجة بأكملها كانت بسبب قدر محتوم .

أتذكر أنني أجريت بعد عودتي تحقيقا دقيقا وجادا حول الملك وحول بعض الرجال المهمين في المملكة وعن سبب أن حملة ضخمة جدا كهذه كانت تحت قيادة أمراء بارزين للغاية ، قد انتهت بشكل مشؤوم جدا ، وكان اهتمامي في ذلك العام قد تركز حول أمور خاصة ، حيث كنت قد ذهبت إلى روما لتجنب العداوة الجائرة لرئيس الأساقفة الذي كنت تابعا له (٢٦٢) وحاولت لدى عودتي أن أبحث في الجوهر الحقيقي للقضية ، وسعيت إلى كشف الحقيقة الفعلية بالاستماع إلى روايات شديدة الاختلاف ، لأن نتائج الحملة كانت مختلفة تماما عما كنا قد رجونا ، واستخدمت حذرا كبيرا في هذه المسألة لأنني كنت قد درست فكرة تدوين تاريخ لهذه الأحداث وقد وجدت أن الاغريق غير معفين من اللوم ، فقد كان الامبراطور قد وعد بإخلاص في أن يرسل مبلغا كافيا من المال لدعم الجيش الضخم ، إلا أن وعوده أثبتت أنها غير جديرة بالثقة في ذلك الخصوص ، وقد بدأ قناته يعانون من وطأة الحاجة من اللحظة التي ذهبوا فيها إلى مصر ، وفي الوقت الذي كان عليهم أن يكونوا قادرين

- ٣٣٠٢ -

على تأمين حاجات الآخرين من المخزون الامبراطوري الكبير توجب عليهم أن يبحثوا عن المال لتوفير الطعام والمدفوعات أيضا حتى لفيالقهم ، ولم يعطهم ذلك أي انسان .

١٨- زلزال كبير يهـز عمليا جميع بلاد الشرق . المدن القديمة يلحق بها الدمار .

ضرب زلزال مخيف وكبير الشرق ، وكان أكثر عنفا من أي زلزال آخر محفوظ ضمن ذاكرة الرجال الموجودين الآن على قيد الحياة وذلك في شهر حزيران (٢٦٤) من الصيف التالي ، اي في العام السابع من فترة حكم الملك عموري ، وقد دمر هذا الزلزال مدنا محصنة تحصينا قويا ومشيدة من ازمان قديمة جدا ، وسحق السكان الذين احتجزوا داخل منازلهم المهدمة ، ولم يبق على قيد الحياة سوى القلة القليلة من الناس ، ولم تنج اي بقعة ضمن المنطقة بأسرها دون أن تصاب بخسارة في الممتلكات أو بكارثة عائلية ، فقد امتلاك مكان بدلائل الحزن وبجنازات الموتى ، كما دمرت المدن الكبرى في اقاليمنا واقاليم سورية وفينيقية أيضا وكانت مدنا مشهورة طوال عصور بقدمها المهيبة . فقد سحقت في سورية المجوفة مدينة أنطاكية عن بكرة أبيها وهي التي كانت عاصمة لاقاليم عديدة والتي كانت فيما مضى رئيسة لممالك كثيرة ، وأبيد سكانها عن بكرة أبيهم ، ودمرت الاسوار الضخمة والأبراج العملاقة والشديدة القوة المبنية على طول محيطها ، وهدمت كنائس ومبان من كل نوع بعنف كبير لدرجة أنها لم ترمم حتى الآن الا بشكل جزئي على الرغم من إيقاف جهد كبير ونفقة واسعة لترميمها ، وكان بين المدن الأخرى التي دمرت في ذلك الاقليم كل من جبلة واللاذقية وهما مدينتان مشهورتان واقعتان على الساحل ، وكان من بين المدن الداخلية البعيدة التي دمرت والتي كان العدو ما يزال محتفظا بها كل من بيروت المعروفة أيضا باسم حلب ، وشيزر وحماة وحمص ومدن أخرى ، كما أن عدد القلاع المدمرة كان يفوق الاحصاء .

- ٣٣٠٣ -

أصيبت مدينة طرابلس العظيمة والمزدهمة بالسكان والواقعة في فينيقية فجأة في التاسع والعشرين من حزيران في حوالي الساعة الأولى من اليوم بهزة أرضية كانت عنيفة لدرجة أنه نادرا ما نجا منها انسان ممن كان موجودا ضمن أسوارها ، وتحولت المدينة بأسرها الى أكوام من الحجارة ، وأصبحت مقبرة لابل قبيرا مشتركا للسكان الذين هلكوا فيها ، وكانت الهزة الأرضية عنيفة جدا في مدينة صور المدينة الأكثر شهرة في هذا الاقليم ، حيث دمرت عدة أبراج ضخمة غير أنه لم تقع أية خسائر بشرية هنا ، وعثر في مناطقنا ومناطق العدو على قلاع نصف مدمرة ومفتوحة على جميع الجهات و عرضة بكل حرية لعنف و خداع الخصم ، ولم يجرؤ أحد على التحرش بزميله الانسان لأن الجميع خافوا من أن ينزل بهم غضب الحاكم الجبار كل على حدة ، ولانشغال كل واحد منهم بمشاكله الخاصة ولأنه كان مرهقا بحمل أعباء أموره الخاصة ، ولهذا السبب لم يفكر أحد في إيذاء جاره .

وحل السلام ، الذي أحدثته رغبة الجميع ، وإن كان لفترة قصيرة من الزمن ، وأعدت هدنة بسبب الخوف من الغضب الالهي ، وكف الجميع عن القيام بأعمال العدوان وقمعوا بواعثهم الشريرة ، بينما كان كل منهم يتوقع كل لحظة انصباب غضب عادل من السماء عقابا على آثامهم .

لم يكن هذا الاظهار لسخط الله شيئا سريعا الانقضاء كما كان يحدث دائما ، فقد ظل الناس يشعرون ليل نهار بذلك الزلزال المخيف لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر بالفعل لابل حتى لفترة أطول من ذلك بثلاث مرات أو أربع أو أكثر ، وكانت كل هزة مصدرا للرعب الآن ، ولم يعثر على أي مكان آمن للراحة ، وحتى أثناء النوم دفع الشعور الخفي المزعور بصورة ذلك الشيء الذي أخافه أثناء اليقظة الى الوثوب قافزا نحو الشعور الواقعي من جديد (٢٦٥).

- ٣٣٠٤ -

وتجنبنا الأجزاء العليا من إقليمنا - أي من فلسطين - هذه الكوارث بفضل العناية الرحيمة لله الواقية .

١٩- صلاح الدين يغزو أراضينا ويحاصر قلعة الداروم .

في شهر كانون الأول من هذا العام نفسه ، أي العام السابع لفتره حكم عموري (٢٦٦) انتشرت شائعة كبيرة بين الناس أفادت أن صلاح الدين كان على وشك القيام بغزو بلادنا ، وذكر اعتمادا على مصادر كثيرة أنه كان قد حشد قوات من جميع أنحاء مصر ومن أراضى دمشق أيضا ، وأنه زاد أعداد أتباعه كثيرا بتجنيد جنود من « الطبقتين » الوسطى والدنيا ، وأنه كان يخطط للزحف نحو فلسطين ليدمر المنطقة ، فذهب الملك حاملا بلغه هذا النبأ الى منطقة عسقلان ، وعلم هنالك بشكل قاطع من معلومات موثوقة تلقاها من شعبه أن هذا الأمير القوي والعظيم كان يحاصر قلعة الداروم منذ يومين مضيا بجيش ضخم أقوى من ذي قبل . وأنه لم يمنح في تلك الاثناء أية راحة للمحاصرين ، وكان قد ألحق بهم أضرارا كبيرة ، فقد كان جنده قد أمطروا وابلا من السهام بشكل مستمر على الموجودين في داخل القلعة الى درجة أصيب فيها الجميع بجراح ، ولم يعد هنالك سوى عدد قليل قادر على حمل السلاح للدفاع عن القلعة ، وكان السور قد تقوض وفتح بالقوة ، وبات صلاح الدين مستوليا على جزء من الموقع ، وقد لجأ سكان المدينة بحكم الضرورة الى القلعة التي بدت بأنها الجزء الأقوى تحصينا ، وكان العدو قد شق طريقه الى القسم السفلي من أحد الأبراج وأحرق المدخل ، غير أن المحاصرين كانوا مايزالون يدافعون عن الجزء العلوي . لقد كان هذا هو النبأ الذي حمل الى الملك وثبت أنه كان صحيحا .

وكان النبيل أنسلم دي باس قائد قلعة الداروم والمدافع عنها

رجلا ورعا ويخاف الرب ومقاتلا شجاعا ، ولو حدث وكان بعيدا . في اليوم الذي وقع فيه الهجوم ، لسقط بلا ريب في أيدي الاعداء .

ملأ نبأ هذا الوضع الخطير قلب الملك بالحزن والغضب ، فجمع على الفور قوات المشاة والفرسان من سائر الأنحاء بقدر ما سمح المجال الزمني القصير وقرب العدو ، وغادر عسقلان في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر نفسه وأسرع نحو غزة ، ورافقه السيد البطريك الذي حمل صليب الصليبوت النفيس المانح للحياة ، ورافقه أيضا رجلان مبدجلان هما رالف أسقف بيت لحم ، المستشار الملكي ، وبرنارد ، أسقف اللد ، كما صاحبه عدد آخر ضئيل من نبلاء المملكة ، ولدى احصاء القوات وجد أنها كانت تتألف من مئتين وخمسين فارسا ونحو ألف جندي من المشاة .

أمضت القوات ليلة أرقة في غزة ، وهي تجر الساعات المملة منهكة بعبء القلق العميق ، وانطلقت من غزة مع شروق الشمس في الصباح التالي ، وانضم فرسان الداوية الذين كانوا قد أتوا الى هنا لحماية الموقع ، بقواتهم اليها ، وتقدم الجميع معا نحو قلعة الداروم .

أعتقد أن هذه القلعة كانت واقعة في أنوميا ، أي أبوم ، فيما وراء النهر المسمى باسم نهر مصر ، الذي يرسم الحدود بين فلسطين والمنطقة المذكورة منذ لحظات ، وكان الملك عموري قد شيد قبل بضع سنوات من هذه الآونة هذه القلعة على موقع مرتفع بعض الشيء فوق الخرائب القديمة ، التي مازال بعض أثارها باقية ، وتحكي التقاليد المنقولة عن السكان القدماء لهذه المناطق أنه كان هنالك دير للروم الاغريق في هذا الموقع في الأزمان القديمة كما أن اسم داروم الحالي للموقع ، أي « دار الروم » يذكر بتلك الحقيقة ويشهد على صحتها .

كان الملك ، كما ذكرنا من قبل ، قد أمر ببناء قلعة ذات أبعاد

معتدلة في هذا الموقع ، لم تغط مسافة زالت على مرمى حجر من الأرض ، وكانت مربعة الشكل ، وكان يوجد برج في كل ركن من أركانها ، وكان أحد هذه الأبراج أضخم من باقي الأبراج وأفضل تحصينا ، ولم يكن هنالك خندق حول القلعة أو دفاعات أمامية لها .

وتقع الداروم على بعد نحو خمسة أميال من البحر وأربعة أميال من غزة ، وتجمع هنا عدد قليل من مزارعي الحقول المجاورة مع بعض التجار وشكلوا مستعمرة صغيرة . وبنوا قرية وكنيسة على مقربة من القلعة ، واتخذوا مقر سكنهم هناك ، ولقد كان موقعا بهيجا توفرت فيه شروط الحياة للناس ذوي المراتب الدنيا أفضل مما كان في المدن (٣٦٧)

كان الملك قد بنى هذا الحصن لكي يوسع حدوده ، وكان في ذهنه حقيقة أنه باستطاعته أن يجمع بكل سهولة من هذا الموقع العائدات الكاملة المفروضة سنويا ، من سكان القرى المحيطة الذين يدعوهم شعبنا باسم « كاساليا » كما كان يمكن أيضا فرض ضريبة ثابتة على المسافرين المارين على الطريق .

٢- الملك ينطلق بسرعة الى هناك ومعه مجموعة صغيرة من الفرسان . العدو يقتل عددا كبيرا من شعبنا في كل من مدينة غزة وأثناء السير .

وهكذا انطلق جيشنا من غزة . وبينما كان متوقفا على مرتفع صغير على طول خط السير لمح معسكر العدو ، فأخافته أعداده الكبيرة فشرعت عناصره تحتشد مع بعضها وتتكتل أكثر من المعتاد وكانت محصلة هذا التكتل أن صفوفهم المضغوطة حالت الى حد بعيد دون احراز اي تقدم اضافي ، فهجم الكفرة على الفور وحاولوا تفريقهم ، لكن المسيحيين احتشدوا وتكاتفوا بفضل المساعدة

الالهية بإحكام أكثر وقاوموا هجوم العدو ، ثم ساروا بخطوات سريعة قدما نحو غايتهم حيث توقف الجيش بأسره ونصب خيامه ، وذهب السيد البطريرك الى القلعة ، وخيم الباقون جميعا في الخارج بالقرب من أطراف القرية ، وكان الوقت عندئذ حوالي الساعة السادسة من اليوم ، وحدثت معارك فردية كثيرة في غضون ذلك اليوم بالاضافة الى بعض الاشتباكات التي شاركت فيها مجموعات كاملة ، وأظهر جنودنا شجاعة كبيرة في الهجوم والمقاومة على حد سواء ، ومع حلول الظلام نظم صلاح الدين صفوفه بتشكيل الزحف وقادها نحو غزة ، واستراح في تلك الليلة بالقرب من النهر ، وواصل زحفه في الصباح الى غزة وتوقف أمام المدينة .

كانت مدينة غزة القديمة جدا عاصمة مشهورة فيما مضى للفلسطينيين وقد ورد ذكرها مرارا في التواريخ المدنية والكنسية ، كما أن الأبنية الرائعة الكثيرة التي مازالت باقية فيها تعطي دليلا على روعتها القديمة . وكانت قد بقيت مهجورة لفترة طويلة من الزمن دون أن يقطنها أحد من السكان . حتى قام أخيرا بلدوين الثالث الملك الرابع للقدس صاحب الذكرى اللمعة ، بجمع قوات المملكة ومواردها وبنى على أحد أجزاء الهضبة حصنا قويا بشكل جيد الى أبعد الحدود (٢٦٨) وكان ذلك كله قبل أن يتم الاستيلاء على عسقلان . ولدى انتهاء هذا الحصن اعطاه لفرسان الداوية ليحتفظوا به بحق دائم . غير أن القلعة لم تشغل الهضبة بأسرها التي بنيت عليها المدينة كما تم ذكر ذلك ، وحاول الناس ، الذين أتوا الى هناك للعيش ، أن يحموا بقية القلعة بسور وبوابات ليحتاطوا لسلامتهم . إلا أن هذا السور كان منخفضا بعض الشيء ولم يكن قويا البتة .

عندما وصل نبي اقتراب العدو الى الناس الساكنين على الهضبة ، قرروا اللجوء الى القلعة مع زوجاتهم وأبنائهم وأن يتخلوا عن الجزء الباقي وغير المحمي من المدينة الى العدو . لأنهم

- ٣٣٠٨ -

كانوا مزارعين ورجالا غير مسلحين وغير معتادين أبدا على أشياء تتعلق بالحرب ، الا أن ميلون دي بلانسي الذي كان واحدا من النبلاء العظماء في المملكة ورجلا شريرا ، رغب في ان يشجعهم على المقاومة . ولذلك رفض السماح لهم بالدخول وأمرهم بالدفاع عن ذلك الجزء الأكثر ضعفا من المدينة .

وحدث ان كان في غزة مجموعة مؤلفة من خمسة وستين شابا من المقاتلين الشجعان مسلحين تسليحا خفيفا ، وكانوا من أهالي بلدة تدعى (البيره) Mahumaria بناقرب من القدس (٢٦٩) وكانوا قد وصلوا في تلك الليلة ذاتها الى غزة في طريقهم للانضمام الى الجيش ، وقد عينوا بأمر من ميلون لحماية باب المدينة الخارجي . وكانوا يقاتلون هناك بشجاعة دفاعا عن بلادهم وحريتهم ، ويقاومون بشجاعة محاولات العدو لشق طريقه بالسيف ، واقتحم الكفرة الموقع على المجموعة الصغيرة ، التي كانت ماتزال تدافع بقوة عن الباب وطوقوها بالكامل ، ولم يتمكن الآخرون من المقاومة لفترة أطول من ذلك بعدما بسوغتوا وهلكوا بالسيف ، وعلى الرغم من مقتل عدد كبير من هؤلاء الشجعان ، أصابوا الكثير منهم بجراح فان الأعداء لم يخرجوا من هذه المعركة سالمين ، لأن انتصارهم كان انتصارا دمويا .

قام سكان المدينة الآن بمحاولة أخرى لدخول القلعة ، وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا داخل الأسوار وكانوا يقومون بمذبحة لاتمييز فيها وفضيحة جدا في كل مكان ، فإنه لم يسمح لهم بالدخول ، ولم يحصلوا على أية وسيلة للنجاة ، واندفع الأتراك على الفور واستولوا على المدينة ، ولم تجر مراعاة لجنس أو لعمر ، وقذف حتى الأطفال الرضع الى الحجارة ، ومع ذلك ، فان الغضب اللامحدود للفدوة بدا عاجزا عن الاشباع ، ولقد ابقاهم اللاجئون الموجودون في البرج بعيدين عنهم بقذفهم بالحجارة والأسلحة الأخرى بشكل مستمر ، وهكذا ، بقي الحصن سليما بمساعدة الرب .

عاد الأعداء الى الداروم بعدما استولوا على المدينة وقتلوا السكان ، عادوا وكأنهم يرفعون أكاليل النصر ، وصادفوا نحو الخمسين من قوات رجالتنا كانوا يسرون مسرعين نحو الجيش دون التقيد بالحذر المناسب ، فقتلوا هؤلاء دون استثناء وذلك على الرغم من أن المسيحيين قاتلوا بكل شجاعة بسيوفهم في محاولة يائسة منهم لانقاذ ارواحهم .

٢١- صلاح الدين يعود الى أراضيه . الملك يعود الى عسقلان بعد زيارة الداروم المخربة حاليا جزئيا . مقتل توماس رئيس أساقفة كانتبري في كنيسته في العام نفسه ، وهو شهيد رائع في المسيح .

عباً الأتراك صفوفهم الآن ووضعوها بترتيب المعركة حسب القانون العسكري ، وقسموا قواتهم الى اثنتين وأربعين فرقة ، وصدرت الأوامر الى عشرين فرقة من هذه الفرق بالتقدم بالطريق الساحلي بين الداروم والبحر ، وتوجب على الفرق الباقية أن تسلك الطريق البري حتى يتم اجتياز القلعة عندما تتحد القوات ثانية وتعود من جديد كتلة واحدة .

استعد المسيحيون لخوض المعركة أيضا بعدما تصوروا ان العدو كان عائدا بترتيب المعركة ، وصحيح أن أعدادهم كانت قليلة إلا أنهم وضعوا ثقتهم برحمة الرب ، واستعدوا للمواجهة بعد أن التمسوا المساعدة من عليين ، ومنحهم الرب قوة وشجاعة راسخة ، وما كان من شيء بدا لهم أكثر تأييدا من أن الأتراك قد عادوا ليحاربوهم . إلا أن نية الأتراك كانت مختلفة كل الاختلاف فهم لم ينعطفوا نحو اليمين أو اليسار بل عادوا بالسرعة الكلية الى مصر .

جلب رسل ثقة الآن نبأ أفاد أن العدو قد رحل دون نية

- ٣٣١٠ -

بالعودة ، وبناء عليه عاد الملك يوجهه الرب مع جيشه الى
عسقلان . وترك في الداروم قوة من الجند لتعيد بناء القلعة النصف
مخرّبة والتي توجب تحصينها بعد إعادة بنائها بقوة أكثر وحراستها
بعناية ، وقال الذين شهدوا حملات كثيرة في المملكة لم يحتشد حسب
معرفتهم قط جيشا كبيرا من الأتراك مثل هذا ، وقد كان عدد
الفرسان وحدهم حسب إحدى الروايات نحو أربعين ألفا (٢٧٠)

واحتفل في حوالي هذا الوقت نفسه ، أي في التاسع والعشرين
من شهر كانون الأول بذكرى وفاة الشهيد الرائع القديس توماس
رئيس أساقفة مدينة كانتبري في انكلترا (٢٧١) وكان من سكان لندن
وكان قد أصبح في زمن ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبري ذي الذكرى
المباركة ، رئيسا لشماسة تلك الكنيسة ، ثم استدعاه فيما بعد
هنري الثاني ملك انكلترا ليشارك في مسؤولية المملكة ، وكان
مخلصا وحكيما كمستشار ، وكان مدبرا متمكنا للمملكة
بأسرها ، وبعد وفاة الأب المبارك ثيوبولد استدعي توماس بناء على
أمر الملك ليصبح رئيسا لأساقفة كانتبري وذلك كمكافأة على
خدماته ، فكافح بقوة واقدام في سبيل حقوق الكنيسة ضد الاستبداد
والشروع واضطر نتيجة لذلك الى الهروب الى فرنسا ليجنب
اضطهاد الملك هنري ، وتحمل هنالك النفي لمدة سبع سنوات بصبر
بارز جدير بالمدح السامي ، ولدى عودته من هذا الغياب
القسري ، وبينما كان منتظرا الأمن الذي كان قد وعد به ، ذبح
بسيوف رجال أشرار في داخل الكنيسة ذاتها التي كان قد ترأسها
 بإرادة الرب ، فقد قتل بشكل شائن عندما كان يصلي من أجل
مضطهديه ، وكلل بدمه ولاقى مصير الشهادة الرائع ، وكان الرب
قد تجلّى من خلاله في تلك الكنيسة ذاتها وفي كل مكان من المنطقة
بالفعل لينجز معجزات كثيرة جدا ، وبشكل يومي تقريبا لدرجة أن
أزمان الرسل بدت وكأنها قد عانت بالفعل .

٢٢- الملك يزور القسطنطينية بمرافقة بعض نبلائه . الامبراطور يغدق عليه اعطيات كثيرة .

استدعى الملك في العام اللاحق ، الذي كان العام السابع (٧٧٢) من حكم عموري ، جميع نبلائه اليه ووضع امامهم احتياجات المملكة ، لانه ابرك أن اضطرابات كثيرة كانت تثقل كاهل المملكة ، وأن أعداء العقيدة المسيحية كانوا يتزايدون باستمرار ليس فقط في العدد والقوة بل في القوى والثروات ايضا ، هذا وكانت مملكتنا من جهة أخرى خالية تماما من القادة الحكماء والعقلاء ، حيث ان الجيل الشاب الذي كان يأخذ مواقع اسلافه كان ينمو في الشر ، فقد كان يحتل نون غاية أو نتيجة مواقع رجال بارزين ، وقد أخذ يبدي بطرق مخزية الميراث الذي تلقاه من آبائه ، وكانت المحصلة تدهور المملكة كثيرا بحيث اتضح ضعفها حتى لأكثر الناس غباء ، ولذلك فقد طلب الملك نصيحة نبلائه بخصوص طريقة معالجة هذه الحالات الشريرة وانقاذ المملكة ، فأجابوه بعدما تداولوا بين بعضهم ، وبالإجماع تقريرا « انه بسبب اثمنا هوت المملكة في حالة يائسة كهذه حيث لم تعد تستطيع مهاجمة أعدائها ولاصد هجماتهم » . ونصحوا بوجوب التماس المساعدة من ملوك الغرب اقارعة هذه المشاكل ولم يكن لديهم أية خطة لمعالجة أخرى يقترحونها .

وهكذا تقرر وبناء على موافقة الجميع إرسال وفد مؤلف من رجال نوي منزلة سامية الى ملوك الغرب ليشرحوا معضلات المملكة ويبينوا مصاعبها ويطلبوا مساعدتهم ، وصدرت الأوامر الى المبعوثين بوجوب زيارة البابا وكبار النبلاء وامبراطور الرومان وملوك فرنسا وانكلترا وصقلية واسبانيا وجميع الأمراء والحكام الآخرين المشهورين والتماس مساعدتهم في مكافحة المخاطر الوشيكة التي تهدد المملكة الآن ، وتقرر علاوة على ذلك اعلام امبراطور القسطنطينية بالوضع المتقلقل في المملكة ، لانه لقربه منا ولغناه أكثر من غيره يستطيع بكل سهولة تقديم المساعدة

المطلوبة . وتقرر بالتحديد أن يكون المبعوث المرسل الى الامبراطور شخصا موهوبا جدا بالحكمة والفصاحة والقوة المقنعة حتى يتمكن بلباقته ومقدرته من استمالة ذهن ذلك الملك العظيم ليستجيب لرغباتنا .

وبينما كانوا يتداولون حول اختيار شخص مناسب يتولى القيام بهذه المهمة الهامة كان الملك يتباحث مع بعض مستشاريه المقربين ، ثم وضع الملك أمام الحشد خطة كان قد تصورهما من قبل ، وهكذا أعلن أن مهمة ذات أهمية كهذه لا يمكن لأحد أن يتولى القيام بها غيره ، وأضاف أنه كان مستعدا لتحمل جميع الأخطار والمشقات لتأمين النجدة الضرورية جدا للمملكة ، وإرتبك كبار النبلاء لدى سماعهم هذا الاقتراح وقد امتثلوا بالاعجاب - واحتجوا أن المهمة شاقة جدا ، والأكثر من ذلك ، أن المملكة ستكون بحالة مزرية بدون وجود الملك فيها ومع ذلك أجابهم عموري قائلا : « فليحكم الرب ، الذي أنا وكيله ، المملكة وأما بالنسبة لي فانني مصمم على الذهاب ، ولايستطيع أحد أن يقنعني بإلغاء ذلك القرار ».

وبناء عليه انطلق برحلته في العاشر من شهر آذار وبصحبة موكب عظيم يليق بالجلالة الملكية مع مرافقة مؤلفة من عشر سفن ، وكان في موكبه وليم أسقف عكا والنبلاء التالي أسماؤهم من المملكة : غورموند صاحب طبرية ، وجون صاحب أرسوف ، وجيرارد دي بوني قائد القوات الملكية ، وروهارد حاكم القدس ، ورينودي نفنس ، وجرى إرسبال فيليب صاحب نابلس ، الذي كان قد تخلص عن منصبه كمقدم لفرسان الداوية أمام الركب برا ، وبما أن التأييد الرباني كان مع الملك فقد استمتع برحلة بحرية ميمونة ووصل بسلام الى مضائق أبيدوس ومطلع البوسفور المعروف باللغة العامية باسم نراع القديس جورج .

وعلم السيد الامبراطور الذي كان ملكا حكيما وحصيفا وصاحب

مكانة سامية جدا ، وجديرا بالمدح في كل النواحي ، علم بدهشة أن ملكا قويا وحاكما لملكة مشهورة وعظيمة حبيبة الرب ، كان خلافا للعرف على وشك زيارة امبراطوريته ، وكان تفكيره الاول التساؤل حول الدافع لرحلة غريبة وصعبة جدا كهذه ، ثم امتلأ بالحبور بعدما اتضح له أن نعمة فريدة لامثيل لها قد اضيفت عليه بكل كرم من عليين وأنها ستزيد امجاده وترفع مكانته ، حيث لم

يسجل حدث غريب كهذا في أي مكان من حوليات تاريخ امبراطوريته ، ولم يحدث من قبل أبدا أن زار ملك من ملوك القدس - الذي يعتبر المدافع والمحامي عن الأماكن المقدسة لآلام المسيح وقيامته - أيًا من أسلافه الأباطرة ، فقرر الامبراطور استباق وصول الملك في أن يظهر له تشريفا كبيرا ، ولهذا ، استدعى ابن أخيه يوحنا البرتو - باستوس وكان أبرز نبلاء القصر المقدس وهو الذي تزوج الملك عموري من ابنته ، فأرسله ليقابل الزائر الملكي .

وأمره أن يتأكد شخصيا من وجوب إظهار إجلال كبير للملك في جميع المدن والأماكن التي يمر فيها موكبه وذلك تمشيا مع العرف الأزلي للامبراطورية ومع العظمة الفريدة المتعلقة بها ، وعلاوة على ذلك ، وجب عليه أن ينصح الملك كابن له لينتظر قدوم الممثلين الامبراطوريين الذين سيرافقونه إلى المدينة الملكية .

وتنفيذا لأمر الامبراطور استقبل هذا الأمير الرائع ومعه حاشية رفيعة المستوى ، الملك في مدينة غاليبوس الواقعة على البوسفور ، والتي تقع على مسافة قريبة من مضائق أبيدوس ، وبما أن الريح لم تكن بالاتجاه الصحيح في ذلك الوقت لتدفع السفينة إلى المدينة الامبراطورية نزل الملك هنا من الشيني وتقدم مع أفراد حاشيته الشخصية على صهوة الجواد إلى مدينة هرقلية الواقعة على الساحل نفسه ، وقد وجد الأسطول هناك في الميناء ، حيث كان قد

استفاد من تغيير موات للريح ووصل قبله ، وهكذا ، ركب ظهر السفينة مجددا ووصل إلى القسطنطينية بعد رحلة ميمونة .

٢٣ - الملك يدخل إلى الحضرة الامبراطورية ويستقبله الامبراطور بإجلال ملحوظ . إجراء محادثات متكررة بينهما حول مسائل بالغة الأهمية .

يقع في هذه المدينة المقر الامبراطوري المعروف باسم قصر قسطنطين على شاطئ البحر المقابل للشرق . والطريق المؤدي إليه من البحر رصيف رائع من رخام بديع وتنزل درجات السلم الرخامي إلى حافة الماء وتزينها تماثيل الاسود والاعمدة المصنوعة من الرخام وتضفي على الموقع روعة ملكية ، ولقد احتفظ عادة بهذا المدخل لاستخدام الامبراطور فقط عندما كان يرغب بصعود الجزء العلوي من القصر ، ومنح الملك امتياز استخدامه خلافا للعادة المألوفة وكإشارة على تشريف خاص ، وانتظر قدومه هنا كبار النبلاء من القصر المقدس يحيط بهم حشد من عناصر الحاشية الملكية ، وقد منح استقبالا مهيبا للغاية ، وتوجه من هناك بصحبة حاشيته وملحقين كثر من البلاط وسار خلال أروقة مختلفة وغرف متعددة الأنواع إلى القسم العلوي من القصر حيث يقيم الامبراطور مع نبلائه المشهورين ، وتدلّت أمام قاعة المقابلات ستائر من أنسجة ثمينة مزخرفة بالأعمال اليدوية مماثلة في قيمتها للمادة نفسها ، ويمكن أن ينطبق عليها بالفعل بشكل موائم أقوال ناسو : « فاقت الصنعة المادة كثيرا » (٢٧٣) .

استقبل نبلاء الامبراطور العظماء الملك خارج هذه القاعة تماما حيث وجهوه إلى ما وراء الستائر المذكورة منذ لحظات ، ويقال إنه تم عمل هذا حتى يمكن المحافظة على سمو العظمة الامبراطورية وليكسب في الوقت نفسه ود الملك تجاه الامبراطور . حيث يقال إن الامبراطور ، الذي لم يكن محاطا إلا بأعظم نبلاء قصره ، قد نهض

بطريقة ودية ليحيي الملك ، وهو عمل لو تم بحضور البلاط المحتشد ،
لبدا أنه يظهر تلمظا كبيرا من جانب جلالته الامبراطورية (٢٧٤).

وحالما دخل الملك سحبست الستائر وأصبح الامبراطور مـرثيا
بالنسبة للموجودين في الخارج ، وكان جالسا على عرش من الذهب
ومرتديا اثوابا امبراطورية ، وأجلس الملك إلى جانبه على عرش
آخر كان رائعا لكنه أخفض قليلا عن عرش الامبراطور ومنح
الامبراطور بسخاء زائد التحية المألوفة وقبله السلام لنبلاننا أيضا
وأجرى استفسارات لطيفة حول سعادة الملك وأعضاء حاشيته ،
وأظهر بوضوح بأقواله وتعبيره أن قدومهم قد أعطاه سرورا كبيرا ،
وكان قد أمر الخدم وموظفي القصر المقدس بأعداد أجنحة خاصة
ذات عظمة كبيرة داخل القصر نفسه للملك وحاشيته ، وهيات في
المدينة مساكن منفصلة ذات مستوى رفيع مناسب وقعت على مقربة
من مقر إقامة الملك لسكن النبلاء المرافقين ، ثم انسحب الزوار من
الحضرة الامبراطورية وخلوا لأنفسهم لفترة من الزمن بمرافقة
الملك ، ثم صرفهم الملك أيضا بعد أن حدد الساعة التي وجب عليهم
العودة فيها ، وأرسلهم إلى مساكنهم .

عقد المبعوثون يوميا مداولات جدية في ساعات حددت خصيصا لهذا
الغرض وكانت تارة مع الامبراطور وتارة فيما بينهم وتناولت
المحادثات القضايا التي أتت بهم إلى هنا وخصصوا في المقام الأول
دراسة حذرة للغاية للأجراءات التي يمكن بواسطتها إنجاز هدف
رحلتهم الذي كانوا قد تحملوا في سبيل نجاحه مشقات كثيرة جدا ،
حتى يتمكنوا من العودة إلى الوطن متوجين بالنجاح .

شرح الملك في أحاديث ودية كثيرة عقدها مع الامبراطور على انفراد
احيانا وبحضور النبلاء البارزين من القصر مرات أخرى الأسباب
التي أتت إلى زيارته ، وأعلن في آخر الأمر عن احتياجات مملكته ،
وأكد على الشهرة الأبدية التي يمكن للامبراطور أن يحققها بتولي
القيام بمشروع الاستيلاء على مصر وأكد له ببراھين إيجابية كيف

يمكن إنجاز المشروع بسهولة ، وأصفى الامبراطور بشكل إيجابي
لاقتراح الملك بعدما أقنعتة أقواله ووعد بتنفيذ رغباته بأكملها .

أغدق الامبراطور في هذه الأثناء ، حسبما يليق بعظمته
الامبراطورية ، هبات عديدة على الملك وعلى النبلاء من حاشيته
وأظهر عناية كبيرة خلال زيارات متكررة حول سعادتهم وصحتهم ،
وتنفيذا لأوامره ، فتحت لهم حتى الأجزاء الداخلية من القصر – أي
الأجنحة الخاصة التي لا يطؤها عادة سوى المقربين من أبناء
شعبه ، والجناح الخاص المفرد لاستعماله – كما تفتح لأفراد
أسرته ، وامتدت هذه الامتيازات أيضا إلى المباني المغلقة أمام
العامة من الناس ، وإلى جميع الكنوز الثمينة التي كان أسلافه
الاباطرة قد جمعوها هناك ، وبلغ الأمر إلى حد السماح لهم برؤية
أثار القديسين وأثار مولانا يسوع المسيح الثمينة بما في ذلك
الصليب والمسامير والحربة(٢٧٥) والأسفنجة والقصبه والتاج الشوكي
والرداء الكتاني والصنادل . ولم يبق هنالك أي شيء مقدس أو روحي
حفوظ عليه بتوقيع من أيام الأباطرة قسطنطين وتيودوروس
وجستنيان إلا وشاهدوه في المستودعات الخاسه للغرف المقدسة
بدون تحفظ .

ودعا الامبراطور الملك وحاشيته من وقت لآخر في العطل وأوقات
الفراغ ليستمتعوا بالاستجمام الذي قدمته تسليات جديدة ذات سمو
ورفعة ، حسبما يليق بالمرتبة المسجدة للملكين ، وجلبت أحيانا أنواع
مختلفة من الآلات الموسيقية حيث تصاعدت من أوتارها نغمات ذات
عذوبة رائعة بمقياس متناغم من أجل ابتهاجها . وفوق ذلك ، فقد
غنت جوقات من الفتيات وقدمت مسرحيات إيمائية ذات سمات
عالية ، ومع ذلك ، فقد تم التقيد دائما بالذوق والأخلاق الحميدة .
وأمر الامبراطور أيضا أن تقدم – على شرف الملك – للناس
القاطنين في المدينة ألعاب نفيسة ورائعة تشبه التي ندعوها ألعاب
مسرحية أو سيركات(٢٧٦) .

٢٤ - عودة الملك مع نبلائه إلى بلادهم محملين بالهدايا وذلك بعدما تحقق الهدف من رحلتهم .

اقام الملك ونبلاؤه عدة ايام في قصر قسطنطين ، ثم نقل الامبراطور اقامته الى القصر الجديد المسمى بلا شيرين (٢٧٧) .
بمرافقة الملك لاجراء تغيير حيث اعتبر ذلك الوسيلة الاكثر فعالية للتخلص من الرقابة ، وتقيد الامبراطور هناك ايضا وبشكل كامل بقوانين الضيافة ، فقد استضاف الملك بكرم في قصره لعدة ايام حيث خصصت اجنحة فخمة للملك عموري في اكثر المناطق خصوصية في المقر الامبراطوري لاسلافه ، وصدرت الاوامر في القوت نفسه بتجهيز مساكن لحاشية الملك قريبة من هذا القصر ، ولم يتوقف ضبط خزانة الملابس هنا كما لم يتوقفوا من قبل ، مع عند آخر من الضباط معينين خصيصا لهذا الواجب عن تأمين كل النفقات بشكل فخم ومفرط ليس فقط للأشياء الضرورية بل حتى للكماليات الزائدة .

تمت مرافقة الملك إلى كل مكان من المدينة بكاملها داخل كل من الاسوار وخارجها وقام بزيارة الكنائس والأديرة التي توفر منها عدد غير محدود . ونظر إلى أقواس النصر والاعمدة المزخرفة بالأشياء التذكارية ، وكان مرشدوه نبلاء كبارا يعرفون الأماكن بشكل جيد ، ولدى استفساره عن طبيعة وهدف كل معروض ، كان الرجال الأكبر سنا والمطلعون بشكل جيد يقدمون له المعلومات الكاملة .

وأبحر في هذا الوقت نفسه عبر البوسفور إلى مدخل البحر الأسود ، حيث يبدأ البوسفور مجراه إلى البحر المتوسط ، وهكذا ، زار الملك الذي كان متفتح الذهن متلهفا يوما لمعرفة سبب الأشياء أماكن لم تكن معروفة له حتى الآن . وعاد في نهاية الأمر إلى المدينة وهو مسرور تماما بما كان قد رآه وسمعه ، وواصل المداولات الوبية

مع الامبراطور حيث كانت رغبته الأكثر جدية أن يوصل مهمته إلى نهاية ناجحة .

وبعد مضي الوقت المناسب تم التوصل إلى إيجاد حلول سعيدة لجميع المسائل الهامة التي جرى بحثها بتلief ، وتم تحويل الاتفاق إلى معاهدة مرضية لكل من الامبراطور والملك وتم تدوينها ثم ختمت بختمي الامبراطور والملك ، وبعدها استأنن الملك بالانصراف وبدأ يعد التحضيرات للرحيل مصاحبا بود الجميع وأمانتهم الطيبة ، ثم أظهر الامبراطور نحو الملك الكرم والسخاء بشكل أكثر من ذي قبل ، وبصورة لا يمكن للمديح تصويرها ، إضافة إلى هدايا رائعة غاية الروعة من السلع الأجنبية ، بينما أمطر حاشيته ، حتى الصغير منها ، بهدايا لا حدود لها وأكثر من أن تحصى .

وأظهر بروتو سياستوس اللامع سخاء كبيرا أيضا نحو السفارة بأكملها ، وألهبت الروح ذاتها الأمراء الآخرين أيضا ، فتنافسوا فيما بينهم في إهداء هبات سخية للملك ، لم تفتقر إلى أناقة المادة وجمال الصنعة ، وكلها عبرت عن حسن ودهم ، وعندما أصبح الأسطول جاهزا أبحر الملك بعدما أنجزت مهمته بنجاح ، من القسطنطينية مسافة مائتي ميل عبر اليوسفور الذي يعتبر عادة الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، وبعدها مر بين مدينتي سيستوس المشهورتين اللتين تعتبران موطن لياندر نقلته ربح مواتية إلى البحر المتوسط وأخيرا ألقى مراسيه في اليوم السابع عشر قبل بداية شهر تموز في مدينة صيدا (٢٧٨)

٢٥ - الملك يحشد الجيش في الصفورية . عودة فريدريك رئيس أساقفة صور من بلاد ما وراء البحر . مقتل وليم أسقف عكا في رومانيا .

علم الملك لدى عودته إلى المملكة أن نوز الدين كان مـا يزال

معسكرا ينتظر مع جيش ضخم في أحواز بانياس ، فاستدعى إليه نبلاء المملكة ، ذلك أنه خشي من أن يحاول نور الدين شن الغارات على بلادنا من هناك ، وتقدم نحو طبرية ليحتاط بقدر الامكان ضد طارئ كهذا ، وخيم بالقرب من النبع المشهور الواقع بين الناصرة والصفورية ، بالنظر لوقوع هذا النبع على مقربة من قلب المملكة فكان بإمكانه التحرك بسهولة نحو أي جزء من البلاد يمكن أن تستدعي إليه الحاجة ، ونظرا لمواثمة هذا الموقع اعتاد عموري وأسلافه من قبله على جمع جيوشهم في ذلك الموقع .

وحدث في حوالي الوقت ذاته أن عاد سلفنا فريديريك رئيس أساقفة صور ، الذي كان قد أرسل باسم المملكة ليلتمس المساعدة والمشورة من ملوك الغرب ، إلى البلاد مخفقا بعد اقامة استغرقت عامين في البلاد الواقعة فيما وراء البحار . وكانت الجهود التي بذلها عقيمة تماما ، ولم يحصل على أي شيء كان قد طلبه باسمنا . هذا وكان قد أرسل قبله الكونت ستيفن ، وكان رجلا منحدرًا من أسرة نبيلة غير أن حياته كانت بعيدة عن النبل ، وكان ستيفن ابن ثيوبولد الثاني كونت بليوس وتشارتزر وترويز ، وقام الملك باستدعائه نتيجة لوساطة رئيس الأساقفة ووعد أن يزوجه بابنته ، ولدى وصول الكونت إلى المملكة ، ذكره الملك بلطف بالمسألة ، إلا أن ستيفن رفض العرض ، بعدما كان قد تم عرضه وقبوله ، وبعدما عاش حياة فاسقة مخزية لعدة شهور في المملكة ، وقرر العودة إلى موطنه عن طريق البر ، وذهب تنفيذًا لهذا الهدف ، إلى أنطاكية في أول الأمر ومن هناك إلى كليكية ، وعقد العزم من ثم بعد حصوله على مرافقة من سلطان قونية على عبور تلك البلاد في طريقه إلى القسطنطينية إلا أنه تعرض في كليكية بالقرب من مدينة المصيصة لبلية الاسقوط في كمين قد نصبه له مالح (ماليه) (٢٧٩) وكان اميرا ارمينيا قويا جدا وأخا لطوروس ، فقد انقض قطاع الطرق عليه من مكنهم وانتزعوا منه جميع الكنوز الثمينة التي كانت معه ، وبعد الحاح وتوسلات عظيمة أقنعهم أخيرا وبصعوبة كبيرة في أن يتركوا فرسا هزيلا لاستخدامه ، ووصل في نهاية المطاف إلى القسطنطينية بهذا الشكل

- ٣٣٢٠ -

المخزي ، إنما بعدما عانى من مشقات كبيرة وكان بصحبته عدد ضئيل من المرافقين ، وصل وهو ملاحق بكراهية سكان الشرق أجمعين (٢٨٠)

وصل إلى المملكة في ذلك العام كونت آخر يدعى ستيفن وهو ابن الكونت وليم دي سوان في رحلة حج لاقامة الصلاة والعبادة ، غير أنه كان يختلف تماما عن ستيفن الآخر فمع أنه كان يحمل الاسم نفسه ، فقد كان رجلا متواضعا له حياة شريفة ، وجدير بالاحترام الكبير التام ، وكان بمرافقته هنري الأصغر دوق بيرغندي ابن إحدى أخوات ستيفن المذكور آنفا ، وقد عادا إلى موطنهما بعد إقامة قصيرة ، لكنهما توقفوا في الطريق إلى القسطنطينية حيث أبدى الامبراطور نحوهما اهتماما ملحوظا ، وودعهما محملين بهدايا كثيرة (٢٨١) .

وفي العام التالي الذي كان العام الثامن من حكم الملك عموري (٢٨٢) واجه وليم أسقف عكا ، صاحب الذكري الطبية مصيرا غريبا كان لا يستحقه ، فقد كان الملك قد أرسله من القسطنطينية إلى إيطاليا ، وقد طاف في تلك البلاد محاولا بكل وسيلة ممكنة إنجاز المهمة الموكولة اليه ، وعندما كان في طريق العودة الى الوطن وقد عقد العزم على زيارة الامبراطور أثناء عودته - وذلك حسب ترتيب سابق - وبعدما وصل الى أدرنة وهي مدينة مشهورة في تراقية الثانية . وكانت قد أتعبته رحلته الطويلة ، تناول الأسقف الطعام عند الظهر ثم تمدد ليريح أوصاله المتعبة ، وكان بين أتباعه شخص يدعى روبرت - كان قد رقاها هو نفسه الى منصب الكاهن وجعله بين أفراد حاشيته الشخصية - كان مستلقيا في الغرفة نفسها التي كان يستريح الأسقف فيها ، وكان آنذاك يتماثل للشفاء من مرض طويل عانى خلاله الكثير - فاستبد به الجنون فجأة وأمسك بسيفه وطعن الأسقف النائم وأصابه بجراح مميتة ، وسمع رجال الأسقف الموجودين في الخارج صرخاته وأدركوا من خلال تأوهات وصيحاته العالية أن سيدهم كان في الام الموت ، وحاولوا الاندفاع لمساعدته

الا ان الباب كان مقفلا بإحكام من الداخل حيث كان الدخول مستحيلا ، وعندما تم أخيرا فتح الباب بالقوة وجدوا سيدهم بدون حراك مع أن قلبه كان ما يزال يخفق بضعف ، وكان هدفهم الأول الآن هو القبض على المجرم وتسليمه مكبلا بالسلاسل الى العقاب اللائق به حسب القوانين التي تحظر القتل ، غير أن الأسقف منعهم من ذلك بالقول والاشارة وتوسل اليهم بجدية بالغة أن يمنح القاتل غفرانا كاملا لسعادة روحه ، وعندما كان ما يزال يتوسل اليهم بعدم اتخاذ أي اجراء ضد الرجل الشاب لاماتته تخلصه عن نفسه الأخير الى الرب ، وقد حدث هذا في التاسع والعشرين من شهر حزيران .

ولم نتمكن حتى الآن من تحديد سبب هذا العمل ، وقد قال بعضهم إن روبرت ، الذي اقتترف هذا العمل الوحشي ، كان يعاني من مرض طويل ، وكان على الرغم من تماثله للشفاء قد انتابته نوبة عنيفة مفاجئة ، ولذلك لم يكن مسؤولا عن هذا العمل الشرير ، وعلى العكس من ذلك ، يؤكد آخرون أنه ارتكب الجريمة بسبب كراهيته لرجل كان يعمل حاجبا للأسقف ، وكان يستغل حظوته لدى سيده الى أبعد الحدود ، فعامل روبرت و الآخرين بشكل سيء (٢٨٣)

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه جرى تعيين جوزشوس وهو كاهن وشماس في تلك الكنيسة ذاتها ، أسقفا لعكا وخليفة لوليم المتوفى .

٢٦ - مالخ (٢٨٤) الأرمني ، أخو طوروس يضم قواته إلى قوات نور الدين و يجتاح منطقة انطاكية . الملك يسرع بالتوجه الى هناك ليقمع عمله الشرير

حدثت في هذه الآونة وفاة طوروس الذي كان رجلا عظيما ونبيلا كنت قد ذكرته مرارا كأمر قوي للأرمن . ورغب أخوه مالخ ، الذي

- ٣٣٢٢ -

كان رجلا شريرا للغاية ، أن يستولي على الميراث لنفسه ، لهذا القصد ذهب الى نور الدين وتوسل اليه بجدية أن يعطيه قوة من الفرسان ليستولي بها بقوة على ممتلكات أخيه ، وكان النبلاء العظماء في تلك المنطقة قد أرسلوا الآن بعد وفاة طوروس في طلب توماس (٢٨٥) ، وهو أحد أبناء اخت لهذين الحاكمين ، وعيذوه وملكوه بشكل أمن به سائر أمانة خاله ، وكان توماس لا يتنى المولد ، غير أنه افتقر تماما الى القوة والعقل ليوائم نفسه للتعايش والتعاون مع هؤلاء الذين قد استدعوه .

وتمكن مالح في ظل بعض الشروط المحددة تماما المرضية لنور الدين من الحصول على قوة كبيرة من الفرسان ، وبعمله هذا كان مالح أول بني جذسه اقدا ما على انتهاك عادات اسلافه ، بطلب مساعدة العدو وبإخال قوة مسلحة من الكفرة الى ميراثه وراضي أبائه ، واجتاح ممتلكات اسلافه بالقوة ، وطرد ابن أخيه ، واستولى على المنطقة بأسرها ، وكان أول أعمال حكمه بعدما استولى على السلطة ، تجريد فرسان الداوية من جميع ممتلكاتهم في كلية مع أنه كان ينتمي من قبل الى منظمتهم ، ثم شكل حلفا مع نور الدين والاتراك وفق معاهدة نادرا ما تعقد حتى بين الأخوة ، وتخلى عن شريعة الرب بعدما أصبح كافرا ومن ثم الحق بالمسيحيين جميع الأضرار التي استطاع إلحاقها ، وألقى في غياهب السجون جميع الذين حدث أن وقعوا في قبضته ونقلهم الى بلد العدو ليبيعوا كعبيد .

وأظهرت هذه الاساءات التي ارتكبها هذا الرجل الشرير ضد المسيحيين على الفور أنه من أسوأ أعدائهم ، وهكذا ، حمل أمير أنطاكية وعظماء تلك المنطقة السلاح ضده مع أنه بدا شاذا وغريبا بالنسبة للمسيحيين أن يثوروا ضد امرئ كان يعتقد العقيدة نفسها ، الأمر الذي كان مماثلا في الواقع لحرب أهلية تقريبا ، ودفعوا مالح ووصموه بأنه عدو المملكة .

وبادر الملك مع قواته الى أنطاكية عندما علم بالمشكلة التي كانت قد ثارت في تلك البلاد لأنه رغب في أن يقوم بدوره في أي اجراء يخدم السلام ، وأرسل من هناك رسله الشخصيين الى مالح ذلك التعيس ، الذي كان رجلا منبوذا تماما ولا يحظى بتأييد الرب ، وطالب بالحاح في أن يوافق على عقد مداولة معه بنفسه في وقت ومكان موائمين ، وتظاهر مالح بالسرور بهذه الرسالة غير أن عواطفه كانت مختلفة تماما في الواقع ، و أرسل الملك إليه مرات عديدة المندوبين وحاول عقد هذا اللقاء ، إلا أنه اكتشف في اخر الأمر أنه مخدوع بحيل هذا الرجل الشرير و مكره ، وأنه لا يمكن بالتالي تحقيق أي شيء بهذه الطريقة ، وبناء عليه جمع في خاتمة المطاف جميع قوات المسيحيين الموجودة في ذلك الموقع ، وغزا أراضي عدوه بهذا الجيش ، وحرق الجند المحاصيل أثناء سيرهم عبر سهل كليكية (لأن الزحف عبر الطريق الجبلي المنحدر كان أمرا في غاية الصعوبة) وحاول الجند الهجوم على القلاع الواقعة على طول خط سيرهم ، لكن وصل فجأة رسول يحمل نبأ مشؤوما أفاد أن نور الدين كان قد ألقى الحصار على البتراء عاصمة العربية الثانية ، والمعروفة أيضا باسم الكرك ، وهي شائعة ثبت أنها صحيحة.

أحدث هذا النبأ كربا شديدا للملك ، فاستأذن الأمير بالانصراف على الفور وانطلق بسرعة مع اتباعه الذاتيين ، لكن كان نبلاء الملك قد جمعوا قبل وصوله الى بلاده بعمل فوري وحصيف سائر القوة العسكرية في المملكة ، وكان همفري كافل المملكة قد تولى المسؤولية الكاملة عن الجيش ، بينما عهد الى رالف أسقف بيت لحم مهمة حمل صليب الصليبوت ، وكان الجنود يتقاطرون بشجاعة وبونما تأخير الى المكان المحدد عندما قابلهم رسول جلب الأخبار الهامة التي ثبت أنها صحيحة ، وأفادت أن نور الدين كان قد تخلى عن الحصار دون أن يحدث أضرارا للموقع ، وأنه عاد الى موطنه ، وحدث بالتالي أن وجد الملك لدى وصوله الى

- ٣٣٢٤ -

المملكة - خلافا لتوقعاته - أن كل شيء كان أمنا بقدر ما كان مرغوبا.

٢٧ - صلاح الدين يحاصر قلعة الكرك الواقعة فيما وراء الأردن - ادراكه أن جهوده عقيمة وعودته الى بلاده.

استعد صلاح الدين في العام اللاحق مع بداية حلول فصل الخريف ليغزو منطقتنا بقوات ضخمة وعدد كبير من الفرسان ، وعبر الصحراء على رأس حشود لا تحصى جمعها من سائر أنحاء بلاد مصر ووصل الى الموقع المسمى باسم كنيس الترك.

وكان الملك قد استيق قدومه فحشد جيشه ، ونصب معسكره ، بمرافقة السيد البطريك الذي كان يحمل صليب الصليبوت المانع للحياة ، بالقرب من بئر السبع حيث يمكنه مقابلة العدو بسهولة أكثر.

ولقد قيل إن قوات صلاح الدين كانت تتمركز على بعد ستة عشر ميلا تقريبا من معسكر الملك ، الا أن الملك عموري لم يكن واثقا حتى الآن أن الأتراك قد وصلوا بالفعل الى ذلك الموقع ، ومع ذلك ، ثبتت صحة الرواية ، وكان صلاح الدين قد أقام بالفعل معسكره هناك بسبب توفر الماء الموائم.

وقرر الملك بعد التداول مع نبلائه أن يغير طريقه ليتجنب المقابلة مع الأتراك ، وهكذا ، تقدمت القوات والناس جميعا الى عسقلان تحت نريعة البحث عن العدو الذي كانوا قد تجنبوه بحذر وهو على مقربة منهم ، وزحفوا من عسقلان الى الداروم وعادوا من هناك ثانية الى نقطة انطلاقهم الأصلية بعد تبديد عقيم للجهد والنفقة.

- ٣٣٢٥ -

تقدم صلاح الدين في هذه الأثناء عبر سهول أنوم وقاد كتائبه الى وادي عربة ، وحاصر هنالك قلعة تعتبر المعقل البارز والرئيسي لذلك الاقليم بأسره ، وهاجم هذه القلعة بنشاط عنيف بقدر ما سمح الوضع ، لأنها كانت تقع على هضبة مرتفعة وكانت محصنة بشكل رائع بالأسوار والأبراج والشرفات وكانت القرية الخارجية واقعة على منحدر الهضبة ، في موقع منحدر جدا وعال بحيث لم يكن هنالك حاجة للخوف من الغزوات أو الهجمات بالآلات الحربية أو الأقواس ، وكان السكان جميعهم من المسيحيين ، ولذلك كان ممكنا الاعتماد عليهم ، وعلاوة على ذلك كانت القلعة مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن وكان فيها حامية كافية من الجنود للدفاع عنها.

ويبدو الكفرة جهودهم لبضعة أيام دون نجاح ، وأخيرا أصدر صلاح الدين أمر الرحيل بعدما اقتنع أن القلعة كانت منيعة ، وعاد الى مصر مع قواته عن طريق الصحراء.

٢٨ - صلاح الدين يدمر المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن بالأكمل. الملك يحتفظ بجيشه في موقع يسمى الكرمل. ريموند صاحب طرابلس يعود من الأسر.

في العام اللاحق الذي كان العام العاشر من فترة حكم الملك عموري أجرى صلاح الدين استعداداته من جديد لغزو المملكة ، وقد رغب بالتعويض عن إخفاقه بعدما أدرك أنه لم يكن قد أنجز سوى القليل ضد قواتنا في العام السابق ، وهكذا جمع حشدا ضخما من المحاربين من أنحاء مصر كلها ومن أماكن أخرى أيضا وتقدم عبر طريق الصحراء حتى تبدو تحركاته أقل لفتا للنظر ، ويمكنه بالتالي الحاق ضرر أكبر بالسكان (٢٨٦) ، ووصل في شهر تموز الى الموقع ذاته الذي كان قد احتله بجيوشه في العام السابق.

الا أن الملك كان قد بلغته أخبار تقدمه ، وهكذا ذهب الى

الصحراء مع نخبة القوات العسكرية في المملكة ليقابل الأمير الكافر ، وأبلغ مجددا أن صلاح الدين كان قد انتقل ، كما فعل في العام السابق الى وادي عربة ، وذهب الملك الى المنطقة الجبلية بعدما خاف من اللحاق به الى هناك ، وخشية أن يقوم صلاح الدين لدي معرفته بأنه كان يطارده من الدخول من ناحية ثانية ويدمر المملكة ، اختار الملك موقعا موثما هناك وتراجع الى الكرمل.

والكرمل هذه هي ليست جبل الكرمل المشهور الواقع على الساحل، والذي كان فيما مضى دار الياس ، بل هي قرية قرأنا أن نابال الأحق كان قد سكن فيها من قبل (٢٨٧). واختار الملك هذا الموقع بحكمة بسبب توفر المياه ، حيث كان هناك بركة قديمة ذات امتداد كبير وكانت كافية لتزويد الجيش بأسره بالمياه الوفيرة ، وعلاوة على ذلك ، كانت الكرمل بالقرب من المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن ، ومفصولة عنها فقط بالوادي الشهير الذي يشكل الحدود بين المنطقتين والذي يقع البحر الميت فيه ، ولهذا السبب ، فقد كان بإمكان جيشنا الحصول على أخبار متواترة عن تحركات العدو والتأكد من وضع قوات صلاح الدين.

نهب صلاح الدين - في الوقت نفسه ، وكما شاء - المنطقة بأسرها لأن الملك تردد في الاقتراب من تلك المنطقة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، وأمر صلاح الدين باحراق كل ما عثر عليه خارج القلعة ، وأمر بقطع الأحراش والكروم وأمر بتدمير القرى ، وعاد أخيرا الى مصر وذلك في حوالي نهاية شهر ايلول بعدما اجتاحت المنطقة اجتياحا تاما وحسب هواه الاستبدادي.

عاد في هذه الآونة ريموند الأصغر كونت طرابلس الى ممتلكاته الموروثة وكان قد أمضى ثماني سنوات كسجين في الفقر المدقع والسلاسل ، وقد أطلق سراحه في النهاية بعد دفع فدية قدرها ثمانون (٢٨٨) ألف قطعة ذهبية ، وأعيد الى وضعه السابق من الحرية ، فرحب الملك به لدى عودته بلطف بالغ ، وأعاد اليه المنطقة

التي كانت تحت رعايته خلال غيابه وذلك دون إثارة لاية متاعب ، وقدم اليه علاوة على ذلك مقدارا كبيرا من الهبات بسخاء ملكي يساعد في دفع فديته ، وأقنع نبلاءه ومطارنة الكنيسة أيضا أن يحذوا حذوه.

٢٩ - الحديث عن فرقة الحشيشة. وعن السفارة التي ارسلوها الى الملك ايضا.

وقع بيننا في هذه الآونة بالذات أمور كانت مشحونة بنتائج رهيبة للمملكة والكنيسة ، لقد وقعت كارثة يؤسف عليها حتى الوقت الحالي ، وربما الى الأبد ، وحتى نحصل على فهم واضح للقضية فمن الضروري أن نأخذ في سرد الحكاية إنما بعد أن نعود الى الخلف قليلا.

تعيش قبيلة من الناس في منطقة صور في فينيقية وفي أبرشية طرطوس حيث تمتلك عشرة حصون مع القرى الملحقة بها ، ويبلغ تعدادهم ، كما سمعنا مرارا ، نحو سبعين ألف نسمة ، وربما يزيد على ذلك ، ولقد اعتاد هؤلاء الناس على اختيار حاكمهم ليس بحق وراثي ، بل بامتنياز الجدارة ، ويطلقون على زعيمهم عند اختياره اسم « الشيخ » مترفعين بذلك عن مناداته بلقب مبدل ، وخضوعهم وطاعتهم له مطلقتان حيث لا يعتبرون أي شيء صعبا أو قاسيا جدا في سبيل ذلك ، ويتولون القيام بتلief بأكثر المهام خطورة تلبية لأمره (٢٨٩)، ومثالا على ذلك ، إذا ما حدث ووجد أمير جلب على نفسه كراهية هذا الشعب أو عدم الثقة به ، فإن الزعيم يضع خنجرا في يد واحد أو عدد من اتباعه ، فيعملون بحماسة طالما يستلزم ذلك حتى تأتي الفرصة المواتية في آخر الأمر بحيث يمكنهم تنفيذ أمر الزعيم (٢٩٠)، ولا يعرف المسيحيون ولا المسلمون من أين اشتق اسم الحشيشية هذا ، حيث كان الحشيشة (٢٩١) قد اتبعوا شريعة وتقاليد المسلمين منذ قرابة اربعمائة عام وبشكل عام لدرجة أن جميع

٣٠ - فرسان الداوية يقتلون رسـول الحشيشة .نشوب اضطراب عنيف جدا في المملكة نتيجة لهذا .موت رالف أسقف بيت لحم.

استقبل الملك الرسول بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب حس سليم ، فقد وافق تماما على المطالب المقدمة ، ويقال إنه كان مستعدا لأن يعوض الداوية من خزينته الخاصة ويدفع لهم ألفي قطعة ذهبية ، أي مقدار الجزية السنوية التي طلب الحشيشية إعفاءهم منها ، واحتفظ بالرسول لديه فترة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق ، ثم أعاده إلى سيده لاعداد الترتيبات الأخيرة ، ومعه مرشد ليقوده ويحميه على الطريق ، وكان عبد الله قد اجتاز طرابلس بمرافقة الدليل والرفيق الذي زوده الملك به وكان على وشك الدخول في بلاده عندما انقض بعض فرسان الداوية فجأة على فريقه بسيف مسلولة وقتلوه . وكان هذا الرسول يواصل رحلته دون حذر ، وبشكل بعيد عن توقع حدوث عمل كهذا ، وباعتماد تام على أمانة الملك وعلى الود المخلص لشعبنا ، وجلب الفرسان على أنفسهم بهذه الجريمة تهمة الخيانة (٢٩٢) .

أثار نبأ هذا العمل الوحشي غضب الملك ، بشكل عنيف جدا ، فاستدعى النبلاء ، وهو مسعور تقريبا ، وأعلن لهم أن الاعتداء وصل إلى حد الاساءة إليه شخصا وطلب مشورتهم بخصوص العمل المتوجب اتخاذه ، وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لاينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا ، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة ، وأنه قد جلب عارا جائرا على ود وولاء العقيدة المسيحية ، زد على هذا أن الكنيسة بدت في الشرق بهذا العمل معرضة لاحتمال فقدان التوسع السار جدا للرب الذي جرى إعداده لها من قبل .

ولذلك ، تم بموافقة الجميع اختيار نبيلين هما : سيهير دي ميمدك وغودزكالوس (غودتشوكس) دي تورأوت كرسولين

- ٣٣٣٠ -

خاصين ليطلبا من يوزردي سينت أماند مقدم الداوية تقديم تعويض
إلى الملك والمملكة بأسرها عن هذا الاعتداء المندس للمقدسات .

قيل إن واحدا من الداوية يدعى وولتر دي ميسيلو وكان رجلا
بعين واحدة وصاحب سمعة شريرة ، ويفتقر إلى التعقل تماما
« حيث كانت روحه في منخريه » (٢٩٣) ، كان المدير الحقيقي
للجريمة ، وأنها تمت بمعرفة الداوية جميعا ، ويقال إضافة لذلك إن
المقدم أرسل - رغبة في استبقاء هذا الرجل بشكل يفوق
استحقاقاته - رسالة إلى الملك مع رسول كان مفادها أنه كان قد
فرض عقوبة على الفارس المذنب ، وهو على وشك إرساله إلى
البابا ، وقد حظر نيابة عن البابا على أي إنسان القبض على
الفارس المذكور أو إلحاق الضرر به (٢٩٤) ، كما استدرك فأضاف
عبارات أخرى أملتها روح التعجرف المفرطة والرعونة التي كانت
تستبد به ، وإنه لمن غير الضروري أن ندونها هنا .

ذهب الملك شخصيا إلى صيدا بخصوص هذه المسألة ، ووجد
المقدم مع عدد كبير من الفرسان بما فيهم المجرم نفسه ، وأمر الملك
بعد تداوله مع الذين كانوا قد رافقوه إلى هناك بجر الرجل المتهم
بالخيانة بالقوة من داخل منزله وإرساله مكبلا بالسلاسل إلى مدينة
صور حيث ألقى في السجن ، وكاد هذا الاعتداء على المبعوث أن
يقحم المملكة بأسرها في دمار يتعذر إصلاحه ، وتمكن الملك بإعلان
براءته إلى مقدم الحشيشية الذي كان رسوله قد هلك بطريقة
مشؤومة جدا ، واستطاع تنظيف شرفه ، وبذل الملك في تعامله مع
فرسان الداوية اعتدالا كبيرا لدرجة أن المسألة بقيت معطلة حتى يوم
وفاته . ومن ناحية ثانية يقال إن الملك عموري كان قد عقد العزم
على عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن طريق مبعوثين ذوي
منزلة سامية ، حيث كانت ستلاقي دراسة دقيقة للغاية ، لو أنه شفي
من المرض الأخير الذي ألم به (٢٩٥)

في الربيع اللاحق حدثت وفاة مستشار المملكة ، الراهب المبجل

رالف أسقف بيت لحم ذي الذكرى السعيدة ، وكان رجلا له طبيعة سمحة ولطيفة ، ودفن بمراسم سامية في بيعة الكنيسة ، وعرضت بعد وفاته مسألة انتخاب خلف له ، إلا أن صعوبات نشأت بسبب الآراء المتضاربة للمنتخبين أثناء مناقشة هذه المسألة ، ولم يمكن إيجاد الحل حتى العام الثاني من حكم الملك بلدوين ابن الملك عموري وخليفته ، وتحملت الكنيسة في بيت لحم دفع نفقات كبيرة بسبب هذا الخلاف .

٣١ - موت نور الدين . الملك يحاصر بانياس إلا أنه يعقد في آخر الأمر هدنة و يذسحب . إصابته بالمرض و إسرعه بالعودة إلى القدس حيث مات في غضون بضعة أيام .

في شهر أيار بعد مضي أقل من شهر من هذا الوقت مات نور الدين المضطهد الجبار للاسم المسيحي ، وكان ذلك في العام التاسع والعشرين من حكمه (٢٩٦) وقد كان أميراً عادلاً وشجاعاً وحكيماً ، وكان بالنسبة لمواريثه وشعبه رجلاً متديناً .

وما أن علم الملك بوفاة حتى حشد قوة المملكة كافة على الفور ، وألقى الحصار على مدينة بانياس ، وهنا أرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم النسوة رسالة إلى الملك طالبت فيها بالتخلي عن الحصار ومنح السكان هدنة مؤقتة ، ووعدت أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال مقابل ذلك ، وتظاهر الملك في بدء الأمر برفض التماسها وواصل الحصار على أمل ابتزاز رشوة كبيرة .

تابع الملك أعمال الحصار بقوة وحماسة لقرابة خمسة عشر يوماً وسبب متاعب كبيرة للعدو بآلات حصاره ، وبطرق أخرى متنوعة ، إلا أنه أدرك في نهاية المطاف أن مقدرة الأتراك على المقاومة كانت تزداد بثبات ، وبدأ يلاحظ أنه لم يكن لديه أية فرصة بالنجاح ،

- ٣٣٣٢ -

واستمر في هذه الأثناء رسل السيدة النبيلة بالمطالبة المستمرة بالسلام ، وأخيرا قرر الملك بقبول المال المعروض إضافة إلى إطلاق سراح عشرين من الفرسان المسيحيين الأسرى ، ورفع الحصار بنية القيام بمشاريع أكبر في وقت لاحق .

واشتكى في طريق عودته إلى الوطن إلى الموجودين من حوله بأنه يشعر بالمرض بعض الشيء ، وأنه لم يكن في حالة جيدة ، وصرف قواته وتابع السير مع حاشيته الشخصية إلى طبرية ، حيث بدأ يعاني من نوبة إسهال شديد ، وبما أنه كان يخشى من اقتراب المرض ، فقد تابع السير على صهوة جواده من هناك (لأن قوته كانت ماتزال كافية لذلك الجهد) سالكا طريق الناصرة ونابلس إلى القدس ، وهناك استمر وضعه يزداد سوءا وباغتته حمى شديدة على الرغم من أن مهارة الطبيب قد شفته من الإسهال ، وبعدما عانى بشكل لا يحتمل من الحمى لعدة أيام ، أمر باستدعاء الأطباء الاغريق والسريان وأطباء من شعوب أخرى اشتهروا بمهارتهم في المداواة ، وأصر على أن يقدموا له علاجا مطهرا ، وبما أنهم لم يوافقوا على مطلبه هذا ، فقد أمر باستدعاء أطباء لاتينيين وقدم إليهم المطلب ذاته مضيفا أنه سيتحمل المسؤولية بنفسه مهما كانت النتيجة ، فقدموا له أدوية أدت بسهولة إلى حدوث النتيجة المنشودة وبدأت بأنها تقدم له بعض العون . إلا أن الحمى المألوفة عادت إليه قبل أن يتمكن من تناول الغذاء ليقوي جسده الذي كان الدواء العنيف قد أضعفه ، واستسلم لمنيته وقد توفي في الحادي عشر من شهر تموز في العام ١١٧٣ لتجسيد ربنا ، وفي العام الثاني عشر والشهر الخامس من حكمه وفي العام الثامن والثلاثين من عمره (٢٩٧). ودفن بجانب أخيه وبين أسلافه من النسب ذاته أمام موقع الجلجلة وكان رجلا صاحب حكمة وفطنة ، وكان مؤهلا تماما لتولي زمام الحكم في المملكة . وبسبب طلباته الملحة عقدنا العزم على كتابة هذا التاريخ بخصوص أعماله وأعمال أسلافه .

الكتاب الحادي والعشرون

إجبار بلدوين الرابع المجنوم على تولي الحكم في القدس

١ - ما يتعلق ببداية فترة حكم بلدوين الرابع المالك
السادس للقدس وما يتعلق أيضا بأسلوب حياته وسنه
ومظهره.

كان بلدوين الرابع (٢٩٨) هو الملك اللاتيني السادس للقدس وكان
ابنا لعموري ذلك الملك صاحب الذكرى اللامعة الذي كنا نكتب عنه
منذ لحظات ، وكانت والدته هي الكونتيسة أغنيس ابنة جوسلين
الأصغر كونت الرها الذي تكرر ذكره أيضا في الصفحات السابقة ،
وكان كما ذكرت من قبل عندما دعي عموري لاستلام عرش أسلافه ،
بموجب حقوقه الوراثية ، أقدم على تطلق أغنيس ، واقتيد لهذا
العمل بسبب ضغط الكنيسة ، حيث أجبره على تطلقها أمالرخ
صاحب الذكرى الطيبة الذي كان بطريركا للقدس في تلك الأثناء فقد
سار على خطأ سلفه فولتشر ولقد ادعى - وكان ذلك صحيحا
بالفعل - أن قرابة الدم بين عموري وأغنيس كانت قريبة جدا ،
وكنت قد شرحت هذه الحقيقة بحذر عندما كنت أعالج بالتفصيل فترة
حكم الملك عموري (٢٩٩) .

وعندما كنت رئيسا لشماسة مدينة صور كان الملك عموري قلقا
بشأن تعليم ابنه ، وقد استطاع إقناعي بتولي هذه المهمة وذلك بعد
ممارسته ضغوطا شديدة علي ، وبضمان شخصي منه ، بمنحي
تأييده وحظوته (٣٠٠) ، وهكذا عهد برعاية الطفل إلي وكان آنذاك في
حوالي التاسعة من عمره ، وذلك لأعلمه وأثقفه في الدراسات
العقلية ، وبينما كان الطفل الملكي تحت رعايتي أوقفت نفسي على

- ٣٣٣٤ -

العناية به بيقظة واهتممت به اهتماما يليق بمنزلته المجددة ، وحاولت تدريبه على صياغة أشكال الحروف ، وأن ألقنه أيضا القراءة والكتابة ، وحدث أنه كان يلعب في أحد الأيام مع رفاق له من منزلة نبيلة عندما بدأوا يقرصون أذرعهم وأيديهم بأظفارهم كما يفعل الفتيان عادة ، وقدم الفتية الآخرون دليلا عن الألم بصرخاتهم إلا أن بلديين تحمل الألم بصبر بالغ على الرغم من أن رفاقه لم يوفروه ، وتصرف وكأنه لم يشعر بشيء ، ونقل الأمر إلي بعدما حدث مرات عديدة ، واعتقدت في بدء الأمر أن هذا صادر عن مقدرته على الاحتمال وليس من فقدان الحساسية ، إلا أنني اكتشفت عندما ناديته وبدأت أستفسر ما الذي يعنيه ذلك ، أن ذراعه ويده اليمنى كانتا فاقدتى الحس جزئيا لدرجة أنه لم يشعر بالقرص أو حتى بالعض على الإطلاق ، وبدأت أرتبك متذكرا أقوال الرجل الحكيم : « من المؤكد أن العضو الذي بلا إحساس يقلل كثيرا من صحة الجسد ، وأن الانسان الذي لا يدرك أنه مريض هو في خطر » (٣٠١) .

أبلغ والد الغلام بوضع ابنه ، واستشير الأطباء ، واستخدمت كمادات متكررة وتدليكات بالزيت وحتى علاجات سامة دون نتيجة كل ذلك كمحاولة لمساعدته ، حيث لاحظنا بمرور الزمن وجود علامات على مرض خطير للغاية من المحال شفاؤه ، وهذا ما اتضح فيما بعد تماما .

من المستحيل الاحجام عن البكاء لدى الحديث عن هذه المحنة الكبيرة ، لأنه اتضح ، عندما بدأ يقترب من سن الرشد ، أنه كان يعاني من مرض الجذام الخطير . وازدادت حالته سوءا يوما إثر يوم ، فقد هاجم المرض الأطراف والوجه بشكل خاص بحيث تأثر خدمه المخلصون شفقة وأثيرت عواطفهم عندما نظروا إليه ، ومع ذلك ، فقد استمر يحقق التقدم في مواصلة الثقافة ، وقدم بشائر واعدة يوما على امتلاكه لطبيعة محبة . وكان جميل المظهر بالنسبة لسنة ، وفارسا ممتازا بشكل يفوق كثيرا عادة أجداده ، وكان على

- ٣٣٣٥ -

دراية بمعاملة الخيول ، وكانت له ذاكرة قوية ويحب الحديث ، وكان مقتصدا لكنه كان يتذكر دائما الرعايات والاساءات ، وشابه أباه في كثير من الملامح ، ليس في الوجه فقط بل في سائر مظهره ، حتى في مشيته ولهجة صوته أيضا ، وكان نكاؤه حادا ، إلا أنه في كلامه كان متلعثما بعض الشيء . واستمع كأييه بتلهف إلى التاريخ ، وكان ميالا بشكل جيد لتتبع النصيحة الجيدة (٣٠٢) .

٢ - ما يتعلق بتاريخ ترسيمه و تتويجه .

لم يتجاوز بلدوين الرابع الثالثة عشرة من عمره يوم وفاة والده ، وكانت له أخت كبرى تدعى سيبيل مولودة من الأم ذاتها قد نشأت في دير القديس لازاروس في بيسان وتربت على أيدي السيدة ايفيتا التي كانت عمة أبيها من ناحية الأم ، والتي كانت راعية للدير .

وإثر وفاة الملك عموري اجتمع نبلاء المملكة الدينيون والعلمانيون على حد سواء في مجلس واحد ووجد أن رغبات الجميع كانت في انسجام تام ، وهكذا رسم بلدوين وتوج بإجلال وحسب الأعراف في كنيسة قبر الرب وذلك في الخامس عشر من شهر تموز وكان اليوم الرابع بعد وفاة والده ، وترأس الطقوس بطريرك القدس أمالرخ ذو الذكرى الطيبة بمساعدة رؤساء الأساقفة ومطارنة الكنيسة الآخرين.

وكان البابا ألكسندر الثالث رئيسا لكنيسة الروم في هذا الوقت ، وكان إيمري بطريركا للكنيسة المقدسة في أنطاكية أما أمالرخ فكان بطريركا للقدس . وكان فريديك رئيسا لأساقفة مدينة صور ، والأمبراطور مانويل صاحب الشهرة الكبيرة والذكرى الوردية يحكم في القسطنطينية ، وفريديك امبراطورا للرومان بينما كان لويس ملكا للفرنجة ، وكان هنري بن غودفري ، كونت أنجو يحكم في بريطانيا ، في حين كان وليم الثاني بن وليم الأكبر يحكم في صقلية ،

- ٣٣٣٦ -

وكان بوهيموند بن الأمير ريموند يحكم أنطاكية ، وريموند الأصفر ابن الكونت ريموند الأكبر يحكم طرابلس .

٣ - معاناة أسطول أرسله ملك صقلية من خسارة كبيرة جدا أمام الاسكندرية في العام الأول من فترة حكم بلدوين الرابع . كونت طرابلس يطالب ، بالوصاية على المملكة وبنياية الملك بحكم قرابته منه .

وفي العام الأول من فترة حكم الملك بلدوين الرابع في حوالي بداية شهر آب (٣٠٣) أرسل الملك وليم صاحب صقلية أسطولاً مؤلفاً من مائتي سفينة لهاجمة الاسكندرية . وأبحر الأسطول إلى مصر مع قوة رائعة من المشاة والفرسان . وقد تكبدت جميع قوات المشاة والفرسان خسائر كبيرة بالموت والأسر خلال الاقامة التي استغرقت خمسة أو ستة أيام أمام المدينة وذلك بسبب فقدان الحذر الذي أظهره الحكام والقادة ، واضطرت في آخر الأمر للانسحاب باضطراب .

كانت شؤون مملكتنا قد عهد بالمسؤولية عنها إلى ميلون دي بلانسي ، ونشأ نتيجة لذلك عداوة خطيرة بين هذا النبيل وبعض نبلاء المملكة ، فقد كانوا يحسدونه على سلطته ولم يتمكنوا من تحمل حقيقة أنه تم تجاهلهم ولم يستدعوا أبداً ، بينما انفرد وحده بجسارة مفرطة وبازدراء للآخرين دوماً إلى جانب الملك وكان مستعداً لمساعدته . وقد أبعد الآخرون في هذه الأثناء عن الاتصال الشخصي مع الملك ، وسير ميلون أمور الدولة دون التشاور معهم .

وجاء في هذه الآونة كونت طرابلس إلى الملك وطالب بحضور النبلاء الذين حدث أن كانوا هنالك بالوصاية على المملكة . وأكد أنه بالفعل أقرب الأنساب إليه والوصاية على الملك ، الذي كان ما يزال

قاصرا ، حق شرعي له ، وقال إن هذا المنصب كان يخصه لأكثر من سبب واحد : ليس فقط لأنه كان من أقرب أنسباء بلدوين ، بل أيضا لأنه كان أغنى الرعايا المخلصين للملك وأقواهم (٣٠٤) وأضاف سببا ثالثا مقنعا جدا وهو أنه عندما تم أسره كان قد أمر من السجن نفسه شعبه المخلص ، بناء على تعهدهم له بالوفاء ، أن يسلموا كافة أراضيه وحصونه وقلاعهم إلى الملك عموري والد هذا الغلام وأن يضعوا كل شيء تحت أوامره ورعايته الملكية ، وعلاوة على ذلك كان قد أضاف أمرا نهائيا وهو إذا كان مصيره كرجل سينيحي حياته في السجن ، فقد عين الملك المذكور أنفا كوريثه الوحيد بحكم كونه أقرب أنسبائه إليه ، وطالب تقديرا لجميع هذه الخدمات أن يأتي الوفاء إليه بسبب الشرف لا بسبب أي أمل في تحقيق امتياز مستقبلي ، وتأجل الرد على مطالب الكونت هذه بسبب أن الملك لم يكن حوله في ذلك الوقت سوى عدد قليل من نبلاء المملكة الذين يمكن أن يستشيرهم ، فسيتم استدعاؤهم ومشاورتهم في وقت موئم وبسرعة حسبما هو ممكن بشكل عام حيث ستقدم بمعونة الله إجابة مناسبة على جميع هذه المسائل ، وعاد الكونت إلى بلاده بعد استلامه هذه الإجابة ، وأيد الناس جميعا تقريبا قضية الكونت ، وكان من بين مؤيديه من النبلاء كل من همفري دي تيرون كافل المملكة وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا وجميع الأساقفة

٤ - مقتل مليون دي بلانسي في عكا . موت فريدريك رئيس أساقفة مدينة صور .

كان مليون دي بلانسي هذا الذي كنا نتحدث عنه ، رجلا نبيلًا من شامبين فيما وراء الجبال ، من بلاد هنري كونت ترويز ، وكان على علاقات حميمة جدا مع قريبه الملك عموري الذي جعله قهرمانا لمملكته . وعند وفاة همفري الأصغر ابن همفري أوف تيرون قدم الملك عموري ستيفني أرملة همفري المتوفى وابنه فيليب صاحب نابلس إلى مليون كزوجة له . وكان مليون بفضل زوجته سيدا على

- ٣٣٣٨ -

وادي عربية ، أي على المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن التي تدعى
عموما باسم الكرك ، هذا وكانت سستيفني قد أنجبت طفلين من
زوجها السابق وهما ابن وابنة .

كان ميلون كما تم ذكر ذلك ، قد استغل الصداقة الحميمة التي
كان قد نعم بها مع والد الملك الحالي واحتقر نبلاء المملكة حتى الذين
كانوا أعظم منه ، ولم يكن حذرا في تصرفاته ، وكان رجلا متكبرا بل
متعجرفا ثملا بالعبارات الطنانة مع نفسية وقحة بشكل مفرط ،
ولكي يقلل من حسد الآخرين بطريقة من الطرق استخدم ذريعة
الحسد بشكل مفرط بالوضوح ومبالغ فيه . وحرض رجلا يدعى
روهارد كان شحنة قلعة القدس ، وكان رجلا عاديا جدا وعاجزا
تماما ، وتظاهر ميلون أنه يطيع أوامر هذا الرجل وكأنه كان خاضعا
له ، وكان الأمر في الواقع على العكس تماما ، فقد كان أحدهما
يحمل لقباً رفيعاً فارغاً من الجوهر بينما قام الآخر تحت ذلك المظهر
بإدارة أمور المملكة كما كان يحب تماما ، وعلى الرغم من أنه كان
يتصرف بإهمال ويتحدث بطيش فقد جعل شؤون مسائل المملكة

تسير وفق رغباته على الرغم من الآخرين . ورتب جميع القضايا
ووزع جميع الامتيازات حسبما أراد مثيرا بذلك كراهية شديدة ضده
شخصيا ، ووصلت الأمور في آخر الأمر إلى مأزق كبير بحيث تم
تحريض بعض الرجال بصورة سرية للتآمر على حياته .

واستهان بهذا الأمر عندما نقل إليه واستمر يتصرف كالمعتاد دون
أن يتخذ تدابير وقائية موائمة . وفي أحد الأيام طعن بينما كان مقيما
في مدينة عكا عند الغسق في الشارع العام وتوفي بعدما عانى من
معاملة شائنة ومخزية ، واختلف الرأي بين الناس بخصوص مقتله
حيث قال بعضهم إنه قتل بسبب الولاء المخلص الذي كان قد أظهره
للملك ، وخلافا لذلك فقد ادعى آخرون أنه كان يتخذ بصورة سرية
الخطوات للاستيلاء على السلطة الملكية ، وقيل إنه كان قد أرسل

- ٣٣٣٩ -

رسلا إلى اصدقائه ومعارفه في فرنسا حاثا إياهم للقدوم بكل سرعة إلى المملكة حتى يتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على المملكة ، لكنني لم اتحقق بشكل قاطع فيما إذا كانت هذه الآراء صحيحة ، هذا ومن المعروف تماما أن بالين صاحب ياقا أخو روهارد المذكور انفا كان قد أرسل إلى المناطق الواقعة فيما وراء البحر مع رسائل وهدايا ملكية وأن عودته كانت تنتظر يوميا .

حدث في هذه الآونة لا بالفعل في الثلاثين من شهر تشرين الأول هذا نفسه ان توفي سلفنا فريدريك (٣٠٥) رئيس أساقفة صور ، وكان رجلا من مرتبة عالية جدا في نسبه ، وكان ذلك في مدينة نابلس حيث كان قد احتجز فيها لفترة من الزمن بسبب مرض خطير ، ونقلت جثته بجنائز وطقوس لادقة الى القدس ودفن في كنيسة هيكال الرب حيث كان شماسا نظاميا في كنيستها .

٥ - وصف كونت طرابلس. والأجداد الذين انحدر منهم وكيف تولى نيابة الملك. تعيين مؤلف هذا التاريخ مستشارا ملكيا.

عاد ايضا في هذه الآونة كونت طرابلس ليتلقى ردا على المطلب الذي كان قد قدمه بخصوص النيابة ، وذلك بعدما اجتمع نبلاء المملكة ورجال الكنييسة بحضور الملك في القدس للتشاور ، وكرر الكونت مطلبه ثانية وأكد على دعواه ذاتها . وبعد دراسة استمرت لمدة يومين متتاليين ، وافق الملك أخيرا بناء على رضا من الجميع ، وقلد الكونت وسط صيحات الابتهاج العالية للناس في كنيسة قبر المسيح جميع سلطات المملكة وحكمها وجعله في المرتبة الثانية للملك فقط ، وبما اسم الكونت جلب إلى الشهرة في محصلة الأحداث التي نحن بصددتها ، يبدو هذا وقتا موانما لنسجل من أجل فائدة الاجيال القادمة الحفائق التي كنا قد علمناها بتيقن حوله ، وليس في نيتنا ان نكتب مديحا ، غير أننا سنعلن عما كان وعن نسبه بقدر ما يسمح السياق المحدد بالضرورة لتاريخ موجز .

يعود أصل الكونت ريموند ، موضوع بحثنا ، حسب النسب إلى ريموند الأكبر ، ذلك الذي كان قائدا هاما في جيش الرب الذي تمت باعماله ومآثره الحماسية إعادة مملكة الشرق إلى خدمة المسيح ، وسجلت هذه الحقائق بدقة عندما كنا نتعامل مع الزعماء الأوائل الذين قدموا في الحملة الأولى ، وكان للكونت ريموند الأكبر ، ذي الذكرى النفيسة ، ولد يدعى برترام الذي أصبح كونتا لطرابلس بعد وفاة أبيه واغتيال وليم جوردان وكان ابن أخت الأخير . وكان لبرترام ابن يدعى بونز نجح إثر وفاة والده بالوصول إلى الحكم بحق وراثي ، وتزوج من سيسيليا أرملة تانكرد وابنة فيليب ملك فرنسا وقد أنجب منها غلاما يدعى ريموند خلفه في حكم طرابلس وتزوج ريموند من هوبرينا ابنة بلدوين الملك الثاني للقدس ، وهي التي أصبحت أما لريموند هذا الذي نتحدث عنه الآن ، وخلف ريموند هذا أباه ككونت لطرابلس بعدما قتل ريموند الأكبر عند باب المدينة في طرابلس في هجوم مفاجيء شنته الحشيشية ، ولذلك فقد كان هذا الكونت من جانب والدته ابن خال الملك عموري وبلدوين لأنهما كانا ابنين لأختين ، لكنه كان من منزلة أدنى من ناحية والده ، وكانت سيسيليا ، المذكورة منذ لحظات ، جدته من ناحية والده ، وأختا للملك فولك والد الملك بلدوين وعموري ، أختا له من أمه وليس من أبيه ، لأن أمهما التي كانت أخت أموري مونتفرات كانت زوجة لفولك الأكبر كونت أنجو وقد تركت زوجها بعد مولد فولك الأصغر وهربت إلى فيليب ملك فرنسا ، الذي أنجبته منه سيسيليا هذه وأبناء آخرين كثيرين : وكان فيليب - مفتونا بالكونتس برترام - قد طرد ، خلافا لقانون الكنيسة الملكة زوجته الشرعية التي كان قد أنجب طفلين منها هما لويس وكونسانس ، وهكذا ، كان الكونت والملكين المذكورين مرتبطين من كلا الجانبين .

كان الكونت رجلا صاحب بنية نحيفة ، وكان هزيلا للغاية متوسط الطول ، وله بشرة داكنة اللون ، وكان شعره أسود مسبلا إلى حد ما ، وكانت له عينان ثاقبتان وكثفاه منتصبتان جدا ، وكان حازما وقويا في العمل ومعروفا برباطة الجأش والحكمة ، وكان معتدلا في

تناول كل من الطعام والشراب بشكل يفوق كثيرا الرجل العادي ، وأبدى سخاء نحو الغرباء إلا أنه لم يكن سخيا جدا نحو شعبه ، كان متعلما بشكل جيد إلى حد ما وهو إنجاز كان قد حققه عندما كان أسيرا لدى العدو ، إلا أن ذلك تم على حساب بذل جهد كبير وقد ساعده في ذلك حدة نهته الطبيعية (٣٠٦) ، وبحث بتلهف مثل الملك عموري عن المعرفة المتضمنة في الأعمال المكتوبة ، وكان لا يعرف التعب في طرح الأسئلة إذا ما حدث ووجد شخص كان قادرا برأيه على الإجابة.

وتزوج في العام ذاته ، الذي باشر فيه إدارة المملكة ، من أسيافا وكانت امرأة ثرية جدا وأرملة لـ لوولتر أمير طبرية الذي أنجبت منه أطفالا كثيرا ، إلا أنها ، ولسبب مجهول ، لم تنجب أي طفل من الكونت بعد زواجها منه . ويقال إنه أحبها وأبناءها برقة وكأنها كانت قد ولدتهم جميعا له .

ولنعد الآن بعد هذا الاستطراد القصير إلى السياق الرئيسي . وكان رالف ، نو الذكري النفيسة ، أسقف بيت لحم ومستشار المملكة قد توفي خلال الصيف السابق (٣٠٧) ، ولكي يكون هنالك شخص مسؤول عن المراسلات الملكية فقد عينني الملك في ذلك المنصب بناء على نصيحة نبلائه ، ومنحني مرتبة مستشار

٦ - استيلاء صلاح الدين على مدينة دمشق والأجزاء الأخرى من تلك المنطقة تلبية لأهالي دمشق . وكونت طرابلس يزحف ضده لمقاومة خططه .

وفي هذه السنة استدعى أعيان دمشق البارزين سيرا صلاح الدين ابن نجم الدين الذي خلف عمه شيركوه في مملكة مصر وكان الملك الصالح بن نور الدين حاكمهم الشرعي قد جعل مقره في مدينة حلب ، وأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف

الدين ، وأسرع عبر الممرات الصحراوية لسورية ووصل إلى دمشق ليستولي على المملكة ، وتقدم بعد مضي بضعة أيام ، وبعد أن استلم المدينة من سكانها ، ضمها إلى سورية المجوفة حيث أمل في وضع جميع مدن تلك المنطقة تحت حكمه دون حرب ، وثبت أن هذا الأمل كان صحيحا ، حيث استسلم سكان تلك المدن خلال وقت قصير له طوعا ، وفتحوا أبواب مدنهم له ، وهكذا ، وخلافا للولاء الذي كان مدينا به لسيده وحاكمه ، استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الإقليم أي : مدينة هيليوبولس المسماة بهذا الشكل باللغة الاغريقية والمعروفة حاليا باسم ملك أو بعلبك باللغة العربية ، ومدينة حمص المسماة عموما باسم كامبلا وحماه وشيزر المسماة عادة باسم قيسارية الكبيرة ، وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة ، إلا أن ذلك لم يحدث بالمصافاة .

هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في تلك الجزء من المنطقة ، وكان الملك قد تلقى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل ، عندما توشك تغيرات هامة أخرى أن تحدث . وتقرر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء ، وبموافقة الجميع أنه ينبغي على الكونت أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدم صلاح الدين ، وكان هذا اجراء حكيما ، لأن أية زيادة لقوة صلاح الدين كانت سببا للريب في نظرنا ، وبدا كل شيء زاد من سلطته بأنه مضر تماما بمصلحة المملكة ، لأنه كان رجلا حكيما في الرأي وشجاعا في الحرب وسخيا بشكل يفوق الحدود ، ولهذا السبب بالذات ، ارتاب به نبلاؤنا الذين كان لديهم بصيرة أشد ، فحتى في أيامنا لا توجد وسائل أفضل يستطيع الملوك بواسطتها أن يكسبوا قلوب رعاياهم ، أو قلوب سواهم أكثر من اظهار الكرم والسخاء نحوهم ، وما من شيء كالكرم يجنب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتي من الأمراء ، ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية لأن صلاح الدين

- ٣٣٤٣ -

إذا زاد في حجم ممتلكاته ، ووسع امبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة ، بقوات كبيرة ، ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من قبل ، هذا وكانت جميع المحاولات للتصدي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها ، ونرى اليوم (٣٠٨) بعيون باكية ان مخاوفنا قد تحققت ، لأنه قد نهض بقوة جبارة ضدنا برا وبحرا حيث ليس لدينا أمل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين.

وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد ، ليس بأبداء بعض اللطف نحوه إكراما له ، بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خطط صلاح الدين وتقليل فعالية هجماته على المملكة .

٧ - لماذا أصبح العدو أعظم قوة في مواجهة المسيحيين

لا بد لي أن أستطرد في هذه المرحلة فأخرج عن مجرى روايتي بعض الشيء ، ليس لأطوف بلا هدف ، بل لأوضح شيئا قيما ، فالسؤال المطروح دائما ، وبعدل تام هو لماذا قاوم أبائنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عددا ، قاوموا دائما بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير ، ولماذا كانت يوما قوة صغيرة تبديد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو ، مما جعل مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب ، وهكذا تمجد الرب بأعمال أبائنا ، ويقابل هذا أننا نجد رجالنا في أيامنا غالبا ما قهروا من قبل قوات أننى منهم وأقل ، وفي الواقع ، كانت جهودهم عقيمة وغالبا اضطروا للاستسلام عندما حاولوا القيام ببعض المآثر ضد أعداء كانوا أننى قوة منهم .

ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون

للعون من الرب ، خالق كل شيء أن السبب الاول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالا متدينين ويخافون الرب ، قد قام مقامهم الآن جيل شرير أبناء أثمون مزيغون للعقيدة المسيحية يتبعون سبيل جميع الأشياء المحرمة دونما تمييز ، وهم أشبه ، أو حتى أسوأ من الذين قالوا لربهم : « أبعد عنا وبمعرفة طررك لا نسر » (٣٠٩) ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم وكأنما أثير سخطه ، هؤلاء هم رجال العصر الحالي ، وخاصة القاطنون في الشرق ، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة سيقف عاجزا أمام هول المادة وضخامتها وسيبدو بالاختصار بأنه يكتب مقطوعة هجائية أكثر من أنه يصنف تاريخا (٣١٠)

ويبرز أمامنا بالمناسبة سبب آخر : لقد اعتاد الرجال المبجلون الأوائل الذين قدموا في الأزمان السابقة إلى بلدان الشرق تقودهم الحماسة السماوية والذين كانوا ملتهبين باندفاع روحي نحو العقيدة على النظام العسكري ، وكانوا مدربين على خوض المعارك وكانوا معتادين على استعمال الأسلحة (٣١١) ، وعلى العكس كان أهالي الشرق قد أصبحوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل ، ولم يكونوا معتادين على فن الحرب وغير مطلعين على قواعد القتال ، وكانوا مبتهجين في حالة كسلهم ، ولذلك ليس غريبا أن رجالا مقاتلين ، وإن كانوا قلة في عددهم ، قد تغلبوا على أعداد كبيرة وكان بإمكانهم أن يتباهوا بتفوقهم بتحقيق شرف النصر ، لأنه في أمور كهذه (كما يعرف أكثر مني الذين لديهم خبرة أكبر في الحرب) أن البراعة في الأسلحة العائدة إلى ممارسة مستمرة وطويلة تفوز عادة عندما تتصدى لقوة غير مدربة ولدى تصديها لانعدام الاضرار .

ويفرض سبب ثالث ، مماثل في أهميته وفعاليته ، نفسه على اهتمامي : لقد كان فيما مضى لكل مدينة حاكمها الخاص وإذا ما تكلمنا حسب أسلوب أرسطو لم تكن هذه المدن معتمدة على بعضها بعضا ، ونادرا ما تحركت بالبواعث نفسها ، بل ثارت بالواقع ببواعث معاكسة تماما في مرات كثيرة، هذا وأن تقاتل في المعركة ضد

أعداء لهم آراء مختلفة اختلافا شاسعا ومصالح متضاربة كثيرا ، خصوم يرتابون ببعضهم بعضا فيه مخاطر أقل ، وهكذا لم يستطع الذين كانوا يخافون من حلفائهم أكثر من خوفهم من المسيحيين أن يتحدثوا بسهولة للتصدي للخطر المشترك ولا أن يسلموا أنفسهم لآبائنا . لكن الآن جلبت بإرادة من الله جميع الممالك المتاخمة لنا وصارت تحت سلطة رجل وقد حدث مؤخرا أن تمكن زنكي ، الوحش الذي كان يمقت الاسم المسيحي كما يمقت الوباء ، والذي كان أبا لنور الدين هذا الذي توفي منذ زمن قريب ، تمكن بالأمس القريب من الاستيلاء أولا بالقوة على ممالك كثيرة ثم استولى بكل قوة على الرها المعروفة أيضا باسم أديسا ، التي كانت - حتى داخل ذاكرتنا - الحاضرة الرائعة والبارزة للميدين ، لقد استولى على هذه المدينة مع جميع توابعها وقتل جميع المؤمنين المخلصين الذين عثر عليهم داخل حدودها .

ثم قام ولده نور الدين بطرد ملك دمشق من بلاده ، وحصل هذا بواسطة خيانة رعايا الملك له لا عن بذله أية شجاعة حقيقية ، لقد استولى على تلك المملكة لنفسه وأضافها إلى ميراثه الأبوي ، ثم استولى نور الدين هذا نفسه مؤخرا على مملكة مصر الغنية والقديمة بالمساعدة المواظبة لشيركوه وخصص نفسه بها بالطريقة التي تم سبردها بشكل تام عندما بحثنا في فترة حكم الملك عموري .

وهكذا أصبحت كما ذكرت من قبل جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد ، وتنفذ أمر رجل واحد وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط ، وأن تحمل السلاح حتى على مضض للاحاق الضبر بنا ، ولا يوجد أحد يجروء على الانغماس في أية نزعة خاصة به أو أن يتجاهل - بغير إفلات من تعرضه للعقوبة - أوامر سيده الأعلى ، فصلاح الدين هذا الذي حصلنا على فرصة لنذكره مرارا ، والذي كان ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع ، يسيطر الآن على جميع هذه الممالك ، حيث كان القدر قد ابتسم له بلطف كثير ،

الفرسان قيل أنها كانت قوية جدا ، وزحف ضد الخونة ليحمل العون إلى ابن أخيه .

كان هذا الأمير العظيم حاكما لمدينة نينوى تلك المدينة القديمة والمشهورة جدا ، والتي يقال إنها تحولت منذ زمن طويل إلى خراب ورماد بسبب إنذار من النبي يوحنا ، ونشأت مكانها مدينة جديدة تحت اسم معدل جديد هو الموصل وذلك على مقربة من تلك المدينة الأكثر قدما ، وقد بنيت من بقايا نينوى القديمة وهي تـؤوي المنحدرين من المدينة السابقة وتحفظ بالمنزلة المبجلة بكونها عاصمة إقليم أثور بأكمله ، ونصب الأمير لدى وصوله معسكره في السهل الواقع حول مدينة حلب .

كان صلاح الدين خلال هذا الوقت بدون أعمال ، وكان قد حاصر بصرى أهم مدن العربية الأولى وحاصر أيضا مدينة هيلوبولس التي تدعى الآن عادة باسم بعلبك حيث استسلم له سكان كلتا المدينتين طوعا ودون حرب . ثم حاصر مدينة حمص المعروفة أيضا باسم كاميلا .

سلم السكان الجزء السفلي من هذه المدينة ودون أنى تأجيل ، حيث كان الذين بقوا مخلصين للملك الشاب قد انسحبوا إلى القلعة التي كانت واقعة على هضبة مرتفعة بعض الشيء وكانت قد حصنت بقوة فيما مضى ، وكانت مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن ، وتلقى صلاح الدين استسلام بعض المدن الأخرى على أيدي سكانها مما كان واقعا في المنطقة المجاورة لهذا الاقليم ، وهي مدن حماه وشيزر وسائر المنطقة وصولا إلى مدينة حلب نفسها .

وارسل اللاجئين المقيمون في قلعة حمص في هذه الاثناء رسلا الى كونت طرابلس ، وإلى قواتنا التي كانت قد خيمت في الموقع المذكور انفا وكانت تنتظر على أمل أنه يحدث هذا الاضطراب الهائل لا بد أن هذا الطرف أو الآخر سيستدعيهم وفق الشروط المرغوبة ،

وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب ومن الذووعية الممتازة المعروفة باسم الابريز (٣١٢) وتزود اقاليم اخرى بمجموعات لاتحصى من الفرسان والمقاتلين ، رجال متعطشون للذهب ، لأنها مسألة سهلة بالنسبة للذين يملكون كميات وفيرة من هذه السلعة أن يجتنبوا الجند إليهم ، ولنكمل الآن قصتنا (٣١٣)

لقد بدا مرغوبا في رأي جميع الحاضرين ، كما ذكرنا ، وجوب بذل كل جهد ممكن لمقاومة هذا الرجل الرائع في تقدمه السريع - من خلال انتصاراته المتتالية - نحو القمة العليا لطموحه ، وكان الشعور العام أنه قد يبرهن وهو يزداد قوة أكثر فأكثر أنه العدو الأشد خطرا وإخافة بالنسبة لنا ، وهكذا ، جمع الكونت العساكر من جميع المناطق المجاورة وأسرع بالتوجه إلى منطقة طرابلس بمرافقة نبلاء المملكة ، وتمركز في الاقليم المعروف باسم بلاد الخليفة وأقام معسكره بالقرب من مدينة عرقة .

٨ - حاكم الموصل يقدم بسرعة لمساعدة ابن اخيه .
انتصار صلاح الدين عليه و استيلائه على المنطقة
بأسرها . الكونت يعقد معاهدة معه . تسلمه
الرهائن .

عندما كانت هذه الاشياء تقع في وسطنا ، علم عم ابن نور الدين ، الذي كان أميرا قويا جدا يدعى (قطب الدين) ، وواحدا من أقوى الأمراء بين الشرقيين المنحدرين من الأصل الفرثي ، بوفاة اخيه وبكل الظروف اللاحقة لها ، وكان صلاح الدين قد تمرد الآن على سيده الشرعي بتحد واضح لقوانين الانسانية ، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة ، وبإنكار للمساعدات التي كان قد أغدقها عليه والد ذلك الفتى ، وعبر قطب الدين نهر الفرات بعدما جمع قوة كبيرة من

وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتوسلوا إليهم للقنوم دون تأجيل وأن يعدوهم أن أية مساعدة يمكن أن يقدموها ضد عدو مخيف كهذا ستلاقي مكافأة لائقة .

وعلاوة على ذلك ، كان يوجد في هذه القلعة ذاتها الرهائن التي كان الكونت قد أعطاها لنور الدين ، والد الملك الشاب ، مقابل إطلاق سراحه من الأسر ، وذلك كضمان لمبلغ تصل قيمته إلى ستين ألف قطعة ذهبية على الأقل ، كما كان يحتجز فيها بعض الرهائن التي قدمها رينو صاحب صيدا لاسترداد أخيه يوستاس .

أسرع المسيحيون بالزحف نحو القلعة مع جميع قواتهم بكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إنجاز ترتيب ما يتمكنون بواسطته من الحصول بوعد إطلاق سراح هؤلاء الأسرى من قائد القلعة التي كانوا محتجزين فيها ، مقابل إمكانية تقديم المساعدة ، غير أنهم اكتشفوا أنه لا يمكن الاعتماد أبداً على أقوال الكفرة ، حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفع الحصار بوساطة جهود الأمير المذكور آنفاً ، ولهذا عاد المسيحيون أخيراً إلى المعسكر الذي كانوا قد غادروه قبل فترة قصيرة ، وذلك بعد دراسة دقيقة للموقف ومن زوايا متنوعة .

وزادت حقيقة أن المسيحيين قد انسحبوا وكأنهم غاضبون من عجرفة صلاح الدين ، وبدأ يقترب من مدينة حلب وأضعا أهمية كبيرة على انسحابهم ، وضايق هنالك بسلسلة من الهجمات المتكررة قوات الزعماء وحاول إثارتهم للقتال ، والتقت القوات في آخر الأمر بعد تحديات كثيرة من هذا القبيل في معركة في غاية العنف تم خوضها من مواقع متلاحمة ، وقد تغير فيها تيار المعركة في آخر الأمر لمصلحة صلاح الدين ، واضطر الموصليون للاستسلام ، ويقال إن بعض الناس من شعبهم قد خانوهم بعدما أخذوا رشوات كبيرة من المال ، وعاد الآن صلاح الدين إلى حمص واستولى على قلعتها مثلما كان قد استولى على المدينة من قبل .

وأرسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت أن لا يعترض تقديمه الظاهر بل أن يسمح له في الصراع منفردا مع ابن نور الدين والآخرين الذين كانوا قد أتوا لمساعدته ، وخشية أن يرفض هذا الاقتراح بازدياد ودون تعويض لائق ، فقد عرض أن يطلق سراح رهائن الكونت ورهائن رينودون دفع للمال ، فوافق الكونت على هذا الاقتراح وأعيدت الرهائن كما اتفق على ذلك في التسوية وصرف النبلاء الذين شاركوا في هذه الحملة بسخاء لائق ، ثم جرى التخلي عن المعسكر وعاد الجميع إلى ديارهم .

يقال إن همفري أوف تيرون كافل المملكة ، كان مرتبطا بروابط الصداقة القوية مع صلاح الدين . وكان عمله ضارا بلا ريب بمصالحنا ، حيث نال هذا الأمير ودنا ، في حين كان ينبغي مقاومته إلى الحد الأقصى خشية أن تزداد وقاحته ضدنا مع ازدياد قوته ، ذلك أن قوته المتزايدة كانت تضر دوما بالمسيحيين وتسببه للتجرؤ على الاستخفاف بنا .

وهكذا ، فإن القوات التي كانت قد غادرت المملكة في حوالي الأول من شهر كانون الثاني عانت إلى الوطن ثانية في حوالي الأول من شهر أيار (٣١٤)

٩ - موت مينارد أسقف بيروت . ترقية مؤلف هذا التاريخ إلى مرتبة مطران لمدينة صور .

حدث في هذه الآونة ، أي الخامس والعشرين من شهر نيسان ، أن توفي مينارد أسقف بيروت صاحب الذكرى السعيدة وحدثت وفاته في مدينة صور بعد مرض مزمن استمر لفترة من الزمن ، فلتنعم روحه بالسلام .

وكانت الكنيسة في صور الآن بلا رئيس لها وذلك منذ سبعة أشهر

مقتالية ، هذا وقد استدعيت في هذا الشهر (٣١٥) ذاته بناء لرغبة جماعية من رجال الدين والناس ويتأكد الملك أيضا كما هو مألوف ، ومن خلال معاناتي في ذات الرب ، أكثر من أي ميزة من ميزاتي ، دعيت لأتولى المسؤولية في تلك الكنيسة ، وتلقيت بعد مضي عشرة أيام أي في الثامن من شهر حزيران وبمشيئة الرب هبة الترسيم على الرغم من أنني لا أستحقها بأكملها وكان ذلك في كنيسة المسيح على يدي أمالرخ بطريرك القدس .

١٠ - الملك يغزو أراضي الدمشقيين و يخرب المنطقة . موت هرنيسيوس رئيس أساقفة قيسارية .

وصلت في هذه الآونة بينما كان صلاح الدين مذشغلا بإنهماك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب أخبار كان مفادها أن منطقة دمشق ، التي كانت خالية من جيش يحميها وقائد يرعاها ، معرضة للنهب وفريسة سهلة لأي أذى يمكن لأي عدو أن يلحقه بها بموجب حق الحرب ، وجمع الملك بلدوين لدى تلقيه هذه المعلومات قوة من الفرسان وعبر الأردن ، ومر خلال الغابة الواقعة بالقرب من مدينة بانياس والتي تشتق اسمها منها ، ووصل إلى سهل دمشق بعدما ترك سلسلة جبال لبنان المشهورة على يساره ، وكان ذلك في زمن الحصاد ، وتفرقت قواتنا فوق السهول وتجولت بحرية في جميع الاتجاهات ، وأودعت إلى السنة النيران المحاصيل النامية والبيادر المجمع في الحقول وذلك بالإضافة إلى الغلال التي كانت مخزنة في مخازن الحبوب ، هذا وكان المزارعون الذين أخطروا بمقدمنا ، قد انسحبوا مع زوجاتهم وأطفالهم إلى أمكنة محصنة بشكل أكثر قوة ، وهكذا تقدمت قواتنا وصولا حتى داريا بعدما جعلت المنطقة بأسرها تحت سيطرتها ، وداريا هذه هي قرية في السهل الواقع في جوار دمشق وتقع على بعد نحو أربعة أميال من تلك المدينة ، وتقدمت قواتنا من هناك إلى عين الجر التي تقع عند سفح جبل لبنان ، وقد أعطت المياه الصافية المتدفقة من تلك المرتفعات الموقع

اسم منزل السبرور ، واستولت قواتنا على هذا الموقع بالقوة على الرغم من المقاومة الشجاعة لسكانه ، ثم رحلت القوات ناقلة معها مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين ، ووصلت بعد عدة أيام إلى الوطن سالمة وأمنة .

وتوفي في هذه الأونة نفسها هرنيسيوس ، رئيس أساقفة قيسارية صاحب الذكرى الطيبة ، واختير هرقل ، رئيس شماسة القدس ، خلفا له ورسم بشكل لائق .

١١ - الملك يجتاح بلاد العدو من جديد ويخرب واديا يدعى البقاع. تحرير كل من ارناط وجوسلين خال الملك من قيود العدو.

استدعى الملك بلدوين الرابع في العام الثاني من حكمه ، وفي الأول من شهر آب (٣١٦) زعماء المملكة وذلك بينما كان صلاح الدين ما يزال مذغلا أمام مدينة حلب ، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد ، فعبر صيدا ثم صعد الجبال التي تقع بين أراضينا وأراضي العدو ووصل إلى المصارة وهو موقع ينعم بتربة خصبة وترويه الأنهار بشكل جيد ، وفي الواقع ، هو مزود تقريبا فيما يبدو بكل ما هو موائم زمانيا ، ونزل من هناك مجددا إلى واد يدعى البقاع حيث عثر على البلاد الممتلئة بالحليب والعسل حسبما نقرأ في الكتب المقدسة ، ويعتقد بعضهم أن هذه هي المنطقة التي كانت تسمى في العصور القديمة باسم ايطورية والتي أخبرنا عنها في إنجيل لوقا أن فيليب بن هيرارد الأكبر كان حاكما لها ، كما كان حاكما أيضا لبلاد تراخونيتس ، وكانت منذ زمن قديم جدا ربما خلال أيام ملوك اسرائيل تسمى باسم غابة لبنان لأن الوادي امتد إلى سفح جبال لبنان ، وهذه المنطقة جذابة كثيرا بسبب تربتها الخصبة ومياهها الصحية والسكان الكثر في دساكرها الكثيرة ، ومناخها المستساغ ، وتظهر في الجزء السفلي من هذا الوادي مدينة تحاط حتى اليوم بأسوار قوية حيث تعطي أبنيتها التي تعرف الآن باسم عين الجر دلائل كثيرة عن عظمتها في الأزمان الماضية .

يعتقد بعض طلاب تاريخ العصور القديمة بأن هذه هي تدمير ، التي كانت فيما مضى مستعمرة فينيقية مهيبية والتي أورد يولييان الصوري ذكرها في « المختصر » الجديد في فصل « الاحصاء » (٣١٧)

بدأت قواتنا ساعة وصولها إلى هذا الموقع باجتياح المنطقة بأسرها دون عائق وأشعلت النار في كل شيء ، ولم يمنعهم أحد لأن السكان كانوا قد هربوا إلى الجبال ، حيث لم يكن هنالك أي طريق يستطيع الجنود عبوره ذلك أنهم كانوا قد أخطروا باقترابنا ولذلك دفعوا بالقسم الأكبر من قطعانهم وحيواناتهم إلى الغياض الواقعة في منتصف الوادي حيث كان المرعى خصبا جدا .

تقدم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده ، بعدما عبر سهل جبيل الواقع قرب القلعة المعروفة باسم المنيطرة حسب ترتيب مسبق ، إلى المنطقة المجاورة لبعبك الواقعة في الوادي نفسه حيث شرع في إحراق كل شيء ، وأسرع شعبنا لدى سماعهم بهذا النبأ بتلief في ذلك الاتجاه ، وبما أن الكونت كان راغبا بشكل مماثل في مقابلتنا فقد وحد الجيشان قواتهما في منتصف الوادي تقريبا .

كان شمس الدولة ، أخو صلاح الدين ، مقيما في دمشق كحاكم لها ، وجمع قواته حالما بلغه هذا النبأ وبذل بمساعدة سكان المدينة جهدا للمقاومة ، ونظم صفوفه وعبأها بترتيب المعركة واستعد ليزحف نحونا ، كما رتبت قواتنا كتائبها أيضا بترتيب جيد وتقدمت بروح شجاعة نحو القتال ، وحارب الجانبان بشجاعة ، وقتل الكثيرون وجرح عدد أكبر ووقعت أعداد كثيرة في الأسر . إلا أنه تم في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار ، ونجا شمس الدولة مع عدد قليل من أتباعه وهرب إلى المنطقة الهضبية المنحدرة . وعاد المسيحيون محملين بالمغانم من العدو مع قطعان المواشي ومقدار ضخم من المغانم ، وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغل في الغياض للنهب مع أنهم لم يكونوا

- ٣٣٥٣ -

مطلعين على الطرقات ، ولم يعرفوا خبر الانسحاب المفاجيء للقوات المسيحية .

وهكذا ، عاد الملك وجنوده بإرادة الرب إلى مدينة صور بسلامة تامة . وجلبوا معهم مغانم ثمينة من كل نوع بما فيها قطعان الحيوانات وكميات كبيرة من الأغنام كبراهين بارزة على قوتهم الظاهرة .

وقفل كونت طرابلس ، الحمل أيضا بغنيمة ثمينة ضخمة ، مسرورا مع قواته وعاد إلى ممتلكاته سالكا الطريق نفسه الذي كان قد قدم بواسطته .

وعاد خلال ذلك العام نفسه (٣١٨) أرناط والذي كان قد ورث بواسطة زواجه من كوندستاس أرملة ريموند ، أمير انطاكية ، تلك الامارة ، وحصل على اطلاق سراحه عندما دفع اصدقاؤه فدية كبيرة وبعد عدة سنوات من الأسر الصعب في حلب ، وكان معه جوسلين بن جوسلين كونت الرها وخال الملك الذي أنقذه أيضا من السجن وأعيد إلى الحرية بفضل الجهود المستمرة للكونتس أغنيس زوجة رينو صاحب صيدا ووالدة الملك .

كما تلقى في ذلك العام نفسه وفي اليوم الثاني من شهر أيار كل من أودو الأسقف المنتخب لصيدا والذي كان شماسا للكنيسة في صور ، وريموند الأسقف المنتخب لبيروت ، تلقيا هبة الترسيم في الكنيسة في صور من خلال إدارتنا لها .

١٢ - إمبراطور القسطنطينية يتعرض للهزيمة بشكل مخز في قونية

واجه مانويل امبراطور القسطنطينية صاحب الماضي الرائع

والذكرى اللطيفة في المسيح ، وهو الذي كان الجميع تقريبا قد استفادوا من خدماته ونالوا من كرمه وسخائه غير المحدود ، واجهه ايضا في هذه الآونة نفسها كارثة خطيرة في قونية ، فقد كان يحاول بورع جدير بالثناء أن ينشر الاسم المسيحي بمحاربة عرق الأتراك المرعب وزعيمهم الشرير سلطان قونية . غير أنه عانى هناك وبسبب آثامنا من مذبحة كبيرة ، ولم تشتمل هذه المجزرة على المجموعة الشخصية لاتباعه فقط ، بل شملت أيضا القوات الامبراطورية التي كان يقودها معه بأعداد كبيرة جدا وبشكل يكاد يفوق التخيل البشري ، ورافق الاشتباك بخسارة ضخمة في الجند كان بينهم بعض اقاربه البارزين الجديرين تماما بذكر خاص ، فقد كان بينهم ابن أخيه يوحنا البروتوسياستوس وكان رجلا سخيا مشهورا وصاحب كرم ملحوظ وهو الذي كان الملك عموري قد تزوج من ابنته ماريا ، فقد قتل عندما كان يبدي مقاومة شديدة أمام العدو وبعدما أصيب بجراحات كثيرة بالغة ، ونجح الامبراطور نفسه في جمع معظم جيشه ووصل إلى بلده سالما جسديا ومنهكا ذهنيا إلى حد بعيد بسبب الكارثة المشؤومة. ويقال إن هذه الكارثة نشأت إلى حد ما عن طيش الضباط الامبراطوريين الذين كانوا مسؤولين عن الفرق العسكرية وليس بسبب قوة العدو ، لأنهم حشروا أنفسهم بإهمال وباندفاع في الأماكن الضيقة الخطيرة التي كان العدو قد استولى عليها مع أنه كانت هناك طرق مفتوحة وواسعة ومهيأة بشكل جيد لمرور الجيش ولنقل كتلة الامتعة ، ومختلف المعدات التي قيل إنها كانت تفوق التقدير ، وقد استحال في ظل ظروف من هذا القبيل إبداء المقاومة ، ولم يكن هنالك أية فرصة لتغيير المعطيات تغييرا تاما ضد العدو ، ويقال إن الامبراطور حمل منذ ذلك اليوم وبشكل مؤثر بعمق على فؤاده ، ذكرى تلك الكارثة المميتة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا ابتهاج الروح الذي كان صفة له ، ولم يبد نفسه مبتهجا أمام شعبه مهما توسلوا إليه ، ولم ينعم قط طوال حياته ، بالصحة الجيدة التي كان يمتلكها قبل تلك الكارثة بدرجة رائعة جدا.

وبالاختصار ، لقد انهكته يوما ذكرى تلك الكارثة لأنها ظلت ماثلة

امامه الى درجة انه لم ينعم أبدا ثانية بهدوء الذهن او براحة النفس
المألوفة (٣١٩)

١٣ - وصول وليم الاصغر ، مركيز مونتفرات الى
سورية وزواجه من اخت الملك .

وفي العام الثالث لحكم بلدوين الرابع وصل الماركيز وليم ، الملقب
بالسيف الطويل (٣٢٠) ، ابن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات الى
ميناء صيدا مع بداية شهر تشرين الأول ، وذلك بدعوة من الملك
وجميع نبلاء المملكة المندبيين والدينيين ، وتزوج من الأخت الكبرى
للكل خلال اربعين يوما من وصوله ، وكان هذا الزواج قد تم ترتيبه
في العام السابق في الوقت الذي دعي فيه وليم للاقدوم لهذا الغرض ،
وقد تم تأكيد هذا بيمين اداء الملك وجميع النبلاء بشكل مؤكد
ومهيّب ، وتلقى وليم مع زوجته مدينتي يافا وعسقلان البحريتين مع
توابعهما والمقاطعة بأسرها أيضا بموجب الاتفاق المعقود حول ذلك
في تلك الآونة ، غير أن بعضهم عارض هذا الاجراء ولم يترددوا في
التعبير عن معارضتهم علانية ، وكانوا بين الذين سبق أن وافقوا
على الدعوة التي وجهت لوليم دون إعطاء المسألة الاهتمام
الكافي ، وقد غيروا آراءهم الآن كما هو مألوف بالنسبة للطبائع
البشرية المتبدلة والمتقلبة .

كان الماركيز طويلا بعض الشيء ، وشابا وسيما شعره
اشقر ، وكان سريع الغضب بشكل مفرط غير أنه كان في غاية الكرم
وله مزاج متحفظ وشجاعة ورجولة . ولم يخف أبدا أية غاية بل
أبدى علانية تماما ما كان يفكر به في ذهنه ، كان مغرما في تناول
الطعام وموقفا نفسه تماما على الشرب ، ولكن ليس الى درجة
الحاق الضرر بعقله . وكان قد تدرب على استخدام السلاح منذ
حداثة سنه واشتهر بتمرسه في فن الحرب ، وكانت منزلته الدنيوية
ممجدة ، ولم يتمكن في الواقع الاقله من محاكاته إن ادعينا أن له
نظراء ، وكان والده خال لويس ملك فرنسا ، وكانت والدته أخت

كونراد الامبراطور الشهير للرومان ، وعمة لفريديريك الذي يدير
الامبراطورية الرومانية بقوة بعد وفاة عمه اللورد كونراد صاحب
الذكرى المشهورة ، وهكذا ، كان الماركيز مرتبطا بهذين الملكين
البارزين بالدرجة نفسها من القرابة .

ولم يكن قد انقضى الا ثلاثة أشهر تقريبا على زواجه عندما أصيب
بمرض خطير ، وقد كابد الآلام لقرابة شهرين بدون توقف وقد توفي
في شهر حزيران التالي في الوقت الذي كان الملك فيه مريض جدا في
عسقلان وقد خلف زوجته حاملا ونقلت جثته الى القدس ودفن بأبهة
عظيمة في ردهة كنيسة دار الداوية والى اليسار من المدخل ، وقد
ترأس القداس وليم الصوري مؤلف هذا الكتاب (٣٢١) .

وتزوج في هذه الآونة همفري أوف تيرون كافل المملكة ، من
السيدة فيليبيا ، وكانت ابنة ريموند أمير انطاكية وأخت بوهيموند
الثالث الذي يحكم الآن هذه الامارة ، وأختا لماريا امبراطورة
القسطنطينية وكانت فيليبيا قد تزوجت للمرة الاولى من أندرونيكوس
أحد أقرباء الامبراطور ، لكنه طلقها وتزوج سرا من ثيودورا أرملة
الملك بلدوين وابنة أخيه (٣٢٢) ، وهو عمل مخز وفاحش على حد
سواء . وما أن أخذ همفري هذا ، الذي كنا نتحدث عنه منذ
لحظات ، فيليبيا الى بلاده حتى أصيب بمرض شديد ، كما أصيبت
زوجته بداء خطير ماتت بسببه خلال بضعة أيام .

١٤ - وصول كونت فلاندرز الى المملكة وذلك بعد
طول انتظار . في العام الرابع والشهر الثاني من حكم
الملك بلدوين الرابع

في العام الرابع والشهر الثاني من حكم الملك بلدوين الرابع وصل
في مطلع شهر آب الى عكا (٣٢٣) فيليب كونت فلاندرز ، الذي انتظر
قدومه لفترة طويلة من الزمن ، فأمر الملك بأن ينقل على حمالة من

عسقلان الى القدس وذلك على الرغم من انه كان مايزال مريضاً وارسل وهو في غاية البهجة عدداً من باروناته ونبلائه الدينيين ليرحبوا
بفيليب بمراسم لائقة ، ولدى وصول الكونت الى القدس ، حيث كان الملك مايزال مريضاً بشكل خطير ، جرى تفويضه بجميع السلطات مع ادارة المملكة بأكملها بدون قيود وجاء ذلك بناء على نصيحة جماعية للسيد البطريرك ورؤساء الاساقفة والاساقفة ورؤساء أديرة الرهبان ومقدمي الداوية والاسسستارية وجميع أعيان الناس ورؤسائهم ، وتوجب أن يحصل على سلطة تامة على الأعلى والأدنى منزلة في السلم والحرب وفي الداخل والخارج ، وأن يمارس إرادته على الخزينة وعائدات المملكة (٣٢٤)

ورد الكونت بعد تداوله مع أتباعه انه لم يكن قد حضر بهدف استلام أية سلطة ، بل لينذر نفسه للخدمة السماوية التي كانت الهدف لزيارته ، ولم يكن قد خطط ليحمل نفسه أية مسؤولية ، بل على العكس ، كان يرغب في أن يكون حراً ليعود الى موطنه عندما تستدعيه أموره الشخصية ، وليعين الملك أي انسان يختاره كحاكم في مملكته ، فهو نفسه سيطيع ذلك الانسان لمصلحة المملكة ، كما يطيع مولاه ملك فرنسا .

وبعدما أدرك الملك أن فيليب قد رفض تماماً المنصب الذي كنا قد عرضناه عليه ، طالب عن طريق نبلائه أيضاً وبشكل جاد في أن يوافق - على الأقل - أن يتولى قيادة جميع القوات المسيحية في الحملة التي كانت على وشك الانطلاق ، وكانت هذه الحملة قد تم ترتيبها منذ زمن طويل مع امبراطور القسطنطينية وتوسل الملك الآن اليه في أن يتولى العناية بمعارك الرب ضد المصريين ، ورد الكونت على هذا المطلب بالاجابة ذاتها التي قدمها من قبل .

وهكذا ، عين الملك أرناط ، الذي كان فيمما مضى أميراً لانطاكية ، نائباً للمملكة وقائداً عاماً للجيش حسبما كان قد تم

ترتيب تلك قبل وصول الكونت ، وكان أرناط رجلا صاحب إخلاص واضح ووفاء ملحوظ . وتوجب أن يؤول اليه واجب توجيه أمور المملكة وحكم جميع الأشياء بمساعدة الكونت إن لم يتمكن الملك من المثول شخصيا .

عندما نقل هذا الامر الى الكونت أجاب أن وكيلا كهذا لا يبدو ضروريا بالنسبة له ، وينبغي خلافا لذلك تعيين شخص ما ليتلقى شخصا مجد هذه الحرب ، ان كان ذلك يرضي الرب ، أو ليتلقى عار الهزيمة اذا قضى الرب تلك ، وينبغي اعطاء مملكة مصر الى قائد كهذا ، اذا وضع الرب تلك المملكة تحت سيطرتنا .

— وأجبنا على هذا — نحن الذين كان الملك قد أرسلنا : إن الملك لا يستطيع أن يعين مسؤولا بسلطة كهذه دون ان يجعل الشخص ذاته ملكا ، حيث لم تكن تلك الفكرة فكرة الملك ولا فكرتنا . وحيث كان هذا هو الحال ، فقد كشف الكونت في آخر الامر النقاب عن التفكير السري لعقله ، ولم يحاول اخفاء الهدف الذي كانت جميع خططه موجهة نحوه ، وأشار إن الامر كان غريبا لأنه لم يتطرق أحد معه للحديث في موضوع الزواج من قريبته سيببلا .

ولدى سماعنا لهذه الأقوال ، دهشنا بمكر الرجل ولخططه الشريرة . لأن الكونت ، الذي كان الملك قد استقبله بلباقة بالغة ، كان يحاول الآن بتحد لقوانين حسن الضيافة وروابط الأسرة أن يحل نفسه محله .

١٥ — اتباع الكونت يؤثرون عليه بشكل مضلل ويقنعونه بعدم قبول اراء نبلاء المملكة .

من الضروري أن نستطرد قليلا في هذه المرحلة ، حتى يتمكن قراؤنا من أن يفهموا بشكل تام الخطة الشريرة التي كان الكونت

يحاول تنفيذها ، وتم الحصول على معلوماتنا حول هذا الموضوع ليس فقط من روايات فردية كثيرة ، بل من اعترافه ايضا .

كان هنالك رجل صاحب نفوذ كبير ، هو المحامي عن بيثيون قد رافق الكونت في رحلته ، وكان قد جلب معه ابنيه اللذين كانا رجلين في مقتبل الشباب ، ويقال ان المحامي قد شرع ، بمساعدة الكونت وليم دي مائندفيل ، الذي كان ايضا موجودا في هذه الرحلة نفسها ، بالضغط على فيليب ليعتقد ان بإمكانه ان يبذل وضع الملكة كثيرا لمصلحته ، وادعى أنه يمتلك ممتلكات وراثية واسعة في بلاد الكونت ووعد في أن يتخلّى عنها جميعا الى الكونت ويملكه اياها بشكل دائم وبحقوق وراثية اذا ماتمكن فيليب من عقد الزواج بين ابنتي الملك عموري وبين ابني هذا المحامي ، وكان الملك عموري قد ترك ابنتين كانت احدهما ارملة الماركيز ، وكانت الاخرى ، التي بلغت سن الزواج الآن ، تعيش مع والدتها الملكة في نابلس ، ووافق الكونت على هذا الاقتراح وبات يجهد في سبيل تدبير أمر هذا الزواج لكن دعونا نعود الى سياق خبرنا .

كنا قد علمنا الآن الهدف الذي كانت مطامح الكونت موجهة نحوه ، وهكذا اجبناه أنه ينبغي عرض المسألة أولا على الملك ، ثم سننقل في اليوم التالي الرد الذي سيأمره الملك - بعد التشاور - لاتقا بالتقديم .

وبعد عقد اجتماع تداولنا فيه القضية عدنا في الصباح الى الكونت ، وقدمنا ردا جاء على النحو التالي : إنه من عانيتنا ، الموافق عليها بالاستخدام الطويل ، ان لانتظر في اعادة زواج أرملة ، لاسيما من كانت حاملا منهن ، قبل مضي عام واحد على وفاة زوجها ، لأن ذلك لن يكون حدادا شريفا ، ولذلك ، ينبغي عليه في حالة هذه السيدة التي لم يكن قد مضى إلا ثلاثة اشهر على وفاة زوجها الماركيز ، ألا يسيء الفهم أنه ليس بإمكاننا معالجة

إعادة زواجها ، لأن ذلك سيكون خلافا لعادات العصر و لبلادنا ، و مع ذلك ، إنه سيلاقى تأييدنا جميعا و موافقتنا إذا أمكن تقديم الاقتراح المذكور أنفا مشفوعا بنصيحة الشخص الذي عرضه الآن لأن الملك قد رغب بالتأكد في أن يوجه بنصيحة الكونت ورغب في أن يتفق معه في الرأي طالما كان متوائما مع شرفه الخاص ، فليأخذ الكونت المبادرة وليحدد شخصا مناسبا لذلك التحالف ونحن مستعدون في المسألة الحالية للعمل وفقا للرغبة العامة .

وتضايق الكونت من هذا الرد وأجاب أنه لن يرضى أبدا وفي أية حال من الأحوال على القيام بهذا مالم يقسم جميع النبلاء أولا أنهم سيلتزمون باقتراحه دون نقاش ، لأن أي نبيل سيعتبر نفسه مهانا إذا ماتم رفضه بعدما تمت تسميته .

وأجبنا على هذا أنه سيشين شرف الملك وشرفنا أيضا اذا أعطينا أخته لشخص لانعرفه حتى بالاسم ، وبما أن مشيئة الملك وجميع النبلاء كانت واضحة في آخر الامر ، فقد تخطى الكونت عن نوابه ، لكن ليس بدون اظهار قسط وافر من السخط والرفض .

١٦ - وصول رسل من عند امبراطور القسطنطينية المطالبة بتنفيذ المعاهدة التي كان الملك قد عقدها مع حاكمهم على الفور وتجهيز حملة ضد مصر.

وجد في القدس في هذه الآونة سفارة كانت مؤلفة من رجال بارزين ذوي منزلة عالية وهم : السيد أندرونيكوس المكنى أنجيلوس ابن أخت الامبراطور وميغالتيрах (أي) يوحنا وهو رجل عظيم جدا والكونت الكسندر أوف كونهير سانا في أبوليا وهو نبيل من منزلة سامية ، وغيورغيوس أوف سيناي (جورج سيناتيز) أحد عناصر البلاط الامبراطوري (٣٢٥) ، وقد اتوا الى الملك بأمر من الامبراطور الذي

اعتبر الوقت موائما الآن لتنفيذ المعاهدة التي كانت قد عقدت بينه وبين الملك عموري والتي تجددت فيما بعد وفق شروط مماثلة مع الملك الحالي بلنوين ، وكان يأمل بالمزيد ايضا ، بمساعدة الرب ، من قدوم كونت فلاندرز ، وهكذا ، عقد اجتماع عام في مدينة قدس الاقداس ذاتها لدراسة هذه المسألة ، وذهب جميع نبلاء المملكة إلى هناك ، وتعلق الجميع قاطبة بالأمل ذاته وهو أنه بمشورة الكونت ومساعدة حاشيته فإن المملكة ، حبيبة الرب ، يمكن أن تحظى بالتوسع المنشود وأنه يمكن اتخاذ اجراءات فعالة لآباداء اعداء المسيح ، ثم رحل الكونت دون سابق انذار ، كما كنا قد ذكرنا ، وأوقف نفسه على مشاريع أخرى متخليا عن وعوده ، وهكذا دكت اسس آمالنا بالذات ونسفت .

أصر المبعوثون الامبراطوريون على الرغم من تخلي الكونت ، على أنه يجب تنفيذ المعاهدة ، وحاولوا أن يثبتوا أن التأجيل يحتمل أن يترافق بالخطر ، وليس هنالك اي سبب من جانب الاغريق حول عدم مباشرة الحملة المقترحة ، وكانوا مستعدين لانجاز جميع شروط المعاهدة باخلاص وبأداء تام .

وقررنا ، بعد الاستماع لأقوال المبعوثين والتداول مع بعضنا بعضا ، أن نضع المسألة أمام الكونت بآتم التفاصيل . فاستدعى الكونت ، وعندما وصل وضعت امامه مادة الاتفاقية بين الامبراطور وأنفسنا التي نونت بنقة وختمت بالخاتم الذهبي للامبراطور .

وسئل عن رأيه بعدما درس الوثيقة بعناية وفهمها بشكل شامل . فأجاب بأنه غريب وغير مطلع على المنطقة المحلية وخاصة على بلاد مصر ، التي قيل إنها كانت تقع على مسافة بعيدة جدا وأبعد من جميع البلدان الأخرى وأنها خاضعة لأحوال مختلفة كما تفيض الأنهار فيها في مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل . وكنا بالطبع نعرف طبيعة البلاد بشكل أفضل وفرص الاقتراب منها ، إلا أنه كان قد سمع من الذين غالبا ما زاروا مصر

أن الموسم الحالي لم يكن موسما مواتيا للغزو . وأضاف أن الشتاء بات على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل ، وفوق ذلك كان قد سمع أن الأتراك كانوا قد اندفعوا الى هنالك بأعداد ضخمة ، وأخيرا فقد خشي ، وهذا أهم شيء ، بأنه سيكون هنالك ندرة في المؤن خلال الزحف وحتى بعد وصولهم لمصر ، وأن الجيش سيعاني بالنتيجة من المجاعة .

أركاننا من هذه الاعتراضات أنه كان يسعى للعثور على مسوغ نكبي ليتجنب تولي القيام بالحملة ، وللحيلولة دون هذا ، فقد قدمنا له ستمائة جمل لنقل المواد الغذائية والأسلحة والامتعة الأخرى برا ، ووعدناه بتقديم العدد اللازم من السفن لنقل المؤن والآلات الحربية وجميع المعدات اللازمة للحرب بحرا ، إلا أنه رفض هذه العروض بأكملها وأضاف بأنه لن يهبط الى مصر معنا بأية شروط خشية أن يضطر وقواته بالمصافاة للمعاناة من المجاعة ، وأضاف أنه كان قد اعتاد على أن يقود جيوشه عبر بلدان غنية ، وأن جنوده لن يتمكنوا من تحمل مصاعب من هذا القبيل ، وأنه ينبغي علينا أن نختار منطقة أخرى الى حيث نستطيع تسيير الجيوش بسهولة أكثر ، ولنكافح بشكل موائم لنشر الاسم المسيحي ولبادة أعداء المسيح وعندها سيعد التحضيرات مع جنوده بسرور للانطلاق .

١٧ - معارضة الكونت تعيق هذا المشروع المهيب وتحول دون تنفيذ المعاهدة .

ومهما يكن الحال انه لم يكن آمنا ولا جديرا بالاحترام بالنسبة لنا بأن ننسحب من المعاهدة (٣٢٦) ، كما أن الرسل الامبراطوريين الذين كانوا رجالا مشهورين في المنزلة ، كانوا الآن في القدس مع موارد مالية ضخمة ، وأعلنوا انهم مستعدون لتنفيذ المواثيق ، التي أبرمت بين الامبراطور وبيننا ، وبإخلاص كما كنا قد نكرنا ، وكانت لديهم سبعون شيني راسية في ميناء عكا اضافة الى

سفن أخرى كافية للرحلة والحملة حسب الاتفاق المعقود ، وبدأ ان رفض الالتزام بالاتفاق الذي كنا قد تعهدنا به انه امر مخز للغاية وخطير بالفعل ، وشعرنا أنه سيكون من الطيش ان نخسر مساعدة الامبراطور المعدة لنا الآن حتى وان وافق الرسل الامبراطوريون على تأجيل الحملة الى موعد آخر ، وعلاوة على ذلك فقد خشنا من استيائه الامر الذي يمكن أن تكون له نتائج خطيرة بالنسبة للمملكة ، وهكذا صممنا بموافقة الطرفين ، على مباشرة الحملة تمشياً مع المعاهدة والترتيبات المعدة ، وان نستمر بالتحضيرات للحملة التي تم الاتفاق عليها مع الامبراطور منذ زمن طويل .

وغضب كونت فلاندرز غضباً شديداً عندما علم بقرارنا ، وأعلن أن المسألة بأسرها قد صيغت كاهانة له ، وتأجلت الحملة ثانية الى مابعد نهاية شهر نيسان وكان ذلك بموافقة الاغريق مع شعبنا .

وهكذا امكن حل المسائل بهذه الطريقة ، وكان الكونت الآن موجوداً في القدس منذ خمسة عشر يوماً تقريباً ، وكان قد انجز عباداته ، وهكذا حمل سعف النخيل الذي هو بالنسبة لنا إشارة على حج كامل ورحل الى نابلس وكأنه قد عزم على الانسحاب تماماً . وأرسل من هنالك بعد بضعة ايام المحامي عن بيثيون مع آخرين من جماعته اليينا في القدس ، وكانوا مفوضين لأن يعلنوا ، باسم الكونت ، انه كان مستعداً - وكان هذا هو جوهر مداولاته - ليلحق بنا حيثما نشاء سواء أكان ذلك الى مصر أو الى مناطق أخرى ، وبدأ لنا تبدل الرأي المتكرر هذا انه سخي وشعرنا انه يمكن بعدل اتهام الكونت انه صاحب شخصية متقلبة ، حيث لم يلتزم بأي مشروع محدد ، ومع ذلك ، قمنا لدى استلام هذه الرسالة المتضمنة بآ قراره ، بالتداول على مضض مع الاغريق ، غير انه ثبت أنه لم تكن لديه أية نية في تحويل أقواله الى افعال ، بل العكس ، كان يحاول بكل قوته ان يضيعنا في موقع الزلل ، حتى يتمكن من الكتابة الى الامراء الموجودين فيما وراء الجبال بأننا

- ٣٣٦٤ -

نتحمل مسؤولية تأجيل الحملة (٣٢٧) . وكان قد ارسل المذكورين اعلاه
أملا في ان الاغريق لن يوافقوا البتة على مطلبنا ، وان خطأه ،
سيرتد بالتالي علينا .

١٨ - عودة رسل الامبراطور الى بلاده الكونت
يتابع السير الى بلاد انطاكيا زواج بالين من ارملة
الملك عموري .

طلبنا عند ذلك من الاغريق ان يتأكدوا فيما اذا كانوا مايزالون
راغبين بتنفيذ اتفاقهم الاصلي والنزول الى مصر ، شريطة حضور
الكونت معنا . فاجابوا انه على الرغم من ان الوقت قصير جدا
لاعداد التحضيرات اللازمة لجيوشهم ، انه اذا ما ادى الكونت
اليمين بيده في انه سيذهب معنا وانه في حال مرضه او اثناء الزحف
سيرسل قواته معنا ، واذا ما وعد بالكفاح لتوسيع الديانة المسيحية
في الحملة باسرها باخلاص ودون احتيال او نية شريرة ، واذا ما
ضمن علاوة على ذلك ان الاتفاقية ، التي قد رتبت ودونت ، لن تخرق
في اي بند من بنودها سواء اكان ذلك بالنصيحة او المساعدة ، واذا
ما دفع شعبه ليقسم متعهدا بتنفيذ الشيء نفسه عندئذ سيذهبون معنا
مع ان تغييرات مشاعره الكثيرة بدت غريبة وتتناقض بالنسبة لهم
مع سمات الرجولة والثبات ، وما هدفهم سوى توسيع مجد المملكة
حبيبة الرب وجلب الفخار للامبراطور وزيادته :

ثم عرض المحامي والذين ارسلوا معه اداء القسم على الشروط كما
هي مقدمة اعلاه ، بيد انهم لم يكونوا راغبين في ادراج جميع
الشروط فيه ولا ان يعدوا ان الكونت سيؤدي القسم ايضا ،
وعندها رفض المؤتمر ، لاننا لم نعد مهتمين في مواصلة النقاش دون
الوصول الى هدف ، كما ان المسألة التي تعرضت للمفاوضات مرارا
تأجلت الى موسم اكثر مواءمة ، ثم استأنز الرسل الامبراطوريون
بالرحيل وعادوا الى موطنهم .

وبدا معثلو الكونت يتساءلون بعد رحيل رسل الامبراطور عن سبب تأجيل الحملة المقترحة وعدم تنفيذها حالا وقالوا : « ما هو المشروع الذي بإمكان الكونت القيام به بمساعدة الملكة حتى لا ييبوكسولا وعاطلا عن العمل ؟ » واخيرا قرر الذين توقف عليهم اتخاذ القرار النهائي ، التحرك نحو طرابلس او انطاكية حيث بدا ممكنا انجاز شيء ما لمصلحة امجادهم الخاصة ولتقدم المسيحية .

كان هنالك بعض من القى مسؤولية ما حدث على عاتق كونت طرابلس ايضا وهو الكونت الذي كان كارها جدا للحملة الى مصر (٣٢٨) . ولقد كانا يحاولان جره الى مناطقيهما حتى يمكن بمساعدته القيام بمشروع ما يؤدي الى توسيع ممتلكاتهما . الا ان هذه الاملات تبددت لان السماء لم تسمح للكونت بعمل اي شيء جدير بالواقع بالتسجيل بيننا اوبينهم . وكان بالفعل حقيقا كهذا الذي كان الرب قد سحب تأييده منه ، الا ينجح في اي شيء « لان الله يقاوم المستكبرين واما المتواضعون فيعطيهم نعمة » (٣٢٩) .

هذا وقد وعد الملك في ان يقدم لفيليب تعاونه ومساعدته ، وقد منحه عند رحيله مئة من فرسانه وقوة مؤلفة من الفين من الجذود المشاة.

لقد كانت هذه حالتنا واطنا في حوالي الاول من شهر تشرين الاول (٣٣٠) وغابر الكونت مع قواته في ذلك الوقت ، مصحوبا بكونت طرابلس ومقدم الاسبتارية وعدد كبير من فرسان الداوية وتوجه الى بلاد طرابلس .

وفي حوالي الوقت ذاته ، تزوج - بناء على موافقة من الملك - بالين دي ابلن اخو بلدوين صاحب الرملة من الملكة ماريانا املة الملك عموري وابنه يوحنا البروتوسيستوس الذي تكررت الاشارة اليه انفا ، وتسلم بالين مع ماريانا مدينة نابلس التي سبق ان اعطيت لها ايام زواجها كمهر عقاري مسمى ، وكان عليه الاحتفاظ بها خلال حياة زوجته .

١٩ - كونت فلاندرز يحاصر قلعة حارم بمساعدة أمير انطاكية وكونت طرابلس ، الا أن الجهود التي بذلوها لم توصل الى محصلة.

بعد الوصول الى طرابلس قاد الكونت قواته بصحبة كونت طرابلس الى بلاد العدو وبعد اعداد جميع الترتيبات الضرورية للزحف وتعبئة الجنود بشكل جيد ، بقيا لفترة من الزمن من مدينتي حمص وحماه ، وهي خطوة أدت الى الحاق بعض الخسارة في صفوف العدو. لأن صلاح الدين كان بعد تحقيق هدفه في تلك المنطقة المجاورة واحلال السلام مع ابن نور الدين حسب شروطه الخاصة قد رحل الى مصر فقد بنت له التحضيرات ، التي أشرت اليها أعلاه ، بأنها تشير الى أن الحملة ، التي كانت تهدد مصر منذ زمن طويل ، والتي أعدت لها الترتيبات قبل وقت طويل ، كانت على وشك الحدوث ، وهكذا ، قاد معه جميع القوات التي حصل عليها من أي مصدر وحشد قواته الضخمة من الفرسان في المواقع الاستراتيجية حيث بدا ممكنا أن تشهد وقوع أكثر الأحداث أهمية فيها ، ونتيجة لهذا وجد الكونت وقواته أن البلاد خالية من المدافعين وأنه من الممكن اجتياح المنطقة بدون مقاومة ، بيد أن المدن المحصنة وقلاع المدن كانت مزودة بشكل جيد بالموءن ، وكان فيها عدد كاف من الحراس والأسلحة من أجل الدفاع عنها.

وعندما عرف أمير انطاكية أن الكونتتين قد دخلا الى بلاد العدو بادر بالانضمام اليهما عبر طريق آخر وذلك حسب الاتفاق المعقود بينهم من قبل ، وهكذا فإن القوات المتحدة في قوة واحدة باتت ذات تصميم واحد أيضا ، وبناء عليه تقرر محاصرة قلعة حارم وكانت هذه أفضل خطة في تلك الظروف ، وتقع هذه القلعة في منطقة خالكس التي تعرف الآن باسم حصن صغير جدا ، وتقع كل من المدينة والحصن على بعد نحو اثني عشر ميلا عن انطاكية.

ولدى وصول القوات أمام حارم ، نصب المعسكر على شكل دائرة حول الموقع حيث تم تطويق المحاصرين من جميع الجهات ، ولهذا فقد منعوا بالكامل من الظهور ، ولم يتمكن أي إنسان من الاقتراب ، وإن كان راغبا في ذلك ، لتقديم المساعدة اليهم ، وشيدت على الفور الآلات الحربية وجميع المعدات الضرورية لمواصلة الحصار ، وبنى المسيحيون أيضا أكواخا من الأغصان حيث كان الشتاء يقترب وأيضا كاشارة الى أن العمليات الحربية ستستمر الى النهاية ، وحصنوا المعسكر بالأسيجة للحيلولة بون قيام الأمطار الغزيرة بجرف مقتنياتهم وعمل سكان المنطقة المجاورة والناس المسيحيون في هذه الأثناء بحماسة لجلب المؤن الضرورية من أنطاكية والأماكن القائمة في المنطقة المجاورة.

كانت قلعة حارم تخص ابن نور الدين ، وكانت القلعة الوحيدة في ذلك الجزء من المنطقة التي سمح له صلاح الدين بأن يحتفظ بها ، وعندما أحكم الحصار حولها من جميع الجهات شرع المسيحيون بالهجوم عليها على نوبات متوالية حسبما جرت عادتهم ، وقصفوا الأسوار بالآتهم الحربية بشكل دائم حتى أن المحاصرين لم يتمكنوا من الحصول على راحة من أي نوع .

٢٠ - وصول صلاح الدين مع قوات ضخمة من مصر وغزوه المملكة. احتلاله موقعا امام عسقلان. خروج الملك لمقابلته مع جميع قوات المملكة. نشوب معركة هامة امام المدينة.

كانت هذه هي أوضاع الأمور في أنطاكية آنذاك ، وكان صلاح الدين قد علم في غضون ذلك أن الكونت والجيش المسيحي بأكمله كانوا قد تقدموا الى منطقة أنطاكية ، عرف ذلك بينما كان ينتظرهم بخوف شديد ، في بلاد مصر ، وبدأ له بشكل مقنع بأنه يستطيع بأمان أن يغزو بلادا مجردة من جنودها ، حيث يمكن تأمين واحد من شيتين بسهولة ، فإما أن الغزو سيجبر العدو على التخلي عن

حصار حارم ، أو سيتمكن من تحقيق نصر على المتروكين في المملكة إذا اصرروا على مواصلة ذلك.

وهكذا ، جمع العساكر بأعداد كبيرة من جميع المصادر وأمر بتجهيزهم بشكل حتى أفضل من المعتاد بالأسلحة وبجميع الأشياء المستخدمة عموما في الحرب ، ثم خرج من مصر مع هذا الجيش . وبعد سيره بدون توقف واجتيازه للبراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين وصل الى مدينة العريش القديمة المهجورة حاليا ، وترك هناك جزءا من الأمتعة الثقيلة وأثقال الجنود ، ثم أخذ معه الجنود المسلحين تسليحا خفيفا وأكثر المحاربين ممارسة ومر بقلعتي الداروم وغزة. وتعد مدينة غزة مدينة مشهورة جدا وبعبء بالكشافة امامه ظهر فجأة امام عسقلان.

هذا وكان الملك قد تلقى تحذيرا عن تقدمه قبل بضعة أيام ، فبادر الى جمع القوات التي كانت ما تزال باقية في المملكة ، وقام مع جنوده بالعسكرة بالمدينة قبل وصول صلاح الدين اليها.

وكان كونت طرابلس قد مضى ، كما ذكرنا من قبل ، أخذا معه مئة من فرساننا وكانوا رجالا منتقين أختيروا من بين عدد كبير ، وكان مقدم الاستتارية قد مضى أيضا ومعه إخوانه وعدد كبير من فرسان الداوية ، وكان بقية الداوية قد انسحبوا الى غزة توقعوا منهم أن صلاح الدين سيحاصر ذلك الموقع ، حيث كانت تلك المدينة الأولى من مدننا التي سيصلها ، وكان همفري كافل الملكة يعاني آنذاك - كما أشرنا من قبل - من مرض خطير. ولذلك لم يكن مع الملك سوى قلة من الجند. وعندما علم أن العدو كان يتجول بكل حرية وبطريقة عدوانية وأنه كان قد تفرق عبر السهول المتاخمة لأراضينا ، ترك عددا قليلا من الجنود لحراسة المدينة وخرج مع قواته المستعدة للقتال طالبين المساعدة من عليين.

كان صلاح الدين قد حشد عساكره ككتلة واحدة بالقرب من

المدينة وعندما تقدم الجيش المسيحي ورأى أفراد الأعداد الضخمة لأعدائهم ، نصح الذين كانوا أصحاب خبرة أكبر في الحرب أن تبقى القوات في موقعها الحالي بدلا من أن تجازف بقدرها المجهول في المعركة . وهكذا فقد صد المسيحيون هجمات الأعداء حتى المساء ، ذلك أن القتال لم يتعد في ذلك اليوم المبارزات الفردية في فترات منفصلة ، لأن الجيشين لم يكونا يعيدان عن بعضهما ومع اقتراب المساء تراجع المسيحيون بحكمة الى المدينة مجددا حيث بدا من المخاطرة أن يودعوا قواتهم البسيطة في معسكر لقضاء الليل بسبب أعداد العدو المتفوقة ، وأثار هذا العمل صلاح الدين وجنده الى درجة من التعجب حيث لم يبقوا بعد ذلك في ترتيب متراص ، بل تمزقوا وأخذوا في استعراض قواهم والتبجح بها ، وبدأ صلاح الدين يوزع أجزاء محددة من ممتلكاته المكتسبة على أتباعه الجنود وكأنه قد ظفر بالنصر ، وبدأت قواته تتصرف بإهمال تام للحذر ، وكأنها كانت قد ضمنت كل ما كانت ترغب به ، وتجولت بحرية في زمر مبعثرة وطافت في المنطقة في جميع الجهات .

٢١ - الأتراك يجتاحون المنطقة بالطول والعرض ويحرقون المدن والمناطق النائية.

افترضنا أثناء الليل أن العدو كان منشغلا في إقامة معسكره أمام المدينة ، حيث المكان الذي كان عنده في اليوم السابق ، أو كان قد اقترب الى مسافة أقرب من المدينة وبات يحاصرها تماما ، لكن الذي حدث هو العكس. فقد انتشرت قواه على شكل زمر فوق المنطقة بأسرها ، هنا وهناك كما استحوذ الباعث على بعضهم البعض وبدون أن يتركوا لأنفسهم أو لخيولهم أية استراحة . وكان بين قادتهم شخص يدعى جاولي (٣٣١) ، كان محاربا شجاعا ومستعدا دائما لتنفيذ أية ماثرة جريئة ، وكان أرمني المولد ، ومرتدا ، كان قد تحول الى الامم بعدما تخلى عن عقيدة الوسيط بين الرب

- ٣٣٧٠ -

والانسان ، وكان يتبع سبلا ملتوية ، وتقدم هذا الرجل مع الجند الذين كان يقودهم الى الرملة وهي مدينة واقعة في السهل ، واحرقها بعدما وجدها مهجورة ، وكان السكان قد هجروا المدينة بياس لانها لم تكن محصنة بشكل جيد ، وكان بعضهم قد ذهب مع حملة بلدوين الى عسقلان ، وكان آخرون قد ذهبوا الى حيفا مع الضعفاء والنسوة والاطفال ، وكان بعضهم أيضا قد ذهبوا الى حصن محصن بشكل جيد في الجبال التي تدعى مجدل يابا . وتقدم جاولي مع جميع قواته ، بعد أن أحرق الرملة ، الى مدينة اللد المجاورة ، وقسم جنوده هنا وطوق المدينة بسرعة ، ثم هاجم السكان بوابل من السهام والاسلحة من كل نوع وأنهكهم نون توقف ، وهرب جميع السكان الى كنيسة الشهيد المبارك القديس جورج .

استحوذ في هذه الرحلة الخوف والياس على المسيحيين حيث بدا أن أملهم الوحيد يتوضع في الفرار ، فقد حل الرعب الكبير ليس بين الناس الموجودين في السهل حيث كان العدو يطوف بحرية ودون مقاومة ، بل حتى بين الذين يعيشون في الجبال ، وكان سكان القدس نفسها مستعدين الى حد ما للتخلي عن المدينة المقدسة ، وحيث لم تكن لديهم أية ثقة في تحصيناتها ، فقد أسرعوا بالتلف الكلي الى برج داوود ، كما يعرف بهذا الاسم عموما ، وتخلوا عن باقي المدينة . وكان بعض المغيرين قد تقدموا وصولا الى الموقع المسمى باسم قاليقليا وكانوا قد انتشروا فوق سطح ذلك السهل بأكمله تقريبا ، وكانوا الآن على وشك مغادرة المنطقة المستوية والصعود الى الهضاب .

وكان مظهر هذه المنطقة الآن بائسا ومنهكا بالمرارة ، كما كان في اليوم الذي فيه سخط الرب عندما « غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام » (٣٣٢) ومع ذلك « فإنه لم يكبح رحمته حتى في غضبه ، ولم ينس الرحمة أيضا (٣٣٣) » إلا انه « مال إلينا وواسانا (٣٣٤) » وساعدنا

- ٣٣٧١ -

وكان مايزال مؤيدا لنا (٣٣٥) و« وقعا لحشد الاحزان في قلوبنا ابهجت مساعداته ارواحنا (٣٣٦) ».

٢٢ - الملك ينطلق من عسقلان ويقابل العدو. الطرفان يعبئان صفوفهما للقتال ويستعدان للمواجهة.

بينما كانت هذه الاحداث تأخذ مجراها في ذلك الجزء من البلاد ، وصل نبأ الى الملك مفاده أن حشدا من العدو ، قد انتشر فوق اراضيهِ بالطول والعرض ، واستولى على ممتلكاته ، ولذلك غادر عسقلان على الفور مع جنوده واستعد للزحف ضد العدو ، لأنه شعر أنه من الأكثر حكمة تجريب الاقدار المريبة للحرب مع العدو بدلا من أن يكره شعبه على التعرض للسلب والحرائق والذباح ، وهكذا زحف بمحاذاة الساحل وتقدم على طول شاطئ البحر على يتمكن من مباغته العدو خلسة وفجأة ، وعندما وصل الى الموقع الذي كان صلاح الدين مخيما في سهل ، وجه على الفور جميع قواته من الفرسان والمشاة بترتيبهم العسكري نحوه وانضم اليه فرسان الداوية الذين كانوا قد بقوا في غزة واستعدوا مع بعضهم بعضا بصفوف منتظمة بترتيب المعركة لمواجهة العدو ، وأثناء زحفهم ، وهم مصممون على الهدف الواحد للانتقام لمظالمهم ، فإن منظر الحرائق في كل الجهات وروايات المنبحة التي حلت بشعبهم قد الهبتهم بشجاعة ربانية وأسرعوا الى الامام كرجل واحد ، ورأوا صفوف العدو فجأة أمامهم وعلى مسافة قريبة . وكان ذلك حوالي الساعة الثامنة من النهار.

وكان صلاح الدين قد علم خلال ذلك أن المسيحيين كانوا يتقدمون على أمل القتال. ونظرا لأنه كان يخاف من الاشتباك الذي كان قد تلهف اليه بوضوح حتى الآن ، فقد أرسل رسلا لاستدعاء جنوده ، الذين كانوا قد تفرقوا في اتجاهات مختلفة ، وحاول أن

يشجع رجاله لخوض القتال بصوت الأبواق وقرع الطبول وبالنصائح أيضا ، كما هو مألوف في أوقات كهذه ، وأن يثيرهم بأقواله (٣٣٧)

وكان مع الملك أوبودي سانت أماند مقدم فرسان الداوية وثمانون من إخوانه ، والأمير رينو وبلدوين صاحب الرملة ، وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا ، والكونت جوسلين عم الملك وقهرمانه ، ولم تتجاوز أعدادهم على - قرابة - ثلاثمائة وخمسة وسبعين فردا بما في ذلك جميع المراتب والحالات ، وتقدموا جميعا بعدما التمسوا المساعدة من السماء بتشكيل المعركة وهم متلهفون للمواجهة يقودهم صليب الصليبوت الرائع المانح للحياة وكان يحمله البرت اسقف بيت لحم .

بدأت في الوقت نفسه قوات العدو ، التي كانت قد غامرت بالتوغل الى مسافة بعيدة بعض الشيء للبحث عن الغنيمة ونشرت الحرائق ، بالوصول من اتجاهات مختلفة ، الحال الذي زاد كثيرا من قوة صلاح الدين ، وفي الواقع ، لو لم يكن الرب ، الذي لا يخلل أبدا الذين يضعون ثقتهم فيه (٣٣٨) ، قد الهب جذونا بشكل شقوق بشجاعة داخلية ، لكان المسيحيون قد دفعوا الى اليأس ليس من النصر فقط ، بل من الحرية والسلامة أيضا ، ومع ذلك ، فقد نظموا قواتهم وعبأوها بترتيب المعركة ونظموا صفوفهم حسب الاسس العسكرية ، وأعدوا بترتيب موائم الذين توجب عليهم شن الهجوم الأول مع الاحتياطات التي توجب عليها الحضور لمساعدتهم.

٢٣ - وقوع معركة. هزيمة صلاح الدين واجباره على الفرار وسط مخاطر واسعة وخزي كبير.

اقتربت الآن صفوف المحاربين في كلا الجانبين بالتدريج من بعضهما بعضا وأعقب تلك معركة لم تكن حاسمة في اول الامر ،

وكانت القوات غير متكافئة ابدا . إلا أن المسيحيين الذين عززتهم الرحمة التي أغدقتها السماء عليهم ، بدأوا على الفور يشددون الخناق على عدوهم بشجاعة متزايدة دوما ، فتبدلت صفوف صلاح الدين واضطر الى الفرار بعد منبحة رهيبة.

وحيث كنت راغبا بالتيقن من الحقائق الواقعية ، فقد أجريت تحقيقا حول أعداد العدو ، واكتشفت من روايات العديد من الناس الثقة أن ستة وعشرين ألف فارس مسلحين تسليحا خفيفا بالاضافة الى آخرين ممتطين صهوات الجمال وحيوانات التحميل كاذوا قد دخلوا منطقتنا (٣٣٩) ، وكان من بين هذه القوات ثمانية آلاف ينتمون الى الجذود الرائعين الذين يحملون بلغتهم الخاصة باسم طواسين وكان الثمانية عشر ألف الآخرون هم الفرسان العاديون المعروفون باسم قراغلام (٣٤٠) . وعمل ألف من اشجع الفرسان كحرس لصلاح الدين ، وكان جميع هؤلاء يرتدون حريرا اصفر فوق دروعهم وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه . ومن عادة الحكام الأتراك والزعماء العظماء ، والذين يسمون باللغة العربية باسم امراء ، ان يربوا بعناية كبيرة بعض الرجال الشبان ، بعضهم عبيد اسروا في الحرب ، وآخرون تم شراؤهم او ربما ولدوا من امهات جوار ويدرب هؤلاء الشبان على العلوم العسكرية ، وعندما يبلغون سن الرجولة فانهم يعطون أجورا او حتى ممتلكات كبيرة حسب جدارة كل منهم ، ويعرف هؤلاء الرجال بلغتهم الخاصة باسم ممالك ، ويعهد اليهم بواجب حماية ذات مولاهم اثناء تقلبات المعركة ، ويعتمد عليهم بدرجة مماثلة من الأهمية الأمل في تحقيق النصر . ويحاولون دوما بالاجماع وهم يحيطون بسيدهم حمايته من الأذى ويتشبهون به حتى الموت ، ويواصلون القتال كرجل واحد حتى يلوذ بالفرار وينجو وهكذا ، يحدث مرارا أنه في الوقت الذي يفلح فيه البساقون بالفرار ، يقتل جميع الممالك تقريبا (٣٤١)

طارد المسيحيون العدو المنهزم من المكان المعروف باسم تل

الصافية الى ما بعد المخاضات الموجودة وراء نهر هذا التل حتى غياب الشمس وهبوط الليل عليهم ، وظل العدو يقتل بلا رحمة أثناء ذلك الفرار لمسافة اثني عشر ميلا ونيف . ولولا حلول الظلام الذي جاء سريعا فأنقذهم من مطاردتهم لما بقي أحد من صفوفهم على قيد الحياة ، وقام الجنود الأكثر قوة والذين كانت معهم خيول سريعة بإلقاء أسلحتهم واعتدتهم وتخلوا عن أحمالهم حتى يسهل عليهم الفرار وهربوا بكل قوتهم تاركين الناس الضعفاء وراءهم ، ونجا هؤلاء من الموت بفضل حلول الظلام . وواجه المتخلفون مصيرا أسوأ حيث أسروا جميعا أو كانوا طعمة للسيف .

وفقدنا في بداية القتال أربعة أو خمسة من الفرسان وبعض الرجال إلا أن العدد الدقيق لهؤلاء ليس معروفا .

عندما وصل الذين كانوا قد نجوا بالفرار إلى مستنقع المخاضات المذكورة منذ لحظات القوا بين القصب وفي الماء نفسه كل ماكانوا لايزالون يحملونه أي دروعهم وواقيات أقدامهم المصنعة من الفولاذ حتى يمكنهم أن يتقدموا بأنفسهم غير معاقين ، وحتى الأسلحة قذفت في الماء حتى لايمكن المسيحيون من استخدامها حتى كعلامة للنصر .

إلا أن شعبنا استرد جميع هذه الأشياء بسرعة ، لأنه بتتبعه الدقيق لخطوات العدو الهارب ، فتش في تلك الليلة وفي اليوم التالي وبشكل دقيق المستنقع المملوء بالقصب المذكور منذ لحظات ، ويتمشيطهم للمستنقع نفسه بالقوائم والكلاليب ، فقد وجدوا بسرعة كل شيء كان العدو قد خبأه هناك .

لقد سمعنا من أشخاص جديرين بالتصديق أنهم رأوا في أحد الأيام مئة درع استردت من ذلك الموقع بالاضافة إلى الخوذ وواقيات السوق الحديدية وأشياء أخرى ذات قيمة أدنى إنما كانت ماتزال ثمينة ومفيدة .

اضفت الرحمة السماوية علينا هذه النعمة الظاهرة ، الجديرة بالتذكر إلى الأبد ، في العام الثالث من حكم الملك بلنوين الرابع وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، عيد الشهيدين بطرس الاسكندراني والعذراء كاترين (٣٤٢).

عاد الملك إلى عسقلان حيث انتظر عودة قواته التي كانت قد طارت الهاربين بطرق مختلفة ، ووصل الجميع خلال أربعة أيام وهم محملون بالمغانم ، وجاؤوا يحملون الخيم ويسوقون أمامهم العبيد وأعدادا كبيرة من الجمال والخيول حسب أقوال الرسول : « كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة » (٣٤٣) .

٢٤ - جو عاصف وبرد غريب ينهك قوى الهاربين الذين كانوا قد نجوا من المعركة. موت أعداد كبيرة منهم واسر آخرين كثير. الملك يعود الى القدس ظافرا.

اظهر ظرف آخر بوضوح ايضا أن الرحمة السماوية كانت معنا ، فقد هطلت أمطار عنيفة مصحوبة ببرد غريب في اليوم التالي ولدة عشرة أيام متتالية بعد ذلك ، لدرجة بدت تقريبا بأن العوامل الجوية نفسها قد تأمرت ضد الأعداء ، وكانوا قد فقدوا جميع خيولهم والتي لم تكن قد تلقت أي طعام أو شراب أو حتى استراحة خلال احتلال أراضينا الذي دام ثلاثة أيام ، وكانوا قد ألقوا وبشكل طوعي أيضا امتعتهم وجميع أنواع الملابس ، كما ذكرنا ذلك . ولزيادة مجموع تعاساتهم كانوا بلا طعام تماما وكانوا يهلكون من البرد والجوع وتعب المسير وعبء مشقات غير مألوفة ، فقد كان يعثر في كل مكان على عدد قليل من هؤلاء الهاربين تارة وعلى أعداد كبيرة تارة أخرى حيث تمكن حتى الضعفاء والعاجزون من صب جام غضبهم عليهم كما يحلو لهم ، كما أن الكثيرين بجهلهم بالمناطق وباعتقادهم أنهم كانوا في الطريق إلى الوطن ، قدموا أنفسهم في قرانا إما للمسافرين أو الذين كانوا يتصيدونهم .

وفي هذه الأثناء ، بادر البداة العرب ، ذلك العرق من الكفار ، بعدما تصوروا الكارثة التي كانت قد حلت بالأتراك ، نحو النين كانوا قد تركوا لحراسة الأمتعة في مدينة العريش كما كنا قد ذكرنا ذلك ، وسببوا لهم ذعرا كبيرا عندما نقلوا إليهم أخبار الكارثة التي كانت قد حلت بشعبهم لدرجة أنهم هربوا بفرع ، وطارد هؤلاء البداة بمواظبة أي واحد نجح بالمصادفة بالتخلص من قبضتنا ، وهكذا فإن الذين اعتقدوا أنهم كانوا قد نجوا منا سقطوا في أيديهم كفريسة ، بحيث بدت النبوءة القائلة : « فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء » (٣٤٤) . قد تحققت ، ويقال إن الشيء التالي هو عادة ذلك العرق الشرير ، فهم يتجنبون دائما مخاطر القتال مهما كان القائد الذي يتقدمون تحت قيادته إلى المعركة ، ولا يشتركون طالما نتيجة المعركة مازالت مجهولة ، ويقفون ينتظرون عن بعد ، وعندما يتقرر مصير المعركة يلحقون أنفسهم بالمنتصر ، ويطاردون الأعداء المهزومين ويفنون أنفسهم بالغانم .

جلب الأسرى لعدة أيام من الغابات والجبال وحتى من الصحراء . وقدموا أحيانا إلينا طوعا مفضلين على أن يحتجزوا بالسلاسل والسجون على أن يهلكوا تحت عذاب البرد والجوع .

أسرع الملك في هذه الأثناء إلى القدس ، بعد أن وزع المغانم والثروات حسب قواعد الحرب ليقدم صلوات الشكر والقرايين للنعم التي أغدقها الرب عليه ، وعاد صلاح الدين ، الذي كان قد مضى نحونا بنفس شديدة الرعونة ومع صفوفه لاتحصى من الفرسان مصفوعا باليد الربانية وليس معه إلا مئة من أتباعه تقريبا . ويقال إنه نفسه كان راكبا على جمل .

فلندرس بمزيد من الأحكام والدقة سخاء هذه الهبة الالهية ولنعتبر كيف أن العون الرباني رغب في أن يكون المجد كله له في السخاء المظهر نحونا ، فلو كان كونت فلاندرز ، وأمير أنطاكية ، وكونت طرابلس - والمجموعة الضخمة من الفرسان الذين لم يكونوا

حضورا ، قد شاركوا في هذا النصر الذي أحدثته الرحمة السماوية ، ما كانوا ليتربدوا في الاعتقاد ، مع أنهم لم يقولوا : « يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه » (٣٤٥) . لأن الطائشين والغافلين مبالغون للتسلسل بهذا الشكل عندما يكون كل شيء موافيا .

والآن ، حسب قوله كما هو مكتوب : « ومجدي لا أعطيه لأخر » (٣٤٦) . فقد احتفظ بكل المجد والسلطة لنفسه بينما لم يستخدم مساعدة الكثيرين ، بل مساعدة القلة . وجدد بلطفه الشفوق معجزة جدعون ، فبدد حشدا ضخما وأوضح بالتالي كيف يمكن للمرء بمساعدته فقط وليس بمساعدة كائن آخر « أن يطرد واحد ألفا ويهزم اثنان ربوه » (٣٤٧) .

ولذلك فليعزو النصر له فهو الذي يأتي منه كل خير وهبة تامة (٣٤٨) ، لأنه لا يوجد في هذا المثال الحالي أي شيء يستطيع المرء أن يعزوه لأعماله ، إنها هبة الرحمة السماوية وقد أظهرت للذين لا يستحقونها . « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض » (٣٤٩) . وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، (٣٥٠) .

٢٥ - القوات المحاصرة لقلعة حارم في منطقة انطاكية تتخلى عن المهمة وتعود الى اراضيها.

بينما كانت هذه الأحداث تقع بيننا ، واصل الكونت والموجودون معه حصار القلعة المشار إليها آنفا دون جدوى ، لأنهم كانوا منكبين على الطيش واهتموا كثيرا بألعاب الحظ والمسرات الشريرة الأخرى أكثر مما سمح به النظام العسكري أو قواعد عمليات الحصار ، وكانوا يجيئون ويذهبون باستمرار إلى انطاكية حيث أمضوا وقتهم في الحمامات والولائم وانغمسوا في فنون السكر ومسرات جسدية أخرى متخلين بالتالي عن عمل الحصار لأجل مباحج الكسل .

وحتى الذين بدوا أنهم مواظبون على الحضور هناك أصبحوا

كسالى ومهملين ولم ينجزوا شيئا له أهميته . وأمضوا وقتهم في الكسل وعاشوا حياة فاسدة (٣٥١) . وصرح الكونت نفسه يوميا أنه ينبغي عليه العودة إلى الوطن ولح بأنه كان محتجزا في حارم على الرغم من إرادته . ولم يعق هذا الموقف الذين كانوا يحاولون بشرف مواصلة الحصار في الخارج فقط ، بل زود بحافز لبذل مقاومة أكثر شجاعة من جانب سكان البلدة ، وكان الأمل في أنه سيتم رفع الحصار حالا صعبا ، لكن حتى ذلك كان أفضل من تسليم الحصن الذي عهد به إليهم إلى الجندس المقيت ، والتعرض بالتالي لخزي الخونة إلى الأبد .

تحتل قلعة حارم موقعا مرتفعا على هضبة يبدو أن معظمها كان اصطناعيا وهي سهلة المنال للمهاجمين من جانب واحد فقط ، وأما بالنسبة للجهات الأخرى فلا يمكن أن يبلغها أحد يرغب بشن هجوم عليها . إلا أنه من الممكن بالنسبة لآلات القذف الحربية أن تقصفها من جميع الجهات دون عائق .

وكانت قد شنت عليها هجمات متوالية مع نتائج متنوعة ، وبرهنت هذه الهجمات وأشارت إلى أنه إذا تم شن هجوم قوي عليها فمن الممكن الاستيلاء على القلعة بمساعدة عليين ، إلا أن المسألة انتقلت كما قلنا إلى حالة من اللامبالاة ، وكانت الشجاعة بأسرها قد رحلت عنا كما كان التعقل بأكمله قد تلاشى بسبب اثامنا ، وبدأ المسيحيون يتدارسون مسألة العودة إلى الوطن ، على الرغم من أن المحتجزين داخل أسوارها كانوا قد وصلوا الآن إلى الدرجة الأخيرة من اليأس - ولا يمكننا أن ندهش بشكل كاف أمام حقيقة أن الرب أسدل ظلاما كبيرا على عقول هؤلاء الأمراء العظماء ، وأعماهم بغضبه (وهذا فوق التصور البشري) فعلى الرغم من أنه لم يكرههم أحد ، وكانت القلعة الآن تحصت سلطانهم تقريبا ، تخلوا عنها للعنوبدافع الغيرة وبرغبتهم الخاصة في الكسل ، وعندما أدرك الأمير أن كونت فلاندرز قد صمم على سلوكه

وكان مصمما على هذا القرار بشكل نهائي ، قبل من المحاصرين مبلغا من المال ، لانعرف مقداره ورفع الحصار .

ثم عاد كونت فلاندرز إلى القدس حيث احتفل بأعياد الفصح المقدسة ، ثم أجرى استعداداته للعودة وحالما جهزت الشواني وسفن النقل اللازمة أبحر من اللاذقية في سورية بنية العودة إلى موطنه بعد زيارة لامبراطور القسطنطينية لكنه خلف وراءه ذكرى لم تكن مباركة على الإطلاق (٢٥٢) .

وتصالح في هذه الآونة نفسها فريديريك امبراطور الرومان مع البابا ألكسندر في مدينة البندقية بعد عشرين عاما من الشقاق .

وانهارت أسوار مدينة القدس المقدسة جزئيا بسبب عمرها الكبير ، وهكذا انضم الأمراء الدينيون والعلمانيون مع بعضهم بعضا في هذه الآونة وقرروا أنه ينبغي دفع مبلغ ثابت من المال سنويا حتى ينتهي عمل ترميم الاسوار بمساعدة الرب ، ويكون بالتالي قد أنجز القول : « أحسن يرضاك إلى صهيون ابن أسوار اورشليم » (٢٥٣) .

٢٦ - الاعلان عن عقد مجمع كذسي عام في روما. الملك يبني قلعة فيما وراء نهر الأردن في ظل شارات معاكسة ويعهد بها عند انتهائها الى الداوية.

غادر شرقنا في شهر تشرين الاول (٢٥٤) من العام الخامس لفترة حكم الملك بلدوين الرابع الذي كان العام ١١٧٨ لتجسيد ربنا ، بعض الرجال ، الذين كانوا قد استدعوا لحضور مجمع كذسي عام في روما جرى الاعلان عنه في العام السابق في كل مكان من العالم اللاتيني بأسره . وكان الممثلون المدعوون (٢٥٥) : أنا وليم رئيس أساقفة مدينة صور وهرقل رئيس أساقفة قيسارية والبرت أسقف بيت لحم ورالف أسقف سبسطية ، وجوشيوس أسقف عكا ورومانوس

أسقف طرابلس ، وبطرس رئيس شماسة القبر المقدس وريئال
رئيس جبل صهيون ولم يحضر جوشيوس - فقط - المجمع الكنسي
معنا ، بل ذهب أيضا كمبعوث إلى هنري دوق بيرغندي وهو مكلف
بمهمة دعوته للقدوم إلى المملكة ، لأننا كنا قد وافقنا بالاجماع على
وجوب زواجه من أخت الملك وفق الشروط نفسها التي كانت قد
أجريت في زمن الزواج السابق للماركيز ، وتلقى الدوق هذا العرض
على يدي الأسقف جوشيوس بلطف ويقال إنه أقسم بيده أنه سيأتي
غير أن الدوق أهمل قسمه لأسباب لاتزال مجهولة بالنسبة لنا ،
ورفض الوفاء بالوعد الجليل الذي كان قد ألزم نفسه به .

وبدأ الملك خلال الشهر نفسه الذي بدأنا فيه رحلتنا لحضور
المجمع الكنسي ، مع سائر قوة المملكة ببناء قلعة فيما وراء نهر
الأردن في الموقع المعروف عموما باسم مخاضة يعقوب (٣٥٦) .

تقول الروايات القديمة إن هذا هو المكان الذي قسم فيه يعقوب ،
لدى عودته من بلاد الرافدين ، شعبه إلى زمرتين وأرسل رسلا إلى
أخيه قائلا : « إنني بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صرت
جيشين » (٣٥٧) . وتقع هذه المخاضة في منطقة قادس النبطية ،
الواقعة بين النبطية ودان ، وتعرف الأخيرة منها باسمي بانياس
وقيسارية فيليبس . وتشكل هاتان جزءا من فينيقية ، وهما مدينتان
تابعتان لمدينة صور ، وتقع المخاضة على بعد عشرة أميال من
بانياس ، فوضعوا هناك ، على هضبة ذات ارتفاع معتدل ، أسسا
ذات عمق مناسب ، وشيدوا خلال ستة أشهر قلعة ذات بناء صلب
على شكل مربع وذات سماكة رائعة وارتفاع كاف .

وبينما كانوا منشغلين في عمليات البناء هناك ، حدث أن ظهر
قطاع الطرق من منطقة دمشق وحاصروا بالتالي الطرق العامة بحيث
لم يتمكن أحد من الخروج جيئة وذهابا من الجيئ دون التعرض
للخطر ، كما لم يتمكن المسافرون من السير على أي من الطرق ،
وقدم هؤلاء اللصوص من موقع في الجبال الواقعة بالقرب من عكا

يدعى بكدس أو بكال باللغة العامية . ويقع هذا الموقع بشكل سار للغاية في منطقة زوبلون ، وعلى الرغم من أنه واقع على قمة أحد الجبال ، فهو يروى بشكل جيد ومزروع ببساتين كثيفة من الأشجار المثمرة ، وسكانها رجال متغطرسون ومقاتلون أشداء ورجال فخورون كثيرا بأعدادهم الضخمة جدا حيث جعلوا بوساطتها جميع الحقول والقرى المحيطة بهم تابعة إليهم . وهم يقدمون ملاذا أمانا بينهم للأشرار الأبقين من عقاب مناسب ولقطاع الطرق واللصوص ، وذلك بالنظر إلى أنهم يتلقون حصة من الغنيمة والمغانم المستولى عليها بالعنف . وكان هؤلاء الناس قد أصبحوا بسبب تعجزهم الذي لا يحتمل مكروهين من قبل جميع الموجودين حولهم من المسيحيين والمسلمين على حد سواء ، وبذلت محاولات متكررة لآبادتهم تماما لكن دون نجاح ، وبالنتيجة ، أصبحوا أكثر شجاعة بشكل يومي . ووجد الملك نفسه في آخر الأمر أنه لم يعد بإمكانه تحمل رعونتهم التي لا تحتمل والسرقات والجرائم التي ارتكبوها بعد اليوم فاستولى على الموقع فجأة وبقوة السلاح وقتل جميع من استطاع أن يقبض عليهم ، إلا أن غالبيتهم نجت ، لأنهم كانوا قد هربوا مع زوجاتهم وصغارهم إلى منطقة دمشق بعدما علموا بنية الملك وواصلوا من دمشق عاداتهم القديمة وشنوا هجمات كثيرة على منطقتنا وبشكل سري .

وكانوا قد اجتاحوا أراضينا في هذه الآونة مع أصحاب لهم من الصنف ذاته كما تم ذكر ذلك ، وأثارت هذه الأعمال المسيحيين ، وأغضبهم كثيرا معرفة أن رجالا من هذا الصنف كانوا يجعلون الطرق العامة خطرة جدا ، وهكذا ، نصبوا كمائن في مواقع استراتيجية ووجهوا جميع أنشطتهم لخداع الأوغاد ، وحدث ذات ليلة أن كان هؤلاء اللصوص ينزلون من جبال زوبلون بعد قيامهم بإحدى الغارات وهم عازمون على العودة إلى الموقع الذي كانوا قد انطلقوا منه ، غير أنهم جنوا ثمرة أساليبيهم بوقوعهم في كمائن نصبها المسيحيون حيث أسر تسعة منهم وقتل أكثر من سبعين آخرين ، وحدث هذا في الحادي والعشرين من شهر آذار (٣٥٨)

وعقد في هذه الأونة نفسها ، في الخامس من شهر آذار ، مجمع كنسي مؤلف من ثلاثمائة أسقف في روما في كاتدرائية قسطنطين المسماة اللاتيران . كان هذا في العام العشرين من حبرية البابا اسكندر (٣٥٩) وفي الثالث عشر من الاسبوع الثاني.

إذا ما رغب أحد بمعرفة القرارات المتخذة وأسماء الاساقفة وعدهم والقابهم فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي ألفناه بدقة تلبية للمطلب الجاد للرهبان المقدسين الذين شاركوا في هذا المجمع الكنسي ، وقد أمرنا في أن يوضع هذا في سجلات الكنيسة المقدسة في صور بين الكتب الأخرى التي جمعناها لتلك الكنيسة نفسها التي نراسها منذ ستة أعوام (٣٦٠)

٢٧ - الملك يغزو منطقة معاوية ويتكبد خسارة هائلة.
همفري كافل المملكة يلاقي الموت هناك.

عندما كانت القلعة قد شيدت وانتهت من جميع الجوانب ، بلغت الملك أنباء كان مفادها أن العدو قد قاد قطعانه ومواشيهم إلى الغابة الواقعة بالقرب من بانياس بحثا عن الكلا ، وكانت بدون مقاتلين يمكن الاعتماد عليهم لصد أي هجوم نقوم به ، وهكذا تقدم شعبنا إلى هنالك خلسة ظاننا أنه سيتمكن من الفوز عليهم بسهولة إذا كانوا بلا دفاع ولا حماية عسكرية كما تم نقل ذلك ، وأجرى المسيحيون الزحف بأسره ليلا للانقضاض على الأتراك فجأة ، ودون تحذير قبل أن يكونوا عالمين بالمنطقة المجاورة للعدو ، وبلغوا مقصدهم في الصباح ، وبينما كان بعض الجنود يسرعون في هذا الاتجاه وذاك باحثين عن الغنيمة ، كان آخرون يتبعونهم ببطء بعض الشيء وعلى مسافة في الخلف ، وقعت المجموعة التي كان الملك راكبا معها وتسير بإهمال كثير ، في شرك في مكان ضيق مابين الصخور ، حيث كان يكمن فيه بعض أفراد العدو ، لأنهم بعدما علموا بأننا قادمون قرروا أن يختبئوا أملين بهذه الطريقة أن يتفادوا هجومنا ويحتاطوا

لسلامتهم الخاصة . لكنهم عندما رأوا المسيحيين ينقضون عليهم دون حذر مناسب ، دفعتهم الضرورة مرغمين ليصبحوا شجعانا مع أنهم كانوا كارهين لذلك ولا يزالون يائسين حتى من أرواحهم . فانطلقوا من مكنهم فجأة وهاجموا جنودنا بشجاعة وذلك بعدما أدركوا أن جنودنا كانوا في موقع صعب ، وكانت رغبتهم الوحيدة حتى في هذا الوقت تجنب العدو بالاختباء ، إلا أنهم قتلوا الآن خيولنا بعدما أطلقوا وأبلا من السهام من بعد وشددوا الخناق على قواتنا .

وما أن أدرك كافل المملكة أن العدو قد ظهر هكذا بشكل غير متوقع ومفاجيء حتى انقضض عليه بكل غضب وكالعادة حارب بقوة واخلاص بكل قوته لحماية الملك في هذه الازمة الخطيرة ، حتى لا ينقض عليه العدو ليهلكه ، وبينما كان مذبذبا بهذا الشكل ، امطره العدو مرارا وتكرارا بضربات عنيفة احدثت به جراحا مميتة ، وقد انقضى
جنوده بصعوبة من هذا الوضع الخطير ، ونقلوه على صهوة الجواد .

قتل في تلك المعركة جنود مشهورون كثيرون جديرون بالتذكر الورع ، وكان بين هذه المجموعة كل من ابرهام صاحب الناصرة ، وهو شاب له مظهر وسيم ، قدمت شخصيته النبيلة ومولده السامي وثروته الكبيرة وعدا طيبا للمستقبل ، وغودشوكس دي تورت الذي خلف أيضا وراءه سمعة حسنة ، كما قتل آخرون عديدون من منزلة أدنى في ذلك الموقع .

كانت هذه هي حالة الأمور عندما أنقذ الملك بهذا الشكل من خطر كبير جدا بوساطة الجهود التي بذلها أتباعه ، وعاد إلى المعسكر الذي كان قد انطلق منه في وقت سابق واستدعى الجنود المضطربين الذين كانوا قد تفرقوا هنا وهناك .

أصبحت حالة كافل المملكة همفري أكثر خطرا ، وهكذا نقل في الحادي عشر من شهر نيسان إلى القلعة الجديدة التي كانت ما تزال قيد الانشاء ، وبقي على قيد الحياة هناك مدة عشرة أيام تقريبا ، مطيلا حياته تحت وطأة ألم شديد ، ونطق بعبارته الأخيرة بحكمة وتدبر ، وانتهت في الثاني والعشرين من شهر نيسان الحياة المثالية لهذا الرجل والذي ستحزن بلاده عليه إلى الأبد . ودفن بمراسم لافتة في قلعته الشهيرة والنبيلة تيرون في كنيسة أم الرب المباركة العنراء الطاهرة .

بدأ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا بعد وفاة همفري مباشرة وفي السابع والعشرين من شهر ايار نفسه (٣٦١) ، واطلق دون انقطاع وابلا كثيفا من السهام وانهمك المحاصرين الموجدوين داخل اسوار القلعة بهجمات متكررة ، وحدث فجأة ان سهما اطلقه احد المحاصرين يقال إن اسمه كان رينيروس اوف ملروم(رينه دي مارون أو مارويل) أصاب بجرح مميت واحدا من أغنى أمراء صلاح الدين ، وأثار مقتل هذا النبيل اضطرابا كبيرا بين الكفرة إلى درجة انهم تخلوا عن مشروعهم ورفعوا الحصار ورحلوا .

٢٨ - صلاح الدين يغزو اراضي صيدا . الملك يجمع قوات المملكة العسكرية ويخرج للتصدي له.

كان صلاح الدين قد غزا من قبل صيدا بقوة السلاح مرتين أو أكثر دون أن يلقي أية مقاومة كما وكان قد نهبها بحرية وأحرقها وقتل سكانها . وقرر في اليوم التالي أن يشن غزوة أخرى وهكذا ، نصب معسكره بين مدينة بانياس ونهر دان وأرسل مناوشين بأعداد ضخمة للحصول على الغنائم واشعال الحرائق . وبقي هو في المعسكر مستعدا للمساعدة في حالة الطوارئ وانتظر هناك عودتهم ونتيجة هجماتهم ، وبلغ الملك في هذه الأثناء النبأ بأن صلاح الدين هو الذي كان يدمر أراضينا بهذا الشكل ، فأسرع إلى مدينة طبرية

مع جميع القوات التي استطاع أن يجمعها من جميع المصابير أخذًا معه صليب الصليبوت . وتقدم من هناك من خلال مدينة صفد ومدينة ناسون القديمة ووصل مع قواته إلى تيرون .

واستلم هناك معلومات دقيقة من الرسل ، الذين كانوا يذهبون ويجيئون باستمرار ، أفادت أن صلاح الدين وجيشه كانوا ما يزالون في الموقع ذاته ، وأنه قد أرسل فرسانه المسلحين بشكل خفيف إلى الأمام ليخربوا حقول صيدا ، وكانوا هناك يقتلون ويحرقون وينهبون بأسلوب عدواني ، ولذلك ، تقرر بالاجماع بعد التداول ، التقدم نحو العدو ، ووجه المسيحيون الجيش ، تمشيا مع هذه الخطة ، من تيرون إلى بانياس ووصلوا إلى قرية تدعى مسفر وكانت هذه القرية واقعة على قمة جبل ، وأمكن منها رؤية المنطقة بأسرها في الأسفل وصولا إلى قاعدة سلسلة جبال لبنان ، وكان معسكر العدو مرثيا أيضا على بعد ، ورأى الجميع الحرائق وأعمال التخريب التي ارتكبتها العدو عندما تجول جنده بالمنطقة هنا وهناك .

ولم يستطع جند المشاة ، الذين أضناهم المسير الطويل حتى الانهك ، مجاراة حركة الفرسان عندما ساقوا بسرعة أثناء نزولهم من الجبال ، وهكذا نزلت قوات الفرسان بصحبة عدد قليل فقط من الجنود المشاة الأكثر نشاطا إلى مكان يعرف عموما باسم مرجعيون واقع في السهل الواقع مباشرة تحت الجبل ، وتوقفوا هناك لعدة ساعات للتداول حول برنامجهم الإضافي .

أصبح صلاح الدين في تلك الساعة خائفا بعض الشيء ، إزاء خبر الوصول المفاجيء للملك ، وكان قلقا حول طلائعه التي بدت وكأنها معزولة عنه وعن الجيش ، وخشي أيضا من احتمال مهاجمة معسكره ، ولذلك أمر بوضع الامتعة والمعوقات وجميع المعدات بين السور والفصيل في المدينة المجاورة حيث يمكن العثور عليها بسهولة مهما تكن نتيجة المعركة ، وانتظر نتيجة الأحداث وهو مستعد بهذا الشكل ومتوجس حول النتيجة .

وفي هذه الاثناء ، علم المناوشون ، الذين كانوا قد خرجوا في حملة نهب ، بذعر كبير باقترابنا ، فعقدوا العزم على الالتحاق بقطعانهم إذا كان ذلك ممكنا متخليين عن جميع الاعتبارات الأخرى ، إلا أنهم واجهوا قواتنا بعد عبورهم للنهر الواقع بين منطقة صيدا والسهل الذي كان جيشنا مقيما فيه كما ذكرت من قبل ، وتلا ذلك على الفور مناوشة من مواقع متلاحمة انتصر فيها المسيحيون بعون الرب ، فاستدار العدو هاربا وحاول بلوغ معسكر صلاح الدين إنما بعد قتل العديد منهم وإلقاء عدد أكبر أرضا .

٢٩ - نشوب القتال . المسيحيون ينهزمون ويؤسر العديد منهم .

بينما كانت الأمور على هذه الصورة ، صعد أوبو ، مقدم فرسان الداوية بصحبة كونت طرابلس وآخرون ممن كان يتتبعهم هضبة واقعة في الجهة المقابلة ، وكان النهر إلى يسارهم وكان السهل الكبير ومعسكر العدو إلى يمينهم .

وعندما علم صلاح الدين بالمحنة الشديدة التي نزلت بجنوده ، حيث كانوا معرضين للخطر بل للموت ، استعد للذهاب إلى مساعدتهم ، وقد اتخذ قراره هذا عندما لمح عددا من جنوده المنهزمين بشكل تام . فانطلق لمقابلتهم ، وشجعهم ، لدى معرفته بالوضع ، بأقوال مشجعة وأعادهم إلى الصفوف . ثم انقض فجأة على المسيحيين الذين كانوا يطاردون الهاربين بشكل طائش .

وفي هذه الاثناء ، كانت قواتنا من المشاة ، التي اغتنت بالمغانم من القتلى قد خيمت على طول ضفة النهر ، وكانت ترتاح بهدوء اعتقادا منها أنه تم احراز نصر تام على العدو ، إلا أن قوات الفرسان لاحظت أن العدو الذي اعتقدوا أنهم كانوا قد قهروه كان ينلجح إليهم بقوة جديدة ، فحاربوا بشجاعة وبصفوف مضطربة

ودون وقت أو فرصة لاعادة ترتيب صفوفهم أو تنظيم قواتهم بترتيب المعركة حسب الأسس العسكرية ، وقاوموا لبرهة من الزمن ، وصدوا بقوة هجمات العدو ، وأخيرا استداروا وهربوا على أقبح صورة ، وكان بإمكانهم أن يتجنبوا بسهولة العدو المطارد وانقاذ أنفسهم بالتحول إلى اتجاه آخر ، إلا أنهم اتبعوا بسبب اثامنا خطة هزيلة واندفعوا إلى ممر ضيق محاط بجروف شاهقة ، واستحال هنا التقدم أو الانسحاب عبر صفوف العدو إلا بالتعرض لخطر الموت ، وعبر بعضهم النهر ، وانسحب معظم هؤلاء ، بأمل انقاذ ارواحهم ، إلى أقرب حصن كان يدعى شقيف أرنون ، بينما سار آخرون بعد العبور على طول الضفة الأخرى إلى صيدا ، وتجنبوا بالتالي التيار العنيف للمعركة ، وصادفوا في الطريق رينو صاحب صيدا وجنوده ، الذين كانوا يسرعون السير نحو الجيش ، إلا أن رينو انصاع لتحذيرهم لدى علمه بهذه الكارثة وعاد إلى صيدا ، ويعتقد أن هذا العمل كان مسؤولا عن كوارث متعددة في ذلك اليوم ، فلو أنه واصل سيره إلى القلعة فلربما تمكن من انقاذ العديد من رجالنا من براثن العدو بمساعدة سكان المدينة والمنطقة الذين كانوا يعرفون المكان ، فقد حدث ، أن اختبأ الهاربون في تلك الليلة في كهوف بين الصخور . فاكتشفهم العدو في صباح اليوم التالي ، بعدما فتش كل زاوية وركن ، فأسروهم وألقاهم في السجن ، إلا أن الملك نجا سليما بمساعدة جنوده الملكيين . كما وصل كونت طرابلس إلى مدينة صور أيضا مع عدد قليل من الرفاق (٣٦٢)

كان من بين المسيحيين الذين أسروا في ذلك الوقت اوبودي سينت - أماند مقدم فرسان الداوية . وهو رجل شرير ، متكبر ومتعجرف سكنت في منخرية روح الحقد (٣٦٣) ، وكان انسانا لم يخش الرب ولم يحترم الانسان ، وقد حملة اشخاص عديدون مسؤولية الخسارة ، وخزيا دائما لايמות بسبب الكارثة ، ويقال إنه توفي ذلك العام اسيرا في سجن قذر فلم يحزن عليه احد.

. وكان بلدوين صاحب الرملة ، وهو رجل نبيل وقوي ، قد أسر هناك

أيضا ، كما كان هيو صاحب طبرية قد وقع بالأسر أيضا وهو ربيب كونت طرابلس ، وكان رجلا في بداية شبابه يبشر بمستقبل رائع ، وقد أحبه الجميع كثيرا ، ووقع بالأسر هناك آخرون كثرا لا أعرف أسماءهم .

٣٠ - صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا . يستولي عليها بهجوم عاصف ويدمرها . هنري كونت ترويز وبطرس أخو لويس ملك فرنسا يصلان الى سوريا .

كانت هذه هي حالة الأمور في المملكة في هذا الوقت ، وكانت حظوظنا في الدرك الأسفل عندما نزل في مدينة عكا الكونت الرائع لترويز وابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، والذي كنا قد افترقنا عنه في مدينة برنديزي في أبوليا عندما كنا عائدين من المجمع الكنسي . وكما تم ذكر ذلك ، وكان معه مجموعة كبيرة من النبلاء كما قدم في العبور نفسه نبلاء آخرون كان من بينهم بطرس دي كورثني أخو لويس ملك فرنسا ، وفيليب ، الأسقف المنتخب لبيوفيس ابن الكونت روبرت وأخو الملك لويس ، فأنعش قدومهم قلوب شعبنا التي أضعفتها الكوارث الأخيرة ، وبعث فيهم الأمل بأنهم قد يتمكنون بحماية نبلاء عظماء كثيرين من تفادي المحن في المستقبل وربما الثأر لحسن الماضي ، إلا أن هذا الأمل كان عقيما لأن الرب لم يكن معهم ، فلم يتمكنوا من التغلب على نتائج الكوارث الماضية ، ووقعوا حتى في مشاكل أكثر سوءا لأن صلاح الدين ، عدونا الأكثر ترويعا ، كان قد ارتقى إلى درجة من التكبر بسبب نجاحاته الكثيرة وحظه الجيد إلى درجة أنه ضرب الحصار فجأة ، وقبل أن نحصل على فرصة لاسترداد أنفسنا على حصننا الذي كان قد أنجز في شهر نيسان الماضي .

- ٣٣٨٩ -

وضعت هذه القلعة ، التي تكرر ذكرها ، عند إنجازها تحت رعاية رهبان فرسان الداوية الذين ادعوا ملكيتهم لسائر تلك المنطقة بموجب تنازل من الملوك لهم .

استدعى الملك كامل قوات المملكة وجميع القوات العسكرية الأخرى وذلك عندما عرف أن صلاح الدين كان قد حاصر القلعة ، كما استدعى أيضا الكونت هنري والنبلاء الآخرين الذين كانوا قد وصلوا مؤخرا وأسرع إلى طبرية ، ودعا إلى الاجتماع به هناك جميع زعماء المملكة بقصد الذهاب لمساعدة المحاصرين وإجبار العدو على رفع الحصار .

وبينما كان ينتظر هناك ، بعد أن أجل التحضيرات لمدة يوم واحد ، وصلت أقاويل ثبت أنها صحيحة كان مفادها أن العدو قد استولى على الموقع ودمره عن بكرة أبيه ، وأن جميع جنود الحامية التي كانت قد تركت هناك لحراسة القلعة قد غدت بين قتيل وأسير (٣٦٤) . وهكذا ، أضيفت كارثة أكبر إلى محنتهم السابقة ، بحيث يسكن القول عنهم بصدق : « لقد تخلى الرب إلههم عنهم » . حقا إن « أحكامك لجة عظيمة » . و : « ما أهيب أعمالك » (٣٦٥)

إنه الله الذي كان قد أضفى خلال العام المنصرم هبات كثيرة على أبنائه المؤمنين عرضهم لمحنة ارتداء الخوف العظيم والاضطراب الشديد ، من ذا الذي يعرف نية الرب ؟ ومن ذا الذي يشاركه بأرائه ؟ لماذا إذا أيها الرب ؟ هل سحبت تأييدك بسبب وجود الحشد الضخم العدد والكبير من النبلاء خشية أن يعزوا لأنفسهم ذلك الذي لم يعط بسبب الجدارة بل بالرحمة ؟ أو ربما لأنهم لم يردوا ردا مناسبا على ما منحتهم إياه برحمتك من عطايا أيها المحسن إليهم ، أو « لأن الذي يحب الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله » (٣٦٦) لقد كسوت وجوهنا بالخزي حتى نلتمس اسمك المقدس المبارك إلى الأبد ، إننا نعرف ونعترف أيها الرب بأنك لا تتغير . لأنك

- ٣٣٩٠ -

قلت» لأنني انا الرب لا اغير» (٣٦٧) . ومع ذلك ، مهما كان السبب ،
إننا نعرف انك عادل ايها الرب ، وان احكامك قويمه.

وتجددت في هذه الآونة المفاوضات التي كانت قد أجريت في العام
السابق بخصوص دوق بيرغندي وذلك بوساطة عمه الكونت هنري .
وكان من المؤمل وصوله في العبور الثاني ، إلا أنه رفض القدوم
لأسباب مجهولة كما اتضح تماما فيما بعد .

هنا انتهى الكتاب الحادي والعشرون

الكتاب الثاني والعشرون

تضارب المصالح

١ - الملك يزوج اخته أرملة الماركيز الى رجل شاب يدعى غي دي لوزنغن. الملك يعقد هدنة مع صلاح الدين بشروط متساوية وهو عمل لم يسبق له مثيل.

وصل في هذا الوقت أيضا بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس إلى المملكة مع مرافقة من الفرسان ، وسبب هذا ذعرا كبيرا للملك ، لأنه خشي من أنهما قد يحاولان إحداث ثورة ، بحيث قد يحاولان في هذه الحالة الاستيلاء على المملكة لمصلحتهما بعد خلعهم من العرش ، وكان مرض الملك يقلقه الآن أكثر من ذي قبل ، وأصبحت دلائل الجذام أكثر وضوحا من يوم لآخر .

وكانت اخته التي كانت زوجة لماركيز مونتفرات ، ما تزال أرملة ، وكانت تنتظر قبوم الدوق ، كما تم شرح ذلك ، مع أن الملك كان يعرف هذين النبيلين تماما وعلى الرغم من أنهما كانا قرييين له فقد ارتاب بدوافعهما في القبوم ، وعندما سمع بأنهما كانا قد وصلا ، عجل بزواج اخته ، ولربما كان بالامكان عثوره في المملكة على نبلاء ذوي أهمية وحكمة وحتى ثروة أكبر بكثير من بين الأجانب والسكان على حد سواء ، حيث كان الزواج من أي منهم له منافع أكبر بكثير بالنسبة للمملكة ، إلا أن الملك ولأسباب خاصة به ، ودون الانتظار للتمعن في «ان السرعة الكثيرة جدا تفسد كل شيء» (٣٦٨) ، زوج اخته فجأة من رجل شاب من منزلة لا بأس بها وهو غي دي لوزنغن ابن هيو البني من أبرشية بواتيه. واحتفل بالزواج اسبوع عيد الفصح خلافا للعرف المألوف.

- ٣٣٩٢ -

أدرك النبيلان المذكوران منذ لحظات أن الملك ونبلائه كانوا قد نظروا بارتياح إلى قدومهما ، وبناء عليه عادا إلى بلادهما حالما أتما الصلوات المألوفة ، وبقي لبضعة أيام في طبرية ، وبينما كانا هنالك ، شن صلاح الدين ، غير العارف بوجودهما ، هجوما على المدينة ، إلا أنه لم يلحق أي ضرر بالسكان ، وانسحب مجددا إلى المنطقة الواقعة حول بسانياس ، وبقي مع جيوشه هناك منتظرا - كما عرف فيما بعد - وصول أسطول مؤلف من خمسين من الشوانى كان قد أمر بإعدادها في غضون فصل الشتاء المنصرم ، وسبب انتظارها هناك بعض الارتباك للملك ، ولذلك أرسل رسلا إلى صلاح الدين للبحث في عقد هدنة.

رحب صلاح الدين بالاقترح - مع أنه ادعى غير ذلك - لأنه ارتاب بقوته أو ربما كان لديه سبب ما للخوف من قواتنا التي كان قد هزمها في أحوال كثيرة خلال العام الماضي ، ذلك أن جفافا شديدا وندرة في الأمطار في المنطقة الواقعة حول دمشق كانا قد سببا ندرة في الطعام من كل نوع للناس والبهائم لمدة خمسة أعوام متتالية.

وهكذا ، فقد رتبت هدنة في البر والبحر على حد سواء وللأجانب والمواطنين على حد سواء وتمت المصادقة عليها بتبادل الأقسام بين الطرفين ، وكانت الشروط مثلة لنا إلى حد ما ، حيث عقدت الهدنة بشروط متساوية ودون أية تحفظات هامة من جانبنا ، شيء يقال إنه لم يحدث أبدا من قبل.

٢ - صلاح الدين يغزو بلاد طرابلس ويدمر المحاصيل والممتلكات المسيحية الأخرى في ذلك البقاع.

قاد صلاح الدين جميع قواته من الفرسان نحو بلاد طرابلس خلال الصيف التالي مباشرة من العام نفسه وذلك بعدما اتخذ الترتيبات الأمنية لاقليمي دمشق وبصرى ، وأقام معسكره قرب طرابلس وأرسل سرايا خياله إلى الريف المجاور ، كان الكونت قد

انسحب مع قواته الى مدينة عرقة وكان ينتظر هناك فرصة للاشتباك مع العدو دون خسارة كبيرة ، كما بقي فرسان الداوية ، الذين كانوا يعيشون في المنطقة المجاورة نفسها ، محتجزين في حصونهم ، وكانوا يتوقعون كل ساعة تقريبا أن تتم محاصرتهم ولم يرغبوا بالمجازفة في مواجهة مع الأتراك ، وكان فرسان الاسبتارية قد انسحبوا أيضا بذعر الى قلعتهم المحصنة في الكرك . وشعروا أنه إذا كان بإمكانهم الدفاع في وسط اضطراب كهذا عن القلعة المذكورة قبل قليل وحمايتها من أذى العدو ، فإن واجبهم يكون قد نفذ ، واحتل الجيش التركي موقعا واقعا بين هؤلاء الفرسان وبين قوات الكونت ، وهكذا ، لم يتمكن المسيحيون من مساعدة بعضهم بعضا ، كما لم يتمكنوا من ارسال الرسل من جيش آخر للتأكد من أحوال كل منهما.

وتجول صلاح الدين خلال هذا الوقت هنا وهناك فوق السهل ، وخاصة فوق الحقول المزروعة ، وعاث بالموقع بأسره دون مقاومة . وأحرق جميع المحاصيل مما كان قد تم جمعه في المخازن ، وكل ما كان مكوما في الحقول وحتى المحاصيل النامية أيضا ، وساق أمامه قطعان الماشية غنيمة وضرب الريف بأسره في جميع الاتجاهات.

٣ - وصول اسطول مصري الى جزيرة أرواد. كونت طرابلس يعقد هدنة مع صلاح الدين

كان هذا الوضع سائدا في طرابلس عندما ظهرت قوات صلاح الدين البحرية فجأة في حوالى بداية شهر حزيران في المنطقة المجاورة لبيروت ، وعندما علم قادة تلك القوة بحقيقة أن صلاح الدين قد عقد معاهدة مع الملك ، احترموا شروط السلام التي كان قد أعلنها وخافوا من انتهاك أية شروط من تلك المعاهدة في أراضي بيروت أو بالفعل ضمن حدود المملكة بأسرها (٣٦٩) . ولدى معرفتهم بأن

مع جيشه في منطقة طرابلس فقد ذهبوا الى هناك واستولوا على جزيرة أرواد الواقعة قبالة مدينة طرطوس ، وعلى بعد نحو ثلاثة أميال منها ، ووجدوا في الميناء مرفأ موائما لشوانبيهم.

يقال ان Aradius أرابيوس بن كنعان حفيد (كذا) نوح هو الشخص الأول الذي سكن في هذه الجزيرة ، وأقام عليها مدينة محصنة حيث اشتق منه اسم أرواد ، وكان يقع في مكان مجاور منها الى الشرق مدينة اتسمت بالروعة فيما مضى تدعى انطرطوس وحملت هذا الاسم لأنها وقعت كما قلنا قبالة أرواد ، وقد تحرف هذا الاسم حاليا الى طرطوس ، ويقال إن الرسول بطرس قد أسس هنا - عندما كان مسافرا عبر فينيقية - كنيسة صغيرة تشريفا لام الله ولا يزال هذا الصرح يزار من قبل عدد كبير من الناس ، ويروي أن السماء منحت هنا الكثير من الاعانات استجابة لوساطة العذراء الطاهرة وذلك بناء على صلوات المؤمنين في زمن الحاجة ، وتعتبر هاتان المدينتان تابعتين لمطرانية صور ، إضافة الى موضع آخر مجاور يعرف باسم مرقيه يعتبر من بلاد فينيقية.

أرسل نزول هذه القوات في جزيرة أرواد رعشة رعب في المنطقة بأسرها ، وبينما كان الجند ينتظرون أوامر سيدهم ، أشعلوا النار بمنزل واقع فوق ميناء طرطوس ، وحاولوا إلحاق الضرر بالسكان بقدر الامكان ، غير أن جهودهم ثبت بأنها عقيمة ، وكان صلاح الدين في الوقت نفسه قد دمر المنطقة بشكل يرضيه وأمر الاسطول الآن بالعودة ، ثم جمع جنوده وعاد الى موطنه أيضا ، وعقد بعد بضعة أيام معاهدة سلام مع الكونت وانسحب الى مكان بعيد من بلاد دمشق.

٤ - عودة رئيس اساقفة صور من القسطنطينية.موت لوديس ملك فرنسا.

كنا خلال هذا الوقت ولدة سبعة أشهر متوالية نقيم مع

مانويل ، الامبراطور العظيم للقسطنطينية ذي الذكرى الرائعة اقامة كانت قد اثمرت فوائدها عظيمة لانفسنا وللكنيسة ، وحصلنا في اليوم الرابع بعد عيد الفصح وبعد توصلات جدية كثيرة على انن للعودة الى موطننا (٣٧٠)

أمر الامبراطور عندما رحلنا مبعوثية برعايتنا ، وهم رجال عظماء ونبلاء ، ثم أبحرنا في أربع شوان تم تجهيزها بسخاء بالغ بكرمه الامبراطوري المؤلف ، وكان خط سيرنا مرورا بجزر تندوس Tenedos وميتيلين Mitylene وكيوس Chios وساموس وديوس Delos وكلاروس Claros ورودرس وقبرص مع أقاليم فريجيا وآسيا الصغرى وليقية وليكانيا وبسامفيليا وايزوريا وكليكية على يسارنا ، ووصلنا في آخر الأمر في الثاني عشر من شهر أيار سالمين وفي صحة وتوفيق الى مصب نهر العاصي وميناء القديس سمعان (السويدية) .

نعتقد أنه ينبغي عدم التغاضي هنا عن مسألة ليست ذات قيمة صغيرة بالنسبة للكتاب الحالي ، فبينما كنا نقيم في المدينة الامبراطورية ، كما تم ذكر ذلك من قبل ، بسبب أن فصل الشتاء لم يكن موافيا للابحار الى حد ما ، وأيضا تلبية للأمر الخاص للامبراطور الأكثر سعادة فقد احتفل ذلك الملك بزواج ابن وابنة وقد فعل ذلك ببصيرة أبوية وربما بنذير لرحيله المبكر من هذا العالم ، فقد منح لابنه الكسسيوس ، الذي يحمل اسم جده لأبيه (٣٧١) ، بشكل مهيب اغذس ابنة لويس ملك فرنسا الرائع ، ولم يكن الكسسيوس قد بلغ سن الرجولة بعد ، ولم يكن في الواقع قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ، بينما كانت اغذس قد بلغت الثامنة من عمرها تقريبا ، ومنحت الإشارة الامبراطورية الى الاثنين في جزء من قصر قسطنطين القديم ذاك الذي يحمل اسم ترلوس Trullus ويقال إن المجتمع المسكوني المقدس السادس قد عقد هنا في أيام قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل .

وأعطيت ابنة الامبراطور زوجة الى شاب يدعى رينير بن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات وأخو وليم الذي كنا قد أعطيناها أخت ملكنا ، وأمر الامبراطور رسلا امبراطوريين باستدعاء هذا الشاب الذي كان عندئذ في حوالي السابعة عشرة من عمره ، وكان قد وصل الى المدينة الامبراطورية قبل حوالي خمسة عشر يوما من وصولنا الى هناك ، وبقي لبرهة من الزمن في المدينة وزار الجيش أيضا بصحبة جلالة الامبراطور . وجمع الامبراطور بسلامته بعظمة امبراطورية في القصر الجديد المسمى بلاشيرين وذلك لدى عوبتهما من هناك مع حلول عيد التجلي في شهر شباط . واحتفل هناك باشراف سيوبوسيوس بطريك القسطنطينية بزواج ابنته ماريا ورينير الذي منحه اسم جون وهو اسم والده مع لقب قيصر ، وكانت ماريا ابنة الامبراطور من زوجته الاولى الامبراطورة ايرين ذات الذكرى الوردية ، والتي كانت قد اتت لتصبح زوجة له من مملكة التيوتون (٣٧٢) ، ولم ينجب من زواجه الثاني من ماريا سوى الكسيوس الامبراطور الحالي للقسطنطينية.

سيكون من العبث تماما القيام بأية محاولة لوصف جميع عجائب تلك الأيام بالتفصيل بسبب الكمية الهائلة من المادة ، حتى وإن افرد لها بحث خاص ، يمكننا أن نذكر ألعاب السيرك التي يدعوها سكان القسطنطينية باسم ميادين الهبودروم ، والمشاهد الرائعة ذات الطبيعة المتنوعة المعروضة للناس بأبهة عظيمة خلال أيام الاحتفال ، والابهة الامبراطورية للملابس والثياب الملكية المزركشة بكميات كبيرة من الأحجار الكريمة واللآلئ ذات الوزن الكبير والمقدار الكبير من الذهب الثقيل والأثاث الفضي في القصر الذي لا يمكن تقدير قيمته ، وسنقتصر الأقوال على التحدث بعبارات مناسبة ووافية عن ستائر الدمستق الرائعة والمزخرفة في المقر الامبراطوري ، ومن غير الممكن الحديث بالتفصيل عن العبيد الذين لا يمكن إحصاءهم مع أعضاء البلاط ، ولا عن عظمة الزفاف وابهته و الهبات السخية التي أغدقها الامبراطور على شعبه والغرباء على حد سواء . ولنعد الآن الى القصة .

نفذنا أوامر جلالته الامبراطورية في أنطاكية مع الأمير والمولى
البطريك لتلك المنطقة ، ووجدنا في بيروت الملك الذي كان في طريقه
الى مدينة صور برا . وواصلنا رحلتنا البحرية وعدنا بفضل الرب
الى الكنيسة في صور في السادس من شهر حزيران ، بعد عام
وتسعة أشهر من رحيلنا الى المجمع الكنسي.

توفي لويس ملك فرنسا الأكثر تقوى ، في الثامن عشر من شهر
أيلول في العام السابع من فترة حكم الملك بلدوين الرابع ، وانتقلت
روحه الى السموات لتلقى مكافأتها الأبدية مع صفوة الملوك ، لقد
كان ملكا صاحب مناقب كثيرة وذكرى سرمدية ، ولم يخلف سوى
ابن وريث واحد هو فيليب ، وكان قد أنجب من زوجته الملكة الكس
ابنة ثيوبولد الأكبر وأخت : الكونت هنري أوف ترويز ، وثيوبولد
كونت تشـارترز ، وستيفن كونت سـانـسـري
Sancerre ووليم رئيس اساقفة الرايمز ، وقد توفي في
العام الخمسين من فترة حكمه وفي الستين من عمره ، (٣٧٣)

توفي في السادس من شهر تشرين الأول اللاحق أمالرخ ذي
الذكرى النفيسة ، حيث كان رجلا بسيطا للغاية وبدون أهمية تقريبا
وذلك بعدما شغل منصب بطريك للقدس لمدة عشرين عاما
تقريبا ، واختير خلال عشرة أيام بعد ذلك هرقل رئيس أساقفة
قيسارية ليشغل منصب أمالرخ (٣٧٤)

٥ - الملك يزوج اخته الصغرى من همفري الثالث.
موت امبراطور القسطنطينية.

زوج الملك في ذلك الشهر نفسه اخته ، التي لم تكن آنذاك تجاوزت
سن الثامنة من عمرها من شاب همفري (٣٧٥) . وكان همفري
الثالث هذا ابنا لهمفري الثاني وستيفني ابنة فيليب صاحب نابلس .

وكان والد همفري الثاني هو همفري الأكبر كافل المملكة الذي أشير إليه مرارا من قبل ، وكان فيليب صاحب نابلس جد همفري الثاني حاكما للعربية الثانية التي هي البتراء والتي تدعى عموما في الوقت الحالي باسم الكرك ، أيضا باسم وادي عربة ، المعروفة حاليا باسم مونتريال ، حيث تقعان كلاهما فيما وراء الأردن ، وتبنى فيما بعد الحياة الدينية وأصبح مقدما لفرسان الداوية (٢٧٦) .

تولى القيام بالمفاوضات بخصوص هذا الزواج بحماسة كبيرة الأمير رينو الزوج الثالث لوالدة همفري الثاني ، الذي كان قد بلغ منزلة الرجولة. ولدى اتمامها جرى الاحتفال بخطبة همفري وأخت الملك في القدس.

وكان همفري قد استلم عند وفاة جده لأبيه بحق وراثي بعض الممتلكات في اقليم صور وهي : تيرون وقلعة أنفة ومدينة بانياس مع ملحقاتها ، ثم أجرى تبادلًا لهذا الميراث مع الملك وفق شروط محددة حيث أودع نصها ، الذي أملىناه كما هو متعلق بواجبنا الرسمي في السجلات الملكية (٢٧٧)

وتوفي في اليوم الثالث من الشهر نفسه مانويل الامبراطور اللامع للقسطنطينية ذي الذكرى الأبدية والذي فاق سخاؤه جميع ملوك المنطقة ، وسلم روحه لعلين ، وسيحتفظ بذكراه في مجمع القديسين ببركة بسبب صدقاته وتبرعاته السخية ، ويقال إنه توفي في العام الأربعين من حكمه ، وفي العام الواحد والستين من عمره وذلك بشكل تقريبي حسبما استطعنا التحقق من ذلك (٢٧٨)

وتخلّى في هذه الأونة أيضا بوهيموند أمير أنطاكية عن زوجته الشرعية ثيودورا ابنة إحدى أخوات الامبراطور ، واجترأ بتحدي قوانين الكنيسة على الزواج من امرأة تدعى سيبيلا اشتهرت بممارسة الفنون الشيطانية (٢٧٩)

كان جوسلين عم الملك وقهرمانه أيضا موجودا آنذاك في القسطنطينية حيث كان بلدوين قد أرسله الى هناك بخصوص بعض أمور المملكة ، وكان بلدوين صاحب الرملة مقيما هناك أيضا بغية التماس مساعدة الامبراطور في مسألة دفع فديته ، وجرى خلال إقامتها في المدينة الامبراطورية - حيث كان الامبراطور مانويل ذو الذكرى النفيسة متوفى الآن - أن اكتشف في الأول من شهر آذار أن نبلاء بارزين كانوا قد تأمروا لاجداث تمرد ضد الامبراطور الكسيوس نجل مانويل الذي كان حسب وصية والده ما يزال تحت وصاية والدته ، فجرى اعتقال هؤلاء بتهمة الخيانة وقيدوا حسب أوامر الامبراطور وألقى بهم في السجن ، على الرغم من أن بعض المجرمين كانوا من أقربائه.

وكان من بين زعماء هذه المؤامرة مانويل بن أندرونيكوس الأكبر ، الذي ذكر أنفا ، والكسيوس البروتوسيستوس وثيودورا كلوزينا ابنة أخي الامبراطور ، وأخو لوغوثير الذي كان يشغل منصب الحاجب ، ونحو اثني عشر رجلا آخرين من مرتبة عالية ، وكانت السيدة ماريا ، أخت الامبراطور ، ممن حرض على المؤامرة أيضا ، وقد هربت خلال الليل مع زوجها ، ابن الماركيز أنفا (٣٨٠)، الى كنيسة القديسة صوفيا حيث وضعت نفسها تحت حماية الكنيسة بترقب قلق لمصيرها ، وحاولت أن تتخذ إجراءات ضد أخيها الامبراطور من ذلك الملاذ الذي جمعت فيه الأسلحة والرجال المسلحين ، يساعدها في ذلك زوجها ومناصروها وعدد من المتورطين في المؤامرة نفسها ، وأيدها في ذلك حتى بطريك المدينة نفسه ، هذا واستمر فريق الامبراطور ، الذي كان يعتمد بشكل خاص على مساعدة اللاتين بالزيادة في القوة ، فقامت في آخر الأمر بالتماس الرحمة عن طريق الوسطاء وذلك بعدما تبذرت قواتها ويئست من الحياة نفسها ، ووافق الامبراطور على مطلبها وأعادها الى حظيرة رضاه (٣٨١)

٦ - اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد أمير انطاكية بسبب الخلية التي كان قد اتخذها لنفسه مع أن زوجته كانت ماتزال على قيد الحياة.

في هذه الآونة كانت حالة الشعب اللاتيني في الشرق ، وخاصته في إمارة انطاكية ، مضطربة كثيرا لأن بوهيموند أمير انطاكية كان قد تخلى عن زوجته الشرعية واتخذ من خليلته زوجة ثانية ، وكان قد جرى تحذيره اكثر من مرة حتى يتخلى عن حالة الزنا الشريرة التي كان يعيشها بشكل علني مكشوف وان يستعيد زوجته الشرعية ، لكن « إذا جاء الشرير جاء الاحتقار أيضا ومع الهوان عار » (٣٨٢)

وهكذا رفض الأمير الاصغاء وأصم أنفيه ولم « يستمع الى صوت الحواة الراقين رقي حكيم (٣٨٣) ». ونتيجة لذلك وبما أنه أصر بعناد على البقاء أثما ، فقد جلب على نفسه عقوبة الحرمان العادلة والطرد من الكنيسة ، لكنه لم يعبأ بهذا كثيرا ، بل العكس ، استمر بسلوكه الشرير وبذشاط مضاعف ، وعامل البطريرك والاساقفة ورجال الدين الآخرين في الكنيسة في تلك المنطقة كأعداء وضايقهم بعنف ، وانتهك حرمت الأماكن المقدسة في كل مسن الكنائس والأديرة ، واستولى على نخبائها المقدسة ووزع ممتلكاتها بروح الوقاحة الشريرة ، يقال إنه حاصر بالفعل البطريرك مع الكهنة الذين كانوا قد هربوا اليه طلبا للملاذ ، وذلك في قلعة تخص الكنيسة ، وكانت هذه القلعة مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والجنود ومزودة بالمواد الغذائية ، ويروي أنه شن هجمات كثيرة عليها وكأنها كانت من ممتلكات العدو.

وهنا وجد بعض الرجال العظماء من هذه المنطقة أنفسهم غير قادرين على تحمل سلوكه الجنوني لفترة أطول من ذلك ، فتخلوا عنه بالجسد والروح وبمقت تام لأعماله الشريرة مدركين أن واجبهم كان نحو الرب وليس نحو الانسان ، وكان بين هؤلاء رجل نبيل قوي

يدعى رينوماسيور ، وانسحب الى إحدى قلاع ، التي كانت قلعة منيعة لا ترام ، ودعا الذين كان في قلوبهم الاخلاص والاستقامة وأمام أعينهم الخوف من الرب ، لينضموا اليه هناك ، وقدم ملاذاً آمناً هناك للنبلاء الذين كانوا قد طردوا من ممتلكاتهم ، ولآخرين من أي وضع اجتماعي ممن كان قد هرب لذلك السبب نفسه.

ونتيجة لسلوك بوهيموند واجهت المنطقة بأسرها حالة صعبة للغاية . ورأى رجال حكماء نوو خبرة طويلة أنه إذا لم تأت الرحمة الربانية بسرعة لمساعدتنا فستفتح من غير ريب سبل يتمكن العدو بها من تدميرنا وستصاب مصالح المسيحية إصابة أبدية . ولسوف تسقط المنطقة بأسرها من جديد في أيدي السلطات التركية ، بعدما أنقذت بمعونة الرب منهم ، من خلال عمل القادة المخلصين ، وعلى حساب مشقات لا تحصى تحملها شعب المسيح ، لأن القول الحق لا يتغير وجدير بكل القبول حيث أن « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت » (٢٨٤)

واجتمع ملك القدس والسيد البطريرك يدفعهما إحساسهما المؤلف بالمسؤولية مع رجال الكنيسة الآخرين والأمراء العلمانيين للتداول بجدية بخصوص السبيل الموجب إتباعه في مواجهة طارئ خطير كهذا ، ومع أن السلوك الشائن للأمير الفاسق والطائش بدأ بحد ذاته يطالب باتخاذ اجراءات قاسية ، إلا أنهم ترددوا باستخدام القوة خشية من أن يستدعي قوات العدو لمساعدته للمقاومة . وسيفتح عمل كهذا المنطقة للأتراك بحيث لن تجدي بعد ذلك أكثر الجهود جدية لطردهم ، وكان واضحاً أيضاً أن الوقت الحالي لم يكن مناسباً للتوسلات والنصح المفيد ، ولهذا السبب لم يتجرؤوا على إرسال رجال حكماء موهوبين في فن الاقناع لشخص كان مندفعاً بشكل جنوني على مدى طرق الشر ، ومنهم كما تماماً في اعتراف الذنوب حيث سيكون ذلك مثل « سرد حكاية لجحش أطرش (٣٨٥) و « إلقاء الكلمات الى الريح » (٣٨٦)

- ٣٤٠٢ -

ولذلك ، قررّوا تحمل هذه الكارثة خشية من أن يقعوا في أشياء أكثر سوءاً ، واستمروا في هذه الأثناء بالبحث عن المساعدة من الرب الذي اعتاد انقاذ حتى المرميين في أعماق البحر ، إنه الرب الذي «يعطي الثلج كالصوف و يذري الصقيع كالرماد» (٣٨٧) وكان أملهم أن يثوب الأمير الى رشده ، بعدما يحذره عقاب الهى ، فيرتدى من عليين بجميع الفضائل التي يتحلّى بها أكثر القادة عظمة ، ويندفع ليكافح للحصول على ثمرة حياة أفضل .

٧ - ارسال بطريرك القدس الى انطاكية في محاولة لايجاد علاج لهذه الاحوال الخطيرة. موت البابا الكسندر.

مالبت أن أصبح واضحاً للجميع أن الكارثة كانت أخذة في الازدياد ، وأنه لم يكن هناك أي أمل بالحصول على أي علاج فوري ، ولم يكن الأمير وحده محتجزاً في قيود الحرمان الكنسي ، بل شمل الحرمان المنطقة بأسرها نتيجة لسلب واحراق ممتلكات الأماكن المقدسة ، ولم تقدم أي من الأسرار المقدسة للكنيسة الى الناس الآن باستثناء تعميد الأطفال ، وأدرك المسيحيون بذعر أنه ليس بإمكان الأوضاع الحالية الاستمرار لفترة من الزمن بدون تعرض الجميع للمخاطر .

ولذلك تقرر بموافقة عامة أنه ينبغي على السيد البطريرك الذهاب الى انطاكية ، ويحاول اذا أمكن ، بنعمة الرب ، أن يجد علاجاً ما مؤقتاً أو دائماً يمكن أن يخفف من وطأة هذه الكوارث ، ورافق البطريرك في مهمته أرناط الذي كان أميراً لانطاكية فيما مضى ، وزوجاً لوالدة بوهيموند الأصغر ، والراهب أرنولد أوف توروغ Toroge مقدم فرسان الداوية والراهب روجر دي مولينز مقدم فرسان الاسبتارية ، واتخذت هذه الخطوة لأنه كان يخشى أنه اذا لم نعط أية اشارة تعاطف تجاه المصيبة البائسة

لجيراننا ، ولم نحاول معالجة الوضع ، فقد يتهمنا البابا والأمراء
عبر البحار بالاهمال أو حتى بالنية الشريرة .

ورافق البطريرك أيضا عدد من رجالات الكنيسة وكانوا رجالا
حكماء وعاقليين كان من بينهم موناخوس رئيس الاساقفة المنتخب
لقيسارية والبرت أسقف بيت لحم ورينالد راعي دير جبل صهيون
وبطرس رئيس رهبان كنيسة القبر المقدس ، وانطلق البطريرك الى
أنطاكية مع بقية الأصحاب أخذوا معه أيضا كونت طرابلس ، وهو
صديق حميم ومحبوب من قبل الأمير ، وهو الذي كان يؤمل أن
أقواله عندما تضاف الى أقوالنا قد تحقق النجاح والوصول الى
غايتهم .

تساور المبعوثون لدى وصولهم الى اللاذقية مع السيد البطريرك
والأمير كل على حدة ، وحددوا يوما توجب فيه عليهما أن يكونا
بأنطاكية . وبعدما نوقشت المسألة بشكل شامل من جميع وجهات
النظر ، عقدت هنا هدنة مؤقتة وفق الشروط التالية : لقد تم الاتفاق
على وجوب ايقاف الحرمان ، وإعادة امتياز أسرار الكنيسة المقدسة
الى الناس بعدما تتم إعادة جميع المقتنيات المفقودة الى البطريرك
والاساقفة والأماكن المقدسة ، وأما بخصوص الأمير نفسه ، فيجب
أن يتحمل بشخصه وبصبر العقوبة التي فرضها بحقه الاساقفة ، أو
أن يتولى صرف خليلته ويعيد زوجته الشرعية اذا طلب غفرانا
تاما .

عاد المندوبون الى موطنهم بعد أن تم هذا الترتيب ، معتقدين أنهم
كانوا قد خففوا الى حد ما على الأقل لهيب النيران اللاشرعية التي
كانت متأججة في إمارة أنطاكية .

هذا وواظب الأمير وأصر على سلوكه المخزي ، أضاف الى هذا
فقد تورط بسياسة رافقتها مخاطر كبيرة نحو المملكة ، فقد طرد من
المدينة - ومن سائر ممتلكاته بالفعل - أفضل نبلائه

- ٣٤٠٤ -

المخلصين ، حيث كانوا رجالا ذوي سمو عظيم ، ومن الواضح أنه طردهم للسبب الوحيد وهو أنه قيل أنهم شجبوا سلوكه . وكان بين الذين نفاهم كافل إمارته وحاجبه غيسكارد دي ليلي (غويشارد دي ليسلي) وبراثراند بن غسلبرت (٣٨٨) وغارينوس غينارت وبما ان هؤلاء النبلاء قد ارغموا على مغادرة انطاكية ، فقد ذهبوا الى روبينوس (روبن) وهو زعيم نبيل من الارمن (٣٨٩) ، واستقبلهم جميعا باجلال بالغ واعطاهم هبات رائعة خص بها كل واحد منهم واعد لهم مؤنا وفيرة لاعالتهم

توفي البابا الكسندر الثالث في السابع والعشرين من شهر آب (٣٩٠) من العام نفسه وفي العام الثالث والعشرين من شغله لمنصب البابا ودفن في كنيسة اللاتيران ، خلفه لوكيوس الثالث ، الذي كان اسمه من قبل هيوبولد اسقف اوستيا ، وكان البابا الجديد بالاصل من توسكانيا من المنطقة المجاورة للوكا ، وكان رجلا مسننا قليل التعليم .

وحدث أيضا في هذه الآونة نفسها في الثالث عشر من أيلول أن رحل أخونا المبجل في المسيح ، ريموند ، أسقف الكنيسة في بيروت ذو الذكرى المباركة في الرب من هذه الحياة لينعم بنعم الرب بمكافأة الحياة السرمدية ، وعين في منصبه فيما بعد رجل مبجل له ثقافة جيدة هو ماستر أودو رئيس شماسة كنيستنا ، وأضيفنا عليه خلال أيام العيد في كانون الأول بمشيئة من الرب رتبة منصب الكاهن والمنصب الأسقفي .

٨ - موت ابن نور الدين. تركه ميراثه لابن عمه مسعود.

حصلت في هذه الآونة وفاة الملك الصالح بن نور الدين ، وهو شاب كان مايزال في أوائل سن الرجولة ، لم يبق له من جميع الميراث الذي تلقاه من والده سوى مدينة حلب وعدد قليل من

- ٣٤٠٥ -

الحصون ، ويقال إنه أورث في وصيته الأخيرة ، التي أعدها أثناء وفاته ، مدينة حلب وجميع ميراثه الى مسعود ، حاكم الموصل ، والذي كان ابنا لعز الدين (اقرأ : قطب الدين) أخي والده . وأرسل رجالات الملك الصالح بعد وفاته رسلا الى مسعود ، الذي كان حاكما تركيا شهيرا وعظيما ، وحثوه على المبادرة بالقدوم اليهم بالسرعة الممكنة (٣٩١)

وبادر مسعود بالقدوم الى هنالك فور استلامه الرسالة ، واستولى على أملاك أسلافه وكل ما كان يخصه بحق وراثي ، لأنه خاف من أن يقوم صلاح الدين ، الذي كان قد سلب ابن عمه معظم ممتلكاته ، بالقدوم ثانية من مصر والاستيلاء على المدينة بالقوة على الرغم من إرادة سكانها لاسيما وأن بعض النبلاء الأكثر أهمية كانوا يؤيدونه بصورة سرية .

هذا وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعدما أبرم معنا صلحا مؤقتا لمدة عامين لينكب على أموره في تلك المملكة . وكان قد سمع بارتباك كبير أن أسطول ملك صقلية كان قد نزل الى البحر بمعدات جبارة وقوات لاتحصى بهدف الزحف ضد مصر ، بيد أن خوفه لم يكن ضروريا في هذا الصدد حيث جرى توجيه مسار الأسطول غربا نحو جزر البليار ، وتقع هذه الجزر على مقربة من سواحل اسبانيا وتعرف إحداهن عموما باسم ميورقة ، بينما تسمى الأخرى باسم منورقة ، وتبرهن أن الرحلة الى هناك كانت خطيرة ، حيث دفعت رياح معاكسة الأسطول ، فتحطم بأسره في المنطقة الواقعة قرب سواحل مدن سافونا والبينجه وفنتمقلا حيث دفعت الأمواج العنيفة السفن الى الشاطئ .

بينما كانت المملكة تنعم في هذه الآونة بالسلام المؤقت حسبما حكينا من قبل ، ألم تغيير جذري رائع بطائفة من السريان تقطن منطقة فينيقية ، قرب سلسلة جبل لبنان ، حيث شغلوا أراضي بالقرب من مدينة جبيل ، فقد كان هؤلاء الناس قد اتبعوا منذ

- ٣٤٠٦ -

خمسین عاما تقریبا العقائد الهرطقية لشخص يدعى مارون ، منه استمدوا اسم الموارنة ، وكانوا قد انفصلوا عن كنيسة المؤمنين ، واختاروا طقوسا دينية خاصة بهم ، غير أنهم عادوا الآن بفضل الهداية الربانية الى رشدهم وتخلوا عن هرطقتهم. وذهبوا الى إيمري بطريرك انطاكية وهو البطريرك اللاتيني الثالث الذي يرأس تلك الكنيسة ، وأعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدتهم لفترة طويلة من الزمن ، وعادوا الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية ، وتبنوا العقيدة الأرثوذكسية واستعدوا لاعتناق تعاليم الكنيسة الرومانية والتقيد بها بكل التقوى .

ولم يكن هؤلاء الناس في أي حال من الأحوال قليلي العدد ، وفي الواقع ، قدروا عموما بأنهم أكثر من أربعين الفا ، وكما ذكرت آنفا ، فقد سكنوا في أسقفیات جبيل والبترون وطرابلس ، على منحدرات الجبال اللبنانية ، وكانوا شعبا قوي البنية ومقاتلين شجعانا ، قدموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مرارا مع العدو ، ولذلك كان تحولهم للعقيدة الصحيحة مصدر ابتهاج كبير بالنسبة لنا .

وقوام بدعة مارون وأتباعه قائمة على قوله يوجد ووجد في ربنا يسوع المسيح ، من البداية بالفعل ، إرادة واحدة ، وقوة واحدة فقط ، وهذا مايمكن استخلاصه مما صدر عن المجمع المسكوني السادس الذي من المعروف تماما أنه عقد ضدهم ، والذي تحملوا فيه عقوبة اللعن ، وقد أضافوا الى هذه الفقرة ، التي أدانتها الكنيسة الأرثوذكسية ، تعاليم خبيثة أخرى كثيرة ، بعدما انفصلوا عن مجموعة المؤمنين ، غير أنهم تابوا الآن وتخلوا عن جميع هذه البدع ، كما تم سرد ذلك ، وعادوا الى الكنيسة الكاثوليكية تحت قيادة بطريركهم والعديد من أساقفتهم ، وأظهر هؤلاء القادة - الذين كانوا حتى الآن قد قادوا شعبهم في السبيل الشريرة - الآن حماسة مماثلة في توجيههم بورع عندما عادوا الى الحقيقة (٣٩٢)

٩ - نشوب خلاف بين كونت طرابلس والملك ما لبث ان تطور الى عداوة خطيرة معلنة.

كانت المملكة تنعم في هذه الايام بدرجة محدودة من الهدوء بفضل المعاهدة المؤقتة التي عقدت بين الملك وصلاح الدين حسبما حكينا ذلك من قبل ومع ذلك ، كانت هنالك ارواح متململة لاتعرف الاستقرار هي نفوس أبناء ابليس وأبناء الذين فطروا على الخصام ، الذين كانوا على أهبة الاستعداد دائماً لخلق الشقاق في المملكة ولاحداث اضطرابات مدنية .

كان عدد لا يحصى من القضايا قد احتجز الكونت لمدة عامين متتاليين في إمارة طرابلس ، ومنعه ذلك السبب من زيارة المملكة (٣٩٣) غير أن المسؤولية التي شعر بها الآن نحو مدينة طبرية ، ميراث زوجته ، دفعه الى الذهاب الى هناك ، فاتخذ جميع استعداداته للرحلة ، وكان قد سار وصولاً الى جبيل عندما أقنع الرجال الأشرار المذكورون أنفاً الملك السانج جداً بتملقاتهم الماكرة ليعتقد أن الكونت كان قادماً الى المملكة بالنوايا الشريرة للعمل سرا ليحل محله ، وقد أصغى بسهولة الى أقوالهم المغررة وأرسل على الفور رسالة نهائية ترفض منح الكونت الاذن لدخول المملكة .

امتنع الكونت ، المضطرب والساخط بعدل ، إزاء هذه الاهانة التي لم يستحقها تماماً ، امتنع وهو مكره جداً من التقدم الى أبعد من ذلك ، وعاد الى طرابلس بعد تبديد عقيم للجهد والمال .

وكانت مقاصد مثيري القلاقل هؤلاء ، عدم الارتباك بوجود الكونت الذي كان رجلاً مستقيماً تماماً ولا يعرف التعب ، وأن يقوموا أنفسهم بمعالجة أمور المملكة تماماً كما كانوا يرغبون ، وأن يحولوا ضعف الملك لمصلحتهم الخاصة ، وكان من بين الذين أثروا على الملك بشكل مخز ليتخذ هذا الاجراء والدته ، حيث كانت امرأة

جشعة بلا حدود ، وهاجرة للرب تمام الهجران ، ومعها أخوها قهرمان الملك وعدد قليل من الرجال الأشرار كانوا مواليين لهم (٣٩٤)

عندما علم النبلاء بهذا العمل ، تولاهم الرعب الكبير ، لاسيما وأنهم كانوا رجالا ذوي خبرة وحكمة كبيرتين ، لأنهم خافوا من أن المملكة سوف تسقط بسرعة من منزلتها السامية في حال حرمانها من حماية الكونت الرائع ، وحسب قول الرب « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » (٣٩٥) كانت هذه هي الحال على نحو أكثر خصوصية لأن الملك ، الذي كان يزداد مرضه يوميا ، كان ضعفه يزداد ويقل استعداداه للانكباب على أمور المملكة وفي الواقع ، نادرا ما تمكن من دعم نفسه وكان مشلولاً بشكل تام تقريبا .

وركز النبلاء الأكثر أهمية - لدى رؤيتهم الخطر الذي سيحدث بالتأكيد للمملكة نتيجة للعمل السابق - جميع جهودهم ووجهوها نحو إعادة استدعاء الكونت وتخفيف غضبه ، وأجبروا أخيرا الملك بعد مناقشات مطولة وأقتراحات متنوعة وعلى الرغم من معارضته أن يسمح لهم باسترجاع الكونت الى المملكة ، كما تغاضى الكونت الرائع عن الاساءات التي كانت قد ألحقت به ، وأعيد توطيد السلام تماما بين الملك وبينه (٣٩٦)

١٠ - حدوث ثورة في القسطنطينية انتصر فيها اندرونيكوس الشرير. نتيجة لذلك الشعب اللاتيني يضطرب اضطرابا شديدا .

في الوقت الذي كانت فيه بلادنا في الشرق تشهد هذه الوقائع ، حدث تغيير هام في امبراطورية القسطنطينية . فآثر هذا بشكل مشؤوم جدا على الشعب اللاتيني بأسره ، وألحق بهم إهانات غير مسموعة وخسائر ضخمة لأن الشرور التي خطط لها الاغريق الغدارون والخونة منذ زمن طويل أثمرت « وولدت كذبا (٣٩٧) » وبهتاننا ، ذلك أن الكسيوس نجل الامبراطور مانويل ذي

الذكرى اللامعة للغاية ، ارتقى العرش إثر وفاة والده ولم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من عمره ، وذلك حسب وصية والده بحق وراثي ، ولقد كان تحت وصاية والدته ، غير أن شؤون الامبراطورية وإدارتها كانت في يد الكسبيوس الحاجب ابن الأخ الأكبر للامبراطور المنتوفي ، وهكذا ، شعر النبلاء الرئيسيون وسكان تلك المدينة أن الفرصة قد جاءت لتنفيذ الخطط الشريرة التي كانوا قد حاكوها ضد شعبنا .

كان اللاتين قد لاقوا تأييدا كبيرا من مانويل ، حبيب الله ، خلال فترة حكمه - وكان ذلك مكافأة مستحقة تماما بسبب إخلاصهم وشجاعتهم ، كما أن الامبراطور ، الذي كان صاحب نفس عظيمة ونشاط فريد ، قد اعتمد بشكل مطلق على إخلاصهم ومقدرتهم الى درجة أنه أهمل الاغريق وعدهم أناسا مخنثين وفيهم فسولة ، وعهد بالوسائل الهامة لللاتينيين فقط ، ونظرا لوضعهم في تقدير عال كهذا وإظهاره نحوهم كرما سخيا كهذا ، فقد عده رجال العرق اللاتيني القادمين من سائر أنحاء العالم بالاضافة الى النبلاء ورجال ذوي منزلة أدنى بأنه المحسن العظيم لهم واندفعوا بتلهف الى قصره ، ونتيجة لهذا الاحترام المتحمس ، إزداد ميله نحو اللاتينيين أكثر فأكثر وكان يرفع من منازلهم باستمرار .

حمل النبلاء الاغريق ، وخاصة الأقرباء المقربون من الامبراطور وبقية الناس أيضا - بشكل طبيعي مشاعر الكراهية الشديدة ضدنا ، وازدادت هذه الكراهية بسبب الاختلاف بين أسرارنا المقدسة وأسرار كنيستهم ، الأمر الذي زودهم بدافع إضافي لغيرتهم ، فبعدما انفصلوا بوقاحة عن كنيسة روما ، اعتبروا بغطرسة غير محدودة أن كل واحد لم يتبع معتقداتهم السخيفة هرطقيا ، وعلى العكس ، لقد كانوا هم أنفسهم الذين استحقوا أن يسموا بالهرطقة ، لأنهم كانوا قد أنشأوا أو اتبعوا معتقدات خبيثة جديدة مخالفة لكنيسة الرومان وعقيدة الرسولين بطرس وبولص التي « لن تقوى أبواب الجحيم عليها » .(٣٩٨)

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كانوا قد أبقوا هذه الكراهية في قلوبهم لفترة طويلة من الزمن ، وكانوا يبحثون دائماً عن فرصة ، بعد موت الامبراطور على الأقل ، لآبادة تامة لشعب اللاتين المكروه في المدينة وفي كل مكان من الامبراطورية بأسرها بحيث يتمكنون بهذه الطريقة من إشباع حقدهم المتصلب (٣٩٩)

١١ - عرض لأسباب الثورة والشقاق.

بدا أنه لا توجد أية فرصة لتنفيذ هذه الخسطة الشريرة . بعدما توفي الامبراطور مانويل وكان الكسيوس الحاجب يتولى تسيير أمور المملكة ، فقد حذا الكسيوس نفسه حذو الامبراطور واستفاد من نصيحة اللاتينيين ومساعدتهم وجعلهم أصدقاء له بالقدر الممكن ، غير أن اللاتين والاغريق على حد سواء كرهوه من جانب واحد . فمع أنه كان مخنثا للغاية ومستسلما تماما لآثام الجسد الشهوانية مثل جميع الاغريق كان جشعا أيضا وبخيلا لا يرى الانفاق من الخزينة الامبراطورية وكأنه كان قد جمعها بنفسه وبعرق جبينه ، وأشيع أيضا أنه أقام علاقة إجرامية مع الامبراطورة مع أنها كانت قد اعتنقت الحياة الدينية عندما كان زوجها ممتددا على فراش موته (٤٠٠)

وعلاوة على ذلك ، كان رجلا متعجرا وفي غاية التكبر ، وعد نفسه متفوقا على الجميع ، واستخدم كل شيء حسب رغباته الخاصة وبدون مشاورة السادة الآخرين ، وبدا بأنه لايهتم بشيء بالنسبة للباقيين ، مع أنهم كانوا رجالا عظماء من منزلة مساوية تماما لمنزلته . وهكذا ، اتخذ أمراء القصر إجراء فعالا ضد الكسيوس بعدما أثارتهم نحوه كراهية شديدة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، فاستدعوا أندرونيكوس الأكبر وهو أحد أبناء عم الامبراطور المتوفي ، استدعوه من بنتوس بذريعة تعيينه في منصب الحاكم ، وذلك لمنع من إثارة المتاعب في المدينة حسب عاداته ، وإثارة الثورات بأمل الفوز بالملكة (٤٠١)

إذا كان هذا هو الرجل الذي جرى استدعاؤه سرا من قبل الأقرباء المقربين من الامبراطور والحاجب أيضا ، ووضعوا فيه ثقة خاصة ، لقد دعوه بوساطة رسلهم ليتسلح ضد الرجل الذي كان قد كبل أبنائه ورجالا لامعين آخرين بالسلاسل بشكل مخز لأن الحاجب كان قد سجن بعض الرجال المشهورين الذين قبض عليهم في المؤامرة فآثار بذلك عداوة أكثر ضد نفسه كما تم ذكر ذلك .

وهكذا ، قدم أندرونيكوس الى المدينة بعدما استدعي جالبا معه قوات ضخمة من الجنود البرابرة . وخيم على طول اليوسفور ، وعلى مشهد تام للمدينة ، واستولى على بيثينيا بأكملها ، وفر بعض النبلاء الأقوياء الذين أرسلوا ضده لمقاومة محاولاته ، والتحقوا به ووقفوا الى جانبه بشكل خائن . وكان الشخص الأول والأكثر أهمية بين هؤلاء هو أندرونيكوس أنفلوس قائد الجنود الذين أرسلوا ضده والكسيوس ميغاليدوكاس القائد العام للأسطول ، وكلاهما من أقرباء الامبراطور ، وأضعف فرار هؤلاء الذين خرجوا لحرب أندرونيكوس بهذا الشكل كثيرا قضية شعبنا ، كما أضعفتها حقيقة أن نبلاء آخرين كثيرين وأعداد كبيرة جدا أظهروا ولاءهم لأندرونيكوس بشكل علني . وتلهفوا لرؤيته يدخل المدينة وبذلوا كل مساعدة ممكنة لاسراع موعد عبوره .

١٢ - أندرونيكوس يقتل النبلاء ويستولي على القصر والمدينة. ويقمع الناس بالعنف الصادر عن حكمه.

استمرت المؤامرة في حيازة القوة ، وألقي القبض على الحاجب وسملت عيناه وشوه بشكل مروع ، ونشر تحول الأمور هذا رعبا بين اللاتينيين ، لأنهم خافوا من أن يشن المواطنون هجوما مفاجئا عليهم ، وكانوا بالفعل قد تلقوا تحذيرا بوجود نوايا من هذا القبيل وذلك من بعض الناس الذين كان عندهم معرفة خاصة بالمؤامرة ، ولذلك هرب الذين أمكنهم النجاة من خدع الاغريق والموت الذي كان

يهددهم ، وركب بعضهم متن أربع وأربعين من الشواني صادف أن كانت راسية في الميناء ، ووضع آخرون جميع مقتنياتهم على متن بعض السفن الأخرى الكثيرة التي كانت موجودة هناك .

هذا وترك المسنون والعجزة والذين لم يتمكنوا من الهروب ، في بيوتهم فانصب عليهم الغضب المدمر الذي كان الآخرون قد نجوا منه ، وأما بالنسبة لأندرونيكوس ، الذي أمر بصورة سرية بتجهيز سفنه ، فقد قاد قواته بأكملها إلى داخل المدينة ، وحالما دخل هؤلاء الجنود الأبواب بمساعدة السكان ، اندفعوا نحو ذلك الحى من المدينة الذي كان يشغله اللاتين وقتلوا البقية القليلة الذين كرهوا الفرار مع الآخرين أو لم يتمكنوا منه . ومع أن عددا قليلا من هؤلاء كان قادرا على القتال ، إلا أنهم قاوموا لفترة طويلة من الزمن وجعلوا انتصار العدو انتصارا دمويا .

ألقى الاغريق القبض على جميع الذين بدا أنهم قادرون على المقاومة ، وأشعلوا النار بمنازلهم وحولوا بسرعة الحى بأسره إلى رماد بصرف النظر عن المعاهدات والخدمات الكثيرة التي كان شعبنا قد قدمها للإمبراطورية ، فهلكت الذسوة والأطفال والمسنون والمرضى على حد سواء في ألسنة النيران ، ولم يكتفوا بهذا كله لاشباع كراهيتهم الأثمة ليصبوا جام غضبهم على مباني المدينة فقط ، بل أشعلوا النار أيضا بالكنائس والأماكن المقدسة من كل نوع ، وأحرقوا مع الصروح المقدسة الذين كانوا قد هربوا إلى هنالك طلبا للملجأ . ولم يميزوا أبدا بين الرجال المدنيين والدينيين سوى أنهم أبدوا عنفا شديدا تجاه الذين كانوا يرتدون الأثواب الدينية الجليلة أو التي تدل على شغل صاحبها لمنصب رفيع . وكان الرهبان والكهنة الضحايا الخاصة لجنودهم ، وقتلوا تحت تعذيب شديد .

وكان بين هؤلاء الرهبان والكهنة رجل مبجل اسمه يوحنا وهو شماس مساعد من الكنيسة الرومانية المقدسة كان البابا قد أرسله إلى القسطنطينية بأمر يتعلق بالكنيسة ، فقبضوا عليه وقطعوا رأسه

- ٣٤١٣ -

وشدوه إلى ذنب كلب قذر كإهانة للكنيسة ، ولم ينج في غمرة تدنيس المقدسات هذه . التي كانت أسوأ من الكفر نفسه ، حتى الموتى الذين حتى الكفر نفسه يوفرهم ويستثنىهم عانوا وأزعجوا وسبب لهم الاضطراب . فقد انتشلت الجثث من القبور وسحبت عبر الشوارع والساحات وكأنما الجثث الهامدة قادرة على الشعور بالاهانات المتعرضة إليها (٤٠٢) .

ثم مضى الغزاة نحو المشفى الذي عرف باسم مشفى القديس يوحنا ، وقتلوا هنا جميع المرضى الذين عثروا عليهم ، وقام الرهبان والكهنة ، الذين يفترض أن يكون واجبهم الورع لنجدة المظلومين ، قاموا باستدعاء قطاع الطرق واللصوص لمواصلة المذبحة ، مع وعود بالمكافأة ، وفتشوا بصحبة هؤلاء الكفرة عن الملاجئ الأكثر انعزالا وعن الأجنحة الأكثر تغلغلا في البيوت حتى لا يمكن لأحد مختبئ هناك أن ينجو من الموت ، وعندما عثروا على أشخاص كهؤلاء ، جروهم بعنف وسلموهم إلى الجلادين الذين حصلوا على الثمن الدموي لقتل هذه الضحايا البائسة حيث كانوا لا يعملون دون أجر .

وتولى الذين ظهروا بأنهم يبدون مراعاة أكثر نحو شعور الآخرين بيع الهاربين الذين كانوا قد لجأوا إليهم ، والذين كانوا قد أعطوهم أملا بالسلامة ، باعوهم إلى عبودية سرمدية بين الأتراك والكفرة الآخرين ، ويقال إن أكثر من أربعة آلاف لاتيني من أعمار وأجناس وأوضاع مختلفة سلموا بهذا الشكل لشعوب بربرية مقابل مبلغ من المال .

جازى الشعب الاغريقي الخؤون ، سلاله الأفاعي ، كالحية في الصدر أو كالفأرة في خزانة الملابس ، ضيوفه بشكل شرير وبطريقة كهذه - ضيوفهم الذين لم يستحقوا معاملة كهذه ، وكانوا لايتوقعون أبدا شيئا من هذا القبيل ، أولئك الذين كانوا قد زوجوهم من بناتهم وقربياتهم وأخواتهم ، والذين كانوا بالعيش الطويل مع بعضهم بعضا قد أصبحوا أصدقاءهم .

١٣ - اللاتين ، الذين كانوا قد نجوا في السفن يتولون بطريقة عدوانية تدمير الجزر واماكن اخرى على طول الشاطئ.

يقال إن هذا الاعتداء الرهيب الذي لم يسبق له مثيل في كل العصور لم يمض بدون عقاب تماما ، فقد تجمع اللاتين الذين كانوا هربوا في الشواني ، كما تم ذكر ذلك ، والأعداد الضخمة التي لحقت بهم بعد برهة وجيزة من الزمن في أسطول ذي حجم جيد واحتشدوا في المنطقة المجاورة للقسطنطينية بانتظار نتيجة الأحداث . واستلموا هنا معلومات محددة أفادت أن الذين كانوا قد أثاروا الفتنة الأولى في المدينة قد أحرقوا الحي اللاتيني بأسره ، وأن زوجاتهم وأطفالهم وجميع أفراد أسرهم كانوا قد هلكوا إما بالحرائق أو بالسيف ، وأثار هذا النبأ سخطا عارما واستياء في قلوب الجميع ، والهبهم برغبة متقدة للتأثر لدم أصدقائهم ، وهكذا ، أبحروا على طول شواطئ البوسفور من مصب البحر الأسود ، الذي يقع على بعد ثلاثين ميلا عن القسطنطينية وإلى مدخل البحر المتوسط ، وهي مسافة يبلغ طولها مائتي ميل ، واستولوا بالقوة على جميع المدن والقلاع الواقعة على طول الشاطئين معا وعلى الجزر الصغيرة المبعثرة في كل مكان من ذلك البحر ، وقتلوا هنا انتقاما لدم إخوانهم جميع الرهبان المزيفين والكهنة المندسين وأحرقوا الأديرة مع اللاجئين الذين كانوا قد هربوا إلى هناك ، ويقال إنهم قد نقلوا من هذه الأماكن مقداراً ضخماً من الذهب والفضة مع الجواهر والأنسجة الحريرية بمقادير كبيرة ، وعوضوا بتلك الأشياء عن خسارة ممتلكاتهم وعن تخريب سلعهم أضعافاً مضاعفة ، فبالإضافة إلى الثروة الضخمة للأديرة والكنوز التي لا تحصى التي كانت قد جمعت هناك لفترة طويلة من الزمن ، كان سكان القسطنطينية قد أودعوا في هذه الأماكن المقدسة ، من أجل حماية ، مقادير ضخمة من الذهب والكنوز الأخرى .

ثم غادر اللاتين مضائق ذلك البحر ، وهم محملون بهذه المغنم ،

وابحروا إلى البحر المتوسط بين المدينتين المحصنتين الساحليتين
القديمتين . ستوس وأبيدوس .

وقا موا لدى إبحارهم على طول شواطئ تساليا بالبحث بدقة
فائقة في جميع المدن والبلدان في المناطق القريبة من البحر ، ووضعوا
كل شيء للنهب والحرق . وقتلوا أعدادا لا تحصى من الناس ، ويقال
إنهم عثروا على عشرة شواني بالقرب من غريسوبولس وهي مدينة
في مقدونية ، وعلى أعداد كبرى أخرى في أماكن مختلفة ، وشكلوا
بهذه السفن أسطولا ضخما للغاية ثبت بأنه آلة دمار للأغريق كانت
مرعبة جدا .

هذا وامتنع بعض اللاتين عن متابعة أعمال القتل والسلب هذه (٤٠٢) ،
وركبت هذه المجموعة متن بعض السفن الكثيرة الراسية في الميناء ،
وتركوا الجيش ومعهم زوجاتهم وأطفالهم وكل ما بقي من
ممتلكاتهم ، وأتوا إلينا في سورية .

استولى اندرونيكوس في هذه الاثناء على المدينة ، حسب رغباته ،
وحيث لم يكن هنالك احد ليعارض ، فقد توج الامبراطور بشكل مهيب
في اليوم المقدس لعيد الخمسين مع زوجته المقدرة له ، ابنة ملك
فرنسا وظهر له كل التبجيل ، وعامل بلطف ايضا والد الامبراطور
مع اخته وزوجها اللذين كانا مايزلان داخل فناء القصر ووجه
اندرونيكوس شخصا جميع امور الامبراطورية ، في المدينة وفي
الخارج على حد سواء ورتب كل شيء حسب مشيئته الخاصة .

ولكن يخشى من انه قام بابداء مظهر الاحترام هذا نحو هؤلاء
الاشخاص ليخفي هدفه الغدار حتى يتمكن من احتلال العرش لفترة
من الزمن ويكون قد اخضع بالتدريج كل شيء لسلطته الخاصة ،
حيث يستطيع عندها ان يظهر علانية مقاصده الحقيقية
نحوهم (٤٠٤) .

حدث هذا في شهر نيسان في عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا .

١٤ - صلاح الدين يلغي المعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك ، الملك يخرج الى ما وراء الاردن للتصدي له . الأتراك يهاجمون قرية دبورية وينقلون الناس معهم الى الاسر .

وفي الوقت الذي كانت بلاد الاغريق تشهد فيه هذه التحولات تحطمت سفينة كان على متنها ألف وخمسمائة حاج ، في دمياط في المملكة المصرية بعدما دفعته رياح معاكسة الى الشاطئ بيد أن هؤلاء الحجاج شعروا بثقة في أنه سيتم انقاذهم ، حيث كان معروفًا أن صلاح الدين كان قد عقد هدنة وسلامًا مؤقتًا مع المسيحيين في البر والبحر .

الا أن المصير الذي ألوا إليه كان مختلفًا تمامًا عما اوجبه قانون المعاهدات لان صلاح الدين الذي كانت رغبته في الفوز بالغنائم قد سيطرت عليه ، كان معارضا في السماح لعدد كبير جدا من المسيحيين مثل هذا بالرحيل بحرية من بلاده حسبا كانت شروط الاتفاقية تلزمه ، وهكذا ألقى بهم جميعا في السجن وأمر بمصادرة ممتلكاتهم لاستخدامه الخاص ، ثم ارسل رسولا الى الملك وقدم إليه بتحد مباشر لشروط المعاهدة مطالب استحال عمليا تلبيتها ، واضاف كائنذار اذا لم يستجب لهذه المطالب تمشيا مع رغبته، فليسوف يحتفظ بالسفينة المذكورة انفا كتعويض لنفسه ،وعلاوة على ذلك سيلغي الاتفاقية التي كانت قد عقدت بينهما (٤٠٥) .

لم يتمكن الرسول من الحصول على الاستجابة لمطالب صلاح الدين ، لانه حاول ان يخترع مسوغات سافرة يمكن بذريعتها الاحتفاظ بالسفينة بدلا من تقديم اسباب شكاية عادلة ، ولذلك ألغى صلاح الدين المعاهدة على الفور ، وبدأ يخطط للطريقة التي يمكنه ان ينهك بها المملكة بطريقته المألوفة ، فاسحا المجال لعدائه الذي

- ٣٤١٧ -

ابقاه في ذهنه من زمن طويل ، فجمع قوات تألفت من كل من الفرسان والمشاة ، وزاد من حجم جيشه بأعداد كبيرة من الرجال الذين كانوا في سنوات سابقة قد غادروا دمشق والمناطق المجاورة وكانوا قد ذهبوا الى مصر لتجنب وطأة المجاعة ، وصمم ان يعود بهذه القوات الى دمشق حيث بإمكانه ان يسبب متاعب كثيرة لان ذلك يتم من قاعدة قريبة .

وعقد العزم ايضا وهو زاحف الى دمشق ان يلحق الاذى بالقدر الممكن بمواقع ممتلكاتنا الواقعة فيما وراء الاردن ، وكانت المحاصيل هنا جاهزة للحصاد ، وبإمكانه ان يلحق الكثير من الضرر بالمسيحيين باحراق هذه المحاصيل او بالاستيلاء على قلعة او اكثر من قلاعنا في ذلك الموقع .

ويقال ان الهدف الخاص في التصرف على هذا النحو كانت الرغبة بالانتقام من الامير ارنات حاكم تلك المنطقة ، لان هذا الامير كان كما روي قد اعتقل بعض العرب خلال فترة الهدنة خلافا للاتفاقية ، ورفض اطلاق سراحهم عندما طلب منه .

علم الملك عن طريق كشافته بتقديم صلاح الدين وبخطه ايضا ، فعقد على الفور مجلسا عاما في القدس ، حيث درست شروط الامير التركي (٤٠٦) بدقة ، ثم ، وتنفيذا لنصيحة بعض مستشاريه ، قاد جميع قواته عبر وادي موسى حيث يوجد البحر الميت ، ووصل الى الموضع الذي اقترح ان يقابل صلاح الدين في زحفه ومنعه من تخريب تلك المنطقة .

كان زحف صلاح الدين عبر الصحراء قد تم في ظل صعوبات كثيرة واستغرق حوالي العشرين يوما ، وكان مقيما الان مع قواته في منطقة مأهولة بالسكان من اراضينا وعلى بعد مسافة قدرها عشرة اميال تقريبا من معقل الكرك المسيحي . وكان ينتظر هنا بغية

تسلم معلومات محددة حول وضع الموقع وحول اماكن وجود الملك وجيشه .

كان بلدوين قد وضع معسكره بالقرب من مدينة قديمة تدعى بتراء الصحراء في العربية الثانية ، على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من معسكر صلاح الدين ، وكان معه قوة الجيش باسرها . وبقي كونت طرابلس مع القوات ايضا ، مع ان ذلك كان متعارضا بشدة مع ارادته ، لان الملك قد زحف الى هناك خلافا لما اشار به وترك بالتالي الاجزاء الاخرى من مملكته بدون حماية ومجردة تماما من الجنود . وكان بعض النبلاء قد اثروا على الملك ليتبع هذا المنحى ، بدافع رعاية الامير ارنات والدفاع عن مصالحه وليس في سبيل المصلحة العامة ، وبدون اعطاء اهتمام مناسب لما يمكن حدوثه في المملكة المتروكة بدون مدافعين .

واظهرت الاحداث اللاحقة على الفور كم كان هذا العمل بعيدا عن الحكمة ، لان الحكام في المنطقة المجاورة لدمشق وبصرى وبعليك وحمص جمعوا قواتهم بصمت وسرية بعدما ادركوا ان نخبة المملكة كانت متغيبية وان المنطقة باسرها كانت خالية من الجنود . وعبروا الاردن بالقرب من بحيرة طبرية اي بالقرب من مدينة طبرية ، ودخلوا منطقتنا خلصة ، وبعدما اجتاحوا جزءا من الجليل ، وصلوا الى موقع عند سفح جبل الطور يدعى دبورية بالقرب من مدينة نين القديمة ، ولم يكن سكان تلك المناطق عارفين حتى الان انه تم الغاء المعاهدة ، ولهذا لم يتخذوا اجراءات لحماية انفسهم اعتمادا منهم بشكل تام على المعاهدة ، ونتيجة لذلك انقض العدا عليهم خلصة في الليل وطوق الموقع تماما بحيث لايمكن للمحاصرين النجاة الى الجبال التي ارتفعت فوقهم .

راى السكان عندما بزغ ضوء النهار انهم كانوا مطوقين من جميع الجهات من قبل العدو ، فانسحبوا بسرعة الى برج فوق القرية فطوق الاتراك على الفور هذا البرج وبذلوا جهودا جبارة لتدميره ،

فنجحوا في غضون اربع ساعات وانهار البرج الى الارض ، غير ان اللاجئين الذين كانوا قد هربوا اليه طلبا للحماية استسلموا قبل النكبة الاخيرة ، عندما بدأت الصدوع بالظهور ، وبات انهياره وشيكا .

جمع الكفرة عند ذلك جميع المغنم من دبورية واماكن اخرى مجاورة ، واخذوا معهم ، بدون مقاومة ، نحو خمسمائة نفس كأسرى ، وتركوا في الميدان العديد من القتلى الذين كانوا قد سقطوا اثناء القتال ، وبما ان الموقع كان خصبا جدا وكان موعد الحصاد وشيكا ، فقد كانت اعداد كبيرة من الناس قد قدمت الى هناك من اماكن مجاورة للمساعدة في جني المحصول ، وقام العدو بنقل جميع هؤلاء ، كما قلنا ، بدون مقاومة ، ثم عبر الاتراك الاردن من جديد وعادوا الى موطنهم سالمين معافين .

١٥ - صلاح الدين يستولي بالقوة ايضا على واحد من معاقلنا وهو كهف محصن بشكل جيد في اراضي السود.

حدثت في هذا الوقت والملك والجيش المسيحي مايزالان منشغلين في وادي عربة كارثة شديدة جدا عرضتنا لمخاطر جديدة سوف يأسف عليها شعبنا دائما ، كان المسيحيون يمتلكون موقعا محصنا بشكل قوي جدا في منطقة السود فيما وراء الاردن وعلى بعد ستة عشر ميلا من طبرية ، وكان يعتقد بانه لايرام ، وكان له نفع كبير لشعبنا ، وكانت هذه المنطقة تقع على مسافة اقرب الى ممتلكات العدو اكثر من قربها لملكنا ، وبامكانهم بالنتيجة ان يفرضوا ارادتهم عليها والهيمنة على السكان كما يشاؤون ، ومع ذلك ، وبسبب الحماية التي قدمتها هذه القلعة ، فان عادة اقتسام السلطة بشكل متماثل بين المسيحيين والكفرة قد سادت لسنوات كثيرة ، وكانت ماتزال تطبق في هذا الوقت ، كما قسمت الضرائب والجزية بشكل متماثل بينهما ايضا (٤٠٧) .

كانت القلعة التي اشير اليها منذ لحظات تقع في كهف على منحدر احد الجبال وتحت جرف معلق ضخم ، ولم يكن هناك اي طريق من اي نوع على الجانب العلوي ، بينما لم يكن على الجانب الاخر سوى ممر ضيق للمشاة يتمكن بوساطته المرء ان يجد طريقه بصعوبة اذا كان خاليا من كل المعوقات ، وكانت العناية بهذا الموقع قد اوكلت الى فولك صاحب طبرية ، وكان نبيلاً متيقظاً ومخلصاً ويمتلك ثروات كبيرة .

كان قادة القوات التركية قد استولوا على دبورية وجعلوا شعبنا اسرى هناك ، كما تم ذكر ذلك انفا وظهروا الان فجأة امام هذا الموقع ، وكانوا قد استولوا عليه بهجوم عاصف خلال بضعة ايام .

هنالك اختلاف بالرأي حول الاستيلاء على هذه القلعة ، ويقول بعضهم ان الحامية التي كانت في القلعة قد سلمتها لقاء مبلغ من المال ، ويؤكد اخرون ان جنود العدو كانوا قد شقوا طريقهم الى داخل الكهف من طرفه بنسفه ، وهو عمل امكن انجازه بسهولة حيث كانت الصخرة ذات طبيعة جصية ، وتسلكوا الى الطابق الاول واستولوا عليه ثم اجبروا بعد هذا الاستيلاء على استسلام الموجودين في الطوابق الوسطى والعلوية (لان المكان كان يتألف - كما قيل - من ثلاثة طوابق) .

هذا وتم التأكيد في وقت لاحق ان العدو امتلك الكهف بوساطة خيانة الضباط المسؤولين ، فعلى الرغم من ان البقية رغبت في متابعة المقاومة ، غير ان اولئك المسؤولين ، حظروا اجراء اي دفاع ، وتخلوا انفسهم عن القلعة بعد الاستسلام والالتحاق بالعدو . ويقال ان القادة المسؤولين كانوا من السريان ، وهو شعب نعتبره ضعيفاً ومخنثاً (٤٠٨) . ولذلك وجه اللوم الاكبر الى فولك صاحب طبرية الذي كان مسؤولاً عن تعيين رجال من هذه المنزلة مسؤولين عن موقع هام جداً كهذا ، كانت هذه من الاقاويل التي انتشرت في كل مكان عبر المملكة حتى وصلت في اخر الامر الى مسامع

المسيحيين الموجودين وراء الاردن والذين كانوا يحاولون منع صلاح الدين من العبور الى سورية في طريقه من مصر الى دمشق .

غمر هذا النبا قلوب الجميع بالرعب . وكان هذا صحيحا بشكل خاص بالنسبة لكونت طرابلس ، الذي اعتمدت عليه مسؤولية هذه القلعة ورعايتها .

وهكذا حدث ان الذين كانوا قد غادروا المملكة باهمال وكانوا يتصرفون بطيش ايضا في هذا الموقع ، لم يتمكنوا من انجاز اي شيء مقبول للرب او مفيد للمملكة ، وكان ينبغي عليهم ان يقابلوا صلاح الدين عند حدود مملكتنا ويحولوا دون دخوله الى المنطقة ، الا انهم سمحوا له بطيش كاف بان يتقدم وصولا الى الموقع المسمى القريتين حيث وجد وفرة كبيرة من الماء الذي طلبه جيشه الضامى بشكل شديد للغاية ، وارسل من القريتين قسما من قواته الى المنطقة المجاورة لقلعتنا المعروفة باسم الكرك حيث قطعوا الكروم والحقوا خسائر اخرى بالناس القاطنين هناك ، ولو كان المسيحيون قد اسرعوا الى ذلك الموقع لاجبر العدو حتما على التقهقر الى مصر ، لانه كان يقود حشدا ضخما من الناس غير المقاتلين ، والذين كانوا قد اكتشفوا ان الماء في قريتهم والخبز الموجود في صناديقهم اخذ بالنفاد وكان ينبغي ان يهلك جميع هذا الحشد من المجاعة في الصحراء ، حيث كان التقدم مستحيلا ، والاشتباك مع قواتنا سيرافقه خطر عظيم (٤٠٩)

عندما علم المسيحيون ان السلطان كان قد وصل إلى الموقع المذكور منذ لحظات قرروا ثانية أن يهاجموه في هذه المرة عند الماء المعروف باسم راس الرشيد - (عقبة شتار ؟) ولو تم تنفيذ هذه الخطة لأجبر صلاح الدين على محاولة الزحف خلال الصحراء البعيدة ، وهو عمل كان يتعذر انجازه دون حدوث خسارة ضخمة من الرجال وجيوانات التحميل .

- ٣٤٢٢ -

إلا أنه وصل إلى المياه دون صعوبة لأنهم أهملوا تنفيذ هذا ، ثم دخل بلاده دون معارضة ووصل بسلامة تامة إلى دمشق .

عاد المسيحيون أيضا لدى معرفتهم بمغادرته ، إلى بلاده وعلى الطريق ذاته الذي كانوا قد أتوا عبره . وكان يتوجب اتخاذ الحيطة خشية أن يستنبط صلاح الدين من دمشق ، إلى حيث كان قد رحل مع جميع أتباعه ، بعض الدواهي التي يمكن أن تلحق المخاطر بالملكة ، ولهذا صدر الأمر إلى جميع سكان المنطقة بالاجتماع عند نبع الصفورية الواقع بين الصفورية والناصرية ، وحضر معهم الملك والبطريرك وجميع الأمراء المدنيين والكهنة مع صليب الصليبوت وانتظروا من يوم لآخر اقتراب العدو .

١٦ - صلاح الدين يغزو اراضيها بقوة مسلحة .
نشوب معركة قرب قلعة عفر بلا بدون نتيجة حاسمة.

كان صلاح الدين قد جمع خلال هذا الوقت قوات من سائر أنحاء ممتلكاته ليغزو الجيش الذي كان قد جلبه معه من مصر ، وتقدم الآن ، وهو مصمم على غزو بلادنا ، إلى الموقع الذي يدعى بلغتهم باسم رأس الماء . ويقال إنه يقع على مسافة قصيرة فقط من ديارنا وعلى مسافة قريبة من مدينة طبرية ، وبخل صلاح الدين منطلقنا فجأة بعد بقاء لبضعة أيام في رأس الماء ، وعسكر بين نهرين في موقف يعرف باسم الفوار وهو يقع على بعد نحو أربعة أميال عن طبرية .

ونقل الكشافة على الفور هذه الحقيقة إلى قاداتنا ، فتقرر شن هجوم فوري ، وأرسلت القوات بسرعة إلى طبرية لتتحد مع الفرقة التي كانت قد أرسلت إلى هنالك لتقوم بحماية المدينة والأماكن المحصنة في المنطقة المجاورة ، أي : صفد وكوكب .

- ٣٤٢٣ -

حدث أن كان كونت طرابلس - وهو رجل متمكن وشجاع وله خبرة واسعة في الحرب - في هذا الوقت مستلقيا وهو مريض بشكل خطير لتعرضه لنوبة حمى إقليمية مضاعفة (كذا) وقد أضاف هذا الكثير لمتاعب المسيحيين ، لأنه حرمهم في وقت خطير من مساعدة هذا الحاكم العظيم الذي اعتمدوا اعتمادا كبيرا على مشورته وحكمته . ومع ذلك ، فقد استدعوا قوات إضافية من المواقع المجاورة وانطلقوا نحو العدو برايات مرفوعة . لكن ما أن علم صلاح الدين بأنهم كانوا يتقدمون ، حتى عبر الأردن بجيوشه وانسحب إلى الأماكن المحيطة بسقيثوبولس .

تقع سقيثوبولس التي كانت فيما مضى حاضرة فلسطين الثالثة والمعروفة أيضا باسم بيسان ، في سهل وسط حقول مروية بشكل جيد بين جبال الجلعاد ونهر الأردن . إلا أن الامتيازات التي نعمت بها من قبل قد تم نقلها الآن إلى الكنييسة في الناصرة في الأبرشية ذاتها ، لأنه لا يوجد سوى عدد قليل جدا من السكان في بيسان وأصبحت مجرد بلدة صغيرة .

زحفت كتائب العدو إلى هناك ، وشنّت على الفور هجوما عنيفا على حصن صغير واقع في منطقة مستنقعية ، إلا أن سكان المدينة أبدوا مقاومة عنيفة واكتشف الأتراك أنه لم تكن لديهم أية إمكانية للنجاح ، ولذلك ، وحتى يزحفوا ضد المسيحيين ، وجهوا صفوفهم نحو قلعة جديدة ، تسمى الآن باسم كوكب وهي واقعة في الهضاب الواقعة بين بيسان وطبرية .

سلك المسيحيون طريق الأردن حتى وصلوا إلى الموقع المذكور منذ لحظات عندما تركوا الوادي وصعدوا إلى الجبال ، فأنهكوا كثيرا بسبب الحرارة الشديدة التي أصبحت لا تحتمل تقريبا أثناء تقدمهم . وأمضوا الليل بحالة يقظة مستمرة ، لأنهم توجسوا أن يكون العدو في المنطقة المجاورة ، وعندما أتى الصباح عادوا إلى السهل الذي يقع بين القلعة المذكورة منذ لحظات وقرية تدعى عفر بلا

وهنا شاهدوا قوات صلاح الدين منتشرة في كل الأماكن المجاورة بأعداد تفوق كثيرا ما كانوا قد جربوه من قبل ، وبالفعل ، فقد أعلن الأمراء الأكبر سنا في المملكة بأنهم لم يشاهدوا في أية مرة منذ أن دخل اللاتين سورية لأول مرة عددا ضخما من الأعداء كهذا ، لقد كان عدد الفرسان المجهزين للحرب نحو عشرين ألف فارس ، بينما قدر عدد فرساننا بنحو سبعمائة فارس ليس أكثر ، وكان لدى صلاح الدين ونبلائه تصميم وهدف مشترك واحد ، وهو تطويق جيشنا بالكامل حتى لا يتمكن احد من النجاة ، لأنهم احتقروا قوتنا الصغيرة ، معتمدين على أعدادهم الضخمة ، التي نكرتها للتو وكانوا واثقين ان المسيحيين لن يتمكنوا من مقاومتهم .

إلا أن الأمر بدا للرب مختلفا جدا ، لأنه هو الذي يقهر بسهولة حشدا ضخما بعدد قليل من الناس ، فمع أن أعدادنا بدت بأنها لا شيء بالمقارنة مع جيش العدو ، إلا أن المسيحيين نظموا صفوفهم حسب أسس العلم العسكري ، تؤيدهم في ذلك رحمة الرب ، وتقدموا نحو العدو بشجاعتهم المألوفة ، وقاوموا بثبات الهجمات الموجهة ضدهم وعلى الرغم من أن العديد من المسيحيين - الذين نمتنع عن ذكر أسمائهم - هربوا بشكل مخز من وطيس المعركة جالبين على أنفسهم خزيا سرمديا ، فقد أثبتنا تفوقنا في تلك المعركة على أعدائنا ، وأبدى كل من بلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين شجاعة عظيمة في ذلك اليوم ، وحاربا بقوة وإقدام ، كما أن هيو الأصغر ، ربيب كونت طرابلس ، الذي كان مع الفرقة القادمة من طرابلس ، يستحق أن تحفظ ذكره في البركة ، فمع أنه كان أصغر من الآخرين فإنه ناضل ببسالة تفوق سنه كثيرا ، وهزم مع الجند الذين كانوا تحت قيادته ثلاث مجموعات من الأتراك وجعلها تلوذ بالفرار ، ثم عاد بفضل الرب سليما إلى أصدقائه .

لم يقتل في تلك المعركة سوى عدد قليل من فرساننا ، وهم على وشك الدخول في جماعة القديسين في عليين ، لكن هلكتا أعداد كبيرة من الناس ، وكانت خسائر العدو تفوق خسائرنا كثيرا ، وسقط بعض

قادتهم الرئيسين ، وهي مصيبة دفعت الكفرة إلى الفرار من ميدان المعركة مذعورين .

ويجب عدم التغاضي والسكوت عن ذكر حقيقة أن الحرارة خلال تلك الأيام كانت أعلى بكثير من المعتاد إلى درجة أن العديد من الجيشين هلكوا نتيجة اصابتهم بضربة شمس وكانوا بقدر من هلك قتلوا بالسيوف .

لم نستطع أن نعلم أي شيء ثابت بخصوص عدد القتلى في صفوف العدو ، لأنهم نقلوا جثث الذين كانوا قد قتلوا في المعركة ليخفوا خسائهم عنا ، ودفنهم خلسة في الليلة القادمة في معسكرهم ، خشية أن يقوم الدليل على مقتلهم بالهbab شعبنا بشجاعة اضافية ، إلا أننا تأكدنا أنه نتيجة للسببين المذكورين أعلاه هلك حوالي ألف منهم .

انسحب صلاح الدين وهو محبط لأن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو ، ولأن المسيحيين كانوا قد أثبتوا بأنهم أقوى مما توقع ، وعبر الأردن من جديد وعاد إلى موطنه مخيما مرة ثانية في الموقع الذي كان قد انطلق منه .

وأستدعى المسيحيون قواتهم أيضا وعادوا إلى نبع الصفورية الذي كان نقطة البدء لهم ، وأنهكت الحرارة الشديدة في هذا الزحف بلدوين ، وهو أحد شماسة قبر المسيح وخازن لتلك الكنيسة حيث كان يحمل صليب الصلبوت فوضع في محفة ونقل إلى سفح جبل الطور إلى مقربة من وادي كوسين حيث لفظ أنفاسه الأخيرة . وهلك أيضا راهب آخر هو غودفري أوف فلنيوف وهو شماس من الكنيسة ذاتها كان قد أرسل في تلك الحملة كمساعد لبلدوين هذا ، وبما أن اهتماماته الدنيوية حملته بعيدا فقد أصيب بسهم أدى إلى هلاكه ، ومن العدل بالفعل حسب قول الرب أن « كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (٤١٠)

١٧ - صلاح الدين يستدعي أسطولاً من مصر ويحاصر مدينة بيروت.

عاد الملك مع قواته إلى الموقع المذكور آنفاً ، وجمع صلاح الدين الآن قواته للمرة الثانية ، وهو غاضب غاية الغضب من أن حملته أثبتت بأنها عقيمة جداً ، وراجع في ذهنه من جديد أساليبه وخطته كافة ، وتداول بقلق من مستشاريه حول أفضل الطرق لتجديد الإجراءات العدوانية ضد المسيحيين ، ووصل إلى محصلة خلاصتها : إن أكثر الطرق نجاعة في إلحاق الضرر بنا هي مهاجمة شعبنا في عدة مواقع مختلفة في وقت واحد معاً ، وبناء عليه أرسل تعليمات دقيقة إلى أخيه ، الذي كان قد تركه مسؤولاً عن أموره في مصر ، بجمع أسطول من الاسكندرية ومن مصر وإرساله إلى سورية بالسرعة الممكنة ، وأوضح أنه عقد العزم ، فور وصول هذا الأسطول على محاصرة بيروت براً وبحراً ، ولكي يمنع الملك وشعبه من الاسراع لنجدها فقد أمر أخاه أن يجمع قوات الفرسان التي كانت قد تركت مصر ، وتوجب عليه أن يدخل مع هؤلاء الجنود بلادنا من الجنوب فيدمر سائر المنطقة الواقعة حول غزة وعسقلان والداروم ، التي تعتبر المدن الأخيرة التي تخص المملكة على هذا الجانب المحاذي لأرض مصر .

وكانت غاية صلاح الدين من إعطاء هذه الأوامر ، هو أنه عندما يكون قسم واحد من القوات المسيحية منشغلاً في مقاومة الغزاة من مصر يكون قد تم بوساطته تقليص قوة الجيش وأعداده ، وبذلك يمكن هو نفسه من أن يكون حراً في مهاجمة المدينة المحاصرة بضراوة أكبر .

ونفذت خطته حسب الأوامر التي كان قد أعطاها ، ووصل في غضون بضعة أيام أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة منقارية الشكل حسبما كان قد أمر وقاد أخوه إلى المنطقة المجاورة للداروم القوات التي كان قد جمعها من سائر أنحاء مصر ، وحتى يكون كل شيء

جاهزا عندما يصل الأسطول ، قاد صلاح الدين بنفسه قوة إلى الموقع المعروف عموما باسم وادي البقاع . ووضع الكشافة على الهضاب التي تشرف على البحر بين المنطقة المذكورة منذ لحظات وسهل بيروت ليخطروه عند رؤيتهم للأسطول ، وجمع خلال هذه الفترة قوات اضافية من المشاة من المنطقة المجاورة ولم تحظ بعناية كبيرة جميع الاستعدادات التي أعتقد بأنها ستكون ضرورية لعملية الحصار الناجحة .

ووصل الأسطول في الأول من شهر آب بالضبط وكان قبالة الساحل بالقرب من بيروت ، وقدم الكشافة المعدون خصيصا لهذا الغرض ، اشعارا فوريا بهذا الوصول ، وعبر صلاح الدين على الفور الجبال الفاصلة بين موقعه وبيروت وقاد قواته ونزل إلى السهل ، وحاصر هنا مدينة بيروت بشكل تام حسب الخطة التي رتبها قبل زمن طويل .

بدأت الآن شائعات متضاربة بخصوص نوايا صلاح الدين تصل إلى قواتنا التي كانت معسكرة في الصفورية ، فقد قال بعضها إنه اعتزم أن يحاصر مدينة بيروت والأمر ثبت في النهاية أنه كان صحيحا ، واعتقد آخرون أن فكرته الكلية كانت الفوز بحلب ، بينما أكدت فئة ثالثة أيضا أن غرضه هو الاشتباك مع حاكم الموصل ، الذي كان حاكما تركيا قويا وعظيما ، والذي أشيع أنه كان يحاصر بعض مدن صلاح الدين في أحواز الفرات .

وبينما كانت هذه الشائعات المتقطعة تنتشر في المعسكر ، انتهت الشكوك بأسرها بوصول رسول أعلن أن مدينة بيروت كانت بالتأكيد القاطع في حالة حصار ، وقدم في الوقت نفسه رسول آخر من الجنوب بمعلومات وثيقة كان مفادها أن أخا صلاح الدين قد اجتاح بقوة ضخمة منطقتنا في المنطقة المجاورة للداروم ، وأن ستة وثلاثين من الفرسان المسلحين تسليحا خفيفا ممن يسمون باسم التوركبلي قد قتلوا ، وأحرقت بعض القرى النائية .

- ٣٤٢٨ -

قرر الملك بعد تلقي هذا النبأ وبعد التداول مع نبلائه أن يهاجم الموقع الأشد خطرا في أول الأمر ، بتحرير المدينة المحاصرة في الخطر الذي واجهته ، لأنه لم ير قواته بأنها قوية بما فيه الكفاية لطرد العدوين من أرضه في الوقت نفسه .

١٨ - الملك يصل الى صور في طريقه لنجدة بيروت. صلاح الدين يرفع الحصار

وبناء عليه استدعى الملك قواته ، وتقدم على رأس الجيش بأكمله نحو مدينة صور حيث أمر بتجهيز الأسطول الذي كان راسيا في موانئ عكا وصور . وتشكل في غضون سبعة أيام ، بشكل أسرع مما هو متوقع ، أسطول مؤلف من ثلاث وثلاثين سفينة ، مسلحة بشكل جيد ومزودة برجال شجعان ، وكان متاهبا للعمل .

بينما كان المسيحيون يجرون هذه الاستعدادات بعناية وحماسة ، كما تم سرد ذلك ، كان صلاح الدين يحاصر مدينة بيروت وكان جيشاه يجهدان أنفسهما إلى الحد الأقصى ليلحقا بالسكان جميع المتاعب الممكنة ، واستخدمت الفيلق المنتشرة حول المدينة ، بنوب متتابعة وواصلت لمدة ثلاثة أيام ضغطا مستمرا بحيث لم تعط أية فترة راحة للمحاصرين من أجل النوم أو تناول الغذاء الضروري لم يكن صلاح الدين قد جلب معه آلات القذف الحربية ولا أي نوع آخر من الآلات الحربية المستخدمة عادة في محاصرة القلاع ، ولربما اعتقد أنه سيتمكن من الاستيلاء على المدينة بهجوم مفاجيء دون مساعدة أدوات كهذه ، أو ربما انتقص من قيمة اضاعة جهد كهذا دون توقع لاية نتائج مجبية لأنه كان يتوقع وصول الجيش المسيحي من لحظة لأخرى ، الا انه انجز بجهوده الحماسية والحذرة كل ما كان ممكنا دون مساعدة الآلات الحربية ، لأنه كان قد وضع جيشه الضخم في صفوف متتالية حول المدينة ، كما كان تم شرح ذلك ، وانجبت هذه الفرق بعضها بعضا بالتناوب واطاقت وابلا غزيرا من

- ٣٤٢٩ -

السهم على المدافعين الذين كانوا يقاتلون على الاسوار وفي الأبراج لدرجة أن المدينة والتحصينات تغطت بالسهم مثلما يغطيها البرد .

لكن لم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي حاولت بها قوات صلاح الدين منع السكان من الدفاع عن المدينة ، فقد استقدمت بالقوة أيضا لغامين جلبوا للغرض الخاص لنسف السور ، وكان يؤمل بهذه الوسيلة فتح ثغرات بتدمير الحواجز الأمامية والاسوار بحيث يمكن ادخال مجموعات من الجنود المسلحين فيها على الرغم من جهود المحاصرين ، واستمر باقي الجند بصب وابل من القذائف بشكل غير منقطع من أقواسهم والعرادات التي كانت معهم حتى يتمكن اللغامون من الانكباب على عملهم بدون عائق ، ونفذ هذا بمواظبة بالغة إلى درجة أن السكان الموجودين داخل الاسوار كانوا في خطر موت وشيك ونادرا ما تجرأوا على رفع إصبع من أصابعهم .

استجاب المدافعون بنبل لأوامر الحاكم وتحريضاته مع أنهم كانوا قليلين جدا في عددهم ، واستجابوا للأسقف بشكل خاص ، وكانت البسالة والثبات العظيمان اللذان أظهرهما الأسقف في هذا الظرف الطارئ جديرين بالثناء الرقيق ، وقابل المسيحيون جميع أساليب العدو بإجراءات مضادة وجربوا جميع سبل المقاومة الممكنة ، وقذفت الرماح والسهم على رماة السهم المتمركزين خارج الاسوار بخبرة وحماسة مماثلتين لخبرة وحماسة المهاجمين ، مما أدى إلى إلحاق خسائر كبيرة بالأتراك وقتل مرة تلو الأخرى الذين كانوا الأكثر شجاعة في التقدم إلى الهجوم .

وقوبل اللغامون ، الذين كانوا يناضلون لنسف الاسوار ، بمهارة مماثلة لمهارتهم لدرجة ان الكثير من الذين كانوا مدشغلين بحماسة في ذلك العمل قتلوا او فقدوا آلات حفرهم

لم تكن القوات التي وصلت برا هي وحدها التي أحدثت دمارا كبيرا بين المحاصرين بل أظهر الذين كانوا قد أتوا بالبحر ضراوة مماثلة

وشجاعة في الهجوم ، وكان صلاح الدين نفسه قد احتل موقعا على هضبة قريبة ولم يتوقف بحضوره وأقواله المشجعة عن بث الحماسة في جنوده لخوض القتال ، وكان في هذا ناجحا للغاية حتى أن واحدا من كبار قادته ويدعى عز الدين (فرخشاه) اقترح اسناد السلالم إلى الاسوار وشق الطريق بالقوة ، لأنه شعر أنه من المخزي أن يكون لدى قوة صغيرة كهذه الشجاعة أو القوة لتقاوم جيشا كهذا ، وكان يصبر بالحاح على هذه الخطة وكان يطالب الباقين بالقول والأمثلة أن يوافقوا عليها ، عندما أصيب بسهم فجأة بالقرب من عينه ، فأجبره هذا الحادث ، كما أجبر الآخرين عن التخلي عن المشروع .

وحوصرت المدينة لمدة ثلاثة أيام متتالية بالطريقة التي ذكرت منذ لحظات . إلا أن القوات البحرية انسحبت بأمر صلاح الدين إلى الشواني حيث اتضح في آخر الأمر أنه لا توجد أية فرصة للنجاح ، وغادرت عند حلول الظلام في اليوم الثالث بصمت وبدون سابق إنذار .

واستدعى صلاح الدين قواته البرية أيضا وانسحب إلى مسافة قصيرة عن المدينة ، ثم قسم الفرسان إلى مجموعات وأمرهم أن يطهروا السهول الواقعة حول المدينة وأن يدمروا تدميرا تاما جميع الأبرجة الواقعة في المناطق النائية ، ودمرت بأوامره أيضا جميع البساتين والكروم الكثيرة الواقعة في المنطقة المجاورة للمدينة بالفؤوس والبلطات .

وأمر صلاح الدين بعض الرجال باحتلال بعض الطرق الصعبة والضيقة الواقعة بين بيروت وصيدا ، والتي لا بد أن يجتازها جيشنا في طريقه لنجدة المدينة ، حتى يمكن لعمل الحصار أن يستمر بحرية وضمان زائدين ، كما شيد ستائر دفاعية من الحجارة بدون ملاط بحذاء شاطئ البحر ، ورجا بمساعدة هاتين الوسيلتين أن

- ٣٤٣١ -

يعيق فيالقنا من التقدم . وأن يتمكن في هذه الأثناء من مواصلة الهجوم على بيروت بدون عاقبة .

ولقد ذكر أنه كان مصمما بعزم على ألا يتخلى عن الحصار حتى يتمكن من الاستيلاء على المدينة بالقوة ، غير أنه غير رأيه الآن واستعد للعودة إلى الوطن . وذكر أن سبب تغيير الرأي هذا كان على النحو التالي : حدث أن أوقف الذين كانوا يحرسون الممر رسولا كان حاملا رسائل تشجيع مبعوثة من بعض المؤمنين إلى سكان بيروت ، وأحضر هذا الرسول إلى عند صلاح الدين وأخضع لتحقيق شديد للغاية ، وعلم صلاح الدين من الاعتراف الذي انتزع من الرسول بالقوة ومن محتويات الرسالة أيضا أن جيشينا كانا مستعدين تماما وسيصلان بكل تأكيد في غضون ثلاثة أيام ، ولذلك غير خطته ورفع الحصار كما حكينا ذلك .

وصل أسطولنا بسلام إلى غايته ، غير أنه عاد دون إضاعة كبيرة للوقت إلى الموانئ التي كان قد أبحر منها بعدما وجد المدينة متحررة ، وبقي الملك - لدى معرفته بأن العدو قد تخلى عن الحصار ورحل - لبضعة أيام في مدينة صور مع جيشه بأسره ، ثم جمع قواته من جديد و عاد إلى العصفورية .

١٩ - صلاح الدين يعبر الفرات ويدخل بلاد الجزيرة .

رغب صلاح الدين - الذي كان نشيطا وحذرا دائما - بكل فؤاده أن يزيد مجد اسمه ويوسع حدود مملكته ، وصمم أن يتقدم إلى الشرق حيث كان تواقا لتحقيق انتصارات أكبر أيضا ، وقد تقدم وهو محتقر لقوة المسيحيين وكأنها لا شيء ، وليس واضحا بشكل تام حتى الآن فيما إذا كان قد تقدم إلى هناك بمبادرته الخاصة ، وذلك بوحي من عظمة نفسه الأمر الذي اتسمت طبيعته به ، ومن المحتمل

أن هذه المهمة الصعبة التي بدت أنها تفوق قوته ، قد نفذت تلبية لأمر تلك المنطقة ، ومهما يكن من أمر ، لقد جمع من جديد قوة كبيرة من الفرسان ، وأمر - بقدر ما سمح له الزمان والمكان - بتجهيز جميع المعدات والأمتعة اللازمة للقيام بزحف طويل جدا ، وقاد قواته نحو الفرات .

وكان الرأي السائد بين المسيحيين أنه سيزحف نحو مدينة حلب في محاولة للاستيلاء عليها ، لأن مدينة حلب وحدها من سائر ميرات نور الدين مع بعض المعاقل المتاخمة لها لم تكن قد وقعت حتى الآن تحت سيطرته . فقد احتفظ بها ، بعد وفاة ابن نور الدين ، أخى قطب الدين ، حاكم الموصل ، بتأييد من قطب الدين والذي كانت قد الت إليه بحق وراثي عند وفاة الشاب المذكور آنفا. (٤١١) لقد كان هذا المعتقد عموما وقد بدا هذا محتملا في أن صلاح الدين كان يزحف الى هناك بغية الاستيلاء على المدينة ، لكنه كان قد فكر بأفكار ارفع بكثير ، كما أثبتت النتيجة ذلك . وقد عبر الفرات مخلفا مدينة حلب وراءه ، واستولى في غضون أيام قليلة وبهجوم عاصف على حران والرها ، هاتان المدينتان الرائعتان في بلاد الجزيرة ، وذلك مع عدد كبير من المدن الأخرى ومع قراها التابعة لها ، واستولى في الواقع بالقوة المسلحة أو بالرشوة ، تقريبا على كامل المنطقة التي كانت من قبل تحت سلطة أمير الموصل المذكور منذ لحظات ، وأغوى بسخائه الوافر أعيان المنطقة الذين كانوا يدينون بالولاء والاخلاص لحاكمهم ، وبعدها استلم قلاعهم نجح أيضا في كسب ولائهم لنفسه ، ولقد قيل أن أمير الموصل الرجل العظيم ، وجد نفسه وقد حرم تماما من دعم نبلائه غير قادر على مقابلة صلاح الدين أو مقاومته ولقد راج بين الناس أقاويل أشاعت أن صلاح الدين قد أفسد عبيد وأصدقاء هذا الأمير ، وكان قد أمر بإعطائه جرعة من السم كادت أن تقتله ، ولهذا السبب كان يعتقد من هذه الروايات أن صلاح الدين كان قد وصل الى الموصل مع قواته بدون أن يعيقه شيء ، وانتشرت بيننا قصص ذات مغزى متفاوت بخصوص هذا ، حيث كان مفاد بعضها أن زحفه كان ناجحا وأن كل شيء كان

يتغير حسب رغباته ، بينما أشارت قصص أخرى الى ما يخالف هذا وحكت أن كبار رجالات تلك المنطقة قد توحوا معا للتصدي لمحاولاته الوقحة ، وأن جيشه على هذا قد واجه معاملة قاسية (٤١٢)

٢. - الملك يعيث فسادا في أراضي الدمشقيين بطريقة عدوانية .

على هذا بنت بلاد العدو بأنها مجردة من المدافعين عنها ، ولذلك اعتقد الملك ونبلأء المملكة ، بدون سبب واضح ، أن الفرصة المرغوبة منذ زمن طويل للاحاق الضرر بالعدو قد حلت ، وازداد غضبهم ضد صلاح الدين كثيرا بحكم حقيقة أنه كان بعجرفته وتعاليه قد احتقر القوة العسكرية للمملكة ، ورحل ليفوز بممالك أجنبية نون الدخول في هدنة أو معاهدة مع الملك ، ولذلك جمعوا بعد التداول فيما بينهم ، قواتهم ودخلوا ، بصحبة البطريك و صليب الصليبوت المائح للحياة ، بلاد الكفرة ليعيثوا فسادا في المنطقة بقدر ما سمحت لهم قوتهم .

ومروا خلال بلاد حوران التي تشكل جزءا كبيرا من أراضي بصرى ودخلوا سورية الصغرى التي عاصمتها دمشق ، ثم وجهوا سيرهم نحو الجزء الشرقي في هذه المنطقة وشقوا طريقهم الى مدينة برعا المشهورة والآهلة بالسكان ، والقريبة من دمشق . واجتاحوا المنطقة من هناك ودمروا جزءا كبيرا من المواقع النائية والمعروفة عموما باسم القصور حيث حرقوا هذه المواقع أو خربوها بكل وسيلة ممكنة ، وكان سكان هذا الاقليم قد علموا باكرا باقترابنا فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم وجشارهم الى مواقع كانت فيها تحصينات أفضل . وهكذا ، لم يجلب المسيحيون معهم سوى القليل أو لاشيء من المغانم أو الثروات ، هذا وقد حرقوا ودمروا بطريقة أو بأخرى المحاصيل ومستلزمات الحياة الأخرى التي لم يتمكن العدو من أخذها معه أثناء هروبه .

وتوجب عليهم ، بعدما أتلّفوا كل مارأوه ، أن يَمروا لدى عودتهم بالقرب من مدينة مهيبة في تلك المناطق تدعى بصرى ، وتداول شعبنا هنا حول امكانية الاستيلاء على أحوازها بيد أنه تبين لهم أن هذا لا يمكن انجازه بسرعة بل سيتطلب إقامة أطول مما سمحت به ندرة الماء لذلك قرروا العودة خشية ان يكابدوا مع مواشيهم من العطش ، وهذه المنطقة قاحلة وجافة بشكل عام ، وخالية تماما من الينابيع والجداول والأنهار ، واعتاد الناس خلال اشهر الشتاء على تجميع ماء المطر في خزانات ، ويحافظون عليه بعناية لاستخدامات ضرورية خلال العام بأسره ، مع أنه يصبح أسنا بسبب حرارة الشمس والقذارة التي تتجمع على سطحه ، وكان الناس قد حطموا هذه الصهاريج بحيث تسرب الماء منها ، أو أفسدوها بالقاء القاذورات فيها ليمنعوا الجيش من البقاء هناك عندما مر لاسيما أنهم كانوا قد أخطروا بمقدمنا ، ولم يسمح ذلك الوقت من السنة للمسيحيين باحداث ضرر كثير حسبا كانوا يرغبون ، فقد كانت الحبوب والمحاصيل الأخرى ، التي كانوا بالعادة يرغبون باحراقها قد جمعت في مخازن الحبوب ، التي كانت حسب عادات تلك المنطقة تتألف من مغائر مبنية تحت الأرض ، ولقد كان من الصعب العثور على هذه المغائر حيث كانت مغطاة بالتراب ومخباءة بشكل بارع ، وكل ماكان باقيا من الحبوب في البيادر ، كان قد جرد من قشوره ، ولذلك لم يحترق بسهولة ، لأن الحب لا يشتعل وحده ، وتعذر الى حد كبير الحاق اي ضرر بالبيادر باستثناء بعثره الحبوب ونقل بعضها معهم كعلف لخيولهم ، هذا وأقبل العديد من الجنود الباحثين عن سبل لالحاق الضرر بمنزج التبن والقش الموجود هنا وهناك مع الحبوب المنظفة من قبل حتى يمكن احراقها بسهولة .

ولم تكن قوة الجند الصغيرة ، التي كانت تركت في ذلك الاقليم لدى مغادرة صلاح الدين ، قادرة بما فيه الكفاية للمجازفة بالصدام مع المسيحيين ، أو التصدي لهم بالاشتباك في قتال قريب معهم الا أنهم تعقبوا عن بعد على شكل زمر مؤخرة العدو الراحل وحاولوا

الحاق بعض الضرر به ، لكنهم لم يتمكنوا حتى بهذه الطريقة من تقديم أي عائق للمسيحيين أو الحاق الأذى بالجيش جملة وتفصيلا .

٢١ - المسيحيون يحاصرون القلعة التي استولى عليها صلاح الدين مؤخرا . فيستولون عليها بالحصار ويعيدونها الى العقيدة المسيحية.

وتوقف شعبنا لدى عودته في الاقليم نفسه الذي يدعى السواد بعد اجتيازهم للمنطقة بأسرها وإخفاق الضرر بها ماوسعهم ذلك ، والسواد هذا هو الاقليم التي تقع فيه تلك القلعة التي كان العدو قد أخذها من المسيحيين بالحيلة قبل وقت قصير من هذا الوقت ، عندما كان جيشنا في وادي عربة كما تم ذكر ذلك من قبل . ويشتهر السواد بمنتجاته من الخمر والحبوب والزيتون ، كما يشتهر أيضا بمناخه الصحي وبموقعه البهيج عموما ، ويقال أن بلداد Bildad صديق أيوب Job ، الذي كنية سوادي Shuhite كان من هذه البلاد ، وكان ينتمي الى هامنا .

أرتأى المسيحيون لدى وصولهم الى هنا أنه سيكون مرغوبا به محاصرة الحصن ، ولذلك قرروا الاستيلاء عليه ، حتى ترتد الشرور ، التي كان الكفرة قد الحقوها بهم في الاستيلاء على الموقع أو الاحتفاظ به بشكل غادر ، ترتد اليهم اذا سمحت السماء بذلك .

ولهذا الغرض اقيم معسكر أمام القلعة المذكورة منذ لحظات ، وبذلت جهود فعالة لاجبار الموجودين داخلها على الاستسلام ، كانت القلعة محصنة بشكل جيد للغاية ، وكان موقعها رائعا حيث لم تكن مهاجمتها ممكنة الا من الجزء العلوي ، ولم يكن ممكنا مهاجمتها حتى من هنالك اذا لم تقطع الصخور حتى موقع

- ٣٤٣٦ -

القلعة نفسها ، ولذلك ، تقرر وضع الحجارين للعمل في الجزء العلوي ، وتوجب تزويد جميع المساعدين والحراس المطلوبين بحيث يتمكنون من العمل بسلامة وبدون التعرض لمخاطر القتال .

كان الكهف واقعا على جانب جبل عال جدا ، وكان الطريق اليه مصحوبا بأعظم المصاعب وأشدها عبر طريق شاق حتى بالنسبة لجندي مشاة واحد اذا كان خاليا من جميع المعينات ، ولم يتجاوز عرض الممر الآخذ من الجانب أكثر من قدم واحد ، وانفجر في الأسفل جرف عميق ومروع امتد الى أسفل الوادي .

وكان لهذا الكهف ثلاثة طوابق ، واحد فوق الآخر . وكان هنالك سلم خشبي بفتحات ضيقة يؤدي من طابق الى آخر .

وبما أن هذه الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن مهاجمته بواسطتها ، فقد حاول المسيحيون اختراق الكهف من الأعلى ، كما كنا قد ذكرنا على أمل أنهم سيتمكنون من التغلغل بهذه الطريقة الى المستوى الأول والعلوي من القلعة ، وكان هذا كل هدفهم وغايتهم ، وبذلت جميع الجهود لتحقيق ذلك الهدف ، وتمركز جميع العمال المطلوبين في مواقعهم ، وتولى المساعدون الذين تم تأمينهم رمي قطع الصخور والأحجار والنفايات غير اللازمة الى أسفل الوادي الموجود تحتهم وذلك بالسرعة نفسها التي تم فيها نزع الصخور والحجارة ، ولكي يستمر العمل بدون انقطاع ، رتبت المناوبات خلال الليل والنهار وعلى هذا عندما كان يتعب الموجودون في الطاقم الأول ، كان يأخذ أماكنهم عمال مفعمون بالنشاط ولديهم المهارة والمقدرة اللازمة لمواصلة العمل ، وتقدم العمل بسرعة بسبب عدد العمال وحماسهم وأيضا بسبب أن الصخرة نفسها قطعت بسهولة ، لأنها كانت ذات طبيعة جصية وتم اختراقها بسهولة حيث برزت عروق من الصوان القاسي جدا ، والتي غالبا ما افسدت الأدوات الحديدية وقدمت عائقا للعمال المتلهفين ، ودحرجت

- ٣٤٣٧ -

الشظايا نحو الوادي في الأسفل لتنظيف الموقع ، كما تم شرح ذلك . وحصلت جميع هذه الأمور على مرأى تام ومشهد من المحتجزين ضمن الكهف فزادت من خوفهم كثيرا ، لأنهم انتظروا باستمرار الوقت الذي سينتهي فيه العمل ويشق به الطريق بالقوة .

قسم جيشنا الى مجموعتين : أقام أحد الأقسام كما قلنا معسكره على قمة الهضبة التي كان يشغلها الكهف ، حيث كان بإمكان عناصره أن يتولوا من هذا الموقع بكل سهولة حماية المنشغلين في العمل من كيد العدو وشروبه . وبقي القسم الآخر في السهل الواقع في الأسفل ، حيث وضع هنالك للقيام بمهمة خاصة هي منع أي خروج أو دخول من جانب المحاصرين ، واقترب عدد من القوة الأخيرة أحيانا من الجزء السفلي للكهف على طول الطريق الضيق الموصوف أعلاه وحاولوا مهاجمة الموجودين في الداخل ، لكن هذه الجهود كانت عقيمة ، لأنه كان في داخل الكهف ، والمزود بالمواد الغذائية والأسلحة بشكل جيد ، قوة مؤلفة من نحو سبعين جنديا شجاعا وقويا ، وكان صلاح الدين قد اختار هؤلاء الجنود المتمرسين عندما كان على وشك الرحيل ، وكان قد أوكل الحصن الى رعايتهم ويقظتهم وكانت لديه اسبابه المسوغة للاعتماد على اخلاصهم ووفائهم .

كان العمل قد وصل الآن الى مرحلة لم تعد الضربات المتواصلة للمطرقة تسمح بأية استراحة للحامية الموجودة في الكهف ، وبدأت الكتلة بأكملها بأنها تهتز وترتعش عندما تضاعفت الضربات الى درجة أن الخوف من امكانية أحداث مدخل اجباري فسخ المجال للخوف من أن الكهف قد ينهار فجأة ويسحق جميع الموجودين بداخله بعدما حطمت الضربات المتكررة ، وكان من العبث الأمل بوصول أية مساعدة لأن صلاح الدين ، كما كانوا يعرفون ، كان قد رحل مع جميع جنده الى مناطق نائية جدا ، حيث لا يستطيع ان يعود بسهولة ، وأرسلوا في آخر الأمر سفارة الى الملك بعدما كان

- ٣٤٣٨ -

الحصار قد استمر لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر من ذلك بقليل ، وحصلوا من خلال وساطة كُونت طرابلس على إذن بالرحيل بحرية الى بصرى ، واشترط عليهم تسليم القلعة والتخلي عن الأسلحة التي كانوا قد نقلوها وعن جميع معداتهم ، وبناء عليه تخلوا بالحوال عن الموقع ورحلوا ، وهكذا تخلصنا بنعم الرب الوافرة من الوضع الخطير الذي بدا حتى الآن بأنه يعرضنا للخطر .

وبعد ماتمت عملية الاستسلام ارتأى الملك وبقية النبلاء بحكمة وتبدير تزويد القلعة بالأسلحة والمؤن . ثم عهد بعد ذلك بالمسؤولية عنها الى رجال مخلصين لم يكن هنالك شك في ولائهم ومقدرتهم ، وعانت القوات الى موطنها بعد ما تمت العناية بكل شيء بدقة متناهية . حدث هذا في اليوم من شهر تشرين الأول من العام ١١٨٢ لتجسيد الرب (٤١٣)

٢٢- الملك يغزو من جديد أراضي الدمشقيين ومعه قواته .

مالبث قانتنا أن أركوا بعد زمن قصير في شهر كانون الأول التالي ، أن صلاح الدين ، الذي كان مشغولا بأمر أكثر أهمية في البلاد القريبة من الموصل ، لم يعد حتى الآن ، فاجتمعوا من جديد وهم كارهون لفقدان الفرصة التي قدمها غيابيه ، وقرروا بالاجماع ، بعد التشاور فيما بينهم حول مايفيد الملكة ، أن يلتقوا في قيسارية على الساحل ، وتقرر بالاجماع جمع قوات الملكة وتزويدها بكل ما هو ضروري لاستخدام الجنود والحيوانات خلال حملة أخرى تستغرق خمسة عشر يوما في بلاد العدو ، حتى لاتضيع الفرصة القائمة وتهمل ، وشنت في البداية غارة سرية ، لم يشارك فيها سوى الفرسان ، على منطقة معادية بالقرب من بصرى ، تمشيا مع ترتيب مسبق ، وعاد الفرسان من هذه الغارة سالمين وجلبوا معهم الكثير من المغنم على شكل قطعان وجشار

وعدد كبير من العبيد ايضا ، وبما أن هذه الغارة قد انطلقت من أراضي طبرية وعانت الى الموقع نفسه ، فقد كانت تحت قيادة كونت طرابلس .

وأخيرا ، اجتمع الملك ونبلاء المملكة مع قوة من المشاة والفرسان بقدر ما استطاعت المملكة أن تقدمه في ذلك الوقت ، وبصحبة صليب الصليبوت تجمهروا بالقرب من طبرية في اليوم الخامس عشر في موقع قائم على شاطئ بحيرة طبرية يدعى الحسينية وعبروا النهر من هناك عند مخاضة يعقوب ودخلوا بلاد العدو . وتقدم الجيش ، الى اليمين من لبنان ، خلال السهل وصولا الى موقع يدعى بيت جن ، فدمروا هذا الموقع تدميرا تاما مع جميع الدساكر المتاخمة له وخبروا تماما كل شيء عشر عليه هناك . بحرق بعضه وتدمير المتبقي ، ثم وصلوا بعد مسافة الى داريا ، وهو موقع يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من دمشق ، فخبروا هذه ايضا بالطريقة ذاتها مع القرى المجاورة لها .

كان الناس في هذه الأحواز قد هربوا ، بعضهم الى الجبال اللبنانية وبعضهم الآخر الى دمشق ، ونتيجة لذلك نادرا ما أخذوا أسيرا من سائر تلك المنطقة ، هذا وقد فقدنا بعض جنودنا بسبب سلوكهم الطائش أثناء الغزو ، وكان بعض الفرسان الأتراك ، الواثقين بسرعة خيولهم ، قد انطلقوا من دمشق وكانوا يحومون حول صفوفنا ، يسرون حيناً الى الأمام الى مسافة قريبة من صفوفنا ، ثم يعودون ليتعقبونا من جديد ، وبما أنهم كانوا يتربصون بشكل دائم فرصة للاحاق الأذى بنا فقد انقضوا فجأة على الغزاة المهملين المذكورين منذ لحظات وقتلوهم في هجوم ضار من غير استثناء ، كما انطلق الدمشقيون من مدينتهم ايضا وحشدوا أنفسهم حول البساتين التي تحيط بالمنطقة بأعداد ضخمة ، وواصلوا من هذه المسافة مراقبة جنودنا مراقبة دقيقة الا أنهم لم يجرأوا على الزحف الى مسافة اقرب ، ولم يجرؤ

- ٣٤٤٠ -

المسيحيون على مهاجمتهم ولم يحاولوا هم القيام بأي شيء
ضدنا ، وعندما رحل شعبنا انسحبوا بدورهم الى داخل المدينة .

عاد الجيش المسيحي الى الوطن دون مواجهة صعوبة أو عائق
بعدما غزا ذلك الجزء من المنطقة ، وسبب له أضراراً بالغة حسبما
وصفنا ذلك ، وبادر الملك نفسه بالتوجه الى مدينة صور وهناك
احتفل معنا بعيد ميلاد الرب (٤١٤)

٢٣ - القيام باحصاء للملكة كاجراء وقائي ضد نوازل مستقبلية.

كان هناك في هذه الآونة شائعات غير محدودة قد انتشرت بشأن
نشاطات صلاح الدين فقد أشارت بعض الروايات الى أنه كان
يواجه نجاحات كبيرة في الجزيرة في أحواز الموصل حيث أخضع
المنطقة بأسرها ووضعها تحت سيطرته ، وخلافاً لذلك ، أفادت
روايات أخرى أن جميع أمراء الشرق قد اتحدوا ضده في محاولة
منهم لطرده من المنطقة بقوة السلاح ، وبذلك تم استرداد المنطقة
التي كان قد كسبها منهم بالخداع والرشوات ، وسبب تقدمه
ونجاحاته الكثير من الارتباك للمسيحيين ، ونظروا بذهعر كبير الى
الازدياد في سلطانه ، خشية ان يعود اليهم بتعزيزات ضخمة .

وبناء عليه عقد في القدس في شهر (٤١٥) شباط اللاحق اجتماع عام
لجميع نبلاء المملكة للتداول حول الوضع ، وكان هنالك خوف كبير
من عودته ، كما تم ذكر ذلك ، وتقرر لذلك السبب استخدام كل
وسيلة ممكنة لمقاومته .

تقرر بالاجماع وبعد مداولات مطولة وتعبير عن آراء مختلفة أن
يجري احصاء لجميع مناطق المملكة فاذا توفر بيان كهذا ، فسيكون
ممكناً في ظرف طارئ الحصول على قوات من المشاة والفرسان

حيث وجدنا العدو ، في حال عودته ، مستعدين للمقاومة ، وكان الملك والنبلاء قد صاروا الى حالة بائسة من العوز لدرجة أن العائدات لم تكن كافية أبدا للنهوض بأعباء الانفاق الضروري ، ولذلك توجب جمع المال من الناس جميعا ويمكن لدراسة هذا القرار الذي اتخذ حول هذه المسألة ان يقدم فهما دقيقا للأسلوب الذي تم فيه فرض الضرائب ، فهو قد كان على النحو التالي : « هذه هي طريقة جمع الضرائب التي يجب فرضها للمصلحة العامة لهذه المملكة ، بموافقة واجماع عام من قبل جميع النبلاء المدنيين والكهنة ، وبموافقة سكان مملكة القدس لمواجهة الضرورات الحالية الملحة ».

لقد تقرر لمصلحة الدولة أن يختار من كل مدينة من هذه المملكة أربعة رجال عقلاء جديرين بالثقة حيث يؤدون قسما مهيبا بأنهم سوف يعملون بإخلاص وصدق في هذه القضية القائمة ببذل دينار واحد عن كل مئة دينار يملكونها أو بدفع مايعادلها من الأشياء التي بحوزتهم أو عن الديون المستحقة الدفع لهم ، ثم يجبرون الآخرين بعمل الشيء نفسه ، وسوف يقدمون أيضا دينارين عن كل مائة دينار من العائدات التي يحصلون عليها ، ويجب عليهم أن يعملوا كذلك على اجبار الآخرين ، بحيث يقوم كل مواطن ، سواء أكان من المدينة أو من مواقع أخرى يحكمها ، بالدفع في سبيل جمع هذا المال حسبما سوف يحكمون بإخلاص أن ممتلكاته تستحق ، وسوف يقدرّون هذا بشكل منفصل على كل واحد حسب مقدرة على الدفع .

هذا ويمكن لأي انسان ، لدى ابلاغه بالقدر الذي يتوجب عليه دفعه أن يعلن أنه حمل أكثر من طاقته وفرضت عليه ضرائب بشكل يفوق موارده المالية ، وذلك حسب ضميره وأن يبين قيمة اثائه كما يبدو عادلا بالنسبة له ، وسوف يمضي أمنا حسب الشروط المذكورة بعدما يكون قد أعلن مقسما أنه لا يستطيع أن يعطي المزيد .

- ٣٤٤٢ -

وسوف يلتزم الرجال الأربعة بقسمهم بالحفاظ على سرية ماقدمه لهم كل مواطن سواء أكان ذلك قليلا أم كثيرا ، وسوف يتقيدون بألا يكشفوا النقاب عن ثراء أو فقر أي انسان ، ويجب عليهم أن يتقيدوا بهذه القوانين بخصوص الذين يبلغ دخلهم مائة دينار مهما كانت اللغة أو الشعب أو العقيدة التي ينتمي اليها أولئك الناس وبدون نظر للجنس سواء أكان ذكرا أو أنثى ، لأن الجميع سوف يخضعون لهذا الحكم بدون تمييز .

وإذا ما عرف الرجال الأربعة ، المنتخبون لهذه المهمة والمعنيون بهذا الواجب ، بشكل مؤكد أن ملكية انسان مالا تساوي مائة دينار عليهم أن يأخذوا منه « مال الموقد » ، أي دينار واحد عن كل موقد نار ، وإذا لم يستطيعوا الحصول على دينار ، كامل سوف يأخذون نصف دينار وإذا لم يستطيعوا الحصول على النصف سوف يأخذون نسبة حسبما سيبدو ذلك - بإخلاص - عدلا بالنسبة اليهم ، ولسوف يخضع جميع الذين لا تساوي ممتلكاتهم مائة دينار ، مهما كانت لغتهم وشعبهم وعقيدتهم أو جنسهم لهذا الشرط .

وتقرر أيضا أن على كل كنيسة ودير وعلى جميع النبلاء بقدر مايتوفر وجوده منهم هناك بالاضافة الى التابعين وجميع الآخرين في المملكة أيضا الذين لهم عائدات ، اعطاء دينارين عن كل مائة دينار سيحصلون عليها من الايجارات ولسوف يدفع أصحاب الأجور والرواتب دينارا واحدا عن كل مائة .

ان جميع الذين يملكون القصور ملزمين بموجب قسم يظفونه في أن يدفعوا بإخلاص عن كل « موقد نار » يملكونه في القرى أو القصور دينارا واحدا بالاضافة الى ما هو مفروض اعلاه ، بحيث اذا كان في القصر مائة موقد ينبغي اجبار القرويين على دفع مائة دينار ، وسيكون بعدئذ من واجب سيد القصر توزيع عدد من الدنانير المذكورة اعلاه بين قرويي ذلك الموقع بأجزاء متساوية وبذلك يمكن

- ٣٤٤٣ -

لكل منهم دفع الضريبة الأنفة الذكر ، بنسبة تتواءم وموارده . وهكذا ، لن يتمكن الغني من الافلات بلا مبالاة ولن يتحمل الفقير فوق طاقته ، وستكون النسبة ذاتها سواء أكان في القصر مواقد كثيرة أو قليلة .

ان المال المجموع بهذا الشكل من كل مدينة شروعا من حيفا وحتى القدس سيتولى نقله الى القدس المعينون على كل مدينة وقلعة ، كما قلنا من قبل ، وسيدفعونه بعدد محدد ووزن ثابت الى المسؤولين عن هذا العمل في القدس ، ولسوف يقوم هؤلاء المسؤولون ، بحضور البطريرك أو نائبه مع رئيس شماسية دير رهبان قبر الرب المقدس وشحنة قلعة القدس أكياس مختومة منفصلة ، ثم وضعه في صندوق في خزانة الصليب المقدس ، وسيكون لهذا الصندوق ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث يحتفظ البطريرك بالمفتاح الأول ، بينما يحتفظ رئيس شماسية قبر المسيح بالمفتاح الثاني بينما سيحتفظ أمر المدينة والمواطنون الأربعة المذكورون أنفا بالمفتاح الثالث .

ولسوف ينقل المسؤولون عن المدن الممتدة من حيفا وحتى بيروت المال المجموع بطريقة مماثلة الى مدينة عكا ، ومن ثم يسلمونه هناك وفق عدد محدد ووزن ثابت ، تماما كما جلب من كل مدينة وقلعة ، الى الرجال الأربعة الذين وجد نظرائهم في كل مدينة مسؤولين عن جمع المال ، وسيتم وضعه في أكياس منفصلة مغلقة ومختومة . ومن ثم توضع هذه الأكياس في صندوق سيكون له ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث سيحصل رئيس أساقفة صور على المفتاح الأول ويحتفظ جوسلين قهرمان الملك بالمفتاح الثاني وسيحتفظ المواطنون المذكورون أنفا والمسؤولون عن المسألة بالمفتاح الثالث ، وسيستلم الذين لديهم المفاتيح ، المال المذكور أنفا بحضور السادة المذكورين أعلاه .

ينبغي الا ينفق المال المجموع بهذا الشكل على الأمور العادية

- ٣٤٤٤ -

للمملكة ، بل فقط على الدفاع عن المنطقة ، وبقدر ماينوم هذا المال ، فان الضريبة المعروفة عموما باسم ضريبة الأراضي سيوقف أخذها من الكنائس والمواطنين .

سوف تفرض هذ الضريبة مرة واحدة فقط ، ولن تعتبر سابقة يؤخذ بها في المستقبل(٤١٦)

٢٤ - صلاح الدين يحاصر مدينة حلب ويفوز بها
وفق اتفاق محدد . وأمير أنطاكية يرتب مبادلة
طرسوس مع روبين دوق أرمينية.

كان صلاح الدين ، صاحب النشاط الذي لايعرف الكل ، والذي قام دائما بدور قائد قوي في كل شيء ، قد استولى على أراضي سورية في الجزيرة ، واستولى بالقوة على مدن ذات شهرة عظيمة . وكان بين ما قام به هو أنه حاصر واستولى على مدينة آمد الحاضرة المشهورة التي بدت عمليا لا ترام بسبب عدد سكانها الكبير والأسوار الضخمة التي كانت تحيط بها وطبيعة موقعها . وأعطاه بعد ما تم الاستيلاء عليها ، وحسب الاتفاق ، الى نبيل تركي يدعى نور الدين ، وهو ابن قرا أرسلان ، الذي كانت مساعدته المخلصة قد مكنته من تمديد إقامته في تلك الأجزاء ومن إكمال إخضاع تلك المنطقة.

استدعى صلاح الدين قواته ثانية في الربيع اللاحق ، ووضع المنطقة بأسرها تحت حماية بعض أتباعه المخلصين ، وعاد الى سورية المجوفة عابرا نهر الفرات ، ووضع جيشه هنا حول مدينة حلب واستخدم كل وسيلة ممكنة لانهاك المدينة.

كان حاكم حلب مدركا تماما أن أخاه ، حاكم الموصل ، الذي كان حاكما أقوى منه بكثير ، لم يتمكن من إبعاد صلاح الدين هذا

نفسه عن ممتلكاته ، على الرغم من جميع الجهود التي بذلها والتي انعكست ضده ، وهكذا تمكن هذا السلطان العظيم من إخضاع جميع الأقاليم الواقعة فيما وراء نهر الفرات ، وخشية منه في أن يواجه مصيرا مماثلا قد يقضي عليه ، أرسل خلاصة مبعوثين الى السلطان بدون معرفة سكان مدينة حلب ، للبحث في شروط السلام. فإذا ما أعاد صلاح الدين اليه سنجار وبعض القلاع الأخرى التي لا أتذكر أسماءها ، فإنه سيسلمه مدينة حلب مقابل ذلك.

تلقى صلاح الدين السفارة بفرح كبير ، وكانت رغبته الأكثر جدية من لحظة بداية حكمه هي الحصول على مدينة حلب بوسيلة من الوسائل ، حيث كان يعتبرها بمثابة حصن الملكة بأسرها وعمادها ، ولذلك وافق بكرم على قبول الشروط ، وسلمه المدينة الآنفة الذكر مع قلاعها المجاورة ، واستلم مدينة حلب في اليوم السابع من شهر حزيران (١١٧٠)

استولى رعب مضاعف على شعبنا لدى سماعه لهذا النبأ ، لأن النتيجة التي كانوا يخافونها خوفا شديدا قد حدثت ، لقد كان واضحا للمسيحيين منذ البداية أنه إذا نجح صلاح الدين في إضافة مدينة حلب الى امارته ، فلسوف تكون أراضينا محاطة بسلطته وقوته وستغدو كأنها في حالة حصار ، لذلك حاولوا تعزيز تحصينات مدنها وبلدانهم بكل وسيلة ممكنة ، وخاصة تلك المدن التي كانت تقع بالقرب من حدود العدو ، ووسعوا في المقام الأول دفاعات مدينة بيروت التي بدت ضعيفة بشكل خاص.

كان أمير أنطاكية مذعورا بلا حدود إزاء مجاورة عدو قوي جدا ، وبعدها أدرك أن عدوا مروعا للغاية كان مقابلا له الآن توجه نحو الملك الذي كان آنذاك مقيما في مدينة عكا ، ولم يأخذ معه سوى مرافقة صغيرة حتى لا يترك المنطقة مجردة من المدافعين عنها ، وأخذ معه كونت طرابلس كرفيق له ، وطلب هناك ، بحضور أمراء المملكة ، المساعدة ضد صلاح الدين ، وتقرر الاصفاء لشكواه

- ٣٤٤٦ -

وتلبية مطلبه ، وتم منحه ثلاثمائة فارس من فرسان المملكة من مختلف المراتب وذلك استجابة لما طلبه ، فتبعوه الى أنطاكية وهم جاهزون لخوض القتال بقيادته ، غير أنهم عادوا بعد زمن قصير بعدما استأننوا الأمير بالرحيل ، فقد كان عقد هدنة مؤقتة مع صلاح الدين وبدأ يشعر بعض الشيء بالثقة والهدوء ، وكان قد تنازل عن مدينة طرسوس ، عاصمة كليكية ، التي كان قد تسلمها من الاغريق الى روبين ، و هو حاكم أرمني قوي كان يملك المدن الأخرى في تلك المنطقة ، و كان ذلك لقاء مبلغ ضخم من المال و أقدم عليه ليقفل من قلقه و ليتمكن الاشراف بحذر أكثر على منطقة أنطاكية ، وقد أظهر حكمة كبيرة في عمله هذا حيث كانت طرسوس بعيدة جدا عن أنطاكية وتفصلها عنها أراضى روبين ، ولذلك كان من الصعب عليه الاشراف عليها والاعتناء بها. وهي مسألة كانت سهلة تماما بالنسبة لروبين .

وبعد ما رتب صلاح الدين جميع الأمور في ذلك الموقع بشكل يرضيه غادره مع فيالقه متوجها الى دمشق فسيبت هذه الحركة خوفا كبيرا بالنسبة لشعبنا ، وخاصة لأنه كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشافة بخصوص هدفه الحقيقي ، فقد اعتقد بعضهم أنه سيجاول محاصرة - بعد استدعائه للقوات البحرية - مدينة بيروت كما كان قد فعل ذلك في العام السابق ، واعتقد بعضهم أنه عزم على مهاجمة تيرون وهونين وهما حصنان واقعان في الجبال المطلة على مدينة صور ، واعتقد آخرون أيضا أنه كان ينوي اجتياح المناطق الواقعة فيما وراء الأردن أي وادي عربة وتدمير المواقع المحصنة الواقعة في تلك الأحواز ، وكان هنالك أيضا بعض من حاول أن يؤكد أن صلاح الدين أراد اغتنام فرصة وجود الهدنة ، فخطط للنزول الى مصر لاعادة تأهيل جيشه الضعيف ولجمع الأموال اللازمة للحملة المستقبلية وذلك بعدما أرهقته الحملات الطويلة الأمد في مناطق بعيدة جدا .

أبقت هذه التخمينات المتنوعة ، والتي كانت جميعها

- ٣٤٤٧ -

غامضة ، الملك والنبلاء في حالة قلق وترقب دائمين ، وأخيرا حشدت جميع القوات المتوفرة في المملكة عند نبع الصفورية ، حيث اعتادت الجيوش من الأزمان الأولى على التجمع فيه ، وانتظرت هناك نتيجة الأحداث ، وجرى إرسال الرسائل الى أمير أنطاكية والى كونت طرابلس اللذين ضمما قوتهما ومشورتها الى الباقيين إنما بعد توسل و الحاح ، و انتظروا بهذه الطريقة متوقعين من يوم لآخر أن صلاح الدين سوف يغزو فجأة منطقة من مناطق المملكة بقوات قوية فوق العادة .

٢٥ - الملك يصاب بمرض خطير في الناصرة . تعين غي دي لوزنغن ، كونت يافا ، وصيا على المملكة.

بينما كان الجيش منتظرا بحالة الترقب هذه عند نبع الصفورية كان الملك يعاني من هجمة حمى حادة في الناصرة ، أضف الى هذا أن مرض الجذام الذي بدأ بإزعاجه في بداية فترة حكمه - لا بل في الحقيقة في أوائل شبابه - تفاقم فضعف بصره وشلت أطرافه تماما الى درجة امتنعت يداه وقدماه عن أداء واجبها ، ومع ذلك ، فقد رفض حتى هذا الوقت الاصغاء الى الاقتراح الذي قدمه بعضهم في أن يتنازل عن منصبه الملكي ويتخلى عن ادارة المملكة بحيث يتمكن من العيش حياة هادئة في التقاعد مع مورد مناسب لاحتياجاته من العائدات الملكية.

وكان الملك قويا في الناحية العقلية مع أنه كان ضعيفا وعاجزا من الناحية الجسدية ، وكافح بشكل يفوق قوته لاختفاء مرضه ولاعالة هموم المملكة ، إلا أنه فقد الأمل بالحياة عندما هاجمته الحمى ، فاستدعى نبلاءه اليه وعين ، بحضور والدته والبطريك ، غي دي لوزنغن كونت يافا وعسقلان وزوج أخته ، الذي تكرر ذكره في الصفحات السابقة ، وصيا على المملكة. إلا أنه احتفظ بالمنصب الملكي وأبقى لاستخدامه الخاص

مدينة القدس ، مع عائدات سنوية كانت قيمتها عشرة آلاف قطعة ذهبية.

وتخلى الملك عن ادارة بقية أجزاء المملكة جميعا وعهد بها الى غي بيون قيود وأمر رعاياه المخلصين وجميع النبلاء عامة أن يعدوا أنفسهم تابعين لغى وأن يؤدوا يمين الولاء له ، وتم تنفيذ هذا ، هذا ويروي أن غي أقسم ، بناء على أمر بلدوين أنه لن يطمح باعلاء العرش طالما مازال على قيد الحياة ، وأنه لن يتنازل للآخرين أو ينقل من الخزينة أيا من المدن والقلاع التي كانت بحوزة الملك في ذلك الوقت ، ومن المعتقد أن هذا فرض على غي صدورا عن حذر وبصيرة في غاية الدقة وأنه اضطر لالزام نفسه بقسم بحضور جميع النبلاء حتى يتقيد باخلاص بذلك الشرط ، لأنه كان قد وعد تقريرا جميع الحكام الأكثر أهمية في المملكة بتقديم أجزاء كبيرة من المملكة لكل منهم ليضمن أصواتهم ونفوذهم في الحصول على هدفه ، وأشيع أيضا أنه كان قد أدى قسما مشابها لهؤلاء الحطام بأنه سوف ينفذ وعده ، ولا يمكن الاعلان بتأكيد هذا ، لأنه ليس لدينا معلومات قاطعة حول القضية ، لكن شائعات متوالية بهذا المعنى كانت منتشرة بين الناس.

وكان هنالك استياء إزاء هذا التغيير ، وكان بعضهم ميالا لمعارضته بسبب مصالحه الشخصية ولأسباب خاصة ، فقد صرحوا علانية أن الكونت لم يكن كفؤا لتحميل مسؤوليات المملكة الجسم وغير قادر على ادارة أمور المملكة ، هذا ، وأكد آخرون - كانوا يرجون أن ترقية غي قد تحسن أوضاعهم - (٤١٨) أن تعيينه كان عملا قد أنجز ببراعة ، وانتشر بين الناس تضرع كبير واختلاف في الرأي ، لأنه كما يقول المثل « كلما ازداد الناس ازدادت الآراء » (٤١٩) هذا ولم يتمتع الكونت طويلا بهذا المنصب الذي تطلع اليه بتلهف ، والذي أسند اليه الآن بناء على رغباته ، والذي تمجده في البداية مع أنه لا يستحق ذلك.

لقد قلنا إنه تولى هذه المسؤولية ووضعها على كاهله بحماقة لهذا السبب : لم يدرس قوته بشكل كاف بخصوص المهمة الموكولة اليه ، فقد تولى القيام بعبء ثقيل جدا ، وهو غير كفء لحمله في القوة أو الحكمة ، ولم يكن قد تعلم حقيقة المثل الذي قاله المبشر الانجيلي الذي ينصح « من منكم يريد أن يبني برجاً عليه أن يجلس أولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله » لئلا يبتدىء ولا يستطيع اكماله لئلا يقال : « هذا الانسان ابتداً يبني ولم يقدر يكمل » (٤٢٠)

٢٦ - صلاح الدين يغزو اراضينا بقوات ضخمة ويخيم في جوار بيسان. المسيحيون يزحفون ضده.

كانت هذه هي حالة الامور السائدة آنذاك في المملكة ، وكان الجزء الاكبر من الجيش مخيماً في هذه الاثناء في الصفورية ، وكان صلاح الدين في هذه الاثناء قد استدعى بعد دراسته متمعنة ، قواته من المناطق الواقعة فيما وراء الفرات ، واجتاز حدود المملكة مع جميع قوات الفرسان التي استطاع أن يجمعها من كل مصدر ، يتبعه جيشه الضخم المدجج بالسلح ، وظهر فجأة ، بعد اجتيازه منطقة حوران الواقعة على طول بحيرة طبرية ، مع فيالقة في فرق عديدة في موقع يدعى الاقحوانه في سهل الأردن وتقدم من هنالك تابعا مجرى النهر الى سيقويولس ، وكما ذكر مرارا من قبل أن هذا الموقع ، المعروف حالياً باسم بيسان ، كان فيما مضى عاصمة لجميع بلاد الجليل ، ولا تزال تشهد دلائل كثيرة على عظمتها السابقة في آثار الابنية القديمة وفي كمية الرخام الموجودة بينها ، وقد تحولت الآن الى خراب تقريبا ، ولا يوجد فيها سوى عدد ضئيل فقط من السكان المتفرقين ، وليس هناك سوى قرية صغيرة واقعة في مكان مستنقي.

ومع أن الناس القاطنين هناك كانوا مجهزين بشكل جيد بالأسلحة والطعام بالنسبة لأعدادهم وحجم الموقع ، إلا أنهم لم يشعروا بأية ثقة في دفاعات قلعتهم ، ولذلك تخلوا عن القلعة قبل وصول الجيش المعادي وذهبوا الى طبرية تاركين جميع ممتلكاتهم خلفهم ، وهكذا عندما وصل العدو الى بيسان وجدها فارغة ، فتمكن من بسط سيطرته عليها ، وبناء عليه نقل أفراد العدو معهم جميع الأسلحة والمواد الغذائية وكل ما كان مفيدا في الموقع ، وانطلقوا بكتائب منفصلة في بيسان وخيمت إحدى هذه الكتائب بجانب نبع يدعى عين جالوت ينبع عند سفح جبل جلبوع ، في المنطقة المجاورة لمدينة كانت مشهورة فيما مضى وكانت معروفة سابقا باسم يزرئيل Jezrael لكنها تعرف الآن عموما باسم جبرين الصغرى ، وذلك لتحصل الكتيبة على زاد الماء المناسب.

كان المسيحيون ما يزالون مخيمين بالقرب من نبع صفورية ، الذي تكرر ذكره في هذا الكتاب ، وكانوا منتظرين بقلق ليعرفوا الجهة التي سوف تغزو منها القوات المعادية منطلقنا ، وأمسكوا بالأسلحة بالاجماع عندما وجدوا أن الأتراك كانوا قد استولوا على سهل بيسان وأن فيالقهم كانت قد اجتاحت الآن تلك المنطقة بفرق كثيرة ، وعبر المسيحيون الجبال التي تقع فيها الناصرة ، مدينة ربنا ، ونزلوا ، تابعين صليب الصلبوت المانح للحياة والألوية الملكية ، الى السهل الكبير ، والذي كان اسمه القديم مرج ابن عامر ، ووجهوا سيرهم من هناك ، بقوات بتشكيل المعركة ، ومرتبة بشكل يتناسب وقواعد العلم العسكري ، نحو ينابيع عين جالوت حيث كان صلاح الدين قد أقام بالقرب من الينابيع مع فرقة قوية مختارة من الفرسان المشهورين ببسالتهن.

كانت مقاصد المسيحيين طرد العدو والحصول على منافع الماء لاستخدامهم الخاص ، إلا أنهم شعروا ، لدى وصولهم الى هناك ، أنه سوف يكون من المستحيل الاستيلاء على الموقع بدون

- ٣٤٥١ -

تجشم مصاعب جمة وخوض معارك خطيرة مع العدو ، ووصل صلاح الدين الى المعسكر فجأة وتخلّى عن الينايبع بشكل مفاجئ للغاية ، ثم خيم من جديد في منطقة سفلى قبالة بيسان وعلى بعد نحو ميل واحد عنا وذلك بعدما اتبع مجرى النهر ، وقبل أن يتمكن المسيحيون من الوصول الى الموقع توزع الكفرة الى زمر صغيرة خرجت من الجيش الرئيسي ، وبدأت باجتياح ونهب تلك الأحواز بطريقة عدوانية وكانت إحدى هذه الزمر قد هاجمت جيرين الصغرى ، القرية المذكورة آنفاً ، وأتلفوا تماماً كل ما كان فيها ، هذا وعثروا على عدد قليل - أو لا شيء - من السكان لأنهم ، كانوا قد هربوا الى مواقع محصنة بشكل أقوى بعدما أخطروا بقدوم العدو.

وصلت زمر أخرى الى موقع يعرف عمومًا بأنه عفريل ، فاستولوا على هذا الموقع بالقوة ، وعاثوا به وضربوه بطريقة عدوانية وفعلوا الشيء نفسه في كل ما رأوه ، وسلك آخرون الطرق العامة ، وترافق وجودهم بمخاطر كبيرة على الفرسان والجنود المشاة ، لدرجة أن الذين كانوا يسرعون من نواح مختلفة للانضمام الى جيشنا وصلوا الى هناك بتعريض حياتهم للخطر ، وصعد بعض هؤلاء الأعداء أنفسهم جبل الطور ، وهو عمل بطولي لم يكن معروفًا حتى الآن ، وعاملوا هناك الدير الاغريقي المكرس للقديس الياس حسب هواهم ، حتى أنهم حاولوا أن يشقوا طريقهم بالقوة الى داخل الرواق الكبير بالذات واندسحب الرهبان مع سائر أسرهم والناس من القرى المجاورة الى داخل الدير الذي كان محميًا بسور وأبراج ، وأبدوا هنا دفاعًا وهزموا من جميع أجزاء الشرفات المحيطة عناصر العدو التي تسلقت الجبل.

وحيث لم يروع شيء هذه الزمر ، فإن بعضها تسلقت المرتفع الذي تقع الناصرة وراءه ، حيث كان بإمكانهم أن يشاهدوا المدينة بأسرها من الهضاب المطلّة في الأعلى ، وسبب ظهورهم رعبًا شديدًا للذسوة والأطفال الذين ذهبوا الى هناك مع الرجال المسننين

- ٣٤٥٢ -

والمرضى ، ويقال إن الكثيرين خنقوا في الازدحام و هم يكافحون للهرب طلبا للملاذ في الكنيسة الكبيرة ، كما أن أغلبية السكان القادرين على حمل السلاح كانت إما تتبع العساكر مع الحملة العامة أو رحلت مع اسرها الى المدن الواقعة على الساحل ، وخاصة الى عكا .

٢٧ - انتشار مجاعة رهيبة في الجيش. المسيحيون والأتراك يرحلون أخيرا دون أن يشتبكا في المعركة.

سببت هذه الزمر المنفصلة عن جيش صلاح الدين ، التي كانت منتشرة في كل مكان فوق المنطقة بأسرها ، خطرا شديدا بالنسبة للذين كانوا يرغبون بالوصول الى جيشنا ولم يجرؤ أحد بسبب الخوف منهم على الاقتراب من المعسكر المسيحي للمتاجرة أو لجلب المساعدة ، ونتيجة لذلك انتشرت مجاعة على الفور بين صفوف العساكر ، فقد كانوا قد تقدموا الى هناك دون امتعة أو مؤن ، لكي يزحفوا ضد العدو بدون عائق ، أملين أن المسألة سوف تحل خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر ، وكابد الرجال من الخطر الأكبر وخاصة الذين قدموا من الساحل حيث تم استدعاؤهم دون سابق انذار وأعني بهم البيازنة والجنويين والبنادقة واللومبارديين. وكان هؤلاء قد تركوا سفنهم ، واتخذوا استعدادتهم للابحار (كان ذلك في حوالي منتصف شهر تشرين الاول حيث بات موعد الجواز وشيكا) وانضموا الى قواتنا مع الحجاج الذين كانوا قد التقطوهم ليعيدوهم ، ولم يكونوا قد جلبوا معهم أية كمية من المواد الغذائية ، وكانوا لا يقدرين على حمل اسلحتهم الا بصعوبة لأن المعسكر كان يقع على بعد عشرين ميلا من البحر ، ولذلك ارسل الرسل الى المدن المجاورة ليطلبوا من المسؤولين ارسال المؤن بسرعة ، وأطيعت الأوامر الملكية على الفور بحماسة وعناية ، وأرسل الى المعسكر جميع الطعام الذي أمكن جمعه بدون تأخير ووصل القسم الأكبر من هذه المخزونات الى أهدافه

بأمان ، وقدمت مؤونة كافية للطوارئ الموقت ، الا أن فريقا كان يحمل كمية ضخمة من المؤن وقع في أيدي العدو بسبب انعدام الحذر المناسب ، ولأن الأتراك كانوا ايضا في حاجة شديدة ، وكان بعض فرساننا قد أرسلوا ليعملوا كمرافقة لحماية الفرق التي كانت تجلب الامدادات وقد قادوا الذين قابلوهم بأمان الى المعسكر ، لكن الذين لم تكن لديهم مساعدة كهذه ، ووقعوا بين خطوط العدو ، إما قتلوا بالسيف ، أو أجبروا على أن يخدموا العدو الى الأبد.

لو أن اثامنا في تلك الآونة قد حرضت الرب ليكون مساعدا لنا لأمكن ، تحويل قوة الأتراك بسهولة لآبادتهم ، ولجعلت غطرستهم التي لا تحتمل سخرية ، حيث لم يرد في أي مصدر مدون أن قوات ضخمة جدا كهذه من الفرسان والمشاة على حد سواء قد اجتمعت من قبل من سائر مناطق الشرق ، كما لا يتذكر المسنون أن قوات مجهزة بشكل جيد كهذه قد اتحدت أبدا من قبل في مجموعة واحدة من مملكة واحدة ، فقد كان لدى المسيحيين قوات من الفرسان بلغ تعدادها ألف و ثلاثمائة فارس ، وقيل ان عدد الجنود المشاة المجهزين تجهيزا جيدا قد تجاوز خمسة عشر ألف جندي ، علاوة على ذلك كان الجيش تحت امرة قادة عظماء ومشهورين ، رجال كانوا من سلالة لامعة اشتهروا بالقوة في المعركة وهم : ريموند كونت طرابلس ، وهنري دوق لوفان وهو قائد من منزلة سامية من مملكة التيتون وراف دي ميلوان وهو محارب صاحب شهرة كبيرة من أكو تانيا ، أضف الى ذلك أنه كان هنالك النبلاء التالي أسماؤهم من المملكة وهم : غي كونت ياقا ، وأرنات سيد مقاطعة واقعة فيما وراء الأردن ، وهو الذي كان سابقا أميرا لأنطاكية ، وبلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين صاحب نابلس ، ورينو صاحب صيدا ، وولتر صاحب قيسارية ، وجوسلين قهرمان الملك. أمام هذه الحقائق كان من المحتمل كثيرا أن أعداءنا كانوا طائشين جدا في عبور الأردن واحتلال مناطقنا ، الا أن خلافا نشأ بين النبلاء عقابا على اثامنا يقال أنه نتيجة لمعاملة قضايا الدولة باهمال ، وبشكل شرير وهي قضايا كانت تتطلب العناية المثلى ، ويقال إن الذين كان بإمكانهم

معالجة الوضع بالشكل الامثل رفضوا (العمل) (٤٢١) بسبب

كراهيتهم

م
كونت يافا ، الذي كان الملك قد عهد اليه قبل يومين بمسؤولية ضمان
مصالح المملكة ، لانهم استأثروا من أن مسائل ذات أهمية قصوى قد
وضعت في وقت خطير وعصيب جدا بين يدي رجل غامض و عاجز و
احمق تماما ، و بالمحصلة سمحوا للعدو ، بصبر او بالأحرى بخزي
في أن يبقى لمدة ثمانية أيام متوالية مخيما في المنطقة المجاورة
لجيشنا ، وعلى بعد أقل من ميل - وهو أمر يقال إنه لم يحدث في
المملكة من قبل وقد اجتاحت الأتراك خلال هذا الوقت المنطقة بأسرها
وعاثوا فيها كما أرادوا.

وتساءل الناس البسطاء الذين كانوا مع الجيش والذين لم
يشاركوا في مكر القادة المسيحيين ، عن سبب عدم نشوب أية
معركة مع العدو عندما تهيأت فرصة كهذه ، ولماذا لم يتخذ أي اجراء
بشأن المعركة. وعندما نوقشت المسألة علانية كان المسوغ الذي قدم
عن سبب التأجيل هو أن صلاح الدين ، قائد قوات الكفرة كان
متمركزا في موقع دفاعي قوي في مكان محاط بالصخور ، وأنه كان
يستحيل بالنسبة لقواتنا أن تقترب منه دون تعرضها لخطر كبير ،
وعلاوة على ذلك لقد قيل إنه وضع مجموعات قوية من القوات على
شكل دائرة احاطت بالمنطقة ، ومجاورة كانت لنيها اوامر
بالانقضاض على قواتنا من جميع الجهات فيما اذا حاولنا أن
نشتبك مع جيشهم.

لقد قال بعضهم إن هذه كانت الحقيقة بالفعل وأكدوا أن القادة
معنورون في الموقف الذي اتخذوه وخلافا لذلك فقد أكد آخرون أن ذلك
لم يكن سوى ذريعة ومجرد حيلة استتبطت عمدا لتجنب المعركة ،
خشية من أن يذسب

النجاح الى الكونت اذا ما حالف قواتنا ، التي كان بإمكانها في ظل
قيادته ان تحارب لتحقيق نتيجة ناجحة .

لقد اوردنا هذه الاسباب كأراء متنوعة لاناس كثيرين ، الا اننا نؤكد ان لاشيء منها كان واقعيًا ، لاننا لم نتأكد تماما من حقيقة المسألة ، والذي هو حقيقي هو ان العدو بقي لمدة سبعة او ثمانية ايام متتالية دون مقاومة في اراضي القائمة في احواز الاردن ، والحق يوميا الكثير من الاضرار بجيشنا دونما عقاب .

وبعد طول انتظار استدعى صلاح الدين قواته في اليوم الثاني او بالحري التاسع ، وانسحب سليما الى منطقته ، وعاد المسيحيون الى نبع الصفورية وهم ليسوا مقتنعين حتى الان تماما بانه لن يعود

جرى خلال الوقت الذي كان فيه جيشنا ينتظر عند نبع عين جالوت حدث جدير بالتسجيل ، فقد كان يعتقد حتى ذلك الوقت ان النبع والجدول المتدفقه منه لم يكن فيها سوى عدد قليل من السمك او لم يكن فيها شيء منه على الاطلاق ، لكن يقال انه قدم خلال اقامة المسيحيين هناك زادا كافيا من السمك للجيش بأسره .

٢٨ - صلاح الدين يحاصر مدينة البتراء فيما وراء الاردن ويستولي عليها بالقوة .

انتهت الامور تماما كما كان المسيحيون قد توقعوا ، حيث كان قد مضى شهر تقريبا ، عندما استعد صلاح الدين للحرب من جديد بعدما جند قواته ، فقد استدعى كتائبه من جديد وجند فيالقه ونقل الاته الحربية ، وجهز بعناية مثلى جميع الادوات العادية المستخدمة في عمليات الحصار . وبعدما اتخذت جميع هذه الاستعدادات على نحو واف زحف عبر باشن وجلعاد واجتاز بلاد عمان ومأب الواقعة فيما وراء الاردن ، لمحاصرة المدينة المسماة سابقا باسم بتراء الصحراء والمعروفة حاليا باسم الكرك .

وما ان علم ارناط عن طريق كشافته بنية صلاح الدين محاصرة

الكرك خف الى هناك مع قوة من الفرسان بدت كبيرة بما فيه الكفاية ، لحماية الموقع ذلك انه كان مسؤولا عن هذه المناطق لانها تخص ميراث زوجته .

وكانت ايضا له اهتمامات اخرى بالكرك . فقد كان همفري بن همفري الثاني ، حفيده عن طريق والده همفري صاحب تيرون وكافل المملكة ، على وشك الزواج في هذه الوقت من الاخت الصغرى للملك ، التي كان قد خطبها منذ اربعة اعوام من قبل .

يقال ان صلاح الدين ظهر امام الموقع اثر وصول ارنط الى الكرك وبعد فترة قصيرة جدا من انتهاء احتفال الزواج ، لابل في ذلك اليوم نفسه بالفعل ، وكان مع صلاح الدين جيش ضخم وجميع المعدات والالات الحربية والمجانيق والعرادات المستخدمة عموما في انهاك مدينة واقعة تحت الحصار ، ونصب على الفور معسكره على شكل دائرة حول القلعة وبدأ الحصار .

كانت مدينة البتراء قائمة هنا فيما مضى على جبل عال جدا محاط بأودية عميقة ، الا انها بقيت مخربة لفترة طويلة من الزمن وكانت مهجورة تماما ، حتى قام في اخر الامر شخص يدعى باغانوس الملقب بالساقى ، وكان سيدا لمقاطعة واقعة فيما وراء الاردن ، ببناء قلعة في هذا الموقع خلال فترة حكم فولك الملك الثالث للاتين في الشرق ، وشيدت القلعة فوق الجبل نفسه التي كانت المدينة مقامة عليه من قبل ، لكن على جرف اقل انحدارا نحو السهل في الاسفل ، وكان خلفاء باغانوس لاسيما ابن اخيه موريس وفيليب صاحب نابلس قد اضافوا خندقا وابراجا ليجعلوا القلعة اكثر منعة ، والتصق بالقلعة وتجمع حولها الان قرية قامت في موقع المدينة السابقة ، وكان سكانها قد اقاموا منازلهم هناك كمركز امن نسبي ، وكان الحصن يقع الى الشرق منهم حيث كان يقدم الشكل الامثل للحماية ، بينما ارتفع الجبل في الجهات الاخرى وهو مطوق باودية سحيقة كما تم سر ذلك ، وهكذا لم تكن هنالك حاجة لخشية السكان

- ٣٤٥٧ -

من اي هجوم معاد ، حتى وان كان سور القرية منخفضا بعض الشيء . ولم يكن هناك امكانية لبلوغ قمة الجبل الا من بقعتين فقط وكان من الممكن الدفاع عن هاتين البقعتين بسهولة بعدد قليل من الرجال يمكنهم ان يصدوا عددا كبيرا من القوات المعادية ، وكان من المفترض ان الجوانب الاخرى كانت لاترام .

عندما لاحظ الامير ارناط ان العدو كان قد وصل ، اقترح بشكل طائش تماما - كما بدا الامر للخبراء في مسائل من هذا النوع - محاولة الدفاع عن الموقع الخارجي والقرية المتاخمة للقلعة (٤٢٢) ، ولذلك منع الناس ، الذين شرعوا بنقل حاجياتهم الى داخل القلعة والعمل على تأمين سلامتهم هناك ، منهم من هجر منازلهم او التجروا على نقل اي شيء من ممتلكاتهم مهما كان صغيرا .

وفي هذه الاثناء كانت كتائب الفرسان والمشاة مذبذبة بنشاط وفعالية في محاولة لغلاق طريق العدو الى اعلى الجبل ، الا ان حشد العدو اثبت انه كان اقوى منهم ، فاجبرهم على الفرار ومنع الذين كانوا يعملون في وضع المعينات على الطريق وهزمهم ، واستولت قوات صلاح الدين على الجبل وشقت لانفسها طريقا بالسيف وهكذا نجح العدو الى حد كبير في شق طريقه الى القلعة وذلك في الوقت الذي كان المسيحيون يحاولون فيه الانسحاب اليها ، ولو لم يكن الفارس المسمى ايفين قد ابدى ثباتا رائعا لامكن للاتراك ، الذين كانوا بالقرب من الحصن ، شق طريق حر بدون صعوبة لرفاقهم فوق الجسر وعبر البوابة المجاورة له .

وهكذا ، كابد السكان التعساء خسارة مقتنياتهم بسبب التدابير الطائشة لحاكمهم ، فقد استولى العدو على جميع ممتلكات اسرهم وجميع اثاثهم وجميع ادواتهم من كل نوع ، وزيادة في محنتهم قام الذين هربوا الى القلعة خوفا من بطش وتهور صلاح الدين ، بانزال الجسر وكسره ، وبما ان هذا الجسر كان يقدم المعبر الوحيد عبر

الخنق ، وكان ايضا هو الطريق الوحيد الذي بإمكان الموجودين في داخل القلعة الذهاب والاياب عبره ، فقد بات الان مدمرا ومغلقا .

امتلات القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس البائسين من كل نوع ومن كلا الجنسين ، وكان ذلك عبئا أكثر من كونه معونة للمحاصرين ، وكان هنالك عدد كبير من الممثلين واليهلوانيين والموسيقيين واناس اخرون ممن اندفع الى هناك من سائر انحاء المنطقة لحضور المهرجانات المرافقة للزفاف ، واحبطت توقعات هؤلاء جميعا بشكل محزن لانهم واجهوا معارك عسكرية واعمالا حربية في الموقع الذي كانوا قد توقعوا ان يجدوا فيه مكاسب ، ويحتفلوا فيه بالزواج بابتهاج ، وكانت هذه المعارك مختلفة كل الاختلاف عن الممارسات التي كانوا معتادين عليها .

وعلاوة على ذلك ، كان العديد من السريان قد اتوا مع زوجاتهم وابنائهم من الريف الجاور ، وامتلات القلعة بهم الى درجة ان الذين كانوا يرغبون بالمرور جيئة وذهابا لم يتمكنوا من فعل ذلك بحرية بسبب ازدحام الحشود واكتظاظها ، وهكذا اصبح هؤلاء ايضا عائقا ومانعا للرجال الاكثر نشاطا وللذين كانوا يحاولون الدفاع عن الموقع ، هذا وكانت القلعة مجهزة تماما بالمؤن مع ان امدادات الاسلحة لم تكن ضخمة كما بدا ضروريا للدفاع عن الموقع .

٢٩ - الملك بلدوين يعزل كونت يافا عن الادارة العامة للمملكة . الملك يتوج ابن اخيه بالتاج الملكي .

ادرك الملك في هذه الاثناء ان كونت يافا ، الذي كان قد سلمه حكم المملكة كما حكيما من قبل ، قد اظهر نفسه بعيدا عن الحكمة وليس شجاعا على الاطلاق في ادارة الامور عند ينابيع عين جالوت حسبما وصفنا ذلك انفا ، فقد كانت حالة المملكة قد وصلت الى

- ٣٤٥٩ -

صورة من الترددي سيئة جدا بسبب طيشه وعجزه العام ، ولذلك استرد الملك بلدوين - بناء على نصيحة المستشارين الاكثر تعقلا - الى يديه مسؤولية العناية بالامور التي كان قد عهد بها الى كونت يافا ، ويقال ان اسبابا اخرى كانت مسؤولة عن هذا العمل ، وكانت الحقيقة قد ذكرت من قبل وهي ان الملك عندما منح مسؤولية المملكة الى غي ، كان قد احتفظ بمدينة القدس لنفقاته الخاصة مع ريع قدره عشرة الاف قطعة ذهبية تدفع سنويا ، وندم فيما بعد على هذا العمل ورغب في ان يبابل مدينة صور بمدينة القدس حسب الشروط ذاتها ، لان مدينة صور كانت المدينة المحصنة بالشكل الامثل في المملكة باسرها ، وبدت بانها مجهزة بشكل افضل لمتطلباته. وبما ان الكونت بدا انه غير راغب في تنفيذ هذا المطلب ، يقال ان الملك قد شهد تغييرا تاما بالرأي والميول .

وكان بالفعل خليقا بالانسان الذي رفض ان يظهر نفسه سخيا في مسألة صغيرة نحو الرجل الذي منحه كل شيء ان يحرم من السيطرة العليا والاشراف على الامور ، ولم يؤخذ منه مسؤولية المملكة وشرف ادارتها فقط ، بل حرم تماما من جميع امال وراثه العرش ، ووفقا للنصيحة الجماعية للنبلاء وخاصة نصائح بوهيموند امير انطاكية وريموند كونت طرابلس ورينو صاحب صيدا وبلدوين صاحب الرملة واخوه بالين وبناء على اقتراح ونصيحة ملحة صدرت عن والدة الملك تلقي بلدوين ، الذي كان طفلا صغيرا لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره ، المسح بالزيت الملكي وتوج بشكل مهيب في كنيسة قيامة المسيح ، وصادق جميع الناس على هذا العمل ووافق عليه الحضور من رجال الدين . وكان كونت يافا حاضرا ايضا الا انه لم يجرؤ على التكلم ضده .

ادى جميع النبلاء على الفور وبدون تاجيل يمين الولاء الى الفتى وفقا لصيغة المألوفة ، وقدموا له حسب المعيار الاكمل الاحترام والاجلال اللائقين بالجلالة الملكية . ولم يطلب من كونت يافا ان يؤدي له الولاء . وبدت هذه الحقيقة لذوي الخبرة الطويلة - وهذا

- ٣٤٦٠ -

ماكانته بشكل اكيد - انها برهان مقنع على عداوة عميقة الجذور او بالاحرى ، كراهية واضحة ، وسيتم اظهار هذا بشكل اوضح في وقت لاحق .

كانت آراء الرجال الحكماء حول هذا التغيير الهام كثيرة ومتنوعة ، فقد قال بعضهم إن ترقية هذا الفتى لا يمكن أن تكون له أية فائدة للمملكة أو أية منفعة للأمور العامة ، لأن ترقيته كانت عديمة الجدوى تماما حيث كان الملكان معا معاقين أحدهما بالمرض والآخر بصغر السن ، وكان أفضل بكثير لو عهد برعاية الأمور الملكية وبمسؤولية شؤون الدولة لشخص ما قوي في الحرب وحكيم في الرأي ، فهذا كان الرأي العام للرجال الأكثر أهمية في المملكة ، وشعر آخرون أنه حتى لو اعتبر العمل المتخذ بخصوص الفتى له فائدة بسيطة ، بيد أنه قد يثبت أنه مفيد للدولة من ناحية واحدة فقط في إزالة الأمل الكلي لوراثة العرش من قبل الكونت ، وبما أنه كان عاجزا تماما ، حسب التقرير بأكمله ، وممثلةا بتلف قوي للحكم ، فإنه قد يصبح مصدرا للنزاعات في المستقبل ، ومثيرا لاندلاع فتنة خطيرة ينبغي الحساب لها بعد وفاة الملك ، وكان من المؤمل زوال هذا الآن تماما .

ومع ذلك ، لم يكن في قلوب الجميع سوى فكرة واحدة ورغبة واحدة ، وكانت هي إمكانية تعيين وصي ليدبر شؤون المملكة ، وخاصة ليقود الجيوش ضد العدو الذي كان يهددنا الآن بشكل أعنف من ذي قبل بكثير ، وكان الرأي مجمعا إلى أبعد الحدود على أن كونت طرابلس وحده سوف يكون قادرا على القيام بهذا الواجب بنجاح . لقد حدث هذا كله في العشرين من شهر تشرين الثاني في الخامس عشرية الأولى في العام ١١٨٣ لتجسيد ربنا (٤٢٣)

٣٠ - الملك يحشد قواته ويسرع عبر الأردن لمساعدة المحاصرين . صلاح الدين يرفع الحصار .

كان صلاح الدين أثناء وقوع هذه الأحداث في القدس يعمل على إنهاء المدينة المحاصرة باجتهاد وعنف متواصلين ، فقد حالت مواظبته الملحة دون قيام أي فرصة للراحة للذين كانوا محتجزين داخل القلعة ، وكان قد أمر ببناء ثمانى آلات حربية ست منها في الداخل ، حيث قامت المدينة القديمة ، واثنان في الخارج ، في ذلك الموقع المعروف عموماً باسم الربض ، واستمر الهجوم بشكل لا يعرف التعب ليلاً ونهاراً ، وقذفت أحجار ذات حجم كبير جداً ، بحيث لم يجرؤ أحد من الموجودين ضمن الأسوار على رفع يد أو على النظر من الفتحات أو تجريب أية وسيلة للمقاومة ، واستحوذ الرعب واليأس على السكان البائسين إلى درجة أنهم لم يجرؤوا على إظهار أنفسهم حتى عندما تدلى أفراد العدو بوساطة الحبال وقتلوا بكل وقاحة الحيوانات التي كان اللاجئون قد جلبوها إلى داخل الخندق حول القلعة ، وقطع الأتراك الذبائح إلى قطع لحم كبيرة ، دون مواجهة أدنى مقاومة ، ودون أن يتعرضوا لأي خطر ، وذلك ليستخدموها كطعام لهم .

كما أن الذين عملوا كطباخين وخبازين في جيش العدو ، والذين كانوا يزودون السوق بجميع أنواع السلع وضعوا ورشات عملهم في بيوت السكان وواصلوا أعمالهم بكل حرية هناك وسط وسائل راحة من جميع الأنواع ، وكانت هذه البيوت مجهزة بشكل جيد بالحبوب والشعير والخمر والزيت حيث استولى العدو على جميع هذه الأشياء بالقوة على الرغم من المالكين ، واستخدموها كما شاؤوا .

حاول المحاصرون في القلعة مرة أن يشيدوا آلة حربية خاصة بهم ، إلا أن أفراد العدو المسؤولين عن آلات القذف الحربية الموجودة في الخارج سدوا قذائف الصخور بخبرة متناهية إلى درجة أن

المسيحيين تخلوا عن المحاولة بعدما روعتهم الضربات المستمرة مع الخوف من الموت الذي بدا أن كل حجر كان يهدد به ، وارتأوا أنه من الأعدل أن يتحملوا بصبر أي قدر سيحل بهم بدلا من أن يعرضوا أنفسهم للموت بمحاولة القيام بأي نوع من أنواع الدفاع .

ولم تقتصر هذه المخاطر ، التي سببت ارتجاف الجنود برعب ، على مهاجمة الذين تسللوا من مخابئهم لقذف الأسلحة أو القذائف الصخرية من الشرفات ، أو للتصديق بالقوات المحاصرة ، فقد ارتجف برعب أمام ضربات وزئير القذائف المقتربة ، وبدا القصف كالرعد حتى للذين هربوا إلى الغرف والحجر الأكثر عمقا ، والتي كانت تعد أكثر الأماكن انعزالا وكانوا في ترقب دائم خشية أن يتهدم البناء وينهار عليهم ، وانتظروا من لحظة إلى أخرى الضربة الصاعقة .

كان الملك يحاول بجدية خلال هذا الوقت أن يدبر المساعدة للمحاصرين بكل طريقة استطاعها ، وأن يرسل النجدة المرغوبة بالسرعة الممكنة ، وأخذ صليب الصليبوات المانح للحياة وذلك بعدما جمع قوة المملكة من كل مصدر ، وزحف إلى هناك بنفسه ، ولدى وصوله إلى البحر الميت ، الذي يدعى الآن باسم بحيرة الزفت ، جعل بعد دراسة متروية من كونت طرابلس قائدا للجيش وأمره للقوات بأسرها .

وتخلّى صلاح الدين عن الاتيه الحربية لدى معرفته عن طريق كشافته أن الجيش المسيحي كان قريبا ، وأن كونت طرابلس كان يقود الفيالق ، وأمر جنوده بالانسحاب ، وهكذا رفع الحصار وعاد إلى منطقته بعد تهديده للمدينة بهذه الطريقة وأزاعجه لها مدة شهر كامل (٤٢٤)

ومع ذلك ، فقد واصل الملك زحفه إلى الكرك حيث جلب وصوله إلى أهالي تلك البقعة النجدة المطلوبة منذ زمن طويل ، ثم أعلن النداء

- ٣٤٦٣ -

بالرحيل ، وأعاد جمع قواته من جديد ، ومن ثم عاد بسلام إلى
القدس .

هنا انتهى الكتاب الثاني والعشرون

الكتاب الثالث والعشرون

هل يمكن انقاذ القدس بوساطة ريموند كونت
طرابلس

توطئة

لقد صممنا على التخلي عن الكتابة وأن نودع إلى صمت القبر تاريخ الحوادث التي كنا قد باشرنا كتابتها للأجيال القادمة وذلك بعدما أزهقتنا الكوارث المحزنة التي تقع كثيرا في المملكة - بالفعل بشكل مستمر تقريبا - حيث لا يوجد أحد يرغب في سرد عيوب بلاده ، وأن يظهر للنور أخطاء شعبه ، فقد أصبح أمرا مقررًا بين الناس جميعا ، ويعتبر بالفعل طبيعيا وجوب كفاح كل انسان بكل ما أوتي من قوة في سبيل تمجيد بلاده وأن لا يحط من السمعة الحسنة لأبناء بلده .

لكننا الآن فقدنا جميع مصادر السمعة المتألقة ، كما أن الموضوعات الوحيدة التي تقدم نفسها هي كوارث بلد متآلم ، ومحنة المضاعفة وهي موضوعات لا تقدم إلا لاستدراج صيحات العويل والدموع .

كنا قد وصفنا حتى الوقت الحالي في الكتب السابقة ، بالشكل الأمثل لمقدرتنا المآثر البارزة للرجال الشجعان الذين احتفظوا بالسلطة الحاكمة لمدة ثمانين عاما ونيف في منطقتنا من الشرق ، وبشكل خاص في القدس (٤٢٥) . الا اننا الآن نفتقر إلى الشجاعة لكي نستمر ونحن في مقت تام للوقت الحالي ، ومندهشون ازاء المانة المقدمة أمام عيوننا ومسامعنا ، وهي أشياء غير صالحة لتسرد حتى

المطلب ، حيث انه من الواضح بالفعل ان مؤرخي الحوادث السابقة قد سجلوا دون تمييز حوادث معاكسة وحوادث ميمونة ايضا ، لانهم ياملون بروايتهم لاختبار المنجزات الناجحة الهاب الاجيال القادمة بالشجاعة ، في حين انهم قد يقومون بتوعية الاجيال اللاحقة فيجعلونها اكثر حذرا في ظروف مشابهة ، وذلك بتزويدهم بأمثلة عن محن تم تحملها بصبر . ينبغي على كاتب الحوليات ، استنادا لمنصبه ، الا يودع الحروف احداثا يرغب هو بها ، بل الاحداث التي تعترضها الايام ، ان محصيات الحوادث الدنيوية ، وخاصة حوادث الحرب ، متقلبة دائما وليسست مؤكدة ، والازدهار ليس مستمر ابدا ، كما ان المحنة ليست على الاطلاق بدون فترات فاصلة براقية .

وبناء عليه ، لقد وافقنا على متابعة الاحداث بعد ما تخلينا عن عزمنا السابق ولسوف نستمر بمساعدة الرب ما دمتنا على قيد الحياة(٤٣٣) في ان نسجل بالعناية المثلثى ، كما فعلنا في السابق ، اية حوادث يقدمها المستقبل . وليجعلها الرب احداثا سعيدة ومزدهرة(٤٣٤)

١ - اندلاع العداوة القائمة منذ زمن طويل بين الملك وكونت ياقا وتحولها الى صراع عنيف. استبعاد اى امل للمصالحة. كونت طرابلس يصبح نائبا للملك ووصيا على الملك.

استمرت في الوقت نفسه العداوة بين الملك وكونت ياقا بالازدياد قوة يوما بعد يوم بعدما غزتها اسباب سرية ، وكانت الضغينة ، المكبوحة حتى هذا الوقت ، قد انفجرت الان بعنف زائد لدرجة بدا فيها الملك يبحث علنا عن اسباب لفصل اخته عن زوجها ولالغاء

الزواج ، ولهذا الغرض ذهب بلدوين بشكل مكشوف الى البطريرك ، وفي نيته تقديم شكوى ضد الزواج ، وطالب بتحديد يوم يمكن ان يعلن فيه الغاء الزواج بشكل مهيب وبحضور البطريرك .

وجرى ابلاغ الكونت لدى عودته من الحملة بتفاصيل الاجراءات باسرها ، فترك الجيش على الفور وانطلق الى عسقلان عبر الطريق الاقصر ليحذر زوجته ، التي كانت موجودة في القدس في ذلك الوقت ، لتغادر تلك المدينة وتتوجه الى عسقلان قبل وصول الملك ، لانه خشي انه اذا ابقاها بلدوين في حوزته لن يسمح لها بالعودة الى زوجها .

ثم ارسل الملك رسولا ليستدعي الكونت للمثول اثناء البست في الدعوى وليبلغه باسبابها . الا ان غي قاوم وسوغ عدم مثوله بادعاء المرض ، وبعدما وجهت اليه عدة مرات ، وثابر غي على الرفض وعدم الاستجابة ، صمم الملك ان يذهب اليه شخصيا وان يسلمه شفويا وبشكل مهيب الدعوى للمثول امام العدالة ، الا ان بلدوين وجد عندما وصل الى مدينة عسقلان الابواب موصدة ، وكان بمرافقته بعض نبلاء قصره ، فطرق بيده على الابواب ، وطالب ثلاث مرات بان تفتح له . وحيث لم يبد احد الرغبة في اطاعة امره ، انسحب ساخطا بشكل محق ، وقد حدث هذا على مرأى تام من جميع سكان المدينة الذين كانوا قد تركزوا في الأبراج وعلى الأسوار ، لدى معرفتهم بوصول الملك ، منتظرين نتيجة القضية .

وتقدم من عسقلان إلى يافا مباشرة . والتقى على الطريق بعدد كبير من سكان تلك المدينة ، من الرجال الأكثر أهمية من كلا الطبقتين ، وفتحت أبواب المدينة له ، ودخل بدون صعوبة ، ثم وضع حاكما هناك ليتولى مهام الأمور ومن ثم تقدم إلى عكا حيث أعلن عن عقد مجلس عام في تلك المدينة نفسها ، وعندما اجتمع جميع نبلاء المملكة في اليوم المحدد ، قام البطريرك ، بمساعدة وتعاون المقدمين أي مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية بمخاطبة السيد الملك ، وجثا على

ركبته وشرع يتوسط للكونت ، وقدم التماسا جديدا كان مفاده أنه ينبغي على بلدوين أن يتخلى عن استيائه ويعيد غي إلى الرضى ، وعندما لم يتم الاصفاء إلى المطلب على الفور ، انسحب البطريرك ومؤيدوه وهم يشعرون بسخط شديد ، وغادروا البلاط والمدينة أيضا .

وقدم اقتراح للنبلاء المحتشدين بارسال مبعوثين إلى الملوك وبقية النبلاء في بلدان ما وراء الجبال لدعوتهم للقدوم لمزيد المساعدة إلى المملكة والديانة المسيحية نفسها ، وكان ينبغي استعراض هذه المسألة في البداية ، إلا أن البطريرك قاطع العمل ، كما تم ذكر ذلك ، وبارش الحديث المذكور أعلاه وبعدما أحبط الموضوع الرئيسي ، غادر عكا وقد جرفته العاطقة ، كما تم وصف ذلك (٤٣٥)

عندما علم كونت يافا أن الملك لن يتراجع لاحتلال السلام معه ، زاد من سوء سلوكه الشرير السابق بأعمال أكثر عنفا ، فقد أخذ طريقه مع القوات التي كانت تحت تصرفه نحو القلعة التي تدعى الداروم وانقض فجأة على مخيم بعض البداء العرب الذين كانوا قد ضربوا خيامهم في تلك المناطق بسبب موائمة المرعى ، وكان الملك قد وعدهم بالحماية وكانوا يعتمدون على هذا تماما ، وبما أنه وجدهم غير مستعدين للمقاومة ، فقد ساق قطعانهم وعبيدهم وعاد بهذا الغنيمة إلى عسقلان . وعندما بلغ نبأ هذه الغزوة إلى الملك استدعى من جديد نبلاءه وجمعهم ، وعهد برعاية المملكة وإدارتها العامة الى كونت طرابلس الذي كان لديه سبب ليثق بحكمته وشهامته ، وبدا هذا العمل مرضيا لرغبات جميع الناس ، ولأغلبية النبلاء ، لأنه كان واضحا بالنسبة للجميع أن طريق السلامة الوحيد قائم في وضع أمور المملكة في يدي كونت طرابلس (٤٣٦) .

هنا توقف الكتاب

الهوامش والحواشي

حواشي - رحلة لويس السابع الى الشرق

- (١) من المرجح ان هذه الرسالة ، مع كتاب التاريخ هذا قد كتبها في شتاء ١١٤٨ م .
- (٢) إن لويس السابع هو محور الحديث في كتاب التاريخ هذا ، وسنرى من خلال صفحاته نوعية العلاقات بين اودو صاحبها ومملكه .
- (٣) كان سوكر النائب الاول للملك لويس السابع في مدرسة اشاء غيايه في الحملة الصليبية الثانية .
- (٤) في كتاب الذي حقق وترجم الى الانكليزية من قبل .
- (٥) ينقل هنا من النص اللاتيني لحياة القديس نيقولا المكروب في القرن التاسع من قبل جـون لـاكون حيث جاء فيه : « إنه عندما كان يرضع حليب امه ، شرع يرضع مرتين فقط في اليوم الرابع من كل اسبوع . ومرة واحدة في اليوم السادس » .
- (٦) لم يستطع سوكر ان يحقق امنية اودو هذه فكتب قطعة أدبية رائعة عن الملك لويس السادس ثم شرع بالحديث على نفس المتوال عن ابنه ، كما تعنى وودو . لكن المنية حسالت بينه وبين اكمال عمله .
- (٧) يسرد اودو ، كما سنرى ، اخبار حوادث وقعت قبل اجتماع فيزلي ، حيث يوضح كيف تسلسلت الوقائع .
- (٨) توحى هذه الفقرة بأن لويس قد خطط للذهاب الى الشرق قبل ان يطلب منه البابا فعل ذلك . مما اثار نقاشا واسعا بين الكتاب ، فلقد خطط لذلك حسب بعض الآراء للثار من المسلمين وللتفكير عن ذنوب اقترفها .
- (٩) الرها هو الاسم العربي لمدينة انيسا بالسريرية . وهي اورشاليم الحالية في تركيا . فيها تأسس للصليبيين اول اماره لهم في الشرق ، وقد حررها عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤ م .
- (١٠) عارض سوكر فكرة الحملة في البداية قبل اجراء المشاورات والاستعدادات اللازمة .
- (١١) اصبح برنارد دي بانكالي بابا بناسم يوجينيوس الثالث سنة ١١٤٤ م . واشرفنا في الحاشية ٢ - في الصفحة السابقة الى الخلاف حول مسألة دوره في التحريض على قيام الحملة الصليبية الثانية .
- (١٢) حاول بعضهم ان يفسر هذا النص على انه يعني طاعة الملك البابا ، وهو امر غير مقبول .
- (١٣) عاشت روما فترة اضطرابات شديدة فيما بين ١١٤٥ - ١١٤٦ م اثرت على حرية البابا وعلى تحركاته .
- (١٤) تذكر بعض المصادر الاخرى بأن الدكة انهارت جميعها ، ما عدا المكان الذي وقف عليه الملك وقد اعتبر هذا كرامة له ومعجزة سماوية .
- (١٥) تملك برنارد هذا قدرة خطابية كبيرة ، فبلاغته استطاع ان يثير الحشود اشياء عظمت لهم . وقد قرأ عليهم وهم في حالة الهيجان رسالة البابا التي تحضهم على حمل الصليب .
- (١٦) تبذلت هذه الخطة كما سنرى فيما بعد .
- (١٧) جاء في رسالة وجهها الاب برنارد الى البابا يوجينيوس يصف فيها نتائج اعماله التبشيرية بالقرارات التالية : « وما تبقى انت امرت ، وأنا اطعت ، وقضت ارادة الرب التي يصدر الاوامر ان تكون طاعته مثمرة ، فليمتما بشرت بالحرب المقدسة ، كان عدد الذين استجابوا لحمل الصليب اكبر من ان يحصى ، حتى ان المدن والقلاع خوت من الرجال ، الى حداثته تعذر على كل سبعة نساء ايجاد رجل واحد ، وهكذا غنت النساء في كل مكان اشبه بالارامل مع ان رجالهن

وأزواجهن مازلوا أحياء . .

- (١٨) سيمر بنا المزيد من المعلومات عن علاقة روبرت صاحب إهوليا بالحملة الصليبية الثانية .
- (١٩) المقصود هنا الإمبراطور مانويل كومنينوس ، ونظرا لأنه كان أرثوذكسا ، فهو تبعا لأودو لم يكن بين الذين اختارهم الرب ، ورضي عنهم .
- (٢٠) مرد الخلاف إلى طلب الإمبراطور البيزنطي من رجال الحملة الثانية أداء يمين الولاء له كما فعل رجال الحملة الأولى مع جده الكسبروس .
- (٢١) سترد بعض الإشارات حول دور كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية .
- (٢٢) كان عيسى الثاني [١١٤١ - ١١٦١ م] على عرش هنغاريا ، وكان الاتفاق معه ضروريا بالنسبة للصليبيين لطول أراضيهم التي سيمرون بها .
- (٢٣) قام القديس برنارد بارسال رسالة تبشيرية إلى إنكلترا لآلت بعض الأصحاء الإيجابية .
- (٢٤) اثر المؤلف هنا اختصار بعض الأخبار ، مثل أخبار الاجتماع الذي عقد في شالون بين الملك لويس والقديس برنارد ومندوب كونراد الثالث ، ودوق ولف .
- (٢٥) المعلومات المفصلة عن نشاط برنارد التبشيرية للحملة الثانية في ألمانيا قليلة جدا .
- (٢٦) لقد وقع الاختيار على الطريق البيزنطي من قبل رجال الحملة الثانية ، لأن الحملة الأولى سارت على ذلك الطريق . ثم لوجود المتنطوعين الألمان الذين كانوا معانين للملوك النورمانديين أصحاب صقلية المتحسين بالطرق والممرات البحرية ، خاصة ممر مسينا .
- (٢٧) لوقا: ٢٢ / ٢٨ .
- (٢٨) - كان وليم الثاني نيفر (١٠٨٩ - ١١٤٧ م) من أكبر مؤيدي العرش الفرنسي . وقد تولى عقب تكليفه بوقت قصير .
- (٢٩) مخاطب هنا الأب سوكر .
- (٣٠) في هذا إشارة إلى ما جاء في إنجيل متى ١٩٠ / ٣٠ قول المسيح عليه السلام : « لأن نهرى هين وحملى خفيف » ، ومفيد أن نشير هنا بأن أودو يحوم حول الموضوع متجنباً الحقيقة وهي أن سوكر لم يقبل تكليفه بوظيفة نائب الملك ، لأنه اعتبر ذلك حملاً ثقيلاً ، وليس تكريماً وتشريفاً ، ولم يستجب لطلب الملك إلا بعدما أمره البابا بذلك بإطاعه .
- (٣١) أي يوم ١٥ حزيران ١١٤٧ م .
- (٣٢) الأربعماء الثانية من شهر حزيران عام ١١٤٧ كان يوم ١١ / منه .
- (٣٣) يبالغ أودو في عرضه هذا الخبر ففي القديم كانت راية الحرب المشار إليها توضع في كنيسة ميونس ، وكانت راية مقدسة ، إنما في عصر الحملة الثانية أو قبله بفترة كانت هذه الراية منسنة المحتويات الملكية يحملها الملك متى شاء دون الطقوس المشار إليها .
- (٣٤) - مرة جديدة يتغلى أودو عن رواية أخبار العديد من الحوادث ويختصرها كثيراً ، ثم يعود بلا مقدمات إلى ذكر تفاصيل جديدة لحوادث تالية .
- (٣٥) إن وجود أودو في حاشية الملك لويس قبل زيارته للقديس نيدس يوحي بأنه دخل في خدمته وأصبح من رجاله المقربين قبل الحملة الصليبية .
- (٣٦) هي ألباد ابنة هيو عبرت الثاني صاحب مورين وأخت البابا كالسكتوس الثاني وقد تزوجت من ماثيو صاحب مونتميريس في سنة ١١٣٨ م أي سنة واحدة من وفاة لويس السادس .
- (٣٧) هي أليانور دوقه أكويتين ، التي نعت في سنة ١١٤٧ م ملكة فرنسا واستمرت كذلك مدة عشر سنوات ، وما يشير البهشة أنها لم تحظ بما استحقته من مكانة وقامت به من دور في كتاب أودو ، فكل ما نالته إشارات عابرة ، مع أنه من المشكوك فيه أن يكون أودو غير مطلع على دورها وما قامت به ، لكن لما أنا أهملها لذلك العديد من التعليقات .
- (٣٨) أكمل سوكر استيراد بقايا القديس نيدس في سنة ١١٤٤ ، وفي تلك السنة وضع جسد القديس نيدس وأجساد رفاقه الشهداء في وعاء فني مغلى بصفائح ذهبية ، وثبت على منبج مرتفع لتسهيل رؤيته .

- ٣٤٧٢ -

(٣٩) ربما تناولها من سوكر . لذلك ان كونت لنكسين اعتقاد ان يتناول الراية من الاب رئيس كنيسة القديس بليس .
(٤٠) الغل اودو الحديث عن الاضطرابات التي وقعت انذاك في فرنسا بسبب الضرائب العالية المفروضة على الشعب .

(٤١) هو سمسون رئيس اساقفة الرايم منذ سنة ١١٤٠ . ولقد كان دوره في نيابة المملكة ضئيلا .

(٤٢) كان راؤول الاول كونت فيرماندوس وفاليوس [١١١٧ - ١١٥٢] من المؤيدين الكبار للعرش الفرنسي ايام لويس السادس وشغل وظائف عالية منها وظيفة . ومدير المراسم ، او الحاجب . وقد تخلى عن هذه الوظيفة في بداية حكم لويس السابع لخلافة منع سوكر لكنه عاد الى عمله هذا سنة ١١٣٨ وظل يشغله حتى سنة ١١٥٢ م . وكان اثناء فترة النيابة عن الملك تشبث وله دوره الكبير ، لكن الإننى من دور سوكر ، واما الحرمان الذي اشار اليه اودو فقد نتج في سنة ١١٤٢ م عن تخليه عن زوجته ليتزوج بواحدة اخرى .

(٤٣) العهد القديم - الجامعة : ١٢ / ٤ .

(٤٤) جرت محاولات لاثبات انه كان اخا اسوكر . ولقد تقلب في عدة مناصب كنسية اخرها اسقف اراس من سنة ١١٣١ وحتى ١١٤٧ م .

(٤٥) كان ليو من زملاء الفهوس وشغل منصبه من ١١٣٨ - ١١٦٣ م وسافر معه بالحملة الصليبية وقام بدور بارز فيها .

(٤٦) ٢١ حزيران ١١٤٧ .

(٤٧) شغل ارنوف وظيفته كاسقف من ١١٤٢ وحتى ١١٨٢ ، وكان مدققا واسع المعرفة . يحسن نظم الشعر ، لذلك كان دوره في الحملة الصليبية الثانية كبيرا ومؤثرا .

(٤٨) هو بارثلميو يروي انه شغل منصب الحاجب من حزيران ١١٤٧ م وحتى نهاية تشرين اول ١١٤٩ م . وقد رافق لويس السابع في الحملة الصليبية . وقد بعثه الملك الى فرنسا سنة ١١٤٩ ليقيم اسوكر المعلومات التفصيلية عن الحملة الصليبية ، وقد قام اثناء الرحلة نحو المشرق بعنة مهام دبلوماسية هامة . فقد تقدم الجيش الفرنسي الى القسطنطينية ، وتدخل لاجل تأمين الطريق ، وحل بعض المشاكل بعد تفاوضه مع الامبراطور مانويل .

(٤٩) يعني استهلاك المؤن .

(٥٠) جاء في رسالة ارسلها لويس الى سوكر من هتافريا العبارات التالية : بينما يقدم الرب لنا العون في كل زاوية فإن امراء البلاد التي مررنا بها قد استقبلونا بالترحاب والسرور . وبشكل اخلاص اعتنوا بنا ولبوا مطالبنا بكل شرف .

(٥١) الثبات المشار اليها هنا تشبه نوعا من انواع الجاكت والتتورة . مع اكمام ضيقة .

(٥٢) لا شك ان الامبراطور مانويل اراد ان يفعل ما سبق لسلفه الكسيوس ان فعل مع رجال الحملة الصليبية الاولى .

(٥٣) سيتم التعرض فيما بعد للمناقشات بينهما .

(٥٤) هو ارشيبالد السابع كونت بوربون حتى سنة ١١٧١ م ، وكان من حلفاء التاج الفرنسي ، وزوجا - لاجنيس - عمه الملك لويس السابع .

(٥٥) منهم : مانساس صاحب بولوس ، وفرارد صاحب برتويل ، وانسلم الحاجب في الفلاندر ، وفرارد صاحب باراس .

(٥٦) من اجل الطريق الذي سلكوه انظر الخريطة المثبتة في نهاية الكتاب الخامس .

(٥٧) يرى بعض الباحثين بان تقديرات اودو للمد المحتاجة بين مكان وآخر هي للمسافر المجد وليس للجيش الزاحفة .

(٥٨) بسبب توفر المؤن ، لذلك لم يكن هناك حاجة لمعونة السفن .

- (٥٩) تميز اودو بأسلوب خاص في العرض ، نرى هنا نمونجا عنه .
- (٦٠) يهل احد العنصره بعد الفصح بسبعة اسابيع .
- (٦١) احتفل كونراد بعيد الفصح في بامبرغ ، ثم عقد اجتماعا كبيرا في نورمبرغ ، ومن ثم تابع سيره الى راتسبون حيث مكث حتى اواخر ايار ، ثم عسكر في ٢٩ ايار في ارباكير .
- (٦٢) في الحقيقة كانت العلاقات بين هنغاريا والمانيا عدائية ، بسبب تدخل بورس امير بوهيميا الذي ادعى احقيته بعرش هنغاريا ، فحصل على معونة من كونراد امبراطور المانيا ضد الملك الهنغاري عيسى ، وحدث في سنة ١١٤٦ أن تمكن فارس قدم من الشرق أن يهزم هنغاريا ، فاستولى على حصن بوساو ، وقام ملك هنغاريا بشراء هذه القلعة منه ، ثم جمع جيشا كبيرا وحذف في تشرين الثاني من العام نفسه ضد امير بوهيميا ووقع به الهزيمة ، وعندما زحف كونراد يريد الشرق للاسهام في الحروب الصليبية لم يكن قد انتقم بعد لهزيمة حليفه ، لذلك عبر هنغاريا معاربا يمارس السلب والنهب والتدمير ، وليس كحاج يريد الوصول الى القبر المقدس ، وذلك حسب تعبير بعض المؤرخين الذين عاصروه .
- (٦٣) كان بورس الذي ذكر اعلاه ابن الملك كولومان ملك هنغاريا من يوليفيا اميرة كييف ، وقد شجعه الامبراطور البيزنطي يوحنا كومينوس لينازع اخاه الاكبر وينتزع العرش لنفسه ، ويبدو انه استمر في تأمره ضد كل من بيلا الثاني وعيسى الثاني حتى قتل في حملة بيزنطية ضد هنغاريا سنة ١١٥٥ م .
- (٦٤) يذكر بعض المؤرخين ان ملك هنغاريا جمع ماكان في خزائنه من اموال منع مساحوته البيرة والكناثس . وانفق ذلك كله بين الالمان من رجال الحملة الصليبية ، خوفا واملا .
- (٦٥) قيل هما : كونراد ولويس بالثالث ، ورفض بعض المؤرخين هذا ووجدوا من المحال التعرف الى هذين الاميرين .
- (٦٦) تعني كلمة نقود عند الاغريق « المعن المطبوع او المختوم » وبهذا فهي اشبه بنقود عصرنا المصنوع من معادن رخيصة او من الورق ، ويضاف الى هذا ان المصاعب الاقتصادية والمالية في بيزنطية ايام الامبراطور مانويل كومين اجبرته ليس فقط على انزال عيار الذهب في النقود بل على عدم ضرب نقود ذهبية البتة .
- (٦٧) سيذكر المؤلف مزيدا من التفاصيل حول اسعار التبادل النقدي .
- (٦٨) وجه مانويل اعلانا الى الصليبيين بأن المؤن ستقدم لهم للشراء على طول الطريق الذي سيعبرون بلانه عليه .
- (٦٩) يذكر بعض المؤرخين الذين عاصروا هذه الاحداث بأن الالمان مروا في البداية مسالين في المنطقة الجبلية الواقعة بين نهر استير وصدوليا ، إنما عندما دخلوا منطقة السهول بدأوا السلب والنهب .
- (٧٠) يرى البعض بأن هذا وقع في القسطنطينية ، ولكن هذا الرأي مشكوك فيه ويرجح ان الحدث وقع قبل الوصول الى العاصمة البيزنطية .
- (٧١) ربما كان اسمه ميخائيل براناس .
- (٧٢) الخامس من تشرين ثاني ١١٤٧ م .
- (٧٣) الثامن من تشرين ثاني ١١٤٧ م .
- (٧٤) تذكر المصادر المعاصرة ان الامبراطور مانويل سمع بالفوضى بين صافوف الالمان فأرسل واحدا من كبار قانته واسمة بروسوش على رأس قوة جمعت على عجل وامره أن يواكب الحملة الصليبية ، ويراقب اعمال افرانها ويمنعهم من التشرذ على الطريق الذي كانوا يسافرون عليه ، وقد وجد هذا القائد الحملة الالمانية تسير ببطء شديد وتتجول على الطريق دون نظام ، ولعل مرد وفاة عدد من الجنود الالمان يعود الى اعمال انتقامية قام بها الاهلون من الاغريق الذين تعرضوا للنهب والسلب او انها من فعل جنود بروسوش .

(٧٥) من المعتقد ان جند بروسوش هم الذين اغلقوا طريق ادرنة . وقيل بأن الامبراطور مانيويل ارسل ابرو نيكوس اوبوس وكان من كبار رجاله لينظم الامور مع الالمان وأنه اقترح عليهم طريقا اخر اقصر من طريق ادرنة .

(٧٦) اضاف بعض المؤرخين هنا معلومات اخرى هامة فيها أن واحدا من النبلاء الالمان اصيب بجراح فدخل الى احد الديرية بعد سفر الحملة الالمانية ، وبينما كان في الدير قام بعض اللصوص الاغريق بمهاجمة الدير واحرقوا هذا النبيل في غرفته بعدما استولوا على ماله . ولدى سماع الالمان بهذا رجعت فرقة منهم الى المدينة فاحرقوا الدير برمته . ومن ثم أخذ الالمان يسلبون وينهبون على طول الطريق ، وعندما سمع الامبراطور مانيويل بذلك زاد من استعداداته العسكرية في عاصمته وارسل قوة جنينة انضمت الى عساكر بروسوش .

(٧٧) يعرف هذا المرج بسهل كواروباكجي وهو مروي بنهر ميلاس واشيراس ، ووقع حادث الفيلضان ليلة ٨ تشرين ثاني .

(٧٨) يذكر بعض المؤرخين انه بعدما سمع الامبراطور مانيويل بقضية الفيلضان بعث برسالة الى كونراد اقترح فيها ان يجتمعا للتباحث في القضايا الهامة ، واجابه كونراد بان عليه ان يقدم لمقابلته في منتصف الطريق كما اشترط عليه شروطا اخرى قاسية ، مما دفع مانيويل الى الغاء فكرة المباحثات والاجتماع .

(٧٩) دعت هذه الحديقة الكبيرة باسم فيلوباشن وقامت خارج اسوار القسطنطينية قرب الباب الذهبي ، ويعتقد ان معرفة اودو بهذه الحديقة تعود الى ان الملك الفرنسي اقام بها اثناء وجوده في القسطنطينية .

(٨٠) يرى البعض في هذه الرواية شيئا كبيرا من المغالاة .

(٨١) غالبا ما عرف اليوسفور باسم نراع القديس جرجس .

(٨٢) ان موضوع اقامة الالمان في القسطنطينية ثم عبورهم هو موضوع متناحل جدا ولا تملك حوله ما يكفي من المعلومات ، فالتباعد لسان بين مانيويل وكونراد قبيل وصول الاخير الى القسطنطينية مما حال دون اجتماعهما والتباحث المباشر بينهما ، ومع هذا يقال بان كونراد رأى ان امكاناته لا تسمح له بالقيام بأي عمل ضاغط على العاصمة البيزنطية . وأنه مل من مهمة المشاركة بالحروب الصليبية لذلك تعجل العبور إلى البر الاسيوي ليؤدي مهمته . ولعل الامبراطور البيزنطي ادرك هذا وشجعه على العبور باعطائه بعض الخيول الجيدة وبتزويده بدليل او اكثر .

(٨٣) هذا الرقم فيه نظر .

(٨٤) كذا والارجح هو نيقية . هنا واسم نيقوميديا الحالي « ازميت » .

(٨٥) مرد هذا الى خلاف قام بين الملك والعامه ، فقد اشيع بان كونراد أعلن بان رجاله قد تعبوا من الرحلة والمخاطر وأنه لذلك سيعرض عليهم ويهيد تشكيلهم لبحث بهم مباشرة نحو القدس دون سواهم ، ورفض عامة رجال الحملة هذا وانتخبوا واحدا منهم قائدا واسمه برنارد ، واعلنوا انهم سيعتزلون عن الملك المتكبر عليهم فطالما هو لا يريد العامة معه ، فالعامه ما عادوا يعتبرونه ملكهم . وقام خلاف حاد تم التوصل الى حله عن طريق زهاب العامة مع الاسقف والبقية مع الملك .

(٨٦) هو اخو كونراد لأمه ، ذلك أنه كان ابن لبيول الثالث صاحب النمسا ، واسمه اجنيس ابنة الامبراطور هنري الرابع ، تسلم الاسقفية منذ ١١٣٧ وحتى ١١٥٨ ، وكان قد نال تعليمه في باريس ، وحظي بشهرة كبيرة لأنه ترك عددا من الآثار التاريخية الهامة .

(٨٧) هو ستيفن شغل منصبه من ١١٢٠ الى ١١٦٠ وهو ابن كالكستوس كونت بار .

(٨٨) هو كونت رسونزون وبار من ١١٠٤ وحتى ١١٤٦ ، وقد ملئت حياته بالمشاكل والاعمال الحربية .

(٨٩) هو هنري الاول اسقف تول من ١١٢٦ وحتى ١١٦٥ كان اخوه كونت للاندز .

- ٣٤٧٥ -

- (٩٠) يرى بعض المؤرخين أن ما قام به البشناق والكومان ، إنما جاء بمثابة ردة فعل على أعمال السلب والنهب التي مارسها الفرنجة .
- (٩١) كان بين رجال الحرس الملكي واشتراكه في البعثة الى القسطنطينية يوحي بأنه كان من طبقة النبلاء .
- (٩٢) هو أيضا كان من رجال الحرس الملكي ، ولا نملك عنه معلومات مفيدة .
- (٩٣) كان حاجب أمير فلاندرز من ١١٤٥ - ١١٤٧ والمعلومات حوله غير واضحة .
- (٩٤) كان مفوض النأوية (فرسان المعبد) من سنة ١١٤٣ وحتى ١١٤٧ ثم صار مقدمهم من ١١٤٧ وحتى ١١٤٩ ساعد لويس أثناء حملته عسكريا وماديا وعندما عاد الى فرنسا انخرط في سلك الكهنة وظل كذلك حتى توفي سنة ١١٧٤ .
- (٩٥) أقام مانويل هذه الهدنة سنة ١١٤٧ م . وما يشير اليه اودو هنا بناء على رسالة بعثها مانويل الى لويس سنة ١١٤٦ م قال فيها بأنه على الرغم من أن مملكته ليست على استعداد لخوض الحرب ، وهي في شبه هدنة مع الأتراك إلا أنه سيستخدم القوات المتوفرة لديه حالما يخرق الأتراك التهاشم القائم على إيقاف الحرب .
- (٩٦) هو وليم الثالث كونت وارين ، وأمير نرى (١١٣٨ - ١١٤٨ م) كان من كبار مؤيدي ستيفن ملك إنكلترا .
- (٩٧) المزامير : ٨٦ / ٨ .
- (٩٨) سمحت الكنيسة الاغريقية لأعضائها بالمشاركة في التعميد بأخذ الخبز والنبيذ ، لأنها اعتقدت بأن روح القدس تنحدر وتأتي من الأب وحده ، وليس من الأب والابن كما في الكنائس الأخرى .
- (٩٩) الملكة بيرثا وكانت تعرف بالقسطنطينية باسم ايرين كانت ابنة كونت سولز باش أحد كبار نبلاء بافاريا وهي اخت جيرتروم زوجة كونراد الثالث خطيب الى مانويل قبل وفاته يوحنا كومينوس وتزوجت سنة ١١٤٦ م .
- (١٠٠) أي الى الملكة اليا نور ، ويتساءل المرء عن نصوص هذه الرسائل ، لذلك اعتقد بعض الباحثين أن مثل هذه الرسائل لم يكتب ورأى بعض آخر أنها حذف عمدًا من الأصول المخطوطة للكتاب .
- (١٠١) في هذا تعامل شديد تعود أسبابه الى التباين الحضاري بين البيزنطيين والفرنجة وإلى الاختلاف في طرائق التعامل السياسي .
- (١٠٢) - من المفترض أن لويس سار على الطريق نفسه الذي سار عليه رجال الحملة الاولى .
- (١٠٣) من هؤلاء غودفري صاحب لانجرس .
- (١٠٤) أبحر أسطول روجر في صيف ١١٤٧م من أوترانكو إلى كورفو حيث تمكن من إقامة قاعدة له ، وقام من هذه القاعدة بنهب نجر وبوتت وسيرجو ثم تابع سيره نحو خليج كورنث حيث احتل كل من كورنث وطيبة .
- (١٠٥) في الرابع من تشرين اول . ويستدل على ذلك من رسالة بعث بها لويس من القسطنطينية الى سوكرا قال فيها . وصلنا بكل سرور وحسن طالع الى القسطنطينية يوم الأحد قبل عيد القديس ندس .
- (١٠٦) يؤكد هذا المصادر الأخرى ، التي تذكر بأن جميع نبلاء الدولة خرجوا لاستقبال لويس ، ورافقوه الى القصر بأبهة كبيرة .
- (١٠٧) تتحدث المصادر البيزنطية عن هذه المقابلة ، وتقدم وصفا يختلف عن هذا الوصف ولها أن الامبراطور استقبل الملك لويس وهو جالس على عرشه وقدم له مقعدا صغيرا ليجلس عليه قبالة ، في حين ظل رجال حاشيته وقوا بلا استثناء ولم يسمح لهم بالجلوس أثناء المحادثات .
- (١٠٨) يوصف موقع القسطنطينية عادة على أنه رأس بحري مع أنه في الواقع مربع الاضلاع

إنما يدعى عادة بمثلث بسبب قصر الضلع القائم في الجانب الشرقي ، وطول هذا الرأس حوالي أربعة أميال ويتراوح عرضه ما بين ميل إلى أربعة أميال ويتراوح عرضه ما بين ميل إلى أربعة أميال ، وسطحه فيه عدد من التلال .

(١٠٩) من أجل أياصوفيا انظر كتاب « كنيسة أياصوفيا في القسطنطينية » تأليف و . ر . ثايب و . ها . سوين سن ، لندن . ١٨٩٤ . وقد تلا هذا العديد من الدراسات المتطورة .
(١١٠) بني القصر الكبير من قبل الامبراطور الكبير قسطنطين إلى الشرق من الهجودروم ، واستخدم مقرا رسميا للباطرة منذ ذلك الحين . وحتى أيام اسرة كومينوس .
(١١١) كان من بين النخائر المقدسة ما تعلق بالأم الصلب مثل : الحربة المقدسة ، وصليب الصليوت ، وتاج الشوك ، ومسامير الصلب ، والكفن وقطع من احجار القبر .
(١١٢) أي البوسفور .

(١١٣) هو القرن الذهبي .
(١١٤) قام هذا القصر بالاساس خارج الاسوار ، قام على هضبة بعضها صناعي لكي تخدم كدكة ترفع البناء القائم عليها ، وقد اعتنت اسرة كومنين بهذا القصر وقام الامبراطور مانويل بترميمه وتزيينه الى درجة نال فيها اسم القصر الجديد .

(١١٥) قام الامبراطور قسطنطين نظاما دفاعيا رفيعا لمينته ، فقد كان هناك أولا خندق عرضه ٦١ قدما وعمقه ٢٢ قدما فلكه دفاعية [فصيل] عرضها ٦١ قدما يليها سور أعلى متحاب ٢٧٥ قدما ، وتتراوح سماكته ما بين ٢ الى ٦٥ قدما . ثم دكة داخلية عرضها ما بين ٥٠ الى ٦٤ قدما ، ثم سور داخلي أعلى وأسمك من السور الخارجي ، وما أشار اليه اودو هنا تم بعد التخلي عن هذه الجدران والحاق ضاحية بلشرين بالمدينة .

(١١٦) جلبت المياه الى المدينة بأنابيب مرت في الخندق وتحت الاسوار وخزنت المياه داخل المدينة بخزانات جوفية كبيرة قام معظمها وسط المدينة حول منطقة أياصوفيا ، فتحت أياصوفيا وحولها يوجد مايزيد على ٥٨ من هذه المستودعات .

(١١٧) كما سجلت الرواية اوصفت ابواب المدينة في وجه الحملة الالمانية . واجبر افرادها على البقاء خارج الاسوار ، إنما بالنسبة للحملة الفرنسية فقد سمح للملك الفرنسي وبعض رجسالة حاشيته بالدخول والزيارة .

(١١٨) تذكر روايات أخرى أن لويس ذهب بعد دخوله القسطنطينية رفقة مانويل الى القصور في جنوب المدينة لمشاهدة الآثار المقدسة . لذلك كان مما يثير الإعجاب . ويأتي على شكل حجج .
(١١٩) قدمت الدراسات حول الحضارة البيزنطية أوصافا لبعض الولاثم الرسمية التي كان الباطرة يقيمونها لضيوفهم الكبار .

(١٢٠) تعود الفوضى التي اتسمت بها الحملة الفرنسية الى طبيعة تشكيلها وقيادتها ، فهي حملة متطوعين من العامة وعصابات وجماعات التفت حول بعض النبلاء . وعمل كل نبيل حسب هواه لا وفق نظام عسكري خضع له الجميع . فالنبلاء راوا في انفسهم سادة مثل الملك . ولم يعتبروا انفسهم قط ضباطا في جيش ملكي ياقوده الملك بالذات .

(١٢١) - قوات كونت موريني وكونت أوفرجنني مركيز مونتفرات

(١٢٢) - التاسع من تشرين الاول .

(١٢٣) - هذا يناقض ما سبق ذكره عن كونراد بأنه ود احتلال المدينة ، لكنه بعد تفحص دفاعاتها رأى أن ليس بإمكانه ذلك فقرر لذلك عبور البوسفور .

(١٢٤) - يرشير بهذا إلى حملة الامبراطور يوحنا كومينوس ضد ريموند مساحب انطاكية سنة ١١٤٢ - ١١٤٣ م .

(١٢٥) - يريد بهم رجال الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية .

- (١٢٦) - ذكر هذا المؤرخ السرياني فليتنظر .
- (١٢٧) - انتهت الحملة البيزنطية ضد انطاكية سنة ١١٤٤ م وقام ريموند صاحب انطاكية (١١٣٦ - ١١٣٩) وقد تأثر بسقوط الرهالزكي ، بفتح باب المباحثات مع الامبراطور البيزنطي ، وزار قبر يوحنا كوميندوس واعتذر له ، ثم اعترف بالتبعية للامبراطورية البيزنطية .
- (١٢٨) - وعد البابا يوجينديوس بخرافان نذوب جميع النين تطوعوا للحملة الصليبية « وقرروا الالتزام بتنفيذ هذه المهمة المقدسة ، والواجب الضروري بذكوى وايمان » كما بين « ان جميع الحجاج من رجال الحملة مدفوع لهم نذوبهم سواء وصلوا إلى النيار المقدسة أو ماتوا على الطريق إليها » ، وقد استخدم معارضوا فكرة الاستيلاء على الاسطنطينية وصايا البابا حجة ، وأصرروا على أن مهمتهم الأساسية هي الحج والحرب في الاراضي المقدسة ، واعتبروا كل ماسوى ذلك خروجاً .
- (١٢٩) - خشي البيزنطيون من تحالف الفرنجة مع الملك روجر ضد الاسطنطينية سيما بعد سماعهم بأن الملك لويس كان ينتظر بعض القوات المرسلة من صقلية .
- (١٣٠) - اي مانويل .
- (١٣١) - أن يكون الاغريق نشروا هذه الاشاعات فامر معقول ، ومهم هنا يمكن أن نلاحظ أنهم مزجوا فيها أن الفرنجة راغبين في التخلي عما يحتلونه للامبراطور الاغريقي ، وواضح أن هذا الجزء من الخبر من صنع اغريقي ، ولا شك أنه جعل الفرنجة غير واثقين بالبقاء على مقربة من الجيش الامبراطوري البيزنطي ، وفيه إيهام بخلفيات عدم التعاون بين الامبراطور الألماني والامبراطور البيزنطي ، ومفيد هنا أن نشير إلى أن وليم الصدوري اعاد في تاريخه (الترجمة الانكليزية) ٢ / ١٦٩ بأن هذه الاخبار راجت بعدما وقعت الهزيمة بالألمان فهل ياترى لم يفهم أودو الاخبار على جليتها فسجلها هكذا ؟ .
- (١٣٢) - في ١٦ أو ١٧ تشرين أول .
- (١٣٣) - يستدل من رسالة لويس إلى سوكر والتي بحث بها من الاسطنطينية انه وصل إلى هذه المدينة يوم ٤ تشرين أول ، وحيث أنه بدأ زحفه في اسية الصغرى يوم ٢٦ من الشهر نفسه فهو على هذا اقام مع اتباعه عشر يوماً في الضيافة الرسمية وثم خمسة أيام على الشاطئ قبل العبور منتظرا القادمين من عند الملك روجر من صقلية ، ثم خمسة أيام أخرى على الشاطئ الاسيوي بعد العبور ، ومن ثم انطلق في الحملة .
- (١٣٤) - اختلف في تحليل هذه العبارة وتفسيرها ، فالبعض قال إن معناها ثروات أو كنوز والبعض قال هي مجرد عبارة للآثارة وجمع الجمهور وتحريضه .
- (١٣٥) - هو ثيوبولد كونت فلاندرز من ١١٢٧ إلى ١١٦٨ ، كان صاحب مكانة كبيرة في اوروبا ، وكانت مشاركته في حملة ١١٤٨ احدى رحلاته الأربع إلى الشرق ، وسيرد ذكره ثانية في مسألة حصار دمشق كما رواها وليم الصدوري .
- (١٣٦) - في هذا شاهد على ضعف لويس وعدم تمكنه من فرض أي نوع من الانضباط على جيشه ، ولا شك أن كرمه وانفاقه دعاه إلى طلب المال بشكل دائم من مملكته وهذا واضح في رسائله لسوكر .
- (١٣٧) - كان الامبراطور البيزنطي يرتدي ثياباً أرجوانية مسطرزة بالخيوط الذهبية ومحلاة بالجواهر ، وكان يعتبر نائباً للمسيح وممثلاً له على الأرض ، مقدساً مثل اكبر الرهبان وكانت جميع حركاته وتصرفاته رسمية طقوسية ، لهذا دعاه أودو الوثن، متخيلاً أن الاغريق كانوا يعبدونه .
- (١٣٨) - الكتاب المقدس المزامير : ٥٨ / ٤ .
- (١٣٩) - امايدوس الثاني بن همبرت الثاني كونت موريين ، أمه جيزيل صاحبة بيرغندي ، نهب

إلى إيطاليا رفقه الامبراطور هنري الخامس في سنة ١١١١ ، وعين هناك كونتاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وعلى الرغم من عباوته مع أدولفيا أميرة سافوي التي أرادت الاستيلاء على أراضيها ، كانت علاقته بأبن أخوته لويس السابع جيدة ، وقد توفي أثناء الحملة الصليبية في نيقوسيا في قبرص في ١ - أيار ١١٤٨ م .

(١٤٠) - هو وليم الثالث ابن رينير مركيز مونتهفرات . أمه جيزيل صاحبه بيرغندي ، كان من أشد أعوان كونراد الثالث وفردريك الأول ، وهو والد وليم صاحب السيف الطويل ، وجد بلدوين الخامس ملك القدس .

(١٤١) - هو وليم الثالث كونت أولفيرن من ١١٤٥ وحتى ١١٥٥ . وقد طرد من منصبه هذا من قبل عمه وليم التاسع ، فأتخذ لقب وليم الأول ولي عهد أولفيرن وكونت بنوي ، وقد توفي سنة ١١٦٩ م .

(١٤٢) - من المعتقد أن الامبراطور آخر تقديم مطالبه للحملة الفرنسية حتى ما بعد جواز معظم رجال الحملة ووصول هذه البقية التي أخرجها قدامتها في البر الأوربي وعدم عبورها مستخدماً أفرادها كرهائن .

(١٤٣) - روبرت الأول كونت ديريوكس ١١٣٢ - ١١٨٤ ، وقد حمل أيضاً لقب كونت بيرش لزواجه سنة ١١٤٤ من هارفس أميرة الفريوكس وأرملة كونت بيرش ، وقد كان الابن الثالث للويس السادس .

(١٤٤) - من المعتقد أن رفض الملك لويس مطلب الإمبراطور بالتحالف ضد روجر الغضب مانويل وجعله لا يرسل الأدلاء ويوقف أمانات القموين .

(١٤٥) - من الواضح أنه يريد ما جاء في الفقرة الأخيرة من الاصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس التي جاء فيها : « أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة » .

(١٤٦) - استعاد الامبراطور الكسيوس بمعونة الفرنجة : نيقية وساحل الأناضول الجنوبي والغربي حتى أنطاكية مع أماكن أخرى .

(١٤٧) - اعتمدت بيزنطة على المرتزقة في جيوشها منذ فترات قديمة في تاريخها .

(١٤٨) - هذه غلطة جغرافية فالطرق الثلاثة في نيقية وليس في نيقوميديا .

(١٤٩) - أوضح الملك الألماني كونراد لواحد من تيلاته سبب أخذه هذا الطريق بأنه يرغب في إنجاز الحملة بسرعة ولهذا تبني طريقاً مباشراً بين الجبال له الأدلة عليها .

(١٥٠) - ذكرهم وليم الصدوري : ٢ - ١٧٣٤ وعد منهم فردريك صاحب سوابيا وغيره .

(١٥١) - تتشابه رواية أودو هنا مع رواية وليم الصدوري ٢ - ١٦٨ - ١٧٢ ، فكلاهما يضع اللوم على الدليل الاغريقي ويرويان خبر فراره وخيانتة ، وفي روايات أخرى ، أكثر قبولاً نجد العقائق التالية : كونراد اختار الطريق الجبلي لقصره لأنه أراد إنهاء الحملة بأقصى سرعة ، فهو إذا الذي اختار وليس الدليل قام بقيائه ، ثم كان الألمان قد جمعوا ماتيسر لهم من المؤن وليس كمية محددة لأيام محدودة ، فهذا مرفوض أصلاً ولم يحدث ، هذا وقوات التركمان كانت هناك ترصد التحرك الصليبي وتنتظر الفرصة للانقضاض على الحملة معتمدة على ذاتها وليس على دليل بيزنطي ، هذا ولم تقم الحجة أبداً بأن الدليل غادر المعسكر الألماني .

(١٥٢) - تشير مصادر أخرى بأن فرسان الألمان حملوا على التركمان ، فتظاهر هؤلاء بحسب عادتهم بالفرار واستدرجوا الفرسان إلى مسافة كافية مكنت من فصلهم عن الرجال ، واتعبت خيولهم ، ثم انقضوا عليهم ففككتهم بهم أيما فكك . ولا شك أن هذه الواقعة أو بالحري المواجهة الأولى مع عدو سمع عنه الألمان في السابق وراوه رأي العين بهذه الصورة المربعة كانت دافعا نحو اتخاذ قرار التراجع .

- (١٥٣) - انظر العبرانيين في العهد الجديد ٩ / ٦٠ .
- (١٥٤) - ذكر الملك كونراد في رسالة له ، بأنه حزن كثيرا لموت شعبه وقام ببناء على طلب جماعي من امرائه ونبلاته بقيادة جيشه باتجاه البحر حيث يهتكه إغاة تنظيحه ، واعداده مفضلا بذلك إبقاء قواته سليمة لمواجهة الأحداث الكبار بدلا من اضعافها في معارك ضد الرماة التركمان ، فحسب نصر من هؤلاء كان سيكلف الألمان الكثير من الدماء .
- (١٥٥) - كونت برنارد صاحب بلوتز كان من أصل سكسوني ، لانملك الكثير من المعلومات حوله .
- (١٥٦) - حض البابا يوجينوس في رسالته إلى الملك لويس على أن يلاحظ الملك بنفسه أن رجاله سلحوا أنفسهم فقط بالسيوف والخيول وبقيّة التجهيزات التي يمكنهم أن يقاتلوا أعداءهم بها ، وبعدم ارتداء الملابس المزركشة الفاخرة واصطحاب الكلاب والمقصور وبقيّة الأشياء التي تستخدم في أوقات المتعة لآل أوقات الحروب .
- (١٥٧) - جرح الامبراطور كونراد برأسه وقد أقعده هذا فترة طويلة .
- (١٥٨) - ربما يوم ٢ أو ٣ تشرين ثاني .
- (١٥٨) - توهي عبارة ، حسبما قيل لنا ، بوجود عنصر المبالغة .
- (١٦٠) - في الوقت الذي أيد فيه وليم الصدوري : ٢ / ١٧٣ رواية أودو هذه نجد المصادر الألمانية لاتأتي على ذكر الرسل ولا طلب المعونة من لويس على أساس أن كونراد لم يكن بمكانة لويس .
- (١٦١) - قدم لويس وباروناته لكونراد المال والسلاح والمتاع .
- (١٦٢) - ربما انتقاما لأعمال النهب والسلب التي قام بها الفرنجة
- (١٦٣) - العبارة بين حاضرتين جزء من الفقرة الرابعة من الاصحاح الاول من سفر يوشيا من العهد القديم ونصها كما في الترجمة العربية فضله القمص أكلها الزحاف وفضله الزحاف أكلها الفوغاء وفضله الفوغاء أكلها الطيار . ولعدم انسجام هذا النص مع المعنى أثرت ترجمة الفقرة وعدم الاعتماد على النص المترجم لثباته .
- (١٦٤) - بعيد ١١ تشرين ثاني .
- (١٦٥) - ادعت رهبانية القديس نيدس حق ملكية ايسلنجين في سسوايبا وايسستوسين (كونجسبرغ) في الألزاس ، لأن فولارد الأب الرابع عشر للرهبانية كان قد بنى فيهما ديرين .
- (١٦٦) - هو الامبراطور فريديك الاول (١١٥٢ - ١١٩٠) م .
- (١٦٧) - انظر المزامير في العهد القديم - المزمور ٢٣ / ٥ حيث جاء : ترتب قدامي مائدة تجاء مضايقتي ، مسحت بالزمن رأسي ، كأس مرياء .
- (١٦٨) - أي أنه اختار الطريق الساحلي ، بدلا من السفر مباشرة إلى فيلادلفيا .
- (١٦٩) - يستخلص من هذا رغم المبالغة والصيغة العدائية للاغريق أن الاسطول البيزنطي كان يماشي الحملة على طول الطريق الساحلي مزودا اياها بالذئب .
- (١٧٠) - المشهور عن افسوس وهي في كتب العرب الاولى (عرب سدوس) أنها تحتوي على جماعة أهل الكهف ، وعند وليم الصدوري كما سنرى قبر الرسول يوحنا .
- (١٧١) - يرى بعض المؤرخين بأن التركمان ، وقد شجعهم نصرهم على الألمان حشدوا قواهم للتصدي للفرنجة ، وأنهم ربما قد تلقوا بعض التسهيلات من السكان الاغريق المحليين الذين ودوا الانتقام من الفرنجة لما قاموا به في ديارهم من سلب ونهب .
- (١٧٢) - هو واد قريب من افسوس .
- (١٧٣) - يذكر الامبراطور كونراد في رسالة بعث بها إلى واحد من نوابه ، بأنه وصل إلى افسوس دونما صعوبات تذكر وأنه قرر الاحتفال بعيد الميلاد هناك ، غير أنه مرض مع عدد من أتباعه وعجز بذلك عن متابعة السير مع الملك لويس ، علما بأن الملك الفرنسي انتظره ماهية الكفاية ، وعندما علم الامبراطور البيزنطي بمرضه جاء لرؤيته مع الامبراطورة على جناح السرعة ، هذا ويرى بعض

- ٣٤٨٢ -

في المؤن بالنسبة للأعداد الكبيرة من الناس التي وصلت إلى هناك ، ونتيجة لذلك مات عدد كبير ممن ظل حيا من العساكر ، وهلك معظم الفقراء من الناس بسبب المجاعة .
(٢٠١) - أي الزحف على طريق الحملة الأولى .

(٢٠٢) - لا شك في صحة المناقشات التي قامت ، وهي تعكس مدى الضعف الذي ألم بسلاح الفرسان ، والحد الذي بلغته كراهة الفرنجة للبيزنطيين ، هذا وقد أشار الملك لويس إلى هذه الأوضاع والمناقشات وانصياحه لقراراتها في رسالة بعث بها إلى سوكر قال فيها : بأنه تمت مناقشة مسألة متابعة الرحلة من قبل مجلس النبلاء ورجال الكنيسة ، وأن المجلس تعنى عليه ركوب الماء إلى أنطاكية لعدم توفر مايكفي من الخيول ولضعوبة المتبقي من الطريق ، وأنه قبل برايهم فوصل أنطاكية يوم ١٩ آذار .

(٢٠٣) - العهد الجديد رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ - ٢٦

(٢٠٤) - جاءت هذه الفقرة حول السفن متناخلة غير واضحة المعاني والمقاصد فلعل المقصود أن بعض الفرنجة استأجر بعض السفن والبعض الآخر ابتاع لنفسه مركبا أو أكثر ، وهذا حال الملك حيث يستخلص أنه ابتاع عددا من المراكب قام بتوزيعها على النبلاء ورجال الكنيسة .
(٢٠٥) - أي عن طريق أسعار الاطعمة والحاجيات الأخرى التي كانت في غاية الارتفاع .
(٢٠٦) - دقة لويس وتردده سببا الارتباك الشديد لأعماله ، وعرض حملته في الحل والترحال إلى المزيد من المخاطر .

(٢٠٧) - لأنه اقترح اعتماد الطريق الساحلي بدلا من السفر مباشرة عبر فيلادلفيا

(٢٠٨) - كذا وسبق التعليق أكثر من مرة على هذه الآراء والمواقف .

(٢٠٩) - أن يخاف الملك لويس عدم تنفيذ هذه الاتفاقات فأمر بسببهم ، لكن مصادرتهم لأنطاكية وتركه لاتباعه في مثل تلك الظروف يعد نوعا من الهروب والتخلي عن المسؤولية رغم ما يقال ، ماذا كان بإمكانه أن يعمل أكثر مما عليه لجيش ممزق ضعيف فاقد المعنويات قليل المؤن والمعدات ؟ إنها المسؤولية وقت الضيق والحاجة الشدة .

(٢١٠) - لا شك أن أودو قد غادر أنطاكية مع الملك لويس ، فهو على هذا لم يشهد هذه الأحداث ، وحيث أنه لم يذكر مصادره يفترض أن يكون كونت فلاندرز ورئيس أساقفة بوربون هما مصدره .

(٢١١) - من الواضح أن الوباء حل بالمدينة نتيجة الأمراض التي كانت منتشرة بين الصليبيين ،

وهم اتهم به أودو سكان المدينة من أنهم نشروا جثث المرضى والموتى حول الفرنجة لايقبله العقل فسكان المدينة لم يكونوا من الحماسة إلى درجة يجلبون بها الموت لأنفسهم ، ولعل حصرهم للفرنجة في مكان منعزل مرده إلى درجة قضية الأمراض هذه .

(٢١٢) - يبدو أن أودو امتطى ظهر سفينة الملك ، ووصل إلى أنطاكية بعد ثلاثة أيام فمعلوماته عن سفن الملك فيها ما فيها ذلك لأن الملك لويس وصف في إحدى رسائله الرحلة بأنها كانت مريحة .

حواشي - من تاريخ أعمال أنجرت فيما وراء البحار

- (١) - تدعى هذه الحملة عادة اسم الحملة الصليبية الثانية ، وكان يوجينينوس الثالث مثله مثل برنارد راعي بير كليرفو داعيا لها بذفس المرتبة القيادية التي تمتع بها رؤساء دير كلوني بالنسبة للحملة الأولى ، ويعزى لآندريس برنارد الفضل في إقناع كل من كونراد ولويس السابع للتطوع في هذه الحملة ، رغم نصائح وزرائها لهما بعدم التطوع ، ولقد أطلق يوجينينوس الثالث دعوته الأولى لهذه الحملة في كانون الأول ١١٤٥ م ، وكرر هذه الدعوة أثار ١١٤٦ م .
- (٢) - قام هذا الحكم على نتائج الحملة لا على أخطاء اقترفت أثناء الإعداد لها .
- (٣) - يقدم وليم هنا رواية رواية مختصرة جدا لرحلة كونراد حتى القسطنطينية بالمقارنة مع الروايات الأخرى المبكرة حول هذه الحملة التي يبدو أنها أعدت إعدادا أفضل من الحملة الأولى ، وواجهت مشاكل أقل ، وكان أوتو أسقف فريزنج قد رافق كونراد في رحلته ، وكتب وصفا للرحلة ، الرواية التي يبدو أن وليم لم يطلع عليها .
- (٤) - لم تكن العلاقات بين مانويل وكل من كونراد ولويس السابع بذفس درجة البساطة والوفاء حسبما وصف وليم ، وهذا واضح في رواية أودو ، كما يروى أنه سبق لكل من الملك الفردي والامبراطور الألماني أن راسل مانويل وتبادل معه الوفود ، ومنذ اتخاذ قرار القيام بحملة صليبية ، وعندما أصبحت على مقربة من القسطنطينية كان لدى مانويل من القوات العسكرية أكثر مما كان لدى الكسيوس كومينوس أيام الحملة الأولى ، وذلك أن مانويل كان داخلا في حرب ضد روجر صاحب صقلية ، كما أنه كان كان لتوه قد تملك ميليشيا في أسية الصغرى ، وكان مجرد وصولهما إلى شرقي أسية الصغرى سيهدد ذلك .
- (٥) - في هذا الجمع خالفت اليعاقبة سائر النصارى . انظر كتاب التنبية والاشراف للمسمودي ط . القاهرة ١٩٣٨ ص : ١٢٩ - ١٣٠ .
- (٦) - يشك بعض الأوروبيين بهذه الأرقام ويرونها عالية
- (٧) - انظر التنبية والاشراف : ١٢٢ - ١٢٣
- (٨) - يرفض بعض المؤرخين هذه التهم بالخيانة ، وأوضحوا بأن مانزل بجيش كونراد كان نتيجة الضعف الذي لحق بهذا الجيش بسبب الجوع والعطش
- (٩) - الكتاب المقدس - الزامير ١٠٧ ، ٤٠
- (١٠) - يبدو أن هناك بعضا الأسس لهذه النظرية حول التنافس والغيرة ، فمن الملاحظ أن عدم اتفاق الامبراطورين حول من الذي ينبغي دعوته بهذا اللقب ، يوم وصول كونراد إلى القسطنطينية قد خلق صعوبات جمة وسبب مضايقات فعلية .
- (١١) - كان وليم آنذاك في الثامنة عشرة من عمره ، ولعله تحدث مع بعض الذين نجوا ووصلوا إلى القدس حيث لقيهم فيما بعد ، هذا وينبغي تصحيح تساريخ الحملة ليه إلى ٢٦ ، تشرين أول ١١٥٧ ، أما النسبة التي يقدرها حول عدد الموتى والأحياء فهي صحيحة إلى أبعد الحدود .
- (١٢) - سيكون هذا فريديريك بربروسا ملك ألمانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ١١٥٢ - ١١٩٠
- (١٣) - لا شك أن اختلاف اللغة والطباع والعادات كان له أثره على كونراد الذي شكك من أكرض ، وحدث أن جاء مانويل تصعبه زوجته إلى أسدوس ، حيث كان كونراد فيها ، ووجهها الدعوة إليه للعودة معها إلى القسطنطينية حيث أشرف على الاعتناء به بذفسه .

(١٤) - خطبت بيريا أميرة سولز إلى مانويل سنة ١١٤٢ قبل وفاة الامبراطور جيون وقد غير اسمها إلى ايرين ، وتطبعت بالطباع الاغريقية ، وتدرت قبل زواجها سنة ١١٤٦ م
(١٥) - يلاحظ أن معلومات وليم حول الجيش الفرنسي اكمل وأصح منها حصول الجيش الالمانى ، الذي كانت قطعة منه تحت قيادة أوتواسقف فريزنغ قد تقدمت الجيش الفرنسي على هذا الطريق ولاقت مثله ضربة قاصمة .

(١٦) - كنا والصحيح ١١٤٨ م

(١٧) - وصل يوم ١٩ آذار ١١٤٨ م

(١٨) - هي اليانور أميرة أكوئين صاحبة الشهرة الواسعة في تاريخ كل من فرنسا وانكلترا وقد تمت خطبتها إلى لويس بفضل جهود سوكر رئيس اساقفة دير القديس بيذس الذي كان من الناحية العملية اشبه برئيس وزراء مملكة فرنسا ، ذلك انه توقع وفاة وليم العاشر دوق أكوئين دون وريث ذكر ، وأمل انه من خلال هذا الزواج سيزيد من رقعة المملكة . وحدث أن توفي وليم العاشر أيام الزواج .

(١٩) - ينبغي التنبيه إلى أنه عندما كتب وليم هذا كله كانت اليانور قد انفصلت عن لويس السابع منذ زمن طويل وأخذت منه ميراثها ، وأعطته إلى هنري الثاني ملك انكلترا ، وحدث التساعد بين اليانور ولويس عقب عودتهما من الرحلة الصليبية ، فلقد اختلفت طباعهما تماما ، فهي كانت امرأة اجتماعية تحب البهجة ، على عكس لويس الذي كان تلقيا يعيش حياة روحية صافية ، ولقد تمتعت اليانور بالحياة الاجتماعية في الشرق وأعجبت بها ، وخاصة في القسطنطينية وانطاكية ولاندرى فيما إذا كانت علاقاتها الاجتماعية قد جرتها إلى جوانب أخرى ، ذلك أن المصادر الفرنسية تنال منها واعتانت الحديث عن اقترانها العديد من الآثام ، كما حاكمت الاساطير حول مفسامراتها العاطفية مع عدد من الشخصيات إلى حد جعلت صلاح الدين واحدا منهم ، علما بأن صلاح الدين كان آنذاك ابن عشر سنوات ، ولاشك أن مصادر وليم هنا حولها كلها فرنسية .

(٢٠) - وصل كونراد إلى القدس حوالي منتصف الاسبوع الثاني من نيسان ١١٤٨ .

(٢١) - يوحي هذا العرض التحليلي بمدى الضعف الذي ألم بالملك اللاتينية ، ويلاحظ هنا أن

وليم يبين ذلك ، مادامت المحصلات لصالح مملكة القدس .

(٢٢) - كان أوتواسقف فريزنغ ، أعظم المؤرخين الالمان في القرن الثاني عشر ، أخا لكونراد الثالث من أمه ، ذلك أن أم كونراد تزوجت بعد وفاة أبيه من أمير النمسا ، وكان أوتو من أسرة كبيرة جدا ، وقد وجه لدراسة اللاهوت ، وأنهى دراسته في باريس ثم توجه نحو حياة الرهبنة والانعزال ، وصار فيما بعد رئيسا لأحد الأديرة ثم انتخب أسقفا ، وقام بمرافقة كونراد في حملته وكان مسؤولا عن إحدى الفرق العسكرية أثناء عبور أسية الصغرى ، ويتصدر كتاباته التاريخية كتابا التاريخ ، وأعمال فردريك الاول ، وهما يحويان اشارات ضئيلة ، إنما مفيدة لما جرى أثناء الحملة الثانية

(٢٣) - كما اعترف وليم هنا فإن لائحة الاسماء الالمانية غير كاملة ، لذلك حاول بعض الكتاب اكمالها .

(٢٤) - إن شدة معرفة وليم بأخبار الفرنسيين يرجع أنه اطلع على بعض المواد والمصادر الفرنسية خاصة كتاب أعمال لويس ، هذا ويرى بعض المؤرخين العكس ، وأن صاحب كتاب أعمال لويس ، استقى معلوماته من كتاب وليم الصوري .

(٢٥) - لم يذكر وليم الصوري في هذه اللائحة شبه التامة التي تضمنت شخصيات مملكة القدس ، رالف العاجب الملكي الذي حاز على هذا المنصب دون موافقة رسمية من البابا ، ويثير هذا الأمر سؤالا هاما وهو هل كان وليم - الذي كان تلميذا لاهوت آنذاك وفي الثامنة عشرة من عمره - بين

- ٣٤٨٥ -

الحضور شخصيا ، إنه امن المؤسف أنه لم يوافنا بالمزيد من التفاصيل حول المناقشات التي دارت في الاجتماع وذلك لعلاقة ذلك بالأحداث التي ستقع فيما بعد .

(٢٦) - ينبغي جعل السنة ١١٤٨ م ، فذلك هو الصواب ، ولاندرى مرد هذا الوهم إلى الناسخ أم إلى المؤرخ وليم الصوري ؟

(٢٧) - الكتاب المقدس - اشعيا ٧ ٨ وفيه « لان رأس ارام دمشق » . وتمسكت بما جاء بالمتن .

(٢٨) - كذا وهذا مجرد وهم من اوهام العهد القديم ، وبالنسبة لم يتفق العلماء حول اصل واشتقاق كلمة « دمشق »

(٢٩) - كذا وهذا مجرد اختراع فابن القلاسي الذي كان موجودا داخل داخل المدينة وتحدث عن القتال حول النهر لم يذكر شيئا من هذا القبيل ، في حين روى سبط ابن الجوزي في مراة الزمان ، ٢ ١٩٨ - ١٩٩ « وكان مع الفرنج قسيس كبير طويل الحية يقتدون به ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق فركب حمارة وعلق في عنقه صليبا وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حمارة صليبا ، وجمع بين يديه الاناجيل والصليبان والكتب والخيالة والرجالة ، ولم يتخلف من

الفرنجة احدا إلا من يحفظ الخيام ، وقال لهم القسيس ، قد وعدني المسيح انني افتح اليوم وفتح المسلمون الابواب واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوما لم ير في الجاهلية والاسلام مثله ، وقصد واحد من دمشق القسيس ، وهو اول اليوم فضربه فابان رأسه وقتل حمارة ، وحمل الباقيون ، فانهزم الفرنج ، وقتلوا منهم عشرة الاف ، واحرقوا الصليبان والخيالة بالذلف ، وتبعوهم إلى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فأصبحوا قد رحلوا ولم يبق لهم أثر . »

(٣٠) - الكتاب المقدس - المزمير ٦٦ ٥ .

(٣١) - انظر ماكتبه ابن القلاسي بين النصوح العربية لكتابي الحروب الصليبية .

(٣٢) - جاء في مراة الزمان ٢ ١٩٨ « وكان زمان الفواكه ، فنزل الفرنج الوادي ، فأكلوا

منها شيئا كثيرا فأخذت اجوافهم ، ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون . »

(٣٣) - يوضح هنا وليم إحدى طرائقة الفضلة في جمع المعلومات ، ويلاحظ عدم استعداده لتقبل رواية واحدة حول الموضوع حتى في حال تبنيه موقف ما ، وجاء إخفاق هذه الصلة بمثابة ضربية قاسية لجميع التوقعات التي عاشتها أوربا وأرادتها منها ، ليس بسبب انها قيدت من قبل إثنين كانا أعظم ملوك أوربا ، وإنما لان برنارد أسقف كليرفو كان الداعية لها والبشر بنجاحها ، وكان برنارد قد اعتبر قدسيا ، لذلك كان من غير الممكن عزو اسباب إخفاق هذه الحملة لغير عمل خياني ، وهو شعور تبناه وليم وعبر عنه .

(٣٤) - زار ثيودور أو ثيري كوتت للاندروز الاراضي المقدسة على الأقل ثلاث مرات (١١٣٧

و ١١٤٨ و ١١٥٧) ورافقه في كل مرة قوة معتبرة قامت ببعض الاعمال القتالية لصالح الدول اللاتينية ، وربما قاد هذا إلى الاعتقاد بـ————— طعنه إلى امتلاك

مناطق لنفسه ، وعلينا هنا ان نأتي على ذكر زوجته سيبيللا ذلك أنها كانت ابنة الملك فولك واختا للملك الشاب بلودين الثالث ، وتبعنا لبعض المصادر فإنها دخلت أخيرا إلى الدير في الاراضي المقدسة ، هذا ولا توجد أسس لهذه التهمة ، وهي على كل حال تعكس مشاعر الشك التي حملها نبلاء المشرق تجاه نبلاء الغرب

(٣٥) - يبدو ان هذه التهمة اسطورية مختلفة ، وقد قام بعض الرواة بدمسية إيلي ناندوس أو هيلي ناندوس صاحب طبرية على أنه كان هو الشخص المتهم ، وأنه تسلم مبلغ ٥٠ الف دينار ذهبي من أهل دمشق ، ثم اكتشف بأنها مزيفة ، ولابد هنا من أن يسجل لوليم عدم اقدامه على ذكر المتهم ، واكتفائه بعرض الرواية .

(٣٦) - أخذ بعض الكتاب المتأخرين بثمة الخيانة هذه والصقوها بالاسبتارية والداوية وحتى بالملك بلدوين الثالث ، وذلك بالإضافة إلى العناصر التي ذكرها وليم هنا ، وقالوا بأن هؤلاء مجتمعين أو أفرادا حملوا مسؤولية إخفاق عملية حصار دمشق مع الحملة الصليبية الثانية ، هذا وينبغي أن نلاحظ هنا بأن تعداد الجيش الصليبي لم يكن كبيرا جدا ، ويبدو أن تعداد ذوي المراتب القيادية فيه فاق تعداد الافراد ، الذين فقد أكثرهم حياته على الطريق في أسية الضمير بعد أن تخلفوا في انطاكية وسواها ، يضاف إلى هذا كله ما ذكره ابن القلاسي من القدرات لأهل دمشق ومن

النجادات إليها من جميع المناطق من : الموصل وحلب وحران وبعلبك ، هذا ويمكن أن نضيف هنا أن من أسباب تحول المعسكر الصليبي من مكانه - إذا كان قد تحول - انتشار الأمراض بين صفوف أفرادهم مع عدم مناسبة البقعة لمناورات الفرسان الصليبيين ، هؤلاء كانوا يستطيعون القتال فقط في الأماكن المكشوفة ، وليس بين الأشجار ، وابن القلاسي يذكر محاولة الفرسان القيام بهجومهم المعتاد وعدم تمكنهم من ذلك .

(٣٧) - الكتاب المقدس - أيوب ٣٠ - ٣١

(٣٨) - توفي كونراد الثالث سنة ١١٥٢ م ، وقد خلفه - كما أشار وليم وأشرنا من قبل - ابن أخيه فردريك بربروسا الأول الذي حكم حتى سنة ١١٩٠ م

(٣٩) - عاد لويس إلى فرنسا في صيف عام ١١٤٩ ، وهناك بذل سوكر راعي دير القديس ديزس ، الذي كان بالأصل صاحب مشروع الزواج ، جهده لمنع افتراق الزوجين المتباعدين ، ونجح في مساعده هذا حتى تاريخ وفاته سنة ١١٥١ م ، ففي بداية ربيع عام ١١٥٢ م ، حدث الطلاق بعدما أعلن لويس بأن الزواج باطل بسبب القرابة ، وكانت اليانور مرغوبة من عدد كبير من الراغبين وذوي المطامح ، وخشية اختطافها وحجزها فرت ، وأقدمت على اختيار هنري كونت أنجوا زوجها لها ، وتزوجته بعد فراقها للويس بقرابة الشهر ، وفي سنة ١١٥٤ م صار هنري ملكا على انكلترا ، وبتحكيمه بميراث اليانور صار أيضا ملكا على حوالتي نصف فرنسا .

(٤٠) - لم يكن اسمها مارييا بل كوندستانس ، وهي ابنة ألفونسو السابع الذي تميز بين ملوك ليون وكاستيل باللقب ، الامبراطور ، فقد تو - امبراطورا على اسبانيا عام ١١٣٥ م بحضور عدد كبير من الأمراء الاسبان من نصارى ومسلمين ، هذا ويفيد أن تشير هنا إلى أن عددا من الملوك الذين سبقوه ادعوا هذا اللقب ، لكنه لم يعلق بواحد منهم ، وألفونسو السابع هو الوحيد الذي علق به هذا اللقب ، واستمر معه .

(٤١) - أخفق وليم في ذكر الهجوم السابق على قلعة العريمة في طرابلس وحسب المؤرخين العرب ، دعا ريمون الثاني صاحب طرابلس نور الدين وأنر اللذان كانت قواتهما قد اتحدت عندما أتى الأول لنجدة دمشق ، لمهاجمة هذه القلعة ، التي كانت تحتفظ بها أرملة ألفونسو صاحب طلولز وأحد أبنائه ، وخاف ريموند من مطالباتهم بإمارته ، واستولى نور الدين وأنر على القلعة ونقلوا معها برترام ووالدته أسيرين ، وحدث هذا بعد وقت قصير من التخلي عن حصار دمشق (ستيغندسون - الصليبيون في الشرق ص ١٦٤) .

(٤٢) - كانت حملة نور الدين في منطقة انطاكية التي تمت في أواخر عام ١١٤٨ حملة غير ناجحة وحقق ريموند صاحب انطاكية بالفعل انتصارا على جزء من جيش نور الدين .

(٤٣) - حدثت هذه الكارثة في ٢٩ حزيران من عام ١١٤٩ ، وأتبسح نور الدين الانتصار بحصار الهامة التي استولى عليها في ٢٦ تموز .

(٤٤) - كانت كوندستانس امرأة في ريعان الشباب في الثانية والعشرين من عمرها تقريبا عند وفاة زوجها (ستيغندسون - الصليبيون ص ١٦٥)

(٤٥) - كان أيمري ، الذي لم يكن وليم قد وافق على انتخابه ، متورطا بمشاكل مع البياوية في هذا الوقت ، ومع ذلك ، فإن المساعدة التي قدمها في هذه الظروف كانت مساعدة مفيدة .

(٤٦) - كان مسعود هذا هو ابن فلج أرسلان الذي حكم سلطنة سلاجقة الروم أو قونية من عام ١١١٦ وحتى عام ١١٥٦ .

(٤٧) - ينهي تحديد تاريخ زيارة بلدوين الثالث وجوسلين بالجزء الأخير من عام ١١٤٩ .

(٤٨) - هوراس - الامثال : ١ / ١٨ / ٨٤

(٤٩) كانت بعض قوات نور الدين قد أسرت جوسلين الثاني ، وحسب الروايات العربية فقد بقي في السجن في حلب لمدة تسعة أعوام حتى زمن وفاته ، وأجبر على تحمل أعمال التعذيب المتعددة الأنواع ، ويرجع ابن القلاذسي تاريخ أسيرة إلى ٥ أيار عام ١١٥٠ (تاريخ دمشق ، ص ٣٠٠) .

(٥٠) - لابد أن يكون تشييد هذه القلعة قد حدث في شتاء عامي ١١٤٩ - ١١٥٠ وحسب رواية ابن القلاذسي كان الملك مايزال منشغلا في ذلك العمل عندما استدعته دمشق للمساعدة على صد هجوم نور الدين على تلك المدينة وكان أثره قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ ، وكان هطول الأمطار الغزيرة بشكل غير اعتيادي في شهر نيسان وقدم بلدوين الثالث قد ثبطا من شجاعة نور الدين في هذا الوقت إلى درجة أنه وقع معاهدة سلام مع دمشق في ١ / أيار من عام ١١٥٠ .

(٥١) - يؤكد وليم في روايته أن الحامية تغيرت ثلاث أو أربع مرات في العام ، مع أن السياسة الثابتة للمصريين كانت قائمة على تغييرها مرتين في العام ، وحدث الاختبار الجدي الأول لهذه القلعة في عام ١١٥٢ . وربما كان هذا في ذهن وليم لئلا (جب . تاريخ دمشق ص ٣١٢) .

(٥٢) - بلغ بلدوين الثالث سن الحادية والعشرين من عمره في عام ١١٥١ ، وكان سن الخامسة عشر هو السن القانوني الذي يستطيع عنده الملك أن يحكم في القدس ، ولابد أن بلدوين الثالث قد أصبح خبيرا جدا تحت حكم والدته وكافل المملكة المتمكن لكن الاشعبي ، ولربما بدأ من المعقول توقع حدوث هذه المشكلة في عام ١١٥١ مع أن روشيت قد وضعها في العام اللاحق .

(٥٣) - أثارت أحداث عام ١١٤٩ انتباه الامبراطور مانويل . وبدا الموقف بأنه يقدم فرصة غير عادية لتحقيق المطالب السلافية للمنطقة ، لذلك لم يكثف بتعزيز جيشه في الجوار ، بل استعد أيضا لتوسيع مصالحه في كل من الرها وانطاكية ، ويجب إعادة تاريخ التحولات المدونة هنا إلى عام ١١٥٠ (انظر ف شالدون - آل كوميني : ٢ / ٢ - ٤٢٤ - ٤٢٥)

(٥٤) - هنالك تشوش ذهني بسيط هنا . فقد جرى تعيين همفري صاحب تيرون كافلا للمملكة من قبل بلدوين الثالث عندما اذفرده بالحكم لوحده في عام ١١٥١ أو عام ١١٥٢ ، في حين أن تحويل حصون الرها إلى عهدة الاغريق قد حدث في عام ١١٥٠ ، ومن المؤكد أن همفري أوف تيرون كان مع بلدوين لكنه لم يكن قد أصبح بعد كافلا للمملكة .

(٥٥) - صحيح أنه تمت خسارة الإقليم على الفور ، غير أن مسعود استولى على معظمها في الأعوام الثلاثة أو الأربعة اللاحقة . وحصل نور الدين على كثير منها بعد وفاة مسعود في عام ١١٥٥ أو ١١٥٦ .

(٥٦) - كان وولتر دي فولكبيرغ أحد أفراد الأسرة المشهورة من حكام قلعة القدس أوامر وكان هو واحدا منهم ، وقد كان صاحب طهيرة للثاني (ر . غروسيه - تاريخ مملكة الفرنجة في القدس ٣٠ - الملحق أو انظر أيضا الحاشية ٤٠) .

(٥٧) - كان الامبراطور مانويل معها تماما في جعل كوندستازس لقب زوجها مناسبا كما كان بلدوين الثالث هنا ووقع اختياره على شخص اغريقي يدعى القيص يوحنا ، وهو أخو زوجته (شالدون - آل كوميني : ٢ / ٤٢٦) .

(٥٨) - ليس من الواضح زمن هذا الاجتماع في طرابلس ، وربما حدث لدى عودة بلدوين من الشمال في أواخر عام ١١٥٠ ، إلا أن أحداث الفصل اللاحق متداخلة مع هذا وتشتمل على وفاة ريموند الثاني صاحب طرابلس والتي لا يمكن وضعها قبل عام ١١٥١ .

(٥٩) - لا يذكر ابن القلاذسي هذا المشروع الممتع من قبل أبناء الأسرة التركية التي كانت قد احتفظت بالقدس حتى عام ١٠٩٨ ، وتمت مطابقة هوية القائد الذي يدعوه وليم باسم هارليق)

- ٣٤٨٨ -

ربما نصحيح ياروقي (بأنه تمزق شاحب مارين وهو من الأسرة الـ إتقية ، ويقل هذه المطابقة كل من روشيت وستيفنسن وذلك على الرغم من رواية وليم من أن العملة تدولت في دمشق في طريقها ، ليست مذكورة في تاريخ دمشق . (ص ٢٧١) .

(٦٠) - يوثيل : ٤ / ١

(٦١) - يعتبر هذا البيان للتاريخ بياناً رسمياً ويبدو بأنه صحيح ، ولم يطبق وليم هذا التحديد على الكونت غودفري كملك أول ، الأمر الذي قد جعل بلدين الثالث الملك الخامس ، ويأتي تقدير عام ١١٥٢ بأنه العام الملكي التاسع. بلدين الثالث كقطعة مقارنة مع تواريخ رسمية أخرى استخدمها وليم .

(٦٢) - ٢٥ كانون ثاني ١١٥٣

(٦٣) - من المتع أن تشير أن نبلاء ذوي أهمية ، مثل وولتر حاكم قلعة القديس أومر ، قد خدموا لقاء الأجر ، وكان كل من هذين الرجلين مفامران نبيلان حقق كل منهما مكانته في سورية اللاتينية عن طريق الزواج ، هنالك مجموعة موجزة جدا من الإشارات إلى وولتر دي فولكبيرغ حاكم قلعة القديس أومر من قبل غيري (انظر غيري : حكام قلعة القديس أومر ١٠٤٢ - ١٣٨٦ - مكتبة مدرسة تشارلز : ٣٥ (١٨٧/٤) (٢٤١ - ٢٤٣) وكان أرنط موضوع دراسة لحياته مطولة (انظر غ . شلمبرغر - رينوي شاللون) .

(٦٤) - انظر الكتاب ١٧ - ، والكتاب ١٣ -

(٦٥) تعتبر هذه من الإشارات الأوضح إلى وجود أسطول ملكي ، وليس منصوص فيما إذا كانت السفن قد بنيت أو اشتريت للمناسبة أو كانت جزءاً من قوة دائمة ، مع أن تعيين جيرارد صناعب صيدا قائداً يبدو بأنه مؤقت ولا لبس في ذلك .

(٦٦) - أصبح بحلول هذا التاريخ استخدام المال شائعاً بشكل متزايد في تسيير الحروب في الشرق ، فقد كان بإمكانه شراء أنواع كثيرة من الخدمات تراوحت فيما بين العمل اليدوي وحتى المساعدة العسكرية الموثوقة بها .

(٦٧) - تعتبر هذه الرواية متضاربة إلى حد ما مع رواية وليم السابقة بخصوص وولتر أوف سينت أومر والقائمة التي قدمها عن القادة البارزين في مستقلان الذين أدرج بينهم أرنط وولتر حاكم قلعة القديس أومر .

(٦٨) - كان أنر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ حسبما ذكر ابن الفلاني ، الذي يصف الحادث ببعض التفاصيل (تاريخ دمشق : ٢٩٤ - ٢٩٥) وقام نور الدين بمحاولات للأور بدمشق بعد وفاة أنر وقبل وفاته أيضاً ، ونجح في آخر الأمر في شهر نيسان من عام ١١٥٤ عندما أعد السدبل باستخدام نوع من أنواع حصار المواد الغذائية (تاريخ دمشق : ٣٢٠ - ٣٢١)

(٦٩) متى : ٢٥ / ١٢ .

(٧٠) - كان نور الدين قد دعا أهالي دمشق لمساعدته في حصار بانياس وفق شروط المعاهدة الأخيرة التي كان قد عقدها معهم ، ومع أنهم انضموا إليه ، فقد كان ذلك مع مشاعر من الريبة أدى في آخر الأمر إلى تشوب شجارات بينهم وإلى التخلي عن الحصار في شهر حزيران من عام ١١٥٣ .

(٧١) - يعتبر لندغرين تهمة الجشع ضد النبوية انعكاساً لتعامل وليم ضد هذه المنظمة وهو غير مسرور تجاه العقائد التي يمكن شرحها بطرق أخرى .

(٧٢) - أوفيد ٢ . م . ٤٨ / ٩

(٧٣) - الامثال : ١٦ / ١٨

(٧٤) - يوحنا : ١٦ / ٢٠

(٧٥) - متى : ٧ / ٧ .

- ٣٤٨٩ -

(٧٦) من المهم أن نشير في هذه المرحلة ليس فقط مثال آخر للموقف العدواني القوي للبطيريك فولتشر ، بل إلى تعاون فولتشر مع الاستبائية الذين كانوا بشكل واضح المجموعة العسكرية الوحيدة المؤيدة بقوة للعمليات المستمرة .

(٧٧) في من البيهي اعتبار هذا الحدث من ذسيح خيال وليم ، وهو بذلك يقدم مثالا ممتعا لتقديره المتعاطف لمازق العدو .

(٧٨) في كان وليم قد رأى هذه البيعة قبل كتابته لهذا الوصف ، الذي يعتبر دليلا آخر على اهتمامه الغريب بفن العمارة وتوحي قوة وصفه للحصار أن وليم نفسه كان موجوبا خلال القسم منه منع أنه لا يشير إلى وجوده في أي مكان وكان لذلك في حذوالي الثالفة والعشرين من عمره وكان لا يزال طالبا ، وربما في القدس التي لم تكن بعيدة جدا .

(٧٩) في انعكست العلاقة بين بيت لحم وعسقلان من تنظيمها التقليدي وقد ثارت هذه المشكلة خلال الحملة الصليبية الأولى وتأسست السابقة عندئذ للعمل البابوي (انظر الكتاب ٩٩ - الفصل ١٢) وربما أمكن المحافظة على عسقلان كاسقفية مخصصة إلا أن احتجاجات جيرالد ورالف الذي أصبح خلفا له في الاسقفية في بيت لحم نجحت في جعلها خاضعة لذلك المقتر (الكرسي) وحسنه القضية وقررها البابا هادريان الرابع .

(٨٠) في من المهم أن نلاحظ أن والده الملك لم تكن قد فقت اهتمامها بإدارة الأمور على الرغم من هزيمتها قبل عام أو عامين ويعكس بيع الامتيازات الذي أشار إليه وليم أهمية العنصر التجاري في الدول اللاتينية .

(٨١) في يمكن للأخطاء في هذا التاريخ أن تكون بسبب النسخين ، ويجب أن يكون العام ١١٥٣ ، وربما يوم الشهر هو ٢٢ آب بدلا من ١٢ (انظر ستيفنسون الصليبيون ص ١٧١ حاشية ٣) .

(٨٢) في لا تذكر رواية أخرى حادث ذوقونيوس هنا ، إلا أن من المحتمل أن غزوات كهنته كانت شائعة للغاية ، لهذا لم تكن لتثير التعليق من قبل المؤرخين العرب ، مع أن هذه الغزوة قد أثارت بالفعل تعاطف وليم .

(٨٣) في امتدت هذه المشاجرة بين أرناط والبطيريك إيمري لعدة سنوات ، ومن المؤكد أن السبب الذي دفع وليم لوضعها هنا هي الحقيقة أن أرناط تزوج من كوندستانس في عام ١١٥٣ . وهذا وإن الحوادث التي يسردها امتدت حتى عام ١١٦٠ ، إذا لم يكن إلى ما بعد ذلك .

(٨٤) في مجاعة عام ١١٥٤ هذه مذكورة أيضا بأنها حدثت في دمشق في ذلك العام . إلا أن ابن القلانسي يعزوها آنذاك إلى حصار متعمد لدمشق من قبل نور الدين الذي منع التصدير العادي للحبوب من الشمال (تاريخ دمشق ، ص ٣١٧) .

(٨٥) في هادريان الرابع (وليس الثالث) انتخب نيقولا بريكسبير بابا في حذوالي نهاية عام ١١٥٤ ، وكان البابا الوحيد حتى ذلك الحين من أصل انكليزي . كما أن الأحداث الرئيسة في حياته كما هي معطاة هنا صحيحة فعليا مع أن مكان مولده يقدم عادة بأنه لانغلي بالقرب من سانت البانز (انظر معجم التراجم القومية والموسوعة الكاثوليكية) .

(٨٦) في تم الاستيلاء على تورطونا في ١٨ نيسان من عام ١١٥٥ بعد حصار دام تسعة أسابيع ، وانتقل فريديريك ، بعد استراحة قصيرة في جذوا ، إلى روما وزار عددا من المدن بما فيها بولونيا على الطريق .

(٨٧) في كانت المشاكل بين وليم الأول صاحب صقلية والباباوية قد بدأت قبل انتخاب هادريان الرابع ، ورفض هادريان الاعتراف بوليم كملك وواصل الصراع الذي أصبح الآن حربا عليه (انظر ف . شالدون - الحكم النورماندي في صقلية وإيطاليا : ٢ / ١٩٤ ...)

(٨٨) في ترافق اجتماع هادريان وفريديريك مع سلسلة من سوء التفاهم . كما أن الحادث المشهور لرفض فريديريك الإمساك بركاب البابا حدث في هذا الوقت وحدث تقويض فريديريك كامبراطور قبل وقت قليل بعض الشيء من التاريخ الذي قدمه وليم أي ١٨ حنوزيران ١١٥٥

- ٣٤٩٠ -

(٨٩) - خلقت ثورة ابن عم ولیم روبرت اوف لوريثلو ونبلاء لخرين من جنوب إيطاليا وضربها خطيرا كان إيمان فريدريك ببربروسا او مانويل أن ينالا فيه نفوسا حاسما ، وكان ممثلو مانويل سريعين بالاستفادة من الوضع . مع أن مانويل كان مذهبيا للغاية في مكان آخر حتى ليقوم بإرسال أي جيش له قدرته .

(٩٠) - من غير المؤكد فيما إذا تفاوض هارميان مع الاثنيين في الوقت نفسه أو مع مانويل عندما كان فريدريك قد أشار إلى عجزه عن التدخل في ذلك الوقت ، وهناك سؤال عما إذا كان الاول أو الاخير قد أخذ المبادرة في العمل لإقامة العلاقات بين هارميان والاغريق (انظر شالدون - آل كومينيين : ٣٥٨ - ٣٦٠)

(٩١) - كان يذشأ بالعامة خلاف كبير بين رجال الدين المدنيين والنظاميين بعد فترة قصصيرة من تأسيس كل نظام كهنوتي جديد . وتفاقم هذا بالتحرك الاكبر للانظمة الاخيرة . وعندما أعطيت الانظمة العسكرية الحق في تعيين قساوسها وبعثائها من طاعة المطارنة المحليين ، فإن امثلة تضارب السلطان القضائي كانت مؤكدة ، ويسرد ولیم هنا قائمة تامة تقريبا عن الظالم التي اثارها المطارنة المحليون ضد الانظمة العسكرية .

(٩٢) - الرومان : ١٢ / ١٥

(٩٣) - كان هذا البناء الرئيسي للاستبارية في القدس ، وربما في فلسطين بأسرها ، وتوجب أن يكون كبيرا ليلبي حاجاتهم المتزايدة ، ولايواء فرسانهم والاعتناء بالمرضى ومصالح اعمالهم ، ووصفه الحاخام بنيامين التطلبي ، الذي زار القدس في حوالي عام ١١٦٣ ، بأنه كان يستوعب اربعمائة فارس بالإضافة إلى المرضى والحجاج الزائرين وربما لم يكن بالثنية أية إساعة بهذا التوسع في بنائهم ، إلا أن المطارنة فسروه على هذا الشكل خلال الشجار .

(٩٤) - سيدوا اعتناء كهذا بأنه يمثل مرحلة متقدمة في الخلاف بين الاستبارية والكنيسة العلمانية بالقرب من زمن متاشدة روما . ويشهد الحادث على وجود ولیم في القدس في حوالي هذا الوقت . (٩٥) - الإشارة إلى الامتيازات البابوية المختلفة من اذوسنت الثاني ٢٩ اثار عام ١١٣٩ وإلى امتيازات اناستاسيوس الرابع في ١٧ شباط عام ١١٥٤ واشتملت كل واحدة من هذه الهبات على توسيع للامتيازات ، ومن المؤكد أن الامتياز الممنوح من اناستاسيوس الرابع هو الذي عجل الاضطراب في القدس (انظر ف . لندغريف : ولیم الصوري والباوية - الملحق الاول : ١٨٣ - ١٨٥) .

(٩٦) - كانت امالفي إحدى المدن الرئيسة من منطقة غرب المتوسط قبل الحملات الصليبية ، وكانت تابعيتها للقسطنطينية ، إلا أنها كانت مستقلة عمليا . (انظر فونهايد : تاريخ التجارة في الشرق خلال العصور الوسطى : ١ / ٩٨ - ١٠٨)

(٩٧) - يبدي ولیم هنا ، كما يبدي في اماكن متعددة ، اطلاعا على جنوب إيطاليا ويوحى بمعرفة شخصية ، ومن غير الواضح سبب اعتباره نابولي بأنها مدينة فرجيل .

(٩٨) - يظهر تعاطف ولیم نحو التجارة هنا كما يظهر في اماكن أخرى ، ومن غير المؤكد فيما إذا كان سكان امالفي الشعب الاول أو الوحيد الذي تسولى جلب منتجات الغرب إلى الشرق ، إلا أن اتصالهم الاكيد بالقدس يتجاوز هذه الملاحظة الشاملة من قبل ولیم (هايد : تاريخ التجارة) .

(٩٩) - من المحتمل أو من غير المحتمل أن يكون هذا الاجراء قد اتبع في ذلك الوقت ، إلا أن الرواية توحى على الأرجح بذوع الاجراء في مسائل كهذه في زمن ولیم . ويعتقد هايد أنه يجب تقييم معظم الفضل بقيام هذه المؤسسات في القدس إلى واحد من حكام امالفي يدعى ماروس الذي توفي عام ١٠٧١ (هايد : تاريخ التجارة : ١ - ١٠٤) وقد أرخ اعانة بناء هذه الديرية بين عام ١٠٦٣ و ١٠٧١ خلال فترة حكم الخليفة المستنصر

(١٠٠) - حرقها الطبقة الثانية ، وكانت الطبقات الاجتماعية أكثر وضوحا أيام ولیم مما كانت من قبل حتى سنة ١١٠٠ .

- (١٠١) - انظر الكتاب الاول - الحاشية ٥٢
- (١٠٢) - افرط وليم في تبسيط دعم هذه الديرية . وهناك دليل على أن كميات من المال قد جمعت في جنوب فرنسا بالإضافة إلى مكان آخر أيضا لدعم هذا العمل (انظر هايد - تاريخ التجارة - ١٠٥) .
- (١٠٣) - اغنيس وجيرالد شخصان شبه خرافيان وذاكرتهما محفوظة في تاريخ الاسبتارية بسبب ذكرهما هنا ، وكان وليم قد ذكر جيرالد في وقت سابق (الكتاب السابع ، الفصل ٢٣ ، انظر ج . كنج - فرسان الاسبتارية في الاراضي المقدسة - الفصل الثاني . وجعل فولتشر اوف تشارتر وفاة جيرالد سنة ١١٢٠ (هاغنمير تاريخ فولتشر : ٦٤١ - ٦٤٢ - الحاشية ٢٥) .
- (١٠٤) - كان ريموند دي بوي المقدم الثاني للاسبتارية ١١٢٠ - ١١٦٠ وللحصول على وصف قصير لحياته وإدارة نظامه انظر كنج - الاسبتارية فصل ٣ وفصل ٤ .
- (١٠٥) - انظر الحاشية في ص ٨٢٨ .
- (١٠٦) من المؤكد أن مؤسسات كهنة مثل اسقفية بيت لحم واسقفية الناصرة وديرية كثيرة مثل تلك التي كانت موجودة على جبل صهيون وجبل الطور وماري سيدة وادي يهوشافاط مدرجة تحت هذا الوصف ، ولم يكن وليم ميالا أبدا للاعتراف بالصعوبات التي سببتها هذا المؤسسات الكنسية ، وكان الحجاج الاتقياء من كافة انحاء العالم المسيحي يحضرون على تقديم الارث بدوصية لهذه المؤسسات ، وكانت هذه الهبات عادة على شكل بخل من ممتلكات موزعة بشكل متساوي ، أو حتى قطع من الاراضي . ولم تكن هناك اية وسيلة لضمان دوام هبات كهنة إلا عن طريق الباباوية التي كان يعترف بسلطانها بشكل عام ، ولم يكن بطريرك القدس في موقع ليضمن حماية كهنة ، ولهذا السبب فقد بحثت المؤسسات العديدة عن الامتيازات من الباباوية ، وكما أشير لعدة مرات من قبل فإن السلطة الباباوية لم تكن متأكدة من طموحات الاباطرة سواء في القدس أو في انطاكية ، ولهذا السبب فقد كانت مستعدة على الدوام لمنح امتيازات كهنة ومعها اعفاء من السلطان القضائي للبطريرك ومن الاسقف المحلي ورئيس الاساقفة . وكانت هذه الحقيقة الأخيرة التي استاء منها رئيس الاساقفة وليم بشكل خاص
- (١٠٧) - اشعيا ١٠ ٢
- (١٠٨) - الملوك الاول ٣١ ١٩
- (١٠٩) - لا بد وأن هذه الرحلة حدثت في ربيع عام ١١٥٥ لتوافق الاحداث في ايطاليا التي يشير إليها وليم .
- (١١٠) - تولى شالدون وصف أحداث الحرب هذه في جنوب ايطاليا بشكل مسطول (انظر - شالدون - النورمان ح ٢ الفصل ٧)
- (١١١) - جرى الاتصال بفريديريك من قبل مبعوثي كل من البابا والامبراطور مانويل للتدخل في جنوبي ايطاليا ، ولم يمكن اقتناعه ورفض العروض بحكم الظروف
- (١١٢) - كان هذا تبعا لشالدون هو اسكلتين .
- (١١٣) - أدرك مبعوثو البطريرك غولتشر فريديريك ، ربما في أوائل شهر اب من عام ١١٥٥ . ويبدو وليم عطفا على هذا الطريق الروماني القديم والذي يعد تسلسل مدنة بشكل صحيح .
- (١١٤) - لا بد أن هادريان قد وصل بينفنتو في حوالي الاول من شهر تشرين الاول من عام ١١٥٥ (شالدون - النورمان ح ٢ فصل ٧) .
- (١١٥) - إن معاملة البطريرك فولتشر هي مثل المعاملة التي تلقاها البطاركة اللاتينيون الآخرون في البلاط الباباوي ، ومن المؤكد أن الاسبتارية كانوا يلاقون تأييدا كبيرا هناك مثلهم مثل الداوية .
- (١١٦) - يعكس وجود المحامين في البلاط الباباوي لمساعدة المستأنفين من أجل الاهتمام الباباوي وتأنيبه . التوسع الضخم للأعمال التي كانت تتطلب اهتمام البابا ، وتظاهر هؤلاء المحامين بأنهم يعرفون كيف يصلون إلى حضرة البابا فقد كانوا يقدمون خدماتهم لقاء أجر ، الامر الذي كان يؤدي بسرعة إلى اتهامات الفساد في المحكمة .

- ٣٤٩٢ -

(١١٧) - يقدم هذا السرد لمحة أساسية للقوة العملية للسلطة الباباوية ، ومالت أوامر الكنيسة الواسعة الانتشار في سياق الزمن إلى الاعتماد على بعض الكرادلة من أجل المساعدة ، ولم يكن الاساقفة المنعيين الذين كانت أعمالهم مع الإدارة الباباوية غير متوافدة عادة محظوظين جدا . (١١٨) - هناك بعض الشك حول التواريخ المحددة لهذه الأحداث . فتاريخ هزيمة الاغريق في برنديزي هو نيسان من عام ١١٥٦ وتاريخ معاهدة هادريان مع وليم الاول هو ١٨ حزيران عام ١١٥٦ .

(١١٩) - من أجل المزيد من التفاصيل حول معاملة وليم للبلاد المفتوحة (انظر شبالدون - النورمان : ٢ - ٢٣٢ - ٢٣٥) .

(١٢٠) - كان عباس ، وهو فرد من عائلة ذات شهرة واسعة من الشمال الافريقي ، قد حقق مكانة في القاهرة كقائد عسكري . وكان قد أمر بتولي قيادة الحامية في عسقلان في عام ١١٥٣ . إلا أنه رفض ذلك وقتل الوزير الذي كان صهرا له واسقولى على منصبه ، غير أن منصبه لم يكن آمنا ، ولذلك فقد تآمر لقتل الخليفة الظاهر ولم يكن حتى قتل الظاهر وإبداله بالهائز الشاب كاهيا ، ولذلك فقد توجب عليه الهروب ليحفظ حياته كما هو مشار هنا .

(١٢١) - إن المصدر الأمثل للمعلومات حول هذه الأحداث هو ما رواه اسامة الذي كان في القاهرة في هذا الوقت والذي كان صديقا حميما لعباس . (انظر هيليب حتي - كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ : ٤٣ - ٥٥) .

(١٢٢) - هو الاسم الذي أطلقه وليم على عباس وناصر يذوس عوضا عن ناصر الدين أو نصر ، وكان هذان والدنا وابنا حسبما جاء عند وليم ، كما أن تاريخ المعركة ووفاة عباس كانا بتاريخ ٧ حزيران عام ١١٥٤ .

(١٢٣) - أنكر لندغرين (وليم الصدوري وفرسان الداوية ٩٣٠ - ٩٦) تفاصيل هذه الرواية لاسيما ما يتعلق بموقف الداوية .

(١٢٤) - هناك بعض الشك بخصوص تاريخ هذه الأحداث ، ويضعها وليم في العام اللاحق لوفاة عباس ، الذي كما هو مفترض عام ١١٥٥ . ويبدو أن أرناط قد شكل ، بعدما هزم طبروس واسترد عدة قلاع إلى الداوية ، حلفا مع الأرمن ، وتعاون معهم في غزوة قبرص (انظر شبالدون - آل كومنين ٢ - ٤٣٦ - ٤٣٩) .

(١٢٥) - يؤكد المؤرخون السوريون تهمة اقتراح الأعمال الوحشية هذه من قبل أرناط . ومن الصعب أن نحدد إلى أي مدى تأثرت فيه رواية وليم بحقيقة أن أرناط كان خصما سياسيا لريموند صاحب طرابلس ، لأن آخرين يشهدون على صحة معاملة أرناط القاسية للمعارضة ، وحدثت هذه الحملة إما في أواخر عام ١١٥٥ أو أوائل عام ١١٥٦ (شبالدون - آل كومنين ٢٠ - ٢٨) .

(١٢٦) - أوليفد . أموز : ١ - ١٠ - ٤٨

(١٢٧) - كان التركمان ، وهم فرع من الأتراك الإيرانيين ، أوقفوا حياتهم على تدريب الخيول ، وربما كان الحليب الذي اشير إليه حليب فرس أو لعله حليب جمل .

(١٢٨) - الملوك الاول : ١٠ - ١٧ . أخبار الأيام الثاني : ٩ - ٢٠ .

(١٢٩) - كان نور الدين ، حسبما ذكره ابن القلانسي ، قد عقد هدنة مع بلدوين الثالث لمدة عام بدءا من شهر أيلول عام ١١٥٦ ، وحدثت هذه الغزوة ، التي يصفها الكاتب ، في شهر شباط من عام ١١٥٧ وفسر عمل بلدوين في أن وصول قوات جديدة من الغرب قد شجعه على عدم مراعاة الهدنة (جب - تاريخ دمشق : ٣٢٧ - ٣٢٨) .

(١٣٠) - إن تدمير هذه الزمرة من الداوية والاسبتارية كان سببا لا يتهاج كبير في دمشق . وقاد أخو نور الدين قوات المسلمين التي حاربت النصر ، كما طاف بالأسرى ورؤوس القتلى الإغناء في المدينة في موكب عظيم . وسدلت المعركة في ٢٦ نيسان من عام ١١٥٧ (جب - تاريخ دمشق : ٣٣٠ - ٣٣٢) .

- ٣٤٩٣ -

(١٣١) - تبعاً لما ذكره ابن القلانسي عرض همفري الاستسلام شريطة السماح له ولجنوده الموجودين في القلعة بالانسحاب بأمان . وهو عرض رفض نور الدين قبوله . كما أن وصول بلدوين المحكي في الفصل اللاحق ، قد أنقذ همفري وعاشت بانياس تحت الحصار قرابة شهر من أيار إلى حزيران ١١٥٧ (جب - تاريخ دمشق : ٣٣٣ - ٣٣٦) .

(١٣٢) - ميتا . ٦ . ٥٧٦

(١٣٣) - الامثال : ٩١ : ٧

(١٣٤) - الامثال : ٤٤ : ١٤

(١٣٥) - يتفق تاريخ ابن القلانسي وهو ١٩ حزيران ١١٥٧ ، الذي كان العام الرابع عشر من فترة حكم بلدوين ، إلا أن الأخير يقول إن بلدوين لم يجدد بناء أسوار بانياس ، ويقول أيضاً إن المسلمين اعتقدوا أنهم كانوا قد قتلوا بلدوين غير أنهم لم يتمكنوا من العثور على جثته ، وقد جرى عرض الأسرى والمغانم في دمشق بعد خمسة أيام من المعركة (انظر جب - تاريخ دمشق : ٣٣٦ - ٣٣٧)

(١٣٦) - لم يذكر ابن القلانسي هذا الهجوم الثاني على بانياس ، وقد أشار بشكل غامض إلى جهود نور الدين في متابعة استغلال نصره على الملك .

(١٣٧) - يجب تحديد تاريخ وصول ثيري مع حوالي نهاية صيف عام ١١٥٧ ، وسببت ظروف عديدة في نقل مسرح النشاطات إلى شمال سورية ، حيث قلع أرسلان الثاني قد غزا منطقة أنطاكية ، بينما وجد نور الدين ، الذي كان قد نهب لنجدة المدن المصابة بالزلزال على طول العاصي الأعلى ، الظروف أكثر مواءمة لمهاجمة المنطقة نفسها من الجنوب .

(١٣٨) - لابد وأن هذه السفارة حسب السياق - قد انطلقت إلى القسطنطينية بعد وقت قصير من وصول ثيري ، وربما كان ذلك في شهر أيلول من عام ١١٥٧ مع أن ذلك يمكن أن يكون قد حدث فيما بعد .

(١٣٩) - أوليفد .

(١٤٠) - باغت هذا المرض الشلل يد نور الدين في مطلع شهر تشرين الأول وأدى إلى حدوث الاضطراب الموصوف هنا (انظر جب - تاريخ دمشق : ٣٤١ - ٣٤٢) .

(١٤١) - يعزو ابن القلانسي ثانية هذا الاخفاق الجديد للمسيحيين في الاستيلاء على شيزر إلى وصول تعزيزات من المسلمين (جب - تاريخ : ٣٤٢)

(١٤٢) - كان مير ميران نصرمة الدين أخو نور الدين ، هو المنتصر على الاستتارية في مطلع عام ١١٥٧ ويعتبر وصف وليم لاستيلائه على حلب وانسحابه الطوعي بمثابة موجز تقريبي لرواية ابن القلانسي (جب - تاريخ دمشق : ٣٤٢) و

(١٤٣) - ٢٠ تشرين ثاني ١١٥٧ - انظر الفصل ٢٢ .

(١٤٤) - ليس من المقرر بشكل واضح ، أن هذه القلعة التي تم هدف حصارها والاستيلاء عليها بتفصيل تام ، أنها قلعة حارم . (انظر ستيفنسون : الصليبيون في الشرق ، ص ١٧٩ حاشية ١) وإن كان الأمر كذلك ، فلا بد وأنها فقدت مؤخراً وربما لقلع أرسلان في وقت سابق من العام .

(١٤٥) من الغريب أن وليم لا يحدد أياً من أخوات الملكة هي المقصودة وربما كانت أيفيتا ، الأخت الصغرى ، التي كانت الآن رئيسة لديرها وكانت سيبيليا أوف فلاندرز مكرسة بشكل خاص لهذه الأخت من زوجة أميها ميليساند ، ويقال : إنها بقيت معها عندما عاد زوجها إلى فلاندرز (انظر ل . نيلسلي - محقق كتاب « تاريخ روبرت دي تورينغيني راعي نيز جبل القديس ميخائيل » ١٠ : ٣٢٥) .

(١٤٦) - ١٥ تموز ، ورواية ابن القلانسي عن هزيمة نور الدين مختصرة (جب - تاريخ دمشق : ٣٤٧) .

- ٣٤٩٤ -

(١٤٧) - تؤرخ هذه الإشارة إلى السنة الثالثة والعشرين من وجود ليتارد في عمله إلى أن وليم كان يكتب هذه الفقرة سنة ١١٨١ .

(١٤٨) - من المحتمل أن السفارة إلى الاسطنطينية ضمت في أواخر عام ١١٥٧ وعانت مع الأمير الاغريقية كعروس مستقبلية لبلدوين الثالث في شهر ايلول من عام ١١٥٨ (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٠) وكان السوليدوس في يوم من الايام قطعة نقدية ذهبية تساوي دولارين ، وقد انقضت قيمتها من قبل الاسرة الكومينية واحسروها ايضا من الفضة (فازلييف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ١٤٩) .

(١٤٩) - كان ايمري في القدس في ايلول ١١٥٨ .

(١٥٠) - كورنثوس الاولى : ١٣ / ١١

(١٥١) - فرجيل : لنا : ٢ / ٢٧٤

(١٥٢) - وصل الامبراطور انطونيل إلى كليكية في خريف عام ١١٥٨ وبقي في الجوار لأكثر من نصف عام (انظر شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٤١ . جب - تاريخ : ٣٤٩) .

(١٥٣) - تبعا لما يذكره المؤرخون ، كان البطريرك ايمسري قد عرض تسليم أرناط إلى الامبراطور ، ولكن بلدوين الثالث شريكا بالعرض ، املا بذلك أن يحصل على إمارة أنطاكية بشكل منفصل حتى من قبل أرناط (انظر آل كومينين : ٢ / ٤٤٣ - ٤٤٨) . ويؤكد المؤرخون السريان والاغريق أن بلدوين سعى إلى تحسين الشروط المفروضة على أرناط والتي تشتمل من بين ما شتمت على إزالة البطريرك اللاتيني وإبداله ببطريرك اغريقي لانطاكية . إلا أن بلدوين لم يستطع أن يحقق شيئا حول هذه المسألة ، مع أن الوصول الحقيقي للبطريرك الاغريقي لم يحدث إلا بعد مضي بضع سنوات .

(١٥٤) - أيدرت المفاوضات مع طوروس بشكل مشترك من بلدوين الثالث والناوية (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٤٨ - ٤٥٠) .

(١٥٥) - ليس من المستبعد أن يكون وليم قد حصل على هذه المعلومات من عموري انغو بلدوين الثالث .

(١٥٦) - كان دخول مانويل إلى أنطاكية وإقامته هناك بروح النصر إلى بعض الحدود ، الاملا الذي حاول أرناط أن يمنعه بدون جدوى ، فقد احتاط مانويل بطلب الرهائن لإقامته هناك ، وكان في هذه المناسبة أن عقد مانويل مباراة بطريقة غريبة ، وشارك بنفسه في الحدث (انظر شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٤٨ - ٤٥٠) .

(١٥٧) - يبدو أن مانويل تفاخر بمعلوماته الطيبة ببراعته في معالجة الجروح (انظر أيضا للكتاب : ١٦) .

(١٥٨) - كان نور الدين قد أسر برترام بن الفونزو في عام ١١٤٩ ، وهي حقيقة اهتم وليم ذكرها في ذلك الوقت . كما أن نور الدين ، الذي كان كارها للتخلي عن الأسرى ، أطلق سراح هذا منهم تنفيذا لطلب مانويل ، وربما كان ذلك شرطا لاحتلال السلام بينهما .

(١٥٩) - حدثت وفاة هادريان الرابع في عام ١١٥٩ ، وتبعه ، كما يقول وليم ، شقاق ساعد فريدريك بربروسا ، لأسباب سياسية على إبقائه مقفلا لسنوات كثيرة .

(١٦٠) - حدثت هذه المصالحة بعد مضي بعض الوقت على معركة لقناتو في عام ١١٧٦ ، وهي المعركة التي كابت فيها قوات فريدريك هزيمة منكرة على أيدي المدن اللومباردية ، وكان مجمع اللاتيران لعام ١١٧٩ - الذي حضره وليم - من بعض الوجود احتفالا باستعادة وحيدة الكنيسة .

(١٦١) - اكلوس : ٥٠ / ٦

- ٣٤٩٥ -

(١٦٢) - ولدت أحداث دمشق هذه بعد وفاة ايسن القلازسي التي كانت في ١٨ - آذار ١١٦٠ ، وكان نور الدين قد عهد بدمشق إلى نجم الدين أيوب كما ذكر جب (انظر جب - تاريخ : ٣٥٧ - ٣٦٨) .

(١٦٣) - الاختان كانتا هوبيرنا وايهيتا ، وتطبق رواية ولهم حول مدة حكمها على عام ١١٦١ وهو تاريخ مرضها .

(١٦٤) - إن العام خير اكيد إلى حد ما ، لأن قائمة ولهم العانية لاعوام فترة حكم بلدوين ستجعل هنا هو عام ١١٦١ ، الذي أعطاه أيضا عدد من المؤرخين العرب ، ويفضل كل من شالدون وستوفنسون عام ١١٦٠ على أنه العام الصحيح ويقلان رواية ولهم عن اليوم وأشهر (شالدون - آل كومنين : ٢ / ٥٢٠) (الصليبيون ص ١٨٢ . العاشية ٢) .

(١٦٥) - عقد هذا الجمع في عام ١١٦٠ ، وربما في أواخر العام (انظر ر - روهريخت سجلات ملوك القدس رقم ٣٥٧ . وج د . مانسي - الجامع المقدسة الجديدة ومجموعات وثائقها : ٢١ ملف ١١٤٥ - ١١٤٦) .

(١٦٦) - أصبح بلدوين بن عموري ، بلدوين الرابع ، ملكا للقدس في الفترة الممتدة من عام ١١٧٤ - ١١٨٥ ، واستتاجة من روايات ولهم اللاحقة كان ذلك الشباب بلدوين في التاسعة من عمره في عام ١١٧٠ ، وفي الثالثة عشرة من عمره عند وفاة والده في عام ١١٧٤ ، وقد ولد في عام ١١٦١ .

(١٦٧) - كانت أسماء هذين السفيرين يوحنا كونتوستيفانوس وثيوفلاكت ، وكان هذا الأخير ايطاليا وكاتب ولهم للاسمين توحى أنه حصل على معلوماته بشكل شفوي ، وكانت بيرثا أوف سوزلباخ أو ايرين حسبما أصبحت تسميتها ، كانت زوجة مانويل الاولى وكانت قد توفيت .

(١٦٨) - إن هذه العلاقة التاريخية المتبادلة التاريخية المتبادلة لهذه الأحداث ذات أهمية كبيرة ، إلا أن ولهم لا يقدم المعلومات الدقيقة المطلوبة لتوطيها ، وربما كان نفسه يدرس في مدارس الحرب خلال ١١٦١ - ١١٦٣ ، ولذلك كان خارجا عن الاتصال بالقبل والقال المحلي في فلسطين ، ومن الواضح أن مانويل كان قد أرسل سفارة إلى بلدوين قبل أن يعرف بأسر أرناط ، وكانت المفاوضات زواج ميليساند صاحبة طرابلس مستمرة عندما أرسلت كونستانس إلى مانويل متاشدة للحصول على المساعدة وربما عرضت ابنتها ماريا للزواج في الوقت نفسه ، وعلى أية حال فقد تمارضت المفاوضات ، وقدم التحالف مع انطاكية مغريات كبيرة إلى مانويل . ولا بد أن ولهم مخطيء في إشارته بأن مانويل لم يبدأ المفاوضات مع بلدوين حتى بعد أسر أرناط . (انظر شالدون - آل كومنين : ٢ / ٥١٧ - ٥٢٥) .

(١٦٩) - حدث زواج مانويل وماريا في الاسطنبولية في ٢٥ كانون الاول من عام ١١٦١ (شالدون - آل كومنين : ٢ / ٥٢٣) ويفسر ولهم هنا بعض التفاصيل المحيرة ، ومن غير المؤكد فيما إذا طلب مانويل أو استخدم مساعدة بلدوين في هذه المفاوضات .

(١٧٠) - أرخ روهريخت وفاتها في ١١ ايلول من عام ١١٦١ (انظر روهريخت تاريخ ملوك القدس : ١١٠٠ - ١١٢٩ ص ٣٠٧) ولا بد أن بلدوين قد أمضى الشتاء في انطاكية .

(١٧١) - يشير الوصف المغربي والمصاطفي لولهم عن معانناو بيت طرابلس ، بأنه تفاض إلى درجة ما عن النار المربع الذي تطلبه ويموند الثالث . ويقال إن ميليساند قد دخلت ديرا بعد هذه المسألة المشؤومة .

(١٧٢) - ليس من الواضح فيما إذا كان مرد هذا التفصيل إلى حقيقة أن عددا كبيرا من الذسوة كن أنفسهم شرقيات أو لأنهن أمكن تفوق الشرقيين بالمعارف الطبية ، ومهما يكن من أمر إن التفصيل بعد ذاته واضحا .

(١٧٣) - إن التاريخ محدد هنا ، إلا أنه متناقض في فترة الافتتاح للكتاب التالي : كما أن الأحداث بعد عام ١١٦٠ مشوشة إلى حد ما ، ويهمل ولهم ذكر حملة قام بها بلدوين الثالث إلى مصر خلال هذا الوقت ، وينقل الانطباع عن حملتين إلى انطاكية في عامين متتاليين ، ومن المؤكد أن

غياب وليم عن فلسطين خلال هذه الاعوام يفسر بعض هذا التشوش ، وقيل كثير من المؤرخين تاريخ وفاة بلدوين ، كما ينص عليه وليم هنا ، وبين المؤرخين كل من روهريخت ولامونت ، ويبدو من الضروري أن تعدد بعض هذه التناقضات ، فلو لم يكن بلدوين قد ولد قبل شهر شباط من عام ١١٣٠ (انظر الكتاب ١٤ - الحاشية ١٠ . الكتاب ١٦ - الحاشية ٣) لما كان لابد

تجاوز الثانية والثلاثين بحلول المعاصر من شهر شباط من عام ١١٦٢ ، ولو أن فترة حكمه بدأت عندما توفي والده في المعاصر من تشرين الثاني عام ١١٤٣ ، لما كان قد حكم سوى ثمانية عشر عاماً وثلاثة أشهر وعلاوة على ذلك ، لو كان أخوه في السابعة من عمره عندما بدأ بلدوين الحكم في عام ١١٤٣ ، لما كان قد تجاوز أكثر من السادسة والعشرين من عمره على الأكثر بحلول شهر شباط من عام ١١٦٢ بدلا من السابعة والعشرين التي يحتملها وليم له (الكتاب ١٩ - الفصل ١) في هذا الوقت ، والطريقة الوحيدة التي يمكن بواسطتها إزالة هذه التناقضات الشديدة هي قبول عام ١١٦٣ بدلا من عام ١١٦٢ لعام وفاة بلدوين .

(١٧٤) - من المحتمل أن هذه الفترة جزء من إطار وليم المعد بسرعة في عام ١١٨٢ . وربما أعد قراره لاسراج غودفري في قائمة الملوك فيما بعد ، وربما كان قد فكر بهذا الأمر بشكل جزئي حيث كان يؤرخ هنا للاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩ ، بدلا من بداية المملكة عام ١١٠٠ ، واستلزم هذا اختلاف العام في التقويمين المعتمدين للتاريخ المسيحي ، إلا أن وليم عكس الأرقام ، ويجب أن تقرأ إما ١١٦٣ وأربعة وستين عاماً ، أو ١١٦٢ وثلاثة وستين عاماً ومن الصعب التحقق من العام بالاشارة إلى المواضيع التاريخية لأن التعبير النحوي يسمح بفرق قدره عام واحد تقريبا في كل حالة .

(١٧٥) - تعتبر هاتين الروايتين للتاريخ محدثتين ومتواءمتين وتشير كلاهما إلى أن عموري أصبح ملكا في عام ١١٦٢

(١٧٦) - غالبا ما جرى تجاوز المعاني المتضمنة لهذه الرواية ، وهي الدليل الاوضح على أن وليم نفسه كان يقرأ التاريخ لعموري وأن وليم كتب في الاصل ليقرأ تاريخه له .

(١٧٧) - يقدم هذا دليلا ممتازا لروح الحرية التي سادت في مملكة القدس الاقطاعية ، مع أن بعض التحسينات الحياتية كانت قد امتلأت في الشرق ، فإن الكتب الرسمي للحديث الحر الذي ساد في قصور الشرق لم يكن قد تبني بعد .

(١٧٨) - توحي هذه المقارنة المتكررة بين الاخوين أن وليم قد عرف بلدوين أيضا ، ولذلك فقد كان في البلاط حتى قبل أيام عموري والذي كان قد عرفه عن قرب وبشكل وثيق .

(١٧٩) - لاشك أن في هذا إشارات إلى فرض بعض الضرائب من أجل العملات مع أن وليم كان لا يقر مثل هذه الممارسات إلا في الظروف الطارئة عندما تتعرض المملكة للمخاطر .

(١٨٠) - يفيد هذا بوجود اهتمامات ثقافية محدثة في بلاط القدس .

(١٨١) - يذكرنا هذا الحوار بين الملك ومؤرخه بالحوار بين شارلمان والكيون مع أن موضوع الحوار يظهر وجود بعض الشك في الدوائر المدنية للقرن الثاني عشر .

(١٨٢) - ذكر روبرت أوف تورغني أن هذا الزواج قد وقع سنة ١١٥٧

(١٨٣) - لابد أن اغدس قد تمتعت بجانبية غير اعتيادية ، فقد كانت قد خطبت إلى واحد من نبلاء المملكة عندما توجه على عموري الانفصال عنها .

(١٨٤) - كان جوسلين الاول قد تزوج من أخت روجر الذي تزوج بعد وفاتها من الأميرة الارمنية .

(١٨٥) - عين جوسلين الثالث قهرمانا للمملكة بعد فترة قصيرة من إطلاق سراحه في عام ١١٧٦ ، وشغل هذا المنصب حتى عام ١١٩٠ ، ومن المؤكد أن أخت اغدس كانت مسؤولة عن بفايته

الجمعية في الحياة (انظر لامونت ، صعود وهبوط نبلاء الفرنجة في سورية في أيام الصليبيين . المجلة التاريخية لجنوب شرق أوروبا : ١٥ (١٩٣٨) (٣٠١ - ٣٢٠) .

- ٣٤٩٧ -

- (١٨٦) - تبعا لفييت ، فإن هذا الوعد لدفع الجزية ، كان نتيجة لعمله بلديين إلى العديش في الجزء من عام ١١٦١ ، وقد اعمل وليم ذكر هذه الحملة (انظر غاستون فييت ، مصر من الفتح العربي وحتى الفتح العثماني ٦٤٢ ، ١٥١٧ م ص ٢٩١) .
- (١٨٧) - هنالك بعض الجدل حول تاريخ هذه الحملة . يضعها كل من روهريخت وشلمبيزغر في خريف عام ١١٦٢ بينما يصر كل من فييت وديرنبيرغ على أن عام ١١٦٢ هو التاريخ . ويعتبر فييت المسألة بأنها محلولة بقصيدة تهنتة موجهة إلى رزيك الذي توقف عن شغل منصب وزير في ٢٨ أيلول عام ١١٦٢ (انظر فييت - مصر من الفتح العربي ، ص ٢٩١) .
- (١٨٨) - خلف شاوور رزيك بالوزارة وقد حصل على المنصب بالقوة في أوائل عام ١١٦٢ . وقام شرغام بطرده في شهر آب عام ١١٦٢ (انظر فييت - مصر من الفتح العربي ، ص ٢٩٢) .
- (١٨٩) - كان شيركوه قد ظهر بشكل بارز في الاستيلاء على دمشق وعلى الرغم من إنجازاته الكبيرة كمحارب ، فهو يتذكر بشكل رئيسي كعم لصالح الدين ، الذي تلقى تدريباته العسكرية على يديه .
- (١٩٠) - هنالك بعض الشكوك حول هذا العام ، ويشير دليل العقود إلى شهر آذار عام ١١٦٤ ، بأنه التاريخ المحتمل (انظر - ر . روهريخت ملوك القدس - رقم ٣٨٥ و ٣٩٧) .
- (١٩١) - حدثت وفاة شرغام في معركة تحت أسوار القاهرة في شهر آب من عام ١١٦٤ (فييت - مصر من الفتح العربي : ٢٩٤) .
- (١٩٢) - ثلاث حملة عموري هذه خلال خريف عام ١١٦٤ (فييت - مصر من الفتح العربي : ٢٩٤ - ٢٩٥) .
- (١٩٣) - لا بد وأن هزيمة نور الدين قد حدثت في أواخر عام ١١٦٢ (انظر ف . لندغرين - وليم الصوري والناوية : ٩٩ - ١٠٠) .
- (١٩٤) - من الواضح أن عام ١١٦٥ تاريخ غلط ، وربما جاء نتيجة لعمل أحد النساخ ، ومن الواضح أن وليم كان يعتزم ربط هذه المواقف مع حملة عموري على مصر في عام ١١٦٤ .
- (١٩٥) - هذه الرحلة الرابعة لثييري أوف فلاندرز إلى الأراضي المقدسة ، وكان قد عهد برعاية المنطقة لابنه فيليب ، وتبعاً لروبرت أوف تورغني الذي أشار إلى رحيل ثييري في حوادث عام ١١٦٤ ، إن سبيلا كانت قد بقيت في القدس مع ابنتها راعية لأهبات دير القديس لازاروس في بيت حانه ، عندما عاد ثييري إلى الوطن في عام ١١٥٨ (انظر ل . بيليسلي - تاريخ روبرت دي تورغني - راعي رهبان القديس ميخائيل : ١ / ٣٢٥ - ٣٤٨) .
- (١٩٦) - يوثيل : ٢ / ٣١ . أعمال الرسل : ٢ / ٢٠ .
- (١٩٧) - لوقا : ٣ / ١ .
- (١٩٨) - متى : ١٦ / ١٣ - ١٩ .
- (١٩٩) - أوحى وليم في مكان آخر بعام ١١٦٤ على أنه السنة الثانية لحكم عموري ، وعلى هذا لا بد من اعتبار ١١٦٧ كخطأ صادر عن أحد النساخ ، أو سقطه قلم من وليم بحكم السرعة ، لأنه بلاشك يربط هذا بغياب عموري في مصر في عام ١١٤٦ ، ويؤرخ و . ب . ستيفنسون (الصليبيون في الشرق ص ١٨٩) الاستيلاء على بانياس في ١٨ - تشرين أول ١١٦٤ .
- (٢٠٠) - ربما حالت أخبار نشاطات نور الدين في غيابه بين عموري وبين متابعة نجاحاته في التوغل في مصر .
- (٢٠١) - أطلق سراح بوهيموند الثالث في صيف عام ١١٦٥ وذلك نتيجة للنجاح العسكري لطوروس الأرمني والقدرة عموري على الاقتناع .
- (٢٠٢) - كان نور الدين لا يزال محتجزاً عبداً من الأمراء اللاتينيين الهامين بينهم أرنأط وريموند

الثالث صاحب طرابلس ، وكان قد احتجز جوسلين الثاني أسيرا لمدة تسعة أعوام ، ولم يطلق سراح أسرى كهؤلاء إلا تحت الضغط ، حيث أن تهديد غزو الامبراطور مازويل هو المثال اللافت للنظر . وكان هذا مثال آخر ، ولم تفريه العروض المادية للغبية ، وربما كان وليم محققا في تدويعه بخصوص سبب إطلاق نور الدين سراح بوهيموند ويقترح روهرخت سببا أكثر احتمالا في وجود تهديد لهجوم آخر من قبل مازويل (روهرخت - تساربخ ملوك القدس : ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٣١٩) .

(٢٠٣) - توفي وليم صاحب صقلية في أيار عام ١١٦٦ وخلفه ابنه وليم الثاني ، الذي لم يكن الا في الثالثة عشر من عمره (انظر . ف . شالون - تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية : ٢ / ٣٠٣ - ٣٠٥) .

(٢٠٤) - التاريخ الذي أعطاه وليم لهذه المناسبة هو العام الثالث لحكم عموري أو في عام ١١٦٥ ، ولم يستطع لندغرين الذي وضعها في عام ١١٦٦ العثور على أي مستند آخر حول شنق الناقية وناقش رواية وليم دون أن يكون قادرا على رفضها (وليم الصوري والناقية ، ص ١٠١) (٢٠٥) لدى بروتز تخمينات متنوعة بخصوص هذه المادة المفقودة (ه . بروتز - دراسات حول وليم الصوري ، الوثائق الحديثة : ٩٨ - ٩٩) وأنا كان الافتراض أن وليم ولم يتمكن من انتهاء هذا العمل صحيحا ، وأن القسم الذي لم ينته هو القسم المفقود للفترة الواقعة بين ١١٦٠ و ١١٦٦ ، فإن التفسير الأكثر معقولة هو أن وليم لم يكتبه ، فقد كان قد خطط للفصول للكتاب بأكمله يسرد للعناوين ، الا انه لم يكن قادرا في عجلته على اكماله . كما أن الطبيعة التخطيطية ذاتها للفصول السابقة لهذه تقدم دعما اضافيا للشرح . وربما يفسر تغيبه عن فلسطين خلال جزء من هذه الفترة ، كما هو مشار اعلاه ، غموض مادة الاعوام من ١١٦٠ وحتى ١١٦٣ ، بينما يشير الكمال والدقة النسبية للسوداوات المسروقة في عام ١١٦٤ إلى أنه كان قد عاد إلى الأرض المقدسة آنذاك ، وأنا كان الأمر كذلك ، فإن سرعة اختتام عمله يمكن أن تفسر الأخبار القليلة عن عام ١١٦٥ ، ولا شيء تقريبا عن عام ١١٦٦ . ويؤكد هذه الامكانيات الالتزام المغاير لأخبار العام القادم الذي ربما بدأ عمله به كمؤرخ .

(٢٠٦) من الواضح تماما أن هذا الوصف للوضع في مصر أعد دون اعتبار للفصول السابقة ، وهذا سبب آخر للاستنتاج أن وليم بنا تاريخه عن هذه المرحلة . (٢٠٧) لا بد أن التحضير لهذه الحملة ، بما في ذلك مؤتمر نابلس قد انتهى في خريف ١١٦٦ ، وبنا الزحف من عسقلان في ٣٠ كانون ثاني ١١٦٧ . (٢٠٨) عرف هذا المكان فيما بعد باسم الفرما . (٢٠٩) كانت بابليون قلعة قوية زمن الفتوحات العربية . وكانت موقعا لمعركة ضاربة وهما طويل ، وتم الاستيلاء على القلعة في ٦ نيسان عام ٦٤١ ، وبنيت مدينة القاهرة فيما بعد إلى الشمال من بابليون ، وربما استمد الغربيون من بابليون الاسم الذي أطلقوه على مصر التي يدعونها عموما باسم بابليون ، ووليم محق في رفضه تعريفها بأنها ممفيس القديمة ، التي وضعها بدقة على مسافة نحو عشرة أميال فوق النيل .

(٢١٠) مصر هو الاسم الرسمي لهذه البلاد . (٢١١) هذه اشارة واضحة إلى أن وليم قد استخدم أكثر من مصدر عربي لتاريخه عن مصر ، كما أن استنتاجه بخصوص الفتح الفاطمي لمصر وتأسيس القاهرة منسجم مع أجسن الأبحاث الحديثة ، وتغطي سنة / ٣٥٨ / للهجرة الفترة الممتدة من ٢٤ تشرين الثاني ٩٦٨ إلى ١٣ تشرين الثاني من عام ٩٦٩ م . وقد انجز بناء القاهرة في ٢٢ حزيران عام ٩٧٢ ، وتمركز الخليفة نفسه هناك في ١١ حزيران عام ٩٧٣ . (انظر فييت - مصر من الفتح العربي : ١٧٩ - ١٨٨) . ويعتبر

هذا المقطع هو الوحيد الذي يورد وليم فيه بصورة دقيقة التاريخ الاسلامي ، مع انه استخدم الحساب مرارا .

(٢١٢) تقع القيروان ، المتاخلة مع القاهرة هكنا بسهولة ، على مسافة قصيرة جنوب شرق مدينة تونس ، وكانت العاصمة السابقة لأفريقية قبل الفاطميين .

(٢١٣) هذا المصطلح كلمة عربية مستعارة من الاسم اللاتيني للحصن (كاستروم) وقد كسبت منزلة جديدة في ان أصبحت متطابقة مع كلمة « قصر » .

(٢١٤) لا يقدم سولينوس وصفا خاصا لطيور كثيرة في بحثه عن مصر مع انه اتى على ذكر العيوانات ، وتشير رواية وليم الى اطلاع عام على الكتاب كله .

(٢١٥) كان هذا هو الخليفة العاضد الذي حكم من عام ١١٦٠ الى عام ١١٧١ ، وكان ابن عم - وليس ابنا - للخليفة السابق الفائز ، وكان في حوالي السادسة عشر او السابعة عشرة من عمره في هذا الوقت ، واستمد وليم هذا الوصف للقصر واحتفالاته مباشرة من هيو صاحب قيسارية ، ويوهي الاختلاف في العادات الموصوف في هذا الفصل ان اللاتينيين في الشرق لم يكونوا قد فقدوا حتى الآن جميع طرقهم الغربية .

(٢١٦) جاء هذا اللقب على نقش اكتشف تحت غطاء من الجص في المسجد الأقصى في القدس ، وينطبق هناك على المستنصر الخليفة الذي حكم من عام ١٠٣٥ وحتى عام ١٠٩٤ وربما قرأ وليم هذا النقش (انظر س . ١ . س حسيني) نقش الخليفة المستنصر بالله ٤٥٨ هـ [١٠٦٥ م] دورية دائرة اثار فلسطين ٩٠ [١٩٤٢] - ٧٧ - ٨٠)

(٢١٧) كان علي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته .

(٢١٨) القيمة الوحيدة لهذه المعلومات انها ابنة عصرها تشير الى عقلية وليم والى مستوى معارفه واهل عصره بالاسلام .

(٢١٩) تمتد سنة ٢٨٦ هـ من ١٦ كانون ثاني الى ٦ كانون ثاني ٩٠٠ م . وهناك خلافات شديدة بين الكتاب العرب حول صحة سلاسل نسب ابناء علي (انظر فيليب حتى - تاريخ العرب ص ٦١٨) .

(٢٢٠) يعتقد حتى ان وليم قد اخطأ في فهم معنى كلمة « المهدي » ، حين قراها « المهدي » اشتقاقا من كلمة هيبية التي عنت الجزية . وفي هذا دليل على معرفة وليم بالعربية

(٢٢١) هناك خلافا حول ترجمة هذه الكلمة [انظر - حتى - تاريخ العرب ص ٦١٩ حاشية ٢] .

(٢٢٢) الفى صلاح الدين الخلافة الفاطمية في عام ١١٧١ فهذا ما سيرويه وليم فيما بعد . غير ان رواية وليم واصراره انه كان ما يزال هناك خليفة في القاهرة عندما كان يكتب ، تشير ان هذا المقطع تمت كتابته قبل ان يكون وليم قد علم بالتغيير وربما قبل عام ١١٧٥ ، وأنه نقل هنا من كتابه اعمال حكام الشرق .

(٢٢٣) يعتبر هذا البيان الزمني ذا أهمية استثنائية، ومن الواضح ان مادة الفصلين السابقين استمدت من كتابه ، تاريخ حكام الشرق ، وليس واضحا فيما اذا كان نقلها كما كان في الاصل قد كتبها او اوجز قسما منها ، كما ان التعبير المشير للقارئ الى ذلك العمل الاخر ، هو اشارة انه كان قد اقتبس المادة السابقة مباشرة . هذا وامتد عام ٥٧٧ هـ . من ١٦ ايار عام ١١٨١ الى ٦ ايار عام ١١٨٢ ، ولذلك فان تطابقه مع العام المسيحي ١١٨٢ مقتصر على الاشهر الاربعة الاولى من ذلك العام . وعلى هذا ، كان منشفلا في مراجعة هذا الكتاب خلال تلك الاشهر .

(٢٢٤) أوليد ميثا ١ ٤٢٢

(٢٢٥) رفض وليم هنا كما فعل مرارا قبول روايات الكتب مهما كانت قديمة اذا ما تعارضت مع الحقائق المشاهدة

(٢٢٦) هذا النص مقتبس من الترجمة اللاتينية لكتاب تيموس تأليف كاسيدوس وفيه اخطاء في ترجمة اسم القانون .

- ٣٥٠ -

- (٢٢٧) استخدام الافرنج من قبل الاطباء في القرن الثاني عشر خبر هام للتاريخ الطبي .
- (٢٢٨) ، انشد هذا في الأحد الرابع للصوم منذ ١٨ آذار ١١٦٧ .
- (٢٢٩) رواية وليم حول الاعداد تعارضها المصادر العربية مع حقيقة انسحاب شيركوه امام مطاربيه ، والتور كيلي كانوا خيالة مرتزقة يجهنون من قبل الصليبيين من السكان المحليين وبعض الاغريق والارمن وسواهم .
- (٢٣٠) لابد ان هذا المقطع قد كتب بعد وفاة عموري وبعد زمن من تعيين وليم كمستشار في اواخر عام ١١٧٤ .
- (٢٣١) سولينوس بوليستور ٣٢ ، ٤١ .
- (٢٣٢) سولينوس ٣٢ ، ٤٣ .
- (٢٣٣) بالقرب من موقع السويس الحديثة فقد امتد طريق التجارة القديم الى الغرب بشكل مباشر تقريبا لينفذ الى النيل بالقرب من القاهرة ، وكان هذا الطريق مهما جدا الى درجة ان قناة شقت في العصور القديمة ثم باشراف المسلمين الاوائل من جسيدي من النيل الى البحر الاحمر ، وشقت قناة لماء عذب كهله من القاهرة الى السويس لآخر مرة في عام ١٨٦٩ .
- (٢٣٤) يوحى تكرار هذه العبارة حول الفاروس (انظر فصل ٢٧) بهذه السرعة انه تمت كتابة هذين الفصلين في اوقات مختلفة ، وربما كان ورونها الاكبر قد كتب على اساس بحثه الاول في شؤون الحملة المصرية لعام ١١٦٧ ، كما ان ورونها السابق هو جزء من المعلومات الاثرية التي كان وليم قد اضافها لصالح جمهور القراء الاكثر بعدا الذين كان يخاطبهم بعد عام ١١٨٠ .
- (٢٣٥) بدأت السنة الخامسة لك عموري في شباط ١١٦٧ .
- (٢٣٦) لابد وان هذه السفارة قد ارسلت الى القسطنطينية في عام ١١٦٥ ، وخبرها من احداث ذلك العام التي عمل وليم ذكرها في وقتها ، ومن المفترض انها غادرت في خريف عام ١١٦٥ ، لان هيرنسيوس كان ما يزال موجودا في فلسطين فقد ورد ذكره في وثيقة تعود لواخر الصيف او مطلع خريف ذلك العام . وكان بروتوسياستوس واحدا من القباب الشرف التي ابدعها آل كومنين ، واطلق بالعامة على اقرباء الامبراطور ، ولم يكن هناك ما يعادله تماما في الغرب .
- (٢٣٧) كانت ماريا ابنة يوحنا كومنين وقد تراس مرا فقتها جورج باليولوغوس ومانويل كومنين وهما من اعضاء الاسرة الامبراطورية (انظر شالدون - آل كومنين : ٢ - ٥٣٦) .
- (٢٣٨) من المهم ان نلاحظ ذكر وليم لهذه المدة في ترفيته لمنصب رئيس شعاسة من الاول من ايلول عام ١١٦٧ ، وربما جاءت بسبب موافقة وليم على كتابه تاريخ حول اعمال الملك عموري .
- (٢٣٩) كان الامبراطور قد صرفه كحاكم لكليكية لانه لم يكن كفؤا ، ولانه عذب وتراجع في غزله مع فيليبيا اخت زوجة الامبراطور مانويل في انطاكية ، وقد وصلت عمليا الى حشد الزواح الا ان الامبراطور الغاضب ، ولذلك فقد كان حرا للانغماس في مغامرات إضافية في القدس ، وتنتظر سيرته الحذوفة جدا بالخاطر كاتب سيرة ليدونها ، وينظر الى مختصر اخباره بشكل غريب (انظر س . بيهل . شخصيات بيزنطية - السلسلة الثانية ، ص ٨٦ - ١٣٤) .
- (٢٤٠) فرجيل : ان : ٢ ، ٤٩ .
- (٢٤١) يبدو ان حبه لثيودورا كان اصيلا وسلم اندورونيكوس نفسه عندما اسرت ثيو دورا مع وليدهما ، من قبل الامبراطور مانويل .
- (٢٤٢) انظر الكتاب ١١ - الفصل ١٢ .
- (٢٤٣) كان ستيفن دو بيرش مستشارا لصقلية ورئيس اساقفة منتخب لبارمو . ووصف ح . س . هلدت في كتابه (وزارة ستيفن اوف بيرش خلال طفولة وليم الثاني صاحب صقلية - دراسات كلية سمث ٣٠ [١٩١٨ - ١٣٩] ١٨٦) السيرة المحزنة لهذا الشاب النورماندي النبيل الاهل والمثاعر وسط المآزق السياسية المعقدة للمسائل الصقلية ، وحدثت ثورة القصر ، التي يشير وليم اليها في عام ١١٦٨ ، لذلك يجب تاريخ وصول ستيفن الى الارض

المقدسة في حوالي الجزء الاخير من الصيف (انظر ف . شالدون - تاريخ الحكم الدورماندي لاييطاليا وصقلية ٢ : ٣٤٥) .

(٢٤٤) توفي وليم الرابع ، كونت نافار في عكا في عام ١١٦٨ . وجاء بخول روبرت أوف تورغني بشكل خاطيء في الحدث تحت عنوان عام ١١٧٠ (انظر ل . ديلسل - تاريخ روبرت تورغني راعي دير جبل القديس ميخائيل ٢ : ٢٠)

(٢٤٥) من الممتع أن نلاحظ أن مبعوثي الامبراطور مانويل كانا من اصل ايطالي جنوبي ، فلقد كان هنالك الكثير من الفريبيين في بلاط القسطنطينية في هذا الوقت ، ويبدو أن مانويل اعتمد عليهم في مسائل ذات اهمية كبيرة : وهم شالدون في افتراضه انهما طالبا بجزء من مملكة في القدس فقد استخدم وليم مصطلح « مملكة » مشيرا الى مصر (انظر شالدون - ال كومينين ٢ : ٥٣٦)

(٢٤٦) يعتقد لندغرين اعتمادا على ابي شامة أن الداوية شاركوا بالفعل في آخر الامر بعد اعلانهم عن معارضتهم للمغامرة ، وكان الداوية قلقين بشكل خاص لان مقدمتهم الاكبر غودفري فولتشر كان قد عقد معاهدة مع الخليفة في القاهرة في عام ١١٦٧ . هذا واعطى وليم فضلا رئيسا لهيو صاحب قيسارية (انظر لندغرين - وليم الصوري والداوية ، ص ١٠١ - ١٠٦) .

(٢٤٧) غادر عموري وجيشه عسقلان في ٢٠ تشرين الاول من عام ١١٦٨ (ر . روهريخت - سجلات حكام القدس : رقم ٤٥٣) . ولم يتمكن وليم ، الذي غادر او شريدا في الاول من تشرين الاول من الوصول الى فلسطين قبل رحيل عموري .

(٨٨) فرجيل : ان ١٠ ٩٥

(٢٤٩) يذكرنا اختيار وليم لكلماته هنا بتيرنوس - فورميو ٤ والفلاطون باخوس ٥ ، ١ ، ١٦ . (٢٥٠) لايعكس السرد المفصل لآخبار هذه الحملة مع التأكيد والالحاح على الاعمال الشنيعة التي ارتكبتها المسيحيون ، والبواعث النبوية في مفاوضاتهم مع شاور والاعجاب التعاطفي لاساليب شاور ، لايعكس فقط اهتمام وليم النموذجي بحزمة المعاهدات ، حتى عند بقدها مع الكفرة ، بل قلقه حول الخرق الحقيقي ، وإن يكن رسميا ، للمعاهدة التي كان قد وقعها بنفسه مع الاغريق .

(٢٥١) تبعا لما ذكره بهاء الدين ، كان صلاح الدين هو الذي نفذ هذه الاوامر باغتيال شاور ، ويقال إن الخليفة طالب برأس شاور : وأرسل لدى استلامه للرأس ، خلع الوزارة الى شيركوه ، الذي قام بزيارته الرسمية للخليفة في اليوم التالي أي في ١٩ كانون الثاني من عام ١١٦٩ (انظر بهاء الدين - المحاسن اليوسفية ص ٥٥) .

(٢٥٢) مراني ارميا ٤ ١٠ ايوب : ٣ ٢١ .

(٢٥٣) إن هذا التقدير لاهمية التجارة كالتقدير السابق للسياسة تقدير حديث بشكل غريب وتم ذكره مرارا انظر س . هاسكنز - نهضة القرن الثاني عشر ، ص ٢٧٠) وربما انخل وليم هذه الافكار عندما كان يذبح كتابه في حوالي عام ١١٨٢ ، لأن الظروف الموصوفة لم تسد الا فيما بعد .

(٢٥٤) حدثت وفاة شيركوه نتيجة لنهمه في ٢٣ آذار من عام ١١٦٩ وبعد أقل من شهرين من استلامه منصب وزير (بهاء الدين - المحاسن اليوسفية ، ص ٥٦) .

(٢٥٥) كان نجم الدين ايوب واسرته من اصل كردي ، وليس من اصل تركي ، ولهذا السبب كانت اقرب الى الفرس ، وكان صلاح الدين نفسه يسمى يوسف . ويشار الى العائلة عموما باسم الاسرة الايوبية .

(٢٥٦) لا تؤكد مصادر أخرى هذا وصف لوفاة الخليفة ، ومن المحتمل أن وليم مزج دور صلاح الدين في اياة شاور واسرته مع وفاة الخليفة ، ويبدو أن الخليفة العاضد قد توفي وفاة طبيعية في ١٣ ايلول عام ١١٧١ فقد كانت الخلافة العباسية قد اعلنت في مصر حتى قبل وفاته ودون أن تسبب أي اضطراب . (انظر هيبس - مصر من الفتح العربي ٣٠٢) وحدث التغيير بشكل هادئ جدا الى درجة أن الامر احتاج عدة سفوات حتى يسمع به وليم . لقد انتهت الخلافة الفاطمية مع الخليفة العاضد .

(٢٥٧) عاد الملك عموري في شهر كانون الثاني من عام ١١٦٩ . وقد اكمل العام السادس من

- ٣٥٠٢ -

حكمه في شهر شباط اللاحق ، ولذلك توافق فصل الربيع اللاحق مع بداية العام السابع من حكمه ، ووصلت السفارة المشار اليها في هذا الفصل الى روما في شهر تموز ، ووصلت الى باريس في شهر ايلول من عام ١١٦٩ (انظر ر - روهريخت - تاريخ ملوك القدس : ١١٠٠ - ١٢٩١ ، ص ٢٤٤) .

(٢٥٨) كان هذا هو الكسيوس كونت-وستيفانوس دوقا كبيرا (غراندوق) وهو اللقب الذي استخدمه وليم . وكان القاشان الاخران هما الاسكندر اوف غرافينا او كونفيرسانا وكان واحدا من اعضاء سفارة مانويل في عام ١١٦٨ ، وشيودور ماروزوس وقد دعاه وليم هنا باسم مندوريس ، وقد غادر الاسطول بعد معاينة من قبل مانويل ، المنطقة المجاورة للاسطنطينية بعد فترة قصيرة من العاشر من تموز من عام ١١٦٩ (انظر شالدون - ال كومينين : ٢ / ٥٢٨) .

(٢٥٩) وليم مضطرب هنا ثانية في تطبيق صيغة لمعادلة التاريخ المسيحي منع تاريخ القندس اللاتينية وعبرة العام الملكي ، ويجب ان يكون التاريخ عام ١١٦٩ ، وهو العام السبعون للاستيلاء على المدينة ، والعام السابع من فترة حكم الملك عموري .

(٢٦٠) من الواضح ان هذه سقطة قلم والمقصود هو ١٦ - تشرين اول .

(٢٦١) لوكان - فارسال : ١ / ٢٨

(٢٦٢) اوفيد ميتا ٤ ، ٥٧٥

(٢٦٣) لدى المؤرخين الاغريق الكثير ليقولوه حول هذه الحملة ، ومن غير الضروري ان نضيف ، انهم يضعون اللوم على اللاتينيين ، وفي الواقع فإن وليم يعطي تأييدا كبيرا للمؤرخين اليونانيين على الرغم من الاتهامات التي يكيلها ضد الاغريق ، ومن الواضح ان اللاتينيين كانوا مدلسين في الرأي ، حيث كان الكثير غير قلقين ابدا حول اقتسام مصر مع الاغريق ، ولا بد ان هذا كان القصد من السفارة بالبحث عن المساعدة في الغرب في عام ١١٦٩ ، مع انهم كانوا قد عقدوا حلفا لهذا الغرض مع مانويل ، ولا بد ان هذا كان القصد من حملة عموري السريعة الى مصر في عام ١١٦٨ مع ان مبعوثه كان عائدا في تلك اللحظة ذاتها من بلاط مانويل مع المعاهدة الموقعة ، ويبدو ان هناك الكثير لتأييد اعتراضات شالدون (شالدون : ٢ / ٥٤٦) . وذكر شالدون ان اسنم الزعيم التركي الذي تفاوض لعقد المعاهدة كان جاولي .

(٢٦٤) لا يقدم وليم اي تفسير اضافي لمصاعبه مع رئيس الاساقفة الذي كان تابعا له ، وسنكون من المعقول ان نخمن ان عموري كان قد اصر على تأمين دخل وافر اوليم كرئيس شماسه وكـمـؤرخ رسمي بشكل يفوق الدخل العادي للمنصب ، وربما كانت هناك اسباب اخرى ايضا وعلى أية حال ، وكان وليم متغيبا عن المملكة خلال معظم عام ١١٦٩ وتوجب عليه ان يحصل على معلوماته حول الحملة بعد عودته ، وبعد عودة الجيش بعد بعض الوقت من عيد الميلاد لعام ١١٦٩ ، وتؤكد عبارته انه انه كان قد فكر بفكرة كتابة تاريخ ، المعنى المتضمن انه توصل الى هذا القرار في عام ١١٦٧ ، وانه كان يجمع بعض المواد انذاك .

(١)

(٢٦٥) حزيران ١١٧٠ - العام الثامن من حكم عموري .

(٢٦٦) تعكس حيوية هذا الوصف تجربة وليم الشخصية وتبين انه كان في صرور عندما وقعت الزلازل .

(٢٦٧) كانون اول ١١٧٠ - العام الثامن من حكمه .

(٢٦٨) لم تكن مثل هذه العواطف والاهتمامات بالفلاحين وبقية الناس منتشرة في ادبيات البلاط للقرن الثاني عشر .

(٢٦٩) انظر الكتاب ١٧ - الفصل ١٢ .

(٢٧٠) يعتقد انها البيرة الحبيثة وهي على الطريق الرئيسي الى الشمال من القدس .

(٢٧١) يعني عددا كبيرا جدا ، ولا شك ان ذلك قد كان ، لكن ينبغي الا يحمل حريا .

(٢٧٢) قتل توماس بيكت رئيس اساقفة كابتري في ٢٥ كانون الاول من عام ١١٧٠ . وهذا

- ٣٥٠٣ -

الوصف الموجز لحياته ووفاته صحيح فعليا ، وأعلن البابا الكسندر الثالث قداسه في بداية الصوم الكبير لعام ١١٧٢ على الأرجح .

(٢٧٢) ينبغي أن يكون عام ١١٧١ هو العام التاسع لحكمه وليس السابع .

(٢٧٤) أوفيد مهتا ٢ / ٦ ولربما تعكس هذه العبارة المفضلة لدى وليم اهتمامه بالصناعات الحرفية . .

(٢٧٥) ينكر شالدون الذي تتبع رحلة عموري خطوة خطوة من السفينة الى القصر التي صدقها وليم بمراسم الاستقبال والاستارة (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٥٤٧ - ٥٤٩)

(٢٧٦) ربما كانت هذه هي الحرب المقدسة التي كانت قد ظهرت أثناء هزيمة كربوقا في انطاكية عام ١٠٩٨ وكان ريموند صنجيل قد احتفظ بها واعطاها الى الامبراطور الكسنيوس عندما زار ريموند القسطنطينية من جديد في عام ١١٠٠ .

(٢٧٧) كان فن التسليح والرعاية العامة قد تنطور كثيرا في القسطنطينية انذاك اكثر منه في أي مكان آخر في أوروبا ولا بد أن تضيف الى ذلك جاذبيتها بالنسبة للناس القادمين من الغرب .

(٢٧٨) كان هذا القصر في الجزء الشمالي الغربي من المدينة الذي كان الامبراطور يقيم عادة فيه .

(٢٧٩) ١٥ - حزيران ١١٧١ . والعبارة مستعارة من كتابات أوفيد .

(٢٨٠) كان ملج أو مليح هذا أخا لطوروس الثاني صاحب أرمينية (انظر الحاشية رقم ١ من العنوان رقم ٢٦) وربما كانت معاناة ستيفن أو لفرين كانوا محاصرين بشكل مماثل من قبل قد دفع هنري الأسد لرفض عرض مرافقة عبر أراضي (ابجاث وسيطة وتاريخية على شرف جيمس وستفول تومسون ص ١٩٦) .

(٢٨١) هذا هو ستيفن أوف بلويس الثالث كما يستخلص من وصف وليم . وكان حفيدا للقائد في الحملة الصليبية الأولى وابن أخ الملك الإنكليزي الذي كان يحمل ذلك الاسم .

(٢٨٢) ستيفن أوف سوان وهنري أوف برغندي ، ومن الغريب أن لا يذكر وليم زيارة هنري الأسد دوق ساكسوني ، الى القدس في عام ١١٧٢ - فقد توفي في مدينة صور كونراد أسقف لوبك وكان واحدا من حاشية هنري .

(٢٨٣) تعد سنة ١١٧٢ - السنة العاشرة من حكمه .

(٢٨٤) هذا مثال ممتاز ليس فقط عن موقف وليم القضائي عن عدالة القرون الوسطى ، التي اعترفت بوضوح بالجنون كمجة لمصلحة المدعي عليه . ومن المؤكد أن وليم كان يعرف الأفراد المشتركين .

(٢٨٥) كان مالح أو مليح متقلبا بطرق عديدة فقد أصبح عضوا في الكنيسة الغربية ومن الداوية ، ثم هرب فيما بعد الى بلاط نور الدين وأصبح مخلصا جدا له . واستولى بمساعدته على مملكة ابن أخيه وأساء معاملة الداوية ، ثم قتله جنوده في آخر الأمر في عام ١١٧٥ (انظر فريديريك مكلر ، أرمينيا ، في تاريخ كميرج للعصور الوسطى : ٤ / ١١٧٠ - ١١٧١)

(٢٨٦) لا يعرف سوى القليل عن توماس هذا زيادة على هذه العبارات التي أوردها وليم كانت والته اختا لطوروس الثاني ومالح وكان والده نبيل لا تينيا ، وقد استدعي ليعمل كوصي على روبان الثاني ابن طوروس الثاني وقد طرده مالح وخلع الأورث الحقيقي (انظر جورادسون ، هنري الأسد ، - المصدر نفسه ص ١٩٦ - الحاشية ١٧٧) .

(٢٨٧) إن روايات وليم عن الحملات العديدة لصالح الدين الى جنوب فلسطين ومنطقة الكرك ، متشابهة للغاية مما يثير شبهة وجود اضطراب لديه (انظر ستيفنسون - الصليبيون في الشرق ص ٢٠١ - ٢٠٣ . روهريخت - ملوك القدس ص ٣٥٦ - ٣٥٧) .

(٢٨٨) صموئيل الأول : ٢٥ / ٢ .

(٢٨٩) تم أسره في حارم في عام ١١٦٤ . وستنتهي الثمانية أعوام من الأسر في ١٨ / تشرين

الثاني عام ١١٧٣ ، منع ان السياق العام يبدو وكأنه يشير الى صنيف عام ١١٧٣ على أنه عام اطلاق سراحه .

(٢٩٠) قدم حتي وصفا موجزا لهذه الطائفة الاسلامية واعاد اصلها الى الخلافة الفاطمية . تلميح ولیم الى الطاعة غير لاتباع شيخ الجبل انه كان مطلعا قصة مراسم العشيش التي نقلها حتي عن وصف ماركوبولو ، وربما رواها ولیم في كتابه - اعمال حكام الشرق - لان جاكوبي فيتبري الذي استخدم كتاب ولیم يروي هذه القصة (حتي - تاريخ العرب من ٤٤٦ - ٤٤٨) هذا ونشرت عدة ابحاث جديدة حول هذه الطائفة بعد حتي وتوصل الباحثون الى انها عرفت ببلاد الشام بناسم العشيشة لسبب غير معروف ، إنما من المؤكد لا علاقة له بمناذرة العشيش ، وهذا ولا يمكن الافتراض حول ما قاله ولیم في كتابه الاخر ما دام لم يصلنا كما لا يصح تحميل روايته هذه اكثر مما تحتمل وتأويلها بعيدا عن الحقيقة .

(٢٩١) قتل العشيشة القادة من المسلمين والمسيحيين ، وكان ولیم قد اشار الى ريموند الثاني صاحب طرابلس كأحد ضحاياهم ، ويعزو ابن القلاذي اليهم عدة اغتيالات حدثت في دمشق ، وقد قاموا بمحاولة لقتل صلاح الدين ، الا ان تهديده بإبادة الطائفة انهت تلك المحاولات ، لاسيما بعد توسط والي حماه (انظر حتي - تاريخ العرب من ٤٤٧) .

(٢٩٢) كان الامر مقبولا عموما أيام حتي في مطلع هذا القرن ان الاسم مشتق من « عشيش » ومعناه المتعاطون للعشيش وهو المانة المخذرة المستخرجة من القنب أو الماريچونا (حتي - تاريخ العرب من ٤٤٦) . (ومن المفيد العودة الى كتاب العشيشة أو الدعوة الاسماعيلية الجديدة لبرنارد لويس . وقد ترجمته وطبع في بيروت ١٩٧٠) .

(٢٩٣) يسفر لندغرين - غير قادر على ذكر أي مصدر مخالف - من هذه القصة كمثال اخر على تحامل ولیم ، ورغبته في اتهامهم بالجشع ، ودليله الوحيد هو مسألة ان هنري دوق ساكسوني وبافاريا قد قدم هبة مالية سخية الى الداوية في تلك الاونة (ولیم الصوري والداوية ، ص ١١١ - ١١٤) .

(٢٩٤) اشعيا . ٢ . ٢٢

(٢٩٥) كان الداوية قد اصبخوا ، مثل الاسبتارية تحت الرعاية الباباوية وبوساطة سلسلة من المراسيم وبشكل خاص مرسوم عام ١١٥٤ ، وذلك كنظام ديني ، وقد بات بإمكانهم بالطبع التماس الحصانة الكنسية ، كما حدث هنا ، للحصول على الحصانة من القضاء المدني ، وحقق هذا الالتباس ، الذي تجاهلته السلطات القطاعية لفترة طويلة ، نفوذاً كبيراً خلال القرن الثاني عشر . هذا ومن الممتع ان تشير الى ان عموري لم يمنحه سوى احتراماً جزئياً حتى في الارض المقدسة ، وكانت معاملة رجال الدين المجرمين أحد المواضيع الرئيسة للشجار بين هنري الثاني وترومان ابيكت في الفترة ذاتها تقريباً .

(٢٩٦) من المؤكد ان ولیم حصل على هذا الوصف لذوايا عموري من الماك نفسه مباشرة ، واستاء ولیم ، كونه رئيساً للأساقفة ، من استقلال الداوية عن السيطرة الكنسية المحلية وربما قدم موافقته القلبية لمناشدة كهده .

(٢٩٧) حدثت وفاة نور الدين في ١٥ أيار من عام ١١٧٤ . وكان والده زنكي قد قتل في ١٤ أيلول من عام ١١٤٦ الامر الذي يجعلنا نجد في تقدير ولیم لطول حكمه زيادة ثلث عام .

(٢٩٨) يجب ان يكون ١١ تموز عام ١١٧٤ ، وهكذا فإن ولیم وأهم بشأن العام الاول ايضاً بالنسبة لفترة حكم عموري ، ومن المؤكد ان هذه النهاية هي جزء من الاطار الزمني الذي اقامه على الأرجح في عام ١١٨٢ ، ومن سخريه القدر ان يعرض ولیم بيانات خاطئة حول فترة حكم عموري اكثر مما فعله بشأن فترة أي حاكم اخر ، وبالطبع ان السبب الرئيسي لهذا الخطأ هو انه كان أجل العمل حول السنوات السابقة لحكم عموري ، أي قبل عام ١١٦٧ ، حتى كان قد انجز التاريخ الملكي التمهيدي . ولم تكن المهمة الأخيرة قد انجزت عندما توفي عموري ، ومن المقرر ان عام ١١٧٤ هو التاريخ المعروف لوفاة نور الدين ووصف ولیم لنشاطات عموري وجاء نتيجة لذلك ونادراً ما

يخطيء وليم في بياناته لتسلسل الأحداث المترابطة التالية (انظر ستييفنسون - الصليبيون ، ص ٢١٣) .

(٢٩٩) من الواضح ان هذا قد كتب قبل التمهيد الذي وصل فيه وليم الى قرار ادراج غودفري كملك وسمى بلدوين الرابع باسم الملك السابع .

(٣٠٠) الكتاب ١٩ - الفصل ٤ .

(٣٠١) لا يمكن ان يكون هذا المطلب قد تم قبل نهاية عام ١١٦٩ ، لان وليم كان متغيبا في الغرب خلال معظم ذلك العام ولم يعد عموري من مصر حتى ٢٥ كانون الاول عام ١١٦٩ (انظر الكتاب ٢٠ الفصل ١٧) ولذلك باشر وليم تعليم بلدوين الصغير في عام ١١٧٠ عندما كان في التاسعة من عمره ، وواصل واجباته حتى توج بلدوين ملكا بعد مضي اربعة اعوام عندما كان الثالثة عشر من عمره تقريبا ، ويساعد هذا في تصحيح الوهم حول وفاة عموري في " ١١٧٣ " .

(٣٠٢) تعكس هذه العبارة اثرا لايقراط افورزم ٦ ٢

(٣٠٣) يمكن لوليم الحديث حول هذه المسألة بكل ثقة لانه نفسه كان احد المستشارين .

(٣٠٤) - حدد شالدون تاريخ هذا الهجوم على الاسكندرية في الفترة الممتدة ما بين ٢٨ تموز وحتى الاول من آب من عام ١١٧٤ . كانت هذه الحملة قد نتجت عن دعوة عموري الغرب للمساعدة ، واخفقت في تلقي الدعم من البر بسبب وفاة عموري (انظر شالدون - تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية: ٢ : ٣٩٦) .

(٣٠٥) هذه الاقوال كثيرة في الفصل الخامس ، وهما هنا ماقاله وليم من ان طرابلس كانت دولة تابعة لملك القدس .

(٣٠٦) ٣٠ تشرين اول ١١٧٤ .

(٣٠٧) يبدو هذا القول وكأنه يناقض القول السابق حول اسره ، والذي مثل فيه مفيدا بالسلاسل ومضيقا عليه ، وكان مؤرخو الفترة من المسلمين يعتبرون ريموند عموما رجلا صاحب نكاه حاد جدا والقايد الاكثر كفاءة بين القادة المسيحيين في تلك الأونة .

(٣٠٨) اخر توافيق رالف كمستشار - مما وصلنا - موجود في وثيقة تاريخها ١٨ نيسان عام ١١٧٤ (ر. روهريخت - سجلات حكام القدس - رقم ٥١٤) وتوقيع وليم الاول موجود في وثيقة تاريخها ١٣ كانون الاول عام ١١٧٤ (المصدر نفسه - رقم ٥١٨) وسبق لوليم ان ذكر (الكتاب ٢٠ - الفصلان : ٣٠ - ٣١) ان وفاة رالف كانت قد حدثت في شهر نيسان قبل حوالي الشهر من وفاة نور الدين .

(٣٠٩) من المحتمل ان هذا لم يكتب قبل سنة ١١٨٣ ، الجزء المتأخر منها .

(٣١٠) أيوب : ٢١ - ١٤ .

(٣١١) يعكس هذا معرفة وليم بالكتاب الكلاسيكيين مثل جوفنال وربما هجاؤون آخرين ، كما ان الاتهام العام لأخلاق معاصريه قد يكون اكثر دقة والا يعامل بأعمال آراء رجل دين .

(٣١٢) كانت تدريباتهم على استخدام السلاح اوسع شهرة من انضباطهم حسب المنطق العسكري المعتمد .

(٣١٣) اوبريزوم واحدا من المصطلحات اللاتينية المتأخرة التي استخدمها وليم .

(٣١٤) توضح آية عملية تحليل مقارن لاسباب التغيير في العلاقات بين الصليبيين واعداهم المسلمين فيما بين الحملة الصليبية الاولى والثالثة ، يقوم مؤرخون معاصرون بقدرة وليم غير الاعتيادية كمؤرخ .

(٣١٥) من كانون ثاني الى ايار ١١٧٥ .

(٣١٦) من الصعب القول في " الشهر " نفسه ، مع ان الامر مسوغا باللاتينية التي ترى النصف الاخير من الشهر من منطلق التقويم للشهر التالي ، ولم يذكر تاريخ انتخابه - حوالي ٣٠ ايار ، بالطريقة نفسها ، ومهما يكن من امر أصبح وليم رئيسا لاساقفة صور في ٨ حزيران ١١٧٥ .

(٣١٧) يعتبر هذا التاريخ من أكثر تواريخ وليم دقة ويشير الى نيته العانية لبده العام الملكي من يوم ارتقاء العرش ، وكانت السنة الثانية لحكم بلدوين قد بدأت في هذا اليوم قبل اسبوعين ، ومن الواضح ان الاحداث عاثت لعام ١١٧٥ ، وفيها مزيد من التصحيحات .

(٣١٨) مختصر القوانين المدنية ٥٠ ١٥ ١ ٥

(٣١٩) من المفترض ان العام الملكي كان يعني ١٥ تموز عام ١١٧٥ - ١٤ تموز عام ١١٧٦ وهكذا من المحتمل ان اطلاق السراح حدث في عام ١١٧٦ كما حدث ترسيم الاساقفة المذكورين اثر ذلك مباشرة .

(٣٢٠) كانت هذه كارثة ميروكيفاليون المشهورة لعام ١١٧٦ (انظر ف . شالدون - ال كومنين ٢ : ٥٠٧) .

(٣٢١) لم ينزل هذا اللقب بالفعل ابدا الى وليم دي السيف الطويل لانه توفي قبل والده ، الا ان مؤرخنا يطبقه بلا شك كلقب مجاملة . ويؤرخ وصول وليم ذي السيف الطويل هنا بأنه تشرين الاول عام ١١٧٦ .

(٣٢٢) يدفع تواضع الكاتب القارئ الى عدم الاهتمام بالرواية فقد كانت جنازة صهر الملك والخليفة المرتقب له حدثا له اهمية كبيرة وقد تراسه البطريرك بحكم كونه رئيسا للكنيسة وكان اختيار وليم للعمل بدلا عنه ، ربما لانه كان مسنا ومريضا في ذلك الوقت ، وقد حمل بعض الاحتمال للخلافة في حال وفاة البطريرك .

(٣٢٣) انظر الكتاب ٢٠ - الحاشية ٤ . ومثلث فيليبيا إحدى المسائل العائرة والمبكرة من مشاكل اندرونيكوس .

(٣٢٤) مايزال تاريخ وليم ثابتا ، وتقابل مقولته ٢ - اب ١١٧٧ . مصححا بذلك غلطه ١١٧٣ كسنة شهدت وفاة عموري واعتلاء بلدوين العرش .

(٣٢٥) قد يكون جديرا بالاهتمام ملاحظة ان المصطلحات المستخدمة هنا تذكرنا بالصيغ التي يستخدمها الاباطرة الرومان في اصفاء الصلاحيات على نوابهم وعالمهم ، ويظهر مشرعا القرن الثاني عشر انهم خلطوا صيغا من القانون والمختار منه . ومن الممكن ان وليم استمد منهما (انظر مجموعة القوانين المدني ٢ / ١٢ / ١٠ - المختار منه ١ / ١٩ / ١ / ٣ / ٣٠ / ١٥ / ١٧ / ١) .

(٣٢٦) كانت هذه السفارة مؤلفة من اندرونيكوس انجيلوس ، ويوحنا دوكاس ، ورئيس النبلاء ، وجورج سينياتس والكونت الاسكندر دي غرافينا (انظر شالدون - ال كومنين ٢ : ٥٥١) وكانت هذه هي البعثة الدبلوماسية الثالثة للكونت الاسكندر الى القدس مما اتى على ذكره وليم وكان لدى عدد قليل من شخصيات القرن الثاني عشر خبرة دبلوماسية اكثر وهو نورماندي من جنوب ايطاليا ، وكان قد جرد من اراضيه في ثورة النبلاء ضد روجر الثاني ، وقد سافر جيئة وذهابا لبضعة سنوات بين بلاطي كونراد الثالث والقسطنطينية سعيا لاسترداد اراضيه بمساعدة اي من الطرفين ، واستخدمه القصران كمبعوث ، واستقر في اخر الامر في القسطنطينية حيث عهد اليه مانويل بقيادة القوات النورماندية ، وارسله في مهمة الى المانيا وصقلية والى الاراضي المقدسة ايضا ، وقد ظهر اسمه وظل بارزا بشكل غير اعتيادي لفترة طويلة من الزمن اي من عام ١١٣٢ وحتى عام ١١٧٧ على الاقل (انظر شالدون - ال كومنين ٢ : ٥٥١) .

(٣٢٧) من المحتمل ان المعاهدة التي يشير وليم اليها هي تلك التي عقدها عموري اثناء زيارته لمانويل في عام ١١٧١ وكانت احداث متنوعة قد تدخلت لتأجيل تنفيذ المعاهدة (انظر كتاب ٢٠ فصلا ٢٢ و ٢٣) .

(٣٢٨) لقد وصفت هذه المفاوضات بشكل مطول بعض الشيء ، ولا شك ان ذلك كان بحكم عمل وليم انذاك كمستشار رئيسي للملكة فكان مسؤولا مباشرة عن المفاوضات مع فيليب ، وبما ان وليم كان خائفا من نوايا فيليب في تكليب البلاط اللاتيني في نظر الحكام الغربيين ، فهو لا يسرد فقط اخبار

المفاوضات بالتفصيل هنا . بل يبدو ايضا بأنه بحث برسائل حول الموضوع نفسه . وهكذا فإن كلا من روبرت أوف تورغيني ، ووليم أوف تيويبيرغ - اللذين لم يعدش أي منهما لفترة كافية ليتمكن من قراءة كتاب وليم - قدم وصفا موجزا الى حد ما لهذه الأحداث كما رواها وليم .
(٢٢٩) لم يوفر وليم وهنا صديقه ريموند صاحب طراباس من حمل حصته من اللوم على اخفاق المفاوضات .

(٢٣٠) بطرس الاول : ٥ / ٥ .

(٢٣١) ١ - تشرين اول ١١٧٧ .

(٢٣٢) جاولي (انظر الكتاب ٢٠ - الحاشية ٢٨) ويدعو بهاء الدين (المحاسن اليوسفية ص ٨٩) الملوك .

(٢٣٣) نراتي : ١ / ٢ . وتصرف وليم ولي اماكن اخرى بالنصوص حتى توائم مقاصده .

(٢٣٤) الزامير : ٧٦ / ١٠ .

(٢٣٥) الزامير : ٧٠ / ط .

(٢٣٦) الزامير : ٧٦ / ٨ .

(٢٣٧) الزامير : ٩٣ / ١٩ .

(٢٣٨) ربما نقلا عن فرجيل . انا : ٩ / ٧١٧ .

(٢٣٩) الزامير : ٢٣ / ٢٣ .

(٢٤٠) من المحتمل ان يكون وليم قد رافق الملك في هذه الحملة . لان استخدام لغة الشخص الاول هنا ودقة التفاصيل ، وكما وصفه يشير الى هذه الحقيقة .

(٢٤١) ينقل روهريخت من نولد كه تعريف الطواسين بأنها اسم أطلق على قوات كان لها أهمية دينية . وقرأ - غلام بأنها تعني حرفيا . عبيد سود . او معاليك (انظر ر . روهريخت تاريخ مملكة القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٣٧٧ - الحاشية ١)

(٢٤٢) هنا هو الوصف المعتاد للمالوك .

(٢٤٣) ينهي القول . السنة الرابعة . ومرد هذا إما ان وليم استخدم هنا السنة التقويمية . او سقطة قلم . وهذا هو المرجح . والتاريخ هو ٢٥ - تشرين ثاني ١١٧٧ .

(٢٤٤) الحميا : ٩ / ٢ .

(٢٤٥) بونيل : ١ / ٤ .

(٢٤٦) القشبة : ٣٢ / ٢٧ .

(٢٤٧) الحميا : ٤٢ / ٨ .

(٢٤٨) القشبة : ٣٢ / ٣٠ .

(٢٤٩) جهمس : ١٧ / ١١ .

(٢٥٠) الفرو : ١٥ / ١٢ .

(٢٥١) الفروح : ١٥ / ٧ .

(٢٥٢) بيرسيوس سات : ٥ / ٦ .

(٢٥٣) وصل الى بلانه في خريف ١١٧٨ .

(٢٥٤) الزامير : ٥١ / ١٨ .

(٢٥٥) هذه العبارة مرة ثانية هي مصطلح يعني سنة ملكية بدأت من يوم اعتلاء العرش .

(٢٥٦) تعتبر هذه القائمة ذات أهمية ليس فقط في أنها تضع وليم على رأس الوفد ، بل ايضا بسبب حذف اسماء العديد من رجال الدين وبشكل ملحوظ اسم البطريرك امالرخ ورئيس اساقفة الناصرة حيث كانا مسنين تقديما في العمر وضعيفين يصعب عليهما القيام بالرحلة . وقد ذهب بطرس . رئيس شمامسة القبر المقدس كممثل شخصي للبطريرك . مع ان وليم لا يذكر هذه الحقيقة (انظر ج . د ماني مجموعة وثائق الجامع المقدسة الجديدة ج : ٢٢)

(٢٥٧) تشرين اول ١١٧٨ .

(٣٦٠) كان الاسكندر الثالث قد انتخب بابا في أواخر عام ١١٥٩ وانعقد مجمع اللاتيران الثالث ، الذي دعا الى عقده . بشكل رسمي في ٥ اذار عام ١١٧٩ مع ان رجال الدين كانوا - مثل وفد القدس - متجمعين في روما منذ فترة من الزمن في حين وصل عدد قليل بعدما انعقد المجلس ، وكان اكبر واهم اجتماع للكنيسة عقد في الغرب لعدة قرون .

(٣٦١) كان تاريخ كتابة هذا بعد ٨ حزيران ١١٨١ ، وكانت مكتبة موضع تفساخر ، ولم يصلنا فهرس بمحتواها ، لكن من المنطقي الافتراض انها حوت جميع الكتب التي اشار اليها مرارا . (٣٦٢) ان قوله هنا وهو مخطيء : الشهر - نفسه - اكثر تسويفا ، حيث ارجح الحدث السابق بمصطلحات الاول من شهر ايار . او كان همنفري اوف تيرون الذي كان بلدين الثالث قد عينه كالا للمملكة . في عام ١١٥١ ، كان مصدرا للقوة لثلاثة ملوك متتابعين . لم يكن مقاسلا شجاعا فحسب ، بل كان قائدا عسكريا حكيما ايضا وحدث وفاته في ٢٧ ايار عام ١١٧٩ .

(٣٦٣) تاريخ هذه المعركة هو ١٠ حزيران عام ١١٧٩ (انظر ستيفنوس ص ٢٢١)

(٣٦٤) ايبوب ٢٧ / ٣

(٣٦٥) تم الاستيلاء على القلعة بهجوم عاصف في الثلاثين من اب عام ١١٧٩ .

(٣٦٦) المزامير : ٢٦ / ٦ ، ٦٦ / ٣ .

(٣٦٧) حبقوق . ١٢ / ٦

(٣٦٨) ملاخي ٣ / ٦

(٣٦٩) ستاتيوس ثيب : ١٠ ، ٧٠٤ .

(٣٧٠) يجب ان نلاحظ هنا ان وليم لا يعبر عن أية نهشة ازاء حقيقة ان الهدنة التي عقدها الملك لا تنطبق على طراباس مع ان ريموند صاحب طراباس كان قد اكد مطالبه بالوصاية بحكم كونه التابع الاكثر اهمية للمملكة (انظر الكتاب ٢١ - الفصل ٣)

(٣٧١) على هذا حصل وليم على الاذن بالمغادرة في ٢٣ نيسان ١١٨٠ ، وبذلك يمكن التخمين انه وصل الى القسطنطينية في اواخر ايلول او اوائل تشرين اول ١١٧٩ .

(٣٧٢) اطلق اسم الكسيوس عليه تيمنا باسم امبراطور فترة الحملة الصليبية الاولى ، وقد كان ابنا لماريا الانطاكية ، الزوجة الثانية لمانويل .

(٣٧٣) كانت هذه بيرثا اوف سولزباخ ، وقد غير اسمها الى ايرين ، ولم تداعي ولد . الامر الذي ادعى الى بعض الذفور من جانب مانويل الذي كان يخشى من ان الزواج كان واقعا تحت لعنة ، وقد اوقفت معظم وقتها خلال اعوامها الاخيرة على الاعمال الورعة (انظر س . ديهل - شخصيات بيزنطية - السلطة الثانية ، ص ١٧٠ - ١٩١)

(٣٧٤) كان لويس السابع قد اصبغ ملكا اثر وفاة والده في عام ١١٣٧ ولذلك فقد حكم اكثر من اربعين عاما وليس اكثر من خمسين ، عاما عندما تولى في عام ١١٨٠ .

(٣٧٥) هذا سرد هادىء بشكل استثنائي وربما مرده للحقيقة التي شكلت خيبة الامل الكبرى في حياة وليم ان الدليل الوحيد للشعور هو الدليل السلبي الذي يخفق في وصف خصمه الناجح في أية طريقة ، يصف ارنول هذا الانتخاب وصفا طويلا ، وتبعيا لارنول كان وليم موضح اختياره رجال الدين ، الا انه كان من المعتاد بالنسبة لرجال الدين ان يقدموا اسمين الى الملك لاختياره النهائي ، وبذلك اغنس كل نفوذها القوي لمصلحة هرقل المرشح الاخر المعين ، وفعلت ما ارادته (انظر ل . دي ماس لاتري - تاريخ ارنول وبرنارد الخازن ص ٨٢ - ٨٦) .

(٣٧٦) كانت ايزابيلا ابنة عموري من زواجه الثاني من الاميرة الاغريقية ماريا ، ولذلك فقد كانت اختا غير شقيقة لبلدوين الرابع . وشكلت زواجاتها المتكررة جوهر السياسة لملكة القدس الاخيرة (انظر ح . ل . لامونت الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٤٧) .

- ٣٥٠٩ -

(٣٧٧) كان فيليب صاحب نابلس ، سيد الداوية قد ورد ذكره مرارا في هذه الصفحات . وبالنسبة لنسب همفري أوف تيرون - انظر لامونت - الملكية الاقطاعية ص ٣٥ .
(٣٧٨) لم تحفظ هذه الوثيقة . ومن المفترض انها اعدت في شهر ايلول من عام ١١٨٠ وتقدم دليلا واضحا على ان وليم كان مازال ينفذ الواجبات الرسمية للمستشار مع ان مجموعة معادية له كانت تسيطر على البلاط .

(٣٧٩) حدثت وفاة مانويل في ٢٤ ايلول عام ١١٨٠ ودفع وليم بالارقام الكاملة الى تفضيص ثلاث سنوات اضافية لفترة حكم مانويل . وربما نتجت هذه الخطيئة من اخفاقه في اثبات عام وفاة يوحنا التي كانت قد حدثت في عام ١١٤٣ . (انظر ف . شالدون - آل كومينين : ٢ / ٦٠٦) .
(٣٨٠) كان الاعتقاد بالسحر والشفاعة والكهانة واسع الانتشار في الشرق والغرب ايضا وطلب من الامبراطور مانويل وهو على فراش موته ان يوقع وثيقة رسمية لطرد منجميه ولتحرير التنجيم على انه مخالف لتعاليم الكنيسة .

(٣٨١) الفصل الرابع - وكان لوغثسي وكاناكليينوس من الموظفين الأدنى مكانة في الامارة الامبراطورية ، وكانت اعمالها مرتبطة بالادارة مع شيء من الاهتمام بالانفاق الامبراطوري .
(٣٨٢) لم تكن هذه الثورة المخففة سوى مؤشرا على الاضطرابات الأكثر خطرا التي ستظهر على الفور . (انظر الفصول : ١٠ - ١٣)

(٣٨٣) الامثال : ١٨ / ٣ .

(٣٨٤) المزامير : ٥٨ / ٥ .

(٣٨٥) متى : ١٢ / ٢٥ .

(٣٨٦) هوراس : ٢ / ١ / ١٩٩ .

(٣٨٧) اوليفيد : لنا / ٦ / ٤٢ . وهير : ٣ / ٢٥ .

(٣٨٨) المزامير : ١٤٧ / ١٦ .

(٣٨٩) يقدم طريقهم امتحانا هاما حول القوة الاقطاعية .

(٣٩٠) روبن الثالث ١١٧٥ - ١١٨٥ .

(٣٩١) تولى الاسكند الثاني في ٣٠ - آب ١١٨١ .

(٣٩٢) هنالك بعض التشوش في عبارة العلاقات هذه ، فمن المحتمل ان هذا الدين يمثل عز الدين الذي كان ابنا لقطب الدين اخو نور الدين وربما قصد من قطب الدين ، مما يعني ان وليم عكس العلاقة الاب والابن ، وكان عز الدين هو الذي استولى بالفعل على حلب كميراث له في تلك الاونة وتبادلها بعد فترة قصيرة مع اخيه عماد الدين (انظر بهاء الدين ، المحاسن اليوسفية ص ٨٠ - ٨١) ومن المؤكد ان وليم تلقى معلومات من رواية شفوية .

(٣٩٣) استمر اتحاد الموارنة مع اللاتينيين حتى اليوم الحالي . انظر مقالة كتبها م . سبينكا ، اثر الحملات الصليبية على المسيحية الشرقية ، حقائق في اطر التاريخ المسيحي .

(٣٩٤) كانت زيارته الاخيرة ايام فص ١١٨٠ (انظر الفصل الاول) .

(٣٩٥) هذا هو انفجار وليم الاول المباشر ضد هذا الزوج ، اللتين كانا على الأرجح مسؤولين عن فقدان البطريركية ، ان تعبيرنا كهنا بعاطفة طليقة غريب لدى مؤرخنا ويدل على انه كتبه إما في عام ١١٨٤ بعد وفاة اغذس ، التي يؤوها لامونت في اواخر عام ١١١١ و مطلع عام ١١٨٤ (انظر ح ل . ، قيام وانحطاط النبلاء الفرنجة في سورية في ايام الحروب الصليبية ، دورية تاريخ جنوب شرقي أوروبا : ١٥ [١٩٣٨] ٣١٣ .

(٣٩٦) : متى ١٢ / ٢٥ .

(٣٩٧) ربما تمت المصالحة في وقت مبكر قد يكون ٢٧ نيسان عام ١١٨٢ ، وما يزال باقيا في القدس وثيقة هامة جدا من ذلك التاريخ قدم فيها بلدين الرابع هبة لبعض العسور في تيرون الى وليم رئيس اساقفة مدينة صور . وشهد على الوثيقة ريموند صاحب طرابلس بالإضافة الى نبلاء عظماء آخرين ، وختمها وليم بنفسه كمستشار . وتتضمن هذه الصلة ، التي تعد بمثابة امتياز سخي

لوليم . قد . - يعني - ليس فقط ان الدولة قد اعيد تأسيسها بين ريموند والملك ، بل ايضا ان ولیم كان عاملاً هاماً في ذلك الحل البهيج . (روبرغ - سجلات رقم ٦١٥) .

(٢٩٨) المزامير : ١٤ / ٧

(٢٩٩) متى : ١٦ / ١٨

(٤٠٠) جاء هذا التحليل لشاعر الاغريق نتيجة لمعرفة ولیم وخبرته بالاحوال كما ان ادراكه لاهمية الاختلافات الدينية كعامل في الثورة له اهمية خاصة ، وهذا مؤيد من المصادر الاغريقية (انظر فازليف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٧٧ / ٢)

(٤٠١) قبل المؤرخون الاغريق عموماً هذا الاتهام بوجود علاقات محرمة مع الامبراطورة التي كانت الآن الوحيدة المسماة (انظر ديبل - شخصيات بيزنطية السلطة الثانية ص ١٩٥) .

(٤٠٢) انظر الكتاب ٢٠ - الحاشية ٤ .

(٤٠٣) يؤكد هذا التشويه للكارينال الروماني اهمية العنصر الديني في كراهية الاغريق اللاتينيين ، ولم تكن الاهمية السياسية او الاقتصادية اللاتينيين بل بالآخرى نجاح اللاتينيين في كسب موافقة مانويل على اتحاد ممكن للكنيستين اللاتينية والارغريقية تحت رئاسة رومانية هي التي اعطت الثوراهذه الحق والتعصب ، وجمعت اجزاء جثة الكارينال فيما بعد ومنحت دفناً لائقاً (انظر : جيون اندار وسقوط الامبراطورية الرومانية - ط . ح . ب . بري : ٦ / ٣٧٢) .

(٤٠٤) لقد اهتم اثر هذه المجازر على دول المدن التجارية الايطالية وخاصة على البندقية ، التي كابدت الاسوا ، وكانت العملة الرابعة قد مثلت مراراً بانه مشروع اعمال حرفة لسكان البندقية ، ولم يوافق على هذا الرأي الابناء والبنات والاقارب البعيدون لسكان البندقية الذين فقدوا ارواحهم في مجزرة عام ١١٧٢ هذه ومن المفيد ان نعرف ان بعض اللاتين لم يوافقوا على مساواة الانتقال حتي وان كان للاخذ بالثار . هذا ومن المؤكد ان ولیم قد حصل على معلوماته من هؤلاء اللاتين .

(٤٠٥) تخلص منهم قبل نهاية عام ١١٨٢ ، وبعدما خنق في بادئ الامر ماريا الانطاكية وبعدما خنق ابنها الكسيوس بشكل مشابه في العام نفسه ، وتزوج في هذا الوقت ايضا وبشكل رسمي من الامبراطورة الفرزسية الشابة اغنيس التي كانت آنذاك في حوالي الثانية عشر من عمرها (فاز ليف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٧٦ / ٢) .

(٤٠٦) تقاعس ولیم في ذكر الاتهام الذي قدمه الكتاب المسلمون ضد ارنات على انه اول من خرق الهينة ذكر هذا فيما بعد في اخر هذا الفصل وقد اتهم كل فريق بخرق الهينة (انظر ستيافنسون : ٢٢٤ - ٢٢٥) .

(٤٠٧) كان صلاح الدين كردي الاصل .

(٤٠٨) طمست مقدرة الصليبيين اللاتينيين وجيرانهم العرب على العيش بآمان مع بعضهم بعضاً في ثنايا روايات اخبار الحرب . ومع ذلك فهنا مثال واضح لتعاون كهذا الذي كان مستمراً منذ سنوات .

(٤٠٩) القصد من هذا النص اثبات ان ولیم لم يكن سوريا مع انه ولد في فلسطين .

(٤١٠) لم يشعر ولیم انه يملك ما يكفي من المعلومات او الاهتمامات بالامور العسكرية حتى يتولى نقد الاستراتيجيات والتطبيقات .

(٤١١) متى : ٢٦ / ٥٣ ويعكس هذا المقطع آراء ولیم الخاصة حول العلاقة الصحيحة بين رجال الكنيسة والحاربين وحدثت هذه الاحداث في شهر تموز من عام ١١٨٢ . (ستيافنسون : ٢٢٨ - ٢٢٩)

(٤١٢) انظر ص ١٠٢٤ الحاشية .

(٤١٣) امتدت هذه الحملة الى شمال شرق سورية من شهر ايلول من عام ١١٨٢ حتى شهر آب من عام ١١٨٣ . ويتذكر ولیم هنا مواقف اللاتين في عام ١١٨٢ قبل ان تصبح نتيجة الحملة معروفة (انظر ستيافنسون : ٢٣٩ - ٢٤٠) .

- (٤١٤) سقط ذكر اليوم والشهر من النص .
- (٤١٥) استمرت صداقة بلدوين الرابع مع وليم على الرغم من العداء الذي يكنه له فريق البلاط . ولا بد أن قرار وليم بوقف الكتابة قد تم قبل هذا ، في ٢٥ كانون الأول عام ١١٨٢ .
- (٤١٦) شباط ١١٨٣ .
- (٤١٧) أصبحت هذه الضريبة ، التي فرضت لتلبية مساعدات طارئة كبيرة ، نموذجا لفرض الضرائب في الغرب ، ومن المهم أن نلاحظ أن موافقة الناس والنبلاء المنبئين والكهنة ، مفصلة في افتتاح الوثيقة الخطة الأكثر نظاما وشمولية لفرض الضرائب التي استتبعت حتى الآن بواسطة السلطات الاقطاعية . وقد أثرت على كل من هنري الثاني وفيليب الثاني كدموندج . للعشر الذي كان يجمعه صلاح الدين وضريبة أخرى ومن المحتمل جدا أن وليم نفسه أعد مسودة هذه الوثيقة .
- (٤١٨) ذكر بهاء الدين أن حصار صلاح الدين لمدينة حلب قد تم في الفترة الممتدة من ٢١ أيار وحتى ١١ حزيران من عام ١١٨٣ ، وأن الاستسلام جرى في اليوم الأخير هذا [الخامس من اليوسفية : ٨٩] .
- (٤١٩) وصف وليم هنا طرائق سياسة الحزب في المملكة في ذلك الحين . وجرى تحديد أن اغنس دي كورتتي ، والدة الملك ، والبطيريك كأثنا زعيمين للحزب . ولم يكن حزب وليم هو المشار اليه باعتباره على شائعة أو رواية .
- (٤٢٠) هذا من النقول المفضلة لدى وليم وكذلك الحال لدى مدارس القانون في الغرب ، ويعدود صداها الى نيردس لكنها لم تستخدم كثيرا وقليل من الافراد من عرف اصلها .
- (٤٢١) مقتبس من لوقا ١٤ / ٢٨ - ٣٠ .
- (٤٢٢) هنالك حذف في النص عند هذه النقطة ، وجرى اقتراح المعنى المحتمل داخل حاصرتين ، ولا بد من الإشارة الى أن وليم ينتقد هنا اصداقاه . ومن الواضح أنه يعتبر احتياجات الدولة بسانها تفوق مصالح الحزب حتى وإن كان حزبه .
- (٤٢٣) ينتقد وليم هنا استراتيجية الجيش ، وينتقد في هذه المرة استراتيجية ارنات الذي كان القائد الحقيقي في انتصار بلدوين الرابع على صلاح الدين في عام ١١٧٧ . وربما عكس هذا رأيا لأنه من المؤكد أن معلومات وليم أتت من نبلاء كانوا معارضين لارنات بقدر ما كانوا معادين لكي .
- (٤٢٤) لا بد أن آمال وليم ورغباته قد جعلته يرى اختيار ريموند صاحب طرابلس بالاجماع فعليا ، ولعل خصوم ريموند الرئيس لم يكونوا في الانتماء .
- (٤٢٥) تاريخ مغابرتة هو ١٢ - أيلول ١١٨٣ (انظر روهخت - تاريخ ملوك القدس : ٤٠٩)
- (٤٢٦) من المحتمل أن الحالة الذهنية التي كشفتها هذه الملاحظات الافتتاحية كانت مستوحاة عليه في عام ١١٨٢ ، عندما كانت النجاحات المتكررة لصلاح الدين والتي تتوجت بالصدفة الموجهة للفرنجة برحيله الى الشمال دون أن يابه بعد هنة ، ولا بد أنها كانت مثبطة للغاية ، وكان فريق البلاط المعادي مايزال مسيطر ومن المؤكد أن وليم لام عجزه وعدم كفاءته وحمله مسؤولية نجاحات صلاح الدين ، ومن المحتمل أن حقيقة أنه كان يدون بداية سلسلة الأخطاء الفاحشة هذه - أي زواج سيبيلا ونغي - قد أبرزت مشاعره في هذه الاونة . (وأواخر عام ١١٨٢) .
- (٤٢٧) إشارة الى فرجيل : ٢٢ / ٧ . (ايكل)
- (٤٢٨) أيضا إشارة الى فرجيل : ٣ / ٩٠ . (ايكل) .
- (٤٢٩) ارميا : ١٨ / ١٨
- (٤٣٠) هوشع : ٩ / ٤ وهذا من النقول المحببة اليه .
- (٤٣١) اشعيا : ١ / ٥ - ٦ .
- (٤٣٢) اللاويين - التوطئة .
- (٤٣٣) قد يلحد هذا معرفته بكتاب لخر ليوسفيوس وذلك بالإضافة للتاريخ القديم الذي غالبا ما نقل عنه .

- ٣٥١٢ -

- (٤٣٤) وريت هذه العبارة هنا ولي التمهيد ، وتوحي انهما كتبيا ربما في الوقت ذاته ،
(٤٣٥) من المؤكد ان شعاع الامل بالمستقبل هو نتيجة نقل الوصاية من كي لوزنغنان الى ريموند
صاحب طراياس .
(٤٣٦) لايد ان هذه الاحداث قد جرت في مطلع عام ١١٨٤ . وكان دليل سخط الملك واضحاً بشكل
كافي في اجتماع ٢٥ تشرين الثاني عام ١١٨٣ . ومن المحتمل ان الحملة لنجدة الكرك قد صرفت
اهتمام الملك لمدة شهر تقريباً . ولم يكن بإمكانه ان يستأنف عداوه نحو غي قبل نهاية شهر كانون
الاول . واستمرت بعد ذلك سلسلة الاحداث المأسوية هنا بالتعاقب في تواتر مستمر حتى عكا .
(٤٣٧) من الواضح ان وليم متعاطف مع مسلك هرقل هذا احد الامثلة القليلة التي يشير فيه
بوضوح الى موقفه نحو منافسة الناجح بالفوز بالبطيركية .
(٤٣٨) اخبر ابن جبير عندما زار عكا في ايلول ١١٨٤ بان الملك - ودعا ملك عكا - محجوب عن
النظر ، لانه مصاب بالخداع ، وأضاف ان صاحب طراياس وطيرية كان ابرز شخصيات الدرنة
واقواهم وأوضح انه جدير بالعرش لانه كان حاد الذكاء والبراعة (روهريخت - الوثائق .
٣ / ٤٥١ - ٤٥٥) .

المصادر

- Anderson, Romola, and R.C. Anderson. *The Sailing Ship*. London, 1926.
- Archer, T.A. «On the Accession Dates of the Early Kings of Jerusalem», *English Historical Review*, IV (1889), 89; 105.
- Auber, C.A., Abbé. *Histoire générale civile, religieuse, et littéraire du Poitou*. 9 vols. Fontenay-le-Comte, 1885 - 1893.
- Baldwin, M.W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (1140 - 1187)*. Princeton, 1936.
- Beaumont, A.A., Jr. «Albert of Aachen and the County of Edessa», *The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro*, pp. 101 - 38. New York, 1928.
- Beazley, C.R. *The Dawn of Modern Geography*. 3 vols. London, 1897 - 1906.
- Beha ed-Din. *The Life of Saladin (1137 - 1193 A.D.)*. Trans. by C.W. Wilson; rev. by C.R. Conder. London, 1897. Palestine Exploration Fund, Publications.
- Bongars, J., ed. *Gesta Dei per Francos*. 2 vols. in one. Hanover, 1611.
- Bréhier, L. *L'Eglise et l'Orient au moyen âge*. 5 th ed. Paris, 1928.
- Byrne, E. H. «The Genoese Colonies in Syria», *The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro*, pp. 139 - 82. New York, 1928.
- Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries. Cambridge, 1930. Mediaeval Academy of America, Monograph I.
- «Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century», *American Historical Review*, XXV (1919 - 20), 191 - 219.
- Cambridge Medieval History, The. 8 vols. London and New York, 1911 - 1936.
- Chalandon, F. *Les Comnène; études sur l'empire byzantin au XIe et XIIe siècles*. Vol. I: *Essai sur le règne d'Alexis Ier Comnène (1081 - 1118)*. Paris, 1900. Société de l'Ecole des chartes, Mémoires et documents, Vol. IV.
- Vol. II: *Jean II Comnène (1118 - 1143) et Manuel I Comnène (1143 - 1180)*. Paris, 1912.
- Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile*. 2 vols. Paris, 1907.
- Chalandon, F. (*Continued*) *Histoire de la première croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon*. Paris, 1925.
- Chartrou, Joseph. *L'Anjou de 1109 à 1511*. Paris, 1928.
- Chevalier, U. *Répertoire des sources historiques du moyen âge: Bio-bibliographie*, New ed. 2 vols. Paris, 1905 - 1907.
- Colvin, Mary Noyes, ed. *Godeffroy of Boloyn; or, The Siege and Conquest of Jerusalem*, by William, Archbishop of Tyre. Translated from the French by William Caxton and Printed by Him in 1481. London, 1893. Early English Text Society, Extra Series, Vol. LXIV.
- Corpus Juris Civilis*, ed. by P. Kreuger and T. Mommsen, Vol. I. Berlin, 1882.

- (1101 - 1118)», *Revue de l'Orient latin*, IX (1902), 384 - 465; X (1903 - 4), 372 - 405; XI (1905 - 8), 145 - 80, 453 - 85; XII (1909 - 11), 68 - 103, 283 - 326. Incomplete.
- Peter der Eremit. Leipzig, 1879.
- Hagenmeyer, H., ed. *Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum*. Heidelberg, 1890.
- Ekkehardi Uraugiensis abbatis Hierosolymita. Tübingen, 1877.
- Epistulae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes quae supersunt aevo aequalis ac genuinae. Innsbruck, 1901.
- Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana (1095 - 1127). Heidelberg, 1913.
- Galterii Cancellarii bella Antiochena. Innsbruck, 1896.
- Halphen, L. *Le Comté d'Anjou au XIe siècle*. Paris, 1906.
- Haskins, C.H. *The Normans in European History*. Boston and New York, 1915.
- The Renaissance of the Twelfth Century*. Cambridge, 1927.
- Hefele, H., trans. Albert von Aachen, *Geschichte des ersten Kreuzzugs*. 2 vols. Jena, 1923.
- Heyd, W. von. *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge*. Ed. and trans. by Furcy Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885 - 1886.
- Hildt, J.C. «The Ministry of Stephen of Perche during the Minority of William II of Sicily», *Smith College Studies in History*, III (1918), 139 - 86.
- Hitti, P.K. *History of the Arabs*. 2d ed. London, 1940.
- Hitti, P.K., trans. *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades; Memoirs of Usamah ibn-Munqidh*. New York, 1929. *Records of Civilization, Sources and Studies*.
- Husseini, S.A.S. «Inscription of the Khalif El-Mustansir Billah 458 A.H. (= A.D. 1065)», *Palestine, Department of Antiquities Quarterly*, IX (1942), 77 - 80.
- Iskenderian, Galust Ter-Grigorian. *Die Kreuzfahrer und ihre Beziehungen zu den armenischen Nachbarfürsten bis zum Untergange der Grafschaft Edessa*. Weida. i. Th., 1915.
- Joranson, E. «The Alleged Frankish Protectorate in Palestine», *American Historical Review*, XXXII (1926 - 27), 241 - 61.
- «The Great German Pilgrimage of 1064 - 1065», *The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro*, pp. 3 - 43. New York, 1928.
- «The Palestine Pilgrimage of Henry the Lion», *Medieval and Historiographical Essays in Honor of James Westfall Thompson*, pp. 146 - 225. Chicago, 1938.
- King, E.J. *The Knights Hospitallers in the Holy Land*. London, 1931.
- Klein, C. *Raimund von Aguilers*. Berlin, 1892.
- Knappen, M.M. «Robert II of Flanders in the First Crusade», *The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro*, pp. 79 - 100. New York, 1928.
- Kohler, C. «Chartes de l'Abbaye de Notre-Dame de la Vallée de Josaphat en Terre-Sainte (1108 - 1291)», *Revue de l'Orient latin*, VII (1899), 108 - 222.
- Kretschmayr, H. *Geschichte von Venedig*. 3 vols. Gotha, 1905 - 1934.
- Krey, A.C. «A Neglected Passage in the Gesta», *The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro*, pp. 57 - 78. New York, 1928.
- «William of Tyre: The Making of a Medieval Historian», *Speculum*, XVI (1941), 149 - 66.
- Krey, A.C., trans. *The First Crusade*. Princeton, 1921.

- David, C.W. Robert Curthose, Duke of Normandy. Cambridge, 1920. Harvard Historical Studies, Vol. XXV.
- Dawes, Elizabeth A.S., trans. The Alexiad of the Princess Anna Comnena. London, 1928.
- Delisle, L., ed. Chronique de Robert de Torigni, abbé du Mont-Saint-Michel. 2 vols. Rouen, 1872 - 1873.
- Diehl, C. Figures byzantines, 2d Series: Byzance et l'Occident à l'époque des croisades. 3d ed. Paris, 1909.
- DuCange, Charles du Fresne, Sieur. Les Familles d'outre-mer. Paris, 1869. Collection de documents inédits sur l'histoire de France.
- Duncalf, F. «The Peasant' Crusade», *American Historical Review*, XXVI (1920 - 21), 440 - 53.
- «The Pope's Plan for the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 44 - 56. New York, 1928.
- Duncalf, F., and A. C. Krey. Parallel Source Problems in Medieval History. New York and London, 1912.
- Dussaud, R. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris, 1927. Haut-commissariat de la République Française en Syrie et au Liban. Service des antiquités et des beaux-arts. Bibliothèque archéologique et historique, Vol. IV.
- Eginhard. «Annales Laurissenses et Einhardi», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, I, 124 - 218. Hanover, 1836.
- «Vita Karoli Imperatoris», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, II, 426 - 63. Hanover, 1829.
- Emerton, E. Mediaeval Europe (814 - 1300). Boston, 1894.
- Fliche, A. Le Règne de Philippe Ier, roi de France, 1060 - 1108. Paris, 1912.
- Funk, P. Jakob von Vitry, Leben und Werke. Leipzig and Berlin, 1909. Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance, H. 3.
- Gibb, H.A.R., trans. The Damascus Chronicle of the Crusades; Extracted and Translated from the Chronicle of ibn al-Qalanisi. London, 1932. University of London Historical Series, Vol. V.
- Gibbon, E. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. by J.B. Bury. 7 vols. London, 1896 - 1900.
- Gindler, P. Graf Balduin I von Edessa. Halle, 1901.
- Giry, A. «Les Châtelains de Saint-Omer (1042 - 1386)», Bibliothèque de l'Ecole des chartes, XXXV (1874), 325 - 55.
- Gjerret, K. History of the Norwegian People, Vol. I. New York, 1915.
- Gregorovius, F.A. History of the City of Rome in the Middle Ages. Trans. by Lady Hamilton. 8 vols. in 13. London, 1894 - 1902.
- Gröber, G. Grundriss der romanischen Philologie. 2d ed. 2 vols. Strassburg, 1904 - 1914.
- Grousset, R. Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem. 3 vols. Paris, 1934 - 1936.
- Hagenmeyer, H. «Chronologie de la première croisade (1094 - 1100)», *Revue de l'Orient latin*, VI (1898), 214 - 93, 490 - 549; VII (1899), 275 - 339, 430 - 503; VIII (1900 - 1901), 318 - 82.
- «Chronologie de l'histoire du royaume de Jérusalem, règne de Baudouin I

- Mommsen, T., ed. C. Julii Solini collectanea rerum memorabilium. Berlin, 1864.
- Morris, W. Britain and the Holy Land Prior to the Third Crusade. Unpublished Ph.D. thesis, University of Minnesota, 1940.
- Munro, Dana C. «Did the Emperor Alexius I Ask for Aid at the Council of Piacenza, 1095?» *American Historical Review*, XXVII (1921 - 22), 731 - 33.
- The Kingdom of the Crusaders. Student's, ed. New York, 1935.
- «The Speech of Pope Urban II. at Clermont, 1095», *American Historical Review*, XI (1905 - 6), 231 - 42.
- Munro, Dana C., and others. Essays on the Crusades Burlington, Vt., 1903.
- Muratori, L.A., ed. Rerum Italicarum scriptores ab anno aerae Christianae 500 ad 1500. 25 vols. in 28. Milan, 1723 - 1751; new ed. 1900. References are to the original edition.
- Nicholson, R.L. Tancred. Chicago, 1940.
- Norgate, Kate. England under the Angevin Kings. 2 vols. London and New York, 1887.
- Oman, Charles. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. London, 1924.
- Ordericus Vitalis. The Ecclesiastical History of England and Normandy. Trans. by Thomas Forester. 4 vols. London, 1853 - 1856.
- Pantaleon H., ed. Historia belli sacri verissima... authore olim Willelmo Tyrio... una cum continuatione... Cum praefatione Henrici Pantaleonis atque ipsius authoris vita. Basel, 1564.
- Paris, P. Guillaume de Tyre et ses continuateurs. 2 vols. Paris, 1879.
- Pastoret, Claude. «Guillaume de Tyr», Histoire littéraire de la France, XIV (1817), 587 - 96.
- Pocock, Edward, ed. Contextio gemmarum, sive Eutychii... annales... interprete Edwardo Pocockio. Arab. & Lat. Oxford, 1650.
- Potthast, A. Bibliotheca historica medii aevi. 2d ed. 2 vols. Berlin, 1896.
- Preston, Helen G. Rural Conditions in the Kingdom of Jerusalem during the Twelfth and Thirteenth Centuries. Philadelphia, 1903.
- Prutz, Hans. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin, 1888.
- Die geistlichen Ritterorden; ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen, und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin, 1908.
- Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883.
- «Studien über Wilhelm von Tyrus», Gesellschaft für ältere deutsche Geschichtskunde, *Neues Archiv*, VIII (1882), 93 - 132.
- Rashdall, H. The Universities of Europe in the Middle Ages. 2 vols. in 3. Oxford 1805.
- Recueil des historiens des croisades. 16 vols. Paris, 1841 - 1906.
- Documents arméniens, 2 vols.
- Historiens grecs, 2 vols.
- Historiens occidentaux, 5 vols.
- Historiens orientaux, 5 vols.
- Lois, assises de Jérusalem, 2 vols.
- Rey, E.G. Les Colonies franques de Syrie aux XII^{me} et XIII^{me} siècle. Paris, 1883.
- Riant, Paul, Comte. Expéditions et pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au temps

- Kugler, B. Albert von Aachen. Stuttgart, 1885.
 Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1878.
 Analekten zur Kritik Albert's v. Aachen. Tübingen, 1888.
 Geschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1880.
 Neue Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1883.
 Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Stuttgart, 1866. La Monte, J.L.
 Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291. Cambridge.
 1932. Mediaeval Academy of America, Monography IV.
 «Rise and Decline of a Frankish Seigneury in Syria in the Time of the
 Crusades», *Revue historique du Sud-Est Européen*, Année XV (1938), pp. 301 - 20.
 «Some Problems in Crusading Historiography», *Speculum*, XV (1940), 57 - 75.
 «The Viscounts of Naplouse in the Twelfth Century», *Syria*, XIX (1938), 272 -
 78.
 «The Lords of Le Puiset on the Crusades», *Speculum*, XVII (1942), 100 - 18.
 Lane-Poole, S. The Mohammedan Dynasties. Westminster. 1894.
 Lawrence, T.E. Crusader Castles. 2 vols. London. 1936.
 Revolt in the Desert. New York, 1927.
 Lees, Beatrice A., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Ox-
 ford, 1924.
 Records of the Templars in England in the Twelfth Century. London, 1935. British
 Academy, Records of the Social and Economic History of England and Wales, Vol. IX.
 Le Quien, M. Oriens Christianus. 3 vols. Paris, 1740.
 Luard, H.R., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, chronica majora. 7 vols.
 1872 - 1883.
 Luchaire, A., ed. Louis VI le Gros: annales de sa vie et de son règne, 1081 - 1137.
 Paris, 1890.
 Lundgreen, F. Wilhelm von Tyrus und der Templerorden. Berlin, 1911. Historische
 Studien, H. XCVII.
 «Das Jerusalem des Wilhelm von Tyrus, und die Gegenwart», *Neue kirchliche
 Zeitschrift*, XX (1909), 973 - 92.
 Madden, F., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, historia Anglorum, sive, ut
 vulgo dicitur, historia minor. 3 vols. London, 1866 - 1869.
 Manitius, M. Deutsche Geschichte unter den sächsischen und salischen Kaisern, 911 -
 1125. Stuttgart, 1889.
 Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters. 3 vols. Munich, 1911 -
 1938.
 Mansi, J.D., and others, eds. Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio. 53 vols.
 Paris, etc., 1759 - 1927.
 Mas Latrie, L. de. «Essai de classification des continuateurs de l'histoire des croisades de
 Guillaume de Tyr», *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, XXI (5 th ser., Vol. I; 1860),
 38 - 72, 140 - 78.
 Mas Latrie, L. de., ed. Chronique d'Ernoult et de Bernard le Trésorier. Paris, 1871.
 Merriman, R.B. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and the New. 4 vols.
 New York, 1918 - 1934.
 Michaud, J.F., ed. Bibliothèque des croisades. 2d ed. 4 vols. Paris, 1829 - 1830.
 Molinier, A. Les Sources de l'histoire de France des origines aux guerres d'Italie. 6 vols.

des croisades. Paris, 1865.

«Inventaire sommaire des manuscrits de l'Eracles», *Archives de l'Orient latin*, I (1881), 247-56.

Röhrich, R. Die Deutschen im Heiligen Lande. Innsbruck, 1894.

Geschichte des ersten Kreuzzuges. Innsbruck, 1901.

Geschichte des Königreichs Jerusalem, 1100 - 1291. Innsbruck, 1898.

Röhrich, R. ed. Regesta regni Hierosolymitani, 1097 - 1291. Innsbruck, 1893.

Regesta regni Hierosolymitani, 1097 - 1291. Additamentum. Innsbruck, 1904.

Rozière, E. de, ed. Cartulaire de l'église du Saint Sépulchre de Jérusalem. Paris, 1840.

Salloch, Marianne. Die lateinische Fortsetzung Wilhelms von Tyrus. Greifswald, 1934.

Salmon, F.J., comp. Palestine of the Crusades: a Map of the Country. Pub. by Palestine Exploration Fund. Jaffa, 1937.

Schlumberger, G.L. Renaud de Châtillon. Paris, 1898.

Siedschlag, Beatrice N. English Participation in the Crusades, 1150 - 1220. Menasha, Wis., 1939.

Simonsfeld, H. Jahrbücher des deutschen Reiches unter Friederich I. Vol. I: 1152 - 1158. Leipzig, 1908.

Spinka, M. «The Effect of the Crusades upon Eastern Christianity». Environmental Factors in Christian History, ed. by J.T. McNeill and others, pp. 252-85. Chicago, 1939.

Steenstrup, J.C.H. and others. Danmarks Riges Historie. Vols. I-VI. Copenhagen, 1896-1907.

Stevenson, W.B. The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sybel, H. von. Geschichte des ersten Kreuzzugs. Düsseldorf, 1841: 2d ed., Leipzig, 1881.

Thorndike, L. A History of Magic and Experimental Science in the Middle Ages, Vols. I-II. New York, 1923.

Tiedau, W. Geschichte der Chanson d'Antioche des Richard le Pèlerin und des Graindor de Douay. Göttingen, 1912.

Vacandard, E. Vie de Saint Bernard, abbé de Clairvaux. 3d ed. 2 vols. Paris, 1902.

Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. Trans. by Mrs. S. Raggin. 2 vols.

Madison, Wis., 1928-1929. Wisconsin Studies in the Social Sciences and History, nos. 13-14.

Wiet, G. L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane, 642 - 1517 de l'ère chrétienne. Paris, 1937. Vol. IV of Gabriel Hanotaux, ed., Histoire de la nation égyptienne.

Wilken, F. Geschichte der Kreuzzüge nach morgenländischen und abendländischen Berichten. 7 vols. Leipzig, 1807-1832.

Yewdale, R.B. Bohemond I. Prince of Antioch. Princeton, 1924.

Zacher, Gustav, ed. Die Historia orientalis des Jacob von Vitry. Königsberg, 1885.

المحتوى

- ٢ - نوطنة
- ٧ - رحلة لويس السابع الى الشرق
- ٩ - رسالة اودو الى سوكر
- ١١ - بداية الكتاب الاول
- ١٨ - بداية الكتاب الثاني
- ٣٠ - بداية الكتاب الثالث
- ٥٢ - بداية الكتاب الرابع
- ٥٥ - بداية الكتاب الخامس
- ٦٥ - بداية الكتاب السادس
- ٧٧ - بداية الكتاب السابع
- ٩٢ - من تاريخ وليم الصوري
- ٩٤ - تحرك الناس في الغرب
- ٩٦ - امبراطور المانيا يتوجه نحو الشرق
- ٩٨ - ماواجه الامبراطور من مشاكل
- ١٠٠ - الادلاء يتخلون عن الامبراطور
- ١٠٢ - ملك فرنسا يعبر اليوسفور
- ١٠٧ - ملك فرنسا يتابع مسيرة نحو المسوس
- ١٠٩ - الجيش الفرنسي يعاني من هزيمة
- ١١١ - نجاة الملك
- ١١٤ - امير انطاكية يستقبل الملك الفرنسي
- ١١٦ - وصول الامبراطور كونراد الى سورية
- ١١٧ - ملك فرنسا يغادر انطاكية
- ١٢٠ - الكتاب السابع عشر - الاستيلاء على عسقلان
- ١٢٠ - عقد اجتماع عام في عكا
- ١٢٢ - القرار بحصار دمشق
- ١٢٣ - وصف اوضاع دمشق
- ١٢٦ - الفرنجة يشقون طريقهم وسط بساتين دمشق
- ١٢٨ - قنوط اهل دمشق
- ١٣٠ - انعدام الطعام في المعسكر
- ١٣١ - مسؤولية الخيانة في حصار دمشق
- ١٣٤ - عودة الامبراطور كونراد
- ١٣٥ - نور الدين يحتاج منطقة انطاكية
- ١٣٧ - نور الدين يعامل المنطقة حسب هواه
- ١٤٠ - وقوع كونت الرها بالاسر
- ١٤١ - اعانة بناء غزة
- ١٤٣ - نزاع بين الملك ووالده

- ١٤٥ - تقاسيم المملكة بين الام والابن
- ١٤٧ - سلطان قونية يجتاح منطقة الرها
- ١٤٩ - امبراطور الاسطنتينية يرسل جيشا الى انطاكية
- ١٥١ - نور الدين يصطدم بالملك
- ١٥٤ - مشاكل انطاكية
- ١٥٦ - اجتماع الملك بوالنق
- ١٥٧ - جيش ارتلي يزحف نحو القدس
- ١٦٠ - عودة الملك الى عسقلان
- ١٦٤ - بدء حصار عسقلان
- ١٦٥ - قدوم جماعات من الصحاح
- ١٦٨ - وصول الاسطول المصري الى عسقلان
- ١٦٩ - زواج اميرة انطاكية من ارناط
- ١٧١ - اخيار حصار عسقلان
- ١٧٤ - متابعة حصار عسقلان
- ١٧٧ - استسلام عسقلان
- ١٧٨ - ارسال وفد من عسقلان الى الملك
- ١٨٢ - الكتاب الثامن عشر - القدس في ظل بلدوين الثالث
- ١٨٢ - ارناط يسيء معاملة بطريرك انطاكية
- ١٨٤ - اختيار هارديان بابا جديد
- ١٨٦ - خلاف بين البطريرك والاسبتارية
- ١٨٩ - اصل الاسبتارية
- ١٩٠ - الامالقيون وبناء كنيسة لهم
- ١٩٣ - البطريرك يذهب الى روما
- ١٩٥ - امبراطور القسطنطينية يغزو ابوليا
- ١٩٧ - البابا هارديان يذهب الى بنفنتو
- ١٩٩ - وقوع ثورة في مصر
- ٢٠١ - ارناط يستولي على قبرص
- ٢٠٣ - الملك يفرق المعاهدة مع المسلمين
- ٢٠٥ - الاسبتارية يناهون نهدف بانثياس
- ٢٠٧ - الملك يقدم الى بانثياس
- ٢١٠ - الملك يفر من ميدان المعركة
- ٢١٢ - نور الدين يحاصر بانثياس
- ٢١٤ - وصول كونت فلاندرز
- ٢١٥ - الملك يذهب الى انطاكية
- ٢١٧ - حصار شيزر
- ٢٢٠ - اخو نور الدين يتحرك نحو الفرنجة
- ٢٢٣ - اختيار امالك بطريركا
- ٢٢٤ - نور الدين يحاصر كهفا في منطقة الاسود
- ٢٢٦ - زواج الملك
- ٢٢٨ - قدوم امبراطور القسطنطينية الى انطاكية
- ٢٣٢ - دخول الامبراطور الى انطاكية

- ٣٥١٦ -

- ٢٣٤ - شقاق في كنيسة روما
- ٢٣٥ - نور الدين يحتاج بلاد سلطان قونية
- ٢٣٧ - اسر ارناط
- ٢٣٩ - قدوم ممثل البابا الى سورية
- ٢٤١ - اهالي انطاكية يستدعون الملك
- ٢٤٣ - اختيار عروس للامبراطور
- ٢٤٦ - اعادة بناء حصن جسر الحديد
- ٢٤٧ - المشاكل بين كوفت طرابلس والقسطنطينية
- ٢٤٨ - دس الاسم للملك
- ٢٥١ - الكتاب التاسع عشر - عموري الاول
- ٢٥١ - عموري ملكا للقدس
- ٢٥٢ - سمات عموري
- ٢٥٥ - صفات عموري الجنسية
- ٢٥٧ - عموري يطلق زوجته
- ٢٥٩ - الملك يهبط الى مصر
- ٢٦١ - موت بطرس رئيس اساقفة صور
- ٢٦٢ - مقتل ضرغام
- ٢٦٣ - هزيمة نور الدين حول طرابلس
- ٢٦٤ - نور الدين يحاصر قلعة حارم
- ٢٦٧ - نور الدين يحاصر بانياس
- ٢٦٩ - نهاب الملك الى انطاكية
- ٢٧٢ - عونة المؤلف الى موطنه
- ٢٧٢ - توجه شيركوه الى مصر
- ٢٧٤ - الملك يلاحق شيركوه
- ٢٧٥ - وصف القاهرة
- ٢٧٦ - الملك يزحف للقاء شيركوه
- ٢٧٨ - شاور يجند المعاهدة مع الملك
- ٢٧٩ - ارسال رسل الى خلافة مصر
- ٢٨٢ - اسباب دعوة امير مصر باسم مولانا
- ٢٨٤ - اسباب تسعيته خليفة
- ٢٨٦ - الملك يبني جسرا فوق النيل
- ٢٩١ - مصر ومعالمها المميزة
- ٢٩٣ - نشوب معركة بين الملك وشيركوه
- ٢٩٧ - انسحاب شيركوه الى الاسكندرية
- ٢٩٩ - وصف موقع الاسكندرية
- ٣٠١ - حصار الاسكندرية
- ٣٠٤ - شيركوه يبحث شؤون السلام
- ٣٠٥ - ترتيب شروط المعاهدة
- ٣٠٧ - استسلام الاسكندرية للملك
- ٣٠٨ - عونة الملك منتحرا
- ٣١٠ - الكتاب العشرون - الصراع على مصر
- ٣١٠ - تتويج الملك عموري

- ٣٥١٧ -

- ٣١١ - نزل ارملة بلدوين الثالث الى ارض العدو
- ٣١٢ - بناء كنيسة في البتراء
- ٣١٤ - وصول مبعوثين من عند الامبراطور
- ٣١٦ - الملك يتوجه الى مصر
- ٣١٨ - حصار بلبيس
- ٣٢٠ - الملك يعسكر امام القاهرة
- ٣٢١ - اسطولنا يبحر في النيل
- ٣٢٣ - وصول شيركوه
- ٣٢٥ - استيلاء شيركوه على مصر
- ٣٢٧ - صلاح الدين يخلف عمه
- ٣٢٨ - تعيين برنارد رئيسا للكنيسة اللد
- ٣٣٠ - الامبراطور يرسل اسطوله الى سورية
- ٣٣١ - الملك يتوجه الى مصر
- ٣٣٣ - الملك يحاصر دمياط
- ٣٣٦ - رفع الحصار عن دمياط
- ٣٣٩ - إلغاء الحملة
- ٣٤١ - زلزال كبير يهز المشرق
- ٣٤٣ - صلاح الدين يغزو اراضيها
- ٣٤٥ - الملك يحاول التصدي لصلاح الدين
- ٣٤٨ - عونة صلاح الدين
- ٣٥٠ - الملك يزور الاسطنطينية
- ٣٥٣ - الملك مع الامبراطور
- ٣٥٦ - عونة الملك
- ٣٥٧ - الملك يحشد الجيش في الصفورية
- ٣٦٠ - صالح الارمني ينضم الى نور الدين
- ٣٦٣ - صلاح الدين يحاصر الكرك
- ٣٦٤ - اخبار حملة صلاح الدين
- ٣٦٦ - فرقة الحشيشة
- ٣٦٨ - فرسان النابوية والحشيشة
- ٣٧٠ - موت نور الدين
- ٣٧٢ - الكتاب الحادي والعشرون - بلدوين المجذوم
- ٣٧٢ - بداية حكم بلدوين الرابع
- ٣٧٤ - تاريخ ترسيمة وتنويجه
- ٣٧٥ - هزيمة اسطول صقلية امام الاسكندرية
- ٣٧٦ - مقتل ميلون دي بلاندي
- ٣٧٨ - وصف كونت طرابلس
- ٣٨٠ - استيلاء صلاح الدين على دمشق
- ٣٨٢ - لماذا اصبح العدو اكثر قوة
- ٣٨٦ - حاكم الموصل يقدم لمساعدة حلب
- ٣٨٨ - موت اسقف بيروت
- ٣٨٩ - الملك يغزو اراضي دمشق
- ٣٩٠ - الملك يجتاح بلاد العدو

- ٣٥١٨ -

- ٣٩٢ - هزيمة امبراطور القسطنطينية
- ٣٩٤ - وصول وليم الاصغر
- ٣٩٥ - وصل كونت فلاندرز
- ٣٩٧ - موافق كونت فلاندرز
- ٣٩٩ - وصول رسل امبراطور القسطنطينية
- ٤٠١ - معارضة كونت فلاندرز للحملة ضد مصر
- ٤٠٣ - عونة رسل الامبراطور الى بلادهم
- ٤٠٥ - كونت فلاندرز يحاصر حارم
- ٤٠٦ - وصول صلاح الدين من مصر
- ٤٠٨ - وصول صلاح الدين من مصر
- ٤٠٨ - الاتراك يجتاحون البلاد
- ٤١٠ - الملك ينطلق من عسقلان
- ٤١١ - هزيمة صلاح الدين
- ٤١٤ - جو عاصف وبرد غريب
- ٤١٦ - رفع الحصار عن حارم
- ٤١٨ - الاعلان على عقد مؤتمر مجمع كنسي في روما
- ٤٢١ - الملك يتكبد خسارة كبيرة
- ٤٢٣ - صلاح الدين يغزو اراضي صيدا
- ٤٢٥ - المسيحيون ينهزمون
- ٤٢٧ - صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا
- ٤٣٠ - الكتاب الثاني والعشرون تضارب المصالح
- ٤٣٠ - الملك يزوج اخته لفي لوثرنفنان
- ٤٣١ - صلاح الدين يغزو بلاد طرابلس
- ٤٣٢ - وصل اسطول مصري الى ارواد
- ٤٣٣ - عونة رئيس اساقفة صور
- ٤٣٦ - الملك يزوج اخته الصغرى
- ٤٣٩ - اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد امير انطاكية
- ٤٤١ - ارسال بطريرك القدس الى انطاكية
- ٤٤٣ - موت ابن نور الدين
- ٤٤٦ - نشوب خلاف بين كونت طرابلس والملك
- ٤٤٧ - حدوث ثورة في القسطنطينية
- ٤٤٩ - اسباب الثورة
- ٤٥٠ - اندرونيكوس يقتل النبلاء
- ٤٥٣ - ردات فعل اللاتين
- ٤٥٥ - صلاح الدين يلقي المعاهدة مع الملك
- ٤٥٨ - صلاح الدين يستولي على احد معاقلنا
- ٤٦١ - صلاح الدين يستولي على احد معاقلنا
- ٤٦١ - صلاح الدين يغزو اراضيها
- ٤٦٥ - صلاح الدين يحاصر بيروت
- ٤٦٧ - الملك يصل الى صور
- ٤٧٠ - صلاح الدين يعبر الفرات
- ٤٧٢ - الملك يعيث فسادا في اراضي الدمشقيين

- ٣٥١٩ -

- ٤٧٤ - المسيحيون يحاصرون القلعة التي استولى عليها صلاح الدين
- ٤٧٧ - الملك يغزو اراضي الدمشقيين
- ٤٧٩ - القيام باحصاء المملكة
- ٤٨٣ - صلاح الدين يحاصر حلب
- ٤٨٦ - اصابة الملك بمرض خطير
- ٤٨٨ - صلاح الدين يغزو اراضيها
- ٤٩١ - انتشار مجاعة رهيبه في جيشنا
- ٤٩٤ - صلاح الدين يحاصر البتراء
- ٤٩٧ - الملك يعزل كونت يافا
- ٥٠٠ - الملك يحشد قواته ويسرع عبر الاردين
- ٥٠٣ - الكتاب الثالث والعشرون - هل يمكن انقاذ القدس
- ٥٠٥ - اندلاع العداوة بين الملك وكونت يافا
- ٥٠٩ - الحواشي
- ٥٥٣ - المصادر